

الرحيق المختوم

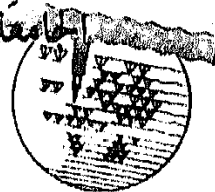
بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام

تأليف

فضيلة الشيخ

صفي الرحمن المباركفوري

الجامعة السلفية - الهند



297,63

م ج ٢

البحث الفائز بالجائزة الأولى لمسابقة السيرة النبوية

التي نظمتها رابطة العالم الإسلامي والجامعة مكتبة الإسكندرية

رقم الوثيقة	297.63
رقم التسجيل	١٨٨٠١



29/12/2014
الرجوع إلى
✓

الرجوع إلى المختوم

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم



رقم الوثيقة: ١٢٣٤٥٦٧٨٩
تاريخ: ١٤٢٥/١٠/١٠
ملاحظات:

كلمة

معالي الشيخ محمد على الحر كان الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي

الحمد لله رب العالمين ، خالق السموات والأرض ، وجاعل الظلمات والنور ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والرسل أجمعين ، بشر وأنذر ، ووعد وأوعد ، أنقذ الله به البشر من الضلالة ، وهدى الناس إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ، وبعد :

فلما أعطى الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ الشفاعة والدرجة الرفيعة ، وهدى المسلمين إلى محبته ، وجعل اتباعه من محبته تعالى فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ ، فكان هذا من الأسباب التي صيرت القلوب تهفو إلى محبته ﷺ ، وتلمس الأسباب التي توثق الصلة فيما بينها وبينه ﷺ ، فمنذ فجر الإسلام والمسلمون يتسابقون إلى إبراز محاسنه ونشر سيرته العطرة ، وسيرته ﷺ هي أقواله وأفعاله وأخلاقه الكريمة ، فقد قالت السيدة عائشة زوج النبي ﷺ ورضي الله عنها « كان خلقه القرآن » ، والقرآن كتاب الله وكلماته التامة ، ومن كان كذلك كان أحسن الناس وأكملهم وأحقهم بمحبة خلق الله جميعاً .

ولم يزل المسلمون متمسكين بهذه المحبة الغالية التي انبثق عنها المؤتمر الإسلامي الأول للسيرة النبوية الشريفة الذي عقد بباكستان سنة ١٣٩٦ هـ ، حيث أعلنت الرابطة في هذا المؤتمر عن جوائز مالية مقدارها مائة وخمسون ألف ريال سعودي ، توزع على أحسن خمسة بحوث في السيرة النبوية بالشروط الآتية :

- ١ - أن يكون البحث متكاملًا مع ترتيب الحوادث التاريخية حسب وقوعها .
- ٢ - أن يكون جيدًا ولم يسبق نشره من قبل
- ٣ - أن يذكر الباحث جميع المخطوطات والمصادر العلمية التي اعتمد عليها في كتابة البحث .
- ٤ - أن يكتب الباحث ترجمة كاملة ومفصلة عن حياته ، مع ذكر مؤهلاته العلمية ومؤلفاته إن وجدت .
- ٥ - أن يكتب البحث بخط واضح ، ويستحسن نسخه على الآلة الكاتبة .
- ٦ - تقبل البحوث باللغة العربية واللغات الحية الأخرى .

٧ - يبدأ قبول البحوث من غرة ربيع الثاني ١٣٩٦ هـ ، وينتهي موعد القبول بغرة محرم ١٣٩٧ هـ .

٨ - تسلم البحوث إلى الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة في ظرف مختوم ، وتضع الأمانة عليه رقما تسلسليا خاصا .

٩ - تقوم بفحص البحوث لجنة عليا من كبار العلماء في هذا الشأن .

فكان هذا الإعلان حافزا لتسابق العلماء الذين وهبهم الله حب رسوله ﷺ ، واستعدت رابطة العالم الإسلامي لاستقبال هذه البحوث باللغات العربية والإنجليزية والأردية وأية لغة أخرى .

وبدأ الإخوان الكرام في إرسال بحوثهم بهذه اللغات ، وقد بلغ عددها واحدا وسبعين ومائة بحث منها :

٨٤ بحثا باللغة العربية ، ٦٤ بحثا باللغة الأردنية ، ٢١ بحثا باللغة الإنجليزية ، وبحث واحد فقط باللغة الفرنسية ، وبحث واحد فقط باللغة الهوساوية .

وقد كونت الرابطة لجنة من كبار العلماء لدراسة هذه البحوث وترتيبها حسب استحقاق الفائز للجائزة ، وقد كان الفائزون بالجوائز حسب الترتيب الآتي :

١ - الفائز بالجائزة الأولى الشيخ صفى الرحمن المباركفوري من الجامعة السلفية بالهند ، مقدار جائزته خمسون ألف ريال سعودي .

٢ - الفائز بالجائزة الثانية الدكتور مجيد على خان من الجامعة المحلية الإسلامية نيودلهي الهند ، ومقدار جائزته أربعون ألف ريال سعودي .

٣ - الفائز بالجائزة الثالثة الدكتور نصير أحمد ناصر رئيس الجامعة الإسلامية بباكستان ، ومقدار جائزته ثلاثون ألف ريال سعودي .

٤ - الفائز بالجائزة الرابعة الأستاذ حامد محمود منصور ليمود من جمهورية مصر العربية ، ومقدار جائزته عشرون ألف ريال سعودي .

٥ - الفائز بالجائزة الخامسة الأستاذ عبد السلام هاشم حافظ من المدينة المنورة / المملكة العربية السعودية ، ومقدار جائزته عشرة آلاف ريال سعودي .

وقد أعلنت الرابطة أسماء الفائزين في المؤتمر الإسلامي الآسيوي الأول الذي عقد في كراتشي في شهر شعبان سنة ١٣٩٨ هـ . كما أعلن عن ذلك في جميع الصحف .

وبهذه المناسبة أقامت الأمانة العامة للرابطة بمقرها بمكة المكرمة حفلاً كبيراً ، تحت إشراف صاحب السمو الملكي الأمير سعود بن عبد المحسن بن عبد العزيز ، وكيل إمارة منطقة مكة المكرمة ، نيابة عن صاحب السمو الملكي الأمير فواز بن عبد العزيز أمير منطقة مكة المكرمة ، حيث تفضل سموه بتوزيع الجوائز على أصحابها ، وذلك صباح يوم السبت الموافق ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٩٩ هـ

وفي هذا الحفل أعلنت الأمانة العامة أنها ستقوم بطبع البحوث الفائزة ونشرها بعدة لغات ، وتنفيذاً لذلك هاهي ذى تضع بين يدي القارئ الكريم باكورة طبعات تلك البحوث ، وهو بحث الشيخ صفى الرحمن المباركفوري ، من الجامعة السلفية بالهند لأنه الفائز بالجائزة الأولى ، وستوالي طبع بقية البحوث الفائزة حسب ترتيبها ، سائلين الله سبحانه وتعالى أن يتقبل منا جميعاً أعمالنا خالصة لوجهه الكريم ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الأمين العام

لرابطة العالم الإسلامي

محمد بن علي الحركان

* * *

كلمة المؤلف

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، فجعله شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وجعل فيه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً . اللهم صل وسلم وبارك عليه وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وفجر لهم ينابيع الرحمة والرضوان تفيضوا .

وبعد، فإن من دواعي الغبطة والسرور أن رابطة العالم الإسلامي أعلنت عقد مؤتمر السيرة النبوية الذي انعقد في باكستان في شهر ربيع الأول من سنة ١٣٩٦ هـ بإقامة مسابقة على مستوى العالم الإسلامي ، للبحث حول موضوع السيرة النبوية - على صاحبها ألف ألف صلاة وسلام - تنشيطاً للكاتبين ، وتنسيقاً لجهودهم الفكرية ، وإني أرى أن هذا العمل له قيمة كبيرة ربما لا يحيط بوصفها البيان . فإن السيرة النبوية والأسوة المحمدية على صاحبها ما يستحق من الصلاة والسلام - إذ لاحظناها بعين الدقة والاعتبار - هي المنبع الوحيد الذي تنفجر منه ينابيع حياة العالم الإسلامي وسعادة المجتمع البشري .

وإن من سعادتي وحسن حظي أن أساهم في تلك المسابقة المباركة ، ولكن أين أنا حتى ألقى ضوئاً على حياة سيد الأولين والآخرين ﷺ . وإنما أنا رجل يرى لنفسه كل السعادة والفلاح أن يقتبس من نوره ، حتى لا يتهالك في دياجير الظلمات ، بل يحيا وهو من أمته ، ويموت وهو من أمته ، ويغفر الله له ذنوبه بشفاعته . وكلمة بسيطة أرى أن أقدمها عن منهجي في مقالتي هذه : إني قبل أن آخذ في كتابة المقالة رأيت أن أضعها في حجم متوسط متجنباً التطويل الممل والإيجاز المخل ، ولكنني كثيراً ما رأيت في المصادر اختلافاً كبيراً في ترتيب الوقائع ، أو في تفصيل جزئياتها ، وفي مثل هذه المواقع قمت بالتحقيق البالغ ، وأدرت النظر في جميع جوانب البحث . ثم أثبت في صلب المقالة ما ترجح لدي بعد التحقيق . ولكن احترزت عن إيراد الدلائل والبراهين ؛ لأن ذلك يفضي إلى طول غير مطلوب . نعم ! ربما أشرت إلى الدلائل حين خفت الاستغراب ممن يقرأ المقالة ، أو حين رأيت عامة الكاتبين ذهبوا إلى خلاف الصحيح .

اللهم قدر لي الخير في الدنيا والآخرة ، إنك أنت الغفور الودود ذو العرش المجيد .

الجمعة المباركة ١٣٩٦/٧/٢٤ هـ - ١٩٧٦/٧/٢٣ م

صفى الرحمن المباركفوري

الجامعة السلفية

بنارس الهند

موقع العرب وأقوامها

إن السيرة النبوية - على صاحبها الصلاة والسلام - عبارة في الحقيقة عن الرسالة التي حملها رسول الله ﷺ إلى المجتمع البشري ، وأخرج بها الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله ، وإذن فلا يمكن إحضار صورتها الرائعة بتمامها إلا بعد المقارنة بين خلفيات هذه الرسالة وآثارها . ونظراً إلى ذلك تقدم فصلاً عن أقوام العرب وتطوراتها قبل الإسلام ، وعن الظروف التي بعث فيها محمد ﷺ .

موقع جزيرة العرب :

جزيرة العرب لغة : الصحارى والقفاز ، والأرض المجذبة التي لا ماء فيها ولا نبات . وقد أطلق هذا اللفظ منذ أقدم العصور على جزيرة العرب . كما أطلق على قوم قطنوا تلك الأرض ، واتخذوها موطناً لهم .

وجزيرة العرب يحدها غرباً البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء ، وشرقاً الخليج العربي وجزء كبير من بلاد العراق الجنوبية ، وجنوباً بحر العرب الذى هو امتداد لبحر الهند ، وشمالاً بلاد الشام وجزء من بلاد العراق على اختلاف فى بعض هذه الحدود ، وتقدر مساحتها ما بين مليون ميل مربع إلى مليون وثلاثمائة ألف ميل مربع .

والجزيرة لها أهمية بالغة من حيث موقعها الطبيعي والجغرافي ؛ فأما باعتبار وضعها الداخلى فهي محاطة بالصحارى والرمال من كل جانب ، ومن أجل هذا الوضع صارت الجزيرة حصناً منيعاً لا يسمح للأجانب أن يحتلوها ويسيطروا عليها سيظرتهم ونفوذهم . ولذلك نرى سكان الجزيرة أحراراً فى جميع الشئون منذ أقدم العصور ، مع أنهم كانوا مجاورين لإمبراطوريتين عظيمتين لم يكونوا يستطيعون دفع هجماتهما لولا هذا السد المنيع .

وأما بالنسبة إلى الخارج فإنها تقع بين القارات المعروفة فى العالم القديم . وتلتقى بها براً وبحراً . فإن ناحيتها الشمالية الغربية باب للدخول فى قارة أفريقية ، وناحيتها الشمالية الشرقية مفتاح لقارة أوربا ، والناحية الشرقية تفتح على أبواب العجم والشرق الأوسط والأدنى . وتقضى إلى الهند والصين ، وكذلك تلتقى كل قارة بالجزيرة بحراً ، وترسى سفنها وبواخرها على ميناء الجزيرة رأساً .

ولأجل هذا الوضع الجغرافي كان شمال الجزيرة وجنوبها مهبطاً للأمم ومركزاً لتبادل التجارة ، والثقافة ، والديانة ، والفنون .

أقوام العرب :

وأما أقوام العرب فقد قسمها المؤرخون إلى ثلاثة أقسام بحسب السلالات التي ينحدرون منها :

١ - العرب البائدة : وهم العرب القدامى الذين لم يمكن الحصول على تفاصيل كافية عن تاريخهم ، مثل : عاد وثمود وطسم وجديس وعملاق وسواها .

٢ - العرب العاربة : وهم العرب المنحدرة من صلب يعرب بن يشجب بن قطحان وتسمى بالعرب القحطانية .

٣ - العرب المستعربة : وهى العرب المنحدرة من صلب إسماعيل ، وتسمى بالعرب العدنانية .

أما العرب العاربة - وهى شعب قحطان - فمهداها بلاد اليمن ، وقد تشعبت قبائلها ويطونها فاشتهرت منها قبيلتان :

(أ) حمير ، وأشهر بطونها زيد الجمهور ، وقضاعة ، والسكاسك .

(ب) كهلان ، وأشهر بطونها همدان ، وأنماز ، وطىء ، ومدحج ، وكندة ، ولخم ، وجدام ، والأزد ، والأوس ، والخزرج ، وأولاد جفنة ملوك الشام .

وهاجرت بطون كهلان عن اليمن وانتشرت فى أنحاء الجزيرة ، وكانت هجرة معظمهم قبيل سيل العرم حين فشلت تجارتهم ؛ لضغط الرومان وسيطرتهم على طريق التجارة البحرية ، وإفسادهم طريق البر بعد احتلالهم بلاد مصر والشام .

ولا غرو فقد كانت منافسة بين بطون كهلان وبطون حمير أدت إلى جلاء كهلان ، ويشير إلى ذلك بقاء حمير مع جلاء كهلان .

ويمكن تقسيم المهاجرين من بطون كهلان إلى أربعة أقسام :

١ - الأزد - كانت هجرتهم على رأى سيدهم وكبيرهم عمران بن عمرو مزقياء . فساروا ينتقلون فى بلاد اليمن ويرسلون الرواد ، ثم ساروا بعد ذلك إلى الشمال . وهاك تفصيل الأماكن التى سكنوا فيها بعد الرحلة نهائيا : عطف ثعلبة بن عمرو بن الأزد نحو الحجاز ، فأقام بين الثعلبية وذى قار ، ولما كبر ولده وقوى ركنه سار نحو المدينة ، فأقام بها واستوطنها . ومن أبناء ثعلبة هذا :

الأوس والخزرج ، ابنا حارثة بن ثعلبة .

وانتقل منهم حارثة بن عمرو - وهو خزاعة - وبنوه فى ربوع الحجاز ، حتى نزلوا بمر

الظهران ، ثم افتتحوا الحرم فقتلوا مكة وأجلوا سكانها الجراهمة .
ونزل عمران بن عمرو في عمان ، واستوطنها هو وبنوه ، وهم أزد عمان قبائل لفر
الأزد بتهامة ، وهم أزد شنوءة .

وسار جفنة بن عمرو إلى الشام فأقام بها هو وبنوه ، وهو أبو الملوك الغساسنة . نسبة
إلى ماء في الحجاز يعرف بغسان كانوا قد نزلوا بها أولاً قبل تنقلهم إلى الشام .

٢ - الحُم وجذام - وكان في اللخمين نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة بالحيرة .

٣ - بنو طيء - ساروا بعد مسير الأزد نحو الشمال حتى نزلوا بالجبلين أجاً وسلمى
وأقاموا هناك حتى عرف الجبلان بجبلى طيء .

٤ - كندة - نزلوا بالبحرين ، ثم نزلوا نجد ، وكونوا هناك حكومة كبيرة الشأن ولكنها
سرعان ما فُتيت وذهبت آثارها .

وهناك قبيلة من حمير مع اختلاف في نسبتها إليه - وهي قضاعة - هجرت اليمن
واستوطنت بادية السماوة من مشارف العراق (١) .

وأما العرب المستعربة فأصل جدهم الأعلى - وهو سيدنا إبراهيم عليه السلام - من
بلاد العراق ، من بلدة يقال لها « أر » على الشاطئ الغربي من نهر الفرات ، بالقرب من
الكوفة ، وقد جاءت الحفريات والتنقيبات بتفاصيل واسعة عن هذه البلدة وعن أسرة
إبراهيم عليه السلام ، وعن الأحوال الدينية والاجتماعية في تلك البلاد (٢) .

ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام هاجر منها إلى حاران أو حران ، ومنها إلى فلسطين
فاتخذها قاعدة لدعوته ، وكانت له جولات في أرجاء هذه البلاد وغيرها (٣) وقدم مرة
إلى مصر ، وقد حاول فرعون مصر كيدا وسوءاً بزواجه سارة ولكن الله رد كيده في
نحره وعرف فرعون ما لسارة من الصلة القوية بالله ، حتى أخدمها ابنته (٤) هاجر ؛ اعترافاً
بفضلها ، وزوجتها سارة إبراهيم (٥) .

(١) انظر لتفصيل هذه القبائل وهجراتها : محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١ / ١١ - ١٣ وقلب جزيرة
العرب ص ٢٣١ إلى ٢٣٥ - واختلفت المصادر التاريخية اختلافاً كبيراً في تعيين زمن هذه الهجرات وأسبابها
وبعد إدارة النظر من جميع الجوانب أثبتنا ما ترجع عندنا في هذا الباب من حيث الدليل .

(٢) تفهيم القرآن للسيد أبي الأعلى المودودي ١ / ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ .

(٣) تفهيم القرآن للسيد أبي الأعلى المودودي ١ / ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ .

(٤) المعروف أن هاجر كانت أمة مملوكة ، ولكن حقق الكاتب العلامة القاضي محمد سليمان المنصور فوري أنها

كانت حرة ، وكانت ابنة فرعون . انظر رحمة للعالمين ٢ / ٣٦ - ٣٧ .

(٥) نفس المصدر ٢ / ٣٤ وانظر في تفصيل القصة : صحيح البخاري ١ / ٤٧٤ .

ورجع إبراهيم إلى فلسطين ، ورزقه الله من هاجر إسماعيل ، وغارت سارة حتى ألجأت إبراهيم إلى نفى هاجر مع ولدها الصغير - إسماعيل - فقدم بهما إلى الحجاز ، وأسكنهما بواد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم الذى لم يكن إذ ذاك إلا مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله ، فوضعهما عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء . فوضع عندهما جرابا فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، ورجع إلى فلسطين ولم تمض أيام حتى نفذ الزاد والماء ، وهناك تفجرت بئر زمزم بفضل الله ، فصارت قوتا لهما وبلاغا إلى حين . والقصة معروفة بطولها (١) .

وجاءت قبيلة يمانية - وهى جرهم مكة بإذن من أم إسماعيل يقال إنهم كانوا قبل ذلك فى الأودية التى بأطراف مكة . وقد صرحت رواية البخارى أنهم نزلوا مكة بعد إسماعيل ، وقبل أن يشب ، أنهم كانوا يمشون بهذا الوادى قبل ذلك (٢) .

وقد كان إبراهيم يرحل إلى مكة بين آونة وأخرى ليطلع تركته ، ولا يعلم كم كانت هذه الرحلات ، إلا أن المصادر التاريخية حفظت أربعة منها .

فقد ذكر الله تعالى فى القرآن أنه أرى إبراهيم فى المنام أنه يذبح إسماعيل ، فقام بامتنال هذا الأمر ﴿ فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه أن يا إبراهيم ، قد صدقت الرؤيا ، إنا كذلك لنحجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم ﴾ (٣) .

وقد ذكر فى سفر التكوين أن إسماعيل كان أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة ، وسياق القصة يدل على أنها وقعت قبل ميلاد إسحاق ، لأن البشارة بإسحاق ذكرت بعد سرد القصة بتمامها .

وهذه القصة تضمن رحلة واحدة - على الأقل - قبل أن يشب إسماعيل ، أما الرحلات الثلاث الأخرى فقد رواها البخارى بطولها عن ابن عباس مرفوعا (٤) . وملخصها أن إسماعيل لما شب وتعلم العربية من جرهم ، وأنفسهم وأعجبهم زوجه امرأة منهم ، وماتت أمه ، وبدا لإبراهيم أن يطالع تركته فجاء بعد هذا الزوج ، فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه وعن أحوالها ، فكتشفت إليه ضيق العيش فأوصاها أن تقول لإسماعيل أن يغير عتبة بابه ، وفهم إسماعيل ما أراد أبوه ، فطلق امرأته تلك وتزوج امرأة أخرى ، وهى ابنة مضاض بن عمرو ، كبير جرهم وسيدهم (٥) .

وجاء إبراهيم مرة أخرى بعد هذا الزوج الثانى فلم يجد إسماعيل فرجع إلى فلسطين

(٢) نفس المصدر ١ / ٤٧٥ .

(١) انظر صحيح البخارى ، كتاب الأنبياء ١ / ٤٧٤ - ٤٧٥ .

(٣) الآيات ١٠٣ - ١٠٧ من سورة الصافات . (٤) ج ١ / ٤٧٥ - ٤٧٦ .

(٥) قلب جزيرة العرب ص ٢٣٠

بعد أن سأل زوجته عنه وعن أحوالهما فأثنت على الله ، فأوصى إلى إسماعيل أن يثبت عتبة بابه .

وجاء مرة ثالثة فلقى إسماعيل وهو يرى نبلا له تحت دوحة قريبا من زمزم فلما رآه قام إليه فصنع كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ، وكان لقاؤهما بعد فترة طويلة من الزمن ، قلما يصبر فيها الأب الكبير الأواه العطوف عن ولده ، الولد البار الصالح الرشيد عن أبيه وفي هذه المرة بنيا الكعبة ورفعوا قواعدا ، وأذن إبراهيم بالناس بالحج كما أمره الله .

وقد رزق الله إسماعيل من ابنة مضاى اثني عشر ولداً ذكرأ (١) وهم :

نابت أو بنالوط ، قيدار ، وأدبائيل ، ومبشام ، ومشماع ، ودوما ، وميشا ، وحدد ، ويتما ، ويطور ، ونفيس ، وقيدمان ، وتشعبت من هؤلاء اثنا عشرة قبيلة ، سكنت كلها في مكة مدة ، وكانت جل معيشتهم التجارة من بلاد اليمن إلى بلاد الشام ومصر ثم انتشرت هذه القبائل في أرجاء الجزيرة بل وإلى خارجها . ثم أدرجت أحوالهم في غياهب الزمان ، إلا أولاد نابت وقيدار .

وقد ازدهرت حضارة الأنباط في شمال الحجاز ، وكونوا حكومة قوية دان لها من أطرافها ، واتخذوا البتراء عاصمة لهم ، ولم يكن يستطيع مناوأتهم أحد حتى جاء الرومان ففقدوا عليهم ، وقد رجح السيد سليمان الندوي بعد البحث الأنيق والتحقيق الدقيق أن ملوك آل غسان وكذا الأنصار من الأوس والخزرج لم يكونوا من آل قحطان ، وإنما كانوا من آل نابت بن إسماعيل ، وبقياتهم في تلك الديار (٢) .

وأما قيدار بن إسماعيل فلم يزل أبناؤه بمكة يتناسلون هناك حتى كان منه عدنان وولده معد ، ومنه حفظت العدنانية أنسابها . وعدنان هو الجد الحادى والعشرين فى سلسلة النسب النبوى ، وقد ورد أنه ﷺ كان إذا انتسب فبلغ عدنان يمسك ويقول : كذب النسابون فلا يتجاوزوه (٣) . وذهب جمع من العلماء إلى جواز رفع النسب إلى فوق عدنان ، مضعفين للحديث المشار إليه ، وقالوا إن بين عدنان وبين إبراهيم عليه السلام أربعين أبا بالتحقيق الدقيق (٤) .

وقد تفرقت بطون معد من ولده نزار - قيل لم يكن لمعد ولد غيره - فكان لنزار أربعة أولاد ، تشعبت منهم أربعة قبائل عظيمة : إياد وأثمار وربيعة ومضر ، وهذان الأخيران هما اللذان كثرت بطونهما واتسعت أفخاذهما ، فكان من ربيعة : أسد بن ربيعة ، وعنزة ، عبد

(١) قلب جزيرة العرب ص ٢٣٠

(٢) انظر تاريخ أرض ٧٨/٢ إلى ٨٦

(٣) انظر الطبرى ١٩١/٢ - ١٩٤ والأعلام ٦/٥ (٤) رحمة للعالمين ١٤٠٨/٢ ، ١٥٠١٦ ، ١٧

القيس ، وابنا وائل - بكر ، وتغلب - وحنيفة وغيرها .

وتشعبت قبائل مضر إلى شعبتين عظيمتين : قيس عيلان بن مضر ، وبطون إلياس بن مضر فمن قيس عيلان : بنو سليم ، وبنو هوازن ، وبنو غطفان ، ومن غطفان : عبس وذبيان ، وأشجع وغنى بن أعصر .

ومن إلياس بن مضر : تميم بن مرة ، وهذيل بن مدركة ، وبنو أسد بن خزيمه ، وبطون كنانة بن خزيمه ، ومن كنانة قريش ، وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة .

وانقسمت قريش إلى قبائل ثلثي ، من أشهرها : جمح ، وسهم ، وعدى ، ومخزوم ، وتيمم ، وزهرة وبطون قصي بن كلاب ، وهى عبد الدار بن قصي ، وأسد بن عبد العزى بن قصي ، وعبد مناف بن قصي .

وكان من عبد مناف أربع فصائل : عبد شمس ، ونوفل ، والمطلب ، وهاشم وبيت هاشم هو الذى اصطفى الله منه سيدنا محمد بن عبد الله بن هاشم عليه السلام (١) .

قال عليه السلام : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من إسماعيل كنانة ، واصطفى من كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » (٢) .

وعن العباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله خلق الخلق فجعلنى من خير فرقهم وخير الفريقين ، ثم تخير القبائل ، فجعلنى من خير القبيلة ، ثم تخير البيوت فجعلنى من خير بيوتهم ، فأنا خيرهم نفسا وخيرهم بيتا » (٣) .

ولما تكاثروا أولاد عدنان تفرقوا فى أنحاء ثلثي من بلاد العرب ، متبعين مواقع القطر ومنابت العشب .

فهاجرت عبد القيس ، وبطون من بكر بن وائل ، وبطون من تميم إلى البحرين فأقاموا بها .

وخرجت بنو حنيفة بن صعب بن على بن بكر إلى اليمامة فنزلوا بحجر ، قصبة اليمامة . وأقامت سائر بكر بن وائل فى طول الأرض من اليمامة إلى البحرين إلى سيف كاظمة إلى البحر ، فأطراف سواد العراق ، فالأبلة فهيت .

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١ / ١٤ ، ١٥ .

(٢) رواه مسلم عن وائلة بن الأسقع ، باب فضل نسب النبى صلى الله عليه وسلم ٢٤٥ / ٢ والترمذى ٢٠١ / ٢ .

(٣) رواه الترمذى باب ما جاء فى فضل النبى صلى الله عليه وسلم ١٥ / ٢ - ١٦ .

وأقامت تغلب بالجزيرة الفراتية ، ومنها بطون كانت تسكن بكرا . وسكنت بنو
تميم ببادية البصرة .

وأقامت بنو سليم بالقرب من المدينة ، من وادى القرى إلى خيبر إلى شرقى المدينة إلى
حد الجبلين ، إلى ما ينتهى إلى الجرة .

وسكنت ثقيف بالطائف ، وهوازن فى شرقى مكة بنواحى أوطاس ، وهى على
الجادة بين مكة والبصرة .

وسكنت بنو أسد شرقى تيماء وغربى الكوفة ، بينهم وبين تيماء ديار بحت من طىء ،
وبينهم وبين الكوفة خمس ليال .

وسكنت ذبيان بالقرب من تيماء إلى حوران .

وبقى بتهامة بطون من كنانة ، وأقام بمكة وضواحيها بطون من قريش ، وكانوا متفرقين
لا تجمعهم جامعة حتى نبغ فيهم قصى بن كلاب ، فجمعهم ، وكون لهم وحدة شرفتهم
ورفعت من أقدارهم (١) .

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١٥/١ - ١٦

الحكم والإمارة فى العرب

حينما أردنا أن نتكلم عن أحوال العرب قبل الإسلام ؛ رأينا أن نضع صورة مصغرة من تاريخ الحكومة والإمارة والملل والأديان فى العرب ، حتى يسهل علينا فهم الأوضاع الطارئة عند ظهور الإسلام .

كان حكام الجزيرة حين بزغت شمس الإسلام قسمين : قسم منهم ملوك متوجون ، إلا أنهم فى الحقيقة كانوا غير مستقلين ، وقسم هم رؤساء القبائل والعشائر ، لهم ما للملوك من الحكم والامتياز ، ومعظم هؤلاء كانوا على تمام الاستقلال . وربما كانت لبعضهم تبعية ملك متوج ، والملوك المتوجون هم ملوك اليمن ، وملوك آل غسان ، وملوك الحيرة ، وماعدا هؤلاء من حكام الجزيرة فلم تكن لهم تيجان .

الملك باليمن :

من أقدم الشعوب التى عرفت باليمن من العرب العاربة قوم سبأ ، وقد عثر على ذكرهم فى حفريات « أور » بخمسة وعشرين قرناً قبل الميلاد . ويبدأ ازدهار حضارتهم ونفوذ سلطانهم وبسط سيطرتهم بأحد عشر قرناً قبل الميلاد .

ويمكن تقسيم أدوارهم حسب التقدير الآتى :

(١) القرون التى خلت قبل سنة ٦٥٠ ق . م ، وكان ملوكهم يلقبون فى هذا الزمن بـ «مكرب سبأ» وكانت عاصمتهم بلدة « صرواح » التى توجد أنقاضها على مسافة يوم إلى الجانب الغربى من بلدة « مأرب » وتعرف باسم « خريبة » وفى زمنهم بدأ بناء السد الذى عرف بسد مأرب ، والذى كان له شأن كبير فى تاريخ اليمن ، ويقال إن سبأ بلغوا من بسط سلطتهم إلى أن اتخذوا المستعمرات فى داخل جزيرة العرب وخارجها .

(٢) منذ سنة ٦٥٠ ق . م إلى سنة ١١٥ ق . م وفى هذا الزمن تركوا لقب « مكرب » وعرفوا بملوك سبأ ، واتخذوا « مأرب » عاصمة لهم بدل « صرواح » وتوجد أنقاضها على بعد ستين ميلاً من صنعاء إلى جانبها الشرقى .

(٣) منذ سنة ١١٥ ق . م إلى سنة ٣٠٠ ق . م ، وفى هذا العهد غلبت قبيلة حمير على مملكة سبأ ، واتخذت بلدة « ريدان » عاصمة لها بدلا من بلدة « مأرب » . ثم سميت بلدة « ريدان » باسم ظفار ، وتوجد أنقاضها على جبل مدور بالقرب من « يريم » وفى هذا العهد بدأ فيه السقوط والانحطاط ، فقد فشلت تجارتهم إلى حد كبير ؛ لبسط سيطرة

الأنباط فى شمال الحجاز أولا ، ثم لغلبة الرومان على طرق التجارة البحرية بعد نفوذ سلطانهم على مصر وسوريا وشمالى الحجاز ثانيا ، ولتنافس القبائل فيما بينها ثالثا . وهذه العناصر هى التى سببت فى تفرق آل قحطان وهجرتهم إلى البلاد الشاسعة .

(٤) منذ سنة ٣٠٠ م إلى أن دخل الإسلام إلى اليمن . وفى هذا العهد توالى عليهم الاضطرابات والحوادث ، وتتابعت الانقلابات ، والحروب الأهلية التى جعلتهم عرضة للأجانب حتى قضت على استقلالهم . وفى هذا العهد دخل الرومان فى عدن ، وبمعونتهم احتلت الأحباش اليمن لأول مرة سنة ٣٤٠ م ، مستغلين التنافس بين قبيلتى همدان وحمير ، واستمر احتلالهم إلى سنة ٣٧٨ م . ثم نالت اليمن استقلالها ، ولكن بدأت تقع الثلمات فى سد مأرب ، حتى وقع السيل العظيم الذى ذكره القرآن بسيل العرم فى سنة ٤٥٠ م أو ٤٥١ م . وكانت حادثة كبرى أدت إلى خراب العمران وتشتت الشعوب .

وفى سنة ٥٢٣ م قاد ذو نواس اليهودى حملة منكرة على المسيحيين من أهل نجران ، وحاول صرفهم عن المسيحية قسرا . ولما أبوا خذ لهم الأخدود وألقاهم فى النيران ، وهذا الذى أشار إليه القرآن فى سورة البروج بقوله : ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ الآيات ، وكان من جراء ذلك نقمة النصرانية الناشطة إلى الفتح والتوسع تحت قيادة امبراطور الرومان على بلاد العرب ، فقد حرضوا الأحباش ، وهبأوا لهم الأسطول البحرى ، فنزل سبعون ألف جندى من الحبشة ، واحتلوا اليمن مرة ثانية ، بقيادة أرياط سنة ٥٢٥ م ، وظل أرياط حاكما من قبل ملك الحبشة حتى اغتاله أبرهة - أحد قواد جيشه - وحكم بدله بعد أن استرضى ملك الحبشة ، وأبرهة هذا هو الذى جند الجنود لهدم الكعبة ، وعرف هو وجنوده بأصحاب الفيل .

وبعد وقعة الفيل استنجد اليمانيون بالفرس ، وقاموا بمقاومة الحبشة حتى أجلوهم عن البلاد ، ونالوا الاستقلال فى سنة ٥٧٥ م بقيادة معد يكرب بن سيف ذى يزن الحميرى ، واتخذوه ملكا لهم ، وكان معد يكرب أبقى معه جمعا من الحبشة يخدمونه ويمشون فى ركابه ، فاغتالوه ذات يوم ، وموته انقطع الملك عن بيت ذى يزن ، وولى كسرى عاملا فارسيا على صنعاء ، وجعل اليمن ولاية فارسية فلم تزل الولاة من الفرس تتعاقب على اليمن حتى كان آخرهم باذان الذى اعتنق الإسلام سنة ٦٣٨ م . وبإسلامه انتهى نفوذ فارس على بلاد اليمن . (١)

(١) انظر فى تفصيل ذلك : تفهيم القرآن ٤ / ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، وتاريخ أرض القرآن ج ١ / من ص ١٣٣ إلى نهاية الكتاب ، وفى تعيين السنين اختلاف كبير بين المصادر التاريخية ، وقد قال بعض الكتاب عن هذه التفاصيل ﴿ إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ .

الملك بالحيرة :

كانت الفرس تحكم على العراق وما جاورها منذ أن جمع شملهم قوروش الكبير (٥٥٧ - ٥٢٩ ق . م) ولم يكن أحد يناوئهم ، حتى قام الإسكندر المقدوني سنة ٣٢٦ ق . م فهزم ملكهم دارا الأول ، وكسر شوكتهم ، حتى تجزأت بلادهم وتولاها ملوك يعرفون بملوك الطوائف ، واستمروا يحكمون البلاد مجزأة إلى سنة ٢٣٠ م . وفي عهد هؤلاء الملوك هاجر القحطانيون ، واحتلوا جزءا من ريف العراق ثم لحقهم من هاجر من العدنانيين فراحموهم حتى سكنوا جزءا من الجزيرة الفراتية .

وعادت القوة مرة ثانية إلى الفرس في عهد أردشير - مؤسس الدولة الساسانية منذ سنة ٢٢٦ م - فإنه جمع شمل الفرس ، واستولى على العرب المقيمين على تخوم ملكه ، وكان هذا سببا في رحيل قضاة إلى الشام ، ودان له أهل الحيرة والأنبار .

وفي عهد أردشير كانت ولاية جذيمة الوضاح على الحيرة وسائر من ببادية العراق والجزيرة من ربيعة ومضر ، وكان أردشير رأى أنه يستحيل عليه أن يحكم بلاد العرب مباشرة ، ويمنعهم من الإغارة على تخوم ملكه ، إلا أن يملك عليهم رجلا منهم له عصبية تؤيده وتمنعه ، ومن جهة أخرى يمكنه الاستعانة بهم على ملوك الرومان الذين كانوا يتخوفهم ، وليكون عرب العراق أمام عرب الشام الذين اصطنعهم ملوك الرومان ، وكان يبقى عند ملك الحيرة كتيبة من جند الفرس ؛ ليستعين بها على الخارجين على سلطانه من عرب البادية ، وكان موت جذيمة حوالى سنة ٢٦٨ م .

وبعد موت جذيمة ولى الحيرة عمرو بن عدى بن لفر اللخمي ، أول ملوك اللخمين - في عهد كسرى سابور بن أردشير - ثم لم تزل الملوك من اللخمين تتوالى على الحيرة حتى ولى الفرس قباذ ابن فيروز ، وفي عهده ظهر مزدك ، وقام بالدعوة إلى الإباحية ، فتبعه قباذ كما تبعه كثير من رعيته ثم أرسل قباذ إلى ملك الحيرة - وهو المنذر بن ماء السماء - يدعوه إلى أن يختار هذا المذهب ويدين به ، فأبى عليه ذلك حمية وأنفة ، فعزله قباذ ، وولى بدله الحارث بن عمرو بن حجر الكندي بعد أن أجاب دعوته إلى المذهب المزدكي .

وخلف قباذ كسرى أنوشروان ، وكان يكره هذا المذهب جدا ، فقتل المزدك وكثيرا من دان بمذهبه ، وأعاد المنذر إلى ولاية الحيرة ، وطلب الحارث ابن عمرو لكنه أفلت إلى دار كلب ، فلم يزل فيهم حتى مات .

واستمر الملك بعد المنذر بن ماء السماء فى عقبه ، حتى كان النعمان بن المنذر ، وهو الذى غضب عليه كسرى بسبب وشاية دبرها زيد بن عدى العبادى ، وأرسل كسرى إلى النعمان يطلبه ، فخرج النعمان حتى نزل سرا على هانئ بن مسعود سيد آل شيبان ،

فأودعه أهله وماله ، ثم توجه إلى كسرى ، فحبسه كسرى حتى مات وولى على الحيرة بدله إياس بن قبيصة الطائي ، وأمره أن يرسل إلى هانئ بن مسعود يطلب منه تسليم ماعنده ، فأبى ذلك هانئ حمية ، وأذن الملك بالحرب ، ولم تلبث أن جاءت مرازية كسرى وكتائبه في موكب إياس ، وكانت بين الفريقين موقعة هائلة عند ذى قار ، وانتصر فيها بنو شيبان وانهزمت الفرس هزيمة منكرة . وهذا أول يوم انتصرت فيه العرب على العجم ، وهو بعد ميلاد الرسول ﷺ بقليل ، فإنه عليه السلام ولد لثمانية أشهر من ولاية إياس بن قبيصة على الحيرة .

وولى كسرى على الحيرة بعد إياس حاكما فارسيا ، وفي سنة ٦٣٢ م عاد الملك إلى إلى لحم ، فتولى منهم المنذر الملقب بالمعروور ، ولم تزد ولايته على ثمانية أشهر حتى قدم عليه خالد بن الوليد بعساكر المسلمين (١) .

الملك بالشام

في العهد الذي ماجت فيه العرب بهجرات القبائل صارت بطون من قضاة إلى مشارف الشام وسكنت بها ، وكانوا من بنى سليح بن حلوان الذين منهم بنو ضجعم بن سليح المعروفون باسم الضجاعة ، فاصطنعهم الرومان ؛ ليمنعوا عرب البرية من العبث ، وليكونوا عدة ضد الفرس ، وولوا منهم ملكا ، ثم تعاقب الملك فيهم سنين ، ومن أشهر ملوكهم زياد بن الهبولة ، ويقدر زمنهم من أوائل القرن الثاني الميلادي إلى نهايته تقريبا ، وانتهت ولايتهم بعد قدوم آل غسان ، الذين غلبوا الضجاعة على ما بيدهم وانتصروا عليهم ، فولتهم الروم ملوكا على عرب الشام ، وكانت قاعدتهم دومة الجندل ، ولم تزل تتوالى الغساسنة على الشام بصفتهم عمالا للملوك الروم حتى كانت وقعة اليرموك سنة ١٣ هـ ، وانقاد للإسلام آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه (٢) .

الإمارة بالحجاز :

ولى إسماعيل عليه السلام زعامة مكة وولاية البيت طول حياته (٣) . وتوفي وله ١٣٧ سنة (٤) . ثم ولى اثنان من أبنائه نابت ثم قي دار ، ويقال العكس ، ثم ولى أمر مكة بعدهما جدّهما مضاض بن عمرو الجرهمي ، فانتقلت زعامة مكة إلى جدّهم ، وظلت في

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١/ ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢ .

(٢) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١/ ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، وأرض القرآن ٢/ ٨١، ٨٢، ٨٣ .

(٣) قلب جزيرة العرب ص ٢٣٠-٢٣٧

(٤) سفر التكوين ٧: ٢٥

أيديهم، وكان لأولاد إسماعيل مركز محترم ؛ لما لأبيهم من بناء البيت ، ولم يكن لهم من الحكم شيء (١) .

ومضت الدهور والأيام ولم يزل أمر أولاد إسماعيل عليه السلام ضئيلا لا يذكر، حتى ضعف أمر جرهم قبيل ظهور بختنصر ، وأخذ نجم عدنان السياسي يتألق في أفق سماء مكة منذ ذلك العصر ، بدليل ما جاء بمناسبة غزو بختنصر للعرب في ذات عرق ، فإن قائد العرب في الموقعة لم يكن جرهميا (٢) .

وتفرقت بنو عدنان إلى اليمن عند غزوة بختنصر الثانية (سنة ٥٨٧ ق . م) ، وذهب برمياة النبي بمعد إلى الشام ، فلما انكشف ضغط بختنصر رجع معد إلى مكة فلم يجد من جرهم إلا جرشم بن جلهممة ، فتزوج بابنته معانة فولدت له نزارا (٣) .

وساء أمر جرهم بمكة بعد ذلك ، وضائق أحوالهم ، فظلموا الوافدين إليها ، واستحلوا مال الكعبة (٤) ، الأمر الذي كان يغيظ العدنانيين ، ويشير حفيظتهم ، ولما نزلت خزاعة بمر الظهران ، ورأت نفور العدنانيين من الجراهمة استغلت ذلك فقامت بمعونة من بطون عدنان - وهم بنو بكر بن عبد مناف بن كنانة - بمحاربة جرهم ، حتى أجلتهم عن مكة ، واستولت على حكمها ، في أواسط القرن الثاني للميلاد .

ولما لجأت جرهم إلى الجلاء سدوا بئر زمزم ، ودرسوا موضعها ، ودفنوا فيها عدة أشياء ، قال ابن اسحاق : فخرج عمرو ابن الحارث بن مضاض الجرهمي (٥) بغزالي الكعبة (٦) ، وبحجر الركن الأسود فدفنها في بئر زمزم ، وانطلق هو ومن معه من جرهم إلى اليمن ، فحزنوا على ما فارقوا من أمر مكة وملكها حزنا شديدا ، وفي ذلك قال عمرو :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العوائر

ويقدر زمن إسماعيل عليه السلام بعشرين قرنا قبل الميلاد ، فتكون إقامة جرهم في مكة واحدا وعشرين قرنا تقريبا ، وحكمهم على مكة زهاء عشرين قرنا . واستبدت خزاعة بأمر مكة دون بني بكر ، إلا أنه كان إلى قبائل مضر ثلاث خلال :

(١) قلب جزيرة العرب ص ٢٣٠-٢٣٧ ، وابن هشام ١/ ١١١ ، وذكر الن هشام ولاية نابت فقط من أولاد إسماعيل عليه السلام

(٢) قلب جزيرة العرب ص ٢٣٠-٢٣٧ (٣) رحمة للعالمين ٤٨/٢ (٤) قلب جزيرة العرب ص ٢٣١ .

(٥) هذا غير مضاض الجرهمي الأكبر الذي مضى ذكره في قصة إسماعيل عليه السلام .

(٦) قال المسعودي : وكانت الفرس تهدي إلى الكعبة أموالا في صدر الزمان وجواهر ، وقد كان ساسان بن بابك

أهدى غزالين من ذهب وجواهر وسيوفا وذهبا كثيرا فقلده (عمرو) في بئر زمزم أهدا نظر مروج الذهب ١/ ٢٠٥ .

الأولى : الدفع بالناس من عرفة إلى المزدلفة، والإجازة بهم يوم النفر من منى، وكان يلى ذلك بنو الغوث بن مرة من بطون إلياس بن مضر، وكانوا يسمون صوفة ومعنى هذه الإجازة أن الناس كانوا لا يرمون يوم النفر حتى يرمى رجل من صوفة ثم إذا فرغ الناس من الرمي وأرادوا النفر من منى أخذت صوفة بجانبى العقبة، فلم يجر أحد حتى يمشوا، ثم يخلون سبيل الناس، فلما انقرضت صوفة ورثهم بنو سعد بن زيد مناة من تميم.

الثانية : الإفاضة من جمع غداة النحر إلى منى، وكان ذلك فى بنى عدوان.

الثالثة : إنساء الأشهر الحرم. وكان ذلك إلى بنى تميم بن عدى من بنى كنانة (١).

واستمرت ولاية خزاعة على مكة ثلاثمائة سنة (٢). وفى وقت حكمهم انتشر العدنانيون فى نجد وأطراف العراق والبحرين، وبقي بأطراف مكة بطون من قريش وهم حلول وحرم، وبيوتات متفرقون فى قومهم من بنى كنانة، وليس لهم من أمر مكة ولا البيت الحرام شىء حتى جاء قصي ابن كلاب (٣).

ويذكر من أمر قصي أن أباه مات وهو فى حضن أمه، ونكحت أمه رجلا من بنى عذرة - وهو ربيعة بن حرام - فاحتملها إلى بلاده بأطراف الشام، فلما شب قصي رجع إلى مكة، وكان واليها إذ ذاك حليل بن حبشة من خزاعة، فخطب قصي إلى حليل ابنته حبي، فرغب فيه حليل وزوجه إياها (٤) فلما مات حليل قامت حرب بين خزاعة وقريش أدت أخيرا إلى تغلب قصي على أمر مكة والبيت.

وهناك ثلاث روايات فى بيان سبب هذه الحرب.

الأولى : أن قصيا لما انتشر ولده وكثر ماله وعظم شرفه وهلك حليل رأى أنه أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة وبنى بكر، وأن قريشا رؤوس آل إسماعيل وصريحهم، فكلّم رجلا من قريش وبنى كنانة فى إخراج خزاعة وبنى بكر عن مكة فأجابوه (٥).

الثانية : أن حليلا - فيما تزعم خزاعة - أوصى قصيا بالقيام على الكعبة وبأمر مكة (٦).

الثالثة : أن حليلا أعطى ابنته حبي ولاية البيت، واتخذ أبا غبشان الخزاعى وكيلا لها، فقام أبو غبشان بسدانة الكعبة نيابة عن حبي، فلما مات حليل اشترى قصي ولاية البيت من أبى غبشان بزق من الخمر، ولم ترض خزاعة بهذا البيع، وحاولوا منع قصي عن

(١) ابن هشام ١/ ٤٤ - ١١٩ - ١٢٠ - ١٢٢. (٢) ياقوت مادة « مكة »

(٣) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١/ ٣٥، وابن هشام ١/ ١١٧.

(٤) ابن هشام ١/ ١١٧ - ١١٨. (٥) نفس المصدر ١١٧ - ١١٨.

(٦) نفس المصدر ١/ ١١٨.

البيت، فجمع قصى رجالا من قريش وبنى كنانة لإخراج خزاعة من مكة، فأجابوه (١).

وأيا ما كان، فلما مات حليل وفعلت صوفة ما كانت تفعل أتاها قصى بمن معه من قريش وكنانة عند العقبة فقال: نحن أولى بهذا منكم، فقاتلوه فغلبهم قصى على ما كان بأيديهم، وانحازت عند ذلك خزاعة وبنو بكر عن قصى، فبدأهم قصى، وأجمع لحربهم فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا، صار جمع من الفريقين فريسة له، ثم تداعوا إلى الصلح فحكموا يعمر بن عوف أحد بنى بكر، فقضى بأن قصيا أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة، وكل دم أصابه قصى منهم موضوع بشدخه تحت قدميه وما أصابت خزاعة وبنو بكر ففيه الدية، وأن يخلى بين قصى وبين الكعبة - فسمى يعمر يومئذ الشداخ - (٢) وكان استيلاء قصى على مكة والبيت في أواسط القرن الخامس للميلاد سنة ٤٤٠ م (٣) وبذلك صارت لقصى، ثم لقريش السيادة التامة، والأمر النافذ في مكة، وصار الرئيس الديني لذلك البيت الذى كانت تفد إليه العرب من جميع أنحاء الجزيرة.

ومما فعله قصى بمكة أنه جمع قومه من منازلهم إلى مكة، وقطعها رباعا بين قومه، وأنزل كل قوم من قريش منازلهم التى أصبحوا عليها، وأقر النساء وآل صفوان، وعدوان ومرة بن عوف على ما كانوا عليه من المناصب؛ لأنه كان يراه دينا فى نفسه لا ينبغي تغييره. (٤)

ومن مآثر قصى أنه أسس دار الندوة بالجانب الشمالى من مسجد الكعبة وجعل بابها إلى المسجد وكانت مجمع قريش، وفيها تفصل مهام أمورها، ولهذه الدار فضل على قريش؛ لأنها ضمنت اجتماع الكلمة وفض المشاكل بالحسنى (٥).

وكان لقصى من مظاهر الرياسة والتشريف:

١ - رياسة دار الندوة، ففيها كانوا يتشاورون فيما نزل بهم من جسام الأمور؛ ويزوجون فيها بناتهم.

٢ - اللواء، فكانت لا تعقد راية الحرب إلا بيده.

٣ - الحجابة وهى حجابة الكعبة، لا يفتح بابها إلا هو، وهو الذى يلى أمر خدمتها وسداتها.

٤ - سقاية الحاج، وهى أنهم كانوا يملأون للحجاج حياضا من الماء، يحلون بها شىء من التمر والزبيب، فيشرب الناس منها إذا وردوا مكة (٦).

(١) ابن هشام ١١٧/١ - ١١٨. (٢) ابن هشام ١٨٨/١ (٣) رحمة للعالمين ٥٥/٢

(٤) ابن هشام ١٢٣/١ - ١٢٤ (٥) قلب جزيرة العرب ص ٢٣٢

(٦) ابن هشام ١٢٥/١ محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ٣٦/١، أخبار الكرام ص ١٥٢

٥ - رفاة الحاج ، وهى طعام كان يصنع للحاج على طريقة الضيافة، وكان قصى فرض على قریش خرجا تخرجه فى الموسم من أموالها إلى قصى ، فيصنع به طعاما للحاج، يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد (١) .

وكان كل ذلك لقصى ، وكان ابنه عبد مناف قد شرف وساد فى حياته ، وكان عبد الدار بكره ، فقال له قصى : لألحقنك بالقوم وإن شرفوا عليك فأوصى له بما كان يليه من مصالح قریش فأعطاه دار الندوة والحجابه واللواء والسقاية والرفادة، وكان قصى لا يخالف ولا يرد عليه شىء صنعه ، وكان أمره فى حياته وبعد موته كالدين المتبع ، فلما هلك أقام بنوه أمره لا نزاع بينهم ولكن لما هلك عبد مناف نافس أبناؤه بنى عمهم عبد الدار فى هذه المناصب ، وافتقرت قریش فرقتين ، وكاد يكون بينهم قتال ، إلا أنهم تداعوا إلى الصلح، واقتسموا هذه المناصب ، فصارت السقاية والرفادة إلى بنى عبد مناف ، وبقيت دار الندوة واللواء والحجابه بيد بنى عبد الدار ، ثم حكم بنو عبد مناف القرعة فيما أصابهم فخرجت لهاشم بن عبد مناف ، فكان هو الذى يلى السقاية والرفادة طول حياته، فلما مات خلفه أخوه المطلب بن عبد مناف وولى بعده عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف جد رسول الله ﷺ ، وبعده أبناؤه حتى جاء الإسلام والولاية إلى العباس ابن عبد المطلب (٢) .

وكانت لقریش مناصب سوى ذلك وزعوها فيما بينهم ، وكونوا بها دويلة - بل بتعبير أصح : شبه دويلة ديمقراطية .. وكانت لها من الدوائر والتشكيلات الحكومية ما يشبه فى عصرنا هذا دوائر البرلمان ومجالسها ، وهاك لوحة من تلك المناصب :

- ١ - الإيسار ، أى تولية قدام الأئنام للاستقسام ، كان ذلك فى بنى جمح .
- ٢ - تحجير الأموال ، أى نظم القربات والنذور التى تهدى إلى الأئنام وكذلك فصل الخصومات والمرافعات ، كان ذلك فى بنى سهم .
- ٣ - الشورى ، كانت فى بنى أسد .
- ٤ - الأئناق ، أى نظم الديات والغرمات ، كان ذلك فى بنى تيم .
- ٥ - العقاب ، أى حمل اللواء القومى ، كانت ذلك فى بنى أمية .
- ٦ - القبة ، أى نظم المعسكر ، وكذلك قيادة الخيل ، كانت فى بنى مخزوم .
- ٧ - السفارة ، كانت فى بنى عدى (٣) .

(١) ابن هشام ١/١٣٠

(٢) ابن هشام ١/١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٧ ، ١٤٢ ، ١٧٨ ، ١٧٩ .

(٣) تاريخ أرض القرآن ٢ / ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ .

الحكم فى سائر العرب :

قد سبق لنا أن ذكرنا هجرات القبائل القحطانية والعدنانية ، وأن البلاد العربية اقتسمت فيما بينها ، فما كان من هذه القبائل بالقرب من الحيرة كانت تبعا لملك العرب بالحيرة ، وما كان منها فى بادية الشام كانت تبعا للغساسنة ، إلا أن هذه التبعية كانت اسمية لا فعلية . وأما ما كان منها فى البوادي فى داخل الجزيرة فكانت حرة مطلقة .

وفى الحقيقة كان لهذه القبائل رؤساء تسودهم القبيلة ، وكانت القبيلة حكومة مصغرة أساس كيانها السياسى الوحدة العصبية والمنافع المتبادلة فى حماية الأرض ودفع العدوان عنها .

وكانت درجة رؤساء القبائل فى قومهم كدرجة الملوك ، فكانت القبيلة تبعا لرأى سيدها فى السلم والحرب ، لا تتأخر عنه بحال ، وكان له من الحكم والاستبداد بالرأى ما يكون لدكتاتور قوى ، حتى كان بعضهم إذا غضب غضب له ألوف من السيوف لا تسأله فيما غضب ، إلا أن المنافسة فى السيادة بين أبناء العم كانت تدعوهم إلى المصانعة بالناس ، من بذل الندى ، وإكرام الضيف ، والكرم ، والحلم وإظهار الشجاعة ، والدفاع عن الغير ؛ حتى يكسبوا المحامد فى أعين الناس ، ولا سيما الشعراء الذين كانوا لسان القبيلة فى ذلك الزمان ، وحتى تسمو درجتهم عن مستوى المنافسين .

وكان للسادة والرؤساء حقوق خاصة ، فكانوا يأخذون من الغنيمة المرباع والصفى والنشيطة والفضول يقول الشاعر :

لك المرباع فينا والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول

والمرباع : ربع الغنيمة ، والصفى : ما يصطفيه الرئيس لنفسه قبل القسمة

والنشيطة : ما أصاب الرئيس فى الطريق قبل أن يصل إلى بيضة القوم

والفضول : ما فضل من القسمة مما لا تصح قسمته على عدد الغزاة ، كالبعير والفرس ونحوهما .

الحالة السياسية :

قد ذكرنا حكام العرب ، والآن آن لنا أن نذكر جملة من أحوالهم السياسية ، فالأقطار الثلاثة التى كانت مجاورة للأجانب كانت حالتها السياسية فى تضعضع وانحطاط لا مزيد عليه ، فقد كان الناس بين سادة وعبيد ، أو حكام ومحكومين ، فالسادة - ولا سيما الأجانب - لهم كل الغنم ، والعبيد عليهم كل الغرم ، وبعبارة أوضح إن الرعايا كانت

بمناخ مزرعة تورد المحصولات إلى الحكومات ، فتستخدمها في ملذاتها وشهواتها

، ورغائبها ، وجورها ، وعدوانها . أما الناس فهم في عمايتهم يتخبطون ، والظلم ينحط عليهم من كل جانب وما في استطاعتهم التذمر والشكوى ، بل هم يسامون الخسف ، والجور ، والعذاب ألوانا ساكتين ، فقد كان الحكم استبداديا ، والحقوق ضائعة مهدورة ، والقبائل المجاورة لهذه الأقطار مذذبون تتقاذفهم الأهواء والأغراض . مرة يدخلون في أهل العراق ، ومرة يدخلون في أهل الشام . وكانت أحوال القبائل داخل الجزيرة مفككة الأوصال ، تغلب عليها المنازعات القبلية والاختلافات العنصرية والدينية حتى قال ناطقهم:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت ، وإن ترشد غزية أرشد

ولم يكن لهم ملك يدعم استقلالهم ، أو مرجع يرجعون إليه ، ويعتمدون عليه وقت الشدائد .

وأما حكومة الحجاز ؛ فقد كانت تنظر إليها العرب نظرة تقدير واحترام ويرونها قادة وسدنة المركز الديني وكانت تلك الحكومة في الحقيقة خليطاً من الصدارة الدنيوية والحكومية والزعامة الدينية ، حكمت بين العرب باسم الزعامة الدينية ، وحكمت في الحرم وما ولاه بصفتها حكومة تشرف على مصالح الوافدين إلى البيت ، وتنفذ حكم شريعة إبراهيم ، وكانت لها من الدوائر والتشكيلات ما يشابه دوائر البرلمان - كما أسلفنا - ولكن هذه الحكومة كانت ضعيفة لا تقدر على حمل العبء كما وضع يوم غزو الأحباش .

ديانات العرب

كان معظم العرب اتبعوا دعوة إسماعيل - عليه السلام - حين دعاهم إلى دين إبراهيم - عليه السلام - فكانت تعبد الله وتوحده وتدين بدينه ، حتى طال عليهم الأمد ونسوا حظا مما ذكروا به ، إلا أنهم بقى فيهم التوحيد وعدة شعائر من دين إبراهيم ، حتى جاء عمرو بن لحي رئيس خزاعة وكان قد نشأ على أمر عظيم من المعروف والصدقة والحرص على أمور الدين ، فأحبه الناس ، ودانوا له ظنا منهم أنه من أكابر العلماء وأفاضل الأولياء ، ثم إنه سافر إلى الشام ، فرآهم يعبدون الأوثان ، فاستحسن ذلك وظنه حقا ، لأن الشام محل الرسل والكتب ، فقدم معه بهبل وجعله في جوف الكعبة ، ودعا أهل مكة إلى الشرك بالله ، فأجابوه . ثم لم يلبث أهل الحجاز أن تبعوا أهل مكة ، لأنهم ولاية البيت وأهل الحرم (١) .

(١) مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ١٢ .

ومن أقدم أصنامهم مناة ، كانت بالمشلل على ساحل البحر الأحمر بالقرب من قديد ، ثم اتخذوا اللات في الطائف ، ثم اتخذوا العزى بوادى نخلة ، هذه الثلاث أكبر أوثانهم ، ثم كثر الشرك ، وكثرت الأوثان فى كل بقعة من الحجاز ، ويذكر أن عمرو بن لحي كان له رؤى من الجن ، فأخبره بأن أصنام قوم نوح - ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا - مدفونة بجدة فأتاها فاستشارها ، ثم أورها إلى تهامة^(٢) ، فلما جاء الحج دفعها إلى القبائل ، فذهبت بها إلى أوطانها ، حتى صار لكل قبيلة ثم فى كل بيت صنم وقد ملأوا المسجد الحرام بالأصنام ، ولما فتح رسول الله ﷺ مكة وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنما ، فجعل يطعنهن حتى تساقطت ، ثم أمر بها فأخرجت من المسجد وحرقت^(٣) .

وهكذا صار الشرك وعبادة الأصنام أكبر مظهر من مظاهر دين أهل الجاهلية ، الذين كانوا يزعمون أنهم على دين إبراهيم .

وكانت لهم تقاليد ومراسم فى عبادة الأصنام ، ابتدع أكثرها عمرو بن لحي ، وكانوا يظنون أن ما أحدثه عمرو بن لحي بدعة حسنة ، وليس بتغيير لدين إبراهيم فكان من مراسم عبادتهم للأصنام أنهم :

١ - كانوا يعكفون عليها ، ويلتجئون إليها .. ويهتفون بها ، ويستغيثونها فى الشدائد ، ويدعونها لحاجاتهم ، معتقدين أنها تشفع عند الله ، وتحقق لهم ما يريدون .

٢ - وكانوا يحجون إليها ويطوفون حولها ، ويتذللون عندها ، ويسجدون لها .

٣ - وكانوا يتقربون إليها بأنواع من القرابين ، فكانوا يذبحون وينحرون لها وبأسمائها .

وهذان النوعان من الذبح ذكرهما الله تعالى فى قوله ﴿ وما ذبح على نصب ﴾ (٣:٥) وفى قوله ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ (٦: ١٢١) .

٤ - وكان من أنواع التقرب أنهم كانوا يخصصون للأصنام شيئا من مآكلهم ومشربهم حسبما يبدو لهم ، وكذلك كانوا يخصصون لها نصيبا من حرثهم وأنعامهم . ومن الطرائف أنهم كانوا يخصصون من ذلك جزءا لله أيضا ، وكانت عندهم أسباب كثيرا ما كانوا ينقلون لأجلها إلى الأصنام ما كان لله ، ولكن لم يكونوا ينقلون إلى الله ما كان لأصنامهم بحال . قال تعالى : ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشر كائننا ، فما كان لشر كائنهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شر كائنهم ، ساء ما يحكمون ﴾ (١٣٦: ٦) .

(١) صحيح البخارى ١/ ٢٢٢ .

(٣) مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ محمد بن عبد الرهاب ص ١٣ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤ .

٥ - وكان من أنواع التقرب إلى الأصنام النذر في الحرث والأنعام ، قال تعالى : ﴿وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم ، وأنعام حُرِّمَتْ ظهورها ، وأنعام لا يذكر اسم الله عليها فترأى عليه﴾ (٦ : ١٣٨) .

٦ - وكانت منها البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى . قال ابن إسحاق : البحيرة بنت السائبة ، هي الناقة إذا تابعت بين عشر إناث ليس بينهم ذكر سييت ، فلم يركب ظهرها ، ولم يجز وبرها ، ولم يشرب لبنها إلا ضيف فما نتجت بعد ذلك من أنثى شقت أذنها ، ثم خلى سبيلها مع أمها ، فلم يركب ظهرها ، ولم يجز وبرها ، ولم يشرب لبنها إلا ضيف ، كما فعل بأمها ، في البحيرة بنت السائبة . والوصيلة : الشاة إذا أتمت عشر إناث متتابعات في خمسة أبطن ليس بينهن ذكر جعلت وصيلة ، قالوا : قد وصلت ، فكان ما ولد بعد ذلك للذكور منهم دون إناثهم إلا أن يموت شيء فيشترك في أكله ذكورهم وإناثهم .

والحامى : الفحل إذ نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر حمى ظهره فلم يركب ، ولم يجز وبره ، وخلى في إبله يضرب فيها ، لا يتففع منه بغير ذلك ، وفي ذلك أنزل الله تعالى : ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ، ولا وصيلة ، ولا حام ، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ، وأكثرهم لا يعقلون﴾ (٥ : ١٠٣) وأنزل : ﴿وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة للذكورنا ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء﴾ (٦ : ١٣٩) وقيل فى تفسير هذه الأنعام غير ذلك (١) .

وقد صرح سعيد بن المسيب أن هذه الأنعام كانت لطواغيتهم (٢) وفى الصحيح مرفوعا : أن عمرو بن لحي أول من سيب السوائب (٣) .

كانت العرب تفعل كل ذلك بأصنامهم ، معتقدين أنها تقربهم إلى الله وتوصلهم إليه ، وتشفع لديه كما فى القرآن : ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ - (٣٩ : ٣) ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ (١٠ : ١٨) .

وكانت العرب تستقسم بالأزلام ، و الزلم : القدح الذى لا ريش عليه ، وكانت الأزلام ثلاثة أنواع : نوع فيه «نعم» ، «لا» كانوا يستقسمون بهما فيما يريدون من العمل من نحو السفر والنكاح وأمثالها . فإن خرج «نعم» عملوا به وإن خرج «لا» أخروه عامه ذلك حتى يأتوه مرة أخرى ، ونوع فيه المياه والدية ، ونوع فيه «منكم» أو «من غيركم» أو «ملصق» فكانوا إذا شكوا فى نسب أحدهم ذهبوا به إلى هبل ، وبمائة جزور ،

(٣) نفس المصدر .

(٢) صحيح البخارى ١ / ٤٩٩ .

(١) ابن هشام ١ / ٨٩ ، ٩٠ .

فأعطوها صاحب القداح . فإن خرج «منكم» كان منهم وسيطا ، وإن خرج عليه « من غيركم » كان حليفا ، وإن خرج عليه «ملصق» كان على منزلته فيهم ، لا نسب ولا حلف (١) ويقرب من هذا الميسر والقداح ، وهو ضرب من ضروب القمار ، وكانوا يقتسمون به لحم الجزور التي يذبحونها بحسب القداح .

وكانوا يؤمنون بأخبار الكهنة والعرافين والمنجمين ، والكاهن : هو من يتعاطى الأخبار عن الكوائن في المستقبل ، ويدعى معرفة الأسرار ، ومن الكهنة من يزعم أن له تابعا من الجن يلقي عليه الأخبار ومنهم من يدعى إدراك الغيب بفهم أعطيه ، ومنهم من يدعى معرفة الأمور بمقدمات وأسباب يستدل بها على مواقعها من كلام من يسأله أو فعله أو حاله وهذا القسم يسمى عرافا ، كمن يدعى معرفة المسروق ومكان السرقة والضالة ونحوها . والمنجم : من ينظر في النجوم أى الكواكب ، ويحسب سيرها ومواقيتها ، ليعلم بها أحوال العالم وحوادثه التي تقع في المستقبل (٢) والتصديق بأخبار المنجمين هو في الحقيقة إيمان بالنجوم ، وكان من إيمانهم بالنجوم الإيمان بالأنواء ، فكانوا يقولون مطرنا بنوء كذا وكذا (٣) .

وكانت فيهم الطيرة (بكسر ففتح) وهى التشاؤم بالشئ ، أصله أنهم كانوا يأتون الطير أو الظبي فينفرونه ، فإن أخذ ذات اليمين مضوا إلى ما قصدوا ، وعدوه حسنا ، وإن أخذ ذات الشمال انتهوا عن ذلك وتشاءموا ، وكانوا يتشاءمون كذلك إن عرض الطير أو الحيوان فى طريقهم .

ويقرب من هذا تعليقهم كعب الأرنب ، والتشاؤم ببعض الأيام والشهور والحيوانات والدور والنساء ، والاعتقاد بالعدوى والهامة ، فكانوا يعتقدون أن المقتول لا يسكن جأشه مالم يؤخذ بثأره وتصير روحه هامة أى بومة تطير فى الفلوات وتقول : صدى صدى أو اسقونى اسقونى ، فإذا أخذ بثأره سكن واستراح (٤) .

كان أهل الجاهلية على ذلك وفيهم بقايا من دين إبراهيم ولم يتركوه كله ، مثل تعظيم البيت والطواف به ، والحج ، والعمرة ، والوقوف بعرفة والمزدلفة وإهداء البدن ، نعم ابتدعوا فى ذلك بدعا .

منها أن قرىشا كانوا يقولون : نحن بنو إبراهيم وأهل الحرم ، وولاية البيت وقاطنو مكة وليس لأحد من العرب مثل حقنا ومنزلتنا . وكانوا يسمون أنفسهم الخمس - فلا ينبغى لنا أن

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١ / ٥٦ ، وابن هشام ١ / ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٢) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٢ / ٢ ، ٣ .

(٣) انظر صحيح مسلم مع شرحه للنوى ، بابا بيان كفر من قال : مطرنا بالنوء ، من كتاب الإيمان ١ / ٥٩ .

(٤) انظر صحيح البخارى ٢ / ٨٥١ ، ٨٥٧ مع حواشيه للشيخ أحمد على السهارنفورى .

نخرج من الحرم إلى الحل ، فكانوا لا يقفون بعرفة ، ولا يفيضون منها ، وإنما كانوا يفيضون من المزدلفة وفيهم أنزل :

﴿ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ﴾ (٢ : ١٩٩) (١) .

ومنها أنهم قالوا : لا ينبغي للحُمس أن يغطوا الأقط ولا يسلثوا السمن ، وهو حرم ، ولا يدخلوا بيتا من شعر ، ولا يستظلوا إلا في بيوت الأدم ما داموا حرما (٢) .

ومنها أنهم قالوا : لا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به من الحل إلى الحرم إذا جاءوا حجاجا أو عمارا (٣) .

ومنها أنهم أمروا أهل الحل أن لا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الخمس ، فإن لم يجدوا شيئا فكان الرجال يطوفون عراة ، وكانت المرأة تضع ثيابها كلها إلا درعا مفرجا ثم تطوف فيه وتقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

وأُنزل الله في ذلك : ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ (٧ : ٣١) ، فإن تكرم أحد من الرجل والمرأة فطاف في ثيابه التي جاء بها من الحل ألقاها بعد الطواف ولا ينتفع بها هؤلاء ولا أحد غيره (٤) .

ومنها أنهم كانوا لا يأتون بيوتهم من أبوابها في حال الإحرام ، بل كانوا ينقبون في ظهور البيوت نقبا يدخلون ويخرجون منه ، وكانوا يحسبون ذلك الجفاء برا وقد منعه القرآن (٢ : ١٨٩) .

كانت هذه الديانة - ديانة الشرك وعبادة الأوثان ، والاعتقاد بالوهميات والخرافات - ديانة معظم العرب - ، وقد وجدت اليهودية ، والمسيحية ، والمجوسية والصابئية سبيلا للدخول في ربوع العرب .

ولليهود دوران - على الأقل - مثلوهما في جزيرة العرب :

الأول : هجرتهم في عهد الفتوح البابلية والآشورية في فلسطين ، فقد نشأ عن الضغط على اليهود ، وعن تخريب بلادهم وتدمير هيكلهم على يد الملك بختنصر سنة ٥٨٧ ق . م وسبى أكثرهم إلى بابل أن قسما منهم هجر البلاد الفلسطينية إلى الحجاز ، وتوطن في ربوعها الشمالية (٥) .

(١) ابن هشام ١/١٩٩ ، صحيح البخارى ١/٢٢٦ (٢) نفس المصدر الأول ١/٢٠٢

(٣) ابن هشام ١/٢٠٢

(٤) ابن هشام ١/٢٠٢ ، ٢٠٣ وصحيح البخارى ٦/٢٢٦ . (٥) قلب جزيرة العرب ص ١٥١ .

الدور الثاني : يبدأ من احتلال الرومان لفلسطين بقيادة بتطس الروماني سنة ٧٠ م ، فقد نشأ عن ضغط الرومان على اليهود ، وعن تخريب الهيكل وتدميره أن قبائل عديدة من اليهود رحلت إلى الحجاز ، واستقرت في يثرب وخيبر وتيماء ، وأنشأت فيها القرى والآطام والقلاع ، وانتشرت الديانة اليهودية بين قسم من العرب عن طريق هؤلاء المهاجرين ، وأصبح لها شأن يذكر في الحوادث السياسية التي سبقت ظهور الإسلام ، والتي حدثت في صدره . وحينما جاء الإسلام كانت القبائل اليهودية المشهورة هي :

خيبر والنضير والمصطلق وقريظة وقينقاع ، وذكر السهمودي في وفاء الوفا (ص ١١٦) أن عدد القبائل اليهودية يزيد على عشرين (١) .

ودخلت اليهودية في اليمن من قبل تبان أسعد أبي كرب ، فإنه ذهب مقاتلاً إلى يثرب واعتنق هناك اليهودية وجاء بحبرين من بني قريظة إلى اليمن ، فأخذت اليهودية إلى التوسع والانتشار فيها ، ولما ولي اليمن بعده ابنه يوسف ذو نواس هجم على المسيحيين من أهل نجران ودعاهم إلى اعتناق اليهودية ، فلما أبوا خذلهم الأخدود ، وأحرقهم بالنار ، ولم يفرق بين الرجل المرأة والأطفال الصغار والشيخوخ الكبار ، ويقال إن عدد المقتولين ما بين عشرين ألفاً إلى أربعين ألفاً ، وقع ذلك في أكتوبر سنة ٥٢٣ م (٢) . وقد أورد القرآن جزءاً من هذه القصة في سورة البروج .

أما الديانة النصرانية فقد جاءت إلى بلاد العرب عن طريق احتلال الحبشة والرومان ، وكان أول احتلال الحبشة لليمن سنة ٣٤٠ م ، واستمر إلى سنة ٣٧٨ م (٣) ، وفي ذلك الزمان دخل التبشير المسيحي في ربوع اليمن ، وبالقرب من هذا الزمان دخل رجل زاهد مستجاب الدعوات وصاحب كرامات - وكان يسمى فيميون - إلى نجران ، ودعاهم إلى الدين المسيحي ، ورأى أهل نجران من أمارات صدقه وصدق دينه مالبوا لأجله المسيحية واعتنقوها (٤) .

ولما احتلت الأحباش اليمن كرد فعل لما أتاه ذو نواس ، وتمكن أبرهة من حكومتها ؛ أخذ ينشر الديانة المسيحية بأوفر نشاط ، وأوسع نطاق ، حتى بلغ من نشاطه أنه بنى كعبة باليمن ، وأراد أن يصرف حج العرب إليها ، ويهدم بيت الله الذي بمكة ، فأخذ الله نكال الآخرة والأولى .

وقد اعتنق النصرانية العرب الغساسنة وقبائل تغلب وطيء وغيرهما لمجاورة الرومان ، بل قد اعتنقها بعض ملوك الحيرة .

(١) قلب جزيرة العرب ص ١٥١

(٢) تفهيم القرآن ٦ / ٢٩٧ ، وابن هشام ١ / ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٣٥ ، ٣٦ .

(٣) تفهيم القرآن ٦ / ٢٩٧ (٤) انظر في ذلك ابن هشام ١ / ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ .

أما المجوسية فكان معظمها فى العرب الذين كانوا بجوار الفرس ، فكانت فى عراق العرب وفى البحرين - الأحساء - وهجر وما جاورها من منطقة سواحل الخليج العربى ، ودان لها رجال من اليمن فى زمن الاحتلال الفارسى .

أما الصابئية فقد دلت الحفريات والتنقيبات فى بلاد العراق وغيرها أنها كانت ديانة قوم إبراهيم الكلدانيين ، وقد دان بها كثير من أهل الشام ، وأهل اليمن فى غابر الزمان ، وبعد تتابع الديانات الجديدة من اليهودية والنصرانية تضعضع بنيان الصابئية وخمد نشاطها ، ولكن لم يزل فى الناس بقايا من أهل هذه الديانة مختلطين مع المجوس ، أو مجاورين لهم ، فى عراق العرب ، وعلى شواطئ الخليج العربى (١) .

الحالة الدينية :

كانت هذه الديانات هى ديانات العرب حين جاء الإسلام ، وقد أصاب هذه الديانات الانحلال والبوار ، فالمشركون الذين كانوا يدعون أنهم على دين إبراهيم كانوا بعيدين عن أوامر ونواهي شريعة إبراهيم ، مهملين ما أتت به من مكارم الأخلاق . فكثرت معاصيهم ، ونشأ فيهم على توالى الزمان ما ينشأ فى الوثنيين من عادات وتقاليد تجرى مجرى الخرافات الدينية ، وأثرت فى الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية تأثيرا بالغاً جداً .

أما اليهودية فقد انقلبت رياء وتحكما ، وصار رؤساؤها أربابا من دون الله ، يتحكمون فى الناس ويحاسبونهم حتى على خطرات النفس وهمسات الشفاه ، وجعلوا همهم الخطوة بالمال والرياسة وإن ضاع الدين وانتشر الإلحاد والكفر والتهاون بالتعاليم التى حض الله عليها وأمر كل فرد بتقديسها .

وأما النصرانية فقد عادت وثنية عسرة الفهم ، وأوجدت خلطاً عجيباً بين الله والإنسان ، ولم يكن لها فى نفوس العرب المتدينين بهذا الدين تأثير حقيقى ، لبعد تعاليمها عن طراز المعيشة التى ألفوها ، ولم يكونوا يستطيعون الابتعاد عنها .

وأما سائر أديان العرب فكانت أحوال أهلها كأحوال المشركين ، فقد تشابهت قلوبهم وتواردت عقائدهم ، وتوافقت تقاليدهم وعوائدهم .

صور من المجتمع العربى الجاهلى

بعد البحث عن سياسة الجزيرة وأديانها ؛ بقى لنا أن نتكلم حول الأحوال الاجتماعية والاقتصادية ، والخلقية ، وفيما يلى بيانها بإيجاز :

(١) تاريخ أرض القرآن ٢ / ١٩٣ إلى ٢٠٨

الحالة الاجتماعية :

كانت فى العرب أوساط متنوعة ، تختلف أحوال بعضها عن بعض ، فكانت علاقة الرجل مع أهله فى الأشراف على درجة كبيرة من الرقى والتقدم ، وكان لها من حرية الإرادة ونفاذ القول القسط الأوفر ، وكانت محترمة مصونة تسل دونها السيوف ، وتراق الدماء ، وكان الرجل إذا أراد أن يمتدح بما له فى نظر العرب المقام السامى من الكرم والشجاعة لم يكن يخاطب فى أكثر أوقاته إلا المرأة ، وربما كانت المرأة إذا شاءت جمعت القبائل للسلام ، وإن شاءت أشعلت بينهم نار الحرب والقتال ، ومع هذا كله فقد كان الرجل يعتبر بلا نزاع رئيس الأسرة ، وصاحب الكلمة فيها ، وكان ارتباط الرجل بالمرأة بعقد الزواج تحت إشراف أوليائها ولم يكن من حقها أن تفتت عليهم .

بينما هذه حال الأشراف ، كان هناك فى الأوساط الأخرى أنواع من الاختلاط بين الرجل والمرأة ، لا نستطيع أن نعبر عنه إلا بالدعارة والمجون والسفاح والفاحشة ، روى أبو داود عن عائشة رضى الله عنها أن النكاح فى الجاهلية كان على أربعة أنحاء :

فكان منها نكاح الناس اليوم ، يخطب الرجل إلى الرجل وليته فيصدقها ثم ينكحها ، ونكاح آخر : كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمئنها أرسلنى إلى فلان فاستبضعى منه ، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه ، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إن أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد ، فكان هذا النكاح يسمى نكاح الاستبضاع ، ونكاح آخر : يجمع الرهط دون العشرة . فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها . فإذا حملت ، ووضعت ومرت ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم ، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها ، فتقول لهم : قد عرفتم الذى كان من أمركم وقد ولدت ، وهو ابنك يا فلان ، فتسمى من أحببت منهم باسمه فيلحق به ولدها ونكاح رابع : يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها . وهن البغايا ، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما لمن أرادهن دخل عليهن ، فإذا حملت ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لهم القافة ، ثم ألحقوا ولدها بالذى يروونه فالتاطه ودعى ابنه ، لا يمتنع من ذلك ، فلما بعث الله محمدا ﷺ هدم نكاح أهل الجاهلية كله إلا نكاح الإسلام اليوم (١) .

وكانت عندهم اجتماعات بين الرجل والمرأة تعقدتها شفار السيوف ، وأسنة الرماح ، فكان المتغلب فى حروب القبائل يسبى نساء المقهور فيستحلها ، ولكن الأولاد الذين تكون هذه أمهم يلحقهم العار مدة حياتهم .

(١) أبو داود ، كتاب النكاح ، باب وجوه النكاح التى كان يتناكح بها أهل الجاهلية .

وكان المعروف من أهل الجاهلية أنهم كانوا يعددون بين الزوجات من غير حد معروف ينتهى إليه ، وكانوا يجمعون بين الأختين ، وكانوا يتزوجون بزوجة آبائهم إذا طلقوها أو ماتوا عنها (سورة النساء ٢٢ ، ٢٣) وكان الطلاق بين الرجال لا إلى حد معين (١).

وكانت فاحشة الزنا سائدة فى جميع الأوساط ، لا نستطيع أن نخص منها وسطا دون وسط أو صنفا دون صنف ، إلا أفرادا من الرجال والنساء ممن كان تعاضم نفوسهم يأبى الوقوع فى هذه الرذيلة ، وكانت الحرائر أحسن حالا من الإماء والطامة الكبرى هى الإماء ويبدو أن الأغلبية الساحقة من أهل الجاهلية لم تكن تحس بعار فى الانتساب إلى هذه الفاحشة ، روى أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قام رجل فقال : يا رسول الله إن فلانا ابنى ، عاهرت بأمه ، فى الجاهلية ، فقال رسول الله ﷺ : « لا دعوة فى الإسلام ، ذهب أمر الجاهلية الولد للفراش وللعاهر الحجر ».

وقصة اختصام سعد بن أبى وقاص وعبد بن زمعة فى ابن أمة زمعة - وهو عبد الرحمن بن زمعة - معروفة (٢).

وكانت علاقة الرجل مع أولاده على أنواع شتى فمنهم من يقول :

إنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشى على الأرض

ومنهم من كان يمد البنات خشية العار والإنفاق ، ويقتل الأولاد خشية الفقر والإملاق (القرآن ٦ - ١٥١ ، ١٦ - ٥٨ ، ١٧ - ٥٩ ، ٣١ - ٨١ - ٨).

ولكن لا يمكننا أن نعد هذا من الأخلاق المنتشرة السائدة ، فقد كانوا أشد الناس احتياجا إلى البنين ، ليتقوا بهم العدو .

أما معاملة الرجل مع أخيه وأبناء عمه وعشيرته فقد كانت موطدة قوية ، فقد كانوا يحيون للعصبية القبلية ، ويموتون لها . كانت روح الاجتماع سائدة بين القبيلة الواحدة تزيدها العصبية ، وكان أساس النظام الاجتماعى هو العصبية الجنسية والرحم ، وكانوا يسيرون على المثل السائر « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » على المعنى الحقيقى ، من غير التعديل الذى جاء به الإسلام من أن نصر الظالم كفه عن ظلمه ، إلا أن التنافس فى الشرف والسؤدد كثيرا ما كان يقضى إلى الحروب بين القبائل التى كان يجمعها أب واحد ، كما نرى ذلك بين الأوس والخزرج ، وعبس وذبيان ، وبكر وتغلب وغيرهما .

(١) نفس المصدر باب نسخ المراجعة بعد التخليقات الثلاث . وهذا الذى ذكره المفسرون فى سبب نزول قوله تعالى ﴿الطلاق مرتان﴾ .
(٢) أبو داود باب الولد للفراش

أما العلاقة بين القبائل المختلفة فقد كانت مفككة الأوصال تماما ، وكانت قواهم متفانية في الحروب . إلا أن الرهبة والوجل من بعض التقاليد والعادات المشتركة بين الدين والخرافة ربما كان يخفف من حدتها وصرامتها وفي بعض الحالات كانت المولاة والحلف والتبعية تفضي إلى اجتماع القبائل المتغايرة وكانت الأشهر الحرم رحمة وعونا لهم على حياتهم وحصول معاشهم .

وقصارى الكلام أن الحالة الاجتماعية كانت في الحضيض من الضعف والعماية فالجهل ضارب أطنابه ، والخرافات لها جولة وصوله والناس يعيشون كالأنعام ، والمرأة تباع وتشترى وتعامل كالجماادات أحيانا ، والعلاقة بين الأمة واهية مبهتة ، وما كان من الحكومات فجعل هممتها امتلاء الخزائن من رعيته أو جر الحروب على مناوئتها .

الحالة الاقتصادية :

أما الحالة الاقتصادية ، فتبعت الحالة الاجتماعية ، ويتضح ذلك إذا نظرنا في طرق معاش العرب . فالتجارة كانت أكبر وسيلة للحصول على حوائج الحياة ، والجولة التجارية لا تيسر إلا إذا ساد الأمن والسلام ، وكان ذلك مفقودا في جزيرة العرب إلا في الأشهر الحرم ، وهذه هي الشهور التي كانت تعقد فيها أسواق العرب الشهيرة من عكاظ وذى المجاز ومجنة وغيرها .

وأما الصناعات فكانوا أبعد الأثم عنها ، ومعظم الصناعات التي كانت توجد في العرب من الحياكة والدباغة وغيرها كانت في أهل اليمن والحيرة ، ومشارف الشام ، نعم كانت في داخل الجزيرة الزراعة ، والحرث ، واقتناء الأنعام ، وكانت نساء العرب كافة يشتغلن بالغزل ، لكن كانت الأمتعة عرضة للحروب ، وكان الفقر والجوع والعري عاما في المجتمع .

الأخلاق :

لأنكر أن أهل الجاهلية كانت فيهم دنيا ورذائل وأمور ينكرها العقل السليم ، ويأبأها الوجدان ، ولكن كانت فيهم من الأخلاق الفاضلة المحمودة ما يروع الإنسان ، ويفضي به إلى الدهشة والعجب ، فمن تلك الأخلاق :

١ - الكرم ، وكانوا يتبارون في ذلك ويفتخرون به ، وقد استنفدوا فيه نصف أشعارهم ، بين ممتدح به ومثن على غيره ، كان الرجل يأتيه الضيف في شدة البرد والجوع ، وليس عنده من المال إلا ناقتة التي هي حياته وحياة أسرته ، فتأخذه هزة الكرم ، فيقوم إليها ، ويدبحها لضيفه ، ومن آثار كرمهم أنهم كانوا يتحملون الديات الهائلة والحملات المدهشة ، يكفون بذلك سفك الدماء ، وضياع الإنسان ، ويمتدحون بها مفتخرين على

غيرهم من الرؤساء والسادات .

وكان من نتائج كرمهم أنهم كانوا يمتدحون بشرب الخمر ، لا لأنها مفخرة في ذاتها ، بل لأنها سبيل من سبل الكرم ، ومما يسهل السرف على النفس ، ولأجل ذلك كانوا يسمون شجر العنب بالكرم ، وخمره بينت الكرم .

وإذا نظرت إلى دواوين أشعار الجاهلية تجد ذلك بابا من أبواب المديح والفخر ، يقول عنتر بن شداد العبسي في معلقته :

ولقد شربت من المدامة بعدما	ركد الهواجر بالمشوف المعلم
بزجاجة صفراء ذات أسرة	فأنت بأزهر بالشمال مقدم
فإذا شربت فإننى مستهلك	مالى ، وعرضى وافر لم يكلم
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى	وكما علمت شمائلى وتكرمى

ومن نتائج كرمهم اشتغالهم بالميسر ، فإنهم كانوا يرون أنه سبيل من سبل الكرم ، لأنهم كانوا يطعمون المساكين ما ربحوه ، أو ما كان يفضل عن سهام الرابحين ، ولذلك ترى القرآن لا ينكر نفع الخمر والميسر وإنما يقول ﴿ وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ (٢: ٢١٩)

٢- ومن تلك الأخلاق الوفاء بالعهد ، فقد كان العهد عندهم ديناً يتمسكون به ، ويستهيئون في سبيله قتل أولادهم ، وتخريب ديارهم ، وتكفى في معرفة ذلك قصة هاني بن مسعود الشيباني ، والسموأل بن عاديا ، وحاجب بن زرارة التميمي .

٣- ومنها عزة النفس وإباء عن قبول الخسف والضميم ، وكان من نتائج هذا فرط الشجاعة ، وشدة الغيرة ، وسرعة الانفعال ، فكانوا لا يسمعون كلمة يشمون منها رائحة الذل والهوان إلا قاموا إلى السيف والسنان ، وأثاروا الحروب العوان ، وكانوا لا يبالون بتضحية أنفسهم في هذا السبيل .

٤- ومنها المضى في العزائم ، فإذا عزموا على شيء يرون فيه المجد ، والافتخار لا يصرفهم عنه صارف ، بل كانوا يخاطرون بأنفسهم في سبيله .

٥- ومنها الحلم ، والأناة ، والتؤدة ، كانوا يتمدحون بها إلا أنها كانت فيهم عزيزة الوجود ، لفرط شجاعتهم ، وسرعة إقدامهم على القتال .

٦- ومنها السداجة البدوية ، وعدم التلوث بلوثات الحضارة ، ومكائدها ، وكان من نتائج الصدق والأمانة ، والنفور عن الخداع والغدر .

نرى أن هذه الأخلاق الثمينة - ما كان لجزيرة العرب من الموقع الجغرافى بالنسبة إلى

العالم - كانت سبباً في اختيارهم لحمل عبء الرسالة العامة ، وقيادة الأمة الإنسانية والمجتمع البشري ؛ لأن هذه الأخلاق وإن كان بعضها يفضي إلى الشر ويجلب الحوادث المؤلمة ، إلا أنها كانت في نفسها أخلاقاً ثمينة ، تدر المنافع العامة للمجتمع البشري بعد شيء من الإصلاح ، وهذا الذي فعله الإسلام .

ولعل أغلى ما عندهم من هذه الأخلاق وأعظمها نفعا بعد الوفاء بالعهد هو عزة النفس والمضى في العزائم ، إذ لا يمكن قمع الشر والفساد ، وإقامة نظام العدل والخير ؛ إلا بهذه القوة القاهرة ، وبهذا العزم الصميم .

ولهم أخلاق فاضلة أخرى دون هذه التي ذكرناها وليس قصدنا استقصاءها .

نسب النبي ﷺ وأسرته

نسب النبي ﷺ :

لنسب النبي ﷺ ثلاثة أجزاء : جزء اتفق على صحته أهل السير والأنساب وهو إلى عدنان ، وجزء اختلفوا فيه ما بين متوقف فيه وقائل به ، وهو ما فوق عدنان إلى إبراهيم عليه السلام وجزء لا نسلك أن فيه أمورا غير صحيحة وهو ما فوق إبراهيم إلى آدم عليهما السلام ، وقد أسلفنا الإشارة إلى بعض هذا وهاك تفصيل تلك الأجزاء الثلاثة :

الجزء الأول : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب - واسمه شيبة - بن هاشم - واسمه عمرو - ابن عبد مناف - واسمه المغيرة - بن قصي - واسمه زيد - بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر - وهو الملقب بقريش وإليه تنتسب القبيلة - بن مالك بن النضر - واسمه قيس - بن كنانة بن خزيمة بن مدركة - واسمه عامر - بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان (١) .

الجزء الثاني : ما فوق عدنان وعدنان هو ابن أد بن هميص بن سلامان بن عوص بن بوز بن قموال بن أبي بن عوام بن ناشد بن حزا بن بلداس بن يدلاف بن طابخ بن جاحم بن ناحش بن ماخي بن عيضر بن عبقر بن عبيد بن الدعا بن حمدان بن سنير بن يشربي بن يجرن بن يلحن بن أرعوى بن عيضر بن ديشان بن عيصر بن أفناد بن أيهام بن مقصر بن ناحث بن زارح بن سمي بن مزي بن عوضه بن عرام بن قidar بن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام (٢) .

(١) ابن هشام ١ / ١ ، ٢ ، تلقيح فهرم أهل الأثر ٥ ، ٦ ، رحمة للعالمين ٢ / ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ٥٢ .

(٢) قد جمع العلامة محمد سليمان المنصور فرى هذا الجزء من النسب برواية الكلبي ، وابن سعد بعد تحقيق دقيق انظر رحمة للعالمين ٢ / ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ وفيه اختلاف كبير بين المصادر التاريخية .

الجزء الثالث : ما فوق إبراهيم عليه السلام ، وهو ابن تارح - واسمه آزر - بن ناحور
بن ساروع - أو ساروغ - بن راعو بن فالخ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح -
عليه السلام - بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ - يقال هو إدريس عليه السلام - بن يرد بن
مهلائيل بن قينان بن أنوشة بن شيث بن آدم عليهما السلام (١).

الأسرة النبوية :

تعرف أسرته عليه السلام بالأسرة الهاشمية - نسبة إلى جده هاشم بن عبد مناف - وإذن فلنذكر شيئاً من أحوال هاشم ومن بعده .

١ - هاشم - وقد أسلفنا أن هاشما هو الذي تولى السقاية والرفادة من بني عبد مناف حين تصالح بنو عبد مناف وبنو عبد الدار على اقتسام المناصب فيما بينهما ، وهاشم كان موسراً ذا شرف كبير ، وهو أول من أطعم الثريد للحجاج بمكة ، وكان اسمه عمرو فما سمي هاشما إلا لهشمه الخبز ، وهو أول من سن الرحلتين لقريش ، رحلة الشتاء والصيف ، وفيه يقول الشاعر :

عمر و الذي هشم الثريد لقومه
قوم بمكة مستتين عجاف

سنت إليه الرحلتان كلاهما سفر الشتاء ورحلة الأضياف

ومن حديثه أنه خرج إلى الشام تاجرا ، فلما قدم المدينة تزوج سلمى بنت عمرو أحد بنى عدى بن النجار ، وأقام عندها ، ثم خرج إلى الشام - وهي عند أهلها قد حملت بعبد المطلب - فمات هاشم بغزة من أرض فلسطين ، وولدت امرأته سلمى عبد المطلب سنة ٩٧ م ، وسمته ثيبية لثيبية كانت في رأسه ، (٢) وجعلت تربيته في بيت أبيها في ثرب ، ولم يشعر به أحد من أسرته بمكة وكان لهاشم أربعة بنين وهم : أسد ، وأبو صيفى ، ونضلة ، وعبد المطلب . وخمس بنات وهن : الشفاء ، وخالدة ، وضعيفة ، ورقية ، وجنة (٣) .

٢- عبد المطلب - قد علمنا مما سبق أن السقاية والرفادة بعد هاشم آلت إلى أخيه المطلب بن عبد مناف (وكان شريفا مطاعا ذا فضل في قومه، كانت قريش تسميه الفياض لسخائه) ولما صار شبية - عبد المطلب - وصيفا أو فوق ذلك سمع به المطلب. فرحل في طلبه، فلما رآه فاضت عيناه، وضمه، وأردفه على راحلته، فامتنع حتى تأذن له أمه، فسألها المطلب أن ترسله معه، فامتنعت فقال:

(١) ابن هشام ١٠٧/١ (٣) ابن هشام ٤٠٣، ٢/١، تلقيح فهو من أهل الأثر ص ٦، خلاصة السير للطبري ٦، ورحمة للعالمين ١٨/٢ واختلفت هذه المصدر في تلفظ بعض هذه الأسماء، كذا سقط من بعض المصادر بعض الأسماء

(٢) ابن هشام ١٣٧/١ ، رحمة للعالمين ١/٢٤٢، ٢٦١ (٣) ابن هشام ١٣٧/١ ، ١٣٨

إنما يمضى إلى ملك أبيه، وإلى حرم الله، فأذنت له، فقدم به مكة مردفه على بعيره، فقال الناس: هذا عبد المطلب، فقال ويحكم إنما هو ابن أخى هاشم . فأقام عنده حتى ترعرع ، ثم إن المطلب هلك بردمان من أرض اليمن، فأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون لقومهم، وشرف فى قومه شرفا لم يبلغه أحد من آبائه، وأحبه قومه، وعظم خطره فيهم^(١).

ولما مات المطلب وثب نوفل على أركاح عبد المطلب فغضبه إياها ، فسأل رجلا من قريش النصره على عمه ، فقالوا لا ندخل بينك وبين عمك . فكتب إلى أخواله من بنى النجار أبياتا يستنجدهم ، وسار خاله أبو سعد بن عدى فى ثمانين راكبا ، حتى نزل بالأبطح من مكة، فتلقيه عبد المطلب ، فقال : المنزل ، يا خال ! فقال : لا والله حتى ألقى نوفلا ، ثم أقبل فوقف نوفل ، وهو جالس فى الحجر مع مشايخ قريش ، فسل أبو سعد سيفه وقال : ورب البيت لكن لم ترد على ابن أختى أدكاحه لأمكن منك هذا السيف ، فقال : رددتها عليه ، فأشهد عليه مشايخ قريش ثم نزل على عبد المطلب ، فأقام عنده ثلاثا ، ثم اعتمر ورجع إلى المدينة ، فلما جرى ذلك حالف نوفل بنى عبد شمس بن عبد مناف على بنى هاشم ، ولما رأت خزاعة نصر بنى النجار لعبد المطلب قالوا : نحن ولدناه كما ولدتموه ، فنحن أحق بنصره . وذلك أن أم عبد مناف منهم - فدخلوا دار الندوة ، وحالفوا بنى هاشم على بنى عبد شمس ونوفل ، وهذا الحلف الذى صار سببا لفتح مكة كما سيأتى^(٢).

ومن أهم ما وقع لعبد المطلب من أمور البيت شيان^(٣) :

حفر بئر زمزم ووقعة الفيل .

وخلاصة الأول أنه أمر فى المنام بحفر زمزم ووصف له موضعها ، فقام يحفر ، فوجد فيه الأشياء التى دفنها الجراهمة حين لجأوا إلى الجلاء ، أى السيوف والدروع والغزاليين من الذهب ، فضرب الأسياف بابا للكعبة ، وضرب فى الباب الغزاليين ، وأقام سقاية زمزم للحجاج .

ولما بدت بئر زمزم نازعت قريش عبد المطلب ، وقالوا له : أشركنا قال ما أنا بفاعل ، هذا أمر خصصت به ، فلم يتركوه حتى خرجوا به للمحاكمة إلى كاهنة بنى سعد ، ولم يرجعوا حتى أراهم الله فى الطريق مادلهم على تخصيص عبد المطلب بزمزم ، وحينئذ نذر عبد المطلب لعن آتاه الله عشرة أبناء ، وبلغوا أن يمنعوه لينحرن أحدهم عند الكعبة .

وخلاصة الثانى أن أبرهة الصباح الحبشى ، النائب العام عن النجاشى على اليمن، لما رأى العرب يحجون الكعبة بنى كنيسة كبيرة بصنعاء ، وأراد أن يصرف حج العرب إليها ،

(١) ابن هشام ١٣٧/١ ١٣٨ (٢) مختصر سيرة الرسول للشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدى ص ٤١، ٤٢

(٣) ابن هشام ١٤٢/١، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧ .

وسمع بذلك رجل من بنى كنانة ، فدخلها ليلا فلطخ قبلتها بالعذرة . ولما علم أبرهة بذلك ثار غيظه ، وسار بجيش عرمرم - عدده ستون ألف جندي - إلى الكعبة ليهدمها ، واختار لنفسه فيلا من أكبر الفيلة ، وكان في الجيش ٩ فيلة أو ١٣ فيلا ، وواصل سيره حتى بلغ المغمس ، وهناك عبأ جيشه ، وهيا فيله ، وتهيأ لدخول مكة ، فلما كان في وادي محسر بين المزدلفة ومنى برك الفيل ، ولم يقدّم إلى الكعبة ، وكانوا كلما وجهوه إلى الجنوب أو الشمال أو الشرق يقوم يهرول ، وإذا صرفوه إلى الكعبة برك ، فبينما هم كذلك إذ أرسل الله عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول ، وكانت الطير أمثال الخطاطيف والبلسان ، مع كل طائر ثلاثة أحجار ، حجر في منقاره ، وحجران في رجليه أمثال الحمص ، لا تصيب منهم أحدا إلا صار تنقطع أعضاؤه ، وهلك ، وليس كلهم أصابت ، وخرجوا هاربين يموج بعضهم في بعض فتساقطوا بكل طريق ، وهلكوا على كل منهل ، وأما أبرهة فبعث الله عليه داء تساقطت بسببه أنامله ، ولم يصل إلى صنعاء إلا وهو مثل الفرخ ، وانصدع صدره عن قلبه ثم هلك .

وأما قریش فكانوا قد تفرقوا في الشعاب وتحرزوا في رؤوس الجبال ، خوفا على أنفسهم من معرة الجيش ، فلما نزل بالجيش منازل رجعوا إلى بيوتهم آمين (١) .

وكانت هذه الواقعة في شهر المحرم قبل مولد النبي ﷺ بخمسين يوما أو بخمسة وخمسين يوما - عند الأكثر - وهو يطابق أواخر فبراير أو أوائل مارس سنة ٥٧١ م ، وكانت مقدمة قدمها الله لنبيه وبيته ، لأنها حين ننظر إلى بيت المقدس نرى أن المشركين من أعداء الله تسلطوا على هذه القبلة ، وأهلها مسلمون كما وقع لبختنصر سنة ٥٨٧ ق. م ، والرومان سنة ٧٠ م ، ولكن الكعبة لم يسيطر عليها النصاري - وهم المسلمون إذ ذاك - مع أن أهلها كانوا مشركين .

وقد وقعت هذه الواقعة في الظروف التي يبلغ نبأها إلى معظم المعمورة المتحضرة إذ ذاك ، فالحبشة كانت لها صلة قوية بالرومان ، والفرس لا يزالون لهم بالمرصاد ، يترقبون منازل بالرومان وحلفائهم ، ولذلك سرعان ما جاءت الفرس إلى اليمن بعد هذه الواقعة ، وهاتان الدولتان كانتا تمثلان العالم المتحضر . فهذه الواقعة لفتت أنظار العالم ودلت على شرف بيت الله ، وأنه هو الذي اصطفاه الله للتقديس ، فإذا لو قام أحد من أهله بدعوى النبوة كان ذلك هو عين ما تقتضيه هذه الواقعة ، وكان تفسير الحكمة الخفية التي كانت في نصرة الله ، المشركين ضد أهل الإيمان بطريق يفوق عالم الأسباب .

وكان لعبد المطلب عشرة بنين ، وهم : الحارث والزبير وأبو طالب ، وعبد الله ،

(١) ابن هشام ٤٣/١ إلى ٥٦ ، تفهم القرآن ٦/٦٢٢ إلى ٤٦٩

وحمزة، وأبو لهب، والغيداق، والمقوم، وصفار، والعباس، وقيل: كانوا أحد عشر، فزادوا ولدا اسمه قثم، وقيل: كانوا ثلاثة عشر، فزادوا عبد الكعبة وحجلا، وقيل: إن عبد الكعبة هو المقوم، وحجلا هو الغيداق ولم يكن من أولاده رجل اسمه قثم، وأما البنات فست وهن: أم الحكيم - وهي البيضاء - وبرة وعاتكة وصفية وأروى وأميمة^(١).

٣ - عبد الله والد رسول الله ﷺ - أمه فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة، وكان عبد الله أحسن أولاد عبد المطلب، وأعفهم وأحبهم إليه، وهو الديبع، وذلك أن عبد المطلب لما تم أبناؤه عشرة، وعرف أنهم يمنعونهم أخبرهم بنذره فأطاعوه، فكتب أسماءهم في القداح، وأعطاهم قيم هبل، فضرب القداح فخرج القدح على عبد الله، فأخذه عبد المطلب، وأخذ الشفرة، ثم أقبل به إلى الكعبة ليذبحه، فمنعته قريش ولا سيما أخواله من بني مخزوم وأخوه أبو طالب، فقال عبد المطلب: فكيف أصنع بنذري فأشاروا عليه أن يأتي عرافة فيستأمرها، فأتاها، فأمرت أن يضرب القداح على عبد الله وعلى عشر من الإبل، فإن خرجت على عبد الله يزيد عشرا من الإبل حتى يرضى ربه، فإن خرجت على الإبل نحرها، فرجع وأقرع بين عبد الله وبين عشر من الإبل فوقعت القرعة على عبد الله فلم يزل يزيد من الإبل عشرا عشرا ولا تقع القرعة إلا عليه إلى أن بلغت الإبل مائة فوقعت القرعة عليها، فنحرت عنه، ثم تركها عبد المطلب لا يرد عنها إنسانا ولا سبعا، وكانت الدية في قريش وفي العرب عشرا من الإبل، فجرت بعد هذه الواقعة مائة من الإبل، وأقرها الإسلام، وروى عن النبي ﷺ أنه قال: «أنا ابن الديبعين» يعني إسماعيل، وأباه عبد الله^(٢).

واختار عبد المطلب لولده عبد الله آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، وهي يومئذ تعد أفضل امرأة في قريش نسبا وموضعا، وأبوها سيد بني زهرة نسبا وشرفا، فبنى بها عبد الله في مكة، وبعد قليل أرسله عبد المطلب إلى المدينة يمتار لهم تمرا، فمات بها، وقيل: بل خرج تاجرا إلى الشام، فأقبل في غير قريش، فنزل بالمدينة وهو مريض فتوفى بها، ودفن في الشام، فأقبل في غير قريش، فنزل بالمدينة وهو مريض فتوفى بها، ودفن في دار النابغة الجعدي، وله إذ ذاك خمس وعشرون سنة، وكانت وفاته قبل أن يولد رسول الله ﷺ، وبه يقول أكثر المؤرخين، وقيل: بل توفى بعد مولده بشهرين^(٣). ولما بلغ نعيه إلى مكة رثته آمنة بأروع المراثي، قالت:

(١) تلقيح فهم أمل الأثر ص ٨، ٩، رحمة للعالمين ٢/ ٥٦، ٦٦.

(٢) ابن هشام ١/ ١٥١ إلى ١٥٥، رحمة للعالمين ٢/ ٨٩، ٩٠ مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله ص ١٢،

(٣) ابن هشام ١/ ١٥٦، ١٥٨، فقه السيرة لمحمد الغزالي ص ٤٥، راجع للعالمين ٢/ ٩١

عفا جانب البطحاء من ابن هاشم وجاور لحدا خارجا في الغماغم
دعته المنايا دعوة فأجابها وما تركت في الناس مثل ابن هاشم
عشية راحوا يحملون سريره تعاوره أصحابه في التزاحم
فإن تك غالته المنايا وريبها فقد كان معطاء كثير التراحم (١).

وجميع ما خلفه عبد الله خمسة أجمال ، وقطعة غنم ، وجارية حبشية اسمها بركة
وكنيتها أم أيمن ، وهى حاضنة رسول الله ﷺ (٢).

المولد وأربعون عاما قبل المولد

المولد :

ولد سيد المرسلين ﷺ بشعب بنى هاشم بمكة في صبيحة يوم الإثنين التاسع من شهر
ربيع الأول ، لأول عام من حادثة الفيل ، ولأربعين سنة خلت من ملك كسرى أنوشروان
، ويوافق ذلك العشرين أو الثاني وعشرين من شهر أبريل سنة ٥٧١ م حسبما حققه العالم
الكبير محمد سليمان المنصور فوري والمحقق الفلكي محمود باشا (٣).

وروى ابن سعد أن أم رسول الله ﷺ قالت : لما ولدته خرج من فرجى نور أضاءت له
قصور الشام ، وروى أحمد عن العرياض بن سارية ما يقارب ذلك (٤) وقد روى أن
إرهاصات بالبعثة وقعت عند الميلاد ، فسقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى ،
وخمدت النار التي يعبدها المجوس ، وانهدمت الكنائس حول بحيرة ساوة بعد أن غاضت
روى ذلك البيهقي (٥) ولا يقره محمد الغزالي (٦).

ولما ولدته أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب تبشره بحفيده ، فجاء مستبشرا ودخل به
الكعبة ، ودعا الله وشكر له ، واختار له اسم محمد - وهذا الاسم لم يكن معروفا في
العرب - وختنه يوم سابعه كما كان العرب يفعلون (٧).

(١) طبقات ابن سعد ١/ ٦٢ (٢) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ١٢ ، تلقيح فهوم أهل الأثر
ص ٤ صحيح مسلم ١/ ٩٦ (٣) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١/ ٦٢ ، رحمة للعالمين ١/ ٣٨ ، ٣٩
واختلافهم في تعيين تاريخ أبريل فرع للاختلاف في التقويمات الميلادية . (٤) انظر مختصر سيرة الرسول ﷺ
للشيخ عبد الله النجدى ص ١٢ وابن سعد ١/ ٦٣ . (٥) انظر مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ عبد الله
النجدى ص ١٢ وابن سعد ١/ ٦٣ . (٦) انظر فقه السيرة لمحمد الغزالي ص ٤٦ .
(٧) ابن هشام ١/ ١٥٩ ، ١٦٠ ، ومحاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١/ ٦٢ وقيل إنه ولد مختونا ، انظر
تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٤ وقال ابن القيم : ليس فيه حديث ثابت . انظر زاد المعاد ١/ ١٨ .

وأول من أرضعته من المراضع - بعد أمه ﷺ - ثويبة مولاة أبي لهب بلبن ابن لها يقال له مسروح، وكانت قد أرضعته قبل حمزة بن عبد المطلب، وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي (١).

فى بنى سعد :

وكانت العادة عند الحاضرين من العرب أن يلتمسوا المراضع لأولادهم، ابتعادا لهم عن أمراض الحواضر؛ لتقوى أجسامهم، وتشتد أعصابهم، ويتقنوا اللسان العربى فى مهدهم، فالتمس عبد المطلب لرسول الله ﷺ الرضعاء، واسترضع له امرأة من بنى سعد بن بكر - وهى حليلة بنت أبى ذؤيب - وزوجها الحارث بن عبد العزى المكنى بأبى كبشة، من نفس القبيلة.

وإخوته ﷺ هناك من الرضاعة عبد الله بن الحارث، وأنيسة بنت الحارث، وحذافة أو جذامة بنت الحارث (وهى الشيماء - لقب غلب على اسمها -) وكانت تحضن رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، ابن عم رسول الله ﷺ.

وكان حمزة بن عبد المطلب مسترضعا فى بنى سعد بن بكر، فأرضعت أمه رسول الله ﷺ يوما وهو عند أمه حليلة، فكان حمزة رضيع رسول الله ﷺ من وجهين، من جهة ثويبة، ومن جهة السعدية (٢).

ورأت حليلة من بركته ﷺ ما قصت منه العجب، ولنتركها تروى ذلك مفصلا :

قال ابن إسحق : كانت حليلة تحدث : أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه، فى نسوة من بنى سعد بن بكر، تلتمس الرضعاء قالت : وذلك فى سنة شهباء لم تبق لنا شيئا، قالت : فخرجت على أتان لى قمراء، معنا شارف لنا، والله ما تبيض بقطرة، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذى معنا، من بكائه من الجوع، ما فى ثدى ما يغنيه، وما فى شارفنا ما يغذيه، ولكن كنا نرجو الغيث والفرج، فخرجت على أتانى تلك فلقد أدمت بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفا وعجفا، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه، إذا قيل لها إنه يتيم، وذلك أنا كنا نرجو المعروف من أبى الصبى، فكنا نقول : يتيم ! وما عسى أن تصنع أمه وجده ! فكنا نكرهه لذلك فما قدمت امرأة إلا أخذت رضيعا غيرى فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبى : والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعا، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلاأخذنه . قال : لا عليك أن تفعلى، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة.

(١) تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٤ مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ١٣

(٢) زاد المعاد ١ / ١٩

قالت : فذهبت إليه ، فأخذته ، وما حملني على أخذه إلا أنني لم أجد غيره ، قالت : فلما أخذته رجعت به إلى رحلي ، فلما وضعته في حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى ، وشرب معه أخوه حتى روى ، ثم نام ، وما كنا ننام معه قبل ذلك ، وقام زوجى إلى شارفنا تلك ، فإذا هى حافل ، فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا ريا وشبعا ، فبتنا بخير ليلة ، قالت : يقول صاحبى حين أصبحنا : تعلمى والله يا حليلة ! لقد أخذت نسمة مباركة ، قالت : فقلت والله إننى لأرجو ذلك ، قالت : ثم خرجنا وركبت أنا أتانى ، وحملته عليها معى ، فوالله لقطعت بالركب ما لا يقدر عليه شيء من حمرهم ، حتى إن صواحبى ليقلن لى : يا ابنة أبى ذؤيب ، ويحك ! أربعى علينا ، أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها ؟ فأقول لهن : بلى والله ! إنها لهى هى ، فيقلن : والله إن لها شزنا ، قالت : ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد وما أعلم أرضا من أرض الله أجذب منها ، فكانت غنمى تروح على حين قدمنا به مغنا شباعا لبنا ، فنحلب ونشرب ، وما يحلب إنسان قطرة لبن ، ولا يجدها فى ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم : ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب ، فتروح أغنامهم جياعا ما تبض بقطرة لبن ، وتروح غنمى شباعا لبنا ، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته وكان يشب شبايا لا يشبه الغلمان ، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاما جفرا ، قالت : فقدمنا به على أمه ونحن أحرص على مكثه فينا ، لما كنا نرى من بركته ، فكلمنا أمه ، وقلت لها : لو تركت ابنى عندى حتى يغلظ ، فإنى أخشى عليه وباء مكة ، قالت : فلم نزل بها حتى رده معنا (١) .

وهكذا بقى رسول الله ﷺ فى بنى سعد ، حتى إذا كانت السنة الرابعة أو الخامسة (٢) من مولده وقع حادث شق صدره ، روى مسلم عن أنس أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل ، وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه فصرعه ، فشق عن قلبه ، فاستخرج القلب ، فاستخرج منه علقة ، فقال : هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده إلى مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعنى ظئره - فقالوا : إن محمدا قد قتل فاستقبلوه وهو منتقع اللون (٣) .

إلى أمه الحنون :

وخشيت عليه حليلة بعد هذه الواقعة حتى رده إلى أمه ، فكان عند أمه إلى أن بلغ ست سنين (٤) .

(١) ابن هشام ١ / ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٢) هذا ما ذهب إليه عامة أهل السير ، ويفتضى سياق رواية ابن إسحاق أنه وقع فى السنة الثالثة ، انظر ابن هشام ١ / ١٦٥ ، ١٦٤ .

(٣) صحيح مسلم ، باب الإسراء ١ / ٩٢ . (٤) تلقيح فهورم أهل الأثر ص ٧ ، ابن هشام ١ / ١٦٨ .

ورأت آمنة وفاء لذكرى زوجها الراحل أن تزور قبره يشرب ، فخرجت من مكة قاطعة رحلة تبلغ خمسمائة كيلو مترا ، ومعها ولدها اليتيم - محمد ﷺ - وخادمتها أم أيمن ، وقيمها عبد المطلب ، فمكثت شهرا ، ثم قفلت ، وبينما هي راجعة إذ يلاحقها المرض ، ويلح عليها في أوائل الطريق ، فماتت بالأبواء بين مكة والمدينة (١) .

إلى جده العطوف :

وعاد به عبد المطلب إلى مكة ، وكانت مشاعر الحنو في فؤاده تربو نحو حفيده اليتيم ، الذي أصيب بمصاب جديد نكأ الجروح القديمة ، فرق عليه رقة لم يرقها على أحد من أولاده ، فكان لا يدعه لوحده المفروضة ، بل يؤثره على أولاده ، قال ابن هشام : كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه ، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالا له ، فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام جفر حتى يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه ، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم : دعوا ابني هذا فوالله إن له لسانا ، ثم يجلس معه على فراشه ، ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع (٢) .

ولثمانى سنوات وشهرين وعشرة أيام من عمره ﷺ توفي جده عبد المطلب بمكة ، ورأى قبل وفاته أن يعهد بكفالة حفيده إلى عمه أبي طالب شقيق أبيه (٣) .

إلى عمه الشقيق :

ونفض أبو طالب بحق ابن أخيه على أكمل وجه ، وضمه إلى ولده ، وقدمه عليهم ، واختصه بفضل احترام وتقدير ، وظل فوق أربعين سنة يعز جانبه ، ويسط عليه حمايته ، ويصادق ويخاصم من أجله ، وستأتى نبذ من ذلك في مواضعها .

يستسقى الغمام بوجهه :

أخرج ابن عساكر عن جلهمة بن عرفطة قال : قدمت مكة وهم في قحط ، فقالت قریش : يا أبا طالب ! أقحط الوادى ، وأجدب العيال ، فهل فاستسقى ، فخرج أبو طالب ومعه غلام ، كأنه شمس دجن ، تجلت عنه سحابة قشماء ، حوله أغيلمة ، فأخذه أبو طالب ، فألصق ظهره بالكعبة ، ولاذ بأصبعه الغلام ، وما فى السماء قرعة ، فأقبل السحاب من ههنا وههنا ، وأغدق وأغدودق ، وانفجر الوادى وأخصب النادى والبادى ، وإلى هذا أشار أبو طالب حين قال :

(١) ابن هشام ١/ ١٦٨ ، تلقيح فهرم أهل الأثر ص ٧ ، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١/ ٦٣ ، فقه السيرة للفرالى ص ٥٠ . (٢) ابن هشام ١/ ١٦٨ . (٣) تلقيح فهرم أهل الأثر ص ٧ ، ابن هشام ١/ ١٦٩ .

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه شمال اليتامى عصمة للأرامل (١)

بحيرا الراهب :

ولما بلغ رسول الله ﷺ اثنتى عشرة سنة - قيل وشهرين وعشرة أيام (٢) - ارتحل به أبو طالب تاجرا إلى الشام ، حتى وصل إلى بصرى - وهى معدودة من الشام وقصبة لحوران ، وكانت فى ذلك الوقت قصبة للبلاد العربية التى كانت تحت حكم الرومان - وكان فى هذا البلد راهب عرف ببخيرا واسمه جرجيس فما نزل الركب خرج إليهم ، وأكرمهم بالضيافة ، وكان لا يخرج إليهم قبل ذلك وعرف رسول الله ﷺ بصفته ، فقال وهو أخذ بيده : هذا سيد العالمين ، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين . فقال أبو طالب : وما علمك بذلك ؟ فقال : إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا وخر ساجدا ، ولا تسجد إلا لنبى ، وإنى أعرفه بخاتم النبوة فى أسفل غضروف كتفه مثل التفاحة ، وإنا نجده فى كتبنا ، وسأل أبا طالب أن يرده ، ولا يقدم به إلى الشام ، خوفا عليه من اليهود ، فبعثه عمه مع بعض غلماناه إلى مكة (٣) .

حرب الفجار :

ولخمس عشرة من عمره ﷺ كانت حرب الفجار بين قريش ومن معهم من كنانة وبين قيس عيلان ، وكان قائد قريش وكنانة كلها حرب بن أمية لمكانته فيهم سنا وشرفا ، وكان الظفر فى أول النهار لقيس على كنانة ، حتى إذا كان فى وسط النهار كان الظفر لكنانة على قيس . وسميت بحرب الفجار لانتهاك حرمت الحرم والأشهر الحرم فيها ، وقد حضر هذه الحرب رسول الله ﷺ ، وكان ينبل على عمومته ، أى يجهز لهم النبل بالرمى (٤) .

حلف الفضول :

وعلى أثر هذه الحرب وقع حلف الفضول فى ذى القعدة فى شهر حرام ، تداعت إليه قبائل قريش : بنو هاشم ، وبنو المطلب ، وأسد بن عبد العزى ، وزهرة بن كلاب ، وتيم بن مرة ، فاجتمعوا فى دار عبد الله بن جدعان التيمى لسنه وشرفه ، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا

(١) مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ عبد الله النجدى ١٥ ، ١٦ .

(٢) قاله ابن الجوزى فى تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٧ . (٣) مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ عبد الله النجدى ص ١٦ ، وابن هشام ١ / ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ووقع فى كتاب الترمذى وغيره أنه بعث معه بلالا (تحفة الأحوزى) وهو من الغلط الواضح ، فإن بلالا إذ ذاك لعله لم يكن موجودا ، وإن كان موجودا فلم يكن مع عمه ولا مع أبى بكر . زاد المعاد ١ / ١٧ . (٤) ابن هشام ١ / ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، قلب جزيرة العرب ص ٢٦٠ ، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١ / ٦٣ .

على من ظلمه حتى ترد عليه مظلومته ، وشهد هذا الحلف رسول الله ﷺ ، وقال بعد أن أكرمه الله بالرسالة : لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت (١) .

وهذا الحلف روحه تنافي الحمية الجاهلية التي كانت العصبية تثيرها ، ويقال في سبب هذا الحلف إن رجلا من زبيد قدم مكة ببضاعة ، واشتراها منه العاص بن وائل السهمي ، وحبس عنه حقه ، فاستعدى عليه الأحلاف عبد الدار ، ومخزوما ، وجمحا ، وسهما ، وعديا ، فلم يكثر ثواله ، فعلا جبل أبي قبيس ، فنادى بأشعار يصف فيها ظلامته رافعا صوته ، فمشى في ذلك الزبير بن عبد المطلب ، وقال : مال هذا مترك ؟ حتى اجتمع الدين مضى ذكرهم في حلف الفضول ، فقاموا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه حق الزبيدي بعد ما أبرموا الحلف (٢) .

حياة الكدح :

ولم يكن له ﷺ عمل معين في أول شبابه ، إلا أن الروايات تواترت أنه كان يرعى غنما ، رعاها في بني سعد (٣) ، وفي مكة لأهلها على قراريط (٤) وفي الخامسة والعشرين من سنه خرج تاجرا إلى الشام في مال خديجة رضى الله عنها ، قال ابن إسحاق : كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال في مالها ، وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم ، وكانت قريش قوما تجارا فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه ، وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه ، فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجرا ، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار ، مع غلام لها يقال له ميسرة ، فقبله رسول الله ﷺ منها ، وخرج في مالها ذلك ، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام (٥) .

زواجه خديجة :

ولما رجع إلى مكة ، ورأت خديجة في مالها من الأمانة والبركة ما لم تر قبل هذا ، وأخبرها غلامها ميسرة بما رأى فيه ﷺ من خلال عذبة ، وشمائل كريمة ، وفكر راجح ، ومنطق صادق ، ونهج أمين . وجدت ضالتها المنشودة - وكان السادات والرؤساء يحرسون على زواجهما ، فتأبى عليهم ذلك - فتحدثت بما في نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منية ، وهذه ذهبت إليه ﷺ فتأخذه أن يتزوج خديجة ، فرضى بذلك ، وكلم أعمامه ،

(١) ابن هشام ١ / ١١٣ ، ١٣٥ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٣٠ ، ٣١ .

(٢) نفس المصدر الأخير ص ٣٠ ، ٣١ .

(٣) ابن هشام ١ / ١٦٦ . (٤) فقه السيرة لمحمد الغزالي ص ٥٢ . (٥) ابن هشام ١ / ١٨٧ ، ١٨٨ .

فذهبوا إلى عم خديجة ، وخطبوها إليه ، وعلى إثر ذلك تم الزواج ، وحضر العقد بنو هاشم ورؤساء مضر ، وذلك بعد رجوعه من الشام بشهرين ، وأصدقها عشرين بكرة ، وكان سنّها إذ ذاك أربعين سنة ، وكانت يومئذ أفضل نساء قومها نسبا وثروة وعقلا ، وهى أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ ، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت (١) .

وكل أولاده ﷺ منها سوى إبراهيم ، ولدت له أولاً القاسم - وبه كان يكنى - ثم زينب ورقية ، وأم كلثوم وفاطمة وعبد الله ، وكان عبد الله يلقب بالطيب والطاهر ، ومات بنوه كلهم فى صغرهم ، أما البنات فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن ، إلا أنهن أدركتهن الوفاة فى حياته ﷺ ، سوى فاطمة رضى الله عنها فقد تأخرت بعده ستة أشهر ، ثم لحقت به (٢) .

بناء الكعبة وقضية التحكيم :

ولخمس وثلاثين سنة من مولده ﷺ قامت قريش ببناء الكعبة ، وذلك لأن الكعبة كانت رضما فوق القامة ، ارتفاعها تسعة أذرع من عهد إسماعيل ، ولم يكن لها سقف ، فسرق نفر من اللصوص كنزها الذى كان فى جوفها ، وكانت مع ذلك قد تعرضت - باعتبارها أثرا قديما - للعوادى التى أوهت بنيانها ، وصدعت جدرانها ، وقبل بعثته ﷺ بخمس سنين جرف مكة سيل عرم ، انحدر إلى البيت الحرام ، فأوشكت الكعبة منه على الانهيار ، فاضطرت قريش إلى تجديد بنائها حرصا على مكانتها واتفقوا على أن لا يدخلوا فى بنائها إلا طيبا ، فلا يدخلوا فيها مهر بغى ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس ، وكانوا يهابون هدمها ، فابتدأ بها الوليد بن المغيرة المخزومى ، وتبعه الناس لما رأوا أنه لم يصبه شيء ، ولم يزالوا فى الهدم حتى وصلوا إلى قواعد إبراهيم ، ثم أرادوا الأخذ فى البناء ، فجزأوا الكعبة ، وخصصوا لكل قبيلة جزءا منها ، فجمعت كل قبيلة حجارة على حدة ، وأخذوا يبنونها ، وتولى البناء بناء رومى اسمه باقوم ، ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود اختلفوا فىمن يمتاز بشرف وضعه فى مكانه ، واستمر النزاع أربع ليال أو خمسا ، واشتد حتى كاد يتحول إلى حرب ضروس فى أرض الحرم ، إلا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومى عرض عليهم أن يحكموا فيما شجر بينهم أول داخل عليهم من باب المسجد فارتضوه ، وشاء الله أن يكون ذلك رسول الله ﷺ ، فلما رأوه هتفوا : هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد . فلما انتهى إليهم ، وأخبروه الخبر طلب رداء ، فوضع الحجر وسطه ، وطلب من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسكوا جميعا بأطراف الرداء ، وأمرهم أن يرفعوه ، حتى إذا وصلوه إلى

(١) ابن هشام ١ / ١٨٩ ، ١٩٠ ، فقه السيرة لمحمد الغزالي ص ٥٩ ، تلقيح فهم أهل الأثر ص ٧ .

(٢) نفس المصدر الأول ١ / ١٩٠ ، ١٩١ ، والثانى ص ٦٠ ، وفتح البارى ٧ / ٥٠٧ وبين المصادر اختلاف يسير

أخذنا ما هو الراجح عندنا .

موضعه أخذه بيده ، فوضعه فى مكانه ، وهذا حل حصيف رضى به القوم .

وقصرت بقریش النفقة الطيبة فأخرجوا من الجهة الشمالية نحواً من ستة أذرع ، وهى التى تسمى بالحجر والخطيم ، ورفعوا بابها من الأرض ؛ لئلا يدخلها إلا من أرادوا ، ولما بلغ البناء خمسة عشر ذراعاً سقفوه على ستة أعمدة .

وصارت الكعبة بعد انتهائها ذات شكل مربع تقريباً يبلغ ارتفاعه ١٥ متراً ، وطول ضلعه الذى فيه الحجر الأسود والمقابل له ١٠ ، ١٠ م ، والحجر موضوع على ارتفاع ١٥ م من أرضية المطاف . والضلع الذى فيه الباب والمقابل له ١٢ م وبابها على ارتفاع مترين من الأرض ، ويحيط بها من الخارج قصبة من البناء أسفلها ، متوسط ارتفاعها ٢٥ م . ومتوسط عرضها ٣٠ م وتسمى بالشاذروان ، وهى من أصل البيت لكن قریشاً تركتها (١) .

السيرة الإجمالية قبل النبوة :

إن النبى ﷺ كان قد جمع فى نشأته خير ما فى طبقات الناس من ميزات ، وكان طرازاً رفيعاً من الفكر الصائب ، والنظر السديد ، ونال حظاً وافراً من حسن الفطنة وأصالة الفكرة وسداد الوسيلة والهدف وكان يستعين بصمته الطويل على طول التأمل وإدمان الفكرة واستنكاه الحق ، وطالع بعقله الخصب وفطرته الصافية صحائف الحياة وشئون

الناس وأحوال الجماعات ، فعاف ما سواها من خرافة ، ونأى عنها ، ثم عايش الناس على بصيرة من أمره وأمرهم ، فما وجد حسناً شارك فيه ، وإلا عاد إلى عزلته العتيدة ، فكان لا يشرب الخمر ، ولا يأكل مما ذبح على النصب ، ولا يحضر للأوثان عيداً ، ولا احتفالاً ، بل كان من أول نشأته نافراً من هذه المعبودات الباطلة ، حتى لم يكن شئ أبغض إليه منها ، وحتى كان لا يصبر على سماع الحلف باللات والعزى (٢)

ولا شك أن القدر حاطه بالحفظ ، فعندما تتحرك نوازع النفس لاستطلاع بعض متع الدنيا ، وعندما يرضى باتباع بعض التقاليد غير المحمودة تتدخل العناية الربانية للحيلولة بينه وبينها ، روى ابن الأثير : قال رسول الله ﷺ : « ما هممت بشئ مما كان أهل الجاهلية يعملون غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بينى وبينه ، ثم ما هممت به حتى أكرمنى برسالته ، قلت ليلة للغلام الذى يرعى معى بأعلى مكة : لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب ! فقال : أفعل ، فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفاً ، فقلت ما هذا ؟ فقالوا : عرس فلان بفلانة ، فجلست أسمع . فضرب

(١) انظر فى تفصيل بناء الكعبة ابن هشام ١٢ / ١٩٢ إلى ١٩٧ ، وفقه السيرة لمحمد الغزالى ص ٦٢ ، ٦٣ ، وصحيح

البخارى باب فضل مكة وبنائها ١ / ٢١٥ ، ومحاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١ / ٦٤ ، ٦٥ .

(٢) يدل عليه كلامه مع بحيرا . انظر ابن هشام ١ / ١٢٨ .

الله على أذنى فتمت ، فما أيقظنى إلا حر الشمس . فعدت إلى صاحبي فسألنى ، فأخبرته ، ثم قلت ليلة أخرى مثل ذلك ، ودخلت بمكة فأصابنى مثل أول ليلة .. ثم ما هممت بسوء» (١) .

وروى البخارى عن جابر بن عبد الله قال : لما بنيت الكعبة ذهب النبى ﷺ وعباس ينقلان الحجارة ، فقال عباس للنبي ﷺ : اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة ، فخر إلى الأرض ، وطمحت عيناه إلى السماء ، ثم أفاق فقال : إزارى ، إزارى ، فشده عليه إزاره (٢) وفى رواية فما رؤيت له عورة بعد ذلك (٣) .

وكان النبى ﷺ يمتاز فى قومه بخلال عذبة وأخلاق فاضلة ، وشماثل كريمة فكان أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقا ، وأعزهم جوارا ، وأعظمهم حلما ، وأصدقهم حديثا ، وألينهم عريكة ، وأعفهم نفسا ، وأكرمهم خيرا ، وأبرهم عملا ، وأوفاهم عهدا ، وآمنهم أمانة ، حتى سماه قومه « الأمين » ؛ لما جمع فيه من الأحوال الصالحة والخصال المرضية ، وكان كما قالت أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها : يحمل الكل ، ويكسب المعدوم ، ويقرى الضيف ، ويعين على نوائب الحق (٤) .

فى ظلال النبوة والرسالة

فى غار حراء :

ولما تقاربت سنه ﷺ الأربعين ، وكانت تأملاته الماضية قد وسعت الشقة العقلية بينه وبين قومه ، حبيب إليه الخلاء ، فكان يأخذ السويق والماء ويذهب إلى غار حراء فى جبل النور ، على مبعدة نحو ميلين من مكة - وهو غار لطيف طوله أربعة أذرع ، وعرضه ذراع وثلاثة أرباع ذراع من ذراع الحديد - ومعه أهله قريبا منه فيقيم فيه شهر رمضان ، يطعم من جاءه من المساكين ، ويقضى وقته فى العبادة والتفكير فيما حوله من مشاهد الكون ، وفيما وراءها من قدرة مبدعة ، وهو غير مطمئن لما عليه قومه من عقائد الشرك الملهلة ، وتصوراتها الواهية ، ولكن ليس بين يديه طريق واضح ، ولا منهج محدد ، ولا طريق قاصد يطمئن إليه ويرضاه (٥) . وكان اختياره ﷺ لهذه العزلة طرفا من تدبير الله له ، وليعده لما ينتظره من الأمر العظيم . ولا بد لأى روح يراد لها أن تؤثر فى واقع الحياة البشرية فتحولها وجهة أخرى .. لابد لهذه الروح من خلوة وعزلة بعض الوقت ، وانقطاع عن شواغل الأرض وضجة الحياة وهموم الناس الصغيرة التى تشغل الحياة .

(١) اختلفوا فى صحة هذا الحديث فصحه الحاكم والذهبي وضعفه ابن كثير فى ابدية والنهاية ٢ / ٢٨٧

(٢) صحيح البخارى باب بيان الكعبة ١ / ٥٤٠ .

(٣) نفس المصدر مع شرح القسطلانى . (٤) صحيح البخارى ١ / ٣

وهكذا دبر الله لمحمد ﷺ وهو يعده لحمل الأمانة الكبرى ، وتغيير وجه الأرض ، وتعديل خط التاريخ .. دبر له هذه العزلة قبل تكليفه بالرسالة بثلاث سنوات ، ينطلق في هذه العزلة شهرا من الزمان ، مع روح الوجود الطليقة ، ويتدبر ما وراء الوجود من غيب مكنون ، حتى يحين موعد التعامل مع هذا الغيب عندما يأذن الله (١) .

جبريل ينزل بالوحي :

ولما تكامل له أربعون سنة - وهي رأس الكمال - وقيل : ولها تبعث الرسل - بدأت آثار النبوة تتلوح وتتلمع له من وراء آفاق الحياة ، وتلك الآثار هي الرؤيا ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، حتى مضت على ذلك ستة أشهر - ومدة النبوة ثلاث وعشرون سنة فهذه الرؤيا جزء ١ من ستة وأربعين جزء من النبوة - فلما كان رمضان من السنة الثالثة من عزلته ﷺ بحراء شاء الله أن يفيض من رحمته على أهل الأرض ، فأكرمه بالنبوة ، وأنزل إليه جبريل بآيات من القرآن (٢) .

وبعد النظر والتأمل في القرائن والدلائل يمكن لنا أن نحدد ذلك اليوم بأنه كان يوم الاثنين لإحدى وعشرين مضت من شهر رمضان ليلا ، ويوافق ١٠ أغسطس سنة ٦١٠م ، وكان عمره ﷺ إذ ذاك بالضبط أربعين سنة قمرية ، وستة أشهر ، و ١٢ يوما ، وذلك نحو ٣٩ سنة شمسية وثلاثة أشهر و ١٢ يوما (٣) .

(١) رحمة للعالمين ١ / ٤٧ ، وابن هشام ١ / ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، في ظلال القرآن الجزء ٢٩ / ١٦٦ ، ١٦٧
(٢) قال ابن حجر : وحكى البيهقي أن مدة الرؤيا كانت ستة أشهر ، وعلى هذا فابتداء النبوة بالرؤيا وقع في شهر مولده وهو ربيع الأول ، بعد إكماله أربعين سنة ، وابتداء وحى اليقظة في رمضان (فتح الباري ١ / ٢٧) . (٣) اختلف المؤرخون اختلافا كبيرا في أول شهر أكرمه الله فيه بالنبوة ، وإنزال الوحي ، فذهب طائفة كبيرة إلى أنه شهر ربيع الأول ، وذهب طائفة أخرى إلى أنه رمضان ، وقيل شهر رجب (انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب النجدي ص ٧٥) ورجحنا الثاني - أي أنه شهر رمضان - لقوله تعالى : ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ (٢ : ١٨٥) ولقوله تعالى : ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ (١ : ٩٧) ومعلوم أن ليلة القدر في رمضان ، وهي المرادة بقوله تعالى : ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ ، إنا كنا منذرين ﴿ (٣ : ٤٤) ولأن جواره ﷺ بحراء كان في رمضان ، وكانت وقعة نزول جبريل فيها كما هو معروف .

ثم اختلف القائلون ببدء نزول الوحي في رمضان في تحديد ذلك اليوم ، فقيل : هو اليوم السابع ، وقيل السابع عشر ، وقيل الثامن عشر ، (انظر مختصر سيرة الرسول المذكور ص ٧٥ ، ورحمة للعالمين ١ / ٤٩) وقد أصر الخضرى في محاضراته على أنه اليوم السابع عشر (محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١ / ٦٩) .

وإنما رجحنا أنه اليوم الحادى والعشرون مع أننا لم نر من قال به لأن أهل السيرة كلهم أو أكثرهم متفقون على أن مبعثه ﷺ كان يوم الاثنين ، ويؤيدهم ما رواه أئمة الحديث عن أبى قتادة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن صوم يوم الاثنين ، فقال : فيه ولدت وفيه أنزل على ، وفى لفظ : ذاك يوم ولدت فيه ويوم بعثت أو أنزل على فيه (صحيح مسلم ١ / ٣٦٨ ، أحمد ٥ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، البيهقي ٤ / ٢٨٦ ، ٣٠٠ ، الحاكم ٢ / ٦٠٢) ويوم الاثنين في رمضان من تلك السنة لا يوافق إلا اليوم السابع ، والرابع عشر والحادى والعشرين ، والثامن والعشرين وقد دلت الروايات الصحيحة أن ليلة القدر لا تقع إلا في وتر من ليالى العشر الأواخر من رمضان وأنها تتقل فيما بين هذه الليالى ، فإذا قارنا بين قوله تعالى : ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ ، وبين رواية أبى قتادة أن مبعثه ﷺ كان يوم الاثنين وبين حساب التقويم العلمى فى وقوع يوم الاثنين فى رمضان من تلك السنة تعين لنا أن مبعثه ﷺ كان فى اليوم الحادى والعشرين من رمضان ليلا .

ولنستمع إلى عائشة الصديقة رضى الله تعالى عنها تروي لنا قصة هذه الواقعة التى كانت شعلة من نور اللاهوت ، أخذت تفتح دياجير ظلمات الكفر ، والضلال ، حتى غيرت مجرى الحياة ، وعدلت خط التاريخ . قالت عائشة رضى الله عنها :

أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه - وهو التعبّد - الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، قال فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم أرسلنى فقال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم ﴾ (١) . فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : زملونى زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة ، مالى ، وأخبرها الخبر ، لقد خشيت على نفسى ، فقالت خديجة : كلا ، والله ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة - وكان امرءا تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب وكان شيخا كبيرا قد عمى - فقالت له خديجة : يا ابن العم ! اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة : يا ابن أخى ما ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزل الله على موسى ، يا ليتنى فيها جذعا ، ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك فقال رسول الله ﷺ : أو مخرجى هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثلما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرًا مؤزرا ، ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي (٢) .

روى الطبرى وابن هشام يفيد أنه أنه خرج من غار حراء بعد ما فوجئ بالوحي ثم رجع وأتم جواره ، وبعد ذلك رجع إلى مكة ، ورواية الطبرى تلقى ضوءا على سبب خروجه وهاك نصها :

قال رسول الله ﷺ بعد ذكر مجئ الوحي : ولم يكن من خلق الله أبغض على من شاعر أو مجنون كنت لا أطيق أن أنظر إليهما ، قال : قلت : إن الأبعد - يعنى نفسه - شاعر أو مجنون ، إلا تحدث بها عنى قریش أبدا ! لأعمدن إلى حائق من الجبل فلا طرحن نفسى منه فلاقتلنها ، فلاستريحن » قال : فخرجت أريد ذلك ، حتى إذا كنت فى وسط الجبل

(١) كان نزول الآيات إلى قوله تعالى : علم الإنسان ما لم يعلم .

(٢) صحيح البخارى ٢/٣ ، وقد أخرجه مع اختلاف يسير فى اللفظ فى كتابى التفسير وتعبير الرؤيا .

سمعت صوتا من السماء يقول : يا محمد !! أنت رسول الله ، وأنا جبريل قال : فرفعت رأسي إلى السماء ، فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول : يا محمد ! أنت رسول الله وأنا جبريل . قال : فوقفت أنظر إليه ، وشغلني ذلك عما أردت ، فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك ، فما زلت واقفا ما أتقدم أمامي ، ولا أرجع ورائي ، حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي ، حتى بلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مقامي ، ثم انصرف عني وانصرفت راجعا إلى أهلي (١) حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها مضيفا إليها (ملتصقا بها مائلا إليها) فقالت : يا أبا القاسم ! أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إلي ، ثم حدثتها بالذي رأيت ، فقالت أبشر يا ابن عم ، وأثبت ، فوالذي نفس خديجة بيده إنني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة (٢) ، ثم قامت فانطلقت إلى ورقة وأخبرته . فقال : قدوس قدوس ، والذي نفس ورقة بيده لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى ، وإنه لنبي هذه الأمة ، فقول لي له : فليثبت ، فرجعت خديجة وأخبرته بقول ورقة ، فلما قضى رسول الله ﷺ جواره وانصرف (إلى مكة) لقيه ورقة ، وقال بعد أن سمع منه خبره : والذي نفسي بيده ، إنك لنبي هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى (٣) .

فترة الوحي :

أما مدة فترة الوحي فروى ابن سعد عن ابن عباس ما يفيد أنها كانت أياما (٤) وهذا الذي يترجح بل يتعين بعد إدارة النظر في جميع الجوانب . وأما ما اشتهر من أنها دامت طيلة ثلاث سنين أو سنتين ونصف فلا يصح بحال ، وليس هذا موضع التفصيل في رده . وقد بقي رسول الله ﷺ في أيام الفترة كئيبا محزوناً ، تعتريه الحيرة والدهشة ، فقد روى البخاري في كتاب التعبير ما نصه :

وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ فيما بلغنا حزنا عدا (٥) منه مرارا كى يتردى من رؤوس شواهق الجبال ، فكلما أوفى بذروة جبل لكى يلقي نفسه منه تبدي له جبريل فقال : يا محمد إنك رسول الله حقا ، فيسكن لك جأشه ، وتقر نفسه ، فيرجع ، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك ، فإذا أوفى بذروة الجبل تبدي له جبريل فقال له مثل ذلك (٦) .

(٢) نص ابن هشام ١ / ٢٣٧ - ٢٣٨ .

(١) نص الطبري ٢ / ٢٠٧ .

(٤) ملخص من ابن هشام ١ / ٢٣٨ .

(٣) نص ابن هشام ١ / ٢٣٧ - ٢٣٨ .

(٥) فتح الباري ١ / ٢٧ ، ١٢ / ٣٦٠ .

(٦) بالعين المهلة من العدو ، وهو الدهاب بسرعة ، وفي بعض النسخ « غدا » بالعين المعجمة .

جبريل ينزل بالوحي مرة ثانية :

قال ابن حجر : وكان ذلك (أى انقطاع الوحي أياما) ، ليذهب ما كان ﷺ وجده من الروح ، وليحصل له التشوف إلى العود (١) ، فلما تقلصت ظلال الحيرة ، وثبتت أعلام الحقيقة ، وعرف ﷺ معرفة اليقين أنه أضحى نبيا لله الكبير المتعال ، وأن ما جاءه سفير الوحي ينقل إليه خبر السماء وصار تشوفه وارتفاعه لمحجىء الوحي سببا في ثباته واحتماله عندما يعود ، جاءه جبريل للمرة الثانية . روى البخارى عن جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي ، قال :

«فبينما أنا أمشى سمعت من السماء صوتا ، فرفعت بصرى قبل السماء ، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض ، فجششت منه حتى هويت إلى الأرض ، فجئت أهلى فقلت : زملونى زملونى ، فزملونى فأنزل الله تعالى : يا أيها المدثر إلى قوله : فاهجر ، ثم حمى الوحي وتتابع» (٢) .

استطراد فى بيان أقسام الوحي

قبل أن نأخذ فى تفصيل حياة الرسالة والنبوة ، نرى أن نتعرف أقسام الوحي الذى هو مصدر الرسالة ومدد الدعوة . قال ابن القيم : وهو يذكر مراتب الوحي :

إحداها : الرؤيا الصادقة ، وكانت مبدأ وحيه ﷺ .

الثانية : ما كان يلقيه الملك فى روعه وقلبه من غير أن يراه كما قال النبى ﷺ : «إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها . فاتقوا الله ، وأجملوا فى الطلب ، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله ، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته» .

الثالثة : أنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلاً فيخاطبه حتى يعي عنه مايقول له ، وفى هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحيانا .

الرابعة : أنه كان يأتيه فى مثل صلصلة الجرس ، وكان أشده عليه فيلتبس به الملك ، حتى أن جبينه ليتفصد عرقاً فى اليوم الشديد البرد ، وحتى أن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها ، ولقد جاء الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت ، فثقلت عليه حتى كادت ترضها .

(١) فتح البارى ١ / ٢٧ .

(٢) صحيح البخارى كتاب التعبير باب أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة ٢ / ٣٤ .

الخامسة: أنه يرى الملك فى صورته التى خلق عليها ، فىوحى إليه ماشاء الله أن يوحىه، وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله ذلك فى سورة النجم.

السادسة : ما أوحاه الله إليه، وهو فوق السموات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها.

السابعة : كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك كما كلم الله موسى بن عمران، وهذه المرتبة هى ثابتة لموسى قطعا بنص القرآن ، وثبوتها لنبينا ﷺ هو فى حديث الإسراء .

وقد زاد بعضهم مرتبة ثامنة وهى تكليم الله له كفاحا من غير حجاب ، وهى مسألة خلاف بين السلف والخلف . انتهى مع تلخيص يسير فى بيان المرتبة الأولى والثامنة (١).

أمر القيام بالدعوة إلى الله ، وموادها

تلقى النبى ﷺ أوامر عديدة فى قوله تعالى ﴿يا أيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر * ولا تمنن تستكثر * ولربك فاصبر﴾ أوامر بسيطة ساذجة فى الظاهر، بعيدة المدى والغاية ، قوية الأثر والفعل فى الحقيقة ونفس الأمر .

١ - فغاية القيام بالإنذار أن لا يترك أحدا ممن يخالف مرضاة الله فى عالم الوجود إلا ويندره بعواقبه الوخيمة حتى تقع رجفة وزلزال فى قلبه وروعه .

٢ - وغاية تكبير الرب أن لا يترك لأحد كبرياء فى الأرض إلا وتكسر شوكتها، وتقلب ظهرا لبطن ، حتى لا يبقى فى الأرض إلا كبرياء الله تعالى .

٣ - وغاية تطهير الشياى وهجران الرجز أن يبلغ فى تطهير الظاهر والباطن وفى تركية النفس من جميع الشوائب والألوات إلى أقصى حد وكمال يمكن لنفس بشرية تحت ظلال رحمة الله الوارفة وحفظه وكلمه وهدايته ونوره، حتى يكون أعلى مثل فى المجتمع البشرى، تجتذب إليه القلوب السليمة ، وتحس بهيبته وفخامته القلوب الزائغة، حتى ترتكز إليه الدنيا بأسرها وفاقا أو خلافا .

٤ - وغاية عدم الاستكثار بالمنة أن لا يعد فعالاته وجهوده فخيمة عظيمة، بل لا يزال يجتهد فى عمل بعد عمل ، ويبدل الكثير من الجهد والتضحية والفناء ، ثم ينسى كل ذلك ، بل يفنى فى الشعور بالله بحيث لا يحس ولا يشعر بما بذل وقدم .

(١) انظر زاد المعاد ١ / ١٨

هـ - وفى الآية الأخيرة إشارة إلى ما سيلقاه من أذى المعاندين من المخالفة والاستهزاء والسخرية إلى الجِد والاجتهاد فى قتله وقتل أصحابه ، وإبادة كل من التف حوله من المؤمنين ، يأمر الله تعالى أن يصبر على كل من ذلك بقوة وجلادة ، لا لينال حظاً من حظوظ نفسه ، بل لمجرد مرضاة ربه .

الله أكبر ! ما أبسط هذه الأوامر فى صورتها الظاهرة . وما أروعها فى إيقاعاتها الهادئة الخلابه ، ولكن ما أكبرها وأفخمها وأشدّها فى العمل ، وما أعظمها إثارة لعاصفة هوجاء تحضر جوانب العالم، وتركها يتلاحم بعضها فى بعض .

والآيات نفسها تشتمل على مواد الدعوة والتبليغ ، فالإنذار نفسه يقتضى أن هناك أعمالاً لها عاقبة سوى أى يلقاها أصحابها ، ونظراً لما يعرفه كل أحد أن الدنيا لا يجازى فيها بكل ما يعمل الناس ، بل ربما لا يمكن المجازاة بجميع الأعمال . فالإنذار يقتضى يوماً للمجازاة غير أيام الدنيا ، وهو الذى يسمى بيوم القيامة ويوم الجزاء والدين ، وهذا يستلزم حياة أخرى غير الحياة التى نعيشها فى الدنيا .

وسائر الآيات تطلب من العباد التوحيد الصريح ، وتفويض الأمور كلها إلى الله تعالى ، وترك مرضاة النفس ، ومرضاة العباد إلى مرضاة الله تعالى .

فإذن تتلخص هذه المواد فى :

(أ) التوحيد . (ب) الإيمان بيوم الآخرة .

(ج) القيام بتزكية النفس بأن تتناهى عن المنكرات والفواحش التى تفضى إلى سوء العاقبة ، وبأن تقوم باكتساب الفضائل والكمالات وأعمال الخير .

(د) تفويض الأمور كلها إلى الله تعالى .

(هـ) وكل ذلك بعد الإيمان برسالة محمد ﷺ وتحت قيادته النبيلة وتوجيهاته الرشيدة .

ثم إن مطلع الآيات تضمنت النداء العلوى - فى صوت الكبير المتعال - بانتداب النبى ﷺ لهذا الأمر الجلل ، وانتزعه من النوم والتدثر والدفء إلى الجهاد والكفاح والمشقة : يا أيها المدثر ، قم فأندر ، كأنه قيل : إن الذى يعيش لنفسه قد يعيش مستريحاً ، أما أنت الذى تحمل هذا العبء الكبير فما لك والنوم ؟ وما لك والراحة ؟ وما لك والفراش الدافئ ؟ والعيش الهادئ ؟ والمتاع المريح ! قم للأمر العظيم الذى ينتظرك ، . والعبء الثقيل المهيأ لك . قم للجهد والنصب ، والكد والتعب . قم فقد مضى وقت النوم والراحة ، وما عاد منذ اليوم إلا السهر المتواصل ، والجهاد الطويل الشاق . قم فتهياً لهذا الأمر واستعد .

إنها الكلمة عظيمة رهيبة ، تنزعه ﷺ من دفء الفراش في البيت الهادئ والحضن الدافئ ، لتدفع به في الخصم ، بين الزعازع والأنواء وبين الشد والجذب في ضمائر الناس وفي واقع الحياة سواء .

وقام رسول الله ﷺ ، فظل قائما بعدها أكثر من عشرين عاما لم يسترح ولم يسكن ولم يعيش لنفسه ولا لأهله . قام وظل قائما على دعوة الله ، يحمل على عاتقه العبء الثقيل الباهظ ولا ينوء به ، عبء الأمانة الكبرى في هذه الأرض ، عبء البشرية كلها ، عبء العقيدة كلها ، وعبء الكفاح والجهاد في ميادين شتى ، عاش في المعركة الدائبة المستمرة أكثر من عشرين عاما . لا يلهيه شأن عن شأن في خلال هذا الأمد . منذ أن سمع النداء العلوي الجليل ، وتلقى منه التكليف الرهيب .. جزاه الله عنا وعن البشرية كلها خير الجزاء (١) .

وليست الأوراق الآتية إلا صورة مصغرة بسيطة من هذا الجهاد الطويل الشاق الذي قام به رسول الله ﷺ خلا هذا الأمد .

أدوار الدعوة ومراحلها

يمكن أن نقسم عهد الدعوة المحمدية .. على صاحبها الصلاة والسلام والتحية .. إلى دورين يمتاز أحدهما عن الآخر تمام الامتياز وهما :

(١) الدور المكى ، ثلاث عشرة سنة تقريبا . (٢) الدور المدني ، عشر سنوات كاملة . ثم يشتمل كل من الدورين على مراحل لكل منها خصائص تمتاز بها عن غيرها ، ويظهر ذلك جليا بعد النظر الدقيق في الظروف التي مرت بها الدعوة خلال الدورين . ويمكن تقسيم الدور المكى إلى ثلاث مراحل :

١ - مرحلة الدعوة السرية ، ثلاث سنين .

٢ - مرحلة إعلان الدعوة في أهل مكة ، من بداية السنة الرابعة من النبوة إلى أواخر السنة العاشرة .

٣ - مرحلة الدعوة خارج مكة ، وفشوها فيهم ، من أواخر السنة العاشرة من النبوة إلى هجرته ﷺ إلى المدينة . أما مراحل الدور المدني فسيجيء تفصيلها في موضعه .

(١) في ظلال القرآن تفسير سورتي الزمل والمائدة ، ج ٢٩ / ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٨٢

المرحلة الأولى جهاد الدعوة

ثلاث سنوات من الدعوة السرية :

معلوم أن مكة كانت مركز دين العرب ، وكان بها سدنة الكعبة والقوام على الأوثان والأصنام المقدسة عند سائر العرب ، فالوصول إلى المقصود من الإصلاح فيها يزداد عسرا وشدة عما لو كان بعيدا عنها . فالأمر يحتاج إلى عزيمة لا تزلزلها المصائب والكوارث ، كان من الحكمة تلقاء ذلك أن تكون الدعوة في بدء أمرها سرية ، لئلا يفاجئ أهل مكة بما يهيجهم .

الرعيّل الأول :

وكان من الطبيعي أن يعرض الرسول ﷺ الإسلام أولا على أصدق الناس به وآل بيته ، وأصدقائه ، فدعاهم إلى الإسلام ، ودعا إليه كل من توسم فيه خيرا ممن يعرفهم ويعرفونه ، يعرفهم بحب الله الحق والخير ، ويعرفونه بتحرى الصدق والصلاح ، فأجابه من هؤلاء - الذين لم تخالجهم ريبة قط في عظمة الرسول ﷺ وجلالة نفسه وصدق خبره - جمع عرفوا في التاريخ الإسلامي بالسابقين الأولين ، وفي مقدمتهم زوجة النبي ﷺ أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ومولاه زيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبي (١) وابن عمه علي بن أبي طالب - وكان صبيا يعيش في كفالة الرسول - وصديقه الحميم أبو بكر الصديق . أسلم هؤلاء في أول يوم من أيام الدعوة (٢) .

ثم نشط أبو بكر في الدعوة إلى الإسلام ، وكان رجلا مألفا محببا سهلا ، ذا خلق ومعروف ، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه ، لعلمه وتجارته ، وحسن مجالسته ، فجعل يدعو من يثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه ، فأسلم بدعائه عثمان بن عفان الأموي والزبير بن العوام الأسدي ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص الزهريان ، وطلحة بن عبيد الله التيمي ، فكان هؤلاء نفر الثمانية الذين سبقوا الناس هم الرعيّل الأول وطلبة الإسلام .

ومن أوائل المسلمين بلال بن رباح الحبشي ، ثم تلاهم أمين هذه الأمة (٣) أبو عبيدة

(١) كان قد أسروا ورق ، فملكته خديجة ، ووهبته لرسول الله ﷺ ، وجاءه أبوه وعمه ليذهبا به إلى قومه وعشيرته ، فاختار عليهما رسول الله ﷺ ، فتنه حسب قواعد العرب ، وكان لذلك يقال : زيد بن محمد ، حتى جاء الإسلام فأبطل التبنى .

(٢) رحمة للعالمين ١ / ٥٠ . (٣) انظر لتسميته بهذا اللقب صحيح البخاري مناقب أبي عبيدة بن الجراح ١ / ٥٣٠ .

عامر بن الجراح من بنى الحارث بن فهر ، وأبو سلمة بن عبد الأسد ، والأرقم بن أبي الأرقم المخزوميان ، وعثمان بن مظعون وأخواه قدامة وعبد الله ، وعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف ، وسعيد بن زيد العدوي ، وامرأته فاطمة بنت الخطاب العدوية أخت عمر بن الخطاب وخباب بن الأرت وعبد الله بن مسعود الهذلي وخلق سواهم ، وأولئك هم السابقون الأولون ، وهم من جميع بطون قريش وعدهم ابن هشام أكثر من أربعين نفرا (١). وفي ذكر بعضهم في السابقين الأولين نظر .

قال ابن إسحاق : ثم دخل الناس في الإسلام أرسالا من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة ، وتحدث به (٢).

أسلم هؤلاء سرا ، وكان الرسول ﷺ يجتمع بهم ويرشدهم إلى الدين متخفيا ؛ لأن الدعوة كانت لا تزال فردية وسرية ، وكان الوحي قد تتابع وحمى نزوله بعد نزول أوائل المدثر . وكانت الآيات وقطع السور التي تنزل في هذا الزمان آيات قصيرة ، ذات فواصل رائعة منيعة ، وإيقاعات هادئة خلابة تتناسق مع ذلك الجو الهامس الرقيق ، تشمل على تحسين تزكية النفوس ، وتقيح تلويشها برغائم الدنيا ، تصف الجنة والنار كأنهما رأى عين ، تسير بالمؤمنين في جو آخر غير الذي فيه اجتمع البشري آنذاك .

الصلاة :

وكان في أوائل ما نزل الأمر بالصلاة ، قال مقاتل بن سليمان : فرض الله في أول الإسلام الصلاة ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي ، لقوله تعالى :

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ (٤٠ : ٥٥) وقال ابن حجر : كان ﷺ قبل الإسراء يصلي قطعا ، وكذلك أصحابه ، ولكن اختلف هل فرض شيء قبل الصلوات الخمس من الصلوات أم لا ؟ فقليل إن الفرض كانت صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها . انتهى . وروى الحارث بن أسامة من طريق ابن لهيعة موصولا عن زيد بن حارثة : أن رسول الله ﷺ في أول ما أوحى إليه أتاه جبريل ، فعلمه الوضوء ، فلما فرغ من الوضوء أخذ غرفة من ماء فنضح به فرجه . وقد روى ابن ماجه بمعناه . وروى نحوه عن البراء بن عازب وابن عباس وفي حديث ابن عباس : وكان ذلك من أول الفريضة (٣) .

وقد ذكر ابن هشام أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا إذا حضرت الصلاة ذهبوا في الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم ، وقد رأى أبو طالب النبي ﷺ وعليه يصليان مرة ، فكلهما في ذلك ، ولما عرف جليلة الأمر أمرهما بالثبات (٤).

(١) انظر سيرة ابن هشام ١ / ٢٤٥ إلى ٢٦٢ . (٢) نفس المصدر ١ / ٢٦٢ .

(٣) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٨٨ . (٤) ابن هشام ١ / ٢٤٧ .

الخبر يبلغ قريش إجمالاً :

يبدو بعد النظر فى نواح شتى من الوقائع أن الدعوة - فى هذه المرحلة - وإن كانت سرية وفردية ، لكن بلغت أنبأؤها إلى قريش ، بيد أنها لم تكثر بها .

قال محمد الغزالي : وترامت هذه الأنباء إلى قريش فلم تعرها اهتماماً ، ولعلها حسبت محمداً أحد أولئك الديانين ، الذين يتكلمون فى الألوهية وحقوقها ، كما صنع أمية بن أبى الصلت ، وقس بن ساعدة ، وعمر بن نفيل وأشباههم ، إلا أنها توجست خيفة من ذيوع خبره وامتداد أثره ، وأخذت ترقب على الأيام مصيره ودعوته (١) .

مرت ثلاث سنين والدعوة لم تنزل سرية وفردية ، وخلال هذه الفترة تكونت جماعة من المؤمنين تقوم على الأخوة والتعاون ، وتبليغ الرسالة وتمكينها من مقامها ثم تنزل الوحي يكلف رسول الله ﷺ بمعالنته قومه ومجابهة باطلهم ومهاجمة أصنامهم .

المرحلة الثانية

الدعوة جهاراً

أول أمر بإظهار الدعوة :

أول ما نزل بهذا الصدد قوله تعالى ﴿ وأندر عشيرتك الأقربين ﴾ (٢٦ : ٢١٤) والسورة التى وقعت فيها الآية - وهى سورة الشعراء - ذكرت فيها أولاً قصة موسى عليه السلام من بداية نبوته إلى هجرته مع بنى إسرائيل ، ونجاتهم من فرعون وقومه ، وإغراق آل فرعون معه ، وقد اشتملت هذه القصة على جميع المراحل التى مر بها موسى عليه السلام خلال دعوة فرعون وقومه إلى الله .

أرى أن هذا التفصيل إنما جرى به حين أمر الرسول ﷺ بدعوة قومه إلى الله ، ليكون أمامه وأمام أصحابه نموذجاً لما سيلقونه من التكذيب والاضطهاد حينما يجهرون بالدعوة ، وليكونوا على بصيرة من أمرهم منذ بداية دعوتهم .

ومن ناحية أخرى تشتمل هذه السورة على ذكر مآل المكذبين للرسل ، من قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم إبراهيم ، وقوم لوط ، وأصحاب الأيكة - علاوة على ما ذكر من أمر

(١) فقه السيرة ص ٧٦

فرعون وقومه - ليعلم الدين سيقومون بالتكذيب بما يؤول إليه أمرهم وبما سيلقون من مؤاخذه الله إن استمروا على التكذيب، ويعرف المؤمنون أن حسن العاقبة لهم لا للمكذبين.

الدعوة في الأقربين :

وأول ما فعل رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية أنه دعا بني هاشم فحضروا، ومعهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف، فكانوا خمسة وأربعين رجلا . فبادره أبو لهب وقال: وهؤلاء هم عمومك وبنو عمك فتكلم ودع الصباة. واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة، وأنا أحق من أخذك، فحسبك بنو آبيك، وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يشب بك بطون قريش، وتمدهم العرب، فما رأيت أحدا جاء على بني آبيه بشر مما جئت به، فسكت رسول الله ﷺ، ولم يتكلم في ذلك المجلس.

ثم دعاهم ثانية وقال: « الحمد لله أحمده، وأستعينه، وأومن به، وأتوكل عليه. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. ثم قال: إن الرائد لا يكذب أهله والله الذي لا إله إلا هو، إني رسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس عامة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، وإنها الجنة أبدا أو النار أبدا ». فقال أبو طالب: ما أحب إلينا معاونتك، وأقبلنا لنصيححتك، وأشد تصديقنا لحديثك، وهؤلاء بنو آبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم غير أني أسرعهم إلى ما تحب، فامض لما أمرت فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك، غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب.

فقال أبو لهب: هذه والله السوأة، خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم، فقال أبو طالب: والله لنمنعه ما بقينا (١).

على جبل الصفا :

وبعد ما تأكد النبي ﷺ من تعهد أبي طالب بحمايته، وهو يبلغ عن ربه، قام يوما على الصفا فصرخ: يا صباحاه: فاجتمع إليه بطون قريش، فدعاهم إلى التوحيد والإيمان برسالته وباليوم الآخر. وقد روى البخاري طرفا من هذه القصة عن ابن عباس. قال: لما نزلت ﴿ وأندر عشيرتك الأقربين ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي يا بني فها! يا بني عدى. ! لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو؟ فجاء أبو لهب وقريش. فقال: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا، قال: فإنني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب تبأ لك سائر اليوم. ألهذا جمعنا؟

(١) ابن الأثير، فقه السيرة ص ٧٧، ٧٨.

فنزلت ﴿تبت يدا أبي لهب﴾ (١).

وروى مسلم طرفاً آخر من هذه القصة عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وأندر عشيرتك الأقربين﴾ دعا رسول الله ﷺ فعم وخص فقال: يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بنى كعب! أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد! أنقذى نفسك من النار، فإنى والله لا أملك لكم من الله شيئاً، إلا أن لكم رحماً سأبلها ببلالها (٢).

هذه الصيحة العالية هى غاية البلاغ، فقد أوضح الرسول ﷺ لأقرب الناس إليه أن التصديق بهذه الرسالة هو حياة الصلوات بينه وبينهم. وأن عصبية القرابة التى يقوم عليها العرب ذابت فى حرارة هذا الإنذار الآتى من عند الله.

الصدع بالحق وردود فعل المشركين:

ولم يزل هذا الصوت يرتج دويه فى أرجاء مكة حتى نزل قوله تعالى ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾ (١٥ : ٩٤) فقام رسول الله ﷺ يعكر على خرافات الشرك وترهاته، ويذكر حقائق الأصنام ومآلها من قيمة فى الحقيقة، يضرب بعجزها الأمثال، ويبين بالبينات أن من عبدها وجعلها وسيلة بينه وبين الله فهو فى ضلال مبين.

انفجرت مكة بمشاعر الغضب، وماجت بالغرابة والاستنكار، حين سمعت صوتاً يجهر بتضليل المشركين وعباد الأصنام، كأنه صاعقة قصفت السحاب، فرعدت وبرقت وزلزلت الجو الهادئ، وقامت قريش تستعد لحسم هذه الثورة التى اندلعت بغتة، ويخشى أن تأتى على تقاليدها وموروثاتها.

قامت لأنها عرفت أن معنى الإيمان بنفى الألوهية عما سوى الله، ومعنى الإيمان بالرسالة وباليوم الآخر هو الانقياد التام والتفويض المطلق، بحيث لا يبقى لهم خيار فى أنفسهم وأموالهم، فضلاً عن غيرهم ومعنى ذلك انتفاء سيادتهم وكبرياتهم على العرب، التى كانت بالصبغة الدينية، وامتناعهم عن تنفيذ مرضاتهم أمام مرضاة الله ورسوله، وامتناعهم عن المظالم التى كانوا يفترونها على الأوساط السافلة، وعن السيئات التى كانوا يجترحونها صباح مساء. عرفوا هذا المعنى فكانت نفوسهم تأبى عن قبول هذا الوضع «الخزى» لا لكرامة وخير ﴿بل يريد الإنسان ليفجر أمامه﴾ (٧٥ : ٥).

عرفوا كل ذلك جيداً، ولكن ماذا سيفعلون أمام رجل صادق أمين، أعلى مثل للقيم البشرية ولمكارم الأخلاق، لم يعرفوا له نظيراً ولا مثيلاً خلال فترة طويلة من تاريخ الآباء

(١) صحيح البخارى ٢/ ٧٠٢، ٧٤٣، والرواية مخرجة فى صحيح مسلم أيضاً ١/ ١٤٤.

(٢) صحيح مسلم ١/ ١١٤، صحيح البخارى ١/ ٣٨٥، ٧٠٢، مشكاة المصابيح ٢/ ٤٦٠.

والأقوام ؟ ماذا سيفعلون ؟ تحيروا في ذلك ، وحق لهم أن يتحيروا .

وبعد إدارة فكرتهم لم يجدوا سبيلا إلا أن يأتوا إلى عمه أبي طالب ، فيطلبوا منه أن يكف ابن أخيه عما هو فيه ، ورأوا لإلباس طلبهم لباس الجد والحقيقة أن يقولوا : إن الدعوة إلى ترك آلهتهم ، والقول بعدم نفعها وقدرتها سبة قبيحة وإهانة شديدة لها ، وفيه تسفيه وتضليل لآبائهم الذين كانوا على هذا الدين ، وجدوا هذا السبيل فتسارعوا إلى سلوكها .

وفد قريش إلى أبي طالب :

قال ابن إسحاق : مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب ، فقالوا : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا فيما أن تكفه عنا ، وإما أن تخلى بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه ، فنكفيكه . فقال لهم أبو طالب قولوا رقيقا ، وردهم ردا جميلا فانصرفوا عنه ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه ، يظهر دين الله ، ويدعو إليه . (١) .

المجلس الاستشاري لكف الحجاج عن استماع الدعوة :

وخلال هذه الأيام أهم قريشا أمر آخر ، وذلك أن الجهر بالدعوة لم يمض عليه إلا أشهر معدودة حتى قرب موسم الحج ، وعرفت قريش أن وفود العرب ستقدم عليهم ، فرأت أنه لا بد من كلمة يقولونها للعرب في شأن محمد ﷺ حتى لا يكون لدعوته أثر في نفوس العرب فاجتمعوا إلى الوليد بن المغيرة يتداولون في تلك الكلمة ، فقال لهم الوليد : أجمعوا فيه رأيا واحدا ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ، ويرد قولكم بعضه بعضا ، قالوا : فأنت فقل ، قال : بل أنتم فقولوا أسمع . قالوا : نقول : كاهن . قال : لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان ، فما هو بزممة الكاهن ولا سجعه . قالوا : فنقول : مجنون . قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، ما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول شاعر . قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو الشعر ، قالوا فنقول : ساحر . قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم . قالوا : فما نقول ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : ساحر . جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك (٢) .

وتفيد بعض الروايات أن الوليد لما رد عليهم كل ما عرضوا له ، قالوا : أرنا رأيك الذي لا غضاضة فيه ، فقال لهم : أمهلوني حتى أفكر في ذلك ، فظل الوليد يفكر ويفكر

(١) ابن هشام ١ / ٢٦٥ . (٢) نفس المصدر ١ / ٢٧١ .

حتى أبدى لهم رأيه الذي ذكر آنفا (١) .

وفى الوليد أنزل الله تعالى ست عشرة آية من سورة المدثر (من ١١ إلى ١٦) وفى خلالها صور كيفية تفكيره ، فقال : ﴿ إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر ﴾ .

وبعد أن اتفق المجلس على هذا القرار أخذوا فى تنفيذه ، فجلسوا بسبل الناس حين قدموا الموسم ، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا لهم أمره (٢) .

والذى تولى كبر ذلك هو أبو لهب ، فقد كان رسول الله ﷺ يتبع الناس إذا وافى الموسم فى منازلهم وفى عكاظ ومجنة وذى المجاز ، يدعوهم إلى الله ، وأبو لهب وراءه يقول : لا تطيعوه فإنه صابئ كذاب (٣) .

وأدى ذلك إلى أن صدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ ، وانتشر ذكره فى بلاد العرب كلها .

أساليب شتى لمجابهة الدعوة :

ولما رأت قريش أن محمدا ﷺ لا يصرفه عن دعوته هذا ولا ذاك فكروا مرة أخرى ، واختاروا لقمع هذه الدعوة أساليب تتلخص فيما يأتى :

١ - السخرية والتحقير ، والاستهزاء والتكذيب والتضحيك ، قصدوا بها تخذيل المسلمين ، وتوهين قواهم المعنوية ، فرموا النبى ﷺ بتهمة هازلة ، وشتائم سفیهة ، فكانوا ينادونه بالجنون ﴿ وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ (١٥ : ٦) ويصفونه بالسحر والكذب ﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ، وقال الكافرون هذا سحر كذاب ﴾ (٣٨ : ٤) وكانوا يشيعونه ويستقبلونه بنظرات ملتزمة ناقمة ، وعواطف منفعة هائجة ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون ﴾ (٦٨ : ٥١) وكان إذا جلس وحوله المستضعفون من أصحابه استهزأوا بهم وقالوا : هؤلاء جلساؤه ﴿ من الله عليهم من بيننا ﴾ (٦ : ٥٣) قال تعالى : ﴿ أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ (٦ : ٥٣) وكانوا كما قص الله علينا ﴿ إن الذين أجمعوا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فاكهين وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ، وما أرسلوا عليهم حافظين ﴾ (٨٣ : ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣) .

(١) انظر فى ظلال القرآن ٢٩ ، ١٨٨ . (٢) ابن هشام ١ / ٢٧١ . (٣) روى فعله هذا الترمذى عن يزيد بن رومان و . عن طارق بن عبد الله المخاربى ورواه الإمام أحمد فى مسنده ٣ / ٤٩٢ ، ٤ / ٣٤١ .

٢ - تشوية تعاليمه وإثارة الشبهات ، وبث الدعايات الكاذبة ، ونشر الإيرادات الواهية حول هذه التعاليم ، وحول ذاته وشخصيته ، والإكثار من كل ذلك بحيث لا يبقى للعامة مجال في تدبر دعوته ، فكانوا يقولون عن القرآن : ﴿ أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا ﴾ (٢٥ : ٥) ﴿ إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ﴾ (٢٥ : ٤) وكانوا يقولون ﴿ إنما يعلمه بشر ﴾ (١٦ : ١٠٣) وكانوا يقولون عن الرسول ﷺ ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الأسواق ﴾ (٢٥ : ٧) وفي القرآن نماذج كثيرة للردود على إيراداتهم بعد نقلها أو من غير نقلها .

٣ - معارضة القرآن بأساطير الأولين ، وتشغيل الناس بها عنه . فقد ذكروا أن النضر بن الحارث قال مرة لقريش : يا معشر قريش ! والله لقد نزل بكم أمر ما أوتيتم له بحيلة بعد . قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به ، قلتم : ساحر . لا والله ما هو بساحر . لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم ، وقلتم : كاهن . لا والله ما هو بكاهن . قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم ، وقلتم : شاعر . لا والله ما هو بشاعر ، وقد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه ، وقلتم : مجنون . لا والله ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ، ولا وسوسته ، ولا تخليطه ، يا معشر قريش فانظروا في شأنكم ، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم .

ثم ذهب النضر إلى الحيرة ، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس ، وأحاديث رستم وأسفنديار ، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسا للتذكير بالله والتحذير من نعمته خلفه النضر ، ويقول : والله ما محمد بأحسن حديثا مني ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وأسفنديار ، ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثا مني (١) .

وتفيد رواية ابن عباس أن النضر كان قد اشترى قينات ، فكان لا يسمع برجل مال إلى النبي ﷺ إلا سلط عليه واحدة منهن ، تطعمه وتسقيه ، وتغني له ، حتى لا يبقى له ميل إلى الإسلام ، وفيه نزل قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ﴾ (٢) .

٤ - مساومات حاولوا بها أن يتلقى الإسلام والجاهلية في منتصف الطريق بأن يترك المشركون بعض ما هم عليه ، ويترك النبي ﷺ بعض ما هو عليه ﴿ ودوا لو تسدهن فيدهنون ﴾ (٦٨ : ٩) فهناك رواية رواها ابن جرير والطبراني تفيد أن المشركين عرضوا على رسول الله ﷺ أن يعبد آلهتهم عاما ، ويعبدون ربه عاما . ورواية أخرى لعبد بن حميد

(١) ابن هشام ١/ ٢٩٩ ، ٣٥٨ ، وتفهيم القرآن ٤ / ٨ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ١١٧ ، ١١٨ . (٢) تفهيم القرآن ٦ / ٥٠١ ، ٢٠٥ .

تفيد أنهم قالوا : لو قبلت آلهتنا نعبد إلهك (١) .

وروى ابن اسحاق بسنده ، قال : اعترض رسول الله ﷺ - وهو يطوف بالكعبة - الأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزى والوليد بن المغيرة وأمّية بن خلف والعاص بن وائل السهمي - وكانوا ذوى أسنان فى قومهم فقالوا يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد وتعبد مانعبد فنشترك نحن وأنت فى الأمر ، فإن كان الذى تعبد خيرا مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان ما نعبد خيرا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه ، فأنزل الله تعالى فيهم ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ السورة كلها (٢) .

وحسم الله مفاوضتهم المضحكة بهذه المفاصلة الجازمة .

ولعل اختلاف الروايات لأجل أنهم حاولوا هذه المساومة مرة بعد أخرى .

الاضطهادات :

أعمل المشركون الأساليب التى ذكرناها شيئا فشيئا لكف الدعوة بعد ظهورها فى بداية السنة الرابعة من النبوة ومضت على ذلك أسابيع وشهور وهم مقتصرون على هذه الأساليب ، لا يتجاوزونها إلى طريق الاضطهاد والتعذيب ، ولكنهم لما رأوا أن هذه الأساليب لا تجدى لهم نفعا فى كف الدعوة الإسلامية ؛ اجتمعوا مرة أخرى ، وكونوا منهم لجنة أعضاؤها خمسة وعشرون رجلا من سادات قريش ، رئيسها أبو لهب عم رسول الله ﷺ ، وبعد التشاور والتفكر اتخذت هذه اللجنة قرارا حاسما ضد رسول الله ﷺ ، وضد أصحابه . فقررت أن لا تألوجهدا فى محاربة الإسلام ، وإيذاء رسوله ، وتعذيب الداخلين فيه ، والتعرض لهم بالوان من النكال والإيلام (٣) .

اتخذوا هذا القرار وصمموا على تنفيذه أما بالنسبة إلى المسلمين - ولا سيما المستضعفين منهم - فكان ذلك سهلا جدا ، وأما بالنسبة إلى رسول الله ﷺ فإنه كان رجلا شهما وقورا ذا شخصية فذة ، تتعاضده نفوس الأعداء والأصدقاء ، بحيث لا يقابل مثلها إلا بالإجلال والتشريف ، ولا يجترئ على اقتراف الدنيايا والردائل ضده إلا أرذال الناس وسفهاؤهم ، ومع ذلك كان فى منعة أبى طالب ، وأبو طالب من رجال مكة المعدودين ، كان معظما فى أصله معظما بين الناس ، فما يجسر أحد على إخفار ذمته واستباحة بيضته ، إن هذا الوضع أقلق قريشا وأقامهم وأقعدهم ، ولكن إلام هذا الصبر الطويل أمام دعوة تتشوف إلى القضاء على زعامتهم الدينية ، وصدارتهم الدنيوية .

(٢) ابن هشام ١/٣٦٢

(١) تفهيم القرآن ٦/٥٠١، ٢٠٥

(٣) رحمة للعالمين ١/٦٠، ٥٩

وبدأوا الاعتداءات ضد النبي ﷺ ، وعلى رأسهم أبو لهب ، فقد اتخذ موقفه هذا من رسول الله ﷺ منذ اليوم الأول قبل أن تهم قريش بذلك . وقد أسلفنا ما فعل بالنبي ﷺ في مجلس بنى هاشم ، وما فعل على الصفا ، وقد ورد في بعض الروايات أنه - حينما كان على الصفا - أخذ حجرا ليضرب به النبي ﷺ (١) .

وكان أبو لهب قد زوج ولديه عتبة وعتيبة ببنتي رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم قبل البعثة ، فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما بعنف وشدة ، حتى طلقاهما . (٢) .

ولما مات عبد الله - الابن الثاني لرسول الله ﷺ - استبشر أبو لهب ، وهرب إلى رفقائه يبشرهم بأن محمداً صار أبتراً (٣) .

وقد أسلفنا أن أبا لهب كان يجول خلف النبي ﷺ في موسم الحج والأسواق لتكذيبه وقد روى طارق بن عبد الله المحاربي ما يفيد أنه كان لا يقتصر على التكذيب ، بل كان يضربه بالحجر حتى يدمى عقباه (٤) .

وكانت امرأة أبي لهب - أم جميل أروى بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان - لا تقل عن زوجها في عداوة النبي ﷺ ، فقد كانت تحمل الشوك وتضعه في طريق النبي ﷺ وعلى بابه ليلاً ، وكانت امرأة سليطة تبسط فيه لسانها ، وتطيل عليه الافتراء والدس ، وتؤجج نار الفتنة ، وتثير حرباً شعواء على النبي ﷺ ، ولذلك وصفها القرآن بحمالة الخطب .

ولما سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة ، ومعه أبو بكر الصديق ، وفي يدها فهر (أى بمقدار ملء الكف) من حجارة ، فلما وقفت عليهما أخذ الله يبصرها عن رسول الله ﷺ فلا ترى إلا أبا بكر ، فقالت : يا أبا بكر ! أين صاحبك ؟ قد بلغنى أنه يهجونى ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه ، أما والله إنى لشاعرة ، ثم قالت :

مذمماً عصينا * وأمره أبينا * ودينه قلينا

ثم انصرفت ، فقال أبو بكر : يا رسول الله أما تراها رأيتك ؟ فقال : ما رأيتنى ، لقد أخذ الله يبصرها عنى (٥) .

وروى أبو بكر البزار هذه القصة . وفيها أنها لما وقفت على أبي بكر قالت : « أبا بكر هجانا صاحبك ، فقال أبو بكر : لا ورب هذه البنية ، ما ينطق بالشعر ولا يتفوه به ، فقالت : إنك لمصدق » .

(١) روى ذلك الترمذى . (٢) فى ظلال القرآن ٣٠ / ٢٨٢ ، تفهيم القرآن ٦ / ٥٢٢ .

(٣) تفهيم القرآن ٦ / ٤٩٠ . (٤) جامع الترمذى . (٥) انظر سيرة ابن هشام ١ / ٣٣٥ ، ٣٣٦ .

كان أبو لهب يفعل كل ذلك وهو عم رسول الله ﷺ وجاره ، كان بيته ملصقا ببيته ، كما كان غيره من جيران رسول الله ﷺ يؤذونه وهو في بيته .

قال ابن إسحاق : كان نفر الذين يؤذون رسول الله ﷺ في بيته أبا لهب ، والحكم بن أبي العاص بن أمية ، وعقبة بن أبي معيط ، وعدى بن حمراء الثقفي ، وابن الأصداء الهذلي - وكانوا جيرانه - لم يسلم منهم أحد إلا الحكم بن أبي العاص (١) فكان أحدهم يطرح عليه ﷺ رحم الشاة وهو يصلي ، وكان أحدهم يطرحها في برمته إذا نصبت له ، حتى اتخذ رسول الله ﷺ حجرا ليستتر به منهم إذا صلى ، فكان رسول الله ﷺ إذا طرحوا عليه ذلك الأذى يخرج به على العود ، فيقف به على بابه ، ثم يقول : يا بني عبد مناف ! أي جوار هذا ؟ ثم يلقيه في الطريق (٢) .

وازداد عقبة بن أبي معيط في شقاوته وخبثه ، فقد روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : أن النبي ﷺ كان يصلي عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جلوس ، إذ قال بعضهم لبعض أيكم يجئ بسلا جزور بني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد . فانبعث أشقى القوم (وهو عقبة بن أبي معيط) (٣) جاء به فنظر ، حتى إذا سجد النبي لله وضع على ظهره بين كتفيه ، وأنا أنظر ، لا أغنى شيئا ، لو كانت لي منعة ، قال : فجعلوا يضحكون ، ويحيل بعضهم على بعض (أي يتمايل بعضهم على بعض مرحا وبطرا) ورسول الله ﷺ ساجد ، لا يرفع رأسه حتى جاءت فاطمة ، فطرحته عن ظهره ، فرفع رأسه ، ثم قال : اللهم عليك بقريش ثلاث مرات . فشق ذلك عليهم إذ دعا عليهم وقال : وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة ، ثم سمي اللهم عليك بأبي جهل ، وعليك بعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة . وأمية بن خلف ، وعقبة بن أبي معيط - وعد السابع فلم يحفظه - فوالذي نفسي بيده لقد رأيت الذي عد رسول الله ﷺ صرعى في القليب ، قليب بدر (٤) .

وكان أمية بن خلف إذا رأى رسول الله ﷺ همزه ولمزه . وفيه نزل : ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ قال ابن هشام : الهمزة : الذي يشتم الرجل علانية ، ويكسر عينيه ، ويغمز به واللمزة : الذي يعيب الناس سرا ويؤذيهم (٥) .

أما أخوه أبي بن خلف فكان هو وعقبة بن أبي معيط متصافيين . وجلس عقبة مرة إلى النبي ﷺ وسمع منه ، فلما بلغ ذلك أبيا أنبه وعاتبه وطلب منه أن يتفل في وجه

(١) هو أبو الخليفة الأموي مروان بن الحكم . (٢) ابن هشام ١/٤١٦

(٣) صرح بذلك في صحيح البخاري نفسه ١/٥٤٣

(٤) صحيح البخاري ، كتاب الرضوء ، باب إذا ألقى على المصلي قدر أو جيفة ١/٣٧ .

(٥) ابن هشام ١/٣٥٦، ٣٥٧

رسول الله ﷺ ففعل . وأبى بن خلف نفسه فت عظماء رميما ثم نفخه في الريح نحو رسول الله ﷺ (١). وكان الأخنس بن شريق الثقفي ممن ينال من رسول الله ﷺ ، وقد وصفه القرآن بتسع صفات تدل على ما كان عليه ، وهي في قوله تعالى : ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين همار مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم ﴾ (٦٨ : ١٠ : ١١ : ١٢ : ١٣) .

وكان أبو جهل يجرى أحيانا إلى رسول الله ﷺ يسمع منه القرآن ، ثم يذهب عنه فلا يؤمن ، ولا يطيع ، ولا يتأدب ولا يخشى ، ويؤذى رسول الله ﷺ بالقول ، ويصد عن سبيل الله ، ثم يذهب مختالا بما يفعل ، فخورا بما ارتكب من الشر ، كأنما فعل شيئا يذكر ، وفيه نزل ﴿ فلا صدق ولا صلى ﴾ الخ (٢) . وكان يمنع النبي ﷺ عن الصلاة منذ أول يوم رآه يصلي في الحرم ، ومرة مر به وهو يصلي عند المقام فقال : يا محمد ألم أنهك عن هذا وتوعده فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره . فقال : يا محمد بأي شيء تهددني ؟ أما والله إنني لأكثر هذا الوادي ناديا . فأنزل ﴿ فليدع ناديه ﴾ (٣) وفي رواية أن النبي ﷺ أخذ بخنقه ، وهزه ، وهو يقول له ﴿ أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى ﴾ فقال عدو الله : أتوعدني يا محمد ؟ والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئا ، وإنني لأعز من مشى بين جبليها (٤) .

ولم يكن أبو جهل ليفيق من غباوته بعد هذا الانتهار ، بل ازداد شقاوة فيما بعد . أخرج مسلم عن أبي هريرة قال : قال أبو جهل : يعفر محمد وجهه بين أظهركم ؟ فقيل : نعم ! فقال : واللوات والعزى ، لئن رأيته لأطأن على رقبتة ولأعفرن وجهه ، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ، زعم ليطأ رقبتة ، فما فجأهم إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه ، فقالوا : مالك يا أبا الحكم ؟ قال : إن بيني وبينه لخذقا من نار وهو لاء أجنحة ، فقال رسول الله ﷺ : لو دنا مني لاحتطفته الملائكة عضو عضوا (٥) .

كانت هذه الاعتداءات بالنسبة إلى النبي ﷺ مع ما لشخصيته الفذة من وقار وجلال في نفوس العامة والخاصة ، ومع ما له من منعة أبي طالب أعظم رجل محترم في مكة ، أما بالنسبة إلى المسلمين - ولا سيما الضعفاء منهم - فإن الإجراءات كانت أقسى من ذلك وأمر ، ففي نفس الوقت قامت كل قبيلة تعذب من دان منها بالإسلام أنواعا من التعذيب ، ومن لم يكن له قبيلة فأجرت عليهم الأوباش والنسادات ألوانا من الاضطهاد ، يفزع من ذكرها قلب الحليم .

كان أبو جهل إذا سمع برجل قد أسلم له شرف ومنعة أنبه وأخزاه ، وأوعده بإبلاغ

(٣) نفس المصدر ، ٢٠٨ / ٣ .

(٢) في ظلال القرآن ٢٩ / ٢١٢ .

(١) ابن هشام ١ / ٣٦١ ، ٣٦٢ .

(٤) في ظلال القرآن ٢٩ / ٢١٢ .

(٥) رواه مسلم في صحيحه .

الخسارة الفادحة في المال ، والجاء ، وإن كان ضعيفا ضربه وأغرى به (١) . وكان عم عثمان بن عفان يلفه في حصير من أوراق النخيل ثم يدخنه من تحته (٢) .

ولما علمت أم مصعب بن عمير بإسلامه أجماعته وأخرجته من بيته ، وكان من أنعم الناس غنى ، فتخشف جلده تخشف الحية (٣) .

وكان بلال مولى أمية بن خلف الجمحي ، فكان أمية يضع في عنقه حبلا ، ثم يسلمه إلى الصبيان ، يطوفون به جبال مكة ، حتى كان يظهر أثر الجبل في عنقه ، وكان أمية يشده شدا ثم يضربه بالعصا ، وكان يلجئه إلى الجلوس في حر الشمس ، كما كان يكرهه على الجوع ، وأشد من ذلك كله أنه كان يخرجهم إذا حميت الظهيرة فيطرحه في بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول : لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى . فيقول - وهو في ذلك - أحد ، أحد ، حتى مر به أبو بكر يوماً وهم يصنعون ذلك به ، فاشتره بغلام أسود ، وقيل بسبع أواق أو بخمس من الفضة وأعتقه (٤) .

وكان عمار بن ياسر رضي الله عنه مولى لبنى مخزوم ، أسلم هو وأبوه وأمه ، فكان المشركون - وعلى رأسهم أبو جهل - يخرجونهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء ، فيعذبونهم بحرهما . ومر بهم النبي ﷺ وهو يعذبون فقال : صبرا آل ياسر ! فإن موعدكم الجنة ، فمات ياسر في العذاب ، وطعن أبو جهل سمية - أم عمار - في قلبها بحربة فماتت وهي أول شهيدة في الإسلام ، وشددوا العذاب على عمار بالحر تارة ، وبوضع الصخر الأحمر على صدره أخرى ، وبالتفريق أخرى . وقالوا : لا نتركك حتى تسب محمداً ، أو تقول : في اللات والعزى خيرا ، فوافقهم على ذلك مكرها ، وجاء باكيا معتذرا إلى النبي ﷺ ، فأنزل الله ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ الآية (١٦ : ١٠٦) (٥) .

وكان أبو فكيهة - واسمه أفلح - مولى لبنى عبد الدار ، فكانوا يشدون برجله الجبل ثم يجرونه على الأرض (٦) .

وكان خباب بن الأرت مولى لأم أنمار بنت سباع الخزاعية ، فكان المشركون يذيقونه أنواعا من التنكيل ، يأخذون بشعر رأسه فيجذبونه جذبا ، ويلوون عنقه تلوية عنيفة وأضجعوه مرات عديدة على فهار ملتهب ، ثم وضعوا عليه حجرا ؛ حتى لا يستطيع أن يقوم (٧) .

(١) ابن هشام ١/ ٣٢٠ . (٢) ابن هشام ١/ ٣٢٠ . (٣) رحمة للعالمين ١/ ٥٧ . (٤) نفس المصدر ١/ ٥٨ ،

وتلخيص فهوم أهل الأثر ص ٦٠ . (٥) رحمة للعالمين ١/ ٥٧ ، تلخيص الفهوم ص ٦١ ، ابن هشام ١/ ٣١٧ ، ٣١٨ .

(٦) ابن هشام ١/ ٣١٩ ، ٣٢٠ ، فقه السيرة لمحمد الغزالي ص ٨٢ وروى بعض ذلك العوفي عن ابن عباس ، انظر مختصر السيرة للشيخ عبد الله ص ٩٢ . (٧) رحمة للعالمين ١/ ٥٧ ، من إعجاز التنزيل ص ٥٣ .

وكانت زنيرة والنهدية وابنتها وأم عبيس إماء أسلمن ، وكان المشركون يسومونهن من العذاب أمثال ما ذكرنا . وأسلمت جارية لبنى مؤمل - وهم حى من بنى عدى - فكان عمر بن الخطاب - وهو يومئذ مشرك - يضربها ، حتى إذا مل قال : إني لم أترك إلا ملالة (١) .

وابتاع أبو بكر هذه الجوارى فأعتقهن ، كما أعتق بلالا وعامر بن فهيرة (٢) . وكان المشركون يلقون بعض الصحابة فى إهاب الإبل والبقر ، ثم يلقونه فى حر الرمضاء ، ويلبسون بعضاً آخر درعا من الحديد ثم يلقونه على صخرة ملتهبة (٣) . وقائمة المعذبين فى الله طويلة ومؤلمة جدا ، فما من أحد علموا بإسلامه إلا تصدوا له وآذوه .

دار الأرقم :

كان من الحكمة تلقاء هذه الاضطهادات أن يمنع رسول الله ﷺ المسلمين عن إعلان إسلامهم قولا أو فعلا ، وأن لا يجتمع بهم إلا سرا ؛ لأنه إذا اجتمع بهم علنا فلا شك أن المشركين يحولون بينه وبين ما يريد من تزكية المسلمين وتعليمهم الكتاب والحكمة ، وربما يفضى ذلك إلى مصادمة الفريقين ، بل وقع ذلك فعلا فى السنة الرابعة من النبوة ، وذلك أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يجتمعون فى الشعاب ، فيصلون فيها سرا ، فرآهم نفر من كفار قريش ، فسبوهم وقتلوه ، فضرب سعد بن أبي وقاص رجلا فسال دمه ، وكان أول دم أهرق فى الإسلام (٤) .

ومعلوم أن المصادمة لو تعددت وطالت لأفضت إلى تدمير المسلمين وإبادتهم ، فكان من الحكمة الاختفاء ، فكان عامة الصحابة يخفون إسلامهم وعبادتهم ودعوتهم واجتماعهم ، أما رسول الله ﷺ فكان يجهر بالدعوة والعبادة بين ظهرائى المشركين ، لا يصرفه عن ذلك شىء ، ولكن كان يجتمع مع المسلمين سرا ؛ نظرا لصالحهم وصالح الإسلام ، وكانت دار الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى على الصفا . وكانت بمعزل عن أعين الطغاة ومجالسهم ، فكان أن اتخذها مركزا لدعوته ، ولاجتماعه بالمسلمين من السنة الخامسة من النبوة (٥) .

الهجرة الأولى إلى الحبشة :

كانت بداية الاضطهادات فى أواسط أو أواخر السنة الرابعة من النبوة بدأت ضعيفة ،

(١) رحمة للعالمين ٥٧/١ ، ابن هشام ٣١٩/١ . (٢) ابن هشام ٣١٨/١ ، ٣١٩ (٣) رحمة للعالمين ٥٨/١ .

(٤) ابن هشام ٢٦٣/١ ، مختصر سيرة الرسول محمد بن عبد الوهاب ص ٦٠ .

(٥) نفس المصدر الأخير ص ٦١ .

ثم لم تزل يوما فيوما وشهرا فشهرًا حتى اشتدت وتفاقت في أواسط السنة الخامسة، حتى نبا بهم المقام في مكة، وأوعزتهم أن يفكروا في حيلة تنجيهم من هذا العذاب الأليم، وفي هذه الساعة الضنكة الحالكة نزلت سورة الكهف، ردودا على أسئلة أدلى بها المشركون إلى النبي ﷺ، ولكنها اشتملت على ثلاث قصص فيها إشارات بليغة من الله تعالى إلى عباده المؤمنين فقصبة أصحاب الكهف ترشد إلى الهجرة من مراكز الكفر والعدوان حين مخافة الفتنة على الدين، متوكلا على الله ﷻ وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا ﷻ

(١٨: ١٦).

وقصة الخضر وموسى تفيد أن الظروف لا تجري ولا تنتج حسب الظاهر دائما، بل ربما يكون الأمر على عكس كامل بالنسبة إلى الظاهر. ففيها إشارة لطيفة إلى أن الحرب القائمة ضد المسلمين ستعكس تماما، وسيصادر هؤلاء الطغاة المشركون - إن لم يؤمنوا - أمام هؤلاء الضعفاء المدحورين من المسلمين.

وقصة ذى القرنين تفيد أن الأرض لله يورثها من عباده من يشاء. وأن الفلاح إنما هو في سبيل الإيمان دون الكفر، وأن الله لا يزال يبعث من عباده - بين آونة وأخرى - من يقوم بإنجاء الضعفاء من يأجوج ذلك الزمان ومأجوجه، وأن الأحق يارث الأرض إنما هو عباد الله الصالحون. ثم نزلت سورة الزمر تشير إلى الهجرة، وتعلن بأن أرض الله ليست بضيقة ﷻ للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة، وأرض الله واسعة، إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﷻ (٣٩: ١٠) وكان رسول الله ﷺ قد علم أن أصحابه النجاشي ملك الحبشة ملك عادل لا يظلم عنده أحد فأمر المسلمين أن يهاجروا إلى الحبشة فرارا بدينهم من الفتن.

وفي رجب سنة خمس من النبوة هاجر أول فوج من الصحابة إلى الحبشة. كان مكونا من اثني عشر رجلا وأربع نسوة، رئيسهم عثمان بن عفان، ومعه السيدة رقية بنت رسول الله ﷺ. وقد قال النبي ﷺ فيهما: إنهما أول بيت هاجر في سبيل الله بعد إبراهيم ولوط عليهما السلام (١).

كان رحيل هؤلاء تسلا في ظلمة الليل - حتى لا تفطن لهم قريش - خرجوا إلى البحر، ويمموا ميناء شعبية، وقيضت لهم الأقدار سفينتين تجاريتين أبحرتا بهم إلى الحبشة، وفطنت لهم قريش، فخرجت في آثارهم، ولكن لما بلغت إلى الشاطئ كانوا قد انطلقوا آمنين، وأقام المسلمون في الحبشة في أحسن جوار (٢).

(١) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٩٢، ٩٣، زاد المعاد ١ / ٢٤، رحمة للعالمين ١ / ٦١.

(٢) رحمة للعالمين ١ / ٦١، زاد المعاد ١ / ٢٤.

وفى رمضان من نفس السنة خرج النبي ﷺ إلى الحرم ، وهناك جمع كبير من قريش كان فيه ساداتها وكبرائها ، فقام فيهم ، وأخذ يتلو سورة النجم بغتة ، إن أولئك الكفار لم يكونوا سمعوا كلام الله قبل ذلك ، لأن أسلوبهم المتواصل كان هو العمل بما تواصى به بعضهم بعضا ، من قولهم ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ (٢٦: ٤١) فلما باغتهم بشلاوة هذه السورة وقرع آذانهم كلام إلهي رائع خلاب - لا يحيط بروعته وجلالته البيان - تفانوا عما هم فيه ، وبقي كل واحد مصغيا إليه ، لا يخطر بباله شيء سواه ، حتى إذا تلا في خواتيم هذه السورة قوارع تطير لها القلوب ثم قرأ ﴿ فاسجدوا لله واعبدوا ﴾ (٥٣ : ٦٢) ثم سجد ، لم يتمالك أحد نفسه حتى خر ساجدا وفي الحقيقة كانت روعة الحق قد صدعت العناد في نفوس المستكبرين والمستهزئين فما تمالكوا أن يخرؤا لله ساجدين (١) .

وسقط في أيديهم لما أحسوا أن جلال كلام الله لوى زمامهم ، فارتكبوا عين ما كانوا يبذلون قصارى جهدهم في محوه وإفناؤه ، وقد توالى عليهم اللوم والعتاب من كل جانب ممن لم يحضر هذا المشهد من المشركين ، وعند ذلك كذبوا على رسول الله ﷺ وافترؤا عليه أنه عطف على أصنامهم بكلمة تقدير ، وأنه قال عنها « تلك الفرانقة العلى » ، وإن شفاعتهن لترتجى » ، جاءوا بهذا الإفك المبين ، ليعتدروا عن سجودهم مع النبي ﷺ ، وليس يستغرب هذا من قوم كانوا يؤلفون الكذب ، ويطيّلون الدس والافتراء . (٢) .

بلغ هذا الخبر إلى مهاجرى الحبشة ، ولكن في صورة تختلف تماما عن صورته الحقيقية بلغهم أن قريشا أسلمت ، فرجعوا إلى مكة في شوال من نفس السنة ، فلما كانوا دون مكة ساعة من نهار ، وعرفوا جليلة الأمر ، رجع منهم من رجع إلى الحبشة ، ولم يدخل في مكة من سائرهم أحد إلا مستخفيا ، ، أو في جوار رجل من قريش (٣) .

ثم اشتد عليهم وعلى المسلمين البلاء والعذاب من قريش ، وسطت بهم عشائرتهم ، فقد كان صعب على قريش ما بلغها عن النجاشي من حسن الجوار ، ولم ير رسول الله ﷺ بدا من أن يشير على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة مرة أخرى ، وكانت هذه الهجرة الثانية أشق من سابقتها ، فقد تيقظت لها قريش وقررت إحباطها ، بيد أن المسلمين كانوا أسرع ، ويسر الله لهم السفر ، فأنحازوا إلى نجاشي الحبشة قبل أن يدكوا .

(١) روى البخارى قصة السجود مختصرا عن ابن مسعود وابن عباس ، انظر باب سجدة النجم وباب سجود المسلمين والمشركون ١ / ١٤٦ ، وباب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة ١ / ٥٤٣ .

(٢) تفهيم القرآن ٥ / ١٨٨ وإلى هذا التوجيه جنح المحققون في حديث الفرانقة

(٣) نفس المصدر ٥ / ١٨٨ . زاد المعاد ١ / ٢٤ ، ٢ / ٤٤ ، وابن هشام ١ / ٣٦٤ .

وفي هذه المرة هاجر من الرجال ثلاثة وثمانون رجلاً إن كان فيهم عمار ، فإنه يشك فيه ، وثمان عشرة أو تسع عشرة امرأة (١) . وبالأول جزم العلامة محمد سليمان المنصور فوري (٢) .

مكيدة قريش بمهاجري الحبشة :

عز على المشركين أن يجد المهاجرون مأمناً لأنفسهم ودينهم ، فاختاروا رجلين جلدتين لبيبين ، وهما : عمرو بن العاص ، وعبد الله بن أبي ربيعة - قبل أن يسلموا - وأرسلوا معهما الهدايا المستطرفة للنجاشي ولبطارقه وبعد أن ساق الرجلان تلك الهدايا إلى البطارقة ، وزوداهم بالحجج التي يطرد بها أولئك المسلمون وبعد أن اتفقت البطارقة أن يشيروا على النجاشي بإقصائهم ، حضرا إلى النجاشي ، وقد ماله الهدايا ثم كلماه ، فقالا له :

أيها الملك ، إنه قد ضوى إلى بلدك غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائريهم ، لتردهم إليهم ، فهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم ، وعاتبوهم فيه .

وقالت البطارقة : صدقا أيها الملك ، فأسلمهم إليهما ، فليرداهم إلى قومهم وبلادهم .

ولكن رأى النجاشي أنه لا بد من تمحيص القضية ، وسماع أطرافها جميعا ، فأرسل إلى المسلمين ، ودعاهم ، فحضروا ، وكانوا قد أجمعوا على الصديق كائنا ما كان . فقال لهم النجاشي : ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به في ديني ولا دين أحد من هذه الملل ؟

قال جعفر بن أبي طالب - وكان هو المتكلم عن المسلمين - : أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، ويأكل منا القوى الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام - فعدد عليه أمور الإسلام - فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاءنا به من

(١) انظر زاد المعاد ١ / ٢٤ ، رحمة للعالمين ١ / ٦١

(٢) انظر المصدر الأخير .

دين الله، فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئا ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورجبنا في جوارك. ورجونا أن لا نظام عندك أيها الملك .

فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ فقال له جعفر : نعم ! فقال له النجاشي : فاقرأه على ، فقرأ عليه صدراً من ﴿ كهيعص ﴾ فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم ، ثم قال لهم النجاشي : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون - يخاطب عمرو بن العاص وصاحبه - فخرجا ، وقال عمرو بن العاص لعبد الله بن ربيعة : والله لآتينهم غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم .

فقال له عبد الله بن ربيعة : لا تفعل ، فإن لهم أرحاما وإن كانوا قد خالفونا ولكن أصر عمرو على رأيه .

فلما كان الغد قال للنجاشي :

أيها الملك ! إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولا عظيما فأرسل إليهم النجاشي يسألهم عن قولهم في المسيح ، ففزعوا ، ولكن أجمعوا على الصدق ، كائنا ما كان ، فلما دخلوا عليه ، وسألهم قال له جعفر : نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول .

فأخذ النجاشي عودا من الأرض ، ثم قال : والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود ، فتناخرت بطارقه ، فقال : وإن نخرتم والله .

ثم قال للمسلمين : اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي - والشيوم : الآمنون بلسان الحبشة - من سبكم غرم ، من سبكم غرم ، من سبكم غرم ، ما أحب أن لي دبرا من ذهب وأنى آذيت رجلا منكم - والدبر الجبل بلسان الحبشة .

ثم قال لحاشيته : ردوا عليهما هداياهما ، فلا حاجة لي بها ، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد على ملكي ، فأخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه .

قالت أم سلمة التي تروى هذه القصة : فخرجا من عنده مقبوحين مردودا عليهما ما

جاءوا به ، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار (١) .

هذه رواية ابن إسحاق ، وذكر غيره أن وفادة عمرو بن العاص إلى النجاشي كانت بعد بدر ، وجمع بعضهم بأن الوفادة كانت مرتين (٢) لكن الأسئلة والأجوبة التي ذكروا أنها دارت بين النجاشي وجعفر في الوفادة الثانية هي نفس الأسئلة والأجوبة التي ذكرها ابن إسحاق تقريرا ، ثم إن تلك الأسئلة تدل لفحواها أنها كانت في أول مرافعة قدمت إلى النجاشي .

أخفقت حيلة المشركين ، وفشلت مكيدتهم ، وعرفوا أنهم لا يشيعون ضغينتهم إلا في حدود سلطانهم ، ونشأت فيهم من أجل ذلك فكرة رهيبة .

رأوا أن التفصلي عن هذه « الداهية » لا يمكن إلا بكف رسول الله ﷺ عن دعوته تماما وإلا فيأعداه ، ولكن كيف السبيل إلى ذلك وأبو طالب يحوطه ويحول بينه وبينهم؟ رأوا أن يواجهوا أبا طالب في هذا الصدد .

(١) ابن هشام ملخصا ١ / ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

(٢) مختصر السيرة للشيخ عبد الله النجدي ص ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، وفي تلك الصفحات تفصيل الأسئلة والأجوبة . .

قريش يهددون أبا طالب :

جاءت سادات قريش إلى أبي طالب فقالوا له : يا أبا طالب إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا . وإنا قد استنهييناك من ابن أخيك فلم تنهه ، وإنا والله لا نصبر على هذا ، من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك في ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين .

عظم على أبي طالب هذا الوعيد والتهديد الشديد ، فبعث إلى رسول الله ﷺ وقال له : يا ابن أخي إن قومك قد جاءوني ، فقالوا لي كذا وكذا ، فأبقي علي وعلى نفسك ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق ، فظن رسول الله ﷺ أن عمه خاذله ، وأنه ضعف عن نصرته فقال : « يا عم ! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر - حتى يظهره الله أو أهلك فيه - ما تركته » ، ثم استعبر وبكى ، وقام ، فلما ولي ناداه أبو طالب فلما أقبل قال له : اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبدا (١) . وأنشد :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة
حتى أوسد في التراب دفينا
وابشروا قر بذاك منك عيونا (٢) .

قريش بين يدي أبي طالب مرة أخرى :

ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ ماض في عمله ؛ وعرفت أن أبا طالب قد أبي خذلان رسول الله ﷺ ، وأنه مجمع لفراقهم وعداوتهم في ذلك ، فذهبوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة وقالوا له : يا أبا طالب إن هذا الفتى أنهد فتى في قريش وأجمله ، فخذ به فلك عقله ونصره ، واتخذه ولدا فهو لك ، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك وسفه أحلامهم ، فنقتله ، فإنما هو رجل برجل ، فقال : والله لبئس ما تسومونني ، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابني تقتلونه . هذا والله ما لا يكون أبدا . فقال المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف : والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك ، وجهدوا على التخلص مما تكره ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا ، فقال : والله ما أنصفتهموني ، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم على ، فاصنع ما بدا لك (٣) .

لا تذكر المصادر التاريخية زمن هاتين الوفادتين ، لكن يبدو بعد التأمل في القرائن والشواهد أنهما كانتا في أواسط السنة السادسة من النبوة ، وأن الفصل بين الوفادتين لم

(١) ابن هشام ١ / ٢٦٥ ، ٢٦٦ . (٢) مختصر سيرة الرسول للشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي ص ٦٨ .

(٣) ابن هشام ١ / ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

يكن إلا يسيرا .

فكرة الطغاة في إعدام النبي ﷺ :

وبعد فشل قريش وخيبتهم في الوفادتين عادوا إلى ضراوتهم وتنكيلهم بأشد مما كان قبل ذلك ، وخلال هذه الأيام نشأت في طغاتهم فكرة إعدامه ﷺ بطريق أخرى ، وكانت هذه الفكرة وتلك الضراوة هي التي سببت في تقوية الإسلام ببطلين جليلين من أبطال مكة وهما : حمزة بن عبد المطلب ، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما .

فمن تلك الضراوة أن عتيبة بن أبي لهب أتى يوما إلى رسول الله ﷺ فقال : أنا أكفر بـ « النجم إذا هوى » و « بالذي دنا فتدلى » ثم تسلط عليه بالأذى ، وشق قميصه ، وتفل في وجهه ، إلا أن البزاق لم يقع عليه ، وحينئذ دعا عليه النبي ﷺ وقال . اللهم سلط عليه كلبا من كلابك ، وقد استجيب دعاؤه ﷺ ، فقد خرج عتيبة مرة في نفر من قريش ، حتى نزلوا في مكان من الشام يقال له الزرقاء ، فطاف بهم الأسد تلك الليلة ، فجعل عتيبة يقول : يا ويل أخي ، هو والله آكلي كما دعا محمد علي ، قتلني وهو بمكة ، وأنا بالشام ، فغدا عليه الأسد من بين القوم وأخذ برأسه فذبحه (١) .

ومنها ما ذكر أن عقبة بن أبي معيط وطئ على رقبته الشريفة وهو ساجد حتى كادت عيناه تبرزان (٢) .

ومما يدل على أن طغاتهم كانوا يريدون قتله ﷺ ما رواه ابن إسحاق في حديث طويل ، قال : قال أبو جهل :

يا معشر قريش إن محمدا قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا ، وشتم آبائنا ، وتسفيه أحمالنا ، وشتم آلهتنا ، وإنني أعاهد الله لأجلسن له بحجر ما أطيق حملة ، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه ، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني ، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم ، قالوا : والله لا نسلمك لشيء أبدا ، فامض لما تريد .

فلما أصبح أبو جهل ، أخذ حجرا كما وصف ، ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره ، وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو ، فقام يصلي ، وقد غدت قريش فجلسوا في أنديتهم ، ينتظرون ما أبو جهل فاعل ، فلما سجد رسول الله ﷺ ، احتمل أبو جهل الحجر ، ثم أقبل نحوه ، حتى إذا دنا منه رجع منهزما منتقعا لونه ، مرعوبا قد يبست يده على حجره ، حتى قذف الحجر من يده ، وقامت إليه رجال قريش فقالوا له : مالك يا أبا الحكم ؟ قال : قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل ، لا والله

(١) تفهيم القرآن ٦ / ٥٢٢ ، من الاستيعاب ، والإصابة ، ودلائل النبوة ، والروض النف ، ومختصر سيرة الرسول عبد

(٢) نفس المصدر الأخير ص ١١٣ .

الله التجدي ص ١٣٥ .

ما رأيت مثل هامته ، ولا مثل قصرته ولا أنيابه لفحل قط ، فهم بي أن يأكلني .

قال ابن إسحاق : فذكر لي أن رسول الله ﷺ قال : ذلك جبريل عليه السلام لو دنا لأخذه (١) .

وبعد ذلك فعل أبو جهل برسول الله ﷺ ، ما أدى إلى إسلام حمزة رضي الله عنه وسيأتي .

أما طغاة قريش فلم تزل فكرة الإعدام تنضج في قلوبهم ، روى ابن اسحاق عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : حضرتهم وقد اجتمعوا في الحجر ، فذكر رسول الله ﷺ ، فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم فبينما هم كذلك إذا طلع رسول الله ﷺ ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفا بالبيت ، فغمزوه ببعض القول ، فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها فعرفت ذلك في وجهه ، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها ، فوقف ثم قال : أتسمعون يا معشر قريش ، أما والذي نفسي بيده ، لقد جئتكم بالذبح ، فأخذت القوم كلمته ، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع حتى إن أشدهم فيه ليرفؤه بأحسن ما يجد ، ويقول : انصرف يا أبا القاسم ، فوالله ما كنت جهولا .

فلما كان الغد اجتمعوا كذلك يذكرون أمره إذ طلع عليهم ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد ، وأحاطوا به ، فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجمع رداءه ، وقام أبو بكر دونه ، وهو يبكي ويقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ؟ ثم انصرفوا عنه . قال ابن عمرو : فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشا نالوا منه قط (٢) . انتهى ملخصا .

وفي رواية البخاري عن عروة بن الزبير قال : سألت ابن عمرو بن العاص أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ ، قال : بينا النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط ، فوضع ثوبه في عنقه ، فخنقه خنقا شديدا ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبيه ، ودفعه عن النبي ﷺ ، وقال : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ؟ (٣) .

وفي حديث أسماء : فأتى الصريخ إلى أبي بكر ، فقال : أدرك صاحبك ، فخرج من عندنا ، وعليه غدائر أربع ، فخرج وهو يقول : أتقتلون رجلا أن يقول : ربي الله ؟ فلهوا عنه ، وأقبلوا على أبي بكر ، فرجع إلينا لا نعلم شيئا من غدائره إلا رجوع معنا (٤) .

(١) ابن هشام ١ / ٢٩٨ - ٢٩٩ . (٢) ابن هشام ١ / ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

(٣) صحيح البخاري - باب ذكر ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة ١ / ٥٤٤

(٤) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ١١٣ .

إسلام حمزة رضى الله عنه :

خلال هذا الجو الملبد بسحائب الظلم والطغيان أضاء برق نور للمقهورين طريقهم، ألا وهو إسلام حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه ، أسلم فى أواخر السنة السادسة من النبوة ، والأغلب أنه أسلم فى شهر ذى الحجة .

وسبب إسلامه أن أبا جهل مر برسول الله ﷺ يوماً عند الصفا، فأذاه ونال منه، ورسول الله ﷺ ساكت لا يكلمه، ثم ضربه أبو جهل بحجر فى رأسه فشججه، حتى نرف منه الدم، ثم انصرف عنه إلى نادى قريش عند الكعبة ، فجلس معهم ، وكانت مولاة لعبد الله ابن جدعان فى مسكن لها على الصفا ترى ذلك ، وأقبل حمزة من القنص متوشحاً قوسه، فأخبرته المولاة بما رأت من أبى جهل ، فغضب حمزة - وكان أعز فتى فى قريش وأشدّه شكيمة - فخرج يسعى، لم يقف لأحد، معداً لأبى جهل إذا لقيه أن يوقع به، فلما دخل المسجد قام على رأسه ، وقال له : يا مصفر استه ، تشتم ابن أخى وأنا على دينه؟ ثم ضربه بالقوس فشججه شجة منكراً ، فثار رجال من بنى مخزوم - حى أبى جهل - وثار بنو هاشم - حى حمزة - فقال : أبو جهل : دعوا أبا عماراً ، فإنى سببت ابن أخيه سبا قبيحاً^(١) .

وكان إسلام حمزة أول الأمر أنفة رجل أبى أن يهان مولاة . ثم شرح الله صدره، فاستمسك بالعروة الوثقى^(٢) ، واعتز به المسلمون أيما اعتزاز .

إسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

وخلال هذا الجو الملبد بسحائب الظلم والطغيان أضاء برق آخر أشد بريقاً وإضاءة من الأول ، ألا وهو إسلام عمر بن الخطاب ، أسلم فى ذى الحجة سنة ست من النبوة^(٣) . بعد ثلاثة أيام من إسلام حمزة رضى الله عنه^(٤) . وكان النبى ﷺ قد دعا الله تعالى لإسلامه ، فقد أخرج الترمذى عن ابن عمر ، وصححه وأخرج الطبرانى عن ابن مسعود وأنس أن النبى ﷺ قال : « اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك : بعمر بن الخطاب أو بأبى جهل بن هشام » فكان أحبهما إلى الله عمر بن الخطاب رضى الله عنه^(٥) .

وبعد إدارة النظر فى جميع الروايات التى رويت فى إسلامه يبدو أن نزول الإسلام فى قلبه كان تدريجياً ، ولكن قبل أن نسوق خلاصتها نرى أن نشير إلى ما كان يتمتع به رضى الله عنه من العواطف والمشاعر .

(١) مختصر سيرة الرسول للشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ٦٦ ، رحمة للعالمين ١/٦٨ ، ابن هشام ١/٢٩١ ، ٢٩٢ .

(٢) تدل عليه رواية ذكرها الشيخ عبد الله النجدى فى مختصر السيرة ص ١٠١ .

(٣) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ١١ . (٤) ستأتى رواية فى ذلك .

(٥) الترمذى ، أرباب المناقب ، مناقب أبى حفص عمر بن الخطاب ٢/٢٠٩ .

كان رضى الله عنه معروفا بحدة الطبع وقوة الشكيمة، وطالما لقي المسلمون منه ألوان الأذى، والظاهر أنه كانت تصطرع في نفسه مشاعر متناقضة، احترامه للتقاليد التي ستنها الآباء والأجداد، واسترساله مع شهوات السكر واللهو التي ألفها، ثم إعجابه بصلابة المسلمين واحتمالهم البلاء في سبيل عقيدتهم، ثم الشكوك التي كانت تساوره - كأي عاقل - في أن ما يدعو إليه الإسلام قد يكون أجل وأزكى من غيره، ولهذا ما إن يثور حتى يخور. قاله محمد الغزالي (١).

وخلاصة الروايات مع الجمع بينها - في إسلامه رضى الله عنه أنه التجأ ليلة إلى المبيت خارج بيته، فجاء إلى الحرم، ودخل في ستر الكعبة، والنبي ﷺ قائم يصلى وقد استفتح سورة «الحاقة» فجعل عمر يستمع إلى القرآن، ويعجب من تأليفه، قال: فقلت - أي في نفسي - هذا والله شاعر كما قالت قريش، قال: فقراً: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ (٦٩: ٤٠، ٤١) قال: قلت: كاهن. قال: ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تُذَكِّرُونَ تَنْزِيلٍ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إلى آخر السورة. قال فوق الإسلام في قلبي (٢).

كان هذا أول وقوع نواة الإسلام في قلبه، لكن كانت قشرة النزعات الجاهلية، والعصبية التقليدية، والتعاضم بدين الآباء هي غالبية على مخ الحقيقة التي كان يتهمس بها قلبه، فبقى مجداً في عمله ضد الإسلام، غير مكترث بالشعور الذي يكمن وراء هذه القشرة.

وكان من حدة طبعه وفرط عداوته لرسول الله ﷺ أنه خرج يوماً متوشحاً سيفه، يريد القضاء على النبي ﷺ، فلقيه نعيم بن عبد الله النحام العدوي (٣)، أو رجل من بني زهرة (٤)، أو رجل من بني مخزوم (٥) فقال: أين تعمد يا عمر؟ قال: أريد أن أقتل محمداً قال: كيف تأمن من بني هاشم ومن بني زهرة وقد قتلت محمداً؟ فقال له عمر: ما أراك إلا قد صبوت وتركت دينك الذي كنت عليه، قال أفلا أدلك على العجب يا عمر! إن أختك وختنك قد صبوا، وتركا دينك الذي أنت عليه، فمشى عمر دامراً حتى أتاهما،

(١) فقه السيرة ص ٩٢، ٩٣.

(٢) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ٦، ويقرب من هذا ما رواه ابن إسحاق عن عطاء ومجاهد. لكن في آخره ما يخالف ذلك. انظر ابن هشام ١/ ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨، ويقرب من هذا أيضاً ما أورده ابن الجوزي عن جابر، وفي آخره أيضاً ما يخالف هذه الرواية انظر تاريخ عمر بن الخطاب ص ٩ - ١٠.

(٣) وهذا على رواية ابن إسحاق، انظر ابن هشام ١/ ٣٤٤.

(٤) روى ذلك أنس بن مالك رضى الله عنه. انظر تاريخ عمر بن الخطاب رضى الله عنه ص ١٠، ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله بن محمد النجدي ص ١٠٣.

(٥) روى ذلك ابن عباس انظر المصدر الأخير ص ١٠٢.

وعندهما خباب بن الأرت ، معه صحيفة فيها ﴿ طه ﴾ يقرئهما إياها - وكان يختلف إليهما ويقرئهما القرآن - فلما سمع خباب حس عمر توارى في البيت ، وستر فاطمة - أخت عمر - الصحيفة ، وكان قد سمع عمر حين دنا من البيت قراءة خباب إليهما ، فلما دخل عليهما قال : ما هذه الهينة التي سمعتها عندكم ؟ فقالا : ما عدا حديثا تحدثناه بيننا . قال : فلعلكما قد صبوتما . فقال له ختته : يا عمر أرأيت إن كان الحق في غير دينك ؟ فوثب عمر على ختته فوطئه وطأ شديدا . فجاءت أخته فرفعته عن زوجها فنفحها نفحة بيده ، فدمى وجهها - وفي رواية ابن إسحاق أنه ضربها فشجها - فقالت - وهي غضبي - : يا عمر إن كان الحق في غير دينك ، أشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

فلما يئس عمر ، ورأى ما بأخته من الدم وندم واستحي ، وقال : اعطوني هذا الكتاب الذي عندكم فأقرأه ، فقالت أخته : إنك رجس ، ولا يمسه إلا المطهرون ، فقم فاغتسل ، فقام فاغتسل ، ثم أخذ الكتاب ، فقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال : أسماء طيبة طاهرة . ثم قرأ : ﴿ طه ﴾ حتى انتهى إلى قوله ﴿ إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني ، وأقم الصلاة لذكري ﴾ فقال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ؟ دلوني على محمد .

فلما سمع خباب قول عمر خرج من البيت ، فقال : أبشر يا عمر ، فيأني أرجو أن تكون دعوة الرسول ﷺ لك ليلة الخميس (اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام) ورسول الله ﷺ في الدار التي في أصل الصفا .

فأخذ عمر سيفه ، فتوشحه ، ثم انطلق حتى أتى الدار ، فضرب الباب ، فقام رجل ينظر من خلل الباب فرآه متوشحا بالسيف ، فأخبر رسول الله ﷺ ، واستجمع القوم ، فقال لهم حمزة : مالكم ؟ قالوا : عمر ، فقال : وعمر ، افتحوا له الباب ، فإن كان جاء يريد خيرا بذلناه له ، وإن كان جاء يريد شرا قتلناه بسيفه ، ورسول الله ﷺ داخل يوحى إليه فخرج إلى عمر حتى لقيه في الحجرة ، فأخذ بمجامع ثوبه وحماثل السيف ، ثم جبذه جبذة شديدة فقال : أما أنت منتهيا يا عمر حتى ينزل الله بك من الخزي والنكال ما نزل بالوليد بن المغيرة ؟ اللهم ! هذا عمر بن الخطاب ، اللهم أعز الإسلام بعمر ابن الخطاب ، فقال عمر : أشهد ألا إله إلا الله ، وأنت رسول الله . وأسلم فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد (١) .

كان عمر رضى الله عنه ذا شكيمة لا يرام ، وقد أثار إسلامه ضجة بين المشركين بالذلة ، والهوان ، وكسا المسلمين عزة وشرفا وسرورا .

روى ابن إسحاق بسنده عن عمر قال : لما أسلمت تذكرت أى أهل مكة أشيد لرسول الله ﷺ عداوة ، قال : قلت : أبو جهل ، فأتيت حتى ضربت عليه بابه فخرج إلى ،

(١) تاريخ عمر بن الخطاب ص ٧ ، ١٠ ، ١١ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ١٠٢ ، ١٠٣ ،

وقال : أهلاً وسهلاً ، ما جاء بك ؟ قال : جئت لأخبرك أنى قد آمنت بالله وبرسوله محمد ، وصدقت بما جاء به . قال : فضرب الباب فى وجهى ، وقال : قبحك الله ، وقبح ما جئت به (١) .

وذكر ابن الجوزى أن عمر رضى الله عنه قال : كان الرجل إذا أسلم تعلق به الرجال ، فيضربونه ويضربهم ، فجئت - أى حين أسلمت - إلى خالى - وهو العاص بن هاشم - فأعلمته فدخل البيت ، قال : وذهبت إلى رجل من كبار قريش - لعله أبو جهل - فأعلمته فدخل البيت (٢) .

وذكر ابن هشام وكذا ابن الجوزى مختصراً ، أنه لما أسلم أتى إلى جميل بن معمر الجمحى - وكان أنقل قريش لحديث - فأخبره أنه أسلم ، فنادى جميل بأعلى صوته أن ابن الخطاب قد صبأ . فقال عمر : - وهو خلفه - كذب ، ولكنى قد أسلمت ، فثاروا إليه ، فما زال يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم ، وطلح ، أى أعيا عمر ، فقعده ، وقاموا على رأسه ، وهو يقول : افعلوا ما بدا لكم ، فأحلف بالله أن لو كنا ثلاث مائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا (٣) .

وبعد ذلك زحف المشركون إلى بيته يريدون قتله . وروى البخارى عن عبد الله بن عمر قال : بينما هو - أى عمر - فى الدار خائفاً ، إذ جاءه العاص بن وائل السهمى أبو عمرو ، وعليه حلة سبرة وقميص مكفوف بحريز ، وهو من بنى سهم ، وهم حلفاؤنا فى الجاهلية ، فقال له : ما لك ؟ قال : زعم قومك أنهم سيقتلونى إن أسلمت ، قال لا سبيل إليك - بعد أن قالها أمنت - فخرج العاص ، فلقى الناس قد سال بهم الوادى ، فقال أين تريدون ؟ فقالوا : هذا ابن الخطاب الذى قد صبأ ، قال : لا سبيل إليه ، فكر الناس (٤) وفى لفظ ، فى رواية ابن إسحاق : والله لكأنا كانوا ثوبا كشط عنه (٥) .

هذا بالنسبة إلى المشركين ، أما بالنسبة إلى المسلمين ؛ فروى مجاهد عن ابن عباس قال : سألت عمر بن الخطاب ، لأى شىء سميت الفاروق ؟ قال : أسلم حمزة قبلى بثلاثة أيام - ثم قص عليه قصة إسلامه وقال فى آخره - قلت : - أى حين أسلمت - يارسول الله ! ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا ؟ قال : بلى ! والذى نفسى بيده ، إنكم على الحق إن متم وإن حييتم ، قال : قلت : ففيم الاختفاء ؟ والذى بعثك بالحق لنخرجن ، فأخرجناه فى صفين ، حمزة فى أحدهما ، وأنا فى الآخر ، له كديد ككديد الطحين ، حتى دخلنا

(١) تاريخ عمر بن الخطاب ص ٧ ، ١٠ ، ١١ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ١٠٢ ، ١٠٣ ،

(٢) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ٨ .

(٣) نفس المصدر ص ٨ وابن هشام ١ / ٣٤٨ ، ٣٤٩ .

(٤) صحيح البخارى باب إسلام عمر بن الخطاب ١ / ٥٤٥ . (٥) ابن هشام ١ / ٣٤٩

المسجد، قال: فنظرت إلى قريش وإلى حمزة فأصابتهم كآبة لم يصيبهم مثلها، فسماني رسول الله ﷺ «الفاروق» يومئذ (١).

وكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول: ما كنا نقدر أن نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر (٢).

وعن صهيب بن سنان الرومى رضى الله عنه، قال: لما أسلم عمر ظهر الإسلام، ودعى إليه علانية، وجلسنا حول البيت حلقاً، وطفنا بالبيت، وانتصفنا ممن غلظ علينا، ورددنا عليه بعض ما يأتى به (٣).

وعن عبد الله بن مسعود قال: مازلنا أعزة منذ أسلم عمر (٤).

مثّل قريش بين يدي الرسول ﷺ :

وبعد إسلام هذين البطلين الجليلين - حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما - أخذت السحائب تتقشع، وأفاق المشركون عن سكرهم، فى إدلاء العذاب والنكال إلى المسلمين، وحاولوا مساومة مع النبى ﷺ بإغداق كل ما هو يمكن أن يكون مطلوباً له؛ ليكفوه عن دعوته. ولم يكن يدري هؤلاء المساكين أن كل ما تطلع عليه الشمس لا يساوى جناح بعوضة أمام دعوته، فخابروا وفشلوا فيما أرادوا.

قال ابن إسحاق: حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظى قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة، وكان سيداً، قال يوماً، وهو فى نادى قريش، ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد؟ فأكلمه، وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء، ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة رضى الله عنه، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ، يكثرون ويزيدون، فقالوا: بلى، يا أبا الوليد قم إليه، فكلمه، فقام إليه عتبة، حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخى، إنك منا حيث قد علمت من السطة (١) فى العشيرة، والمكان فى النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها. قال: فقال رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد اسمع، قال: يا ابن أخى، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا

(١) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ٦، ٧. (٢) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ١٠٣.

(٣) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ١٣.

(٤) صحيح البخارى، باب إسلام عمر ابن الخطاب ١ / ٥٤٥.

الذى يأتيك رثيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه - أو كما قال له - حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه ، قال : أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم ، قال : فاسمع مني ، قال : أفعل ، فقال : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آيته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا ، فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ﴾ ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرأها عليه ، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما ، يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ، ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك . فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به . فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال ورائي أني سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به ، قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم (١) .

وفى رواية أخرى أن عتبة استمع حتى جاء الرسول ﷺ ، إلى قوله تعالى ﴿ فإن أعرضوا فقل : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ فقام مدعورا ، فوضع يده على فم رسول الله ﷺ ، يقول : أنشدك الله والرحم ! وذلك مخافة أن يقع النذير ، وقام إلى القوم فقال ما قال (٢) .

أبو طالب يجمع بنى هاشم وبنى عبد المطلب :

تغير مجرى الظروف وتبدلت الأوضاع والأحوال ، ولكن أبا طالب لم يزل يتوجس من المشركين خيفة على ابن أخيه ، إنه كان ينظر فى الحوادث الماضية - إن المشركين هددوه بالمنازلة ، ثم حاولوا مساومة ابن أخيه بعمارة بن الوليد ليقتلوه وإن أبا جهل ذهب إلى ابن أخيه بحجر يرضخه ، وإن عقبة بن أبى معيط خنق ابن أخيه بردائه وكاد يقتله ، وإن ابن الخطاب كان قد خرج بالسيف ليقضى على ابن أخيه - كان أبو طالب يتدبر فى هذه الحوادث ، ويشم منها رائحة شر يرجف له فؤاده ، وتأكد عنده أن المشركين عازمون على إخفار ذمته ، عازمون على قتل ابن أخيه ، وما يغنى حمزة أو عمر أو غيرههما إن انقض أحد من المشركين على ابن أخيه بغتة .

(١) ابن هشام ١/ ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ .

تأكد ذلك عند أبي طالب ، ولم يكن إلا حقا ، فإنهم كانوا قد أجمعوا على أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية ، وإلى هذا الإجماع إشارة في قوله تعالى ﴿ أم أبرموا أمرا فإننا مبرمون ﴾ (٤٣ : ٧٩) فماذا يفعل أبو طالب إذن .

إنه لما رأى تائب قريش على ابن أخيه قام في أهل بيته من بنى هاشم وبنى المطلب ولدى عبد مناف ، ودعاهم إلى ما هو عليه من منع ابن أخيه والقيام دونه ، فأجابوه إلى ذلك مسلمهم وكافرهم ، حمية للجوار العربي ، إلا ما كان من أخيه أبي لهب ، فإنه فارقهم ، وكان مع قريش (١) .

المقاطعة العامة

وقعت أربع حوادث ضخمة - بالنسبة إلى المشركين - خلال أربعة أسابيع ، أو في أقل مدة ، منها : أسلم حمزة ، ثم أسلم عمر ، ثم رفض محمد ﷺ مساومتهم ، ثم تواتق بنو المطلب ، وبنو هاشم كلهم مسلمهم وكافرهم ، على حياة محمد ﷺ ومنعه ، حار المشركون ، وحقت لهم الحيرة ، إنهم عرفوا أنهم لو قاموا بقتل محمد ﷺ يسيل وادى مكة دونه بدمائهم ، بل ربما يفضى إلى استئصالهم . عرفوا ذلك فأنحرفوا إلى ظلم آخر دون القتل ، لكن أشد مضايقة عما فعلوا بعد .

ميثاق الظلم والعدوان :

اجتمعوا في خيف بنى كنانة من وادى المحصب فتحالفوا ، على بنى هاشم وبنى المطلب أن لا يناكحوهم ، ولا يبايعوهم ، ولا يجالسوهم ، ولا يخالطوهم ، ولا يدخلوا بيوتهم ، ولا يكلموهم ، حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ للقتل ، وكتبوا ذلك صحيفة فيها عهود ومواثيق « أن لا يقبلوا من بنى هاشم صلحا أبدا ، ولا تأخذهم بهم رافة حتى يسلموهم للقتل » . قال ابن القيم : يقال : كتبها منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم ، ويقال : نضر بن الحارث ، والصحيح أنه بغض بن عامر بن هاشم ، فدعا عليه رسول الله ﷺ فشلت يده (٢) .

تم هذا الميثاق ، وعلقت الصحيفة في جوف الكعبة ، فأنحاز بنو هاشم وبنو المطلب مؤمنهم وكافرهم - إلا أبا لهب - وحبسوا في شعب أبي طالب ليلة هلال المحرم سنة سبع من البعثة .

(١) ابن هشام ١ / ٢٦٩ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله بن محمد النجدى ص ١٠٦ .

(٢) زاد المعاد ٢ / ٤٦ .

ثلاثة أعوام في شعب أبي طالب :

واشتد الحصار ، وقطعت عنهم الميرة والمادة ، فلم يكن المشركون يشتركون طعاما يدخل مكة ولا يبعأ إلا بادره فاشتروه ، حتى بلغهم الجهد ، والتجأوا إلى أكل الأوراق والجلود ، حتى كان يسمع من وراء الشعب أصوات نسائهم وصبيانهم يتضاغون من الجوع ، وكان لا يصل إليهم شيء إلا سرا - وكانوا - لا يخرجون من الشعب لاشتراء الحوائج إلا في الأشهر الحرم إلا سرا ، وكانوا يشترون من العير التي ترد مكة من خارجها ، ولكن أهل مكة كانوا يزيدون عليهم في السلعة قيمتها حتى لا يستطيعوا الاشتراء .

وكان حكيم بن حزام ربما يحمل قمحا إلى عمته خديجة - رضى الله عنها - وقد تعرض له مرة أبو جهل فتعلق به ليمنعه ، فتدخل بينهما أبو البختري ، ومكنه من حمل القمح إلى عمته .

وكان أبو طالب يخاف على رسول الله ﷺ ، فكان إذا أخذ الناس مضاجعهم يأمر رسول الله ﷺ أن يضطجع على فراشه ، حتى يرى ذلك من أراد اغتياله ، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوانه أو بنى عمه فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ ، وأمره أن يأتي بعض فرشهم .

وكان رسول الله ﷺ والمسلمون يخرجون في أيام الموسم ، فيلقون الناس ، ويدعونهم إلى الإسلام ، وقد أسلفنا ما كان يأتي به أبو لهب .

نقض صحيفة الميثاق :

مرت ثلاثة أعوام كاملة والأمر على ذلك ، وفي المحرم (١) سنة عشر من النبوة حدث نقض الصحيفة وفك الميثاق ، وذلك أن قريشا كانوا بين راض بهذا الميثاق وكاره له ، فسعى في نقض الصحيفة من كان كارهها لها ..

وكان القائم بذلك هشام بن عمرو من بنى عامر بن لؤى - وكان يصل بنى هاشم في الشعب مستخفيا بالليل بالطعام - فإنه ذهب إلى زهير بن أمية المخزومي - وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب - وقال : يا زهير ، أرضيت أن تأكل الطعام ، وتشرب الشراب ، وأخوالك بحيث تعلم ؟ فقال : ويحك ، فما أصنع وأنا رجل واحد؟ أما والله لو كان معي رجل آخر لقميت في نقضها ، قال : قد وجدت رجلا . قال : فمن هو ؟ قال : أنا . قال له زهير : أبغنا رجلا ثالثا .

(١) الدليل على هذا أن أبا طالب مات بعد نقض الصحيفة بستة أشهر ، والصحيح في موت أبي طالب أنه في شهر رجب . ومن يقول : إنه مات في رمضان فهو يقول إنه مات بعد نقض الصحيفة بشمانية أشهر وأيام .

فذهب إلى المطعم بن عدى ، فذكره أرحام بنى هاشم وبنى المطلب ابني عبد مناف ،
ولامه على موافقته لقريش على هذا الظلم ، فقال المطعم : ويحك ، ماذا أصنع ؟ إنما أنا
رجل واحد . قال : قد وجدت ثانيا ، قال : من هو ؟ قال : أنا قال : أبغنا ثالثا . قال قد فعلت .
قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبى أمية ، قال : أبغنا رابعا .

فذهب إلى أبى البختري بن هشام ، فقال له نحوا مما قال للمطعم ، فقال : وهل من
أحد يعين على هذا ؟ قال : نعم . قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبى أمية ، و المطعم بن
عدى ، وأنا معك ، قال : أبغنا خامسا .

فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد ، فكلمه ، وذكر له قرابتهم وحقهم ،
فقال له : وهل على هذا الأمر الذى تدعونى إليه من أحد ؟

قال : نعم ثم سمي له القوم ، فاجتمعوا عند الحجون ، وتعاهدوا على القيام بنقض
الصحيفة ، وقال زهير : أنا أبداكم فأكون أول من يتكلم .

فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم ، وغدا زهير عليه حلة ، فطاف بالبيت سبعا ، ثم أقبل
على الناس ، فقال : يا أهل مكة أنا كل الطعام ، ونلبس الثياب ، وبنو هاشم هلكى ، لا يباع
ولا يبتاع منهم ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .

قال أبو جهل - وكان فى ناحية المسجد - : كذبت ، والله لا تشق . فقال : زمعة بن
الأسود : أنت والله أكذب . ما رضينا كتابتها حين كتبت . قال أبو البختري : صدق زمعة ، لا
نرضى ما كتب فيها ولا نقر به .

قال المطعم بن عدى : صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ إلى الله منها ومما كتب
فيها .

وقال هشام بن عمرو نحوا من ذلك .

فقال أبو جهل : هذا أمر قضى بليل ، تُشور فيه بغير المكان .

وأبو طالب جالس فى ناحية المسجد . إنما جاءهم لأن الله كان قد أطلع رسوله على
أمر الصحيفة ، وأنه أرسل عليها الأرضة ، فأكلت جميع ما فيها من جور وقطيعة وظلم إلا
ذكر الله عز وجل ، فأخبر بذلك عمه ، فخرج إلى قريش فأخبرهم أن ابن أخيه قد قال كذا
وكذا ، فإن كان كاذبا خيلنا بينكم وبينه ، وإن كان صادقا رجعت عن قطيعتنا وظلمنا ، قالوا :
قد أنصفت .

وبعد أن دار الكلام بين القوم وبين أبى جهل ، قام المطعم إلى الصحيفة ليشقها ، فوجد
الأرضة قد أكلتها إلا « باسمك اللهم » . وما كان فيها من اسم الله فإنها لم تأكله .

تم نقض الصحيفة ، وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من الشعب ، وقد رأى المشركون آية عظيمة من آيات نبوته ، ولكنهم كما أخبر الله عنهم ، ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ، ويقولوا سحر مستمر ﴾ (٥٤ : ٢) أعرضوا عن هذه الآية وازدادوا كفراً إلى كفرهم (١) .

آخر وفد قريش إلى أبي طالب

خرج رسول الله ﷺ من الشعب ، وجعل يعمل على شاكلته ، وقريش وإن كانوا قد تركوا القطيعة ، لكنهم لم يزالوا عاملين على شاكلتهم من الضغط على المسلمين ، والصد عن سبيل الله ، أما أبو طالب فهو لم يزل يحوط ابن أخيه ، لكنه كان قد جاوز الثمانين من سنه ، وكانت الآلام والحوادث الضخمة المتوالية منذ سنوات - لا سيما حصار الشعب - قد وهنت وضعفت مفاصله ، وكسرت صلبه ، فلم يمض على خروجه من الشعب إلا أشهر معدودات ، وإذا هو يلاحقه المرض ويلح به - وحينئذ خاف المشركون سوء سمعتهم في العرب إن أتوا بعد وفاته بمنكر على ابن أخيه ، فحاولوا مرة أخرى أن يفاوضوا النبي ﷺ بين يديه ، ويعطوا بعض مالم يرضوا إعطاءه قبل ذلك ، فقاموا بوفادة هي آخر وفادتهم إلى أبي طالب .

قال ابن إسحاق وغيره : لما اشتكى أبو طالب ، وبلغ قريشا ثقله ، قالت قريش بعضها لبعض : إن حمزة وعمر قد أسلما ، وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها ، فانطلقوا بنا إلى أبي طالب ، فليأخذ على ابن أخيه ، وليعطه منا ، والله ما نأمن أن يبترونا (٢) أمرنا ، وفي لفظ : فإننا نخاف أن يموت هذا الشيخ ، فيكون إليه شيء فتعيرنا به العرب ، يقولون تاركوه ، حتى إذا مات عمه تناولوه .

مشوا إلى أبو طالب فكلموه ، وهم أشراف قومه ؛ عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، وأبو سفيان بن حرب ، في رجال من أشرافهم - وهم خمسة وعشرون تقريباً - فقالوا يا أبا طالب إنك منا حيث قد علمت ، وقد حضرك ماترى ، وتخوفنا عليك ، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك ، فادعه ، فخذ له منا ، ونخذ لنا منه ،

(١) جمعنا تفاصيل المقاطعة من صحيح البخاري ، باب نزول النبي ﷺ بمكة ١ / ٢١٦ ، وباب تقاسم المشركين على النبي ﷺ ١ / ٥٤٨ ، وزاد المعاد ٢ / ٤٦ ، وابن هشام ١ / ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ورحمة للعالمين ١ / ٦٩ ، ٧٠ ومختصر السيرة للشيخ عبد الله النجدي ص ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ومختصر السيرة للشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي ص ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، وبين هذه المصادر إختلاف يسير ، أخذنا ما ترجع عندنا بعد النظر في القرائن .
(٢) ابتزه أمره : سلبه إياه وغلبه عليه .

ليكيف عنا ونكيف عنه، وليدعنا وديننا، وندعه ودينه، فبعث إليه أبو طالب، فجاءه، فقال : يا بن أخي، هؤلاء أشرف قومك، قد اجتمعوا لك، ليعطوك، وليأخذوا منك، ثم أخبره بالذي قالوا له وعرضوا عليه، من عدم تعرض كل فريق للآخر. فقال لهم رسول الله ﷺ : رأيتم إن أعطيتكم كلمة تكلمتم بها، ملكتم بها العرب، ودانت لكم بها العجم، وفي لفظ أنه قال مخاطباً لأبي طالب: أريدكم على كلمة واحدة يقولونها، تدين لهم بها العرب، وتؤدى لهم بها العجم الجزية، وفي لفظ آخر قال: ياعم، أفلا تدعوهم إلى ما هو خير لهم؟ قال: وإلى ما تدعوهم؟ قال: أدعوهم إلى أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب، ويملكون بها العجم، ولفظ رواية ابن إسحاق : كلمة واحدة تعطونها، تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم، فلما قال هذه المقالة، توقفوا وتحيروا، ولم يعرفوا كيف يرفضون هذه الكلمة الواحدة النافعة إلى هذه الغاية والحد، ثم قال أبو جهل: ما هي؟ وأبيك لنعطيكها وعشر أمثالها، قال: تقولون: لا إله إلا الله، وتخلعون ماتعدون من دونه، فصفقوا بأيديهم، ثم قالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلها واحداً؟ إن أمرك لعجب

ثم قال بعضهم لبعض: إنه والله ما هذا الرجل بمعطيك شيئا مما تريدون، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم، حتى يحكم الله بينكم وبينه. ثم تفرقوا.

وفي هؤلاء نزل قوله تعالى: ﴿ص وَالْقُرْآن ذِي الذِّكْرِ﴾ بل الذين كفروا في عزة وشقاق * كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص * وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب * أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب * وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد * ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق ﴿٣٨: ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧﴾^(١).

(١) ابن هشام ١/٤١٧، ٤١٨، ٤١٩، تفهيم القرآن ٤/٣١٦، ٣١٧، ٣١٨. مختصر السيرة للشيخ عبد الله ص ٩١.

عام الحزن

وفاة أبى طالب :

ألح المرض بأبى طالب ، فلم يلبث أن وافته المنية ، وكانت وفاته فى رجب (١) سنة عشر من النبوة ، بعد الخروج من الشعب بستة أشهر (٢) . وقيل توفى فى رمضان قبل وفاة خديجة رضى الله عنها بثلاثة أيام .

وفى الصحيح عن المسيب : أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبى ﷺ وعنده أبو جهل ، فقال : أى عم ، قل : لا إله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله ، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : يا أبا طالب ترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزالا يكلماه حتى قال آخر شيء كلمهم به : على ملة عبد المطلب . فقال النبى ﷺ : لأستغفرن لك ما لم أنه عنك ، فنزلت : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾ (٩ : ١١٣) ونزلت ﴿ إلك لا تهدى من أحببت ﴾ (٣ : ٢٨ : ٥٦) .

ولا حاجة إلى بيان ما كان عليه أبو طالب من الحيطة والمنع ، فقد كان الحصن الذى تحتمى به الدعوة الإسلامية من هجمات الكبراء والسفهاء ، ولكنه بقى على ملة الأشياخ من أجداده ، فلم يفلح كل الفلاح . ففى الصحيح عن العباس بن عبد المطلب ، قال للنبي ﷺ ما أغنيت عن عمك ، فإنه كان يحوطك ويفضبك لك ؟ قال : هو فى ضحضاح من نار ، ولولا أنا لكان فى الدرك الأسفل من النار (٤) .

وعن أبى سعيد الخدرى أنه سمع النبى ﷺ - وذكر عنده عمه - فقال : لعله تنفعه شفاعتى يوم القيامة ، فيجعل فى ضحضاح من النار تبلغ كعبيه (٥) .

خديجة إلى رحمة الله :

وبعد وفاة أبى طالب بنحو شهرين أو بثلاثة - على اختلاف القولين - توفيت أم المؤمنين خديجة الكبرى رضى الله عنها ، كانت وفاتها فى شهر رمضان فى السنة العاشرة من النبوة ، ولها خمس وستون سنة ، ورسول الله ﷺ إذ ذاك فى الخمسين من عمره (٦) .

(١) تاريخ إسلام للشاة أكبر خان النجيب آبادى ١ / ١٢٠ ، وفى المصادر اختلاف كبير فى الشهر الذى توفى فيه أبو طالب ، وهذا الذى رجحناه إنما رجحناه لأن أكثر المصادر متفقة على أن موته كان بعد ستة أشهر من الخروج من الشعب ، وأن الحصار كان ثلاثة أعوام ، وأن بدأ الحصار كانت ليلة هلال المحرم سنة سبع ، وإذن فموته فى رجب سنة عشر من النبوة . (٢) مختصر السيرة للشيخ عبد النجدي (٣ : ٤٠٥) صحيح البخارى باب قصة أبى طالب ١ / ٥٤٨ (٦) نص على موته فى رمضان من تلك السنة ابن الجوزى فى التلخيص ص ٧ ، والعلامة المنصور فرورى فى رحمة ١٦٤ / ٢ وغيرهما .

إن خديجة كانت من نعم الله الجليلة على رسول الله ﷺ ، بقيت معه ربع قرن تحن عليه ساعة قلقه ، وتؤازره في أخرج أوقاته ، وتعينه على إبلاغ رسالته ، وتشاركه في مغارم الجهاد المر ، وتواسيه بنفسها ومالها ، يقول رسول الله ﷺ : « آمنت بي حين كفر بي الناس وصدقتني حين كذبنى الناس ، وأشركتني في مالها حين حرمنى الناس ، ورزقني الله ولدها ، وحرم ولد غيرها » (١) .

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال : أتى جبريل النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله هذه خديجة ، قد أتت ، معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب ، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ، وبشرها ببیت فی الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب (٢) .

تراكم الأحزان :

وقعت هاتان الحادثتان المؤلمتان خلال أيام معدودة ، فاهتزت مشاعر الحزن والألم في قلب رسول الله ﷺ ، ثم لم تزل تتوالى عليه المصائب من قومه ، فقد كانوا تجرأوا عليه ، وكاشفوه بالنكال والأذى بعد موت أبي طالب ، فازداد غما على غم ، حتى يئس منهم ، وخرج إلى الطائف ، رجاء أن يستجيبوا لدعوته أو يؤووه وينصروه على قومه ، فلم ير من يؤوى ولم ير ناصرأ ، وآذوه مع ذلك أشد الأذى ، ونالوا منه ما لم ينله قومه .

وكما اشتدت وطأة أهل مكة على النبي ﷺ ، اشتدت على أصحابه ، حتى التجأ رفيقه أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى الهجرة عن مكة ، فخرج حتى بلغ برك الغماد ، يريد الحبشة ، فأرجعه ابن الدغنة في جواره (٣) .

قال ابن إسحاق : لما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تطمع به في حياة أبي طالب ، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش ، فنثر على رأسه ترابا ودخل بيته والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته ، فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي ، ورسول الله ﷺ يقول لها : لاتبكي يا بنية ، فإن الله مانع أباك . قال : ويقول بين ذلك : ما نالت مني قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب (٤) .

ولأجل توالي مثل هذه الآلام في هذا العام سماه رسول الله ﷺ عام الحزن ، وبهذا اللقب صار معروفاً في التاريخ .

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ١١٨ / ٦ .

(٢) صحيح البخارى . باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها ٥٣٩ / ١ .

(٣) صرح الشاه أكبر خان النجيب آبادى بأن هذه الواقعة كانت في هذه السنة انظر تاريخ إسلام ١٢٠ / ١ ، والقصة

بطلوها مروية في ابن هشام ٣٧٢ / ١ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، وفي صحيح البخارى ٥٥٢ / ١ ، ٥٥٣ .

(٤) ابن هشام ٤١٦ / ١

الزواج بسودة رضى الله عنها :

وفى سؤال من هذه السنة - سنة ١٠ من النبوة - تزوج رسول الله ﷺ سودة بنت زمعة ، كانت ممن أسلم قديما ، وهاجرت الهجرة الثانية إلى الحبشة ، وكان زوجها السكران بن عمرو ، وكان قد أسلم وهاجر معها ، فمات بأرض الحبشة ، أو بعد الرجوع إلى مكة ، فلما حلت خطبها رسول الله ﷺ وتزوجها ، وكانت أول امرأة تزوجها ، بعد وفاة خديجة ، وبعد عدة أعوام وهبت نوبتها لعائشة (١) .

عوامل الصبر والثبات

وهنا يقف الحليم حيران ، ويتساءل عقلاء الرجال فيما بينهم : ما هى الأسباب والعوامل التى بلغت بالمسلمين إلى هذه الغاية القصوى ، والحد المعجز من الثبات ؟ كيف صبروا على هذه الاضطهادات التى تقشعر لسماعها الجلود ، وترجف لها الأفئدة ؟ ونظرا إلى هذا الذى يتخالج القلوب ، نرى أن نشير إلى بعض هذه العوامل والأسباب إشارة عابرة بسيطة :

١ - إن السبب الرئيسى فى ذلك أولا وبالذات هو الإيمان بالله وحده ومعرفة حق المعرفة ، فالإيمان الجازم إذا خالطت بشاشته القلوب يزن الجبال ولا يطيش ، وإن صاحب هذا الإيمان المحكم وهذا اليقين الجازم يرى متاعب الدنيا مهما كثرت وكبرت وتفاقت واشتدت - يراها فى جنب إيمانه - طحالب عائمة فوق سيل جارف جاء ليكسر السدود المنيع والقلاع الحصينة ، فلا يبالي بشيء من تلك المتاعب ، أمام ما يجده من حلاوة إيمانه وطلاوة إذعانه وبشاشة يقينه ﴿ فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ (١٣ : ١٧) .

ويتفرع من هذا السبب الوحيد أسباب أخرى تقوى هذا الثبات والمصابرة وهى :-

٢ - قيادة تهوى إليها الأفئدة ، فقد كان النبى ﷺ - وهو القائد الأعلى للأمة الإسلامية بل ولل البشرية جمعاء - يتمتع من جمال الخلق وكمال النفس ، ومكارم الأخلاق ، والشيم النبيلة والشمائل الكريمة ، بما تتجاذب إليه القلوب ، وتتفانى دونه النفوس ، وكانت أنصبتة من الكمال الذى يعشق لم يرزق بمثلها بشر ، وكان على أعلى قمة من الشرف والنبل

(١) رحمة للعالمين ٢ / ١٦٥ ، تلقيح فهم أهل الأثر ص ١٠ .

والخير والفضل ، وكان من العفة والأمانة والصدق ، ومن جميع سبل الخير على ما لم يمار ولم يشك فيه أعداؤه فضلا عن محبيه ورفقائه ، لا تصدر منه كلمة إلا ويستيقنون صدقها .

اجتمع ثلاثة نفر من قريش ، كان قد استمع كل واحد منهم إلى القرآن سرا عن صاحبيه ثم انكشف سرهم ، فسأل أحدهم أبا جهل - وكان من أولئك الثلاثة - ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال : ماذا سمعت؟ تنازعنا وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب ، وكنا كفرسي رهان ، قالوا : لنا نبي يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقها (١) .

وكان أبو جهل يقول : يا محمد إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به ، فأنزل الله ﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ (٢) .

وغمزه الكفار يوما ثلاث مرات ، فقال فى الثالثة : يا معشر قريش : جئكم بالذبح ، فأخذتهم تلك الكلمة ، حتى إن أشدهم عداوة يرفؤه بأحسن ما يجد عنده .

ولما ألقوا عليه سلا جذور وهو ساجد دعا عليهم ، فذهب عنهم الضحك ، وساورهم الهم والقلق ، وأيقنوا أنهم هالكون .

ودعا على عتيبة بن أبى لهب فلم يزل على يقين من لقاء ما دعا به عليه ، حتى أنه حين رأى الأسد قال : قتلنى والله - محمد - وهو بمكة .

وكان أبى بن خلف يتوعد بالقتل . فقال : بل أنا أقتلك إن شاء الله ، فلما طعن أيما فى عنقه يوم أحد - وكان خدشا غير كبير - كان أبى يقول : إنه قد كان قال لى بمكة : أنا أقتلك ، فوالله لو بصق على لقتلنى (٣) - وسيأتى .

وقال سعد بن معاذ - وهو بمكة - لأمية بن خلف : لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنهم - أى المسلمين - قاتلوك ، ففزع فزعا شديدا ، وعهد أن لا يخرج عن مكة ، ولما ألجأه أبو جهل للخروج يوم بدر اشترى أجود بعير بمكة ليتمكن من الفرار ، وقالت له امرأته : يا أبا صفوان ، وقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربى ؟ قال : لا والله ما أريد أن أجوز معهم إلا قريبا (٤) .

هكذا كان حال أعدائه ﷺ ، أما أصحابه ورفقاؤه فقد حل منهم محل الروح والنفس وشغل منهم مكان القلب والعين ، فكان الحب الصادق يندفع إليه اندفاع الماء إلى الحدور ، وكانت النفوس تجذب إليه انجذاب الحديد إلى المغناطيس .

(٢) رواه الترمذى فى تفسير سورة الأنعام ١٣٢ / ٢ .

(٤) انظر صحيح البخارى ٥٦٣ / ٢ .

(١) ابن هشام ٣١٦ / ١

(٣) ابن هشام ٨٤ / ٢

وكان من أثر هذا الحب والتفانى أنهم كانوا ليرضون أن تندق أعناقهم ولا يخذش له ظفر أو يشاك شوكة .

وطيء أبو بكر بن أبى قحافة يوماً بمكة، وضرب ضرباً شديداً، ودنا منه عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفين، ويحرفهما لوجهه، ونزا على بطن أبى بكر، حتى ما يعرف وجهه من أنفه، وحملت بنو تميم أباً بكر فى ثوب، حتى أحلوه منزله، ولا يشكون فى موته، فتكلم آخر النهار فقال: ما فعل رسول الله ﷺ، فمسوا منه بالسنتهم وعذلوه، ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير: انظري أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه، فلما خلت به ألحت عليه، وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقالت: والله لا علم لى بصاحبك، فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه، فخرجت حتى جاءت أم جميل، فقالت: إن أباً بكر يسألك عن محمد بن عبد الله، قالت: ما أعرف أباً بكر ولا محمد بن عبد الله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك ذهبت، قالت: نعم فمضت معها حتى وجدت أباً بكر صريعاً دنفاً، فدنت أم جميل، وأعلنت بالصياح، وقالت: والله إن قوما نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وإنى لأرجو أن ينتقم الله لك منهم، قال: فما فعل رسول الله؟ قالت: هذه أمك تسمع، قال: فلا شيء عليك منها، قالت: سالم صالح، فقال: أين هو؟ قالت: فى دار ابن الأرقم قال: فإن لله على أن لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو أتى رسول الله، فأمهلتا، حتى إذا هدأت الرجل، وسكن الناس، خرجتا به، يتكئ عليهما، حتى أدخلتاها على رسول الله ﷺ (١).

وسننقل نواذر الحب والتفانى فى مواقع شتى من هذه المقالة، ولا سيما ما وقع فى يوم أحد، وما وقع من خبيب وأمثاله.

٣ - الشعور بالمسئولية - فكان - الصحابة يشعرون شعوراً تاماً ما على كواهل البشر من المسئولية الفخمة الضخمة، وأن هذه المسئولية لا يمكن عنها الحياد والانحراف بحال، فالعواقب التى تترتب على الفرار عن تحملها أشد وخامة وأكبر ضرراً عما هم فيه من الاضطهاد، وأن الخسارة التى تلحقهم - وتلحق البشرية جمعاء - بعد هذا الفرار لا يقاس بحال على المتاعب التى كانوا يواجهونها نتيجة هذا التجمل.

٤ - الإيمان بالآخرة - وهو مما كان يقوى هذا الشعور - الشعور بالمسئولية - فقد كانوا على يقين جازم من أنهم يقومون لرب العالمين، ويحاسبون بأعمالهم دقها وجلها، صغيرها وكبيرها فإما إلى النعيم المقيم، وإما إلى عذاب خالد فى سنوء الجحيم فكانوا يقضون

حياتهم بين الخوف والرجاء ، يرجون رحمة ربهم ويخافون عذابه ، وكانوا ﴿يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون﴾ وكانوا يعرفون أن الدنيا بعذابها ونعيمها لا تساوى جناح بعوضة فى جنب الآخرة ، وكانت هذه المعرفة القوية تهون لهم متاعب الدنيا ومشاقها ومرارتها ، حتى لم يكونوا يكثر ثون لها ويلقون إليها بالا .

٥ - القرآن - وفى هذه الفترات العصبية الرهيبة الحالكة كانت تنزل السور والآيات تقيم الحجج والبراهين على مبادئ الإسلام - التى كانت الدعوة تدور حولها - بأساليب منيعة خلافة ، وترشد المسلمين إلى أسس قدر الله أن يتكون عليها أعظم وأروع مجتمع بشرى فى العالم - وهو المجتمع الإسلامى - وتثير مشاعر المسلمين ونوازعهم على الصبر والتجلى ، تضرب لذلك الأمثال ، وتبين لهم ما فيه من الحكمة : ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب﴾ (٢ : ٢١٤) ﴿الم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ (٢٩ : ١ ، ٢ ، ٣) .

كما كانت تلك الآيات ترد على إرادات الكفار والمعاندين ردا مفحما ، ولا تبقى لهم حيلة ، ثم تحذرهم مرة عن عواقب وخيمة - إن أضروا على غيهم وعنادهم - فى جلاء ووضوح مستدلا بأيام الله ، والشواهد التاريخية التى تدل على سنة الله فى أوليائه وأعدائه ، وتلطفهم مرة ، وتؤدى حق التفهيم والإرشاد والتوجيه ، حتى ينصرفوا عما هم فيه من الضلال المبين .

وكان القرآن يسير بالمسلمين فى عالم آخر ، ويبصرهم من مشاهد الكون ، وجمال الربوبية ، وكمال الألوهية ، وآثار الرحمة والرفقة ، وتجليات الرضوان ما يحنون إليه حينئذ لا يقوم له أى عقبة .

وكانت فى طى هذه الآيات خطابات للمسلمين ، فيها يبشرهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ، وتصور لهم صورة أعدائهم من الكفرة الطغاة الظالمين ، يحاكمون ، ويصادرون ، ثم يسحبون فى النار على وجوههم ، ذوقوا مس سقر ٦ - البشارات بالنجاح - ومع هذا كله كان المسلمون يعرفون منذ أول يوم لاقوا فيه الشدة والاضطهاد - بل ومن قبله - أن الدخول فى الإسلام ليس معناه جر المصائب والحقوق بل إن الدعوة الإسلامية تهدف - منذ أول يومها - إلى القضاء على الجاهلية الجهلاء ونظامها الغاشم ، وأن من أهدافها الأساسية بسط النفوذ على الأرض والسيطرة على الموقف السياسى فى العالم ، لتقود الأمة الإنسانية والجمعية البشرية إلى مرضاة الله . وتخرجهم من

وكان القرآن ينزل بهذه البشارات - مرة بالتصريح وأخرى بالكناية - ففي تلك الفترات القاصمة التي ضيقت الأرض على المسلمين، وكادت تخنقهم، وتقضي على حياتهم، كانت تنزل الآيات بما جرت بين الأنبياء السابقين وبين أقوامهم الذين قاموا بتكذيبهم والكفر بهم، وكانت تشتمل هذه الآيات على ذكر الأحوال التي تطابق تماما أحوال مسلمي مكة وكفارها، ثم تذكر هذه الآيات بما تمخضت عنه تلك الأحوال من إهلاك الكفرة والظالمين، وإيراث عباد الله الأرض والديار. فكانت في هذه القصص إشارات واضحة إلى فشل أهل مكة في المستقبل، ونجاح المسلمين مع نجاح الدعوة الإسلامية.

وفي هذه الفترات نزلت آيات تصرح ببشارة غلبة المؤمنين قال تعالى: ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون ، فتول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يصبرون أفبعذابنا يستعجلون فإذا نزل بساحتهم فساء صباح الملقين ﴾ (٣٧، ١٧١ - ١٧٧) وقال: ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ (٥٤: ٤٥) وقال ﴿ جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب ﴾ (٣٨: ١١) ونزلت في الذين هاجروا إلى الحبشة: ﴿ والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبؤتهم في الدنيا حسنة ، ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ (١٦: ٤١) وسأله عن قصة يوسف فأنزل الله في طيها ﴿ لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين ﴾ (١٢: ٧) أي فأهل مكة السائلون يلاقون ما لاقى إخوانه من الفشل، ويستسلمون كاستسلامهم، وقال وهو يذكر الرسل: ﴿ وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلك الظالمين ، ولنسكنكم الأرض من بعدهم ، ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد ﴾ (١٤: ١٣، ١٤) وحينما كانت الحرب مشتعلة بين الفرس والرومان، وكان الكفار يحبون غلبة الفرس بصفقتهم مشركين، والمسلمون يحبون غلبة الرومان بصفقتهم مؤمنين بالله والرسول والوحي والكتب واليوم الآخر وكانت الغلبة للفرس، أنزل الله بشارة غلبة الروم في بضع سنين، ولكنه لم يقتصر على هذه البشارة الواحدة، بل صرح ببشارة أخرى وهي نصر الله للمؤمنين حيث قال: ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله ﴾ (٣٠: ٥، ٤).

وكان رسول الله ﷺ نفسه يقوم بمثل هذه البشارات بين آونة وأخرى، فكان إذا وافى الموسم، وقام بين الناس في عكاظ ومجنة وذى الحجاز، لتبليغ الرسالة، لم يكن يشرهم

بالجنة فحسب ، بل يقول لهم بكل صراحة ، يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، وتملكوا بها العرب ، وتدين لكم بها العجم ، فإذا متم كنتم ملوكا فى الجنة (١) .

وقد أسلفنا ما أجاب به النبي ﷺ عتبة بن ربيعة حين أراد مساومته على رغائب الدنيا ، وما فهمه ورجاه عتبة من ظهور أمره عليه الصلاة والسلام .

وكذلك ما أجاب به النبي ﷺ آخر وفد جاء إلى أبى طالب ، فقد صرح لهم أنه يطلب منهم كلمة واحدة يعطونها ، تدين لهم العرب ، ويملكون العجم .

قال خباب بن الأرت : أتيت النبي ﷺ وهو متوسد برده ، وهو فى ظل الكعبة ، وقد لقينا من المشركين شدة ، فقلت : ألا تدعو الله ، فقعد ، وهو محمر وجهه ، فقال : لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله - زاد بيان الراوى - والذئب على غنمه (٢) وفى رواية ولكنكم تستعجلون (٣) .

ولم تكن هذه البشارات مخفية مستورة ، بل كانت فاشية مكشوفة ، يعلمها الكفرة كما كان يعلمها المسلمون ، حتى كان الأسود بن المطلب وجلساؤه إذا رأوا أصحاب النبي ﷺ تغامزوا بهم ، وقالوا : قد جاءكم ملوك الأرض ، سيغلبون على ملوك كسرى وقيصر ، ثم يصفرون ويصفقون (٤) .

وأمام هذه البشارات بالمستقبل المجيد المستنير فى الدنيا ، مع ما فيه من الرجاء الصالح الكبير البالغ إلى النهاية فى الفوز بالجنة ، كان الصحابة يرون أن الاضطهادات التى تتوالى عليهم من كل جانب ، والمصائب التى تحيط بهم من كل الأرجاء ، ليست إلا : « سحابة صيف عن قليل تقشع » .

هذا ولم يزل الرسول ﷺ يغذى أرواحهم برغائب الإيمان ، ويزكى نفوسهم بتعليم الحكمة والقرآن ، ويربيهم تربية دقيقة عميقة ، يحدو بنفوسهم إلى منازل سمو الروح ، ونقاء القلب ، ونظافة الخلق ، والتحرر من سلطان الماديات ، والمقاومة للشهوات ، والنزوع إلى رب الأرض والسموات ويزكى جمة قلوبهم ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، يأخذهم بالصبر على الأذى والصفح الجميل وقهر النفس ، فازدادوا رسوخا فى الدين ، وعزوا عن الشهوات ، وتفانيا فى سبيل الرضاة ، وحنينا إلى الجنة ، وحرصا على العلم ، وفقها فى الدين ، ومحاسبة للنفس وقهرا للنزعات ، وغلبة على العواطف ، وتسيطرا على التأثيرات والهائجات ، وتقيدا بالصبر والهدوء والوقار .

(١) زواه الترمذى وقد مضى مرارا .. (٢) صحيح البخارى ١ / ٥٤٣ .

(٣) نفس المصدر ١ / ٥١٠ . (٤) فقه السيرة ص ٨٤ .

المرحلة الثالثة دعوة الإسلام خارج مكة

الرسول ﷺ في الطائف :

في شوال (١) سنة عشر من النبوة (في أواخر مايو أو أوائل يونيو سنة ٦١٩) خرج النبي ﷺ إلى الطائف ، وهي تبعد عن مكة نحو ستين ميلا ، سارها ماشيا على قدميه جيئة وذهوبا ، ومعه مولاة زيد بن حارثة ، وكان كلما مر على قبيلة في الطريق دعاهم إلى الإسلام ، فلم تجب إليه واحدة منها ، فلما انتهى إلى الطائف عمد ثلاثة إخوة من رؤساء ثقيف ، وهم عبد ياليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفي فجلس إليهم ودعاهم إلى الله ، وإلى نصرته الإسلام ، فقال أحدهم : هو يمرط ثياب الكعبة (أى يمزقها) ، إن كان الله أرسلك ، وقال الآخر : أما وجد الله أحدا غيرك ، وقال الثالث : والله لا أكلمك أبدا ، إن كنت رسولا لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي أن أكلمك ، فقام عنهم رسول الله ﷺ ، وقال لهم : إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني .

وأقام رسول الله ﷺ بين أهل الطائف عشرة أيام ، لا يدع أحدا من أشrafهم إلا جاءه وكلمه ، فقالوا : اخرج من بلادنا ، وأغروا به سفهاءهم ، فلما أراد الخروج تبعه سفهاؤهم وعبيدهم ، يسبونهم ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، فوقفوا له صماتين (أى صفيين) وجعلوا يرمونه من الحجارة وبكلمات من السفه ، ورجموا عراقبيه ، حتى اختضب نعلاه بالدماء ، وكان زيد بن حارثة يقيه بنفسه ، حتى أصابه شجاج في رأسه ، ولم يزل به السفهاء كذلك حتى ألجأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة ، على ثلاثة أميال من الطائف ، فلما التجأ إليه رجعوا عنه ، وأتى رسول الله ﷺ إلى حيلة من عنب ، فجلس تحت ظلها إلى جدار فلما جلس إليه واطمأن ، دعا بالدعاء المشهور الذي يدل على امتلاء قلبه كآبة وحزنا مما لقي من الشدة ، وأسفا على أنه لم يؤمن به أحد ، قال :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ،

(١) صرح بذلك النجيب آبادي في تاريخ إسلام ١/٢٢٢ ، وهو الراجع عندي

أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت به الظلمات، وصلاح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك، أو يحل على سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

فلما رآه ابنا ربيعة تحركت له رحمهما، فدعوا غلاما لهما نصرانيا، يقال له عداس، وقالوا له خذ قطفا من هذا العنب واذهب به إلى هذا الرجل . فلما وضعه بين يدي رسول الله ﷺ مديده إليه قائلا : « باسم الله » ، ثم أكل .

فقال عداس إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له رسول الله ﷺ : من أى البلاد أنت ؟ وما دينك ؟ قال أنا : نصرانى ، من أهل « نينوى » . فقال رسول الله ﷺ من قرية الرجل الصالح يونس بن متى . قال له : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ قال رسول الله ﷺ ذاك أخى ، كان نبيا وأنا نبي ، فأكب عداس على رأس رسول الله ﷺ ويديه ورجليه يقبلها .

فقال ابنا ربيعة أحدهما للآخر : أما غلامك فقد أفسده عليك . فلما جاء عداس قال له : ويحك ما هذا ؟ قال : يا سيدى ، ما فى الأرض شىء خير من هذا الرجل ، لقد أخبرنى بأمر لا يعلمه إلا نبي ، قالوا له : ويحك يا عداس ، لا يصرفك عن دينك ، فإن دينك خير من دينه .

ورجع رسول الله ﷺ فى طريق مكة بعد خروجه من الحائط كئيبا محزوننا كسير القلب ، لما بلغ قرن المنازل بعث الله إليه جبريل ومعه ملك الجبال ، يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة .

وقد روى البخارى - تفصيل القصة - بسنده عن عروة بن الزبير ، أن عائشة رضى الله عنها حدثته أنها قالت للنبي ﷺ : هل أتى عليك يوما كان أشد عليك من يوم أحد ؟ قال : لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت - وأنا مهموم - على وجهى ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب - وهو المسمى بقرن المنازل - فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فنادانى فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك . وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . فنادانى ملك الجبال ، فسلم على ، ثم قال : يا محمد ، ذلك ، فما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين - أى لفعلت ، والأخشبان : هما جبلا مكة ، أبو قبيس والذى يقابله وهو قيعقان - قال النبي ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلا بهم من يعبد الله عز وجل وحده لا يشرك به شيئا (١) .

(١) صحيح البخارى . كتاب بدء الخلق ١ / ٤٥٨ ، مسلم .. باب ما لقى النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين ٢ / ١٠٩ .

وفي هذا الجواب الذى أدلى به الرسول ﷺ تتجلى شخصيته الفذة ، وما كان عليه من الخلق العظيم الذى لا يدرك غوره .

وأناق رسول الله ﷺ ، واطمأن قلبه ؛ لأجل هذا النصر الغيبي الذى أمده الله عليه من فوق سبع سموات ، ثم تقدم فى طريق مكة حتى بلغ وادى نخلة ، وأقام فيه أياما . وفى وادى نخلة موضعان يصلحان للإقامة - السيل الكبير والزيمة - لما بهما من الماء والخصب ، ولم نقف على مصدر يعين موضع إقامته ﷺ فيه .

وخلال إقامته هناك بعث الله إليه نفرا من الجن ، ذكرهم الله فى موضعين من القرآن . فى سورة الأحقاف : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا : أَصْنَوْا فُلَمَا قُضِيَ وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ . قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنْ سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيَ إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرَكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ (٤٦ : ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١) .

وفى سورة الجن : ﴿ قُلْ أَوْحَىٰ إِلَىٰ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا : إِنْ سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا . يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ، وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ إلى تمام الآية الخامسة عشرة .

ومن سياق هذه الآيات - وكذا من سياق الروايات التى وردت فى تفسير هذا الحادث - يتبين أن النبى ﷺ لم يعرف بحضور ذلك النفر من الجن ، وإنما علم ذلك حين أطلعه الله عليه بهذه الآيات وأن حضورهم هذا كان لأول مرة ، ويقتضى سياق الروايات أنهم وفدوا بعد ذلك مرارا .

وحقا كان هذا الحادث نصرا آخر أمده الله من كنوز غيبه الممكنون بجنوده التى لا يعلمها إلا هو ، ثم إن الآيات التى تزلت بصدد هذا الحادث كانت فى طيها بشارات بنجاح دعوة النبى ﷺ ، وأن أى قوة من قوات الكون لا تستطيع أن تحول بينها وبين نجاحها : ﴿ وَمَنْ لَا يَجِبُ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ، أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (٤٦ : ٢٢) ﴿ وَأَنَا ظَنُّنَا أَنَّ لَنْ تَعْجِزَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نَعْجِزَهُ هَرَبًا ﴾ (٧٢ : ١٢) .

أمام هذه النصرة ، وأمام هذه البشارات ، أقشعت سحابة الكابة والحزن واليأس ، التى كانت مطبقة عليه منذ أن خرج من الطائف مطرودا مدحورا ، حتى صمم على العود إلى مكة ، وعلى القيام باستئناف خطته الأولى فى عرض الإسلام وإبلاغ رسالة الله الخالدة بنشاط جديد وجدو حماس .

وحينئذ قال له زيد بن حارثة : كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك ؟ يعنى قريشا ، فقال : يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا ، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه .

وسار رسول الله ﷺ حتى إذا دنا من مكة مكث بحراء ، وبعث رجلا من خزاعة إلى الأخنس بن شريق ليجيره ، فقال : أنا حليف ، والحليف لا يجير . فبعث إلى سهيل بن عمرو ، فقال سهيل : إن بني عامر لا تجير على بني كعب ، فبعث إلى المطعم بن عدى ، فقال : المطعم نعم ، ثم تسلح ودعا بنيه وقومه فقال : البسوا السلاح ، وكونوا عند أركان البيت ، فإننى قد أجرت محمدا ، ثم بعث إلى رسول الله ﷺ : أن ادخل ، فدخل رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام ، فقام المطعم بن عدى على راحلته فنادى يا معشر قريش ، إننى قد أجرت محمدا فلا يهجه أحد منكم ، وانتهى رسول الله ﷺ إلى الركن فاستلمه ، وصلى ركعتين ، وانصرف إلى بيته ، ومطعم بن عدى وولده محدقون به بالسلاح حتى دخل بيته .

وقيل : إن أبا جهل سأل مطعما : أمجير أنت أم متابع - مسلم - ؟ قال : بل مجير . قال : قد أجرنا من أجرت (١) .

وقد حفظ رسول الله ﷺ للمطعم هذا الصنيع ، فقال فى أسارى بدر : لو كان المطعم بن عدى حيا ثم كلمنى فى هؤلاء التنى لتركتهن له (٢) .

عرض الإسلام على القبائل والأفراد

فى ذى القعدة سنة عشر من النبوة - فى أواخر يونيو أو أوائل يوليو سنة ٦١٩ م - عاد رسول الله ﷺ إلى مكة ، ليستأنف عرض الإسلام على القبائل والأفراد ، ولأقتراب الموسم كان الناس يأتون إلى مكة رجالا ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، لقضاء فريضة الحج ، وليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا الله فى أيام معلومات ، فانتهاز رسول الله ﷺ هذه الفريضة ، فأتاهم قبيلة قبيلة يعرض عليهم الإسلام ، ويدعوهم إليه ، كما كان يدعوهم منذ السنة الرابعة من النبوة .

القبائل التى عرض عليها الإسلام :

قال الزهرى : وكان ممن يسمى لنا من القبائل الذين آتاهم رسول الله ، ودعاهم وعرض نفسه عليهم بنو عامر بن صعصعة ، ومحارب بن خصفة ، وفزارة ، وغسان ، ومرة ، وحنيفة ، وسليم ، وعبس ، وبنو نصر ، وبنو البكاء ، وكندة ، وكلب ، والحارث بن

(١) التقطنا تفضيل حادث الطائف من ابن هشام ١/ ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، وزاد المعاد ٢/ ٤٦ ، ٤٧ ، ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ورحمة للعالمين ١/ ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، وتاريخ إسلام للنقيب أبادى ١/ ١٢٣ ، ١٢٤ . (٢) صحيح البخارى ٢/ ٥٧٣ .

كعب ، وعذرة ، والحضارمة فلم يستجب منهم أحد (١) .

وهذه القبائل التي سماها الزهري لم يكن عرض الإسلام عليها في سنة واحدة ، ولا في موسم واحد ، بل إنما كان ما بين السنة الرابعة من النبوة إلى آخر موسم قبل الهجرة . ولا يمكن تسمية سنة معينة لعرض الإسلام على قبيلة معينة ، نعم هناك قبائل قد جزم العلامة المنصور فوري أن عرض الإسلام عليهم كان في موسم السنة العاشرة (٢) وقد ذكر ابن إسحاق كيفية العرض وردودهم ، وهاك ملخصا :

١ - بنو كلب - أتى النبي ﷺ إلى بطن منهم ، يقال لهم بنو عبد الله ، فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم نفسه ، حتى إنه ليقول لهم : يا بني عبد الله ، إن الله قد أحسن اسم أييكم ، فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم .

٢ - بنو حنيفة - أتاهم في منازلهم فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم نفسه فلم يكن أحد من العرب أقبح عليه ردا منهم .

٣ - وأتى إلى بنى عامر بن صعصعة ، فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم نفسه ، فقال بحيرة بن فراس (رجل منهم) : والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ، ثم قال : رأييت إن نحن بايعناك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال : الأمر إلى الله ، يضعه حيث يشاء ، فقال له : أفتهدف نحورنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ، لا حاجة لنا بأمرك ، فأبوا عليه .

ولما رجعت بنو عامر تحدثوا إلى شيخ لهم لم يواف الموسم ، لكبر سنه ، وقالوا له : جاءنا فتى من قريش من بنى عبد المطلب ، يزعم أنه نبي ، يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ، ونخرج به إلى بلادنا ، فوضع الشيخ يديه على رأسه ، ثم قال : يا بني عامر هل لها من تلاف ؟ لذنا باها (٣) من مطلب ؟ والذي نفس فلان بيده ما تقولها إسماعيلي قط ، وإنها لحق ، فأين رأيكم كان عنكم (٤) ؟

المؤمنون من غير أهل مكة :

وكما عرض رسول الله ﷺ الإسلام على القبائل والوفود ، عرض على الأفراد والأشخاص ، وحصل من بعضهم على ردود صالحة ، وآمن به عدة رجال بعد هذا الموسم بقليل . وهاك لوحة منهم :

١ - سويد بن صامت - كان شاعرا لبيبا من سكان يثرب يسميه قومه الكامل ،

(١) روى ذلك الترمذي ، انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ١٤٩ .

(٢) رحمة للعالمين ١ / ٧٤ ، وبه جزم النجيب آبادي . انظر تاريخ إسلام ١ / ١٢٥ .

(٣) مثل يضرب لما فات ، وأصله من ذنابي الطائر إذا أفلت من حباله فطلبت الأخذ بذناياه . (٤) ابن هشام ١ / ٤٢٤ ، ٤٢٥ .

لجلده وشعره وشرفه ونسبه ، جاء مكة حاجا أو معتمرا ، فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فقال: لعل الذي معك مثل الذي معي . فقال له رسول الله ﷺ : وما الذي معك . قال : حكمة لقمان . قال اعرضها علي ، فعرضها فقال له رسول الله ﷺ : إن هذا الكلام حسن ، والذي معي أفضل من هذا قرآن أنزله الله تعالى علي ، هو هدى ونور ، فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن ودعاه إلى الإسلام ، فأسلم ، وقال : إن هذا لقول حسن . فلما قدم المدينة لم يلبث أن قتل يوم بعثت وكان إسلامه في أوائل سنة ١١ من النبوة (١) .

٢ - إياس بن معاذ - كان غلاما حدثا من سكان يثرب ، قدم في وفد من الأوس ، جاءوا يلتئمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج ، وذلك قبيل حرب بعثت في أوائل سنة ١١ من النبوة إذ كانت نيران العداوة متقدة في يثرب بين القبيلتين - وكان الأوس أقل عددا من الخزرج - فلما علم رسول الله ﷺ بمقدمهم جاءهم فجلس إليهم ، وقال لهم: هل لكم في خير مما جئتم له ؟ فقالوا : وما ذاك ؟ قال : أنا رسول الله ، بعثني إلى العباد ، أدعوهم أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا ، وأنزل علي الكتاب ، ثم ذكر لهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فقال إياس بن معاذ : أي قوم ، هذا والله خير مما جئتم له ، فأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع - رجل كان في الوفد - حفنة من تراب البطحاء فرمى بها وجه إياس ، وقال : دعنا عنك ، فلعمري لقد جئنا لغير هذا ، فصمت إياس وقام رسول الله ﷺ ، وانصرفوا إلى المدينة من غير أن ينجحوا في عقد حلف مع قريش .

وبعد رجوعهم إلى يثرب لم يلبث إياس أن هلك ، وكان يهمل ويكبر ويحمد ، ويسبح عند موته ، فلا يشكون أنه مات مسلما . (٢) .

٣ - أبو ذر الغفاري - وكان من سكان نواحي يثرب ، ولما بلغ إلى يثرب خبر مبعث النبي ﷺ بسويد بن صامت وإياس بن معاذ وقع في أذن أبي ذر أيضا ، وصار سببا لإسلامه (٣) . روى البخاري عن ابن عباس قال : قال أبو ذر : كنت رجلا من غفار ، فبلغنا أن رجلا قد خرج بمكة يزعم أنه نبي ، فقلت : لأخى انطلق إلى هذا الرجل وكلمه ، وأتني بخبره ، فانطلق ، فلقيه ، ثم رجع فقلت : ما عندك ؟ فقال : والله لقد رأيت رجلا يأمر بالخير ، وينهى عن الشر ، فقلت له : لم تشفني من الخبر فأخذت جرابا وعصا ، ثم أقبلت إلى مكة ، فجعلت لا أعرفه ، وأكره أن أسأل عنه ، وأشرب من ماء زمزم وأكون في المسجد . قال : فمر بي على .

(١) تاريخ إسلام للنقيب آبادي ١ / ١٢٥ .

(٢) ابن هشام ١ / ٤٢٧ . ٤٢٨ ، وتاريخ إسلام للنقيب آبادي ١ / ١٢٦ .

(٣) نفس المصدر الأخير ١ / ١٢٨ .

فقال : كأن الرجل غريب ؟ قال : قلت : نعم فقال : فانطلق إلى المنزل . فانطلقت معه ، لا يسألني عن شيء ولا أسأله ولا أخبره . فلما أصبحت غدوت إلى المسجد لأسأل عنه ، وليس أحد يخبرني عنه بشيء . قال : فمر بي على فقال : أما زال للرجل يعرف منزله بعد ؟ قال : قلت لا . قال : فانطلق معي ، قال : فقال : ما أمرك ؟ وما أقدمك هذه البلدة ؟ قال : قلت له : إن كتبت على أخبرتك ، قال : فإني أفعل ، قال : قلت له : بلغنا أنه قد خرج ههنا رجل يزعم أنه نبي الله ، فأرسلت أخى يكلمه ، فرجع ولم يشفني من الخبر ، فأردت أن ألقاه .

فقال له : أما إنك قد رشدت ، هذا وجهي إليه ، أدخل حيث أدخل ، فإني إن رأيت أحدا أخافه عليك قمت إلى الحائط كأني أصلح نعل ، وامض أنت فمضى ، ومضيت معه حتى دخل ، ودخلت معه على النبي ﷺ ، فقلت له : اعرض على الإسلام ، فعرضه ، فأسلمت مكاني ، فقال لي : يا أبا ذر اكتب هذا الأمر ، وارجع إلى بلدك ، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل . فقلت : والذي بعثك بالحق لأصرخن بها بين أظهرهم ، فجئت إلى المسجد وقريش فيه ، فقلت يا معشر قريش ، إني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله . فقالوا قوموا إلى هذا الصابي . فقاموا فضربت لأموت ، فأدركني العباس ، فأكب علي ، ثم أقبل عليهم فقال ، ويلكم تقتلون رجلا من غفار ؟ ومتجركم وممركم على غفار . فأقلعوا عني ، فلما أن أصبحت الغد ، رجعت فقلت مثل ما قلت بالأمس ، فقالوا قوموا إلى هذا الصابي ، فصنع بي ما صنع بالأمس ، فأدركني العباس ، فأكب علي وقال مقاتله بالأمس (١) .

٤- طفيل بن عمرو الدوسي - كان رجلا شريفا شاعرا لبيا رئيس قبيلة دوس ، وكان لقبيلته إمارة أو شبه إمارة في بعض نواحي اليمن ، قدم مكة في عام ١١ من النبوة ، فاستقبله أهلها قبل وصوله إليها ، وبذلوا له أجل تحية وأكرم التقدير ، وقالوا له : يا طفيل ، إنك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا ، وقد فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر ، يفرق بين الرجل وأبيه ، وبين الرجل وأخيه ، وبين الرجل وزوجه ، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمه ولا تسمع من شيء .

يقول طفيل : فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئا ولا أكلمه ، حتى حشوت أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفا ، فرقا من أن يبلغني شيء من قوله ، قال فغدوت إلى المسجد ، فإذا هو قائم يصلي عن الكعبة ، فقممت قريبا منه ، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله ، فسمعت كلاما حسنا ، فقلت في نفسي : واثكل أمي ، والله إني رجل لبيب شاعر ، ما يخفى على الحسن من القبيح ، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما

(١) صحيح البخاري باب قصة زمزم ٤٩٩/١ ، ٥٠٠ ، وباب إسلام أبي ذر ١/٥٤٤ ، ٥٤٥ .

يقول ؟ فإن كان حسنا قبلته ، وإن كان قبيحا تركته ، فمكثت حتى انصرف إلى بيته ، فاتبعته ، حتى دخل بيته دخلت عليه فعرضت عليه قصة مقدمي ، وتخويف الناس إياي ، وسد الأذن بالكرسف ، ثم سماع بعض كلامه ، وقلت له : اعرض علي أمرك ، فعرض علي الإسلام ، وتلا علي القرآن ، فوالله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ، ولا أمراً أعدل منه ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق ، وقلت له : إني مطاع في قومي وراجع إليهم ، وداعيتهم إلى الإسلام ، فادع الله أن يجعل لي آية ، فدعا .

وكانت آيته أنه لما دنا من قومه جعل الله له نوراً في وجهه مثل المصباح ، فقال : اللهم في غير وجهي ، أخشى أن يقولوا : هذه مثلة ، فتحول النور إلى سوطه ، فدعا أباه وزوجته إلى الإسلام فأسلما ، وأبطأ عليه قومه في الإسلام لكن لم يزل بهم حتى هاجر بعد الخندق (١) ومعه سبعون أو ثمانون بيتاً من قومه ، وقد أبلى في الإسلام بلاء حسناً ، وقتل شهيداً يوم اليمامة (٢) .

٥ - ضماد الأزدي - كان من أزد شنوءة من اليمن ، وكان يرقى من هذا الريح ، قدم مكة فسمع سفهاءها يقولون : إن محمداً مجنون ، فقال لو أني أتيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي ، فلقيه ، فقال : يا محمد : ، إني أرقى من هذا الريح ، فهل لك ؟ فقال رسول الله ﷺ : إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل الله فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد .

فقال : أعد كلماتك هؤلاء ، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات ، فقال : لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء ، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء ، ولقد بلغن قاموس البحر ، هات يديك أبايعك على الإسلام ، فبايعه (٣) .

ست نسيمات طيبة من أهل يثرب :

وفي موسم الحج من سنة ١١ من النبوة - يوليو سنة ٦٢٠ م - وجدت الدعوة الإسلامية بذورا صالحة سرعان ما تحولت إلى شجرات باسقات ، اتقى المسلمون في ظلالها الوارفة عن لفحات الظلم والطغيان طيلة أعوام .

وكان من حكمته ﷺ - إزاء ما كان يلقي من أهل مكة من التكذيب والصد عن سبيل الله - أنه كان يخرج إلى القبائل في ظلام الليل ، حتى لا يحول بينه وبينهم أحد من أهل مكة المشركين (٤) .

(١) بل وبعد الحديبية ، فقد قدم المدينة رسول الله ﷺ بخير . انظر ابن هشام ١ / ٣٨٥ .

(٢) ابن هشام ١ / ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٥ ، رحمة للعالمين ١ / ٨١ ، ٨٢ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص

١٤٤ ، تاريخ إسلام للنقيب آبادي ١ / ١٢٧ . (١) رواه مسلم ، مشكاة المصابيح ، باب علامات النبوة ٢ / ٥٢٥ . (٢)

تاريخ إسلام للنقيب آبادي ١ / ١٢٩ .

خرج كذلك ليلة ومعه أبو بكر وعليّ ، فمر على منازل ذهل وشيبان ابن ثعلبة وكلمهم في الإسلام . وقد دارت بين أبي بكر وبين رجل من ذهل أسئلة وردود طريفة ، وأجاب بنو شيبان بأرجى الأجوبة ، غير أنهم توقفوا في قبول الإسلام (١)

ثم مر رسول الله ﷺ بعقبة منى ، فسمع أصوات رجال يتكلمون (٢) فعمد هم حتى لحقهم ، وكانوا ستة نفر من شباب يثرب ، كلهم من الخزرج ،

وهم :

- ١ - أسعد بن زرارة (من بنى النجار)
- ٢ - عوف بن الحارث بن رفاعه ، ابن عفراء (من بنى النجار)
- ٣ - رافع بن مالك بن العجلان (من بنى زريق)
- ٤ - قطبة بن عامر بن حديدة (من بنى سلمة)
- ٥ - عقبة بن عامر بن نابي (من بنى حرام بن كهل)
- ٦ - جابر بن عبد الله بن زئاب (من بنى عبيد بن غنم)

وكان من سعادة أهل يثرب أنهم كانوا يسمعون من حلفائهم من يهود المدينة أن نبيا من الأنبياء مبعوث في هذا الزمان ، سيخرج فنتبعه ، ونقتلكم معه قتل عاد وإرم (٣) .

فلما لحقهم رسول الله ﷺ قال لهم : من أنتم ، قالوا : نفر من الخزرج ، قال : من موالى اليهود ؟ أى حلفائهم ، قالوا : نعم . قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى . فجلسوا معه ، فشرح لهم حقيقة الإسلام ودعوته ، ودعاهم إلى الله عز وجل ، وتلا عليهم القرآن . فقال بعضهم لبعض : تعلمون والله يا قوم ، إنه للنبي الذى توعدكم به يهود ، فلا تسبقنكم إليه فأسرعوا إلى إجابة دعوته وأسلموا .

وكانوا من عقلاء يثرب ، أنهكتهم الحرب الأهلية التى مضت من قريب ، والتى لا يزال لهيبها مستعرا ، فأملوا أن تكون دعوته سببا لوضع الحرب ، فقالوا : إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبتك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك .

ولما رجع هؤلاء إلى المدينة حملوا إليها رسالة الإسلام ، حتى لم تبق دار من دور

(١) انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ .

(٢) رحمة للعالمين ١ / ٨٤ . (٣) زاد الميعاد ٢ / ٥٠ ، وابن هشام ١ / ٢٩ ، ٥٤١ .

الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ (١).

استطراد - تزويج رسول الله ﷺ بعائشة :

وفي شوال من هذه السنة - سنة ١١ من النبوة - تزوج رسول الله ﷺ عائشة الصديقة رضي الله عنها، وهي بنت سبث سنين وبنى بها بالمدينة في شوال في السنة الأولى من الهجرة وهي بنت تسع سنين (٢).

الإسراء والمعراج

وبينا النبي ﷺ في هذه المرحلة التي كانت دعوته تشق فيها طريقا بين النجاح والاضطهاد، وكانت تتراءى نجوما ضئيلة تتلمح في آفاق بعيدة، وقع حادث الإسراء والمعراج.

واختلف في تعيين زمنه على أقوال شتى :

- ١ - ف قيل : كان الإسراء في السنة التي أكرمها الله فيها بالنبوة ، اختاره الطبري .
- ٢ - وقيل : كان بعد المبعث بخمس سنين ، ورجح ذلك النووي والقرطبي .
- ٣ - وقيل : كان ليلة السابع والعشرين من شهر رجب سنة ١٠ من النبوة ، واختاره العلامة المنصور فوري .
- ٤ - وقيل : قبل الهجرة بستة عشر شهرا ، أى في رمضان سنة ١٢ من النبوة .
- ٥ - وقيل : قبل الهجرة بسنة وشهرين ، أى في المحرم سنة ١٣ من النبوة .
- ٦ - وقيل : قبل الهجرة بسنة ، أى في ربيع الأول سنة ١٣ من النبوة .

وردت الأقوال الثلاثة الأول بأن خديجة رضي الله عنها توفيت في رمضان سنة عشر من النبوة ، وكانت وفاتها قبل أن تفرض الصلوات الخمس ، ولا خلاف أن فرض الصلوات الخمس كانت ليلة الإسراء (٣) . أما الأقوال الثلاثة الباقية فلم أجد ما أرجح به واحدا منها ، غير أن سياق سورة الإسراء يدل على أن الإسراء متأخر جدا :

(١) زاد المعاد ٥٠/٢، وابن هشام ٢٩/١، ٥٤١ .

(٢) تلقيح فهرم أهل الأثر ص ١٠، وصحيح البخاري ٥٥١/١ .

(٣) انظر لهذه الأقوال زاد المعاد ٤٩/٢، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ١٤٨، ١٤٩، رحمة

للعالمين ١/٧٦ وتاريخ إسلام نجيب آبادي ١/١٢٤ .

وروى أئمة الحدث تفاصيل هذه الواقعة . وفيما يلي نسردها بإيجاز :

قال ابن القيم : أسرى برسول الله ﷺ ، بجسده على الصحيح ، من المسجد الحرام إلى بيت المقدس ، راكبا على البراق ، صحبة جبريل عليهما الصلاة والسلام ، فنزل هناك ، وصلى بالأنبياء إماما ، وربط البراق بحلقه باب المسجد .

ثم عرج به تلك الليلة من بيت المقدس إلى السماء الدنيا ، فاستفتح له جبريل ، ففتح له ، فرأى هنالك آدم أبا البشر ، فسلم عليه ، فرحب به ، ورد عليه السلام ، وأقر بنبوته ، وأراه الله أرواح الشهداء عن يمينه ، وأرواح الأشقياء عن يساره .

ثم عرج به إلى السماء الثانية ، فاستفتح له ، فرأى فيها يحيى ابن زكريا وعيسى بن مريم ، فلقيهما وسلم عليهما ، فردا عليه ، ورحبا به ، وأقرا بنبوته .

ثم عرج به إلى السماء الثالثة ، فرأى فيها يوسف عليه ، فسلم ، فرد عليه ورحب به ، وأقر بنبوته .

ثم عرج به إلى السماء الرابعة ، فرأى فيها إدريس ، فسلم عليه ، ورحب به وأقر بنبوته .

ثم عرج به إلى السماء الخامسة ، فرأى فيها هارون بن عمران ، ، فسلم عليه ، ورحب به ، وأقر بنبوته .

ثم عرج به إلى السماء السادسة فلقى فيها موسى بن عمران ، فسلم عليه ورحب به ، وأقر بنبوته .

فلما جاوزه بكى موسى ، فقليل له : ما يبكيك ؟ فقال : أبكى لأن غلاما بعث من بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي .

ثم عرج به إلى السماء السابعة ، فلقى فيها إبراهيم عليه السلام ، فسلم عليه ، ورحب به ، وأقر بنبوته .

ثم رفع إلى سدره المنتهى ، ثم رفع له البيت المعمور .

ثم عرج به إلى الجبار جل جلاله ، فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، وفرض عليه خمسين صلاة ، فرجع حتى مر على موسى ، فقال له : بم أمرك ؟ قال بخمسين صلاة : قال : إن أمتك لا تطيق ذلك ، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فالتفت إلى جبريل ، كأنه يستشير به في ذلك ، فأشار : أن نعم ، إن شئت ، فعلا به جبريل حتى أتى به الجبار تبارك وتعالى ، وهو في مكانه . هذا لفظ البخاري في بعض

الطرق - فوضع عنه عشرا، ثم أنزل حتى مر بموسى، فأخبره، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله عز وجل، حتى جعلها خمسا، فأمره موسى بالرجوع وسؤال التخفيف، فقال: قد استحييت من ربي، ولكنى أرضى وأسلم، فلما بعد ناد مناد: قد أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي - انتهى (١).

ثم ذكر ابن القيم خلافا في رؤيته ﷺ ربه تبارك وتعالى، ثم ذكر كلاما لابن تيمية بهذا الصدد، وحاصل البحث أن الرؤية بالعين لم تثبت أصلا وهو قول لم يقله أحد من الصحابة. وما نقل عن ابن عباس من رؤيته مطلقا ورؤيته بالفؤاد فالأول لا ينافي الثاني.

ثم قال: وأما قوله تعالى في سورة النجم ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ (٥٣: ٨) فهو غير الدنو الذي في قصة الإسراء، فإن الذي في سورة النجم هو دنو جبريل وتدليه، كما قالت عائشة وابن مسعود، والسياق يدل عليه، وأما الدنو والتدلى في حديث الإسراء فذلك صريح في أنه دنو الرب تبارك وتعالى وتدليه، ولا تعرض في سورة النجم لذلك، بل فيه أنه رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى. وهذا هو جبريل، رآه محمد ﷺ على صورته مرتين: مرة في الأرض، ومرة عند سدرة المنتهى. والله أعلم (٢) انتهى.

وقد وقع حادث شق صدره ﷺ هذه المرة أيضا، وقد رأى ضمن هذه الرحلة أموراً عديدة:

عرض عليه اللبن والخمر، فاختار اللبن، فقبل هديت الفطرة أو أصبت الفطرة، أما أنك لو أخذت الخمر غوت أمتك.

ورأى أربعة أنهار في الجنة: نهران ظاهران، ونهران باطنان، والظاهران هما: النيل والفرات، ومعنى ذلك أن رسالته ستتوطن الأودية الخصبة في النيل والفرات، وسيكون أهلها حملة الإسلام جيلاً بعد جيل، وليس معناه أن مياه النهرين تنبع من الجنة.

ورأى مالك خازن النار، وهو لا يضحك، وليس على وجهه بشر وبشاشة، وكذلك رأى الجنة والنار.

ورأى أكلة أموال اليتامى ظلماً لهم مشافر كمشافر الإبل، يقدفون في أفواههم قطعاً من نار كالأفهار، فتخرج من أدبارهم.

ورأى أكلة الربا لهم بطون كبيرة، لا يقدرון لأجلها أن يتحولوا عن مكانهم، ويعمر بهم آل فرعون حين يعرضون على النار فيطأونهم.

(١) زاد المعاد ٢/ ٤٧، ٤٨.

(٢) زاد المعاد ٢/ ٤٧، ٤٨، وانظر صحيح البخاري ١/ ٥٠، ٥٥، ٤٥٦، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٨١، ٥٤٨،

٥٤٩، ٥٥٠، ٦٨٤/ ٢، وصحيح مسلم ١/ ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦.

ورأى الزناة بين أيديهم لحم سمين طيب إلى جنبه لحم غث منتن يأكلون من الغث
المنتن ، ويتركون الطيب السمين .

ورأى النساء اللاتي يدخلن على الرجال من ليس من أولادهم ، رأهن معلقات
بثديهن .

ورأى غيراً من أهل مكة في الإياب والذهاب ، وقد دلهم على بعير ندّ لهم ، وشرب
ماءهم من إناء مغطى وهم نائمون ، ثم ترك الإناء مغطى ، وقد صار ذلك دليلاً على صدق
دعواه في صباح ليلة الإسراء (١) .

قال ابن القيم : فلما أصبح رسول الله ﷺ في قومه أخبرهم بما أراه الله عز وجل من
آياته الكبرى ، فاشتد تكذيبهم له وأذاهم واستضرارهم عليه ، وسألوه أن يصف لهم بيت
المقدس ، فجلاه الله له ، حتى عاينه ، فطفق يخبرهم عن آياته ، ولا يستطيعون أن يردوا
عليه شيئاً ، وأخبرهم عن غيرهم في مسراه ورجوعه ، وأخبرهم عن وقت قدومها ،
وأخبرهم عن البعير الذي يقدمها وكان الأمر كما قال ، فلم يزداهم ذلك إلا نفوراً ، وأبى
الظالمون إلا كفوراً (٢) .

يقال سمى أبو بكر رضى الله عنه صديقاً؛ لتصديقه هذه الواقعة حين كذبها الناس (٣) .

وأوجز وأعظم ما ورد في تعليل هذه الرحلة هو قوله تعالى : ﴿ لنريه من آياتنا ﴾
(١٧: ١) وهذه سنة الله في الأنبياء ، قال : ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات
والأرض ، وليكون من الموقنين ﴾ (٦ : ٧٥) وقال موسى : ﴿ لنريك من آياتنا الكبرى ﴾
(٢٠ : ٢٣) وقد بين مقصود هذه الإرادة بقوله : ﴿ وليكون من الموقنين ﴾ فبعد استناد
علوم الأنبياء إلى رؤية الآيات يحصل لهم من عين اليقين ما لا يقادر قدره ، وليس الخبر
كالمعينة ، فيتحملون في سبيل الله ما لا يتحمل غيرهم ، وتصير جميع قوات الدنيا عندهم
كجناح بعوضة لا يعبأون بها إذا ما تدول عليهم بالحن والعذاب .

والحكم والأسرار التي تكمن وراء جزئيات هذه الرحلة إنما محل بحثها كتب أسرار
الشرعية ، ولكن هنا حقائق بسيطة تتفجر من ينابيع هذه الرحلة المباركة وتتدفق إلى حقائق
أزهار السيرة النبوية - على صاحبها الصلاة والسلام والتحية - أرى أن أسجل بعضها منها
بالإيجاز :

يرى القارئ في سورة الإسراء أن الله ذكر قصة الإسراء في آية واحدة فقط ، ثم أخذ
في ذكر فضائح اليهود وجرائمهم ، ثم نبههم بأن القرآن هذا يهدي للتي هي أقوم ، فربما

(١) المصادر السابقة ١/ ٣٩٧ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ .

(٢) زاد المعاد ١/ ٤٨ ، وانظر أيضاً صحيح البخاري ٢/ ٦٨٤ ، وصحيح مسلم ١/ ٩٦ ، وابن هشام ١/ ٤٠٢ ،

٤٠٣ . (٣) نفس المصدر الأخير ١/ ٣٩٩ .

يظن القارئ أن الآيتين ليس بينهما ارتباط ، والأمر ليس كذلك ، فإن الله تعالى يشير بهذا الأسلوب إلى أن الإسراء إنما وقع إلى بيت المقدس ؛ لأن اليهود سيعزلون عن منصب قيادة الأمة الإسلامية ؛ لما ارتكبوا من الجرائم التي لم يبق معها مجال لبقائهم على هذا المنصب ، وأن الله سينقل هذا المنصب فعلاً إلى رسوله ﷺ ، ويجمع له مركزى الدعوة الإبراهيمية كليهما ، فقد آن أو ان انتقال القيادة الروحية من أمة إلى أمة ، من أمة ملأت تاريخها بالغدر والخيانة والإثم والعدوان ، إلى أمة تتدفق بالبر والخيرات ، ولا يزال رسولها يتمتع بوحي القرآن الذى يهدى للتي هي أقوم .

ولكن كيف تنتقل هذه القيادة ، والرسول يطوف فى جبال مكة مطرودا بين الناس ، هذا السؤال يكشف الغطاء عن حقيقة أخرى ، وهى أن دوراً من هذه الدعوة الإسلامية قد أوشك إلى النهاية والتمام ، وسيبدأ دور آخر يختلف عن الأول فى مجراه ، ولذلك نرى بعض الآيات تشتمل على إنذار سافر ووعيد شديد بالنسبة إلى المشركين ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ (١٧ : ١٦) ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ، وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ (١٧ : ١٧) وبجنب هذه الآيات آيات أخرى تبين للمسلمين قواعد الحضارة وبنودها ومبادئها التى يبتنى عليها مجتمعهم الإسلامى ، كأنهم قد أووا إلى الأرض ، تملكوا فيها أمورهم من جميع النواحي ، وكونوا وحدة متماسكة تدور عليها رضى المجتمع ، ففيه إشارة إلى أن الرسول ﷺ سيجد ملجأ ومأمن يستقر فيه أمره ، ويصير مركزاً لبث دعوته فى أرجاء الدنيا ، هذا سر من أسرار هذه الرحلة المباركة ، يتصل ببحثنا ، فآثرنا ذكره .

ولأجل هذه الحكمة وأمثالها نرى أن الإسراء إنما وقع إما قبيل بيعة العقبة الأولى أو بين العقبتين ، والله أعلم .

بيعة العقبة الأولى

قد ذكرنا أن ستة نفر من أهل يثرب أسلموا فى موسم الحج سنة ١١ من النبوة ، وواعدوا رسول الله ﷺ إبلاغ رسالته فى قومهم .

وكان من جراء ذلك أن جاء فى الموسم التالى - موسم الحج سنة ١٢ من النبوة يوليو سنة ٦٢١ م - اثنا عشر رجلاً ، فيهم خمسة من الستة الذين كانوا قد اتصلوا برسول الله ﷺ فى العام السابق - والسادس الذى لم يحضر هو جابر بن عبد الله بن رثاب - وسبعة سواهم . وهم :

١ - معاذ بن الحارث ، ابن عفراء من بنى النجار (من الخزرج)

٢ - ذكوان بن عبد القيس من بنى زريق (من الخزرج)

- ٣ - عبادة بن الصامت من بنى غنم (من الخزرج)
 ٤ - يزيد بن ثعلبة من حلفاء بنى غنم (من الخزرج)
 ٥ - العباس بن عبادة بن نضلة من بنى سالم (من الخزرج)
 ٦ - أبو الهيثم بن التيهان من بنى عبد الأشهل (من الأوس)
 ٧ - عويم بن ساعدة من بنى عمرو بن عوف (من الأوس)
 الأخيران من الأوس ، والبقية كلهم من الخزرج (١) .

اتصل هؤلاء برسول الله ﷺ عند العقبة بمنى ، فبايعوه بيعة النساء ، أى وفق بيعتهن التى نزلت عند فتح مكة .

روى البخارى عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال : « تعالوا ، بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا بيهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصونى فى معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فى الدنيا فهو له كفارة ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله ، فأمره إلى الله إن شاء عاقبه ، وإن شاء عفا عنه . قال : فبايعته » - وفى نسخة فبايعناه - على ذلك (٢) .

سفير الإسلام فى المدينة :

وبعد أن تمت البيعة وانتهى الموسم بعث النبى ﷺ مع هؤلاء المبايعين أول سفير فى يثرب ، ليعلم المسلمين فيها شرائع الإسلام ، ويفقههم فى الدين ، وليقوم بنشر الإسلام بين الذين لم يزالوا على الشرك ، واختار لهذه السفارة شاباً من شباب الإسلام من السابقين الأولين ، وهو مصعب بن عمير العبدرى رضى الله عنه .

النجاح المفتبط :

نزل مصعب بن عمير على أسعد بن زرارة ، أخذاً ييثان الإسلام فى أهل يثرب بجدة وحماس ، وكان مصعب يعرف بالمقرئ .

ومن أروع ما يروى من نجاحه فى الدعوة أن أسعد بن زرارة خرج به يوماً يريد دار بنى عبد الأشهل ودار بنى ظفر ، فدخلوا فى حائط من حوائط بنى ظفر ، وجلسا على بشر يقال لها بشر مرق ، واجتمع إليهما رجال من المسلمين - وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير

(١) رحمة للعالمين ١ / ٨٥ وابن هشام ١ / ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ .

(٢) صحيح البخارى ، باب بعد باب حلاوة الإيمان ١ / ٧ ، باب وفود الأنصار ١ / ٥٥٠ ، ٥٥١ واللفظ من هذا الباب ، وباب قوله تعالى : إذا جاءك المؤمنات ٢ / ٧٢٧ ، باب الحدود كفارة ٢ / ١٠٠٣ .

سيداً قومهما من بنى عبد الأشهل يومئذ على الشرك - فلما سمعا بذلك قال سعد لأسيد : اذهب إلى هذين اللذين قد أتيا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما ، وانهما عن أن يأتيا دارينا فإن أسعد ابن زرارة ابن خالتي ، ولولا ذلك لكفيتك هذا .

فأخذ أسيد حربته وأقبل إليهما ، فلما رآه أسعد قال لمصعب : هذا سيد قومك قد جاءك فاصدق الله فيه ، قال مصعب : إن يجلس أكلمه . وجاء أسيد فوقف عليهما متشتما ، وقال : ما جاء بكما إلينا ؟ تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة ، فقال له مصعب : أو تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمرا قبلته ، وإن كرهته كف عنك ما تكره ، فقال : أنصفت ، ثم ركز حربته وجلس ، فكلمه مصعب بالإسلام ، وتلا عليه القرآن . قال : فوالله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم ، في إشراقه وتهلله ، ثم قال : ما أحسن هذا وأجمله ؟ كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين ؟

قالا له : تغتسل و تطهر ثوبك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلى ركعتين . فقام واغتسل ، وطهر ثوبه ، وتشهد وصلى ركعتين ، ثم قال : إن ورائي رجلا إن تبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ، وسأرشدك إليكما الآن - سعد بن معاذ - ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد في قومه ، وهم جلوس في ناديهم ، فقال سعد : أحلف بالله لقد جاءكم بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم .

فلما وقف أسيد على النادى قال له سعد : ما فعلت ؟ فقال : كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأسا ، وقد نهيتهما فقالا : نفعل ما أحببت .

وقد حدثت أن بنى حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه - وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتي - ليخفروك ، فقام سعد مغضبا للذي ذكر له ، فأخذ حربته ، وخرج إليهما ، فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيدا إنما أراد منه أن يسمع منهما ، فوقف عليهما متشتما ، ثم قال لأسعد بن زرارة : والله يا أبا أمامة لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني ، تغشانا في دارنا بما نكره ؟

وقد كان أسعد قال لمصعب : جاءك والله سيد من ورائه قومه ، إن يتبعك لم يتخلف عنك منهم أحد ، فقال مصعب لسعد بن معاذ : أو تقعد فتسمع ؟ فإن رضيت أمرا قبلته ، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره ؟ قال : قد أنصفت ، ثم ركز حربته فجلس ، فعرض عليه الإسلام ، وقرأ عليه القرآن ، قال : فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم ، في إشراقه وتهلله ، ثم قال : كيف تصنعون إذا أسلمتم ؟ قالوا : تغتسل و تطهر ثوبك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلى ركعتين . ففعل ذلك .

ثم أخذ حربته ، فأقبل إلى نادى قومه ، فلما رأوه قالوا : نحلف بالله لقد رجع بغير

الوجه الذى ذهب به .

فلما وقف عليهم قال : يا بنى عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ قالوا : سيدنا وأفضلنا رأيا ، وأيمننا نقيبة ، قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله . فما أمسى فيهم رجل ولا امرأة إلا مسلما ومسلمة إلا رجل واحد - وهو الأصيرم - تأخر إسلامه إلى يوم أحد ، فأسلم ذلك اليوم وقاتل وقتل ، ولم يسجد لله سجدة ، فقال النبي ﷺ : « عمل قليلا وأجر كثيرا » .

وأقام مصعب فى بيت أسعد بن زرارة يدعو الناس إلى الإسلام ، حتى لم تبق دار من دور الأنصار ولا وفيها رجال ونساء مسلمون ، إلا ما كان من دار بنى أمية بن زيد وخطمة ووائل ، كان فيهم قيس بن الأسلت الشاعر - وكانوا يطيعونه - فوقف بهم عن الإسلام حتى كان عام الخندق سنة خمس من الهجرة .

وقبل حلول موسم الحج التالى - أى حج السنة الثالثة عشر - عاد مصعب بن عمير إلى مكة ، يحمل إلى رسول الله ﷺ بشائر الفوز ، ويقص عليه خبر قبائل يثرب وما فيها من مواهب الخير ، ومالها من قوة ومنعة (١) .

بيعة العقبة الثانية

فى موسم الحج فى السنة الثالثة عشرة من النبوة - يونيو و سنة ٦٢٢ م - حضر لأداء مناسك الحج بضع وسبعون نفسا من المسلمين من أهل يثرب ، جاءوا ضمن حجاج قومهم من المشركين ، وقد تساءل هؤلاء المسلمون فيما بينهم - وهم لم يزالوا فى يثرب أو كانوا فى الطريق - حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطوف ويتردد فى جبال مكة ويخاف ؟

فلما قدموا مكة جرت بينهم وبين النبي ﷺ اتصالات سرية ، أدت إلى اتفاق الفريقين على أن يجتمعوا فى أوسط أيام التشريق فى الشعب الذى عند العقبة حيث الجمرة الأولى من منى ، وأن يتم هذا الاجتماع فى سرية تامة فى ظلام الليل .

ولنترك أحد قادة الأنصار يصف لنا هذا الاجتماع التاريخى ، الذى حول مجرى الأيام فى صراع الوثنية والإسلام ، يقول كعب بن مالك الأنصارى رضى الله عنه :

« خرجنا إلى الحج ، وواعدنا رسول الله ﷺ فى العقبة من أوسط أيام التشريق ، وكانت الليلة التى واعدنا رسول الله ﷺ لها ، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام ، سيد من

(١) ابن هشام ١ / ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، و ٢ / ٩٠ ، وزاد المعاد ٢ / ٥١ .

ساداتنا وشريف من أشرافنا ، أخذناه معنا - وكنا نكتب من معنا من قومنا من المشركين أمرنا - فكلمناه ، وقلنا له : يا أبا جابر إنك سيد من ساداتنا ، وشريف من أشرافنا ، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون خطيبا للنار غدا ، ثم دعونا إلى الإسلام وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة ، قال : فأسلم وشهد معنا العقبة ، وكان نقيبا .

قال كعب : « فمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلل القطا مستخفين ، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان من نسائنا ؛ نسيبة بنت كعب - أم عمارة - من بنى مازن بن النجار ، وأسماء بنت عمرو - أم منيع - من بنى سلمة . »

فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ، ومعه (عمه) العباس بن عبد المطلب - وهو يومئذ على دين قومه - إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ، وتوثق له وكان أول متكلم (١) .

بداية المحادثة وتشريح العباس لخطورة المسؤولية :

وبعد أن تكامل المجلس بدأت المحادثات لإبرام التحالف الديني والعسكري ، وكان أول المتكلمين هو العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ . تكلم ليشرح لهم - بكل صراحة - خطورة المسؤولية التي ستلقى على كواهلهم نتيجة هذا التحالف . قال :

« يا معشر الخزرج - وكان العرب يسمون الأنصار خزرجا ، خزرجها وأوسها كليهما - إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عز من قومه ، ومنعة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم والحق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه ، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده » .

قال كعب : فقلنا له : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت (٢) .

وهذا الجواب يدل على ما كانوا عليه من عزم وتصميم وشجاعة وإيمان وإخلاص في تحمل هذه المسؤولية العظيمة ، وتحمل عواقبها الخطيرة .

(٢) نفس المصدر ١ / ٤٤١ ، ٤٤٢

(١) ابن هشام ١ / ٤٤٠ ، ٤٤١ .

وألقي رسول الله ﷺ بعد ذلك بيانه ، ثم تمت البيعة .

بنود البيعة:

وقد روى ذلك الإمام أحمد عن جابر مفضلاً . قال جابر : قلنا يا رسول الله على ما نبايعك ؟ قال :

- ١ - على السمع والطاعة فى النشاط والكسل . ٢ - وعلى النفقة فى العسر واليسر .
- ٣ - وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .
- ٤ - وعلى أن تقوموا فى الله لا تأخذكم فى الله لومة لائم .
- ٥ - وعلى أن تنصرونى إذا قدمت إليكم ، وتمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ، ولكم الجنة (١) .

وفى رواية كعب - التى رواها ابن إسحاق - البند الأخير فقط من هذه البنود ، ففيه « قال كعب : فتكلم رسول الله ﷺ ، فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب فى الإسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم . فأخذ البراء بن معمر بيده ثم قال : نعم ، والذي بعثك بالحق (نبيا) لنمنعك مما تمنع أزرا (٢) منه ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن أبناء الحرب وأهل الحلقة ، ورثناها كابرا (عن كابر) .

قال : فاعترض القول - والبراء يكلم رسول الله ﷺ - أبو الهيثم بن التيهان ، فقال : يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالا ، وإنا قاطعوها - يعنى اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

قال : فتبسم رسول الله ﷺ ، ثم قال : بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم وأنت منى ، أحارب من حاربتهم ، وأسالم من سالمهم (٣) .

التأكيد من خطورة البيعة :

وبعد أن تمت المحادثة حول شروط البيعة ، وأجمعوا على الشروع فى عقدها قام رجلان من الرعيل الأول ممن أسلموا فى مواسم سنتى ١١ ، ١٢ من النبوة ، قام أحدهما تلو الآخر ليؤكد للقوم خطورة المسئولية ، حتى لا يبايعوه إلا على جليلة من الأمر ، وليعرفا

(١) رواه الإمام أحمد بإسناد حسن ، وصححه الحاكم وابن حبان ، انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ١٥٥ وروى ابن إسحاق ما يشبه هذا عن عبادة بن الصامت ، وفيه بند زائد وهو « أن لا ننازع الأمر أهله » انظر ابن هشام ١ / ٤٥٤

(٢) العرب تكنى عن المرأة بالإزار وتكنى أيضا بالإزار عن النفس .

(٣) ابن هشام ١ / ٤٤٢ .

مدى استعداد القوم للتضحية ويتأكد من ذلك .

قال ابن إسحاق : لما اجتمعوا للبيعة قال العباس بن عباد بن نضلة : هل تدرون علام تباعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم ، قال : إنكم تباعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرفكم قتلاً أسلمتموه ، فمن الآن فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة .

قالو : فإننا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك ؟ قال : الجنة . قالوا ابسط يدك ، فبسط يده فباعوه (١) .

وفى رواية جابر (قال) : فقمنا نباعه ، فأخذ بيده أسعد بن زرارة - وهو أصغر السبعين - فقال رويدا يا أهل يثرب ، إنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ، وأن إخراجهم اليوم مفارقة العرب كافة ، وقتل خياركم ، وأن تعضكم السيوف ، فإما أنتم تصبرون على ذلك فخذوه ، وأجركم على الله ، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو أعذر لكم عند الله . (٢) .

عقد البيعة :

وبعد إقرار بنود البيعة ، وبعد البيعة هذا التأكيد والتأكد بدأ عقد البيعة بالمصافحة ، قال جابر - بعد أن حكى قول أسعد بن زرارة - : فقالوا يا أسعد ، امط عنا يدك ، فوالله لا نذر هذه البيعة ، ولا نستقبلها (٣) .

وحيث عرف أسعد مدى استعداد القوم للتضحية فى هذا السبيل ، وتأكد منه - وكان هو الداعية الكبير مع مصعب بن عمير ، وبالطبع فكان هو الرئيس الدينى على هؤلاء المبايعين - فكان هو السابق إلى هذه البيعة . قال ابن إسحاق : فبنو النجار يزعمون أن أبا أمانة بن زرارة كان أول من ضرب على يده (٤) .

وبعد ذلك بدأت البيعة العامة ، قال جابر : فقمنا إليه رجلاً رجلاً فأخذ علينا البيعة ، يعطينا بذلك الجنة (٥) .

وأما بيعة المرأتين اللتين شهدتا الواقعة فكانت قولاً . ما صافح رسول الله ﷺ امرأة أجنبية قط (٦) .

(١) ابن هشام ١ / ٤٤٢ (٢) رواه الإمام أحمد من حديث جابر . (٣) نفس المصدر .

(٤) قال ابن إسحاق : وبنو عبد الأشهل يقولون : بل أبو الهيثم بن التيهان ، وقال كعب بن مالك : بل البراء بن معرور (ابن هشام ١ / ٤٤٧) قلت : لعلمهم حسبوا ما دار بينهما وبين الرسول ﷺ بيعة ، وإلا فأحرى الناس بالتقديم إذ ذاك هو أسعد بن زرارة . والله أعلم (٥) مسند الإمام أحمد . (٦) انظر صحيح مسلم باب كيفية بيعة النساء ٢ / ١٣١ .

اثنا عشر نقيبا :

وبعد أن تمت البيعة طلب رسول الله ﷺ انتخاب اثني عشر زعيما يكونون نقباء على قومهم ، يكفلون المسؤولية عنهم في تنفيذ بنود هذه البيعة ، فقال للقوم: أخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيبا ؛ ليكونوا على قومكم بما فيهم .

فتم انتخابهم في الحال ، وكانوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس .
وهاك أسماؤهم :

نقباء الخزرج

- ١ - أسعد بن زرارة بن عدس .
- ٢ - سعد بن الربيع بن عمرو .
- ٣ - عبد الله بن رواحة بن ثعلبة .
- ٤ - رافع بن مالك بن العجلان .
- ٥ - البراء بن معرور بن صخر .
- ٦ - عبد الله بن عمرو بن حرام .
- ٧ - عبادة بن الصامت بن قيس .
- ٨ - سعد بن عبادة بن دليم .
- ٩ - المنذر بن عمرو بن خنيس .

نقباء الأوس :

- ١ - أسيد بن حضير بن سماك .
- ٢ - سعد بن خيثمة بن الحارث .
- ٣ - رفاعة بن عبد المنذر بن زبير (١) .

ولما تم انتخاب هؤلاء النقباء أخذ عليهم النبي ﷺ ميثاقا آخر بصفتهم رؤساء مسئولين .

قال لهم : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحوارين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي - يعني المسلمين - قالوا : نعم (٢) .

شيطان يكتشف المعاهدة :

ولما تم إبرام المعاهدة ، وكان القوم على وشك الانفضاض ، اكتشفها أحد الشياطين ، وحيث جاء هذا الاكتشاف في اللحظة الأخيرة ، ولم يكن يمكن إبلاغ زعماء قريش هذا الخبر سرا ليباغتوا المجتمعين وهم في الشعب ؛ قام ذلك الشيطان على مرتفع من الأرض ، وصاح بأنفذ صوت سمع قط :

(١) زبير بالباء الموحدة ، وقيل : بالنون . وقد قيل بدل رفاعة ، أبر الهيثم بن التيهان .

(٢) ابن هشام ١ / ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٦ .

« يا أهل الأنخاب - المنازل - هل لكم في محمد والصبابة معه ؟ قد اجتمعوا على حربكم » .

فقال رسول الله ﷺ « هذا أذب العقبة ، أما والله يا عدو الله لأتفرغن لك » . ثم أمرهم أن ينفضوا إلى رحالهم (١) .

استعداد الأنصار لضرب قريش :

وعند سماع صوت هذا الشيطان قال العباس بن عباد بن نضلة : « والذي بعثك بالحق ، إن شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيا فنا » . فقال رسول الله ﷺ : لم نأمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم ، فرجعوا وناموا حتى أصبحوا (٢) .

قريش تقدم الاحتجاج إلى رؤساء يثرب :

ولما قرع هذا الخبر آذان قريش وقعت فيهم ضجة أثارت القلاقل والأحزان ، لأنهم كانوا على معرفة تامة من عواقب مثل هذه البيعة ونتائجها بالنسبة إلى أنفسهم وأموالهم ، فما إن أصبحوا حتى توجه وفد كبير من زعماء مكة وأكابر مجرميها إلى مخيم أهل يثرب ليقدم احتجاجه الشديد على هذه المعاهدة . فقد قال :

« يا معشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله مامن حى من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم » (٣) .

ولما كان مشركو الخزرج لا يعرفون شيئا عن هذه البيعة ، لأنها تمت فى سرية تامة ، وفى ظلام الليل ، انبعث هؤلاء المشركون يحلفون بالله : ما كان من شىء ، وما علمناه ، حتى أتوا عبد الله بن أبى بن سلول ، فجعل يقول : هذا باطل وما كان هذا ، وما كان قومى ليفتاتوا على مثل هذا ، لو كنت يثرب ما صنع قومى هذا حتى يؤامرونى .

أما المسلمون فنظر بعضهم إلى بعض ، ثم لاذوا بالصمت ، فلم يتحدث أحد منهم بنفى أو إثبات . ومال زعماء قريش إلى تصديق المشركين ، فرجعوا خائبين .

تأكد الخبر لدى قريش ومطاردة المبايعين :

عاد زعماء مكة وهم على شبه اليقين من كذب هذا الخبر ، لكنهم لم يزالوا ينتظرونه - يكترون البحث عنه ويدققون النظر فيه - حتى تأكد لديهم أن الخبر صحيح ، والبيعة قد تمت فعلا . وذلك بعد ما نفر الحجيج إلى أوطانهم ، فسارع فرسانهم بمطاردة اليثريين ،

(١) زاد المعاد ٢ / ٥١ . (٢) ابن هشام ١ / ٤٤٨ . (٣) نفس المصدر ١ / ٤٤٨ .

ولكن بعد فوات الأوان ، إلا أنهم تمكنوا من رؤية سعد بن عباد ، والمنذر بن عمرو ، فطار دوهما ، فأما المنذر فأعجز القوم ، وأما سعد فألقوا القبض عليه ، فربطوا يديه إلى عنقه بنسج رحله ، وجعلوا يضربونه ويجرونه ويجرون شعره حتى أدخلوه مكة ، فجاء المطعم بن عدي والحارث بن حرب بن أمية فخلصاه من أيديهم . إذ كان سعد يجير لهما قوافلهما المارة بالمدينة ، وتشاورت الأنصار حين فقدوه أن يكرروا إليه ، فإذا هو قد طلع عليهم ، فوصل القوم جميعا إلى المدينة (١) .

هذه هي بيعة العقبة الثانية - التي تعرف ببيعة العقبة الكبرى - وقد تمت في جو تعلوه عواطف الحب والولاء والتناصر بين أشتات المؤمنين ، والثقة والشجاعة والاستبسال في هذا السبيل ، فمؤمن من أهل يثرب يحنو على أخيه المستضعف في مكة ، ويتعصب له ، ويغضب من ظالمه ، وتحبش في حناياه مشاعر الود لهذا الأخ الذي أحبه بالغيب في ذات الله .

ولم تكن هذه المشاعر والعواطف نتيجة نزعة عابرة تزول على مر الأيام ، بل كان مصدرها هو الإيمان بالله وبرسوله وبكتبه ، إيمان لا يزول أمام أى قوة من قوات الظلم والعدوان ، إيمان إذا هبت ريحه جاءت بالعجائب في العقيدة والعمل ، وبهذا الإيمان استطاع المسلمون أن يسجلوا على أوراق الدهر أعمالا ، ويتركوا عليها آثارا ، خلا عن نظائرها الغابر والحاضر ، وسوف يخلو المستقبل .

طلائع الهجرة

وبعد أن تمت بيعة العقبة الثانية ، ونجح الإسلام في تأسيس وطن له وسط صحراء تموج بالكفر والجهالة - وهو أخطر كسب حصل عليه الإسلام منذ بداية دعوته - أذن رسول الله ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى هذا الوطن . ولم يكن معنى الهجرة إلا إهدار المصالح ، والتضحية بالأموال ، والنجاة بالشخص فحسب ، مع الإشعار بأنه مستباح منهوب ، قد يهلك في أوائل الطريق أو نهايتها ، وبأنه يسير نحو مستقبل مبهم ، لا يدري ما يتمخض عنه من قلق وأحزان ، وبدأ المسلمون يهاجرون ، وهم يعرفون كل ذلك ، وأخذ المشركون يحولون بينهم وبين خروجهم ، لما كانوا يحسون من الخطر ، وهاك نماذج من ذلك :

١ - كان من أول المهاجرين أبو سلمة - هاجر قبل العقبة الكبرى بسنة على ما قاله ابن إسحاق - وزوجته وابنه ، فلما أجمع على الخروج قال له أصهاره : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه ؟ علام نتركك تسير بها في البلاد ؟ فأخذوا منه زوجته ، وغضب آل أبي سلمة لرجلهم ، فقالوا :

(١) زاد المعاد ٢ / ٥١ ، ٥٢ ، ابن هشام ١ / ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ .

لا نترك ابننا معها إذ نزعتموها من صاحبنا ، وتجادبوا الغلام بينهم فخلعوا يده ، وذهبوا به . وانطلق أبو سلمة وحده إلى المدينة ، وكانت أم سلمة بعد ذهاب زوجها وضياع ابنها تخرج كل غداة بالأبطح تبكي حتى تمسى ، ومضى على ذلك نحو سنة ، فرق لها أحد ذويها وقال : ألا تخرجون هذه المسكينة ؟ فرقم بينها وبين زوجها وولدها فقالوا لها : الحقى بزوجك إن شئت ، فاسترجعت ابنها من عصبتها وخرجت تريد المدينة - رحلة تبلغ خمسمائة كيلو مترا - وليس معها أحد من خلق الله ، حتى إذا كانت بالتنعيم لقيها عثمان بن طلحة بن أبي طلحة ، وبعد أن عرف حالها شيعها حتى أقدمها إلى المدينة ، فلما نظر إلى قباء قال : زوجك فى هذه القرية فادخليها على بركة الله ، ثم انصرف راجعا إلى مكة (١) .

٢ - ولما أراد صهيب الهجرة قال له كفار قريش : أتيتنا صعلوكا حقيرا ، فكثر مالك عندنا ، وبلغت الذى بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ؟ والله لا يكون ذلك . فقال لهم صهيب : أرأيتم إن جعلت لكم مالى ، أتخلون سبيلى ؟ قالوا : نعم . قال : فإنى قد جعلت لكم مالى ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : ربح صهيب ربح صهيب (٢) .

٣ - وتواعد عمر بن الخطاب ، وعياش بن أبى ربيعة ، وهشام بن العاصى بن وائل موضعاً يصبحون عنده ، ثم يهاجرون إلى المدينة ، فاجتمع عمر وعياش وحبس عنهما هشام .

ولما قدما المدينة ونزلا بقباء قدم أبو جهل وأخوه الحارث إلى عياش - وأم الثلاثة واحدة - فقالا له : إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط ، ولا تستظل بشمس حتى تراك ، فرق لها . فقال له عمر : يا عياش ، إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم ، والله لو آذى أمك القمل لامتشطت ، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت ، فأبى عياش إلا الخروج معهما ؛ ليبر قسم أمه ، فقال له عمر : أما إذ قد فعلت ما فعلت فخذ ناقتى هذه فإنها ناقة نجبية ذلول ، فالزم ظهرها ، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها .

فخرج عليها معهما ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل : يا ابن أخى والله لقد استغلظت بعيرى هذا ، أفلا تعقبني على ناقتك هذه : قال : بلى فأناخ وأناخا ليتحول عليها فلما استروا بالأرض عدوا عليه فأوثقاه وربطاه ، ثم دخلا به مكة نهرا موثقا ، وقالا : يا أهل مكة ، هكذا فعلوا بسفهاكم ، كما فعلنا بسفيهننا هذا (٣) .

(٢) نفس المصدر ١ / ٤٧٧ .

(١) ابن هشام ١ / ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ .

(٣) بقى هشام وعياش فى قيد الكفار حتى إذا هاجر رسول الله ﷺ قال يوما : من لى بعياش وهشام ؟ فقال الوليد بن الوليد : أنا لك يا رسول الله بهما ، فقدم الوليد مكة مستخفيا ، ولقى امرأة تحمل إليهما طعاما فنبعها حتى عرف موضعهما وكانا محبوسين فى بيت لاسقف له ، فلما أمسى تسور الجدار ، وقطع قيديهما وحملهما . على بعيره حتى قدم المدينة انظر ابن هشام ١ / ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، وكان قدوم عمر المدينة فى عشرين من الصحابة

هذه ثلاثة نماذج لما كان المشركون يفعلونه بمن يريد الهجرة إذا علموا ذلك . ولكن مع كل ذلك خرج الناس أرسالا يتبع بعضهم بعضا . وبعد شهرين وبضعة أيام من بيعة العقبة الكبرى لم يبق لمكة من المسلمين إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلى - أقاما بأمره لهما - ولألا من احتبسه المشركون كرها . وقد أعد رسول الله ﷺ جهازه ينتظر متى يؤمر بالخروج ، وأعد أبو بكر جهازه (١) .

روى البخارى عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ للمسلمين إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين - وهما الحرتان - فهاجر من هاجر قبل المدينة ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة ، وتجهز أبو بكر قبل المدينة ، فقال له رسول الله ﷺ على رسلك ، فإني أرجو أن يؤذن لى . فقال له أبو بكر : وهل ترجو ذلك بأبى أنت؟ قال : نعم فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه ، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السم - وهو الخبط - أربعة أشهر (٢) .

فى دار الندوة «برلمان قرىش»

ولما رأى المشركون أصحاب رسول الله ﷺ قد تجهزوا وخرجوا وحملوا وساقوا الدرارى والأطفال والأموال إلى الأوس والخزرج ، وقعت فيهم ضجة أثارت القلاقل ، والأحزان ، وأخذ القلق يساورهم بشكل لم يسبق له مثيل ، فقد تجسد أمامهم الخطر الحقيقى العظيم ، الذى يهدد كيانهم الوثنى والاقتصادى ، فقد كانوا يعلمون ما فى شخصية محمد - ﷺ - من غاية قوة التأثير مع كمال القيادة والإرشاد ، وما فى أصحابه من العزيمة والاستقامة والفداء فى سبيله ، ثم ما فى قبائل الأوس والخزرج من قوة ومنعة ، وما فى عقلاء هاتين القبيلتين من عواطف السلم والصلاح ، والتداعى إلى نبذ الأحقاد فيما بينهما بعد أن ذاقوا مرارة الحروب الأهلية طيلة أعوام من الدهر .

كما كانوا يعرفون ما للمدينة من الموقع الاستراتيجى بالنسبة إلى المحجة التجارية التى تمر بساحل البحر الأحمر من اليمن إلى الشام . وقد كان أهل مكة يتاجرون إلى الشام بقدر ربع مليون دينار ذهب سنويا ، سوى ما كان لأهل الطائف وغيرها . ومعلوم أن مدار هذه التجارة كان على استقرار الأمن فى تلك الطريق .

فلا يخفى ما كان لقرىش من الخطر البالغ فى تمرکز الدعوة الإسلامية فى يثرب ،

(١) زاد المعاد ٢ / ٥٢

(٢) صحيح البخارى ، بابا هجرة النبى ﷺ وأصحابه ١ / ٥٥٣ .

ومجابهة أهلها ضدهم .

شعر المشركون بتفاقم الخطر الذى كان يهدد كيانهم ، فصاروا يبحثون عن أنجع الوسائل لدفع هذا الخطر ، الذى مبعثه الوحيد هو حامل لواء دعوة الإسلام محمد ﷺ .

وفى يوم الخميس ٢٦ من شهر صفر سنة ١٤ من النبوة ، الموافق ١٢ من شهر سبتمبر سنة ٦٢٢ م^(١) - أى بعد شهرين ونصف تقريبا من بيعة العقبة الكبرى - عقد برلمان مكة (دار الندوة) فى أوائل النهار^(٢) أخطر اجتماع له فى تاريخه ، وتوافد إلى هذا الاجتماع جميع نواب القبائل القرشية ليتدارسوا خطة حاسمة تكفل القضاء سريعا على حامل لواء الدعوة الإسلامية وتقطع طيار نورها عن الوجود نهائيا

وكانت الوجوه البارزة فى هذا الاجتماع .

الخطير من نواب قبائل قريش :

- ١- أبو جهل بن هشام ، عن قبيلة بنى مخزوم .
- ٢- جبير بن مطعم ، وطعيمة بن عدى ، والحارث بن عامر ، عن بنى نوفل بن عبد مناف .
- ٣- شهبه وعتبة ابنا ربيعة وأبو سفيان بن حرب ، عن بنى عبد شمس بن عبد مناف .
- ٤- النضر بن الحارث (وهو الذى كان ألقى على رسول الله ﷺ سلا جزور) عن بنى عبد الدار .
- ٥- أبو البختري بن هشام ، وزمعة بن الأسود ، وحكيم بن حزام عن بنى أسد بن عبد العزى .

٦- نبيه ومنبه ابنا الحجاج ، عن بنى سهم .

٧- أمية بن خلف ، عن بنى جمح .

ولما جاءوا إلى دار الندوة حسب الميعاد اعترضهم إبليس فى هيئة شيخ جليل ، عليه بتلة ، ووقف على الباب ، فقالوا : من الشيخ ؟ قال : شيخ من أهل نجد سمع بالذى اتعدتم له ، فحضر معكم ليسمع ما تقولون ، وعسى أن لا يعدمكم منه رأيا ونصحا . قالوا : أجل فادخل فدخل معهم .

(١) أخذنا هذا التاريخ بعد مراجعة التحقيقات التى سجلها العلامة محمد سليمان المنصور فورى فى رحمة للعالمين /١

٩٥ . ٩٧ . ١٠٢ . ٢ / ٤٧١

(٢) يدل على انعقاد الاجتماع فى أوائل النهار ما رواه ابن إسحاق أن جبريل أخبر النبى ﷺ بمؤامرة هذا الاجتماع وأذن فى الهجرة . ثم ما رواه البخارى من حديث عائشة أن النبى ﷺ جاء أبا بكر فى نحر الظهيرة وقال له : « قد أذن فى الخروج » وسأنى .

النقاش البرلماني والإجماع على قرار غاشم بقتل النبي ﷺ :

وبعد أن تكامل الاجتماع بدأ عرض الاقتراحات والحلول ، ودار النقاش طويلا .

قال أبو الأسود نخرجه من بين أظهرنا وننفيه من بلادنا ، ولا نبالي أين ذهب ، ولا حيث وقع ، فقد أصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت .

قال الشيخ النجدي : لا والله ما هذا لكم برأى ، ألم تروا حسن حديثه ، وحلاوة منطقه ، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به ؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنتهم أن يحل على حي من العرب ، ثم يسير بهم إليكم بعد أن يتابعوه - حتى يطأكم بهم في بلادكم ، ثم يفعل بكم ما أراد فروا فيه رأيا غير هذا .

قال أبو البختري : احبسوه في الحديد ، وأغلقوا عليه بابا ، ثم تربصوا به ما أصاب أمثاله من الشعراء الذين كانوا قبله - زهيرا والنابعة - ومن مضى منهم من هذا الموت حتى يصيبه ما أصابهم .

قال الشيخ النجدي : لا والله ما هذا لكم برأى ، والله لئن حبستموه - كما تقولون - ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه ، فلا وشكوا أن يشبوا عليكم ، فينزعه من أيديكم ، ثم يكاثروكم به ، حتى يغلبوا على أمركم . ما هذا لكم برأى ، فانظروا في غيره .

وبعد أن رفض البرلمان هذين الاقتراحين قدم إليه اقتراح آثم وافق عليه جميع أعضائه ، تقدم به كبير مجرمي مكة أبو جهل بن هشام . قال أبو جهل : « والله إن لي فيه رأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد ، قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جليدا نسيبا وسيطا فينا ، ثم نعطي كل فتى منهم سيفا صارما ، ثم يعمدوا إليه ، فيضربوه بها ضربة رجل واحد ، فيقتلوه فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعا ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فرضوا منا بالعقل ، فعقلناه لهم .

قال الشيخ النجدي : القول ما قال الرجل ، هذا الرأي الذي لا أرى غيره ووافق برلمان مكة على هذا الاقتراح الآثم بالإجماع ، ورجع النواب إلى بيوتهم ، وقد صمموا على تنفيذ هذا القرار فورا . (١) .

(١) انظر ابن هشام ١ / ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ .

هجرة النبي ﷺ

ولما تم اتخاذ القرار الغاشم بقتل النبي ﷺ نزل إليه جبريل بوحي ربه تبارك وتعالى ، فأخبره بمؤامرة قريش ، وأن الله قد أذن له في الخروج ، وحدد له وقت الهجرة قائلا : لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه (١) .

وذهب النبي ﷺ في الهجرة إلى أبي بكر رضى الله عنه ليبرم معه مراحل الهجرة قالت عائشة رضى الله عنها : بينما نحن جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر هذا رسول الله - ﷺ - متقنعا في ساعة لم يكن يأتينا فيها ، فقال أبو بكر : فداء له أبي وأمي ، والله ما جاء به في الساعة إلا أمر .

قالت : فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن ، فأذن له ، فدخل ، فقال النبي ﷺ لأبي بكر : أخرج من عندك . فقال أبو بكر إنما هم أهلك ، بأبي أنت يا رسول الله ؟ قال رسول ﷺ : نعم . (٢) .

وبعد إبرام خطة الهجرة رجع رسول الله ﷺ إلى بيته ينتظر مجيء الليل .

تطويق منزل الرسول ﷺ :

أما أكابر مجرمي قريش فقضوا نهارهم في الإعداد لتنفيذ الخطة المرسومة التي أبرمها برلمان مكة « دار الندوة » صباحا ، واختير لذلك أحد عشر رئيسا من هؤلاء الأكابر . وهم :-

- ١ - أبو جهل بن هشام . ٢ - الحكم بن أبي العاص . ٣ - عقبة بن أبي معيط .
- ٤ - النضر بن الحارث . ٥ - أمية بن خلف . ٦ - زمعة بن الأسود .
- ٧ - طعيمة بن عدى . ٨ - (أبو لهب) . ٩ - أبي بن خلف .
- ١٠ - نبيه بن الحجاج . ١١ - أخوه منبه بن الحجاج . (٣) .

قال ابن إسحاق : فلما كانت عتمة الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه متى نام ، فيثبون عليه (٤) .

(١) ابن هشام ١ / ٤٨٢ ، زاد المعاد ٢ / ٥٢ .

(٢) صحيح البخاري ، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه ١ / ٥٥٣ .

(٣) زاد المعاد ٢ / ٥٢ . (٤) ابن هشام ١ / ٤٨٢ .

وكانوا على ثقة ويقين جازم من نجاح هذه المؤامرة الدنية ، حتى وقف أبو جهل وقفة الزهو والخيلاء وقال مخاطبا لأصحابه المطوقين في سخرية واستهزاء : إن محمدا يزعم أنكم إن تابعتموه علي أمره كنتم ملوك العرب والعجم ، ثم بعثتم من بعد موتكم ، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن ، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح ، ثم بعثتم من بعد موتكم ، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها . (١) .

وقد كان ميعاد تنفيذ تلك المؤامرة بعد منتصف الليل ، فباتوا متيقظين ينتظرون ساعة الصفر ، ولكن الله غالب على أمره ، بيده ملكوت السموات والأرض ، يفعل ما يشاء ، وهو يجير ولا يجار عليه ، فقد فعل ما خاطب به رسول الله ﷺ فيما بعد : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين ﴾ (٨ : ٣٠) .

الرسول ﷺ يغادر بيته :

ومع غاية استعداد قريش لتنفيذ خطتهم فقد فشلوا فشلا فاحشا . ففي الساعة الحرجة قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب : نم على فراشي وتسج بيردي هذا الحضرمي الأخضر ، فثم فيه ، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم ، وكان رسول الله ﷺ ينام في برده ذلك إذا نام (٢) .

ثم خرج رسول الله ﷺ واخترق صفوفهم ، وأخذ حفنة من البطحاء فجعل يذرهم على رءوسهم ، وقد أخذ الله أبصارهم عنه فلا يرونه ، وهو يتلو : ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ (٣٦ : ٩) فلم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابا ، ومضى إلى بيت أبي بكر ، فخرجوا من خوخة في دار أبي بكر ليلا حتى لحقا بغار ثور في اتجاه اليمن . (٣) .

وبقى المحاصرون ينتظرون حلول ساعة الصفر ، وقبيل حلولها تجلت لهم الخيبة والفشل ، فقد جاءهم رجل ممن لم يكن معهم ، ورآهم يبابه فقال : ما تنتظرون ؟

قالوا محمدا . قال : خبتهم وخسرتهم ، قد والله مر بكم ، وذرع على رءوسكم التراب ، وانطلق لحاجته ، قالوا والله ما أبصرناه ، وقاموا ينفضون التراب عن رءوسهم .

ولكنهم تطلعوا من صير الباب فرأوا عليا ، فقالوا والله إن هذا لمحمد نائما ، عليه برده ، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا . وقام على عن الفراش ، فسقط في أيديهم ،

(١) ابن هشام ١ / ٤٨٢ .

(٢) نفس المصدر ١ / ٤٨٣ .

(٣) نفس المصدر ١ / ٤٨٣ .

وسألوه عن رسول الله ﷺ ، فقال لا علم لى به . (١) .

من الدار إلى الغار :

غادر رسول الله ﷺ بيته في ليلة ٢٧ من شهر صفر سنة ١٤ من النبوة الموافق ١٢ / ١٣ سبتمبر سنة ٦٢٢ م (٢) . وأتى إلى دار رفيقه - وأمن الناس عليه في صحبته وماله - أبي بكر رضى الله عنه . ثم غادرا منزل الأخير من باب خلفى ، ليخرجا من مكة على عجل ، وقبل أن يطلع الفجر .

ولما كان النبي ﷺ يعلم أن قريشا ستجد في الطلب ، وأن الطريق الذى ستتجه إليه الأنظار لأول وهلة هو طريق المدينة الرئيسى المتجه شمالا ، فقد سلك الطريق الذى يضاده تماما ، وهو الطريق الواقع جنوب مكة ، والمتجه نحو اليمن .

سلك هذا الطريق نحو خمسة أميال ، حتى بلغ إلى جبل يعرف بجبل ثور ، وهذا جبل شامخ ، وعرة الطريق ، صعب المرتقى ، ذا أحجار كثيرة ، فحفيت قدما رسول الله ﷺ ، وقيل : بل كان يمشى فى الطريق على أطراف قدميه كى يخفى أثره فحفيت قدماه وأيا ما كان ؛ فقد حمله أبو بكر حين بلغ إلى الجبل ، وطفق يشتد به حتى انتهى به إلى غار فى قمة الجبل ، عرف فى التاريخ بغار ثور (٣) .

إذا هما فى الغار :

ولما انتهى إلى الغار قال أبو بكر : والله لا تدخله حتى أدخله قبلك . فإن كان فيه شئ أصابني دونك ، فدخل فكسحه ، ووجد فى جانبه ثوبا فشق إزاره وسدها به ، وبقي منها اثنان فألقمهما رجليه ، ثم قال لرسول الله ﷺ ادخل فدخل رسول الله ﷺ ، ووضع رأسه فى حجره ونام ، فلدغ أبو بكر فى رجله من الجحر ، ولم يتحرك مخافة أن ينتبه رسول الله ﷺ ، فسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ ، فقال : مالك يا أبا بكر ؟ قال لدغت ، فذاك أبى وأمى ، فتفل رسول الله ﷺ ، فذهب ما يجده (٤) .

(١) نفس المصدرين السابقين .

(٢) رحمة للعالمين ١ / ٩٥ - ويكون شهر صفر هذا من السنة الرابعة عشر من النبوة إذا فرضنا بداية السنين من شهر محرم ، وأما إذا بدأنا السنين من الشهر الذى أكرم الله فيه نبيه ﷺ بالنبوة ، فيكون شهر صفر هذا من السنة الثالثة عشر قطعاً . وعامة من يكتب فى السيرة ربما يختار هذا ، وربما يختار ذلك ، فكثيرا ما يتخبط فى ترتيب الوقائع ، ويقع فى أغلاط ونظرا إلى ذلك اخترنا بداية السنين من شهر محرم .

(٣) رحمة للعالمين ١ و ٩٥ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ١٦٧ .

(٤) رواه زين عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وفيه ثم انتقض عليه (أى رجع أثر السم حين موته) وكان سبب موته . انظر مشكاة المصابيح ، باب مناقب أبى بكر ٥٥٦ / ٢ .

وكمنا فى الغار ثلاث ليال ، ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد (١) . وكان عبد الله بن أبى بكر يبيت عندهما . قالت عائشة : وهو غلام شاب ثقف لقن ، فيدلج من عندهما بسحر ، فيصبح مع قريش بمكة كبائت ، فلا يسمع أمرا يكتادان به إلا وعاه ، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام . و (كان) يرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبى بكر منحة من غنم ، فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء ، فيبيتان فى رسل - وهو لهن منحتهما ورضيفهما - حتى ينق بهما عامر بن فهيرة بغلس ، يفعل ذلك فى كل ليلة من تلك الليالى الثلاث (٢) . وكان عامر بن فهيرة يتبع بغنمه أثر عبد الله بن أبى بكر بعد ذهابه إلى مكة ليعفى عليه (٣) .

أما قريش فقد جن جنونها حينما تأكد لديها إفلات رسول الله ﷺ صباح ليلة تنفيذ المؤامرة . فأول ما فعلوا بهذا الصدد أنهم ضربوا عليا ، وسحبوه إلى الكعبة ، وحبسوه ساعة ، عليهم يظفرون بخبرهما (٤) .

ولما لم يحصلوا من على على جدوى جاءوا إلى بيت أبى بكر ، وقرعوا بابه ، فخرجت إليهم أسماء بنت أبى بكر ، فقالوا لها : أين أبوك ؟ قالت : لا أدري والله أين أبى ؟ فرفع أبو جهل يده - وكان فاحشا خبيثا - فلطم خدها لطمة طرح منها قرطها (٥) .

وقررت قريش فى جلسة طارئة مستعجلة استخدام جميع الوسائل التى يمكن بها القبض على الرجلين ، فوضعت جميع الطرق النافذة من مكة (فى جميع الجهات) تحت المراقبة المسلحة الشديدة ، كما قررت إعطاء مكافأة ضخمة قدرها مائة ناقة بدل كل واحد منهما لمن يعيدهما إلى قريش حيين أو ميتين ، كائنا من كان . (٦) .

وحيث جددت الفرسان والمشاة وقصاص الأثر فى الطلب ، وانتشروا فى الجبال والوديان ، والوهاد والهضاب ، لكن من دون جدوى وبغير عائدة .

وقد وصل المطاردون إلى باب الغار ، ولكن الله غالب على أمره ، روى البخارى عن أنس عن أبى بكر قال : كنت مع النبى ﷺ فى الغار فرفعت رأسى ، فإذا أنا بأقدام القوم ، فقلت يا نبى الله لو أن بعضهم طأطأ بصره رأنا .

قال : اسكت يا أبا بكر ، اثنان الله ثالثهما ، وفى لفظ ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله

(١) انظر فتح البارى ٣٣٦ / ٧ . (٢) صحيح البخارى ١ / ٥٥٣ ، ٥٥٤ . (٣) ابن هشام ٤٨٦ / ١

(٤) رحمة للعالمين ١ / ٩٦ . (٥) ابن هشام ٤٨٧ / ١ .

(٦) انظر صحيح البخارى ١ / ٥٥٤ .

وقد كانت معجزة أكرم الله بها نبيه ﷺ ، فقد رجع المطاردون حين لم يبق بينه وبينهم إلا خطوات معدودة .

في الطريق إلى المدينة :

وحين خمدت نار الطلب ، وتوقفت أعمال دوريات التفتيش ، وهدأت نائرات قريش بعد استمرار المطاردة الحثيثة ثلاثة أيام بدون جدوى ، تهيأ رسول الله ﷺ وصاحبه للخروج إلى المدينة .

وكانا قد استأجرا عبد الله بن أريقط الليثي ، وكان هاديا خريتا - ماهرا بالطريق - وكان على دين كفار قريش ، وأمناه على ذلك وسلما إليه راحلتيهما ، وواعده غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما ، فلما كانت ليلة الإثنين - غرة ربيع الأول سنة ١ هـ / ١٦ سبتمبر سنة ٦٢٢ م - جاءهما عبد الله ابن أريقط بالراحلتين وحينئذ قال أبو بكر للنبي ﷺ : بأبي أنت يا رسول الله ، خذ إحدى راحلتي هاتين . وقرب إليه أفضلهما . فقال رسول الله ﷺ : بالثمن .

وأنتهما أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما بسفرتيهما ، ونسيت أن تجعل لها عصاما ، فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفارة فإذا ليس لها عصام ، فشقت نطاقها بائنين ، فعلقت السفارة بواحد ، وانتطقت بالآخر ، فسميت ذات النطاقين (٢) .

ثم ارتحل رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه ، وارتحل معهم عامر بن فهيرة وأخذ بهم الدليل - عبد الله بن أريقط - على طريق السواحل .

وأول ما سلك بهم بعد الخروج من الغار أنه أمعن في اتجاه الجنوب نحو اليمن ، ثم اتجه غربا نحو الساحل ، حتى إذا وصل إلى طريق لم يألفه الناس اتجه شمالا على مقربة من شاطئ البحر الأحمر ، وسلك طريقا لم يكن يسلكه أحد إلا نادرا .

وقد ذكر ابن إسحاق الموضع التي مر بها رسول الله ﷺ في هذا الطريق قال : لما خرج بهما الدليل سلك بهما أسفل مكة ، ثم مضى بهما على الساحل حتى عارض الطريق أسفل من عسفان ، ثم سلك بهما على أسفل أمج ، ثم استجاز بهما حتى عارض

(١) صحيح البخارى ١/ ٥١٦ ، ٥٥٨ ، ولم يكن فزع أبى بكر مخافة على نفسه ، بل سببه الوحيد هو ما روى أن أبا بكر لما رأى القافة اشتد حزنه على رسول الله ﷺ وقال : إن قتلت فإنما أنا رجل واحد ، وإن قتلت أنت هلكت الأمة ، فعندها قال له رسول الله ﷺ ﴿ لا تحزن إن الله معنا ﴾ انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي رحمه الله .

بهما الطريق بعد أن أجاز قديدا ، ثم أجاز بهما من مكانه ذلك ، فسلك بهما الخرار ، ثم سلك بهما ثنية المرة ، ثم سلك بهما لقفا ، ثم أجاز بهما مدلجة لقف ، ثم استبطن بهما مدلجة مجاح ، ثم سلك بهما مرجح مجاح ، ثم تبطن بهما مرجح ذى الغضوين ، ثم بطن ذى كشر ، ثم أخذ بهما على الجدادج ، ثم على الأجرد ، ثم سلك بهما ذا سلم ، من بطن أعداء مدلجة تعهن ، ثم على العبايد ، ثم أجاز بهما الفاجة ، ثم هبط بهما العرج ، ثم سلك بها ثنية العائر - عن يمين ركوبة - حتى هبط بهما بطن رثم ، ثم قدم بهما على قباء (١) .
وهاك بعض ما وقع فى الطريق :

١ - روى البخارى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال : أسرينا ليلتنا ومن الغد حتى قام قائم الظهيرة ، وخلا الطريق ، لا يمر فيه أحد ، فرفعت لنا صخرة طويلة لها ظل لم تأت عليها الشمس ، فنزلنا عنده ، وسويت للنبي ﷺ مكانا بيدي ، ينام عليه ، وبسطت عليه فروة ، وقلت : نم يا رسول الله ، وأنا أنفض لك ما حولك ، فنام ، وخرجت أنفض ما حوله ، فإذا أنا براع مقبل بغنمه إلى الصخرة ، يريد منها مثل الذى أردنا ، فقلت له : لمن أنت يا غلام ؟ فقال : لرجل من أهل المدينة أو مكة . قلت : أفى غنمك لبن ؟ قال : نعم .
قلت : أفتحلب ؟ قال : نعم

فأخذ شاة ، فقلت : انفض الضرع من التراب والشعر والقذى ، فحلبفى كعب كثبة من لبن ، ومعى إداة حملتها للنبي ﷺ ، يرتوى منها ، يشرب ويتوضأ ، فأتيت النبي ﷺ ، فكرهت أن أوقفه ، فوافقته حين استيقظ ، فصبيت من الماء على اللبن حتى برد أسفله ، فقلت : اشرب يا رسول الله ، فشرب حتى رضيت ، ثم قال : ألم يأن الرحيل ؟ قلت بلى ، قال : فارتحلنا (٢) .

٢ - كان من دأب أبى بكر رضى الله عنه أنه كان ردفا للنبي ﷺ ، وكان شيخا يعرف ، ونبى الله ﷺ شاب لا يعرف ، فيلقى الرجل أبا بكر فيقول : من هذا الرجل الذى بين يديك ؟ فيقول هذا الرجل يهدينى الطريق ، فيحسب الحاسب أنه يعنى به الطريق وإنما يعنى سبيل الخير (٣) .

٣ - وتبعهما فى الطريق سراقة بن مالك . قال سراقة : بينما أنا جالس فى مجلس من مجالس قومى بنى مدلج ، أقبل رجل منهم حتى قام علينا ، ونحن جلوس ، فقال يا سراقة ، إني رأيت آنفا أسودة بالساحل ، أراها محمدا وأصحابه . قال سراقة : فعرفت أنهم هم فقلت له إنهم ليسوا بهم ، ولكنك رأيت فلانا وفلانا انطلقوا بأعيننا ، ثم لبثت فى المجلس ساعة ، ثم قمت فدخلت ، فأمرت جاريتى أن تخرج فرسى ، وهى من وراء أكمة ،

(٢) صحيح البخارى ١ / ٥١٠ .

(١) ابن هشام ١ / ٤٩١ ، ٤٩٢ .

(٣) روى ذلك البخارى عن أنس ١ / ٥٥٦ .

فتحبسها على ، وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت ، فخططت بزجه الأرض ،
 وخفضت عاليه ، حتى أتيت فرسى ، فركبتها فعرقتها تقرب بي حتى دنوت منهم ، فعثرت
 بي فرسى فخررت عنها ، فقممت فأهويت يدي إلى كنانتي ، فاستخرجت منها الأزام ،
 فاستقسمت بها ، أضرهم أم لا ؟ فخرج الذي أكره ، فركبت فرسى وعصيت الأزام ،
 تقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ - وهو لا يلتفت ، وأبو بكر يكثّر الالتفات -
 سابحت يدا فرسى في الأرض ، حتى بلغنا الركبتين ، فخررت عنها ، ثم زجرتها فنهضت
 لم تكد تخرج يديها ، فلما استوت قائمة إذ لأثر يديها غبار ساطع في السماء مثل الدخان ،
 فاستقسمت بالأزام ، فخرج الذي أكره ، فناديتهم بالأمان ، فوقفوا ، فركبت فرسى حتى
 جثتهم ، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله
 ﷺ ، فقلت له ، إن قومك قد جعلوا فيك الدية ، وأخبرتكم أخبار ما يريد الناس بهم ،
 وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزأني ، ولم يسألاني إلا أن قال : أخف عنا ، فسألته أن
 يكتب لي كتاب أمن ، فأمر عامر بن فهيرة ، فكتب لي في رقعة من آدم ، ثم مضى رسول
 الله ﷺ (١) .

وفي رواية عن أبي بكر قال : ارتحلنا ، والقوم يطلبوننا ، فلم يدركنا منهم أحد غير
 سراقه بن مالك بن جعشم على فرس له ، فقلت : هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله
 فقال : ﴿ لا تحزن إن الله معنا ﴾ (٢) .

ورجع سراقه فوجد الناس في الطلب ، فجعل يقول : قد استبرأت لكم الخبر ، قد
 كفيتهم ما همنا ، وكان أول النهار جاهداً عليهما ، وآخره حارساً لهما . (٣)

٤ - ومرفى سير مسير ذلك حتى مر بخيمتي أم معبد الخزاعية ، وكانت امرأة برزة
 جلدة تحبى بفناء الخيمة ، ثم تطعم وتسقى من مر بها فسألاها : هل عندها شيء ؟
 فقالت : والله لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى والشاء عازب ، وكانت سنة شهباء .

فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة ، فقال : ما هذه الشاة يا أم معبد؟ قالت
 : شاة خلفها الجهد عن الغنم ، فقال : هل بها من لبن ؟ قالت : هي أجهد من ذلك . فقال :
 أتأذنين لي أن أحلبها ؟ قالت : نعم بأبي وأمي ، وإن رأيت بها حلباً فاحلبها . فمسح رسول
 الله ﷺ بيده ضرعها ، وسمى الله ودعا ، فتفاجت عليه ودرت ، فدعا بإناء لها يربض
 الرهط ، فحلب فيه حتى علت الرغوة ، فسقاها ، فشربت حتى رويت ، وسقى أصحابه
 حتى رووا ، ثم شرب ، وحلب فيه ثانياً ، حتى ملأ الإناء ، ثم غادره عندها فارتحلوا .

(١) البخارى ١ / ٥٥٤ - وكان مقر/ مدلج بالقرب من رابغ ، وتبعهما سراقه حينما كان مصعبين من قديد - زاد

المعاد ٢ / ٥٣ - فالأغلب أنه تبعهما في اليوم الثالث من رحيلهما .

(٣) زاد المعاد ٢ / ٥٣ .

(٢) صحيح البخارى ١ / ٥١٦ .

فما لبثت أن جاء زوجها أبو معبد يسوق عنوزاً عجافاً يتساوكن هزلاً ، فلما رأى اللبن عجب ، فقال : من أين لك هذا ؟ والشاة عازب ، ولا حلوبة في البيت ؟ فقالت : لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت ، ومن حاله كذا وكذا ، قال : إني والله أراه صاحب قریش الذي تطلبه ، صفيه لي يا أم معبد ، فوصفته بصفاته الرائعة بكلام رائع كأن السامع ينظر إليه وهو أمامه وسنقله في بيان صفاته ﷺ في أواخر المقالة - فقال أبو معبد : والله هذا صاحب قریش الذي ذكروا من أمره ما ذكروا ، لقد هممت أن أصحبه ، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً ، وأصبح صوت بمكة عالياً يسمعون ولا يرون القائل :

جزى الله رب العرش خير جزائه	رفيقين حلاً خيمتى أم معبد
هما نزل بالبر وارتحلا به	وأفلح من أمسى رفيق محمد
فيا لقصى ما زوى الله عنكم	به من فعال لا يحاذى وسؤدد
ليهن بنى كعب مكان فتاتهم	ومقعداً للمؤمنين بمرصدد
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها	فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد

قالت أسماء : ما درينا أين توجه رسول الله ﷺ إذ أقبل رجل من الجن من أسفل مكة فأنشد هذه الأبيات ، والناس يتبعونه ويسمعون صوته ولا يرونه ، حتى خرج من أعلاها . قالت : فلما سمعنا قوله عرفنا حيث توجه رسول الله ﷺ ، وأن وجهه المدينة (١)

(٥) وفي الطريق لقي النبي ﷺ أبا بريدة ، وكان رئيس قومه خرج في طلب النبي * وأبى بكر رجاء الفوز بالمكافأة الكبيرة التي أعلن عنها قریش ، ولما واجه رسول الله (ص) وكلمه أسلم مكانه مع سبعين رجلاً من قومه ، ثم نزع عمامته ، وعقدتها برمحه فاتخذها راية تعلن بأن ملك الأمن والسلام قد جاء ليملا الدنيا عدلاً وقسطاً (٢)

٦ وفي الطريق لقي الرسول ﷺ الزبير ، وهو في ركب المسلمين ، كانوا تجاراً قافلين من الشام فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياباً بيضاء (٣)

النزول بقباء

وفي يوم الإثنين ٨ ربيع الأول سنة ١٤ من النبوة - وهي السنة الأولى من الهجرة - الموافق ٢٣ سبتمبر سنة ٦٢٢ م رسول الله ﷺ بقباء (٤) .

(١) زاد المعاد ٢ / ٥٣ ، ٥٤ . (٢) رحمة للعالمين ١ / ١٠١ . (٣) روى ذلك البخاري عن عروة بن الزبير ١ / ٥٥٤ . (٤) رحمة للعالمين ١ / ١٠٢ - وفي هذا اليوم تم عمره ﷺ ثلاثة وخمسين عاماً كاملاً لا وكس ولا شطط ، وتم على نبوته ثلاثة عشر عاماً كاملاً عند من يقول : إنه أكرم بالنبوة في ٩ ربيع الأول في سنة ٤١ من عام الفيل ، وأما من يقول : إنه أكرم بالنبوة في رمضان سنة ٤١ من عام الفيل فعنده يتم على نبوته - في ذلك اليوم - اثني عشر عاماً وخمسة أشهر و١٨ يوماً أو ٢٢ يوماً .

قال عروة بن الزبير: سمع المسلمون بالمدينة بخروج رسول الله ﷺ من مكة فكانوا يغدون إلى الحرة فينتظرون حتى يردهم حر الظهيرة ، فانقلبوا يوماً بعد ما أطالوا انتظارهم ، فلما أوا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم من أطامهم لأمر ينظر إليه ، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابهم يسيرون يزول بهم السراب ، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته يا معشر العرب ، هذا جدكم الذي تنتظرون ، فتار المسلمون إلى السلاح (١) ، قال ابن القيم : وسمعت الوباء والتكبير في بني عمرو بن عوف ، وكبر المسلمون فرحاً بقدمه ، وخرجوا للقاءه ، فتلقوه وحيوه بتحية النبوة ، فأحدقوا به مطيفين حوله ، والسكينة تغشاه ، والوحي نزل عليه ﴿فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين ، والملائكة بعد ذلك ظهير﴾ (٢) (٤: ٦٦) قال عروة بن الزبير : فتلقوا رسول الله ﷺ ، فعدل بهم ذات اليمين ، حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف ، وذلك يوم الإثنين من شهر ربيع الأول . فقام أبو بكر للناس ، وجلس رسول الله ﷺ صامتا ، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيى - وفي نخة : يحيى - أبا بكر ، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه ، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك (٣) .

وكانت المدينة كلها قد زحفت لاستقبال ، وكان يوماً مشهوداً لم تشهد المدينة مثله في تاريخها ، وقد رأى اليهود صدق بشارة حبيبوق النبي : إن الله جاء من التيمان ، والقدوس من جبال فاران (٤) .

ونزل رسول الله ﷺ بقباء على كلثوم بن الهدم ، وقيل : بل على سعد بن خيثمة والأول أثبت ، ومكث على بن أبي طالب بمكة ثلاثاً ، حتى أدى عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس ، ثم هاجر ماشياً على قدميه ، حتى لحقها بقباء ، ونزل على كلثوم بن الهدم (٥) .

وأقام رسول الله ﷺ بقباء أيام : الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس (٦) . وأسس مسجد بقاء وصلى فيه ، وهو أو مسجد أسس على التقوى بعد النبوة ، فلما كان اليوم الخامس - يوم الجمعة - ركب بأمر الله له ، وأبو بكر ردفه ، وأرسل إلى بني النجار - أخواله - فجاءوا متقلدين سيوفهم ، المسجد الذي في بطن الوادي ، وكانوا مائة رجل (٧) .

(١) صحيح البخارى ١ / ٥٥٥ (٢) زاد المعاد ٢ / ٥٤ (٣) صحيح البخارى ١ / ٥٥٥ .

(٤) صحيفة حبيبوق (٣ : ٣) . (٥) زاد المعاد ٢ / ٥٤ . ابن هشام ١ / ٤٩٣ ، رحمة للعالمين ١ / ١٠٢ .

(٦) هذا ما رواه ابن اسحاق ، انظر ابن هشام ١ / ٤٩٤ وهو الذى اختاره العلامة المنصور فورى انظر رحمة للعالمين ١ / ١٠٢ ، وفى صحيح البخارى أنه أقام بقباء أربعاً وعشرين ليلة (٦١ / ١) وبضع عشرة ليلة (٥٥٥ / ١) وأربع عشرة ليلة (٥٦٠ / ١) وهذا الأخير هو الذى اختاره ابن القيم ، وقد صرح هو نفسه أن نزوله بقباء كان يوم الإثنين وخروجه يوم الجمعة (زاد المعاد ٢ / ٥٤ ، ٥٥) ومعلوم أن فصل ما بينهما لا يزيد على عشرة أيام سوى يومى الدخول والخروج ، ومعهما لا يزيد على اثنى عشر يوماً إذا كانا من أسبوعين .

(٧) صحيح البخارى ١ / ٥٥٥ ، ٥٦٠ ، زاد المعاد ٢ / ٥٥ ، وابن هشام ١ / ٤٩٤ ، رحمة للعالمين ١ / ١٠٢ .

الدخول في المدينة :

وبعد الجمعة دخل النبي ﷺ المدينة - ومن ذلك اليوم سميت بلدة يشرب بمدينة الرسول ﷺ ، ويعبر عنها بالمدينة مختصرا - وكان يوما تاريخيا أغر ، فقد كانت البيوت والسكك تترج بأصوات التحميد والتقديس ، وكانت بنات الأنصار تتغنى بهذه الأبيات فرحا وسرورا (١) :

والأنصار إن لم يكونوا أصحاب ثروات طائلة ؛ إلا أن كل واحد منهم كان يتمنى أن ينزل الرسول ﷺ عليه . فكان لا يمر بدار من دور الأنصار إلا أخذوا خطام راحلته : هلم إلى العدد والعدة والسلاح والمنعة ، فكان يقول لهم : خلو سبيلها فإنها مأمورة ، فلم تزل سائرة به حتى وصلت إلى موضع المسجد النبوي اليوم فبركت ، ولم ينزل عنها حتى نهضت وسارت قليلا ، ثم التفتت ورجعت فبركت في موضعها الأول ، فنزل عنها ، وذلك في بنى النجار - أخواله - ﷺ . وكان من توفيق الله لها ، فإنه أحب أن ينزل على أخواله يكرمهم بذلك ، فجعل الناس يكلمون رسول الله ﷺ في النزول عليهم ، وبادر أبو أيوب الأنصاري إلى رحله ، فأدخله بيته ، فجعل رسول الله ﷺ يقول : المرء مع رحله ، وجاء أسعد بن زرارة فزحذ بزمام راحلته ، وكانت عنده (٢) .

وفي رواية أنس عند البخاري ، قال نبي الله ﷺ : أى بيوت أهلنا أقرب ؟

فقال أبو أيوب : أنا يا رسول الله ، هذه دارى ، وهذا بابى ، قال : فانطلق فهى لنا مقبلا ، قال : قوما على بركة الله (٣) .

وبعد أيام وصلت إليه زوجته سودة وبناته فاطمة وأم كلثوم ، وأسامة بن زيد ، وأم أيمن ، وخرج معهم عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر ومنهم عائشة ، وبقيت زينب عند أبي العاص ، لم يمكنها من الخروج حتى هاجرت بعد بدر (٤) .

قالت عائشة : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر وهلال ، فدخلت عليهما فقلت : يا أبة كيف تجدك ، ويا بلال كيف تجدك ؟ قالت : فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول :

كل امرئ مصبّح في أهله والموت أدنى من شرك نعله

وكان بال إذا أفلح عنه يرفع عقيرته ويقول :

(١) ذكر ابن القيم أن إنشاد هذه الأشعار كان عند مرجعه ﷺ من تبوك ، وروى من يقول : إنما كان ذلك عند مقدمه المدينة (زاد المعاد / ٣ / ١٠) لكن ابن القيم لم يأت على هذا التوهيم بدليل يشفى ، وقد رجح العلامة المنصور فررى أن ذلك كان عند مقدمه المدينة ، ومعه دلائل لا يمكن ردها انظر رحمة للعالمين ١ / ١٠٦ .

(٢) صحيح البخاري ١ / ٥٥٦ (٣) زاد المعاد ٢ / ٥٥ (٤) صحيح البخاري ١ / ٥٨٨ ، ٥٨٩

ألا ليت شعري هل أبين بواد وحولي إذخر وجليل
وهل أردن يوماً مياه مجنة وهل يندون لي شامة وطفيل

قالت عائشة : فجئت رسول الله ﷺ ، فأخبرته ، فقال : اللهم حبيب إلينا المدينة
كحبنا مكة أو أشد حبا ، وصححها ، وبارك في صاعها ومدّها وانقل حماها فاجعلها
بالجفنة (١) .

إلى هنا انتهى قسم من حياته ﷺ ، وتم دور من الدعوة الإسلامية ، وهو الدور
المكي .

الحياة في المدينة

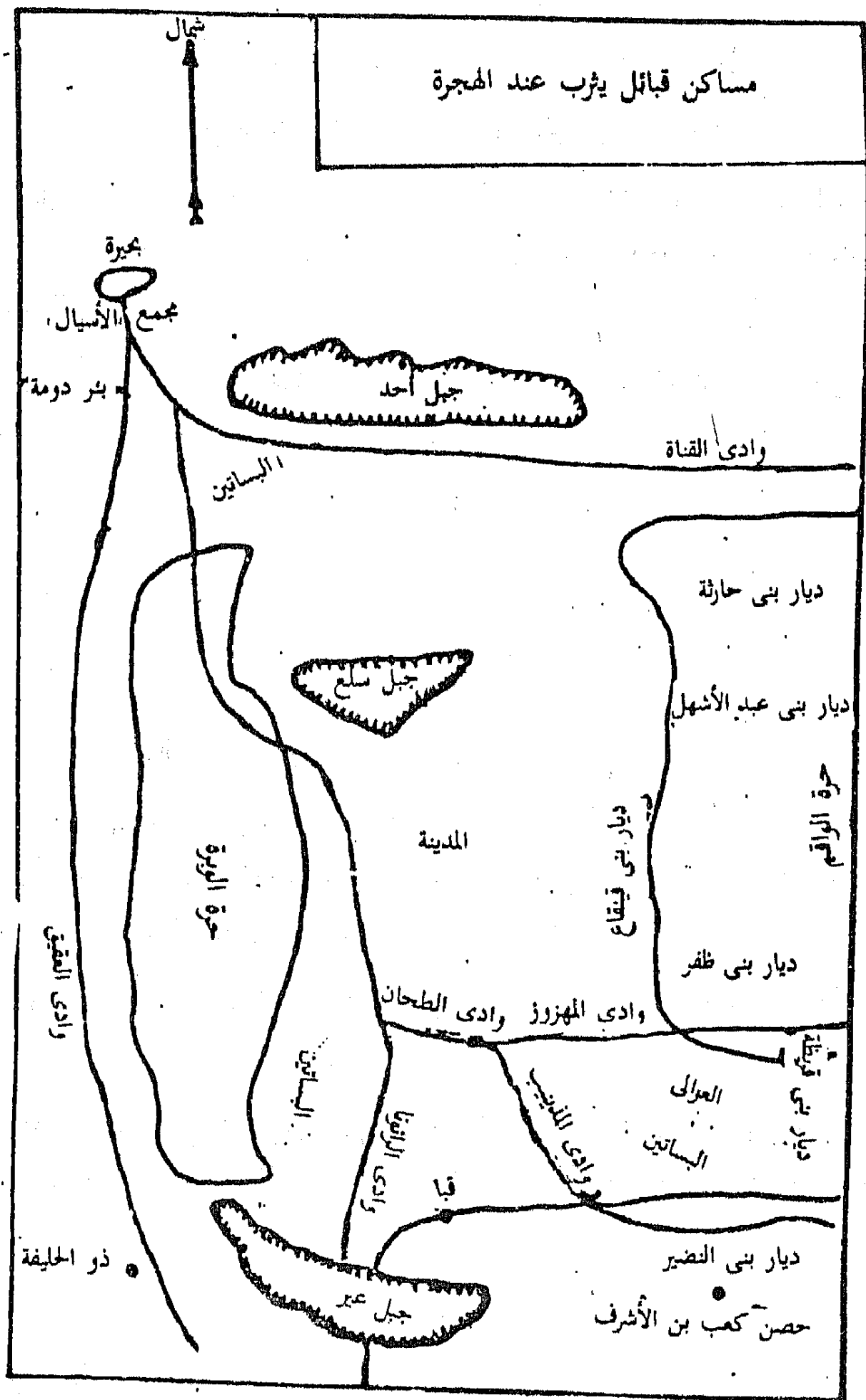
يمكن تقسيم العهد المدني إلى ثلاث مراحل :

١ - مرحلة أثّرت فيها القلاقل والفتن ، وأقيمت فيها العراقيل من الداخل ، وزحجف
فيها الأعداء إلى المدينة لايتم اتصال خضرائها من الخارج . وهذه المرحلة تنتهي إلى صلح
الحديبية في ذي القعدة سنة ٦ من الهجرة .

٢ - مرحلة الهدنة مع الزعامة الوثنية ، وتنتهي بفتح مكة ، في رمضان سنة ثمان من
الهجرة ، وهي مرحلة دعوة الملوك إلى الإسلام .

٣ - مرحلة دخول الناس في دين الله أفوجاً ، وهي مرحلة توافد القبائل والأقوام إلى
المدينة ، وهذه المرحلة تمتد إلى انتهاء حياة الرسول ﷺ في ربيع الأول سنة ١١ من
الهجرة .

(١) صحيح البخاري ١ / ٥٨٨ ، ٥٨٩ .



المرحلة الأولى

الحالة الراهنة في المدينة عند الهجرة

لم يكن معنى الهجرة هو التخلص من الفتنة والاستهزاء فحسب ، بل كانت الهجرة مع هذا تعاوناً على إقامة مجتمع جديد في بلد آمن ، ولذلك أصبح فرضاً على كل مسلم قادر أن يسهم في بناء هذا الوطن الجديد ، وأن يبذل جهده في تحصينه ورفع شأنه .

ولا شك أن رسول الله ﷺ هو الإمام والقائد والهادي في بناء هذا المجتمع ، وكانت إليه أزمة الأمور بلا نزاع .

والأقوام التي كان يواجهها رسول الله ﷺ في المدينة كانت على ثلاثة أصناف ، يختلف أحوال كل واحد منها بالنسبة إلى الآخر اختلافاً واضحاً ، وكان يواجه بالنسبة إلى كل صنف منها مسائل عديدة غير المسائل التي كان يواجهها بالنسبة للآخرى . وهذه الأصناف الثلاثة هي :

- ١ - أصحابه الصفوة الكرام البررة رضى الله عنهم .
- ٢ - المشركون الذين لم يؤمنوا بعد ، وهم من صميم قبائل المدينة .
- ٣ - اليهود .

أ - والمسائل التي كان يواجهها بالنسبة إلى أصحابه هو أن ظروف المدينة بالنسبة إليهم كانت تختلف تماماً عن الظروف التي مروا بها في مكة ، فهم في مكة وإن كانت تجمعهم كلمة جامعة وكانوا يستهدفون إلى أهداف متفقة ، إلا أنهم كانوا متفرقين في بيوتات شتى ، مقهورين أذلاء مطرودين ، لم يكن لهم من الأمر شيء ، وإنما كان الأمر بيد أعدائهم في الدين ، فلم يكن هؤلاء المسلمون يستطيعون أن يقيموا مجتمعاً إسلامياً جديداً بمواده التي لا يستغنى عنها أى مجتمع إنسانى فى العالم ، ولذلك نرى السور المكية تقتصر على تفصيل المبادئ الإسلامية ، وعلى التشريعات التي يمكن العمل بها لكل فرد وحده ، وعلى الحث على البر والخير ومكارم الأخلاق ، والاجتناب عن الرذائل والدنایا .

أما فى المدينة فكان أمر المسلمين بأيديهم منذ أول يوم ، ولم يكن عليهم سيطرة أحد من الناس ، فقد آن لهم أن يواجهوا بمسائل الحضارة والعمران ، وبمسائل المعيشة والاقتصاد ، وبمسائل السياسة والحكومة ، وبمسائل السلم والحرب ، وبالتنقيح الكامل فى مسائل الحلال والحرام والعبادة والأخلاق وما إلى ذلك من مسائل الحياة .

كان قد آن لهم أن يكونوا مجتمعاً جديداً ، مجتمعاً إسلامياً ، يختلف في جميع مراحل الحياة عن المجتمع الجاهلي ، ويمتاز عن أي مجتمع يوجد في العالم الإنساني ، ويكون ممثلاً للدعوة الإسلامية التي عانى لها المسلمون ألواناً من النكال والعذاب طيلة عشر سنوات .

ولا يخفى أن تكوين أي مجتمع على هذا النمط لا يمكن أن يستتب في يوم واحد ، أو شهر واحد ، أو سنة واحدة ، بل لابد له من زمن طويل ، يتكامل فيه التشريع والتقنين مع الشقيق والتدريب والتربية تدريجياً ، وكان الله كفيلاً بهذا التشريع ، وكان رسول الله ﷺ قائماً بتنفيذه ، والإرشاد إليه ، وتربية المسلمين وفقه ﷺ هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴿ : ٦٢ : ٢) .

وكان الصحابة رضي الله عنهم مقبلين عليه بقلوبهم ، يتحلون بأحكامه ويستبشرون بها ﴿ وإذا تلئت عليهم آياته زادتهم إيماناً ﴾ (٨ : ٢) وليس تفصيل هذه المسائل كلها من مباحث موضوعنا فنقتصر منها على قدر الحاجة .

كان هذا أعظم ما يواجهه رسول الله ﷺ بالنسبة إلى المسلمين ، وهذا الذي كان هو المقصود - على نطاق واسع - من الدعوة الإسلامية ، والرسالة المحمدية ، ولكن لم يكن هذا قضية طارئة . نعم كانت هناك مسائل - دون ذلك - كانت تقتضي الاستعجال .

كانت جماعة المسلمين مشتملة على قسمين : قسم هم في أرضهم وديارهم وأموالهم ، لا يهمهم من ذلك إلا ما يهم الرجل وهو آمن في سربه ، وهم الأنصار ، وكان بينهم تنافر مستحكم وعداء مزمن منذ أمد بعيد . وكان بجانب هؤلاء قسم آخر - وهم المهاجرون - فاتهم كل ذلك ، ونجوا بأنفسهم إلى المدينة ، ليس لهم ملجأ يأوون إليه ، ولا عمل يعملونه لمعيشتهم ، ولا مال يبلغون به قواماً من العيش ، وكان عدد هؤلاء اللاجئين غير قليل ، وكانوا يزدون يوماً فيوماً ، فقد كان أذن بالهجرة لكل من آمن بالله ورسوله .

ومعلوم أن المدينة لم تكن على ثروة طائلة ، فترزع ميزانها الاقتصادي ، وفي هذه الساعة الحرجة قامت القوات المعادية للإسلام بشبه مقاطعة اقتصادية ، قلت لأجلها المستوردات ، وتفاقمت الظروف .

ب - أما القوم الثاني - وهم المشركون من صميم قبائل المدينة - فلم تكن لهم سيطرة على المسلمين ، وكان منهم من يتخالجه الشكوك ، ويتردد في ترك دين الآباء ، ولكن لم يكن يبطن العداوة والكيد ضد الإسلام والمسلمين ، ولم تمض عليهم مدة طويلة حتى أسلموا وأخلصوا دينهم لله .

وكان فيهم من يبطن شديد الإحن والعداوة ضد رسول الله ﷺ والمسلمين ، ولكن لم

يكن يستطيع أن يناوئهم ، بل كان مضطرا إلى إظهار الودّ والصفاء نظرا إلى الظروف ، وعلى رأس هؤلاء عبد الله بن أبي ، فقد كانت الأوس والخزرج اجتمعوا على سيادته بعد حرب بعاث ، ولم يكونوا اجتمعوا على سيادة أحد قبله . وكانوا قد نظموا له الخرز ، ليتوجوه ويملكوه ، وكان على وشك أن يصير ملكا على أهل المدينة إذ باغت مجيء رسول الله ﷺ ، وانصرف قومه عنه إليه ، فكان يرى أنه استلبه ملكا فكان يبطن شديد العداوة ضده . ولما رأى الظروف لا تساعد على شركه ، وأنه يحرم الفوائد الدنيوية أظهر الإسلام بعد بدر ولكن بقي مستبظنا الكفر وكان لا يجد مكانا للمكيدة برسول الله ﷺ وبالمسلمين إلا ويأثى بها . وكان أصحابه - من الرؤساء الذين حرموا المناصب المرجوة في ملكه - يساهمون ويدعمونه في تنفيذ خططه ، وربما كانوا يتخذون بعض الأحداث ، وضعاف العقول من المسلمين عملاء لهم ؛ لتنفيذ خططهم .

ج - أما القوم الثالث - وهم اليهود - فقد كانوا انحازوا إلى الحجاز زمن الاضطهاد الأشوري والروماني كما أسلفنا ، وكانوا في الحقيقة عبرانيين ، ولكن بعد الانسحاب إلى الحجاز صبغوا بالصبغة العربية في الزي واللغة والحضارة ، حتى صارت أسماء قبائلهم أو أفرادهم عربية ، وحتى قامت بينهم وبين العرب علاقة الزواج والصهر ، إلا أنهم تحفظوا بعصبيتهم الجنسية ، ولم يندمجوا في العرب قطعا ، بل كانوا يفتخرون بجنسيتهم الإسرائيلية - اليهودية - وكانوا يحتقرون العرب احتقارا بالغا حتى كانوا يسمونهم أميين بمعنى أنهم وحوش سذج ، وأراذل متأخرون ، وكانوا يرون أن أموال العرب مباحة لهم ، يأكلونها كيف شاءوا ، ﴿ قالوا : ليس علينا في الأميين سبيل ﴾ (٣ : ٧٥) ولم يكن لهم تحمس في نشر دينهم وإنما جل بضاعتهم الدينية هي : الفأل والسحر والنفث والرقية وأمثالها وبذلك كانوا يرون أنفسهم أصحاب علم وفضل وقيادة روحانية .

وكانوا مهرة في فنون الكسب والمعيشة ، فكانت في أيديهم تجارة الحبوب والتمر والخمر والثياب ، كانوا يوردون الثياب والحبوب والخمر ، ويصدرون التمر ، وكانت لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون ، فكانوا يأخذون المنافع من عامة العرب أضعافا مضاعفة ، ثم لم يكونوا يقتصرون على ذلك ، بل كانوا أكالين للربا ، كانوا يقرضون شيوخ العرب وساداتهم ليكتسب هؤلاء الرؤساء مدائح من الشعراء ، وسمعة بين الناس بعد إنفاقها من غير جدوى ولا طائلة ثم كانوا يرتنون أرض هؤلاء الرؤساء وزروعهم وحوائطهم ، ثم لا يلبثون إلا أعواما حتى يتملكونها .

وكانوا أصحاب دسائس ومؤامرات وعتو وفساد ، يلقون العداوة والشحناء بين القبائل العربية المجاورة ، ويغرون بعضها على بعض بكيد خفي لم تكن تشعره تلك القبائل ، فلا تزال في حروب دامية متواصلة ، ولا تزال أنامل اليهود تؤجج نيرانها كلما رأتها تقارب

الخمود والانطفاء ، وبعد هذا التحريض والإغراء كانوا يقعدون على جانب ، يرون ساكتين ما يحل بهؤلاء العرب ، نعم كانوا يزودونهم بقروض ثقيلة ربوية حتى لا يحجموا عن الحرب لعسر النفقة ، وبهذا العمل كانوا يحصلون على منفعتين ، كانوا يتحفظون على كيانهم اليهودي ، وينفقون سوق الربا ؛ ليأكلوه أضعافا مضاعفة ، ويكسبوا ثروات طائلة .

وكانت في يثرب منهم ثلاث قبائل مشهورة :

١ - بنو قينقاع ، كانوا حلفاء الخزرج ، وكانت ديارهم داخل المدينة .

٢ - بنو النضير .

٣ - بنو قريظة ، وهاتان القبيلتان كانتا حلفاء الأوس ، وكانت ديارهما بضواحي المدينة .

وهذه القبائل هي التي كانت تثير الحروب بين الأوس والخزرج منذ أمد بعيد ، وقد ساهمت بأنفسها في حرب بعاث ، كل مع حلفائها .

وطبعا فإن اليهود لم يكن يرجى منهم أن ينظروا إلى الإسلام إلا بعين البغض والحقد ، فالرسول لم يكن من جنسهم حتى ليسكن جأش عصبيتهم الجنسية التي كانت متغلبة على نفسياتهم وعقليتهم ، ثم دعوة الإسلام لم تكن إلا دعوة صالحة تؤلف بين أشتات القلوب ، وتطفىء نار العداوة والبغضاء ،

وتدعو إلى التزام الأمانة في الشئون ، وإلى التقيد بأكل الحلال من طيب الأموال ومعنى كل ذلك أن قبائل يثرب العربية ستألف فيما بينهما وحيث لا بد من أن تفلت من براثن اليهود ، فيفشل نشاطهم التجاري ، ويحرموا أموال الربا الذي كانت تدور عليه ربحي ثروتهم ، بل ربما يحتمل أن تتيقظ تلك القبائل ، فتدخل في حسابها الأموال الربوية التي أخذها اليهود ، فتقوم بإرجاع أرضها وحوادثها التي أضاعتها إلى اليهود في تأدية الربا .

كان اليهود يدخلون وكل ذلك في حسابهم منذ عرفوا أن دعوة الإسلام تحاول الاستقرار في يثرب ، ولذلك كانوا ييطنون أشد العداوة ضد الإسلام ، وضد رسول الله ﷺ منذ أن دخل يثرب ، وإن كانوا لم يتجاسروا على إظهارها إلا بعد حين .

ويظهر ذلك جليا بما رواه ابن إسحاق عن أم المؤمنين صفية رضي الله عنها . قال ابن إسحاق : حدثت عن صفية بنت حيي بن أخطب أنها قالت :

كنت أحب ولد أبي إليه ، وإلى عمي أبي ياسر ، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه . قالت : فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، ونزل قباء في بني عمرو بن عوف ، غدا عليه أبي ؛ حيي بن أخطب ، وعمي أبو ياسر ابن أخطب ، مغلسين ، قالت : فلم

يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس ، قالت : فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى
قالت : فهششت إليهما كما كنت أصنع ، فوالله ما التفت إلى واحد منهما ، مع ما بهما
من الغم قالت : وسمعت عمى أبا ياسر ، وهو يقول لأبى ، حبيب بن أخطب : أهو هو ؟
قال : نعم والله قال : أتعرفه وتثبته ؟ قال : نعم ، قال : فما فى نفسك منه ؟ قال : عداوته
والله ما بقيت (١) .

ويشهد بذلك أيضا مارواه البخارى فى إسلام عبد الله بن سلام رضى الله عنه ، فقد
كان حبرا من فطاحل علماء اليهود ، ولما سمع بمقدم رسول الله ﷺ المدينة فى بنى النجار
جاءه مستعجلا ، وألقى إليه أسئلة لا يعلمها إلا نبي ولما سمع ردوده ﷺ عليها آمن به ساعته
ومكانه ، ثم قال له : إن اليهود قوم بهت ، إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك
، فأرسل رسول الله ﷺ فجاءت اليهود ، ودخل عبد الله بن سلام البيت ، فقال رسول الله
ﷺ : أى رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ قالوا : أعلمنا وابن أعلمنا ، وأخيرنا وابن أخيرنا (وفى لفظ :)
سيدنا وابن سيدنا ، (وفى لفظ آخر :) خيرنا وابن خيرنا وأفضلنا وابن
أفضلنا ، فقال رسول الله ﷺ : أفرأيتم إن أسلم عبد الله ؟

فقالوا : أعاده الله من ذلك (مرتين أو ثلاثا) ، فخرج إليهم عبد الله فقال : أشهد أن
لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله . فقالوا : شرنا وابن شرنا ووقعوا فيه (وفى
لفظ) فقال : يا معشر اليهود اتقوا الله ، فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول
الله ، وأنه جاء بحق . فقالوا : كذبت (٢) .

وهذه أول تجربة تلقاها رسول الله ﷺ من اليهود فى أول يوم دخل فيه المدينة .

هذا كله من حيث الداخلية ، وأما من حيث الخارجية ، فإن ألد قوة ضد الإسلام هى
قريش ، كانت قد جربت منذ عشرة أعوام - حينما كان المسلمون تحت يديها - كل
أساليب الإرهاب والتهديد والمضايقة وسياسة التجويع والمقاطعة ، وأذاقتهم التنكيلات
والويلات ، وشنت عليهم حربا نفسية مضنية مع دعاية واسعة منظمة ، ثم لما هاجر
المسلمون إلى المدينة صادرت أرضهم وديارهم وأموالهم ، وحالت بينهم وبين أزواجهم
وذررياتهم ، بل حبست وعذبت من قدرت عليه ، ثم لم تقتصر على هذا ، بل تأمرت على
الفتك بصاحب الدعوة ﷺ والقضاء عليه ، وعلى دعوته ، ولم تأل جهدا فى تنفيذ هذه
المؤامرة . وبعد هذا كله - لما نجا المسلمون إلى أرض تبعد عنها خمسمائة كيلومترا - قامت
بدورها السياسى لما لها من الصدارة الدنيوية والزعامة الدينية بين أواسط العرب ، بصفتها
ساكنة الحرم ومجاورة بيت الله وسدنته ، فأغرقت غيرها من مشركى الجزيرة ضد أهل
المدينة ، حتى صارت المدينة فى شبه مقاطعة شديدة ، قلت مستورداتها ، فى حين كان

(٢) انظر صحيح البخارى ١ / ٤٥٩ ، ٥٥٦ ، ٥٦١ .

(١) ابن هشام ١ / ٥١٨ ، ٥١٩ .

عدد اللاجئين يزيد يوما . فيوما إن « حالة الحرب » قائمة يقينا بين هؤلاء الطغاة من أهل مكة وبين المسلمين في وطنهم الجديد ، ومن السفه تحميل المسلمين أوزار هذا الخصام (١) .

كان حقا للمسلمين أن يصادروا أموال هؤلاء الطغاة ، كما صودرت أموالهم ، وأن يدالوا عليهم من التنكيلات بمثل ما أدالوا بها ، وأن يقيموا في سبيل حياتهم العراقيل كما أقاموها في سبيل حياة المسلمين ، وأن يكال لهؤلاء الطغاة صاعا بصاع ، حتى لا يجدوا سبيلا لإبادة المسلمين ، واستئصال خضرائهم .

هذه هي القضايا والمشاكل التي كان يواجهها رسول الله ﷺ حين ورد المدينة بصفته رسولا هاديا وإماما قائدا .

وقد قام رسول الله ﷺ بدور الرسالة والقيادة في المدينة ، وأدلى إلى كل قوم بما كانوا يستحقونه من الرأفة والرحمة أو الشدة والنكال - ولا شك أن الرحمة كانت غالبية على الشدة والعنت - حتى عاد الأمر إلى الإسلام وأهله في بضع سنوات ، وسيجد القارئ كل ذلك جليا في الصفحات الآتية :

بناء مجتمع جديد

قد أسلفنا أن نزول رسول الله ﷺ بالمدينة في بني النجار كان يوم الجمعة (١٢ ربيع الأول سنة ١ هـ الموافق ٢٧ سبتمبر سنة ٦٢٢ م) ، وأنه نزل في أرض أمام دار أبي أيوب ، وقال : ههنا المنزل إن شاء الله ، ثم انتقل إلى بيت أبي أيوب

بناء المسجد النبوي :

وأول خطوة خطاها رسول الله ﷺ بعد ذلك هو إقامة المسجد النبوي . ففي المكان الذي بركت فيه ناقته أمر ببناء هذا المسجد ، واشتراه من غلامين يتيمين كانا يملكانه ، وساهم في بنائه بنفسه ، فكان ينقل اللبن والحجارة ويقول :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

وكان يقول :

هذا الحمال لا حمال خيير هذا أبر ربنا وأطهر

(١) الكلمة الأخيرة لمحمد الغزالي في فقه السيرة ص ١٦٢ .

وكان ذلك مما يزيد نشاط الصحابة في البناء حتى إن أحدهم ليقول :

لئن قعدنا والنبي يعمل لذاك منا العمل المضلل

وكانت في ذلك المكان قبور المشركين ، وكان فيه خرب ونخل وشجرة من غرقده ، فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت ، وبالخرب فسويت و بالنخل والشجرة فقطعت ، وصفت في قبلة المسجد ، وكانت القبلة إلى بيت المقدس ، وجعلت عضاداته من حجارة ، وأقيمت حيطانه من اللبن والطين ، وجعل سقفه من جريد النخل ، وعمده الجذوع وفرشت أرضه من الرمال والحصباء ، وجعلت له ثلاثة أبواب ، وطوله مما يلي القبلة إلى مؤخرته مائة ذراع ، والجانبان مثل ذلك أو دونه ، وكان أساسه قريبا من ثلاثة أذرع .

وبنى بيوتا إلى جانبه ، بيوت الحجر باللبن ، وسقفها بالجريد والجذوع ، وهي حجرات أزواجه ﷺ ، وبعد تكامل الحجرات انتقل إليها من بيت أبي أيوب (١) .

ولم يكن المسجد موزعا لأداء الصلوات فحسب ، بل كان جامعة يتلقى فيها المسلمون تعاليم الإسلام وتوجيهاته ، ومنتدى تلتقى وتتألف فيه العناصر القبلية المختلفة التي طالما نافرت بينها النزعات الجاهلية وحروبها ، وقاعدة لإدارة جميع الشؤون وبث الانطلاقات ، وبرلمانا لعقد المجالس الاستشارية والتنفيذية .

وكان مع هذا كله دارا يسكن فيها عدد كبير من فقراء المهاجرين اللاجئين الذين لم يكن لهم هناك دار ولا مال ولا أهل ولا بنون .

وفى أوائل الهجرة شرع الأذان ، النغمة العلوية التي تدوى في الآفاق ، كل يوم خمس مرات ، والتي تترجح لها أنحاء عالم الوجود . وقصة رؤيا عبد الله بن زيد بن عبد ربه بهذا الصدد معروفة . رواها الترمذي وأبو داود وأحمد وابن خزيمة (٢) .

المؤاخاة بين المسلمين :

وكما قام النبي ﷺ (ببناء المسجد) مركز التجمع والتألف ؛ قام بعمل آخر من أروع ما يأثره التاريخ ، وهو عمل المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار . قال ابن القيم : ثم آخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار ، في دار أنس بن مالك ، وكانوا تسعين رجلا ، نصفهم من المهاجرين ، ونصفهم من الأنصار ، آخى بينهم على المواساة ، ويتوارثون بعد الموت دون ذوى الأرحام إلى حين وقعة بدر ، فلما أنزل الله عز وجل ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ ﴾

(١) صحيح البخارى ١ / ٧١ ، ٥٥٥ ، ٥٦٠ ، زاد المعاد ٢ / ٥٦ .

(٢) انظر بلوغ المرام لابن حجر العسقلاني ص ١٥ .

بعضهم أولى ببعض ﴿٨ : ٧٥﴾ رد التوارث ، دون عقد الأخوة .

وقد قيل إنه آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض مؤاخاة ثانية ..

والثبت الأول ، والمهاجرون كانوا مستغنيين بأخوة الإسلام وأخوة الدار وقرابة النسب عن عقد مؤاخاة بخلاف المهاجرين مع الأنصار (١) أهـ .

ومعنى هذا الإخاء - كما قال محمد الغزالي - أن تذوب عصبية الجاهلية ، فلا حمية إلا للإسلام ، وأن تسقط فوارق النسب واللون والوطن ، فلا يتقدم أحد أو يتأخر إلا بمروءته وتقواه .

وقد جعل الرسول ﷺ هذه الأخوة عقداً ، لا لفظاً فارغاً ، وعملاً يرتبط بالدماء والأموال ، لا تحية تثرثر بها الألسنة ولا يقوم لها أثر .

وكانت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة تمتزج في هذه الأخوة ، وتملاً للمجتمع الجديد بأروع الأمثال (٢) .

فقد روى البخاري أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن وسعد بن الربيع ، فقال لعبد الرحمن : إنى أكثر الأنصار مالا ، فاقسم مالى نصفين ، ولى امرأتان ، فانظر أعجبهما إليك فسمها لى ، أطلقها ، فإذا انقضت عدتها فتزوجها ، قال : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، وأين سوقكم ؟

فدلوه على سوق بنى قينقاع ، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن ، ثم تابع الغدو ، ثم جاء يوماً وبه أثر صفرة ، فقال النبى ﷺ : مهيم ؟ قال : تزوجت . قال : كم سقت إليها ؟ قال : نواة من ذهب (٣) .

وروى عن أبى هريرة قال : قالت الأنصار للنبي ﷺ : اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل . قال : لا . فقالوا : فتكفونا المؤنة ، ونشرككم فى الثمرة قالوا سمعنا وأطعنا (٤) .

وهذا يدلنا على ما كان عليه الأنصار من الحفاوة البالغة بإخوانهم المهاجرين ، ومن التضحية والإيثار والود والصفاء ، وما كان عليه المهاجرون من تقدير هذا الكرم حق قدره ، فلم يستغلوه ولم ينالوا منه إلا بقدر ما يقيم أودهم .

وحقا فقد كانت هذه المؤاخاة حكمة فذة ، وسياسة صائبة حكيمة ، وحلا رائعا

(٢) فقه السيرة ص ١٤٠ ، ١٤١

(١) زاد المعاد ٢ / ٥٦ .

(١) صحيح البخارى . باب إخاء النبى ﷺ بين المهاجرين والأنصار ١ / ٥٥٣ .

(٤) صحيح البخارى - باب إذا قال : اكفنى مؤنة النخل إلخ ١ / ٣١٢ .

لكثير من المشاكل التي كان يواجهها المسلمون ، والتي أشرنا إليها .

ميثاق التحالف الإسلامي :

وكما قام رسول الله ﷺ بعقد المؤاخاة بين المؤمنين ، قام بعقد معاهدة أزاح بها كل ما كان من حزازات الجاهلية ، والنزعات القبلية ، ولم يترك مجالا لتقاليد الجاهلية ، وهاك بنودها ملخصاً :

هذا كتاب من محمد النبي - ﷺ - بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم ، وجاهد معهم :

١ - أنهم أمة واحدة من دون الناس .

٢ - المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم ، وهم يقدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وكل قبيلة من الأنصار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٣ - وأن المؤمنين لا يتركون مفرحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل .

٤ - وأن المؤمنين المتقين على من بغى عليهم ، أو ابتغى دسيسة (١) ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين .

٥ - وأن أيديهم عليه جميعاً ، ولو كان ولد أحدهم .

٦ - ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر .

٧ - ولا ينصر كافراً على مؤمن .

٨ - وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم .

٩ - وأن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم .

١٠ - وأن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم .

١١ - وأن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله .

١٢ - وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن .

١٣ - وأنه من اعتبط مؤمناً (٢) قتلاً عن بينة فإنه قود به ، إلا أن يرضى ولي المقتول .

(١) الدسع : الدفع كالدرس . والمعنى أى طلب دفع ظلم . لسان العرب بتصرف .

(٢) اعتبط مؤمناً قتلاً : قتله بلا جناية كانت منه ولا جريرة توجب قتله . لسان العرب .

١٤ - وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه .

١٥ - وأنه لا يحل لمؤمن أن ينصر محدثا ولا يؤويه ، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

١٦ - وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ (١) .

أثر المعنويات في المجتمع :

بهذه الحكمة ، وبهذه الحداقة أرسى رسول الله ﷺ قواعد مجتمع جديد ، ولكن كانت هذه الظاهرة أثرا للمعاني التي كان يتمتع بها أولئك الأمجاد بفضل صحبة النبي ﷺ ، وكان النبي ﷺ يتعهدهم بالتعليم والتربية وتركية النفوس والحث على مكارم الأخلاق ، ويؤدبهم بآداب الود والإخاء والمجد والشرف والعبادة والطاعة ، سأله رجل : أى الإسلام خير ؟ قال : تطعم الطعام ، تقرئ السلام على من عرفت ومن لم تعرف (٢) .

قال عبد الله بن سلام : لما قدم النبي ﷺ المدينة جئت ، فلما تبينت وجهه ، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب ، فكان أول ما قال : يا أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام (٣) .

وكان يقول : لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه (٤) .

ويقول : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (٥) .

ويقول : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه (٦) .

ويقول : المؤمنون كرجل واحد ، إن اشتكى عينه اشتكى كله ، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله (٧) .

ويقول : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا (٨) .

ويقول : لا تباغضوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام (٩) .

(١) ابن هشام ١/٥٠٢، ٥٠٣ . (٢) صحيح البخارى ١/٦، ٩ .

(٣) رواه الترمذى وابن ماجه والدارمى . مشكاة المصابيح ١/١٦٨ .

(٤) رواه مسلم ، مشكاة المصابيح ٢/٤٢٢ . (٥) صحيح البخارى ١/٦ .

(٦) رواه مسلم ، مشكاة المصابيح ٢/٤٢٢ .

(٧) متفق عليه ، مشكاة المصابيح ٢/٤٢٢ ، صحيح البخارى ٢/٨٩٠ .

(٨) صحيح البخارى ٢/٨٩٦ . (٩) متفق عليه مشكاة المصابيح ٢/٤٢٢ .

ويقول : المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة (١) .

ويقول : ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء (٢) .

ويقول : ليس المؤمن بالذي يشبع وجاره جائع إلى جانبه (٣) .

ويقول : سباب المؤمن فسوق ، وقتاله كفر (٤) .

وكان يجعل : إمطة الأذى عن الطريق صدقة ، ويعدها شعبة من شعب الإيمان (٥) .

وكان يحثهم على الإنفاق ، ويذكر من فضائله ما تتقاذف إليه القلوب ، فكان يقول : الصدقة تطفئ الخطايا كما يطفئ الماء النار (٦) .

ويقول : أيما مسلم كسا مسلما ثوبا على عرى ، كساه الله من خضر الجنة ، وأيما مسلم أطعم مسلما على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة ، وأيما مسلم سقا مسلما على ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم (٧) .

ويقول اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فإن لم تجد فبكلمة طيبة (٨) .

وبجانب هذا كان يحث حثا شديدا على الاستعفاف عن المسألة ، ويذكر فضائل الصبر والقناعة ، كان يعد المسألة كدوحا أو خدوشا أو خموشا في وجه السائل (٩) . اللهم إلا إذا كان مضطرا ، كما كان يحدث لهم بما في العبادات من الفضائل والأجر والثواب عند الله ، وكان يربطهم بالروحى النازل عليه من السماء ربطا موثقا يقرأه عليهم ، ويقرؤونه لتكون هذه الدراسة إشعارا بما عليهم من حقوق الدعوة ، وتبعات الرسالة ، فضلا عن ضرورة الفهم والتدبر .

وهكذا رفع معنوياتهم ومواهبهم ، وزودهم بأعلى القيم والأقدار والمثل ، حتى صاروا صورة لأعلى قمة من الكمال عرفت في تاريخ البشر بعد الأنبياء .

(١) متفق عليه مشكاة المصابيح ٤٢٢/٢ .

(٢) سنن أبي داود ٣٣٥ / ٢ ، جامع الترمذى ١٤ / ٢ .

(٣) رواه البيهقى في شعب الإيمان ، مشكاة المصابيح ٤٢٤ / ٢ . (٤) صحيح البخارى ٨٩٣ / ٢ .

(٥) والحديث فى ذلك مروي فى الصحيحين ، انظر مشكاة المصابيح ١٦٧ ، ١٢ / ١ .

(٦) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه ، مشكاة المصابيح ١٤ / ١ .

(٧) سنن أبي داود ، وجامع الترمذى ، مشكاة المصابيح ١٦٩ / ١ . (٨) صحيح البخارى ١٩٠ / ١ ، ٨٩٠ / ٢ .

(٩) انظر فى ذلك أبا داود والترمذى والنسائى وابن ماجه والدارمى ، مشكاة المصابيح ١٦٣ / ١ .

يقول عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : من كان مستنفا فليستن بمن قد مات ، فإن الحى لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد ﷺ ، كانوا أفضل هذه الأمة ، أبرها قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا ، اختارهم الله لصحبة نبيه ولإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم على أثرهم ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم (١) .

ثم إن هذا الرسول القائد الأعظم ﷺ كان يتمتع من الصفات المعنوية والظاهرة ، ومن الكمالات والمواهب والأمجاد والفضائل ومكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، بما جعلته تهوى إليه الأفئدة ، وتتفانى عليه النفوس ، فما يتكلم بكلمة إلا ويبادر صحابته - رضى الله عنهم - إلى امتثالها ، وما يأتى برشد وتوجيه إلا ويتسابقون إلى التحلى به .

بمثل هذا استطاع النبى ﷺ أن يبنى فى المدينة مجتمعا جديدا ، أروع وأشرف مجتمع عرفه التاريخ ، وأن يضع لمشاكل هذا المجتمع حلا تتنفس له الإنسانية الصعداء ، بعد أن كانت تعبت فى غياهب الزمان ودياجير الظلمات .

وبمثل هذه المعنويات الشامخة تكاملت عناصر المجتمع الجديد ، الذى واجه كل تيارات الأزمات حتى صرف وجهتها ، وحول مجرى التاريخ والأيام .

معاهدة مع اليهود

بعد أن هاجر النبى ﷺ إلى المدينة ، ووثق من رسوخ قواعد المجتمع الإسلامى الجديد بإقامة الوحدة العقائدية والسياسية والنظامية بين المسلمين ، رأى أن يقوم بتنظيم علاقاته بغير المسلمين ، وكان همه فى ذلك هو توفير الأمن والسلام والسعادة والخير للبشرية جمعاء ، مع تنظيم المنطقة فى وفاق واحد ، فسن فى ذلك قوانين السماح والتجاوز التى لم تعهد فى عالم ملئ بالتعصب والتغالى .

وأقرب من كان يجاور المدينة من غير المسلمين هم اليهود - كما أسلفنا - وهم وإن كانوا يبطنون العداوة للمسلمين ، ولكن لم يكونوا أظهروا أية مقاومة أو خصومة بعد ، فعقد معهم رسول الله ﷺ معاهدة ترك لهم فيها مطلق الحرية فى الدين والمال ، ولم يتجه إلى سياسة الإبعاد أو المصادرة والخصام .

وجاءت هذه المعاهدة ضمن المعاهدة التى تمت بين المسلمين أنفسهم والتى مر ذكرها قريبا . وهاك أهم بنود هذه المعاهدة :

(١) رواه رزين ، مشكاة المصابيح ١ / ٣٢ .

بنود المعاهدة :

- ١ - إن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم ، كذلك لغير بنى عوف من اليهود .
 - ٢ - وإن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم .
 - ٣ - وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة .
 - ٤ - وإن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم .
 - ٥ - وإنه لم يَأْثَم امرؤ بحليفه .
 - ٦ - وإن النصر للمظلوم .
 - ٧ - وإن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .
 - ٨ - وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .
 - ٩ - وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل ، وإلى محمد رسول الله ﷺ .
 - ١٠ - وإنه لا تُجَاز قريش ولا من نصرها .
 - ١١ - وإن بينهم النصر على من دهم يثرب ... على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم .
 - ١٢ - وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم (١) .
- ويأبرام هذه المعاهدة صارت المدينة وضواحيها دولة وفاقية ، عاصمتها المدينة ورئيسها - إن صح هذا التعبير - رسول الله ﷺ ، والكلمة النافذة والسلطان الغالب فيها للمسلمين ، وبذلك أصبحت المدينة عاصمة حقيقية للإسلام .
- ولتوسيع منطقة الأمن والسلام عاهد النبي ﷺ قبائل أخرى في المستقبل بمثل هذه المعاهدة ، حسب الظروف ، وسيأتى ذكرها .

(١) انظر ابن هشام ١ / ٥٠٣ ، ٥٠٤ .

الكفاح الدامي

استفزازات قريش ضد المسلمين بعد الهجرة واتصالهم بعبد الله بن أبي :

قد أسلفنا ما كان يأتي به كفار مكة من التنكيلات والويلات ضد المسلمين ، وما فعلوا بهم عند الهجرة ، مما استحقوا لأجلها المصادرة والقتال ، إلا أنهم لم يكونوا ليفيقوا من غيهم ، ويمتنعوا عن عدوانهم ، بل زادهم غيظا أن فاتهم المسلمون ووجدوا مأمنا ومقرا بالمدينة ، فكتبوا إلى عبد الله بن أبي ابن سلول ، وكان إذ ذاك مشركا بصفته رئيس الأنصار قبل الهجرة - فمعلوم أنهم كانوا مجتمعين عليه ، وكادوا يجعلونه ملكا على أنفسهم لولا أن هاجر رسول الله ﷺ وآمنوا به - كتبوا إليه وإلى أصحابه المشركين يقولون لهم في كلمات باتة :-

إنكم أويتم صاحبنا ، وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه ، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا ، حتى نقتل مقاتلتكم ، ونستبيح نساءكم (١) .

وبمجرد بلوغ هذا الكتاب قام عبد الله بن أبي ليمثل أوامر إخوانه المشركين من أهل مكة - وقد كان يحقد على النبي ﷺ ، لما يراه أنه استلبه ملكه - يقول عبد الرحمن بن كعب : فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي ومن كان معه من عبدة الأوثان اجتمعوا لقتال رسول الله ﷺ ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم ، فقال : لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم ، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم ، فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا (٢) .

امتنع عبد الله بن أبي ابن سلول عن إرادة القتال عند ذلك ؛ لما رأى خورا أو رشدا في أصحابه ، ولكن يبدو أنه كان متواطئا مع قريش ، فكان لا يجد فرصة إلا وينتهزها لإيقاع الشر بين المسلمين والمشركين ، وكان يضم معه اليهود ؛ ليعينوه على ذلك .، ولكن تلك هي حكمة النبي ﷺ التي كانت تطفئ نار شرهم حيناً بعد حين (٣) .

إعلان عزيمة الصد عن المسجد الحرام :

ثم إن سعد بن معاذ انطلق إلى مكة معتمرا ، فنزل على أمية بن خلف بمكة ، فقال لأمية : انظر لي ساعة خلوة لعلني أن أطوف بالبيت ، فخرج به قريبا من لقف النهار ، فلقيهما أبو جهل فقال : يا أبا صفوان ، من هذا معك ؟ فقال : هذا سعد ، فقال له أبو جهل

(٢) نفس المصدر .

(١) أبو داود باب خبر النضير .

(٣) انظر في هذا الصد صحيح البخاري ٢ / ٦٥٥ ، ٦٥٦ ، ٩١٦ ، ٩٢٤ .

: ألا أراك تطوف بمكة آمنا وقد آويتم الصبابة ، وزعمتم أنكم تنصرونهم ، وتعينونهم ، أما والله لو لا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلِكَ سالما ، فقال له سعد ورفع صوته عليه : أما والله لئن منعني هذا لأمنعك ما هو أشد عليك منه ، طريقك على أهل المدينة (١) .

قريش تهدد المهاجرين :

ثم إن قريشا أرسلت إلى المسلمين تقول لهم : لا يغرنكم أنكم أفلتمونا إلى يشرب وسنأتيكم فنستأصلكم ونبيد خضراءكم في عقد داركم (٢) .

ولم يكن هذا كله وعيدا مجردا ، فقد تأكد عند رسول الله ﷺ من مكائد قريش وإرادتها على الشر ما كان لأجله لا يبيت إلا ساهرا ، أو في حرس من الصحابة ، فقد روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : سهر رسول الله ﷺ مقدمه المدينة ليلة ، فقال : ليت رجلا صالحا من أصحابي يحرسني الليلة ، قالت فبينما نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح ، فقال : من هذا ؟ قال : سعد بن أبي وقاص ، فقال له رسول الله ﷺ : ما جاء بك ؟ فقال : وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ ، فجئت أحرسه ، فدعاه رسول الله ، ثم نام (٣) .

ولم تكن هذه الحراسة مختصة بالليالي بل كان ذلك أمرا مستمرا ، فقد روى عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يحرس ليلا ، حتى نزل ﷻ والله يعصمك من الناس ، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة و فقال : يا أيها الناس انصرفوا عني فقد عصمني الله عز وجل (٤) .

ولم يكن الخطر مقتصرًا على رسول الله ﷺ ، بل على المسلمين كافة ، فقد روى أبي ابن كعب ، قال : لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة ، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه .

الإذن بالقتال :

في هذه الظروف الخطيرة التي كانت تهدد كيان المسلمين بالمدينة ، والتي كانت تنبئ عن قريش أنهم لا يفيقون عن غيهم ، ولا يمتنعون عن تمردهم بحال ، أنزل الله تعالى الإذن بالقتال للمسلمين ، ولم يفرضه عليهم قال تعالى : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ (٢٢ : ٣٩) .

(٢) رحمة للعالمين ١ / ١١٦ .

(١) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ٢ / ٥٦٣ .

(٣) مسلم باب فضل سعد بن أبي وقاص ٢ / ٢٨٠ واللفظ له ، وصحيح البخاري - باب الحراسة في الغزو في سبيل

(٤) جامع الترمذي أبواب التفسير ٢ / ١٣٠ .

الله ١ / ٤٠٤ .

وأُنزل هذه الآية ضمن آيات أرشدتهم إلى أن هذا الإذن إنما هو لإزاحة الباطل ، وإقامة شعائر الله ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ (٢٢ : ٤١) .

والصحيح الذى لا مندوحة عنه أن هذا الإذن إنما نزل بالمدينة بعد الهجرة ، لا بمكة ، ولكن لا يمكن لنا القطع بتحديد ميعاد النزول .

نزل الإذن بالقتال ، ولكن كان من الحكمة إزاء هذه الظروف - التى مبعثها الوحيد هو قوة قريش وتمردّها - أن ييسط المسلمون سيطرتهم على طريق قريش التجارية المؤدية من مكة إلى الشام ، واختار رسول الله ﷺ لبسط هذه السيطرة خطتين :

الأولى : عقد معاهدات الحلف أو عدم الاعتداء مع القبائل التى كانت مجاورة لهذا الطريق ، أو كانت تقطن ما بين هذا الطريق وما بين المدينة ، وقد أسلفنا معاهدته - ﷺ - مع اليهود ، وكذلك كان عقد معاهدة الحلف أو عدم الاعتداء مع جهينة قبل الأخذ فى النشاط العسكرى ، وكانت مساكنهم على ثلاثة مراحل من المدينة ، وقد عقد معاهدات أثناء دورياته العسكرية وسيأتى ذكرها .

الثانية : إرسال البعثات واحدة تلو الأخرى إلى هذا الطريق .

الغزوات والسرايا قبل بدر (١) :

ولتنفيذ هاتين الخطتين بدأ فى المسلمين النشاط العسكرى فعلا بعد نزول الإذن بالقتال وقاموا بحركات عسكرية هى أشبه بالدوريات الاستطلاعية ، وكان المطلوب منها هو الذى أشرنا إليه من الاستكشاف والتعرف على الطرق المحيطة بالمدينة ، والمسالك المؤدية إلى مكة ، وعقد المعاهدات مع القبائل التى مساكنها على هذه الطرق ، وإشعار مشركى يثرب ويهودها وأعراب البادية الضاريين حولها بأن المسلمين أقوياء ، وأنهم تخلصوا من ضعفهم القديم ، وإنذار قريش عقبى طيشها ، حتى تفيق عن غيها الذى لا تزال تتوغل فى أعماقه ، وعليها تشعر بتفاقم الخطر على اقتصادها وأسباب معاشها فتجنىح إلى السلم ، وتمتنع عن إرادة قتال المسلمين فى عقر دارهم ، وعن الصد عن سبيل الله ، وعن تعذيب المستضعفين من المؤمنين فى مكة ، حتى يصير المسلمون أحرارا فى إبلاغ رسالة الله فى ربوع الجزيرة .

وفيما يلى أحوال هذه السرايا بالإيجاز :

١ - سرية سيف البحر ، فى رمضان سنة ١ هـ . الموافق مارس سنة ٦٢٣ م . أمر

(١) سُمى المؤرخون ما خرج فيه النبى ﷺ بنفسه غزوة ، حارب فيها أم لم يحارب وما خرج فيه أحد قادته سرية .

رسول الله ﷺ على هذه السرية حمزة بن عبد المطلب ، وبعثه في ثلاثين رجلا من المهاجرين ، يعترض عيرا لقريش جاءت من الشام ، وفيها أبو جهل بن هشام في ثلاثمائة رجل ، فبلغوا سيف البحر من ناحية العيص (١) . فالتقوا واصطفوا للقتال ، فمشى مجدى ابن عمرو الجهنى - وكان حليفا للفريقين جميعا - بين هؤلاء وهؤلاء ، حتى حجز بينهم ، فلم يقتلوا .

وكان لواء حمزة أول لواء عقده رسول الله ﷺ ، وكان أبيض ، وكان حامله أبا مرثد كنان بن حصين الغنوى .

٢ - سرية رابغ ، في شوال سنة ١ من الهجرة - أبريل سنة ٦٢٣ م بعث رسول الله ﷺ عبيدة ابن الحارث بن المطلب في ستين راكبا من المهاجرين ، فلقى أبا سفيان - وهو في مائتين - على بطن رابغ ، وقد ترامي الفريقان بالنبل ، ولم يقع قتال .

وفي هذه السرية انضم رجلا من جيش مكة إلى المسلمين ، وهما المقداد بن عمرو البهراني ، وعتبة بن غزوان المازني ، وكانا مسلمين ، خرجا مع الكفار ؛ ليكون ذلك وسيلة للوصول إلى المسلمين . وكان لواء عبيدة أبيض ، وحامله مسطح بن أثاثة بن المطلب بن عبد مناف .

٣ - سرية الخرار (٢) ، في ذى القعدة سنة ١ هـ الموافق مايو ٦٢٣ م ، بعث رسول الله ﷺ سعد بن أبي وقاص في عشرين راكبا ، يعترضون عيرا لقريش ، وعهد إليه أن لا يجاوز الخرار ، فخرجوا مشاة يكمنون بالنهار ويسكرون بالليل حتى بلغوا الخرار صبيحة خمس ، فوجدوا العير قد مرت بالأمس .

كان لواء سعد رضى الله عنه أبيض ، وحمله المقداد بن عمرو .

٤ - غزوة الأبواء أو ودان (٣) - في صفر سنة ٢ هـ الموافق أغسطس سنة ٦٢٣ م ، خرج رسول الله ﷺ بنفسه ، بعد أن استخلف على المدينة سعد بن عباد ، في سبعين رجلا من المهاجرين خاصة ، يعترض عيرا لقريش حتى بلغ ودان ، فلم يلق كيذا .

وفي هذه الغزوة عقد معاهدة حلف مع عمرو بن مخشى الضمرى ، وكان سيد بني ضمرة في زمانه ، وهاك نص المعاهدة :

هذا كتاب من محمد رسول الله لبنى ضمرة ، فإنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم ،

(١) العيص - بالكسر - مكان بين ينبع والمروة ناحية البحر الأحمر .

(٢) الخرار - بالفتح - فالتشديد - موضع بالقرب من الجحفة .

(٣) ودان - بالفتح - فالتشديد - موضع بين مكة والمدينة ، بينه وبين رابغ مما يلي المدينة تسعة وعشرون ميلا ، والأبواء

موضع بالقرب من ودان .

وإن لهم النصر على من رامهم إلا أن يحاربوا دين الله ، ما بل بحر صوفة ، وإن النبي إذا دعاهم لنصره أجابوه (١) .

وهذه أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ ، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة ، وكان اللواء أبيض ، وحامله حمزة بن عبد المطلب .

٥ - غزوة بواط ، فى شهر ربيع الأول سنة ٢ هـ سبتمبر سنة ٦٢٣ م ، خرج رسول الله ﷺ فى مائتين من أصحابه ، يعترض عيراً لقريش فيها أمية بن خلف الجمحى ومائة رجل من قريش ، وألفان وخمسمائة بعير ، فبلغ بواطاً من ناحية رضوى (٢) ولم يلق كيذا . واستخلف فى هذه الغزوة على المدينة سعد بن معاذ ، واللواء كان أبيض ، وحامله سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه .

٦ - غزوة سفوان ، فى شهر ربيع الأول سنة ٢ هـ سبتمبر سنة ٦٢٣ م أغار كرز بن جابر الفهري فى قوات خفيفة من المشركين على مراعى المدينة ، ونهب بعض المواشي ، فخرج رسول الله ﷺ فى سبعين رجلاً من أصحابه لمطاردته ، حتى بلغ وادياً يقال له سفوان من ناحية بدر ، ولكنه لم يدرك كرزاً وأصحابه ، فرجع من دون حرب ، وهذه الغزوة تسمى بغزوة بدر الأولى .

واستخلف فى هذه على المدينة زيد بن حارثة ، وكان اللواء أبيض ، وحامله على بن أبى طالب .

٧ - غزوة ذى العشيرة - فى جمادى الأولى ، وجمادى الآخرة سنة ٢ هـ الموافق نوفمبر وديسمبر سنة ٦٢٣ م ، خرج رسول الله ﷺ فى خمسين ومائة ويقال : فى مائتين ، من المهاجرين ، ولم يكره أحداً على الخروج ، وخرجوا على ثلاثين بعيراً يعتقبونها ، يعترضون عيراً لقريش ، ذاهبة إلى الشام ، وقد جاء الخبر بفصولها من مكة فيها أموال لقريش ، فبلغ ذا العشيرة (٣) ، فوجد العير قد فاتته بأيام ، وهذه هى العير التى خرج فى طلبها حين رجعت من الشام ، فصارت سبياً غزوة بدر الكبرى .

وكان خروجه ﷺ فى أواخر جمادى الأولى ، ورجوعه فى أوائل جمادى الآخرة على ما قاله ابن إسحاق ، ولعل هذا هو سبب اختلاف أهل السير فى تعيين شهر هذه الغزوة .

(١) انظر المواهب اللدنية ١ / ٧٥ وشرحه للزرقانى .

(٢) بواط (بالضم) ورضوى ، جبلان فرعان أصهما من جبال جهينة : مما يلى طريق الشام ، بينه وبين المدينة نحو أربعة برد . (٣) العشيرة - مصغراً ، ويقال : العشيرة بالمد ، وقيل : العسيرة بالمهمله - موضع بناحية ينبع .

وفى هذه الغزوة عقد رسول الله ﷺ معاهدة عدم اعتداء مع بنى مدلج وحلفائهم من بنى ضمرة .

واستخلف على المدينة فى هذه الغزوة أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومى ، وكان اللواء فى هذه الغزوة أبيض ، وحامله حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه .

٨ - سرية نخلة - فى رجب سنة ٢ هـ الموافق سنة ٦٢٤ م ، بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش الأسدى إلى نخلة فى اثنى عشر رجلا من المهاجرين ، كل اثنين يعتقبان على بعير .

وكان رسول الله ﷺ كتب له كتابا ، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ، ثم ينظر فيه . فسار عبد الله ، ثم قرأ الكتاب بعد يومين ، فإذا فيه « إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف ، فترصد بها عير قريش : وتعلم لنا من أخبارهم » فقال : سمعنا وطاعة ، وأخبر أصحابه بذلك ، وأنه لا يستكرههم ، فمن أحب الشهادة فلينهض ، ومن كره الموت فليرجع ، وأما أنا فناهض ، فنهضوا كلهم ، غير أنه لما كان فى أثناء الطريق أضل سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان بعيرا لهما كانا يعتقبانه ، فتخلفا فى طلبه .

وسار عبد الله بن جحش حتى نزل بنخلة ، فمرت عير لقريش تحمل زبيبا وأدما وتجارة ، وفيها عمرو بن الحضرمى وعثمان ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان مولى بنى المغيرة ، فتشاور المسلمون وقالوا : نحن فى آخر يوم من رجب ، الشهر الحرام ، فإن قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام ، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم ، ثم اجتمعوا على اللقاء فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمى فقتله ، وأسروا عثمان والحكم وأفلت نوفل ، ثم قدموا بالبعير والأسيرين إلى المدينة ، وقد عزلوا من ذلك الخمس ، وهو أول خمس كان فى الإسلام ، وأول قتيل فى الإسلام ، وأول أسيرين فى الإسلام .

وأنكر رسول الله ﷺ ما فعلوه ، وقال : ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام ، ووقف التصرف فى العير والأسيرين .

ووجد المشركون فيما حدث فرصة لاتهام المسلمين بأنهم قد أحلوا ما حرم الله ، وكثر فى ذلك القيل والقال ، حتى نزل الوحي حاسما هذه الأقاويل ، وأن ما عليه المشركون أكبر وأعظم مما ارتكبه المسلمون ..

﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير ، وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام ، وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ﴾ (٢: ٢١٧) .

فقد صرح هذا الوحي بأن الضجة التى افتعلها المشركون لإثارة الريبة فى سيرة

المقاتلين المسلمين لا مسأغ لها ، فإن الحرمات المقدسة قد انتهكت كلها فى محاربة الإسلام ، واضطهاد أهله ، ألم يكن المسلمون مقيمين بالبلد الحرام حين تقرر سلب أموالهم وقتل نبيهم ؟ فما الذى أعاد لهذه الحرمات قداستها فجأة ، فأصبح انتهاكها معرة وشناعة ؟ لا جرم أن الدعاية التى أخذ ينشرها المشركون دعاية تبتنى على وقاحة ودعارة .

وبعد ذلك أطلق رسول الله ﷺ سراح الأسيرين ، وأدى دية المقتول إلى أوليائه (١) .

تلکم السريا والغزوات قبل بدر ، لم يجر فى واحدة منها سلب الأموال وقتل الرجال ، إلا بعد ما ارتكبه المشركون فى قيادة كرز بن جابر الفهري ، فالبداية إنما هى من المشركين مع ما كانوا قد أوتوه قبل ذلك من الأفاعيل .

وبعد وقوع ما وقع فى سرية عبد الله بن جحش تحقق خوف المشركين ، وتجدد أمامهم الخطر الحقيقى ، ووقعوا فيما كانوا يخشون الوقوع فيه ، وعلموا أن المدينة فى غاية من التيقظ والتربص ، تترقب كل حركة من حركاتهم التجارية ، وأن المسلمين يستطيعون أن يزحفوا إلى ثلاثمائة ميل تقريبا ، ثم يقتلوا ويأسروا رجالهم ، ويأخذوا أموالهم ، ويرجعوا سالمين غانمين ، وشعر هؤلاء المشركون بأن تجارتهم إلى الشام أمام خطر دائم ، لكنهم بدل أن يفيقوا عن غيهم ويأخذوا طريق الصلاح والموادعة - كما فعلت جهينة وبنو ضمرة - ازدادوا حقدًا وغيظًا ، وصمم صناديدهم وكبرأؤهم على ما كانوا يوعدون ويهددون به من قبل ، من إبادة المسلمين فى عقر دارهم ، وهذا هو الطيش الذى جاء بهم إلى بدر .

أما المسلمون فقد فرض الله عليهم القتال بعد وقعة سرية عبد الله بن جحش ، فى شهر شعبان سنة ٢ هـ ، وأنزل فى ذلك آيات بينات ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقتهموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ، والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فإن قاتلوكم فاقتلوهم ، كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾ (٢ : ١٩٠ : ١٩١ : ١٩٢ : ١٩٣)

ثم لم يلبث أن أنزل الله تعالى عليهم آيات من نوع آخر ، يعلم فيها طريقة القتال ، ويحثهم عليه ، وبين لهم بعض أحكامه ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى

(١) أخذنا تفاصيل هذه السرايا والغزوات من زاد المعاد ٢/ ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، وابن هشام ١ / ٥٦١ إلى ٦٠٥ ،

ورحمة للعالمين ١ / ١١٥ ، ١١٦ ، ٢ / ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ وفى المصادر اختلاف فى ترتيب

هذه الغزوات والسرايا ، وفى تعيين عدد الخارجين فيها - واعتمدنا فى ذلك على تحقيق العلامة ابن القيم والعلامة

المنصور فورى .

إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق، فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها، ذلك، ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض، والذين قتلوا في سبيل الله فلن يصل أعمالهم. سيهديهم ويصلح بالهم. ويدخلهم الجنة عرفها لهم، يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴿٤٧: ٤، ٥، ٦، ٧﴾ (١).

ثم ذم الله الذين طفتت أفئدتهم ترجف وتخفق حين سمعوا الأمر بالقتال: ﴿فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت﴾ الآية (٤٧: ٢٠)

وإيجاب القتال والحض عليه، والأمر بالاستعداد له هو عين ما كانت تقتضيه الأحوال ولو كان هناك قائد يسير أغوار الظروف لأمر جنده بالاستعداد لجميع الطوارئ، فكيف بالرب العليم المتعال، فالظروف كانت تقتضي عراقا داميا بين الحق والباطل، وكانت وقعة سرية عبد الله بن جحش ضربة قاسية على غيرة المشركين وحميتهم، آلتهم، وتركتهم يتقلبون على مثل الجمر.

وآيات الأمر بالقتال تدل بفحواها على قرب العراك الدامي، وأن النصر والغلبة فيه للمسلمين نهائيا، انظر كيف يأمر الله المسلمين بإخراج المشركين من حيث أخرجوهم، وكيف يعلمهم أحكام الجند المتغلب في الأسارى، والإيخان في الأرض، حتى تضع الحرب أوزارها، هذه كلها إشارة إلى غلبة المسلمين نهائيا. ولكن ترك كل ذلك مستورا؛ حتى يأتي كل رجل بما فيه من التحمس في سبيل الله.

وفي هذه الأيام - في شعبان ٢ هـ / فبراير ٦٢٤ م - أمر الله تعالى بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، وأفاد ذلك أن الضعفاء والمنافقين من اليهود الذين كانوا قد دخلوا في صفوف المسلمين لإثارة البلبلة انكشفوا عن المسلمين، ورجعوا إلى ما كانوا عليه، وهكذا تطهرت صفوف المسلمين عن كثير من أهل الغدر والخيانة.

وفي تحويل القبلة إشارة لطيفة إلى بداية دور جديد، لا ينتهى إلا بعد احتلال المسلمين هذه القبلة، أو ليس من العجب أن تكون قبلة قوم بيد أعدائهم، وإن كانت بأيديهم فلا بد من تخليصها يوما ما.

وبعد هذه الأوامر والإشارات زاد نشاط المسلمين، واشتدت نزعاتهم إلى الجهاد في سبيل الله ولقاء العدو في معركة فاصلة.

(١) حقق الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودي تحقيقا مدللا أن سورة محمد نزلت قبل بدر، راجع تفهيم القرآن ٥ / ١١، ١٢.

غزوة بدر الكبرى

أول معركة من معارك الإسلام الفاصلة

سبب الغزوة :

قد أسلفنا في ذكر غزوة العشيرة أن عيرا لقريش أفلتت من النبي ﷺ في ذهابها من مكة إلى الشام ، ولما قرب رجوعها من الشام إلى مكة بعث رسول الله ﷺ طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد إلى الشمال ، ليقوما باكتشاف خبرها فوصلا إلى الحوراء ، ومكثا حتى مر بهما أبو سفيان بالعين ، فأسرعا إلى المدينة ، وأخبرا رسول الله ﷺ بالخبر .

كانت العير مركبة من ثروات طائلة من أهل مكة ، ألف بعير موقرة بالأموال ، لا تقل عن خمسين ألف دينار ذهبي ، ولم يكن معها من الحرس إلا نحو أربعين رجلا .

إنها فرصة ذهبية لعسكر المدينة ، وضربة عسكرية وسياسية واقتصادية قاصمة ضد المشركين لو أنهم فقدوا هذه الثروة الطائلة ، لذلك أعلن رسول الله ﷺ في المسلمين قائلا : هذه عير قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها .

ولم يعزم على أحد بالخروج ، بل ترك الأمر للرغبة المطلقة ، لما أنه لم يكن يتوقع عند هذا الانتداب أنه سيصطدم بجيش مكة - بدل العير - هذا الاصطدام العنيف في بدر ولذلك تخلف كثير من الصحابة في المدينة ، وهم يحسبون أن مضي رسول الله ﷺ في هذا الوجه لن يعدو ما ألفوه في السرايا الماضية ، ولذلك لم ينكر على أحد تخلفه في هذه الغزوة .

مبلغ قوة الجيش الإسلامي وتوزيع القيادات :

واستعد رسول الله ﷺ للخروج ومعه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا (٣١٣ أو ٣١٤ ، ٣١٧ رجلا) ، ٨٢ أو ٨٣ أو ٨٦ من المهاجرين ، و ٦١ من الأوس و ١٧٠ من الخزرج ، ولم يحتفلوا لهذا الخروج احتفالا بليغا ، ولا اتخذوا أهبتهم كاملة ، فلم يكن معهم إلا فرسان ، فرس للزبير بن العوام ، وفرس للمقداد بن الأسود الكندي ، وكان معهم سبعون بعيرا ليعتقب الرجالان والثلاثة على بعير واحد ، وكان رسول الله ﷺ وعلى ومرثد بن أبي مرثد الغنوي يعتقبون بعيرا واحدا .

واستخلف على المدينة وعلى الصلاة ابن أم مكتوم ، فلما كان بالروحاء ردأبا لبابة بن عبد المنذر ، واستعمله على المدينة .

ودفع لواء القيادة العامة إلى مصعب بن عمير القرشى العبدري ، وكان هذا اللواء أبيض .

وقسم جيشه إلى كتيبتين :

١ - كتيبة المهاجرين ، وأعطى علمها على بن أبي طالب .

٢ - كتيبة الأنصار ، وأعطى علمها سعد بن معاذ .

وجعل على قيادة الميمنة الزبير بن العوام ، وعلى الميسرة المقداد بن عمرو - وكانا هما الفارسيين الوحيديين في الجيش كما أسلفنا - وجعل على الساقة قيس بن أبي صعصعة ، وظلت القيادة العامة في يده ﷺ كقائد أعلى للجيش .

الجيش الإسلامي يتحرك نحو بدر :

سار رسول الله ﷺ في هذا الجيش غير المتأهب ، فخرج من نقب المدينة ، ومضى على الطريق الرئيسي المؤدى إلى مكة ، حتى بلغ بئر الروحاء ولما ارتحل منها ، ترك طريق مكة بيسار ، وانحرف ذات اليمين على النازية (يريد بدرأ) ، فسلك في ناحية منها ، حتى جزع واديا يقال له رحقان ، بين النازية وبين مضيق الصفراء ، ثم مر على المضيق ، ثم انصب منه حتى قرب من الصفراء ، وهناك بعث بسيس بن عمر الجهني وعدى بن أبي الزغباء الجهني إلى بدر يتجسسان له أخبار العير .

النذير في مكة :

وأما خبر العير فإن أبا سفيان - وهو المسئول عنها - كان على غاية من الحيلة والحذر ، فقد كان يعلم أن طريق مكة محفوف بالأخطار ، وكان يتحسس الأخبار ، ويسأل من لقي من الركبان ، ولم يلبث أن نقلت إليه استخباراته بأن محمدا - ﷺ - قد استنفر أصحابه ليوقع بالعير ، وحينئذ استأجر أبو سفيان ضمضم بن عمرو الغفاري إلى مكة ، مستصرخا لقريش بالنفير إلى عيرهم ، ليمنعوه من محمد - ﷺ - وأصحابه ، وخرج ضمضم سريعا حتى أتى مكة ، فصرخ ببطن الوادي واقفاً على بعيره وقد جدع أنفه ، وحول رحله ، وثق قميصه ، وهو يقول : يا معشر قريش ، اللطيمة اللطيمة ، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه ، لا أرى أن تدركوها ، الغوث الغوث .

أهل مكة يتجهزون للغزو :

فتحفز الناس سراعاً ، وقالوا : أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي ؟ كلا ، والله ليعلمن غير ذلك ، فكانوا بين رجلين ، إما خارج وإما باعث مكانه رجلاً ، وأوعبوا في الخروج ، فلم يتخلف من أشرفهم أحد سوى أبي لهب ، فإنه عوض عنه

رجلا كان له عليه دين ، وحشدوا من حولهم من قبائل العرب ، ولم يتخلف عنهم أحد من بطون قريش إلا بنى عدى ، فلم يخرج منهم أحد .

قوام الجيش المكي :

وكان قوام هذا الجيش نحو ألف وثلاثمائة مقاتل فى بداية سيره ، وكان معه مائة فرس وستمائة درع ، وجمال كثيرة لا يعرف عددها بالضبط ، وكان قائده العام أبا جهل بن هشام ، وكان القائمون بتموينه تسعة رجال من أشرف قريش ، فكانوا ينحرون يوما تسعا ويوما عشرا من الإبل .

مشكلة قبائل بنى بكر :

ولما أجمع هذا الجيش على المسير ، ذكرت قريش ما كان بينها وبين بنى بكر من العداوة والحرب ، فخافوا أن تضربهم هذه القبائل من الخلف ، فيكونوا بين نارين ، فكاد ذلك يثنيهم ، ولكن حينئذ تبدى لهم إبليس فى صورة سراقه بن مالك بن جعشم المدلجى - سيد بنى كنانة - فقال لهم : أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشىء تكرهونه .

جيش مكة يتحرك :

وحينئذ خرجوا من ديارهم ، كما قال الله : ﴿ بطرا ورتاء الناس ويصدون عن سبيل الله ﴾ ، وأقبلوا كما قال رسول الله ﷺ « بحدهم وحديدهم ، يحادون الله ويحادون رسوله » ، ﴿ وغدوا على حرد قادرين ﴾ ، على حمية وغضب وحنق على رسول الله ﷺ وأصحابه ، لاجترأ هؤلاء على قوافلهم .

تحرخوا بسرعة فائقة نحو الشمال فى تجاه بدر ، وسلخوا فى طريقهم وادى عسفان ، ثم قديد ، ثم الجحفة ، وهناك تلقوا رسالة جديدة من أبى سفيان يقول لهم فيها : إنكم إنما خرجتم لتحرزوا غيركم ورجالكم وأموالكم ، وقد نجاها الله فارجعوا .

الغير تفلت :

وكان من قصة أبى سفيان أنه كان يسير على الطريق الرئيسى ، ولكنه لم يزل حذرا متيقظا ، وضاعف حركاته الاستكشافية ، ولما اقترب من بدر تقدم غيره ، حتى لقى مجدى ابن عمرو ، وسأله عن جيش المدينة ، فقال : ما رأيت أحدا أنكره ، إلا إنى قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل ، ثم استقيا فى شئ لهما ، ثم انطلقا ، فبادر أبو سفيان إلى مناخهما ، فأخذ من أبعاد بغيرهما ، ففته ، فإذا فيه النوى ، فقال : هذه والله علائف يثرب ، فرجع إلى غيره سريعا ، وضرب وجهها محولا اتجاهها نحو الساحل غربا ، تاركا الطريق الرئيسى الذى يمر ببدر على اليسار ، وبهذا نجا بالقافلة من الوقوع فى قبضة جيش المدينة ،

وأرسل رسالته إلى جيش مكة التي تلقاها في الجحفة .

هم الجيش المكي بالرجوع ووقوع الانشقاق فيه :

ولما تلقى هذه الرسالة جيش مكة هم بالرجوع ، ولكن قام طاغية قريش أبو جهل في كبرياء وغطرسة قائلاً : والله لا نرجع حتى نرد بدرًا ، فنقيم بها ثلاثاً فننحر الجزور ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف لنا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً .

ولكن على رغم أبي جهل أشار الأخنس بن شريق بالرجوع فعصوه ، فرجع هو وبنو زهرة - وكان حليفاً لهم ورئيساً عليهم في هذا النفير - فلم يشهد بدرًا زهري واحداً ، وكانوا حوالي ثلاثمائة رجل ، واغتبطت بنو زهرة بعد برأى الأخنس بن شريق ، فلم يزل فيهم مطاعاً معظمًا .

وأرادت بنو هاشم الرجوع ، فاشتد عليهم أبو جهل ، وقال : لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع .

فسار جيش مكة وقوامه ألف مقاتل بعد رجوع بني زهرة - وهو يقصد بدرًا - فواصل سيره حتى نزل قريباً من بدر ، وراء كثيب يقع بالعدوة القصوى على حدود وادي بدر .

حراجة موقف الجيش الإسلامي :

أما استخبارات جيش المدينة فقد نقلت إلى رسول الله ﷺ - وهو لا يزال في الطريق بوادي ذفران - خبر العير والنفير ، وتأكد لديه بعد التدبر في تلك الأخبار أنه لم يبق مجال للاجتناب عن لقاء دام ، وأنه لا بد من إقدام يبنى على الشجاعة والبسالة ، والجرأة ، والجسارة ، فمما لا شك فيه أنه لو ترك جيش مكة يجوس خلال تلك المنطقة يكون ذلك تدعيماً لمكانة قريش العسكرية ، وامتداداً لسلطانها السياسي ، وإضعافاً للكلمة المسلمين وتوهيناً لها ، بل ربما تبقى الحركة الإسلامية بعد ذلك جسداً لا روح فيه ، ويجرؤ على الشر كل من فيه حقد أو غيظ على الإسلام في هذه المنطقة .

وبعد هذا كله فهل يكون هناك أحد يضمن للمسلمين أن يمنع جيش مكة عن مواصلة سيره نحو المدينة ، حتى ينقل المعركة إلى أسوارها ، ويغزو المسلمين في عقر دارهم . كلا ، فلو حدث من جيش المدينة نكول ما لكان له أسوأ الأثر على هيئة المسلمين وسمعتهم .

المجلس الاستشاري :

ونظراً إلى هذا التطور الخطير المفاجيء عقد رسول الله ﷺ مجلساً عسكرياً استشارياً

أعلى ، أشار فيه إلى الوضع الراهن ، وتبادل فيه الرأي مع عامة جيشه ، وقادته . وحينئذ تزعزع قلوب فريق من الناس ، وخافوا اللقاء الدامي ، وهم الذين قال الله فيهم ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون . يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴾ . وأما قادة الجيش ، فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن ، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : « يا رسول الله ، امض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه » .

فقال له رسول الله ﷺ خيرا ودعاه به .

وهؤلاء القادة الثلاثة كانوا من المهاجرين ، وهم أقلية في الجيش ، فأحب رسول الله ﷺ أن يعرف رأى قادة الأنصار ، لأنهم كانوا يمثلون أغلبية الجيش ، ولأن ثقل المعركة سيدور على كواهلهم ، مع أن نصوص العقبة لم تكن تلزمهم بالقتال خارج ديارهم ، فقال بعد سماع كلام هؤلاء القادة الثلاثة : « أشيروا على أيها الناس » وإنما يريد الأنصار ، وفطن إلى ذلك قائد الأنصار وحامل لوائهم سعد بن معاذ ، فقال :

والله ، لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟

قال : أجل .

قال : « فقد آمنا بك ، فصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، إنا لصبر في الحرب ، صدق في اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله » .

وفي رواية أن سعد بن معاذ قال لرسول الله ﷺ : لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقا عليها أن لا تنصرك إلا في ديارهم وإني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم ، فاطعن حيث شئت ، وصل جبل من شئت واقطع جبل من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وأعطنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت ، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك ، فو الله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك ، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك .

فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ، ونشطه ذلك ، ثم قال : سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني الآن انظر إلى مصارع القوم .

الجيش الإسلامي يواصل سيره :

ثم ارتحل رسول الله ﷺ من ذفران ، فسلك على ثنايا يقال لها الأصافر ، ثم انحط منها إلى بلد يقال له الدية ، وترك الحنان يمين - وهو كثيب عظيم كالجبل - ثم نزل قريبا من بدر .

الرسول ﷺ يقوم بعملية الاستكشاف :

وهناك قام بنفسه بعملية الاستكشاف مع رفيقه في الغار أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وبينهما هما يتجولان حول معسكر مكة إذا هما بشيخ من العرب ، فسأله رسول الله ﷺ عن قريش وعن محمد وأصحابه - سأل عن الجيشين زيادة في التكتم - ولكن الشيخ قال : لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما ؟ فقال له رسول الله ﷺ : إذا أخبرتنا أخبرناك ، قال : أو ذاك بذلك ؟ قال : نعم .

قال الشيخ : فإنه بلغني أن محمدا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدق الذي أخبرني فهو اليوم بمكان كذا وكذا - للمكان الذي به جيش المدينة - وبلغني أن قريشا خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا - للمكان الذي به جيش مكة .

ولما فرغ من خبره قال : ممن أنتما ؟ فقال له رسول الله ﷺ نحن من ماء ثم انصرف عنه وبقي الشيخ يتفوه ، ما من ماء ؟ أمن ماء العراق ؟

الحصول على أهم المعلومات عن الجيش المكّي :

وفي مساء ذلك اليوم بعث استخباراته من جديد ، لبحث عن أخبار العدو ، وقام لهذه العملية ثلاثة من قادة المهاجرين ؛ علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي ما وقاص في نفر من أصحابه ، ذهبوا إلى ماء بدر ، فوجدوا غلامين يستقيان لجيش مكة ، فألقوا عليهما القبض وجاءوا بهما إلى الرسول ﷺ ، وهو في الصلاة ، فاستخبرهما القوم فقالا : نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء ، فكره القوم ورجوا أن يكونا لأبي سفيان . لا تزال في نفوسهم بقايا أمل في الاستيلاء على القافلة - فضربوهما ضربا موجعا ، حتى اضطر الغلامان أن يقولوا : نحن لأبي سفيان ، فتركوهما .

ولما فرغ رسول الله ﷺ عن الصلاة قال لهم كالعاتب : إذا صدقاكم ضربتموهما وإذا كذباكم تركتوهما ، صدقا والله ، إنهما لقريش .

ثم خاطب الغلامين قائلاً : أخبراني عن قريش ، قالوا : هم وراء هذا الكتيب الذي ترى بالعدوة القصوى ، فقال لهما : كم القوم : قالوا : كثير . قال : ما عدتهم ؟ قالوا : لا ندري ، قال : كم ينحرون كل يوم ؟ قالوا : يوماً تسعة ويوماً عشراً ، فقال رسول الله ﷺ : القوم فيما بين التسعمائة إلى الألف ، ثم قال لهما : فمن فيهم من أشرف قريش ؟ قالوا : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو البختري بن هشام ، وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر ، وطعيمة بن عدى ، والنضر بن الحارث وزمعة بن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وأميمة بن خلف في رجال سميهم .

فأقبل رسول الله ﷺ على الناس ، فقال : هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها .

نزول المطر :

وأنزل الله عز وجل في تلك الليلة مطراً واحداً ، فكان على المشركين وابلاً شديداً منعهم من التقدم ، وكان على المسلمين طلاً طهرهم به ، وأذهب عنهم رجس الشيطان ، ووطأ به الأرض ، وصلب به الرمل ، وثبت الأقدام ، ومهد به المنزل ، وربط به على قلوبهم .
الجيش الإسلامي يسبق إلى أهم المراكز العسكرية :

وتحرك رسول الله ﷺ بجيشه ، ليسبق المشركين إلى ماء بدر ، ويحول بينهم وبين الاستيلاء عليه ، فنزل عشاء أدنى ماء من مياه بدر ، وهنا قام الحباب بن المنذر كخبير عسكري وقال : يا رسول الله ، أرايت هذا المنزل ، أمنزلاً أنزلك الله ، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة ، قال : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم - قريش - فننزله ونغور - أي نخرب - ما وراءه من القلب ، ثم نبني عليه حوضاً ، فنملأه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون ، فقال رسول الله ﷺ : لقد أشرت بالرأي .

فنهض رسول الله ﷺ بالجيش ، حتى أتى أقرب ماء من العدو . فنزل عليه شطر الليل ، ثم صنعوا الحياض ، وغوروا ما عداها من القلب .

مقر القيادة :

وبعد أن تم نزول المسلمين على الماء اقترح سعد بن معاذ على رسول الله ﷺ أن يبنى المسلمون مقراً لقيادته ، استعداداً للطوارئ ، وتقديراً للهزيمة قبل النصر ، حيث قال : « يا نبي الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ونعد عندك ركائبك ، ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك ، فلحققت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حياء منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحوك ، ويجاهدون

معك» .

فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً ، ودعاه بخير ، وبني المسلمون عريشاً على تل مرتفع يقع فى الشمال الشرقى لميدان القتال ، ويشرف على ساحة المعركة .

كما تم انتخاب فرقة من شباب الأنصار بقيادة سعد بن معاذ ، يحرسون رسول الله ﷺ حول مقر قيادته .

تعبئة الجيش وقضاء الليل :

ثم عبأ رسول الله ﷺ جيشه (١) ، ومشى فى موضع المعركة ، وجعل يشير بيده : هذا مصرع فلان غدا إن شاء الله ، وهذا مصرع فلان غدا إن شاء الله (٢) ثم بات رسول الله ﷺ يصلى إلى جذع شجرة هنالك ، وبات المسلمون ليلاً هادئى الأنفاس منيرى الآفاق ، غمرت الثقة قلوبهم وأخذوا من الراحة قسطهم ، يأملون أن يروا بشائر ربهم بعيونهم صباحاً ﴿ إذ يغشىكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام ﴾ (٨ : ١١) .

كانت هذه الليلة ليلة الجمعة ، السابع عشر من رمضان فى السنة الثانية من الهجرة ، وكان خروجه فى ٨ أو ١٢ من نفس الشهر .

الجيش المكي فى عرصة القتال ووقوع الانشقاق فيه :

أما قريش ؛ فقضت ليلتها هذه فى معسكرها بالعدوة القصوى ، لما أصبحت أقبلت فى كتابها ، ونزلت من الكثيب إلى وادى بدر ، وأقبل نفر منهم إلى حوض رسول الله ﷺ ، فقال : دعوهم ، فما شرب أحد منهم يومئذ إلا قتل ، سوى حكيم بن حزام ، فإنه لم يقتل ، وأسلم بعد ذلك ، وحسن إسلامه ، وكان إذا اجتهد فى اليمين قال : لا والذي نجاني من يوم بدر ، فلما اطمأنت قريش بعث عمير بن وهب الجمحى ؛ للتعرف على مدى قوة جيش المدينة ، فدار عمير بفرسه حول العسكر ، ثم رجع إليهم فقال : ثلاثمائة رجل ، يزيدون قليلاً أو ينقصون ، ولكن أمهلونى حتى أنظر ألقوم كمين أو مدد ؟ فضرب فى الوادى حتى أبعد ، فلم ير شيئاً ، فرجع إليهم فقال : ما وجدت شيئاً ، ولكنى قد رأيت يا معشر قريش البلى يا تحمل المنايا ، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع ، قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجل منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادكم ، فما خير العيش بعد ذلك ، فروا رأيكم .

(١) انظر جامع الترمذى أبواب الجهاد ، باب ما جاء فى الصف والتعبئة ١ / ٢٠١ .

(٢) رواه مسلم عن أنس ، انظر مشكاة المصابيح ٢ / ٥٤٣ .

وحينئذ قامت معارضة أخرى ضد أبي جهل - المصمم على المعركة - تدعوا إلى العودة بالجيش إلى مكة دونما قتال ، فقد مشى حكيم بن حزام في الناس ، وأتى عتبة بن ربيعة فقال : يا أبا الوليد إنك كبير قريش ، وسيدها والمطاع فيها ، فهل لك إلى خير تذكر به إلى آخر الدهر ؟ قال : وما ذاك يا حكيم ؟ قال : ترجع بالناس ، وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي - المقتول في سرية نخلة - فقال عتبة : قد فعلت ، أنت ضامن على بذلك ، إنما هو حليفى فعلى عقله دينه وما أصيب من ماله .

ثم قال عتبة لحكيم بن حزام : فأنت ابن الحنظلية - أبا جهل ، والحنظلية أمه - فإني لا أخشى أن يشجر أمر الناس غيره .

ثم قام عتبة بن ربيعة خطيبا فقال : يا معشر قريش ، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا ، والله لئن أصبتموه لا يزال ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن أصابوه فذاك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون .

وانطلق حكيم بن حزام إلى أبي جهل - وهو يهيم درعاه - فقال بأبا الحكم إن عتبة أرسلنى إليك بكذا وكذا ، فقال أبو جهل : انتفخ والله سحره حين رأى محمدا وأصحابه ، كلا ، والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، وما بعثه ما قال ، ولكنه رأى أن محمدا وأصحابه أكلة جزور ، وفيهم ابنه - وهو أبو حذيفة بن عتبة كان قد أسلم قديما وهاجر - فتخوفكم عليه .

ولما بلغ عتبة قول أبي جهل : « انتفخ والله سحره » ، قال عتبة : سيعلم من انتفخ سحره ، أنا أم هو ؟ وتعجل أبو جهل مخافة أن تقوى هذه المعارضة ، فبعث على إثر هذه المحاورة إلى عامر بن الحضرمي - أخى عمرو بن الحضرمي المقتول في سرية عبد الله بن جحش - فقال : هذا حليفك (أى عتبة) يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيت ثأرك بعينك فقم فانشد خفرتك ، ومقتل أخيك ، فقام عامر ، فكشف عن استه ، وصرخ : واعمرأه ، واعمرأه فحمى القوم ، وحقب أمرهم ، واستوثقوا على ما هم عليه من الشر ، وأفسد على الناس الرأى الذى دعاهم إليه عتبة ، وهكذا تغلب الطيش على الحكمة ، وذهبت هذه المعارضة دون جدوى .

الجيشان يتراءان :

ولما طلع المشركون ، وتراءى الجمعان قال رسول الله ﷺ : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها ، تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى ، اللهم أحنهم الغداة » . وقد قال رسول الله ﷺ - ورأى عتبة بن ربيعة فى القوم على جمل له أحمر إن يكن فى أحد من القوم خير فعند الجمل الأحمر ، إن يطيعوه يرشدوا .

وعدل رسول الله ﷺ صفوف المسلمين ، وبينما هو يعدلها وقع أمر عجيب ، فقد كان في يده قدح يعدل به ، وكان سواد بن غزية مستنصلا من الصف ، فطعن في بطنه بالقدح وقال : استو ياسواد ، فقال سواد : يا رسول الله أوجعتني فأقذني ، فكشف عن بطنه ، وقال : استقد ، فاعتنقه سواد ، وقبل بطنه ، فقال : ما حملك على هذا يا سواد : قال : يا رسول الله قد حضر ما ترى ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك ، فدعاه رسول الله ﷺ بخير .

ولما تم تعديل الصفوف أصدر أوامره إلى جيشه بأن لا يبدأوا القتال حتى يتلقوا منه الأوامر الأخيرة ، ثم أدلى إليهم بتوجيه خاص في أمر الحرب فقال : إذا أكثبوكم - يعني كثروكم - فارموهم ، واستبقوا نبلكم ^(١) ، ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم ^(٢) ، ثم رجع إلى العريش هو وأبو بكر خاصة ، وقام سعد بن معاذ بكتيبة الحراسة على باب العريش .

أما المشركون فقد استفتح أبو جهل ذلك اليوم فقال : اللهم أقطعنا للرحم ، وآتانا بما لا نعرفه ، فأحنه الغداة ، اللهم ، أينما كان أحب إليك وأرضى عندك فانصره اليوم ، وفي ذلك أنزل الله ﷻ ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ، وإن تنتهوا فهو خير لكم ، وإن تعدوا نعد ، ولن تغني عنكم فتكتكم شيئا ولو كثرت ، وأن الله مع المؤمنين ﴾ (٨ : ١٩) .

ساعة الصفر وأول وقود المعركة :

وكان أول وقود المعركة الأسود بن عبد الأسد المخزومي - وكان رجلا شرسا سييء الخلق - خرج قائلا : أعاهد الله لأشربن من حوضهم ، أو لأهدمنه أو لأموتن دونه . فلما خرج خرج إليه حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه ، فلما التقيا ضربه حمزة ، فأطن قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض ، فوقع على ظهره تشخب رجله دما نحو أصحابه ، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه ، يريد أن تبر يمينه ، ولكن حمزة ثنى عليه بضربة أخرى أتت عليه وهو داخل الحوض .

المبارزة :

وكان هذا أول قتل أشعل نار المعركة ، فقد خرج بعده ثلاثة من خيرة فرسان قريش كانوا من عائلة واحدة ، وهم عتبة وأخوه شيبه ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة ، فلما انفصلوا من الصف طلبوا المبارزة ، فخرج إليهم ثلاثة من شباب الأنصار ، عوف ومعوذ ابنا الحارث - وأمهما عفراء - - وعبد الله بن رواحة ، فقالوا : من أنتم ؟ قال : رهط من الأنصار . قالوا : أكفاء كرام ، ما لنا بكم حاجة ، وإنما نريد بنى عمنا ، ثم نادى مناديهم : يا محمد ، أخرج

(٢) سنن أبي داود في سل السيوف عند اللقاء ١٣ / ٢ .

(١) صحيح البخارى ٥٦٨ / ٢ .

إلينا أكفاءنا من قومنا، فقال رسول الله ﷺ : قم يا عبيدة بن الحارث ، وقم يا حمزة ، وقم يا علي ، فلما قاموا ودنوا منهم ، فقالوا : من أنتم ؟ فأخبروهم ، فقالوا : أنتم أكفاء كرام ، فبارز عبيدة - وكان أسن القوم - عتبة بن ربيعة ، وبارز حمزة شيبه ، وبارز علي الوليد^(١) ، فأما حمزة وعلي فلم يمهلأ قرنيهما أن قتلاهما ، وأما عبيدة فاختلف بينه وبين قرنه ضربتان فأثخن كل واحد منهما صاحبه ، ثم كر علي وحمزة علي عتبة فقتلاه واحتملا عبيدة ، وقد قطعت رجله ؛ فلم يزل صمتا حتى مات بالصفراء بعد أربعة أو خمسة أيام من وقعة بدر ، حينما كان المسلمون في طريقهم إلى المدينة .

وكان علي يقسم بالله إن هذه الآية نزلت فيهم ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم﴾ الآية .

الهجوم العام :

وكانت نهاية هذه المبارزة بداية سيئة بالنسبة إلى المشركين وفقدوا ثلاثة من خيرة فرسانهم وقادتهم دفعة واحدة ، فاستشاطوا غضبا وكروا على المسلمين كرة رجل واحد . وأما المسلمون فبعد أن استنصروا ربهم ، واستغاثوه ، وأخلصوا له ، وتضرعوا إليه ، تلقوا هجمات المشركين المتوالية ، وهم مرابطون في مواقعهم ، واقفون موقف الدفاع ، وقد ألحقوا بالمشركين خسائر فادحة ، وهم يقولون : أحد أحد .

الرسول ﷺ يناشد ربه :

وأما رسول الله ﷺ ؛ فكان منذ رجوعه بعد تعديل الصفوف يناشد ربه ما وعده من النصر ويقول اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك . حتى إذا حمى الوطيس واستدارت رحى الحرب بشدة واحتدم القتال ، وبلغت المعركة قمتها ، قال : اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد ، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبدا . وبالغ في الابتهاال حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فرده عليه الصديق ، وقال : حسبك يا رسول الله ، ألححت على ربك .

وأوحى الله إلى ملائكته ﴿ أني معكم فثبتوا الدين آمنوا ، سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ ، وأوحى إلى رسوله ﴿ أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾ - أي أنهم ردف لكم ، أو يردف بعضهم بعضا أرسالا ، لا يأتون دفعة واحدة .

نزول الملائكة :

(١) هذا ما قاله ابن إسحاق ، وفي رواية أحمد وأبي داود أن عبيدة بارز الوليد ، وعلي بارز شيبه وحمزة بارز عتبة .

وأغفى رسول الله ﷺ إغفائه واحدة ، ثم رفع رأسه فقال : أبشريا أبا بكر ، هذا جبريل على ثنياه النقع (أى الغبار) . وفى رواية إسحاق : قال رسول الله ﷺ : « أبشريا أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل أخذ بعنان فرسه يقوده ، على ثنياه النقع » .

ثم خرج رسول الله ﷺ من باب العريش ، وهو يثب فى الدرع ، ويقول : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ (٥٤ : ٤٥) ، ثم أخذ حفنة من الحصباء ، فاستقبل بها قريشا وقال : شأهت الوجوه ، ورمى بها فى وجوههم ، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينه ومنخره وفمه من تلك القبضة ، وفى ذلك أنزل الله : ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ (١٧ : ٨) .

الهجوم المضاد :

وحيث أصدر إلى جيشه أوامره الأخيرة بالهجمة المضادة فقال : شدوا ، وحرضهم على القتال ، قائلا : والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة ، ، وقال وهو يحضهم على القتال : قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض ، (وحيث) قال العمير بن الحمام : بخ . بخ ، فقال رسول الله ﷺ : ما يحملك على قولك : بخ . بخ ؟

قال لا ، والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها ، قال : فإنك من أهلها فأخرج تمرات من قرنه ، فجعل يأكل منهن ، ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها لحياة طويلة ، فرمى بما كان معه من التمر ، ثم قاتلهم حتى قتل (١) .

وكذلك سأل عوف بن الحارس - ابن عفراء - فقال : يا رسول الله ما يضحك الرب من عبده ! قال غمسه يده فى العدو حاسرا ، فنزع درعا كانت عليه ، فقذفها ، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل .

وحين أصدر رسول الله ﷺ الأمر بالهجوم المضاد كانت حدة هجمات العدو قد ذهبت ، وفتّر حماسه ، فكان لهذه الخطة الحكيمة أثر كبير فى تعزيز موقف المسلمين ، فإنهم حينما تلقوا أمر الشد والهجوم - وقد كان نشاطهم الحربى على شبابه - قاموا بهجوم كاسح مرير ، فجعلوا يقلبون الصفوف ، ويقطعون الأعناق ، وزادهم نشاطا وحدة أن رأوا رسول الله ﷺ يثب فى الدرع ، ويقول فى جزم وصراحة (سيهزم الجمع ويولون الدبر) فقاتل المسلمون أشد القتال ، ونصرتهم الملائكة ، وفى رواية ابن سعد عن عكرمة قال : كان يومئذ يندر رأس الرجل لا يدرى من ضربه ، وتندر يد الرجل لا يدرى من ضربها ، وقال ابن عباس : بينما رجل من المسلمين يشتد فى إثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه ، وصوت الفارس يقول : أقدم حيزوم . فنظر إلى المشرك أمامه ، فجاء

الأنصارى فحدث بذلك رسول الله ﷺ ، فقال : صدقت ، وذلك من مدد السماء الثالثة (١) . وقال أبو داود المازنى : إني لأتبع رجلا من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفى ، فعرفت أنه قد قتله غيرى . وجاء رجل من الأنصار بالعباس بن عبد المطلب أسيرا ، فقال العباس : إن هذا والله ما أسرنى ، لقد أسرنى رجل أجلع من أحسن الناس وجها على فرس أبقى ، وما أراه فى القوم ، فقال الأنصارى : أنا أسرته يا رسول الله ، فقال : اسكت فقد أيدك الله بملك كريم .

إبليس ينسحب عن ميدان القتال :

ولما رأى إبليس - وكان قد جاء فى صورة سراقه بن مالك بن جعشم المدلجى كما ذكرنا ، ولم يكن فارقهم منذ ذلك الوقت - فلما رأى ما يفعل الملائكة بالمشركين فر ونكص على عقبيه ، وتشبهت به الحارث بن هشام - وهو يظنه سراقه - فوكز فى صدر الحارث فألقاه ، ثم خرج هاربا ، وقال له المشركون : إلى أين يا سراقه ؟ ألم تكن قلت : إنك جار لنا ، لا تفارقنا ؟ فقال : إني أرى ملا ترون ، إني أخاف الله ، والله شديد العقاب ، ثم فر حتى ألقى نفسه فى البحر .

الهزيمة الساحقة :

وبدأت أمارات الفشل والاضطراب فى صفوف المشركين ، وجعلت تتهدم أمام حملات المسلمين العنيفة ، واقتربت المعركة من نهايتها ، وأخذت جموع المشركين فى الفرار والانسحاب المبدد ، وركب المسلمون ظهورهم يأسرون ويقتلون حتى تمت عليهم الهزيمة .

صمود أبى جهل :

أما الطاغية الأكبر أبو جهل ، فإنه لما رأى أول أمارات الاضطراب فى صفوفه حاول أن يصمد فى وجه هذا السيل ، فجعل يشجع جيشه ، ويقول لهم فى شراسة ومكابرة : لا أن يصمد فى وجه هذا السيل ، فجعل يشجع جيشه ، ويقول لهم فى شراسة ومكابرة : لا يهزم منكم خزلان سراقه إياكم ، فإنه كان على ميعاد من محمد ، ولا يهولنكم قتل عتبة وشيبة والوليد ، فإنهم قد عجلوا ، فواللات والعزى لا نرجع حتى نقرنهم بالحبال ، ولا ألفين رجلا منكم قتل منهم رجلا ، ولكن خذوهم أخذا ، حتى نعرفهم بسوء صنيعهم ،

ولكن سرعان ما تبدى له حقيقة هذه الغطوسة ، فما لبث إلا قليلا حتى أخذت الصفوف تتصدع أمام تيارات هجوم المسلمين نعم بقى حوله عصاة من المشركين ، ضربت حوله سياجا من السيوف وغابات من الرماح ، ولكن عاصفة هجوم المسلمين بددت هذه السياج وأقلعت هذه الغابات ، وحينئذ ظهر هذا الطاغية ورآه المسلمون

يجول على فرسه ، وكان الموت ينتظر أن يشرب من دمه بأيدي غلامين أنصارين .

مصرع أبي جهل :

قال عبد الرحمن بن عوف : إني لفي الصف يوم بدر إذ التفت ، فإذا عن يميني وعن يساري فتیان حديثا السن ، فكأنني لم آمن بمكانهما ، إذ قال لي أحدهما سرا من صاحبه : يا عم ، أرني أبا جهل ، فقلت : يا ابن أخي ، فما تصنع به ؟ قال : أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ ، قال : والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادى سواده حتى يموت الأعجل منا ، فتعجبت لذلك . قال : وغمزني الآخر ، فقال لي مثلها ، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس ، فقلت : ألا تريان ؟ هذا صاحبكما الذي تسألاني عنه ، قال : فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه ، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ ، فقال : أيكما قتله ؟ فقال كل واحد منهما : أنا قتلت ، قال : هل مسحتما سيفيكما ؟ فقالا لا ، فنظر رسول الله ﷺ إلى السيفين ، فقال : كلا كما قتله ، وقضى رسول الله ﷺ بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح ، والرجلان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعوذ بن عفراء (١) .

وقال ابن إسحاق : قال معاذ بن عمرو بن الجموح : سمعت القوم ، وأبو جهل في مثل الحرجة - والحرجة : الشجر الملتف ، أو شجرة من الأشجار لا يوصل إليها ، شبه رماح المشركين وسيوفهم التي كانت حول أبي جهل لحفظه بهذه الشجرة - وهم يقولون : أبو الحكم لا يخلص إليه ، قال : فلما سمعتهما جعلته من شأني فصمدت نحوه ، فلما أمكنتني حملت عليه ، فضربت ضربة أطنت قدمه - أطارتها - بنصف ساقه ، فوالله ما شبعتها حين طاحت إلا بالنواة تطيح من تحت مرضخة النوى حين يضرب بها . قال : وضربني ابنه عكرمة على عاتقي ، فطرح يدي ، فتعلقت بجلدة من جنبي ، وأجهضني القتال عنه ، فلقد قاتلت عامة يومى وإني لأسحبها خلفي ، فلما آذنتي وضعت عليها قدمي ، ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها (٢) ثم مر بأبي جهل - وهو عقير - معوذ بن عفراء ، فضربه حتى أثبتته فتركه وبه رمق ، وقاتل معوذ حتى قتل .

ولما انتهت المعركة قال رسول الله ﷺ : من ينظر ما صنع أبو جهل ؟

فتفرق الناس في طلبه ، فوجده عبد الله بن مسعود رضى الله عنه وبه آخر رمق ، فوضع رجله على عنقه ، وأخذ لحيته ليحتد رأسه ، وقال : هل أخزأك الله يا عدو الله ؟ قال : وبماذا أخزاني ؟ أعمد من رجل قتلتموه (٣) ؟ أو هل فوق رجل قتلتموه ؟ وقال : فلو

(١) صحيح البخارى ١ / ٤٤٤ ، ٢ / ٥٦٨ ، مشكاة المصابيح ٢ / ٣٥٢ ، وإنما خص بالسلب واحدا منهما لأن الثانى

قتل شهيدا في نفس المعركة . (٢) بقى معاذ هذا إلى زمن عثمان بن عفان رضى الله عنه .

(٣) أى ليس على عار فلن أبعد أن أكون رجلا قتله قومه .

غير أكار قتلنى ، ثم قال : أخبرنى لمن الدائرة اليوم ؟ قال : لله ورسوله ، ثم قال لابن مسعود - وكان قد وضع رجله على عنقه - لقد ارتقيت مرتقى صعبا يا روى الغنم ، وكان ابن مسعود من رعاة الغنم فى مكة .

وبعد أن دار بينهما هذا الكلام احتز ابن مسعود رأسه ، وجاء به إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، هذا رأس عدو الله أبى جهل ، فقال : الله الذى لا إله إلا هو ؟ فرددها ثلاثا ، ثم قال : الله أكبر ، الحمد لله الذى صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، وانطلق أرنيه فانطلقنا فأريته إياه فقال : هذا فرعون هذه الأمة .

من روائع الإيمان فى هذه المعركة :

لقد أسلفنا نموذجين رائعين من عمير بن الحمام وعوف بن الحارث - ابن عفراء - وقد تجلت فى هذه المعركة مناظر رائعة ، تبرز فيها قوة العقيدة وثبات المبدأ ، وفى هذه المعركة التقى الآباء بالأبناء ، والإخوة بالإخوة ، خالفت بينهما المبادئ ، ففصلت بينهما السيوف ، والتقى المقهور بقاهره ، فشفى منه غيظه .

١ - روى ابن إسحاق عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال لأصحابه : إني قد عرفت أن رجالا من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها ، لا حاجة لهم بقتالنا فمن لقي أحدا من بنى هاشم فلا يقتله ، ومن لقي أبا البختري بن هشام فلا يقتله ، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله ، فإنه إنما أخرج مستكرها ، فقال أبو حذيفة بن عتبة : أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس والله لئن لقيت لألجمنه - أو لألجمنه - بالسيف ، فبلغت رسول الله ﷺ ، فقال لعمر بن الخطاب : يا أبا حفص ، أ يضرب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف . فقال عمر : يا رسول الله ، دعني فلا أضرب عنقه بالسيف ، فوالله لقد نافق .

فكان أبا حذيفة يقول ما أنا بآمن من تلك الكلمة التى قلت يومئذ ، لا أزال منها خائفا إلا أن تكفرها عنى الشهادة . فقتل يوم اليمامة شهيدا .

٢ - وكان النهى عن قتل أبى البختري ، لأنه كان أكف القوم عن رسول الله ﷺ وهو بمكة وكان لا يؤذيه ولا يبلغ عنه شئ يكرهه ، وكان ممن قام فى نقض صحيفة مقاطعة بنى هاشم وبنى عبد المطلب .

ولكن أبا البختري قتل على رغم هذا كله ، وذلك أن المجذر بن زياد البلوى لقيه فى المعركة ومعه زميل له ، يقاتلان سويا فقال المجذر : يا أبا البختري إن رسول الله ﷺ قد نهانا عن قتلك ، فقال ك وزميلي ؟ فقال المجذر : لا والله ما نحن بتاركى زميلك ، فقال : والله إذن لأموتن أنا وهو جميعا ، ثم اقتتلا ، فاضطر المجذر إلى قتله .

٣ - كان عبد الرحمن بن عوف وأمّية بن خلف صديقين فى الجاهلية بمكة ، فلما كان يوم بدر مر به عبد الرحمن أذراع قد استلبها وهو يحملها ، فلما رآه قال : هل لك فى ؟ فأنا خير من هذه الأذراع التى معك ، ما رأيت كاليوم قط ، أما لك حاجة فى اللبن ؟ يريد أن أسرتى افتديت منه بإبل كثيرة اللبن - فطرح عبد الرحمن الأذرع ، وأخذهما يمشى بهما ، قال عبد الرحمن : قال لى أمّية بن خلف وأنا بينه وبين ابنه : من الرجل منكم المعلم بريشة النعامة فى صدره ؟ قلت : ذاك حمزة بن عبد المطلب ، قال : ذاك الذى فعل بنا الأفاعيل .

قال عبد الرحمن : فوالله لأقودهما إذ رآه بلال معى ، وكان أمّية هو الذى يعذب بلالا بمكة ، فقال بلال : رأس الكفر أمّية ابن خلف ، لا نجوت إن نجنا قلت : أى بلال ، أسيرى قال : لا نجوت إن نجنا . قلت : أتسمع يا ابن السوداء . قال : لا نجوت إن نجنا . ثم صرخ بأعلى صوته : يا أنصار الله ، رأس الكفر أمّية بن خلف ، لا نجوت إن نجنا ، قال : فأحاطوا بنا حتى جعلونا فى مثل المسكة ، وأنا أذهب عنه ، قال : فأخلف رجل السيف فضرب رجل ابنه فوق ، وصاح أمّية صيحة ما سمعت مثلها ، فقلت انج بنفسك ، ولا نجاء بك ، فوالله ما أغنى عنك شيئا . قال فهبروهما بأسيا فهم حتى فرغوا منهما ، فكان عبد الرحمن يقول : يرحم الله بلالا ، ذهبت أذراعى ، وفجعنى ياسيرى .

وفى زاد المعاد أن عبد الرحمن بن عوف قال لأمّية : ابرك ، فألقى نفسه عليه ، فضربوه بالسيف من تحته حتى قتلوه ، وأصاب بعض السيف رجل عبد الرحمن بن عوف (١) .

٤ - وقتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه يومئذ خاله العاص بن هشام بن المغيرة .

٥ - ونادى أبو بكر الصديق رضى الله عنه ابنه عبد الرحمن - وهو يومئذ مع المشركين - فقال : أين مالى يا خبيث ؟ فقال عبد الرحمن : لم يبق غير شكة ويعبوب وصارم يقتل ضلال الشيب (٢) .

٦ - ولما وضع القوم أيديهم يأسرون ، ورسول الله ﷺ فى العريش ، وسعد بن معاذ قائم على بابة يحرسه متوشحا سيفه ، رأى رسول الله ﷺ فى وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس ، فقال له : والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم ؟ قال : أجل والله يا رسول الله .

كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإثخان فى القتل بأهل الشرك أحب

(١) زاد المعاد ٢ / ٨٩ . (٢) الشكة : السلاح . ويعبوب : الفرس الكثير الجري .

إلى من استبقاء الرجال .

٧ - وانقطع يومئذ سيف عكاشة بن محصن الأسدي ، فأتى رسول الله ﷺ فأعطاه جدلاً من حطب ، فقال : بهذا يا عكاشة ، فلما أخذه من رسول الله ﷺ هزة ، فعاد سيفاً في يده طويل القامة ، شديد المتن أبيض الحديد ، فقاتل به حتى فتح الله تعالى للمسلمين ، وكان ذلك السيف يسمى العون ، ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد ، حتى قتل في حروب الردة وهو عنده .

٨ - وبعد انتهاء المعركة مر مصعب بن عمير العبدري بأخيه أبي عزيز بن عمير ، الذي خاض المعركة ضد المسلمين ، مر به وأحد الأنصار يشد يده ، فقال مصعب للأنصاري : شد يدك به ، فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك ، فقال أبو عزيز لأخيه مصعب : أهذه وصاتك بي ؟ فقال مصعب : إنه - أي الأنصاري - أخى دونك .

٩ - ولما أمر بإلقاء جيف المشركين في القليب ، وأخذ عتبة بن ربيعة فسحب إلى القليب ، نظر رسول الله ﷺ في وجه ابنه أبي حذيفة ، فإذا هو كئيب قد تغير ، فقال : يا أبا حذيفة لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء ؟ فقال لا والله يا رسول الله ، ما شككت في أبي ولا مصرعه ، ولكنني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام ، فلما رأيت ما أصابه ، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له أحزنني ذلك . فدعا له رسول الله ﷺ بخير وقال له خيراً .

قتلى الفريقين :

انتهت المعركة بهزيمة ساحقة بالنسبة إلى المشركين ، وبفتح مبين بالنسبة للمسلمين ، وقد استشهد من المسلمين في هذه المعركة أربعة عشر رجلاً ، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار .

أما المشركون فقد لحقتهم خسائر فادحة ، قتل منهم سبعون وأسر سبعون ، وعامتهم القادة والزعماء والصناديد .

ولما انقضت الحرب أقبل رسول الله ﷺ حتى وقف على القتلى ، فقال : بئس العشيرة كنتم لنبيكم ، كذبتموني وصدقني الناس ، وخذلتُموني ونصرني الناس ، وأخرجتموني وآواني الناس ، ثم أمر بهم ، فسحبوا إلى قليب من قلب بدر .

وعن أبي طلحة أن نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش فخذفوا في طوى من أطواء بدر خبيث مخبث . وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال ، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر بإحلاته فشد عليها رحلها ، ثم مشى ، وأتبعه أصحابه حتى قام على شفة الركي ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم ، يا فلان ابن فلان ، يا فلان ابن فلان ، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله ؟ فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ فقال عمر : يا رسول الله ماتكلم من أجساد لا أرواح لها ؟ قال النبي ﷺ : والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، وفي رواية ما أنتم بأسمع منهم ، ولكن لا يجيئون . (١) .

مكة تتلقى نبا الهزيمة :

فر المشركون من ساحة بدر في صورة غير منظمة ، تبعثروا في الوديان والشعاب ، واتجهوا صوب مكة مذعورين ، لا يدرون كيف يدخلونها خجلا .

قال ابن إسحاق : وكان أول من قدم بمصاب قريش الحيسمان بن عبد الله الخزاعي ، فقالوا : ما وراءك ؟ قال : قتل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو الحكم بن هشام ، وأمية بن خلف في رجال من الزعماء سماهم . فلما أخذ يعد أشراف قريش قال صفوان بن أمية وهو قاعد في الحجر : والله إن يعقل هذا ، فاسألوه عني ، قالوا : ما فعل صفوان بن أمية قال : هاهو ذا جالس في الحجر ، وقد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا .

وقال أبو رافع - مولى رسول الله ﷺ - : كنت غلاما للعباس ، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت ، فأسلم العباس ، وأسلمت أم الفضل ، وأسلمت ، وكان العباس يكتب إسلامه ، كان أبولهب قد تخلف عن بدر فلما جاءه الخبر كبته الله وأخزاه ، ووجدنا في أنفسنا قوة وعزا ، وكنت رجلا ضعيفا أعمل الأقداح ، أنحتها في حجرة زمزم ، فوالله

إني لجالس فيها أنحت أقداحي ، وعندى أم الفضل جالسة وقد سرنا ما جاءنا من الخبر إذ أقبل أبو لهب يجبر رجله بشر، حتى جلس على طنب الحجره (١)، فكان ظهره إلى ظهري، فبينما هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم، فقال له أبو لهب: هلم إلي، فعندك لعمرى الخبر، قال: فجلس إليه، والناس قيام عليه فقال: يا ابن أخي أخبرني كيف كان أمر الناس؟ قال: ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا، يقتلوننا كيف شاءوا، ويأسروننا كيف شاءوا، وإيم الله مع ذلك ما ملت الناس، لقينا رجال بيض على خيل بلق بين السماء والأرض، والله ما تُلَيِّق (٢) شيئا، ولا يقوم لها شيء.

قال أبو رافع: فرفعت طنب الحجره بيدي، ثم قلت: تلك والله الملائكة. قال: فرفع أبو لهب يده، فضرب بها وجهي ضربة شديدة، فشاورته فاحتملني. فضرب بي الأرض، ثم برك على يضربني، وكنت رجلا ضعيفا، فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجره، فأخذته، فضربت به ضربة فعلت في رأسه شجة منكرة، وقالت: استضعفته أن غاب عنه سيده، فقام موليا ذليلا، فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة فقتلته (وهي قرحة تتشاءم بها العرب، فتركه بنوه، وبقي ثلاثة أيام لا تقرب جنازته، ولا يحاول دفنه، فلما خافوا السبة في تركه حفروا له، ثم دفنوه بعود في حفرتة، وقذفوه بالحجارة من بعيد حتى واروه).

هكذا تلقت مكة أنباء الهزيمة الساحقة في ميدان بدر.، وقد أثر ذلك فيهم أثرا سيئا جدا، حتى منعوا النياحة على القتلى، لئلا يشمت بهم المسلمون.

ومن الطرائف أن الأسود بن المطلب أصيب ثلاثة من أبنائه يوم بدر، وكان يحب أن يبكي عليهم، وكان ضرير البصر، فسمع ليلا صوت نائحة. فبعث غلامه، وقال: انظر هل أحل النحب؟ هل بكت قريش على قتلها؟ لعلى أبكى على أبي حكيمة - ابنه - فإن جوفى قد احترق، فرجع الغلام وقال: إنما هي امرأة تبكى على بعير لها أضلته، فلم يتمالك الأسود نفسه وقال:

أتبكي أن يضل لها بعير
فلا تبكي على بكر ولكن
على بدر سرارة بنى هصيص
وبكى إن بكيت على عقيل
وبكيهم، ولا تسمى جميعاً
ألا قد ساد بعدهم رجال

ويمنعها من النوم السهود
على بدر تقاصرت الجودود
ومخزوم ورهط أبى الوليد
وبكى حارثاً أسد الأسود
وما لأبى حكيمة من نديد
ولولا يوم بدر لم يسودوا

المدينة تتلقى أبناء النصر :

ولما تم الفتح للمسلمين أرسل رسول الله ﷺ بشيرين إلى أهل المدينة ، ليجعل لهم البشرى ، أرسل عبد الله بن رواحة بشيراً إلى أهل العالية ، وأرسل زيد بن حارثة بشيراً أهل السافلة ، وكان اليهود والمنافقون قد أرجفوا المدينة بإشاعة الدعايات الكاذبة ، حتى أنهم أشاعوا خبر مقتل النبي ﷺ ، لما رأى أحد المنافقين زيد بن حارثة راكباً القصواء - ناقة رسول الله ﷺ - قال : لقد قتل محمد ، وهذه ناقته نعرفها ، وهذا زيد لا يدرى ما يقول من الرعب ، وجاء فلا (١) ، فلما بلغ الرسول أن أحاط بهما المسلمون ، وأخذوا يسمعون منهما الخبر حتى تأكد لديهم فتح المسلمين ، فعمت البهجة والسرور ، واهتزت أرجاء المدينة تهليلاً وتكبيراً ، وتقدم رعوس المسلمين - الذين كانوا بالمدينة - إلى طريق بدر ، ليهتئوا رسول الله ﷺ بهذا الفتح المبين ، قال أسامة بن زيد أتانا الخبر حين سوينا التراب على رقية بنت رسول الله ﷺ التي كانت عند عثمان بن عفان ، كان رسول الله ﷺ خلفني عليها مع عثمان

الجيش النبوي يتحرك نحو المدينة:

أقام رسول الله ﷺ ببدر بعد انتهاء المعركة ثلاثة أيام ، وقبل رحيله من مكان المعركة وقع خلاف بين الجيش حول الغنائم ، ولما اشتد هذا الخلاف أمر رسول الله ﷺ بأن يرد الجميع ما بأيديهم ، ففعلوا ثم نزل الوحي بحل هذه المشكلة ، عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع النبي ﷺ ، فشهدت معه بدرأ فالتقى الناس ، فهزم الله العدو ، فانطلقت طائفة في آثارهم يطاردون ويقتلون ، وأكبت طائفة على المغنم يحرزونه ويجمعونه ، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة ، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها ، وليس لأحد فيها نصيب وقال الذين خرجوا في طلب العدو : لستم أحق بها منا ، نحن نحينا منها العدو وهمناه ، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ : خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به ، فأُنزل الله

(١) فلا : منهزماً .

﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول﴾ ، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ﴿٨:١﴾ فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين (١) ، وبعد أن أقام رسول الله ﷺ ببدر ثلاثة أيام تحرك بجيشه نحو المدينة ومعه الأسارى من المشركين ، واحتمل معه النفل الذى أصيب من المشركين ، وجعل عليه عبد الله بن كعب فلما خرج من مضيق الصفراء نزل على كثيب بين المضيق وبين النازية ، وقسم هنالك الغنائم على المسلمين على السواء ، بعد أن أخذ منها الخمس ، وعندما وصل إلى الصفراء أمر بقتل النضر بن الحارث - وكان هو حامل لواء المشركين يوم بدر ، وكان من أكابر مجرمى قريش ، ومن أشد الناس كيدا للإسلام ، وإيذاء لرسول الله ﷺ فضرب عنقه على بن أبى طالب ، ولما وصل إلى عرق الظبية أمر بقتل عقبة بن أبى معيط ، وقد أسلفنا بعض ما كان عليه من إيذاء رسول الله ﷺ ، فهو الذى كان ألقى سلا جزور على رأس رسول الله ﷺ وهو فى الصلاة ، وهو الذى خنقه برذائه ، وكاد يقتله لولأن يعرض أبو بكر رضى الله عنه ، فلما أمر بقتله قال : من للصبية يا محمد ؟ قال : النار (٢) قتله عاصم بن ثابت الأنصارى ، ويقال على بن أبى طالب ، وكان قتل هذيه الطاغيتين واجبا من حيث وجهة الحرب ، فلم يكونا من الأسارى فحسب ، بل كانا من مجرمى الحرب بالإصطلاح الحديث

وفد التهئة

إلى الروحاء لقيه رعوس المسلمين - الذين كانوا قد خرجوا للتهئة والإستقبال حين سمعوا بشارة الفتح من الرسولين - يهئونونه بالفتح . وحينئذ قال لهم سلمة بن سلامة : ما الذى تهئونونا به ؟ فوالله إن لقينا إلا عجائز صلعا كالبدن ، فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال : يا ابن أخى أولئك الملاء ، وقال أسيد بن حضير : يارسول الله ، الحمد لله الذى أظفرك ، وأقر عينك ، والله يارسول الله ما كان تخلفى عن بدر وأنا أظن تلقى عدوا ، ولكن ظننت أنها غير ، ولو ظننت أنه عدو ما تخلفت ، فقال رسول الله ﷺ : صدقت ثم دخل رسول الله ﷺ المدينة مظفرا منصورا ، قد خافه كل عدو له بالمدينة وحولها ، فأسلم بشر كثير من أهل المدينة ، وحينئذ دخل عبد الله بن أبى وأصحابه فى الإسلام ظاهرا ، وقدم الأسارى بعد بلوغه المدينة بيوم فقسمهم على أصحابه ، وزوصى بهم خيرا ، فكان الصحابة يأكلون التمر ، ويقدمون لأسرائهم الخبز عملا بوصية رسول الله ﷺ

(١) أخرجه أحمد ٣٢٤، ٣٢٣/٥ ، والحاكم ٣٢٦/٢ .

(٢) روى ذلك أصحاب الصحاح ، انظر سنن أبى داود حاشيته عون المعبود ١٢/٣

قضية الأسارى:

ولما بلغ رسول الله ﷺ المدينة استشار أصحابه فى الأسارى ، فقال أبو بكر : يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ، وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية ، فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار ، وعسى أن يهديهم الله ، فيكونوا لنا عضداً ، فقال رسول الله : ماترى يا ابن الخطاب ؟ قال : قلت : والله ما أرى ما رأى أبو بكر ولكن أرى أن تمكننى من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه ، وتمكن علياً من عقيل بن أبي طالب فيضرب عنقه وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه ، حتى يعلم الله أنه ليست فى قلوبنا هودة للمشركين ، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم ، فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ، ولم يهو ما قلت ، وأخذ منهم الفداء ، فلما كان من الغد قال عمر : فغدوت إلى النبی ﷺ وأبى بكر ، وهما يكيان ، فقلت يا رسول الله أخبرنى ما ذا يكيك أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجذبكاء تباكيت لبكائكما ، فقال رسول الله ﷺ للذى عرض على أصحابك : من أخذهم الفداء ، فقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة - شجرة قرية (١) وأنزل الله تعالى ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾ (٨: ٦٧ ، ٦٨) والكتاب الذى سبق من الله هو قوله تعالى ﴿ فإما منا بعد وإما فداء ﴾ (٤٧: ٤) ففيه الإذن بأخذ الفدية من الأسارى ولذلك لم يعذبوا ، وإنما نزل العتاب لأنهم أسروا الكفار قبل أن يثخنوا فى الأرض ، ثم إنهم قبلوا الفداء من أولئك المجرمين الذين لم يكونوا أسرى حرب فقط ، بل كانوا مجرمى الحرب الذين لا يتركهم قانون الحرب الحديث إلا ويحاكمهم ، ولا يكون الحكم فى الغالب إلا بالإعدام أو بالحبس حتى الموت ، واستقر الأمر على رأى الصديق فأخذ منهم الفداء ، وكان الفداء من أربعة آلاف درهم ، إلى ثلاثة آلاف درهم ، إلى ألف درهم ، وكان أهل مكة يكتبون وأهل المدينة لا يكتبون ، فمن لم يكن عنده فداء دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة يعلمهم ، فإذا حذقوا فهو فداء

(١) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ٣٦

ومن رسول الله ﷺ على عدة من الأسارى ، فأطلقهم بغير فداء ، منهم : المطلب بن حنطب ، وصيفى بن أبى رفاعه ، وأبو عزة الجمحى ، وهو الذى قتله أسرا فى أحد ، وسيأتى .

ومن على ختنه أبى العاص بشرط أن يخلى سبيل زينب ، وكانت قد بعثت فى فدائه بمال ، بعثت فيه بقلادة لها كانت عند خديجة ، أدخلتها بها على أبى العاص ، فلما رآها رسول الله ﷺ رقى لها رقة شديدة ، واستأذن أصحابه فى إطلاق أبى العاص ففعلوه ، واشترط رسول الله ﷺ على أبى العاص أن يخلى سبيل زينب ، فخلاها ، فهاجرت ، وبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلا من الأنصار ، فقال : كونا بيطن يأجج حتى تمر بكما زينب فتصحباهما ، فخرجا حتى رجعا بها ، وقصة هجرتها طويلة مؤلمة .

وكان فى الأسرى سهيل بن عمرو ، وكان خطيبا مصقعا ، فقال عمر : يا رسول الله ، انزع ثنيتى سهيل بن عمرو يدلع لسانه ، فلا يقوم خطيبا عليك فى موطن أبدا ، بيد أن رسول الله ﷺ رفض هذا الطلب ، احترازا عن المثلة ، وعن بطش الله يوم القيامة .

وخرج سعد بن النعمان معتمرا فحبسه أبو سفيان ، وكان ابنه عمرو بن أبى سفيان فى الأسرى ، فبعثوا به إلى أبى سفيان فخلى سبيل سعد .

القرآن يتحدث حول موضوع المعركة :

وحول موضوع هذه المعركة نزلت سورة الأنفال ، وهذه السورة تعليق إلهى - إن صح هذا التعبير - على هذه المعركة ، يختلف كثيراً عن التعليقات التى ينطق بها الملوك والقواد بعد الفتح .

إن الله تعالى لفت أنظار المسلمين - أولا - إلى التقصيرات والتفاريظ الأخلاقية التى كانت قد بقيت فيهم ، وصدرت بعضها منهم ، ليسعروا فى تكميل نفوسهم وتزكيتها عن هذه التفاريظ .

ثم ثنى بما كان فى هذا الفتح من تأييد الله وعونه ونصره بالغيب للمسلمين . ذكر لهم ذلك لئلا يغتروا بشجاعتهم وبسالتهم ، فتتسور نفوسهم الغطرسة والكبرياء ، بل ليتوكلوا على الله ويطيعوه ويطيعوا رسوله عليه الصلاة والسلام .

ثم بين لهم الأهداف والأغراض النبيلة التى خاض الرسول ﷺ لأجلها هذه المعركة الدامية الرهيبة ، ودلهم على الصفات والأخلاق التى تسببت فى الفتح وفى المعرك .

ثم خاطب المشركين والمنافقين واليهود وأسارى المعركة ، وعظهم موعظة بليغة ، تهديهم إلى الاستسلام للحق والتقىد به .

ثم خاطب المسلمين حول موضوع الغنائم ، وقن لهم مبادئ وأسس هذه المسألة .

ثم بين وشرع لهم من قوانين الحرب ، والسلم ما كانت الحاجة تمس إليها بعد دخول الدعوة الإسلامية في هذه المرحلة ، حتى تمتاز حروب المسلمين عن حروب أهل الجاهلية ، ويقوم لهم التفوق في الأخلاق والقيم والمثل ، ويتأكد للدنيا أن الإسلام ليس مجرد وجهة نظرية ، بل إنه يثقف أهله عمليا على الأسس والمبادئ التي يدعو إليها .

ثم قرر بنودا من قوانين الدولة الإسلامية التي تقيم الفرق بين المسلمين الذين يسكنون داخل حدودها ، والذين يسكنون خارجها .

وفي السنة الثانية من الهجرة فرض صيام رمضان ، وفرضت زكاة الفطر ، وبيئت أنصبة الزكاة الأخرى ، وكانت فريضة زكاة الفطر وتفصيل أنصبة الزكاة الأخرى ، تخفيفا لكثير من الأوزار التي يعانيتها عدد كبير من المهاجرين اللاجئين ، الذين كانوا فقراء لا يستطيعون ضربا في الأرض .

ومن أحسن المواقع وأروع الصدقات أن أول عيد تعيد به المسلمون في حياتهم هو العيد الذي وقع في شوال سنة ٢ هـ إثر الفتح المبين الذي حصلوا عليه في غزوة بدر ، فما أروع هذا العيد السعيد الذي جاء به الله بعد أن توج هاستهم بتاج الفتح والعز ، وما أروع منظر تلك الصلاة التي صلوها بعد أن خرجوا من بيوتهم يرفعون أصواتهم بالتكبير والتوحيد والتحميد ، وقد فاضت قلوبهم رغبة إلى الله ، وحنينا إلى رحمته ورضوانه بعد ما أولاهم من النعم ، وأيدهم به من النصر ، وذكرهم بذلك قائلا : ﴿ واذكروا إذا أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴾ (٨ : ٢٦) .

النشاط العسكري بين بدر وأحد

إن معركة بدر كانت أول لقاء مسلح بين المسلمين والمشركين ، وكانت معركة فاصلة أكسبت المسلمين نصرا حاسما شهد له العرب قاطبة ، والذين كانوا أشد استياء لنتائج هذه المعركة هم أولئك الذين منوا بخسائر فادحة مباشرة ؛ وهم المشركين ، أو الذين كانوا يرون عزة المسلمين وغلبتهم ضربا قاصما على كيانهم الديني والاقتصادي ، وهم اليهود . فمنذ أن انتصر المسلمون في معركة بدر كان هذان الفريقان يحترقان غيظا وحنقا على المسلمين ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ﴾ (٥ : ٨٢) وكانت في المدينة بطانة للفريقين دخلوا في الإسلام حين لم يبق مجال لوقارهم ، وهم عبد

الله بن أبى وأصحابه ، ولم تكن هذه الفرقة الثالثة أقل غيظا من الأولين ..

وكانت هناك فرقة رابعة ، وهم البدو الضاربون حول المدينة ، لم يكن يهمهم مسألة الكفر والإيمان ، ولكنهم كانوا أصحاب سلب ونهب ، فأخذهم القلق ، واضطربوا لهذا الانتصار ، وخافوا أن تقوم فى المدينة دولة قوية تحول بينهم وبين اكتساب قوتهم عن طريق السلب والنهب فجعلوا يحقدون على المسلمين وصاروا لهم أعداء .

وهكذا أحاطت الأخطار بالمسلمين من كل جانب ، ولكن هذه الفرق تباينت فى سلوكها إزاء المسلمين ، وأخذ كل فريق الطريقة التى رآها كفيلة ببلوغ غايته . فبينما كانت المدينة وما حولها تظاهر بالإسلام ، وتأخذ فى طريق المؤامرات والفسائس والتحرشات والاستفزازات ، كانت فرقة من اليهود تعلن بالعداوة ، وتكاشف عن الحقد والغیظ ، وكانت مكة تهدد بالضرب القاصم وتعلن بأخذ الثأر والنقمة ، وتهتم بالتعبئة العامة جهارا ، وترسل إلى المسلمين بلسان حالها ، تقول بأنه :

ولا بد من يوم أغر محجل يطول استماعى بعده للنوادر

وفعلا ، فقد قادت غزوة قاصمة إلى أسوار المدينة عرفت فى التاريخ بغزوة أحد ، والتى كان لها أثر سيىء على سمعة المسلمين وهيبتهم .

وقد لعب المسلمون دورا هاما للقضاء على هذه الأخطار ، تظهر فيه عبقرية قيادة النبى ﷺ ، وما كان عليه من غاية التيقظ حول هذه الأخطار وما كان عليه من حسن التخطيط للقضاء عليها ، ونذكر فى السطور الآتية صورة مصغرة منها .

غزوة بنى سليم بالكدر

أول ما نقلت استخبارات المدينة إلى النبى ﷺ بعد بدر أن بنى سليم من قبائل غطفان تحشد قواتها للغزو على المدينة ، فباغت النبى ﷺ فى مائتي راكب هذه القبائل المتحشدة فى عقر دارها ، وبلغ إلى منازلهم فى موضع يقال له الكدر (١) . ففر بنو سليم وتركوا فى الوادى خمسمائة بعير استولى عليها جيش المدينة ، وقسمها رسول الله ﷺ بعد إخراج الخمس فأصاب كل رجل بعيرين ، وأصاب غلاما يقال له « يسار » فأعتقه .

وأقام النبى ﷺ فى ديارهم ثلاثة أيام ، ثم رجع إلى المدينة وكانت هذه الغزوة فى شوال سنة ٢ هـ بعد الرجوع من بدر بسبعة أيام واستخلف فى هذه الغزوة على المدينة سباع بن عرفطة . وقيل : ابن أم مكتوم (٢) .

(١) الكدر ، بالضم فالسكون : طير فى لونها كدرة ، وهو ماء من مياه بنى سليم يقع فى نجد على الطريق التجارية الشرقية الحيوية بين مكة والشام .

(٢) زاد المعاد ٢ / ٩٠ ، ابن هشام ٢ / ٤٣ ، ٤٤ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ٢٣٦ .

مؤامرة لاغتيال النبي ﷺ

كان من أثر هزيمة المشركين في وقعة بدر أن اشتاطوا غضبا ، وجعلت مكة تغلي كالمرجل ضد النبي ﷺ ، حتى تآمر بطلان من أبطالها أن يقضوا على مبدأ هذا الخلاف والشقاق ، ومثار هذا الذل والهوان في زعمهم ، وهو النبي ﷺ .

جلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية في الحجر بعد وقعة بدر بيسير - وكان عمير من شياطين قريش ، ممن كان يؤذى النبي ﷺ وأصحابه وهم بمكة - وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى بدر ، فذكر أصحاب القلب ومصابهم ، فقال صفوان : والله إن في العيش بعدهم خير .

قال له عمير : صدقت والله ، أما والله لولا دين عليّ ليس له عندي قضاء ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى ، لركبت إلى محمد حتى أقتله ، فإن لى قبلهم علة ، ابني أسير في أيديهم .

فاغتنمها صفوان وقال : عليّ دينك ، أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالى أواسيهم ما بقوا ، لا يسعنى شيء ويعجز عنهم .

فقال له عمير : فاکتم عنى شأنى وشأنك . قال : افعل .

ثم أمر عمير بسيفه فشوذ له وسم ، ثم انطلق حتى قدم به المدينة ، فبينما هو على باب المسجد ينيخ راحلته رآه عمر بن الخطاب - وهو فى نفر من المسلمين يتحدثون ما أكرمهم الله به يوم بدر - فقال عمر : هذا الكلب عدو الله عمير ما جاء إلا لشر . ثم دخل على النبي ﷺ فقال : يا نبي الله هذا عدو الله عمير قد جاء متوشحا سيفه ، قال : فأدخله على فأقبل عمير فلبيه بحمالة سيفه وقال لرجال من أنصار : ادخلوا على رسول الله ﷺ ، فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث ، فإنه غير مأمون ، ثم دخل به فلما رآه رسول الله ﷺ - وعمر آخذ بحمالة سيفه فى عنقه - قال : أرسله يا عمر ، ادن يا عمير ، فدنا وقال : أنعموا صباحا ، فقال النبي ﷺ : قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير ، بالسلام ، تحية أهل الجنة .

ثم قال : ما جاء بك يا عمير ؟ قال : جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأحسنوا فيه قال : فما بال السيف فى عنقك : قال : قبحها الله من سيوف ، وهل أغنت عنا شيئا ؟

قال : اصدقني ما الذي جئت له ؟ قال : ما جئت إلا لذلك .

قال : بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر ، فذكرتما أصحاب القليب من قريش ثم قلت : لولا دين علي وعيال عندى لخرجت حتى أقتل محمدا ، فتحمل صفوان بدينك وعيالك علي أن تقتلني والله حائل بينك وبين ذلك .

قال عمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء ، وما ينزل عليك من الوحي ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إنى لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذي هدانى للإسلام ، وساقنى هذا المساق ، ثم تشهد شهادة الحق ، فقال رسول الله ﷺ : فقهوا أخاكم في دينه ، وأقرئوه القرآن ، وأطلقوا له أسيره .

أما صفوان فكان يقول : أبشروا بوقعة تأتاكم الآن في أيام تنسيكم وقعة بدر . وكان يسأل الركبان عن عمير ، حتى أخبره راكب عن إسلامه ، فحلف صفوان أن لا يكلمه أبدا ، ولا ينفعه أبدا .

ورجع عمير إلى مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام فأسلم على يديه ناس كثير (١) .

غزوة بنى قينقاع

قدمنا بنود المعاهدة التي عقدها رسول الله ﷺ مع اليهود ، وقد كان خريصا كل الحرص على تنفيذ ما جاء في هذه المعاهدة ، وفعلوا لم يأت من المسلمين ما يخالف حرفا واحدا من نصوصها . ولكن اليهود الذين ملأوا تاريخهم بالغدر والخيانة ونكث العهود ، لم يلبثوا أن تمشوا مع طبائعهم القديمة ، وأخذوا في طريق الدس والمؤامرة والتحريش وإثارة القلق والاضطراب في صفوف المسلمين . وهاك مثالا من ذلك :

نموذج من مكيدة اليهود :

قال ابن اسحاق : مر شاس بن قيس - وكان شيخا (يهوديا) قد عسا (٢) عظيم الكفر ، شديد الضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم - على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم ، يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام ، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية ، فقال : قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد ، لا والله ما لنا معهم إذ اجتمع ملأهم بها من قرار ، فأمر فتى شابا من يهود كان معه ، فقال : اعمد إليهم ، فاجلس معهم ، ثم اذكر يوم بعث وما كان من قبله ، وأنشدكم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار ، ففعل ،

(٢) عسا الشيخ : كبر .

(١) ابن هشام ١ / ٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣

فتكلم القوم عند ذلك ، وتنازعوا وتفاخروا ، حتى تواتب رجلا من الحيين على الركب فتقاولا ، ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم رددناها الآن جذعة - يعنى الاستعداد لإحياء الحرب الأهلية التى كانت بينهم - وغضب الفريقان جميعا ، وقالوا : قد فعلنا موعدكم الظاهرة - والظاهرة : الحرة - السلاح السلاح ، فخرجوا إليها (وكادت تنشب الحرب) .

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين ، حتى جاءهم فقال : يا معشر المسلمين ، الله الله ، أبدوى الجاهلية ، وأنا بين أظهركم ، بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف بين قلوبكم ؟

فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فبكوا ، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا ، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس (١) .

هذا نموذج مما كان اليهود يفعلونه ويحاولونه من إثارة القلاقل والتحرشات فى المسلمين ، وإقامة العراقيل فى سبيل الدعوة الإسلامية . وقد كان لهم خطط شتى فى هذا السبيل كانوا يثبون الدعايات الكاذبة ، ويؤمنون وجه النهار ، ثم يكفرون آخره ؛ ليزرعوا بذور الشكوك فى قلوب الضعفاء ، وكانوا يضيقون سبل المعيشة على من آمن إن كان لهم به ارتباط مالى ، فإن كان لهم عليه يتقاضونه صباح مساء ، وإن كان له عليهم يأكلونه بالباطل ويمتنعون عن أدائه ، وكانوا يقولون : إنما كان علينا قرضك حينما كنت على دين آبائك ، فأما إذ صبت فليس لك علينا من سبيل (٢) .

كانوا يفعلون كل ذلك قبل بدر ، على رغم المعاهدة التى عقدوها مع رسول الله ﷺ ، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يصبرون على كل ذلك ؛ حرصا على رشدهم ، وعلى بسط الأمن والسلام فى المنطقة .

بنو قينقاع ينقضون العهد :

لكنهم لما رأوا أن الله قد نصر المؤمنين نصرا مؤزرا فى ميدان بدر ، وأنهم قد صارت لهم عزة وشوكة وهيبة فى قلوب الأقباض والأداني ، تميزت قدر غيظهم وكاشفوا بالشر والعداوة ، وجاهرُوا بالبغي والأذى .

وكان أعظمهم حقدا وأكبرهم شرا كعب بن الأشرف - وسيأتى ذكره - كما أن أشهر طائفة من طوائفهم الثلاث هم يهود بنى قينقاع ، كانوا يسكنون داخل المدينة - فى حى

(١) ابن هشام ١ / ٥٥٥ - ٥٥٦ (٢) ذكر المفسرون نماذج لفعلاتهم هذه فى تفسير سورة آل عمران وغيرها .

باسمهم - وكانوا صباغة وحدادين وصناع الظروف والأواني ، ولأجل هذه الحرف كانت قد توفرت لكل رجل منهم آلات الحروب ، وكان عدد المقاتلين فيهم سبعمائة ، وكانوا أشجع يهود المدينة ، وكانوا أول من نكث العهد والميثاق من اليهود .

فلما فتح الله للمسلمين في بدر اشتد طغيانهم ، وتوسعوا في تحرشاتهم واستفزازاتهم فكانوا يثيرون الشغب ، ويتعرضون بالسخرية ، ويواجهون بالأذى كل من ورد سوقهم من المسلمين ، حتى أخذوا يتعرضون بنسائهم .

وعندما تفاقم أمرهم واشتد بغيهم ، جمعهم رسول الله ﷺ ، فوعظهم ودعاهم إلى الرشد والهدى ، وحذرهم مغبة البغي والعدوان ، ولكنهم ازدادوا في شرهم وغطرستهم .

روى أبو داود وغيره ، عن ابن عباس رضی الله عنه قال : لما أصاب رسول الله ﷺ قريشا يوم بدر ، وقدم المدينة ، جمع اليهود في سوق بني قينقاع . فقال : يا معشر يهود ، أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشا .

قالوا : يا محمد . لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرا من قريش ، كانوا أغمارا لا يعرفون القتال ، إنك لو قاتلنا لعرفت أننا نحن الناس ، وأنت لم تلق مثلنا . فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتْغَلِبُونَ وَتَحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ . قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الثَّقَاتِ ، فَئِةٌ تَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلِيهِمْ رَأَى الْعَيْنُ ، وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ (٣ : ١٢ ، ١٣) (١) .

كان معنى ما أجاب به بنو قينقاع هو الإعلان السافر بالحرب ، ولكن كظم النبي ﷺ غيظه ، وصبر وصبر المسلمون ، وأخذوا ينتظرون ما تتمخض عنه الليالي .

وازداد اليهود - من بني قينقاع - جراءة ، فقلما لبثوا أن أثاروا في المدينة قلقا واضطرابا ، وسعوا إلى حتفهم بظلفهم ، وسدوا على أنفسهم أبواب الحياة .

روى ابن هشام عن أبي عون أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها ، فباعته في سوق بني قينقاع ، وجلست إلى صائغ ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها ، فأبت فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها - وهي غافلة - فلما قامت انكشفت سورتها ، فضحكوا بها ، فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله - وكان يهوديا - فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع (٢) .

(١) سنن أبي داود مع عون المبرود ٣ / ١١٥ ، ابن هشام ١ / ٥٥٢ .

(٢) ابن هشام ٢ / ٤٧ ، ٤٨ .

الحصار ثم التسليم ثم الجلاء :

وحينئذ عيل صبر رسول الله ﷺ ، فاستخلف على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر ، وأعطى لواء المسلمين حمزة بن عبد المطلب ، وسار بجنود الله إلى بنى قينقاع ، ولما رأوه تحصنوا في حصونهم ، فحاصروهم أشد الحصار ، وكان ذلك يوم السبت للنصف من شوال سنة ٢ هـ ودام الحصار خمس عشرة ليلة إلى هلال ذى القعدة ، وقذف الله في قلوبهم الرعب - الذى إذا أراد خذلان قوم وهزيمتهم أنزله عليهم وقذف في قلوبهم - فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ فى رقابهم وأموالهم ونسائهم وذريتهم ، فأمر بهم فكتفوا .

وحينئذ قام عبد الله بن أبى بن سلول بدوره النفاقى ، فألح على رسول الله ﷺ أن يصدر عنهم عفوا ، فقال : يا محمد ، أحسن فى موالى - وكان بنو قينقاع حلفاء الخزرج - فأبطأ عليه رسول الله ﷺ ، فكرر ابن أبى مقاتله ، فأعرض عنه ، فأدخل يده فى جيب درعه ، فقال له رسول الله ﷺ : أرسلنى ، وغضب حتى رأوا لوجهه ظللا ، ثم قال : ويحك ، أرسلنى . ولكن المنافق مضى على إصراره ، وقال : لا والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالى ، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعونى من الأحمر والأسود ، وتحصدهم فى غداة واحدة ؟ إبنى والله امرؤ أخشى الدوائر .

وعامل رسول الله ﷺ هذا المنافق - الذى لم يكن مضى على إظهار إسلامه إلا نحو شهر واحد فحسب - عامله بالمرعاة ، فوهبهم له ، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه بها ، فخرجوا إلى أذرعات الشام ، فقل أن لبثوا فيها حتى هلك أكثرهم . وقبض رسول الله ﷺ منهم أموالهم ، فأخذ منها ثلاث قسى ودرعين وثلاثة أسياف وثلاثة رماح ، وخمس غنائمهم ، وكان الذى تولى جمع الغنائم محمد بن مسلمة (١) .

غزوة السويق

بينما كان صفوان بن أمية واليهود والمنافقون يقومون بمؤامراتهم وعملياتهم ، كان أبو سفيان يفكر فى عمل قليل المغارم ظاهر الأثر ، يتعجل به ؛ ليحفظ مكانة قومه ، ويبرز ما لديهم من قوة . وكان قد نذر أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمدا ، فخرج فى مائتى راكب ليبري يمينه ، حتى نزل بصدر قناة إلى جبل يقال له نيب ، من المدينة على بريد أو نحوه ، ولكنه لم يجرؤ على مهاجمة المدينة جهارا ، فقام بعمل هو أشبه بأعمال

(١) زاد المعاد ٢ / ٧١ ، ٩١ ، ابن هشام ٢ / ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ .

القرصنة ، فإنه زجل في ضواحي المدينة في الليل مستخفيا تحت جناح الظلام ، فأتى حبي بن أخطب ، فاستفتح بابه ، فأبى وخاف فانصرف إلى سلام بن مشكم - سيد بني النضير ، وصاحب كنزهم إذ ذاك ، فاستأذن عليه فأذن ، فقراه وسقاه الخمر ، وبطن له من خبر الناس ، ثم خرج أبو سفيان في عقب ليلته حتى أتى أصحابه ، فبعث مفرزة منهم ، فأغارت على ناحية من المدينة يقال لها « العريض » ، فقطعوا وأحرقوا هناك أسوارا من النخل ، ووجدوا رجلا من الأنصار وحليفا له في حرث لهما فقتلوهما ، وفروا راجعين إلى مكة .

وبلغ رسول الله ﷺ الخبر فسارع لمطاردة أبي سفيان وأصحابه ، ولكنهم فروا ببالغ السرعة ، و طرحوا سويقا كثيرا من أزوادهم وتمويناتهم يتخفون به ، فتمكنوا من الإفلات ، وبلغ رسول الله ﷺ إلى قرقرة الكدر ، ثم انصرف راجعا ، وحمل المسلمون ما طرحه الكفار من سويقهم ، وسموا هذه المناوشة بغزوة السويق . وقعت في ذى الحجة سنة ٢ هـ بعد بدر بشهرين ، واستعمل على المدينة في هذه الغزوة أبا لبابة بن عبد المنذر^(١) .

غزوة ذي أمر

وهي أكبر حملة عسكرية قادها رسول الله ﷺ قبل معركة أحد ، قادها في الحرم سنة ٣ هـ .

وسببها أن استخبارات المدينة نقلت إلى رسول الله ﷺ أن جمعا كبيرا من بني ثعلبة ومحارب تجمعوا ، يريدون الإغارة على أطراف المدينة ، فندب رسول الله ﷺ المسلمين ، وخرج في أربعمئة وخمسين مقاتلا ما بين راكب وراجل ، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان .

وفي أثناء الطريق قبضوا على رجل يقال له جبار من بني ثعلبة ، فأدخل على رسول الله ﷺ ، فدعاه إلى الإسلام فأسلم ، فضمه إلى بلال ، وصار دليلا لجيش المسلمين إلى أرض العدو .

وتفرق الأعداء في رعوس الجبال حين سمعوا بقدوم جيش المدينة . أما النبي ﷺ فقد وصل بجيشه إلى مكان تجمعهم ، وهو الماء المسمى « بذي أمر » فأقام هناك صفرا كله - من سنة ٣ هـ - أو قريبا من ذلك ، ليشعر الأعراب بقوة المسلمين ، ويستولي عليهم الرعب والرغبة ، ثم رجع إلى المدينة^(٢) .

(١) زاد المعاد ٢ / ٩٠ ، ٩١ ، ابن هشام ٢ / ٤٤ ، ٤٥ .
(٢) ابن هشام ٢ / ٤٦ ، زاد المعاد ٢ / ٩١ ، ويذكرون أن محاولة اغتيال النبي ﷺ من قبل دعثور أو غورث المحاربي كانت في هذه الغزوة . والصحيح أنها في غير هذه الغزوة انظر صحيح البخاري ٢ / ٥٩٣ .

قتل كعب بن الأشرف

كان كعب بن الأشرف من أشد اليهود حنقا على الإسلام والمسلمين ، وإذاء لرسول الله ﷺ ، وتظاهرا بالدعوة إلى حربه .

كان من قبيلة طيء - من بنى نبهان - وأمه من بنى النضير ، وكان غنيا مترفا معروفا بجماله في العرب ، شاعرا من شعرائها ، وكان حصنه في شرق جنوب المدينة في خلفيات ديار بنى النضير .

ولما بلغه أول خبر عن انتصار المسلمين ، وقتل صنديد قريش في بدر قال : أحق هذا؟ هؤلاء أشرف العرب ، وملوك الناس ، والله إن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها .

ولما تأكد لديه الخبر انبعث عدو الله يهجو رسول الله ﷺ والمسلمين ، ويمدح عدوهم ، ويحرضهم عليهم ، ولم يرض بهذا القدر حتى ركب إلى قريش فنزل على المطلب بن أبي وداعة السهمي ، وجعل ينشد الأشعار ييكي فيها على أصحاب القليب من قتلى المشركين ، يشير بذلك حفائظهم ، ويذكى حقدهم على النبي ﷺ ، ويدعوهم إلى حربه ، وعندما كان بمكة سأل أبو سفيان والمشركون : أديننا أحب إليك أم دين محمد وأصحابه ؟ وأى الفريقين أهدى سبيلا ؟ فقال : أنتم أهدى منهم سبيلا ، وأفضل ، وفي ذلك أنزل الله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجلبوت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ﴾ (٤ : ٥١) .

ثم رجع كعب إلى المدينة على تلك الحال ، وأخذ يتشعب في أشعاره بنساء الصحابة ، ويؤذيهم بسلاطة لسانه أشد الإذاء .

١ - حينئذ قال رسول الله ﷺ : من لكعب بن الأشرف ؟ فإنه آذى الله ورسوله ، فانتدب له محمد بن مسلمة ، وعباد بن بشر ، وأبو نائلة - واسمه سلكان بن سلامة ، وهو أخو كعب من الرضاعة - والحارث بن أوس ، وأبو عبس بن جبر ، وكان قائد هذه المفرزة محمد بن مسلمة . وتفيد الروايات في قتل كعب بن الأشرف أن رسول الله ﷺ لما قال : من لكعب بن الأشرف ؟ فإنه قد آذى الله ورسوله ، فقام محمد بن مسلمة فقال : أنا يا رسول الله ، أتحب أن أقتله ؟ قال : نعم . قال : فأذن لي أن أقول شيئا . قال : قل . فأناه محمد بن مسلمة ، فقال : إن هذا الرجل قد سألنا صدقة ، وإنه قد عنانا . قال كعب : والله لتملنه . قال محمد بن مسلمة : فإننا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أى شيء يصير شأنه ؟ وقد أردنا أن تسلفنا وسقأ أو وسقين . قال كعب : نعم أرهنوني . قال ابن

مسلمة : أى شئ تريد ؟ قال : أرهنونى نساءكم . قال : كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب قال : فترهنونى أبناءكم . قال : كيف نرهنك أبناءنا ، فيسب أحدهم ، فيقال : رهن بوسق أو وسقين هذا عار علينا ، ولكننا نرهنك اللأمة ، يعنى السلاح . فواعده أن يأتيه . وصنع أبو نائلة مثل ما صنع محمد بن مسلمة فقد جاء كعب فتناشد معه أطراف الأشعار سويعة ، ثم قال له : ويحك يا ابن الأشرف ، إني قد جئت لحاجة أريد ذكرها لك فساكنتم عنى . قال كعب : أفعل . قال أبو نائلة : كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء ، عادتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة ، وقطعت عنا السبل حتى ضاع العيال ، وجهدت الأنفس ، وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا ، ودار الحوار على نحو ما دار مع ابن مسلمة ، وقال أبو نائلة أثناء حديثه : إن معى أصحابا لى على مثل رأى ، وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن فى ذلك . وقد نجح ابن مسلمة وأبو نائلة فى هذا الحوار إلى ما قصدا ، فإن كعب لن ينكر معهما السلاح والأصحاب بعد هذا الحوار . وفى ليلة مقمرة - ليلة الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ٣ هـ اجتمعت هذه المفزعة إلى رسول الله ﷺ ، فشيّعهم إلى بقيع الغرقد ، ثم وجههم قائلا : انطلقوا على اسم الله ، اللهم أعنهم ، ثم رجع إلى بيته ، وطفق يصلى ويناجى ربه .

وانتهت المفزعة إلى حصن كعب بن الأشرف ، فهتف به أبو نائلة ، فقام لينزل إليهم فقالت له امرأته - وكان حديث العهد بها : أين تخرج هذه الساعة ؟ أسمع صوتا كأنه يقطر منه الدم . قال كعب : إنما هو أخى محمد بن مسلمة ، ورضيعى أبو نائلة ، إن الكريم لو دعى إلى طعنة أجاب ، ثم خرج إليهم وهو متطيب ينفج رأسه . وقد كان أبو نائلة قال لأصحابه : إذا ما جاء فإنى آخذ بشعره فأشمه ، فإذا رأيتهمنى استمكننت منه من رأسه فدونكم فاضربوه ، فلما نزل كعب إليهم تحدث معهم ساعة ، ثم قال أبو نائلة : هل لك يا ابن الأشرف أن نتماشى إلى شعب العجوز فنحدث بقية ليلتنا ؟ قال : إن شئتم ، فخرجوا يتماشون ، فقال أبو نائلة وهو فى الطريق : ما رأيت كالليلة طيبا أعطر قط ، وزهى كعب بما سمع ، فقال : عندى أعطر نساء العرب ، قال أبو نائلة : أتأذن لى أن أشم رأسك ؟

قال : نعم ، فأدخل يده فى رأسه فشمه وأشم أصحابه . ثم مشى ساعة ثم قال : أعود ؟ قال كعب : نعم ، فعاد لمثلها ، حتى اطمأن . ثم مشى ساعة ثم قال : أعود ؟ قال : نعم ، فأدخل يده فى رأسه ، فلما استمكن منه قال : دونكم عدو الله ، فاختلفت عليه أسيافهم ، لكنها لم تغن شيئا ، فأخذ محمد بن مسلمة معولا فوضعه فى ثنته ، ثم تحامل عليه حتى بلغ عانته ، فوقع عدو الله قتيلا ، وكان قد صاح صيحة شديدة أفزعت من حوله ، فلم يبق حصن إلا أوقدت عليه النيران . ورجعت المفزعة وقد أصيب الحارث بن أوس بذياب بعض سيوف أصحابه فجرح ونزف الدم ، فلما بلغت المفزعة حرة العريض ، رأت أن الحارث ليس معهم فوقفت ساعة حتى أتاهم يتبع آثارهم ، فاحتملوه ، حتى إذا بلغوا بقيع

الفرقد كبروا ، وسمع رسول الله ﷺ تكبيرهم فعرف أنهم قد قتلوه ، فكبر ، فلما انتهوا إليه قال : أفلحت الوجوه ، قالوا : ووجهك يا رسول الله . ورموا برأس الطاغية بين أيديه ، فحمد الله على قتله ، وتفل على جرح الحارث فبرأ ، ولم يؤذه بعده (١) .

ولما علمت اليهود بمصرع طاغيتها كعب بن الأشرف أدبا لمن يريد العبث بالأمن وإثارة الإضطرابات وعدم احترام المواثيق ، فلم يحركوا ساكنا لقتل طاغيتهم ، بل لزموا الهدوء ، وتظاهروا بإيفاء العهود ، واستكانوا ، وأسرعت الأفاعي إلى جحورها تختبئ فيها . وهكذا تفرغ الرسول ﷺ - إلى حين - لمواجهة الأخطار التي كان يتوقع حدوثها خارج المدينة ، وأصبح المسلمون وقد تخفف عنهم كثير من المتاعب الداخلية التي كانوا يتوجسونها ، ويشمون رائحتها بين آونة وأخرى .

غزوة بحران

وهي دورية قتال كبيرة ، قوامها ثلاثمائة مقاتل ، قادها الرسول ﷺ في شهر ربيع الآخر سنة ٣ هـ إلى أرض يقال لها بحران - وهي معدن بالحجاز في ناحية الفرع - فأقام بها شهر ربيع الآخر ثم جمادى الأولى (من السنة الثالثة من الهجرة) ثم رجع إلى المدينة ، ولم يلق حرباً (٢) .

سرية زيد بن حارثة

وهي آخر وأنجح دورية للقتال قام بها المسلمون قبل أحد ، وقعت في جمادى الآخرة سنة ٣ هـ . وتفصيلها أن قريشا بقيت بعد بدر يساورها القلق والاضطراب ، وجاء الصيف واقترب موسم رحلتها إلى الشام ، فأخذها هم آخر . قال صفوان بن أمية لقريش - وهو الذي انتخبته قريش في هذا العام لقيادة تجارتها إلى الشام - : إن محمدا وصحبه عوروا علينا متجرنا ، فما ندرى كيف نصنع بأصحابه ، وهم لا يبرحون الساحل ؟ وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه ، فما ندرى أين نسلك ؟ وإن أقمنا في دارنا هذه أكلنا رعوس أموالنا ، فلم يكن لها من بقاء . وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف ، وإلى الحبشة في الشتاء .

(١) أخذنا تفاصيل هذه الواقعة من ابن هشام ٢ / ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، وصحيح البخاري ١ / ٣٤١ ، ٤٢٥ ، ٥٧٧ ، وسنن أبي داود مع عون المبرود ٢ / ٤٢ ، ٤٣ ، وزاد المعاد ٢ / ٩١ .

(٢) ابن هشام ٢ / ٥٠ ، ٥١ ، وزاد المعاد ٢ / ٩١ ، واختلفت المصادر في تعيين سبب هذه الغزوة فقيل : إن استخبارات المدينة نقلت إلى رسول الله ﷺ أن بني سليم يحشدون قوات كبيرة تغزو المدينة أو أطرافها ، وقيل : بل خرج يريد قريشا ، وهذا الثاني هو الذي ذكره ابن هشام واختاره ابن القيم - حتى لم يذكر الأول رأسا - وهو المرجح ، وذلك لأن ديار بني سليم لم تكن بناحية الفرع ، وإنما هي في نجد بعيدة عن ناحية الفرع .

ودارت المناقشة حول هذا الموضوع ، فقال الأسود بن عبد المطلب لصفوان : تنكب الطريق على الساحل وخذ طريق العراق - وهى طريق طويلة جدا تخترق نجدا إلى الشام وتمر فى شرقى المدينة على بعد كبير منها ، وكانت قريش تجهل هذه الطريق كل الجهل - فأشار الأسود بن عبد المطلب على صفوان أن يتخذ فرات بن حيان - من بنى بكر بن وائل - دليلا له ، يكون رائده فى هذه الرحلة .

وخرجت عير قريش يقودها صفوان بن أمية ، آخذة الطريق الجديدة ، إلا أن أنباء هذه القافلة وخطة سيرها طارت إلى المدينة . وذلك أن سليط بن النعمان - وكان قد أسلم - اجتمع فى مجلس شرب - وذلك قبل تحريم الخمر - مع نعيم بن مسعود الأشجعى - ولم يكن أسلم إذ ذاك - فلما أخذت الخمر من نعيم تحدث بالتفصيل عن قضية العير وخطة سيرها ، فأسرع سليط إلى النبى ﷺ يروى له القصة .

وجهر رسول الله ﷺ لوقته حملة قوامها مائة راكب فى قيادة زيد بن حارثة الكلبي ، وأسرع زيد حتى دهم القافلة بغتة - على حين غرة - وهى تنزل على ماء فى أرض نجد يقال لها قردة - بالفتح فالسكون - فاستولى عليها كلها ، ولم يكن من صفوان ومن معه من حرس القافلة إلا الفرار بدون أى مقاومة .

وأسر المسلمون دليل القافلة - فرات بن حيان ، وقيل : ورجلين غيره - وحملوا غنيمة كبيرة من الأواني والفضة كانت تحملها القافلة ، قدرت قيمتها بمائة ألف ، قسم رسول الله ﷺ هذه الغنيمة على أفراد السرية بعد أخذ الخمس ، وأسلم فرات بن حيان على يديه ﷺ (١) .

وكانت مأساة شديدة ونكبة كبيرة أصابت قريشا بعد بدر ، اشتد لها قلق قريش ، وزادتها هما وحزنا . ولم يبق أمامها إلا طريقان ، إما أن تمتنع عن غطرساتها وكبرياتها ، وتأخذ طريق المودعة والمصالحة مع المسلمين ، أو تقوم بحرب شاملة تعيد لها مجدها التليد وعزها القديم ، وتقضى على قوات المسلمين ، بحيث لا يبقى لهم سيطرة على هذا ولا ذاك ، وقد اختارت مكة الطريق الثانية ، فزاددت إصرارها على المطالبة بالثأر والتهيؤ للقاء المسلمين فى تعبئة كاملة ، وتصميمها على الغزو فى ديارهم ، فكان ذلك وما سبق من أحداث التمهيد القوى لمعركة أحد .

* * *

(١) ابن هشام ٢ / ٥٠ ، ٥١ ، فقه السيرة ص ١٩٠ ، رحمة للعالمين ٢ / ٢١٩

غزوة أحد

استعداد قريش لمعركة ناقمة :

كانت مكة تحترق غيظا على المسلمين مما أصابها في معركة بدر من مأساة الهزيمة وقتل الصناديد والأشراف ، وكانت تجهش فيها نزعات الانتقام وأخذ الثأر ، حتى إن قريشا كانوا قد منعوا البكاء على قتلاهم في بدر ، ومنعوا من الاستعجال في فداء الأسارى ؛ حتى لا يتفطن المسلمون مدى مأساتهم وحزنهم .

وعلى إثر غزوة بدر اتفقت قريش على أن تقوم بحرب شاملة ضد المسلمين ، تشفى غيظها ، وتروى غلة حقدتها ، وأخذت في الاستعداد للخوض في مثل هذه المعركة .

وكان عكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية ، وأبو سفيان بن حرب وعبد الله بن أبى ربيعة أكثر زعماء قريش نشاطا وتحمسا لخوض المعركة .

وأول ما فعلوه بهذا الصدد أنهم احتجزوا العير التى كان قد نجا بها أبو سفيان والتي كانت سببا لمعركة بدر ، وقالوا للذين كانت فيها أموالهم :

يا معشر قريش ، إن محمدا قد وترككم وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربته ، ولعلنا أن ندرك منه ثأرا ، فأجابوا لذلك ، فباعوها ، وكانت ألف بعير ، والمال خمسين ألف دينار ، وفى ذلك أنزل الله تعالى ﴿ إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾ (٨ : ٣٦)

ثم فتحو باب التطوع لكل من أحب المساهمة فى غزو المسلمين من الأحابيش وكنانة وأهل تهامة ، وأخذوا لذلك أنواعا من طرق التحريض ، حتى إن صفوان بن أمية أغرى أبا عزة الشاعر - الذى كان قد أسر فى بدر فمن عليه رسول الله ﷺ ، وأطلق سراحه بغير فدية ، وأخذ منه العهد بأن لا يقوم ضده - أغراه على أن يقوم بتحريض القبائل ضد المسلمين ، وعاهده أنه إن رجع عن الغزوة حيا يغنيه ، وإلا يكفل بناته ، فقام أبو عزة بتحريض القبائل بأشعاره التى كانت تذكى حفاظهم ، كما اختاروا شاعرا آخر - مسافع ابن عبد مناف الجمحى - لنفس المهمة .

وكان أبو سفيان أشد تأليا على المسلمين بعد ما رجع عن غزوة السويق خائبا لم ينل ما فى نفسه ، بل أضاع مقدارا كبيرا من تمويناته فى هذه الغزوة .

وزاد الطينة بلة - أو زاد النار إذكاء ، إن صح هذا التعبير - ما أصاب قريشا أخيرا فى

سرية زيد بن حارثة من الخسارة الفادحة التي قصمت فقار اقتصادها ، وزودها من الحزن والهم ما لا يقادر قدره ، وحينئذ زادت سرعة قريش في استعدادها للخوض في معركة تفصل بينهم وبين المسلمين .

قوام جيش قريش وقيادته :

ولما استدارت السنة كانت مكة قد استكملت عدتها ، واجتمع إليها من المشركين ثلاثة آلاف مقاتل من قريش والحلفاء والأحاييش ، ورأى قادة قريش أن يستصحبوا معهم النساء ، حتى يكون ذلك أبلغ في استماتة الرجال دون أن تصاب حرمانهم وأعراضهم ، وكان عدد هذه النسوة خمس عشرة امرأة .

وكان سلاح النقيات في هذا الجيش ثلاثة آلاف بغير ، ومن سلاح الفرسان مائتا فرس (١) جنبوها طول الطريق ، وكان من سلاح الوقاية سبع مائة درع .

وكانت القيادة العامة إلى أبي سفيان بن حرب ، وقيادة الفرسان إلى خالد بن الوليد ، يعاونه عكرمة بن أبي جهل ، أما اللواء فكان إلى بني عبد الدار .

جيش مكة يتحرك

تحرك الجيش المكي بعد الإعداد التام نحو المدينة ، وكانت التارات القديمة والغيظ الكامن يشعل البغضاء في القلوب ويشف عما سوف يقع من قتال مرير .

الاستخبارات النبوية تكشف حركة العدو :

وكان العباس بن عبد المطلب يرقب حركات قريش واستعداداتها العسكرية ، فلما تحرك هذا الجيش بعث العباس رسالة مستعجلة إلى النبي ﷺ ، ضمنها جميع تفاصيل الجيش .

وأسرع رسول العباس بإبلاغ الرسالة ، وجده في السير حتى إنه قطع الطريق بين مكة والمدينة - التي تبلغ مسافتها إلى خمسمائة كليوا مترا - في ثلاثة أيام ، وسلم الرسالة إلى النبي ﷺ وهو في مسجد قباء .

قرأ الرسالة على النبي ﷺ أبي بن كعب ، فأمره بالكتمان ، وعاد مسرعا إلى المدينة ، وتبادل الرأي مع قادة المهاجرين والأنصار .

استعداد المسلمين للطوارئ :

وظلت المدينة في حالة استنفار عام ، لا يفارق رجالها السلاح ، حتى وهم في

(١) زاد المعاد ٢ / ٩٢ وهو المعروف ، وفي فتح الباري مائة فرس ٧ / ٣٤٦

الصلاة، استعدادا للطوارئ .

وقامت مفرزة من الأنصار - فيهم سعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير وسعد بن عباد - بحراسة رسول الله ﷺ ، فكانوا يبيتون على بابه وعليهم السلاح .

وقامت على مداخل المدينة وأنقابها مفرزات تحرسها ، خوفا من أن يؤخذوا على غرة .

وقامت دوريات من المسلمين - لاكتشاف تحركات العدو - تتجول حول الطرق التي يحتمل أن يسلكها المشركون للإغارة على المسلمين :

الجيش المكي إلى أسوار المدينة :

وتابع جيش مكة سيره على الطريق الغربية الرئيسية المعتادة ، ولما وصل إلى الأبواء اقترحت هند بنت عتبة - زوج أبي سفيان - بنش قبر أم رسول الله ﷺ بيد أن قادة الجيش رفضوا هذا الطلب ، وحذروا من العواقب الوخيمة التي تلحقهم لو فتحوا هذا الباب .

ثم واصل جيش مكة سيره حتى اقترب من المدينة ، فسلك وادي العقيق ثم انحرف منه إلى ذات اليمين ، حتى نزل قريبا بجبل أحد في مكان يقال له عينين ، في بطن السبخة من قناة على شفير الوادي - الذي يقع شمالي المدينة - فعسكر هناك يوم الجمعة السادس من شهر شوال سنة ثلاث من الهجرة .

المجلس الاستشاري لأخذ خطة الدفاع :

ونقلت استخبارات المدينة أخبار جيش مكة خبرا بعد خبر ، حتى أخبر الأخير عن معسكره ، وحينئذ عقد رسول الله ﷺ مجلسا استشاريا عسكريا أعلى ، تبادل فيه الرأي لاختيار الموقف ، وأخبرهم عن رؤيا رآها ، قال : إني قد رأيت والله خيرا ، رأيت بقرا يذبح ، ورأيت في ذباب سيفي ثلما ، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة ، وتأول البقر بنفر من أصحابه يقتلون ، وتأول الثلثة في سيفه برجل يصاب من أهل بيته ، وتأول الدرع بالمدينة .

ثم قدم رأيه إلى صحابته أن لا يخرجوا من المدينة ، وأن يتحصنوا بها ، فإن أقام المشركون بمعسكرهم أقاموا بشر مقام وبغير جدوى ، وإن دخلوا المدينة قاتلهم المسلمون على أفواه الأزفة ، والنساء من فوق البيوت ، وكان هذا هو الرأي . ووافق على هذا الرأي عبد الله بن أبي بن سلول - رأس المنافقين - وكان قد حضر المجلس بصفته أحد زعماء الخزرج . ويبدو أن موافقته لهذا الرأي لم تكن لأجل أن هذا هو الموقف الصحيح من حيث الواجهة العسكرية ، بل ليتمكن من التبعاد عن القتال دون أن يعلم بذلك أحد ، وشاء

الله أن يفتضح هو وأصحابه - لأول مرة - أمام المسلمين ، وينكشف عنهم الغطاء الذى كان كفرهم ونفاقهم يكمن وراءه ، ويتعرف المسلمون فى أخرج ساعتهم على الأفاعى التى كانت تتحرك تحت ملابسهم وأكمامهم .

فقد بادر جماعة من فضلاء الصحابة ممن فاتته الخروج يوم بدر ، فأشاروا على النبى ﷺ بالخروج ، وألحوا عليه فى ذلك ، حتى قال قائلهم : يا رسول الله ، كنا نتمنى هذا اليوم وندعوا الله ، فقد ساقه إلينا وقرب المسير ، اخرج إلى أعدائنا ، لا يرون أنا جبننا عنهم .

وكان فى مقدمة هؤلاء المتحمسين حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ - الذى كان قد رأى فرند سيفه فى معركة بدر - فقد قال النبى ﷺ : والذى أنزل عليك الكتاب لا أطعم طعاما حتى أجالدهم بسيفى خارج المدينة (١) .

ورفض رسول الله ﷺ رأيه أمام رأى الأغلبية ، واستقر رأى على الخروج من المدينة واللقاء فى الميدان السافر .

تكتيب الجيش الإسلامى وخروجه إلى ساحة القتال :

ثم صلى النبى ﷺ بالناس يوم الجمعة ، فوعظهم وأمرهم بالجد والاجتهاد ، وأخبر لهم النصر بما صبروا ، وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم ، وفرح الناس بذلك .

ثم صلى بالناس العصر ، وقد حشدوا وحضر أهل العوالى ، ثم دخل بيته ، ومعه صاحبه أبو بكر وعمر ، فعمماه وألبساه فتدجج بسلاحه ، وظاهر بين درعين (أى لبس درعا فوق درع) ، وتقلد السيف ، ثم خرج على الناس .

وكان الناس ينتظرون خروجه ، وقد قال لهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير : استكبرهتم رسول الله ﷺ على الخروج ، فردوا الأمر إليه ، فندموا جميعا على ما صنعوا ، فلما خرج قالوا له : يا رسول الله ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما شئت ، إن أحببت أن تمكث بالمدينة فافعل . فقال رسول الله ﷺ : ما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته - وهى الدرع أن يضعها ، حتى يحكم الله بينه وبين عدوه (٢) .

وقسم النبى ﷺ جيشه إلى ثلاث كتائب :

١ - كتيبة المهاجرين ، وأعطى لواءها مصعب بن عمير العبدري .

٢ - كتيبة الأوس من الأنصار ، وأعطى لواءها أسيد بن حضير .

٣ - كتيبة الخزرج من الأنصار ، وأعطى لواءها الحباب بن المنذر .

(٢) رواه أحمد والنسائى والحاكم وابن إسحاق

(١) السيرة الحلبية ٢ / ١٤

وكان الجيش متألفا من ألف مقاتل ، فيهم مائة دارع وخمسون فارسا (١) ، وقيل لم يكن من الفرسان أحد ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم على الصلاة بمن بقي في المدينة ، وأذن بالرحيل ، فتحرك الجيش نحو الشمال ، وخرج السعدان أمام النبي ﷺ يعدوان دارعين .

ولما جاوز ثنية الوداع رأى كتيبة حسنة التسليح منفردة عن سواد الجيش ، فسأل عنها فأخبر أنهم اليهود من حلفاء الخزرج (٢) ، يرغبون المساهمة في القتال ضد المشركين ، فسأل : هل أسلموا ؟ فقالوا : لا فأبى أن يستعين بأهل الكفر على أهل الشرك .

استعراض الجيش :

وعندما وصل إلى مقام يقال له « الشيخان » استعرض جيشه ، فرد من استصغره ولم يره مطيقا للقتال ، وكان منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب وأسامة بن زيد ، وأسيد بن ظهير ، وزيد بن ثابت ، وزيد بن أرقم ، وعرابة بن أوس ، وعمرو بن حزم ، وأبو سعيد الخدري ، وزيد بن حارثة الأنصاري ، وسعد بن حبة ، ويذكر في هؤلاء البراء بن عازب ، لكن حديثه في البخاري يدل على شهوده القتال ذلك اليوم .

وأجاز رافع بن خديج ، وسمرة بن جندب على صغر سنهما ، وذلك أن رافع بن خديج كان ماهرا في رماية النبل فأجازه ، فقال سمرة : أنا أقوى من رافع أنا أصرعه ، فلما أخبر رسول الله ﷺ بذلك أمرهما أن يتصارعا أمامه ، فتصارعا وفصرع سمرة رافعا ، فأجازه أيضا .

المبيت بين أحد والمدينة :

وفي هذا المكان أدركهم المساء ، فصلى المغرب ، ثم صلى العشاء ، وبات هنالك ، وانتخب خمسين رجلا لحراسة المعسكر يتجولون حوله ، وكان قائدهم محمد بن مسلمة الأنصاري ، بطل سرية كعب بن الأشرف ، وتولى ذكوان بن عبد قيس حراسة النبي ﷺ خاصة .

تمرد عبد الله بن أبي وأصحابه :

وقبل طلوع الفجر بقليل أدلج ، حتى إذا كان بالشوط صلى الفجر ، وكان بمقربة جدا من العدو فقد كان يراهم ويرونه ، وهناك تمرد عبد الله بن أبي المنافق ، فانسحب بنحو

(١) قاله ابن القيم في الهدى ٢ ، ٩٢ وقال ابن حجر : هو غلط بين : وقد جزم موسى بن عقبة بأنه لم يكن معهم في أحد شيء من الخيل ، ووقع عند الواقدي كان معهم فرس لرسول الله ﷺ وفرس لأبي بردة (فتح الباري ٧ / ٣٥٠) .

(٢) روى ذلك ابن سعد وفيه أنهم من بني قينقاع (٢ / ٣٤) ومعلوم أن بني قينقاع كان قد تم إجلأؤهم عقب بدر .

ثلث العسكر - ثلاثمائة مقاتل - قائلا : ما ندري علام نقتل أنفسنا ؟ ومتظاهرا بالاحتجاج بأن رسول الله ﷺ ترك رأيه وأطاع غيره .

ولا شك أن سبب هذا الاعتزال لم يكن هو ما أبداه هذا المنافق من رفض رسول الله ﷺ رأيه، وإلا لم يكن لسيره مع الجيش النبوي إلى هذا المكان معنى . بل لو كان هذا السبب لانعزل عن الجيش منذ بداية سيره، بل كان هدفه الرئيسي من هذا التمرد - في ذلك الظرف الدقيق - أن يحدث البلبلة والاضطراب في جيش المسلمين على مرأى ومسمع من عدوهم حتى ينحاز عامة الجيش عن النبي ﷺ، وتنهار معنويات من يبقى معه، بينما يتشجع العدو، وتعلوا همته لرؤية هذا المنظر. فيكون ذلك أسرع إلى القضاء على النبي ﷺ وأصحابه، المخلصين، ويصفو بعد ذلك الجو لعودة الرياسة إلى هذا المنافق وأصحابه.

وكاد المنافق ينجح في تحقيق بعض ما كان يهدف إليه، فقد همت طائفتان - بنو حارثة من الأوس وبنو سلمة من الخزرج أن تفشلا ولكن الله تولاهما، فثبتتا بعد ما سرى فيهما الاضطراب وهمتا بالرجوع والانسحاب وعنهما يقول الله تعالى : ﴿ إذ همت طاءفتان منكم أن تفشلا ، والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ (١٢٢ : ٣) .

وحاول عبد الله بن حرام - والد جابر بن عبد الله - تذكير هؤلاء المنافقين بواجبهم في هذا الظرف الدقيق، فتبعهم وهو يوبخهم ويحضهم على الرجوع، ويقول تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا، قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع، فرجع عنهم عبد الله بن حرام قائلا : أبعدكم الله، أعداء الله فسيغنى الله عنكم نبيه .

وفى هؤلاء المنافقين يقول الله تعالى : ﴿ وليعلم الذين نافقوا ، وقيل لهم تعالوا ، قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم ، هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، والله أعلم بما يكتمون ﴾ (١٦٧ : ٣) .

بقية الجيش الإسلامي إلى أحد :

وبعد هذا التمرد والانسحاب قام النبي ﷺ بقية الجيش - وهم سبعمائة مقاتل - ليواصل سيره نحو العدو، وكان معسكر المشركين يحول بينه وبين أحد في مناطق كثيرة، فقال : من رجل يخرج بنا على القوم من كشب (أى من قريب) من طريق لا يمر بنا عليهم ؟

فقال أبو خيثمة : أنا يا رسول الله، ثم اختار طريقا قصيرا إلى أحد يمر بحرة بنى حارثة وبزارعهم، تاركا جيش المشركين إلى الغرب .

ومر الجيش فى هذا الطريق بحائط مربع بن قىظى - وكان منافقا ضرير البصر - فلما أحس بالجيش قام يحنو التراب فى وجوه المسلمين ، ويقول : لا أحل لك أن تدخل حائطى إن كنت رسول الله فابتدره القوم ليقتلوه ، فقال : لا تقتلوه فهذا أعمى القلب أعمى البصر .

ونفذ رسول الله ﷺ ، حتى نزل الشعب من جبل أحد فى عدوة الوادى ، فعسكر بجيشه مستقبلا المدينة ، وجاعلا ظهره إلى هضاب جبل أحد ، وعلى هذا صار جيش العدو فاصلا بين المسلمين وبين المدينة .

خطة الدفاع :

وهناك عبأ رسول الله ﷺ جيشه ، وهياهم صفوفًا للقتال ، فانتخب منهم فصيلة من الرماة الماهرين ، قوامها خمسون مقاتلا ، وأعطى قيادتها لعبد الله بن جبير بن النعمان الأنصارى الأوسى البدرى ، وأمرهم بالتمركز على جبل يقع على الضفة الجنوبية من وادى قناة - وعرف فيما بعد بجبل الرماة - جنوب شرق معسكر المسلمين ، على بعد حوالى مائة وخمسين مترا من مقر الجيش الإسلامى .

والهدف من ذلك هو ما أبداه رسول الله ﷺ فى كلماته التى ألقاها إلى هؤلاء الرماة فقد قال لقائدهم : انضح الخيل عنا بالنبل ، لا يأتون من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا تؤتين من قبلك^(١) ثم قال للرماة احموا ظهورنا ، فإن رأيتونا نقتل فلا تنصرونا ، وإن رأيتونا قد غنمنا فلا تشاركونا^(٢) ، وفى رواية البخارى أنه قال : إن رأيتونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتونا هزمنا القوم ووطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم^(٣) .

وبتعيين هذه الفصيلة فى الجبل مع هذه الأوامر العسكرية الشديدة سد رسول الله ﷺ الثلثة الوحيدة التى كان يمكن لفرسان المشركين أن يتسللوا من ورائها إلى صفوف المسلمين ، ويقوموا بحركات الالتفاف وعملية التطويق .

أما بقية الجيش فجعل على الميمنة المنذر بن عمرو ، وجعل على المسيرة الزبير بن العوام ، يسانده المقداد بن الأسود ، وكان إلى الزبير مهمة الصمود فى وجه فرسان خالد بن الوليد ، وجعل فى مقدمة الصفوف نخبة ممتازة من شجعان المسلمين ورجالاتهم المشهورين بالنجدة والبسالة ، والذين يوزنون بالآلاف .

ولقد كانت خطة حكيمة ودقيقة جدا ، تتجلى فيها عبقرية قيادة النبى ﷺ العسكرية - وأنه لا يمكن لأى قائد مهما تقدمت كفاءته أن يضع خطة أدق وأحكم من هذا - فقد

(١) ابن هشام ٢/ ٦٥ ، ٦٦ (٢) روى ذلك أحمد والطبرانى والحاكم عن ابن عباس . انظر فتح البارى ٧/ ٣٥٠

(٣) صحيح البخارى ، كتاب الجهاد ١/ ٤٢٦ .

احتل أفضل موضع من ميدان المعركة ، مع أنه نزل فيه بعد العدو ، فقد حمى ظهره ويمينه بارتفاعات الجبل ، وحمى ميسرته وظهره - حين يحتدم القتال - بسد الثلمة الوحيدة التي كانت توجد في جانب الجيش الإسلامي ، واختار لمعسكره موضعاً مرتفعاً يحتمى به - إذا نزلت الهزيمة بالمسلمين - ولا يلتجئ إلى الفرار ، حتى يتعرض للوقوع في قبضة الأعداء المطاردين وأسره ، ويلحق مع ذلك خسائر فادحة إلى أعدائه إن أرادوا احتلال معسكره وتقدموا إليه ، وألجأ أعداءه إلى قبول موضع منخفض يصعب عليهم الإفلات من المسلمين المطاردين إن كانت الغلبة للمسلمين ، كما أنه عوض النقص العددي في رجاله باختيار نخبة ممتازة من أصحابه الشجعان البارزين .

وهكذا تمت تعبئة الجيش النبوي صباح يوم السبت السابع من شهر شوال سنة ٣ هـ

الرسول ﷺ ينفث روح البسالة في الجيش :

ونهى الرسول ﷺ الناس عن الأخذ في القتال حتى يأمرهم ، وظاهر بين درعين ، وحرز أصحابه على القتال ، وحضهم على المصابرة والجلاد عند اللقاء ، وأخذ ينفث روح الحماسة والبسالة في أصحابه ، حتى جرد سيفاً باتراً ونادى أصحابه : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام إليه رجال ليأخذوه - منهم علي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وعمر بن الخطاب - حتى قام إليه أبو دجانة سماك بن خرشة ، فقال : وما حقه يا رسول الله ؟ قال : أن تضرب به وجوه العدو حتى ينحني . قال : أنا آخذه بحقه يا رسول الله ، فأعطاه إياه .

وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب ، وكانت له عصابة حمراء إذا اعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل حتى الموت . فلما أخذ السيف عصب رأسه بتلك العصابة ، وجعل يتبختر بين الصفين ، وحينئذ قال رسول الله ﷺ : إنها لميشة يبغيها الله إلا في مثل هذا الموطن .

تعبئة الجيش المكي :

أما المشركون فعبأوا جيشهم حسب نظام الصفوف ، فكانت القيادة العامة إلى أبي سفيان صخر بن حرب الذي تركز في قلب الجيش ، وجعلوا على الميمنة خالد بن الوليد - وكان إذ ذاك مشركاً - وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل ، وعلى المشاة صفوان بن أمية ، وعلى رماة النبل عبد الله بن أبي ربيعة .

أما اللواء فكان إلى مفرزة من بني عبد الدار ، وقد كان ذلك منصبتهم منذ أن اقتسمت بنو عبد مناف المناصب التي ورثوها من قصي بن كلاب - كما أسلفنا في أوائل

المقالة - وكان لا يمكن لأحد أن ينازعهم في ذلك، تقيدا بالتقاليد ورثوها كابرا عن كابر، بيد أن القائد العام - أبا سفيان - ذكرهم بما أصاب قريشا يوم بدر حين أسر حامل لوائهم النضر بن الحارث ، وقال لهم ليستفز غضبهم ويشير حميتهم : يا بني عبد الدار ، قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم ، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم ، إذا زالت زالوا ، فإما أن تكفونا لواءنا ، وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه .

ونجح أبو سفيان في هدفه فقد غضب بنوا عبد الدار لقول أبي سفيان أشد الغضب ، وهموا به وتواعدوه ، وقالوا له نحن نسلم إليك لواءنا ؟ ستعلم غدا إذا التقينا كيف نصنع . وقد ثبتوا عند احتدام المعركة حتى أبعدوا عن بكرة أبيهم .

مناورات سياسية من قبل قريش :

وقبيل نشوب المعركة حاولت قريش إيقاع الفرقة والنزاع داخل صفوف المسلمين . فقد أرسل أبو سفيان إلى الأنصار يقول لهم : « خلوا بيننا وبين ابن عمنا فننصرف عنكم ، فلا حاجة لنا إلى قتالكم » ولكن أين هذه المحاولة أمام الإيمان الذي لا تقوم له الجبال ، فقد رد عليه الأنصار ردا عنيفا ، وأسمعوه ما يكره .

واقتربت ساعة الصفر ، وتدانست الفتتان ، فقامت قريش بمحاولة أخرى لنفس الغرض ، فقد خرج إليهم عميل خائن يسمى أبا عامر الفاسق - واسمه عبد عمرو بن صيفي وكان يسمى الراهب ، فسماه رسول الله ﷺ الفاسق وكان رأس الأوس في الجاهلية . فلما جاء الإسلام شرق به ، وجاهر رسول الله ﷺ بالعداوة ، فخرج من المدينة ، وذهب إلى قريش يؤلبهم على رسول الله ﷺ ويحرضهم على قتاله ، ووعدهم بأن قومه إذا رأوه أطاعوه ، ومالوا معه - فكان أول من خرج إلى المسلمين في الأحابيش وعبدان أهل مكة ، فنادى قومه وتعرف عليهم ، وقال : يا معشر الأوس ، أنا أبو عامر . فقالوا : لا أنعم الله بك عينا يا فاسق . فقال : لقد أصاب قومي بعدى شر . (ولما بدأ القتال قاتلهم قتالا شديدا وراضخهم بالحجارة) .

وهكذا فشلت قريش في محاولتها الثانية للتفريق بين صفوف أهل الإيمان ويدل عملهم هذا على ما كان يسيطر عليهم من خوف المسلمين وهيبتهم ، مع كثرتهم وتفوقهم في العدد والعدة .

جهود نسوة قريش في التحميس :

وقامت نسوة قريش بنصيبهن من المشاركة في المعركة ، تقودهن هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان ، فكن يتجولن في الصفوف ، ويضربن بالدفوف ، يستنهضن الرجال ، ويحرضن على القتال ويثرن حفاظ الأبطال ،، ويحركن مشاعر أهل الطعان والضراب

والنضال ، فتارة يخاطبن أهل اللواء فيقلن
ويها بنى عبد الدار ويها حماة الأدبار
ضربا بكل بتار

وتارة يأزرن قومهن على القتال وينشدن :
إن تقبلوا نعاق ونفرش النمارق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

أول وقود المعركة :

وتقارب الجمعان وتدانست الفتتان ، وبدأت مراحل القتال ، وكان أول وقود المعركة حامل لواء المشركين طلحة بن أبي طلحة العبدري ، وكان من أشجع فرسان قريش ، يسميه المسلمون كبش الكتبية ، خرج وهو راكب على جمل ، يدعوا إلى المبارزة ، فأحجم عنه الناس لفرط شجاعته ، ولكن تقدم إليه الزبير ، ولم يمهله بل وثب إليه وثبة الليث حتى صار معه على جملة ، ثم اقتحم به الأرض ، فألقاه عنه وذبحه بسيفه .

ورأى النبي ﷺ هذا الصراع الرائع ، فكبر وكبر المسلمون ، وأثنى على الزبير ، وقال فى حقه : إن لكل نبي حواريا ، وحواريي الزبير (١) .

ثقل المعركة حول اللواء وإبادة حملته :

ثم اندلعت نيران المعركة ، واشتد القتال بين الفريقين فى كل نقطة من نقاط الميدان ، وكان ثقل المعركة يدور حول لواء المشركين . فقد تعاقب بنو عبد الدار لحمل اللواء بعد قتل قائدهم طلحة بن أبي طلحة ، فحملة أخوه أبو شيبة عثمان بن أبي طلحة ، وتقدم للقتال وهو يقول :

إن على أهل اللواء حقا أن تخضب الصعدة أو تندقا

فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب ، فضربه على عاتقه ضربة بترت يده مع كتفه ، حتى وصلت إلى شترته ، فبالت شترته .

ثم رفع اللواء أبو سعد بن أبي طلحة ، فرماه سعد بن أبي وقاص بسهم أصاب حنجرتة ، فأدلع لسانه ومات لحينه . وقيل بل خرج أبو سعد يدعوا إلى البراز ، فتقدم إليه على بن أبي طالب ، فاختلفا ضربتين ، فضربه على فقتله .

ثم رفع اللواء مسافع بن طلحة بن أبي طلحة ، فرماه عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح

(١) ذكره صاحب السيرة الحلبية ٢ / ١٨٠ .

بسهم فقتله ، فحمل اللواء بعده أخوه كلاب بن طلحة بن أبي طلحة ، فانقض عليه الزبير بن العوام وقاتله حتى قتله ، ثم حمل اللواء أخوهما الجلاس بن طلحة بن أبي طلحة ، فطعنه طلحة بن عبيد طعنة قضت على حياته ، وقيل : بل رماه عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح بسهم فقضى عليه .

هؤلاء ستة نفر من بيت واحد ، بيت أبي طلحة عبد الله بن عثمان الدار . قتلوا جميعاً حول لواء المشركين ، ثم حملة بنى عبد الدار أرطاة بن شرحبيل ، فقتله على بن أبي طالب ، وقيل : حمزة بن عبد المطلب ، ثم حملة شريح بن قارظ فقتله قزمان . وكان منافقا قاتل مع المسلمين حمية ، لا عن الإسلام . ثم حملة أبو زيد عمرو بن عبد مناف العبدري ، فقتله قزمان أيضا ، ثم حملة ولد لشرحبيل بن هاشم العبدري فقتله قزمان أيضا .

فهؤلاء عشرة من بنى عبد الدار . من حملة اللواء . أبعدوا عن آخرهم ولم يبق منهم أحد يحمل اللواء ، فتقدم غلام لهم حبشى . اسمه صواب . فحمل اللواء وأبدي من صنوف الشجاعة والثبات ما فاق به مواليه من حملة اللواء الذين قتلوا قبله ، فقد قاتل حتى قطعت يده ، فبرك على اللواء بصدرة وعنقه لئلا يسقط حتى قتل وهو يقول : اللهم هل أعزرت ؟ يقول أعذرت (١) .

وبعد أن قتل هذا الغلام . صواب . سقط اللواء على الأرض ، ولم يبق أحد يحمله ، فبقى ساقطا .

القتال فى بقية النقاط :

وبينما كان ثقل المعركة ، يدور حول لواء المشركين ، كان القتال المرير يجرى فى سائر نقاط المعركة ، وكانت روح الإيمان قد سادت صفوف المسلمين ، فانطلقوا خلال جنود الشرك انطلاق الفيضان تتقطع أمامه السدود وهم يقولون « أمت ، أمت » ، كان ذلك شعارا لهم يوم أحد .

أقبل أبو دجانة معلما بعصابته الحمراء ، آخذا بسيف رسول الله ﷺ ، مصمما على أداء حقه فقاتل حتى أمعن فى الناس وجعل لا يلقى مشركا إلا قتله ، وأخذ يهد صفوف المشركين هدا . قال الزبير بن العوام : وجدت فى نفسى حين سألت رسول الله ﷺ السيف فمنعنيه وأعطاه أبا دجانة ، وقلت أى فى نفسى أنا ابن صفية عمته ، ومن قریش ، وقد قمت إليه ، فسألته إياه قبله فاتاه إياه وتركنى ، والله لأنظرن ما يصنع ؟ فاتبعته فأخرج عصابة له حمراء وفعصب بها رأسه ، فقالت الأنصار : أخرج أبو دجانة عصابة الموت . فخرج وهو يقول :

(١) كان بلسانه لكنه يقلب الذال إلى الزاى .

أنا الذى عاهدنى خليلى ونحن بالسفح لدى النخيل

أن لا أقوم الدهر فى الكيول (١) أضرب بسيف الله والرسول

فجعل لا يلقي أحدا إلا قتله، كان فى المشركين رجل لا يدع لنا جريحا إلا زفف عليه، فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه، فدعوت الله أن يجمع بينهما فالتقيا، فاختلفا ضربتين، فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاه بدرقته، فعضت بسيفه فضربه أبو دجانة فقتله (٢).

ثم أمعن أبو دجانة فى هد الصفوف، حتى خلص إلى قائدة نسوة قريش وهو لا يدري بها. قال أبو دجانه رأيت إنسانا يخمش الناس خمشا شديدا فصمدت له، فلما حملت عليه السيف ولول، فإذا امرأة، فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة.

وكانت تلك المرأة هى هند بنت عتبة قال الزبير بن العوام رأيت أبا دجانة قد حمل السيف على مفرق رأس هند بنت عتبة، ثم عدل السيف عنها، فقالت: الله ورسوله أعلم (٣).

وقاتل حمزة بن عبد المطلب قتال الليث المهاجرة، فقد اندفع إلى قلب جيش المشركين يغامر مغامرة منقطعة النظير، ينكشف عنه الأبطال كما تتطاير الأوراق أمام الرياح الهوجاء، فبالإضافة إلى مشاركته الفعالة فى إبادة حاملى لواء المشركين، فعل الأفاعيل بأبطالهم الآخرين حتى صرع وهو فى مقدمة المبرزين، ولكن لا كما تصرع الأبطال وجها لوجه فى ميدان القتال، وإنما كما يغتال الكرام فى حلك الظلام.

مصرع أسد الله حمزة بن عبد المطلب :

يقول قاتل حمزة وحشى بن حرب : كنت غلاما لجبير بن مطعم ، وكان عمه طعيمة ابن عدى قد أصيب يوم بدر ، فلما سارت قريش إلى أحد قال لى جبير : إنك إن قتلت حمزة عم محمد بعى فأنت عتيق . قال : فخرجت مع الناس - وكنت رجلا حبشيا أقذف بالحرية قذف الحبشة قلما أخطئ بها شيئا فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره ، حتى رأيته فى عرض الناس مثل الجمل الأورق ، يهد الناس هداما يقوم له شئ ، فوالله إننى لأتهيا له أريده ، فأستتر منه بشجرة أو حجر ليدنو منى ، إذ تقدمنى إليه سباع بن عبد العزى ، فلما رآه حمزة قال له : هلم إلى يا ابن مقطعة البظور - وكانت أمه خثانة - قال : فضربه ضربة كأنما أخطأ رأسه (٤).

قال : وهزرت حربتى ، وحتى إذا رضيت منها دفعتها إليه فوقعت فى ثنيته - أحشائه -

(١) الكيول : آخر الصفوف يعنى أنه لا يقاتل فى مؤخرة الصفوف . بل يظل أبدا فى المقدمة .

(٢) ابن هشام ٢ / ٦٨ ، ٩ (٣) نفس المصدر ٢ / ٦٩ . (٤) أخطأ رأسه ، يقال عند المبالغة فى الإصابة .

حتى خرجت من بين رجليه ، وذهب لينوء نحوى فغلب ، وتركته وإياها حتى مات ، ثم أتيته فأخذت حربتي ثم رجعت إلى العسكر ، فقعدت فيه ، ولم يكن لى بغيره حاجة ، وإنما قتلته لأعتق ، فلما قدمت مكة عتقت (١) .

السيطرة على الموقف :

وبرغم هذه الخسارة الفادحة التى لحقت المسلمين بقتل أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب ، ظل المسلمون مسيطرين على الموقف كله ، فقد قاتل يومئذ أبو بكر ، وعمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ، ومصعب بن عمير وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الله بن جحش ، وسعد بن معاذ وسعد بن عباد ، وسعد بن الربيع ، وأنس بن النضر وأمثالهم قتالا فل عزائم المشركين ، وفتت فى أعضادهم .

من أحضان المرأة إلى مقارعة السيوف والدرقة :

وكان من الأبطال المغامرين يومئذ حنظلة الغسيل - وهو حنظلة بن أبى عامر ، وأبو عامر هذا هو الراهب الذى سمي بالفاسق ، والذى مضى ذكره قريبا - كان حنظلة حديث عهد بالعرس ، فلما سمع هواتف الحرب - وهو على امرأته - انخلع من أحضانها ، وقام من فوره إلى الجهاد ، فلما التقى بجيش المشركين فى ساحة القتال ، أخذ يشق الصفوف ، حتى خلص إلى قائد المشركين أبى سفيان صخر بن حرب ، وكاد يقضى عليه لولا أن أتاح الله الشهادة ، فقد شد على أبى سفيان ، فلما استعلاه وتمكن منه رآه شداد بن الأسود فضربه حتى قتله .

نصيب فصيلة الرماة فى المعركة :

وكانت للفصيلة التى عينها الرسول ﷺ على جبل الرماة يد بيضاء فى إدارة دفة القتال لصالح الجيش الإسلامى ، فقد هجم فرسان مكة بقيادة خالد بن الوليد يسانده أبو عامر الفاسق ، ثلاث مرات ليحطموا جناح الجيش الإسلامى الأيسر ، حتى يتسربوا إلى ظهور المسلمين ، فيحدثوا البلبلة والارتباك فى صفوفهم ، وينزلوا عليهم هزيمة ساحقة ، ولكن هؤلاء الرماة رشقوهم بالنبل حتى فشلت هجماتهم الثلاث (٢) .

الهزيمة تنزل بالمشركين :

هكذا دارت رحى الحرب الزبون ، وظل الجيش الإسلامى الصغير مسيطرا على الموقف كله ، حتى نحارت عزائم أبطال المشركين ، وأخذت صفوفهم تتبدد عن اليمين

(١) ابن هشام ٢/ ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ . صحيح البخارى ٢/ ٥٨٣ - أسلم وحشى هذا بعد معركة الطائف ، وقتل مسيلمة الكذاب بحريته تلك ، وشهد اليرموك ضد الرومان . (٢) انظر فتح البارى ٧/ ٣٤٦ .

والشمال والأمام والخلف ، كأن ثلاثة آلاف مشرك يواجهون ثلاثين ألف مسلم ، لا بضع مئات قتلا ، وظهر المسلمون في أعلى صور الشجاعة واليقين .

وبعد أن بذلت قريش أقصى جهدها لسد هجوم المسلمين أحست بالعجز والخور ، وانكسرت همتها . حتى لم يجترئ أحد منها أن يدنو من لوائها ، الذي سقط بعد مقتل صواب ، فيحمله ليدور حوله القتال . فأخذت في الانسحاب ، ولجأت إلى الفرار ، ونسيت ما كانت تتحدث به في نفوسها من أخذ الثأر والوتر والانتقام ، وإعادة العز والمجد والوقار .

قال ابن إسحاق : ثم أنزل الله نصره على المسلمين ، وصدقهم وعده فحسوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن المعكسر ، وكانت الهزيمة لاشك فيها . روى عبد الله بن الزبير عن أبيه أنه قال : والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم - سوق - هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب ، مادون أخذهن قليل ولا كثير .. إلخ (١) وفي حديث البراء بن عازب عند البخاري في الصحيح : فلما لقيناهم هربوا ، حتى رأيت النساء يشتدون في الجبل يرفعهن سوقهن قد بدت خلاخيلهن (٢) . وتبع المسلمون المشركين ، يضعون فيهم السلاح وينتهبون الغنائم .

غلطة الرماة الفظيعة:

وبينما كان الجيش الإسلامي الصغير يسجل مرة أخرى نصرا ساحقا على مكة لم يكن أقل روعة من النصر الذي اكتسبه يوم بدر ، وقعت من أغلبية فصيلة الرماة غلطة فظيعة قلبت الوضع تماما ، وأدت إلى إلحاق الخسائر الفادحة بالمسلمين ، وكادت تكون سببا في مقتل النبي ﷺ ، وقد تركت أسوأ أثر على سمعتهم ، والهيبة التي كانوا يتمتعون بها بعد بدر .

لقد أسلفنا نصوص الأوامر الشديدة التي أصدرها رسول الله ﷺ إلى هؤلاء الرماة بلزومهم موقفهم من الجبل في كل حال من النصر أو الهزيمة لكن على رغم هذه الأوامر المشددة ؛ لما رأى هؤلاء الرماة أن المسلمين ينتهبون غنائم العدو ، غلبت عليهم أثارة من حب الدنيا ، فقال بعضهم لبعض : الغنيمة ، الغنيمة ، ظهر أصحابكم ، فما تنتظرون ؟

أما قائدهم عبد الله بن جبير ، فقد ذكرهم أوامر الرسول ﷺ وقال : أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ ؟

ولكن الأغلبية الساجقة لم تلق لهذا التذكير بالا ، وقالت : والله لنأتين الناس فلنصيبين من الغنيمة (٣) . ثم غادر أربعون رجلا من هؤلاء الرماة مواقعهم من الجبل ، والتحقوا بسواد الجيش ، ليشاركوه في جمع الغنائم ، وهكذا خلت ظهور المسلمين ، ولم يبق فيها إلا ابن جبير وتسعة من أصحابه ، التزموا مواقعهم ، مصممين على البقاء حتى يؤذن لهم أو يبادوا

(٢) صحيح البخاري ٥٧٩ / ٢ .

(١) ابن هشام ٧٧ / ٢ .

(٣) روى ذلك البخاري من حديث البراء بن عازب ٤٢٦ / ١ .

خالد بن الوليد يقوم بخطة تطويق الجيش الإسلامى :

وانتهز خالد بن الوليد هذه الفرصة الذهبية ، فاستدار بسرعة خاطفة ، حتى وصل إلى مؤخرة الجيش الإسلامى ، فلم يلبث أن أباد عبد الله بن جبير وأصحابه ، ثم انقض على المسلمين من خلفهم ، وصاح فرسانه صيحة عرف المشركون المنهزمون بالتطور الجديد ، فانقلبوا على المسلمين ، وأسرعت امرأة منهم - وهى عمرة بنت علقمة الحارثية - فرفعت لواء المشركين المطروح على التراب ، فالتف حوله المشركون ، ولاثوا به ، وتنادى بعضهم بعضا ، حتى اجتمعوا على المسلمين ، وثبتوا للقتال ، وأحيط بالمسلمون من الأمام والخلف ووقعوا بين شقى الرحى .

موقف الرسول الباسل إزاء عمل التطويق :

وكان رسول الله ﷺ حينئذ فى مفرزة صغيرة - تسعة نفر من أصحابه (١) - فى مؤخرة المسلمين (٢) ، كان يرقب مجالدة المسلمين ومطاردتهم المشركين ؛ إذ بوغت بفرسان خالد مباغته كاملة ، فكان أمامه طريقان ، إما أن ينجو - بالسرعة - بنفسه وأصحابه التسعة إلى ملجأ مأمون ، ويترك جيشه المطوق إلى مصيره المقدور ، وإما أن يخاطر بنفسه فيدعو أصحابه ليجمعهم حوله ، ويتخذ بهم جبهة قوية يشق بها الطريق لجيشه المطوق إلى هضاب أحد .

وهناك تجلت عبقرية الرسول ﷺ وشجاعته المنقطعة النظير ، فقد رفع صوته ينادى أصحابه : عباد الله ، وهو يعرف أن المشركين سوف يسمعون صوته قبل أن يسمعه المسلمون ، ولكنه ناداهم ودعاهم مخاطرا بنفسه فى هذا الظرف الدقيق .
وفعلا فقد علم به المشركون فخلصوا إليه ، قبل أن يصل إليه المسلمون .

تبدد المسلمين فى الموقف :

أما المسلمون فلما وقعوا فى التطويق طار صواب طائفة منهم ، فلم تكن تهمها إلا أنفسها ، فقد أخذت طريق الفرار ، وتركت ساحة القتال ، وهى لا تدري ماذا وراءها؟ وفر من هذه الطائفة بعضهم إلى المدينة حتى دخلها ، وانطلق بعضهم إلى فوق الجبل ، ورجعت طائفة أخرى فاختلطت بالمشركين ، والتبس العسكران ، فلم يتميزوا ، فوقع القتل فى المسلمين بعضهم من بعض . روى البخارى عن عائشة قالت : لما كان يوم أحد

(١) فى صحيح مسلم (١٠٧/٢) أنه ﷺ أفرد يوم أحد فدى سبعة من الأنصار ورجلين من قريش .

(٢) يدل عليه قوله تعالى : والرسول يدعوكم فى أخراكم . (٣ : ١٥٣) .

هزم المشركون هزيمة بينة ، فصاح إبليس : أى عباد الله أخراكم - أى احترزوا من ورائكم - فرجعت أولاهم فاجتلدت هى وأخراهم ، فبصر حذيفة ، فإذا هو بأبيه اليمان ، فقال : عباد الله أبى أبى قالت : فوالله ما احتجزوا عنه حتى قتلوه ، فقال حذيفة : يغفر الله لكم ، قال عروة : فوالله ما زالت فى حذيفة بقية خير حتى لحق بالله (١) .

وهذه الطائفة حدث داخل صفوفها ارتباك شديد ، وعمتها الفوضى وتاه منها الكثيرون ، لا يدرون أين يتوجهون ، وبينما هم كذلك إذا سمعوا صائحا يصيح : إن محمدا قد قتل . فطارت بقية صوابهم ، وانهارت الروح المعنوية ، أو كادت تنهار فى نفوس كثير من أفرادها ، فتوقف من توقف منهم عن القتال ، وألقى بأسلحته مستكينا ، وفكر آخرون فى الاتصال بعبد الله بن أبى - رأس المنافقين - ليأخذ لهم الأمان من أبى سفيان . ومر بهؤلاء أنس بن النضر ، وقد ألقوا بأيديهم فقال : ما تنتظرون ؟ فقالوا : قتل رسول الله ﷺ ، قال : ما تصنعون بالحياة بعده ؟ فقوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ، ثم قال : اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ، يعنى المسلمين ، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء يعنى المشركين ، ثم تقدم فلقية سعد بن معاذ ، فقال : أين يا أبا عمر ؟ فقال أنس : واهما لريح الجنة يا سعد ، إنى أجده دون أحد ، ثم مضى فقاتل القوم حتى قتل ، فما عرف حتى عرفته أخته - بعد نهاية المعركة - بينانه ، وبه بضع وثمانون ما بين طعنة برمح ، وضربة بسيف ، ورمية بسهم (٢) .

ونادى ثابت بن الدحداح قومه . فقال : يا معشر الأنصار ، إن كان محمد قد قتل ، فإن الله حى لا يموت ، قاتلوا على دينكم ، فإن الله مظفركم وناصركم فنهض إليه نفر من الأنصار ، فحمل بهم على كتبية فرسان خالد ، فما زال يقاتلهم ، حتى قتله خالد بالرمح ، وقتل أصحابه (٣) .

ومر رجل من المهاجرين برجل من الأنصار ، وهو يتشحط فى دمه ، فقال يا فلان أشعرت أن محمدا قد قتل ؟ فقال الأنصارى : إن كان محمد قد قتل فقد بلغ ، فقاتلوا عن دينكم (٤) .

وبمثل هذا الاستبسال والتشجيع عادت إلى جنود المسلمين روحهم المعنوية ، ورجع إليهم رشدهم وصوابهم ، فعدلوا عن فكرة الاستسلام أو الاتصال بابن أبى ، وأخذوا سلاحهم ، يهاجمون تيارات المشركين ، وهم يحاولون شق الطريق إلى مقر القيادة ، وقد

(١) صحيح البخارى ١ / ٥٣٩ ، ٢ / ٥٨١ ، وفتح البارى ٧ / ٣٥١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ وذكر غير البخارى أن رسول الله ﷺ أراد أن يديه . فقال حذيفة : تصدقت بديته على المسلمين ، فزاد ذلك حذيفة خيرا عند النبي ﷺ . انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ٢٤٦ .

(٢) زاد المعاد ٢ / ٩٣ ، ٩٦ ، صحيح البخارى ٢ / ٥٧٩ .

(٣) السيرة الحلبية ٢ / ٢٢ .

(٤) زاد المعاد ٢ / ٩٦ .

بلغهم أن خبر مقتل النبي ﷺ كذب مخلق ، فزادهم ذلك قوة على قوتهم ، فنجحوا في الإفلات عن التطويق ، وفي التجمع حول مركز منيع بعد أن باشروا القتال المرير ، وجالدوا بضراوة بالغة .

وكانت هناك طائفة ثالثة لم يكن يهمهم إلا رسول الله ﷺ . فقد كرت هذه الطائفة إلى رسول الله ﷺ ، وعمل التطويق في بدايته ، وفي مقدمة هؤلاء أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعلى بن أبي طالب وغيرهم رضی الله عنهم كانوا في مقدمة المقاتلين فلما أحسوا بالخطر على ذاته الشريفة - عليه الصلاة والسلام والتحية - صاروا في مقدمة المدافعين .

احتدام القتال حول رسول الله ﷺ :

وبينما كانت تلك الطوائف تتلقى أوامر التطويق ، تطحن بين شقى رضى المشركين ، كان العراك محتدما حول رسول الله ﷺ وقد ذكرنا أن المشركين لما بدأوا عمل التطويق لم يكن مع رسول الله ﷺ إلا تسعة نفر ، فلما نادى المسلمين : هلم إلي ، أنا رسول الله ، سمع صوته المشركون وعرفوه ، فكروا إليه وهاجموه ، ومالوا إليه بثقلهم قبل أن يرجع إليه أحد من جيش المسلمين فجري بين المشركين وبين هؤلاء النفر التسعة من الصحابة عراك عنيف ، ظهرت فيه نواذر الحب والتفاني والبسالة والبطولة .

روى مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش ، فلما رهقوه قال : من يردهم عنا وله الجنة ؟

أو هو رفيقى فى الجنة ؟ فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل ، ثم رهقوه أيضا فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة ، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه - أى القرشيين ما أنصفنا أصحابنا (١) .

وكان آخر هؤلاء السبعة هو عمارة بن يزيد بن السكن ، قاتل حتى أثبتته الجراحة فسقط (٢) .

أخرج ساعة في حياة الرسول ﷺ :

وبعد سقوط بن السكن بقى رسول الله ﷺ فى القرشيين فقط ، ففى الصحيحين عن أبى عثمان قال : لم يبق مع النبى ﷺ فى بعض تلك الأيام التى يقاتل فيهن غير طلحة بن

(١) صحيح مسلم ، باب غزوة أحد ٢ / ١٠٧ .

(٢) وبعد لحظة فاءت إلى رسول الله ﷺ فئة من المسلمين فأجهضوا الكفار عن عمارة ، وأدبره من رسول الله ﷺ ، فوسده قدمه ، فمات وخذه على قدم رسول الله ﷺ . (ابن هشام ٢ / ٨١) .

عبيد الله وسعد (بن أبي وقاص) (١) وكانت أخرج ساعة بالنسبة إلى حياة رسول الله ﷺ ، وفرصة ذهبية بالنسبة إلى المشركين ، ولم يتوان المشركون في انتهاز تلك الفرصة ، فقد ركزوا حملتهم على النبي ﷺ وطمعوا في القضاء عليه ، رماه عتبة بن أبي وقاص بالحجارة فوق لشقه ، وأصيبت ربايعته اليمنى السفلى وكلمت شفته السفلى ، وتقدم إليه عبد الله بن شهاب الزهري ، فشجّه في جبهته ، وجاء فارس عبيد هو عبد الله بن قمثة فضرب على عاتقه بالسيف ضربة عنيفة ، شكّا لأجلها أكثر من شهر ، إلا أنه لم يتمكن من هتك الدرعين ، ثم ضرب على وجنته ﷺ ضربة أخرى عنيفة كالأولى ، حتى دخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ، وقال : خذا وأنا ابن قمثة . فقال رسول الله ﷺ له وهو يمسح الدم عن وجهه : أقمأك الله (٢) .

وفي الصحيح أنه ﷺ كسرت ربايعته ، وشجّت في رأسه ، فجعل يسلك الدم عنه ويقول : كيف يفلح قوم شجّوا وجه نبيهم ، وكسروا ربايعته وهو يدعوهم إلى الله ، فأُنزل الله عز وجل : ﴿ ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﴾ (٣) .

وفي رواية الطبراني أنه قال يومئذ : اشتد غضب الله على قوم دموا وجه رسوله ، ثم مكث ساعة ثم قال : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون (٤) . وكذا في صحيح مسلم أنه كان يقول : رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون (٥) ، وفي الشفاء للقاضي عياض أنه قال : اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون (٦) .

ولا شك أن المشركين كانوا يهدفون القضاء على حياة رسول الله ﷺ ، إلا أن القرشيين سعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله قاما ببطولة نادرة ، وقاتلا ببسالة منقطعة النظير ، حتى لم يتركا - وهما اثنان فحسب - سبيلا إلى نجاح المشركين في هدفهم ، كانا من أمهر رماة العرب ، فتناضلا حتى أجهضا مفرزة المشركين عن رسول الله ﷺ .

فأما سعد بن أبي وقاص ، فقد نثل له رسول الله ﷺ كنانته ، وقال : ارم فداك أبي وأمي (٧) . ويدل على مدى كفاءته أن النبي ﷺ لم يجمع أبويه لأحد غير سعد (٨) .

(١) صحيح البخاري ١ / ٢٠٢٧ / ٥٨١ .

(٢) وقد سمع الله دعاء رسوله ﷺ ، فعن ابن عائذ أن ابن قمثة « انصرف إلى أهله ، فخرج إلى غنمه ، فوافاها على ذروة جبل ، فدخل فيها ، فشده عليه تيسها فنطحه نطحة أرادته من شاطئ الجبل فتقطع (فتح الباري ٧ / ٣٧٣) وعند الطبراني فسلط الله عليه تيس جبل ، فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة (فتح الباري ٧ / ٣٦٦) .

(٣) صحيح البخاري ٢ / ٥٨٢ ، وصحيح مسلم ٢ / ١٠٨ .

(٤) فتح الباري ٧ / ٣٧٣ . (٥) صحيح مسلم باب غزوة أحد ٢ / ١٠٨ .

(٦) كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١ / ٨١ .

(٧ ، ٨) صحيح البخاري ١ / ٤٠٧ / ٢ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ .

وأما طلحة بن عبيد الله فقد روى النسائي عن جابر قصة تجمع المشركين حول الرسول ﷺ ومعه نفر من الأنصار . قال جابر : فأدرك المشركون رسول الله ﷺ فقال : من للقوم ، فقال طلحة : أنا ، ثم ذكر جابر تقدم الأنصار ، وقتلهم واحدا بعد واحد بنحو ما ذكرنا من رواية مسلم ، فلما قتل الأنصار كلهم تقدم طلحة ، قال جابر ثم قاتل طلحة قتال الأحد عشر حتى ضربت يده فقطعت أصابعه . فقال : حس ، فقال النبي ﷺ لو قلت : بسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون ، قال : ثم رد الله المشركين (١) . ووقع عند الحاكم في الإكليل أنه جرح يوم أحد تسعا وثلاثين ، أو خمسا وثلاثين ، وشلت إصبعه ، أى السبابة والتي تليها (٢) .

وروى البخارى عن قيس بن أبى حازم قال : رأيت يد طلحة ثلثاء ، وقى بها النبي ﷺ يوم أحد (٣) .

وروى الترمذى أن النبي ﷺ قال فيه يومئذ : « من ينظر إلى شهيد يمشى على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله » (٤) .

وروى أبو داود الطيالسى عن عائشة قالت : كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد قال : ذلك اليوم كله لطلحة (٥) .

وقال فيه أبو بكر أيضا :

يا طلحة بن عبيد الله قد وجبت لك الجنان وبأت المها العينا (٦)

وفى ذلك الظرف الدقيق والساعة الحرجة أنزل الله نصره بالغيب ، ففى الصحيحين عن سعد ، قال : رأيت رسول الله ﷺ يوم أحد ، ومعه رجلان يقاتلان عنه ، عليهما ثياب بيض ، كأشد القتال ، ما رأيتهما قبل ولا بعد ، وفى رواية يعنى جبريل وميكائيل (٧) .

بداية تجمع الصحابة حول الرسول ﷺ :

وقعت هذه كلها بسرعة هائلة فى لحظات خاطفة . وإلا فالمصطفون الأخيار من

(١) فتح البارى ٧ / ٣٦١ ، وسنن النسائي ٢ / ٥٢ ، ٥٣ .

(٢) نفس المصدر الأول ٧ / ٣٦١ .

(٣) صحيح البخارى ١ / ٥٢٧ ، ٢ / ٥٨١ . (٤) مشكاة المصابيح ٢ / ٥٦٦ ، ابن هشام ٢ / ٨٦ .

(٥) فتح البارى ٧ / ٣٦١ .

(٦) مختصر تاريخ دمشق ٧ / ٨٢ (من هامش شرح شذور الذهب ص ١١٤) .

(٧) صحيح البخارى ٢ / ٥٨٠ .

صحابته ﷺ - الذين كانوا في مقدمة صفوف المسلمين عند القتال - لم يكادوا يرون تطور الموقف أو يسمعون صوته ﷺ ، حتى أسرعوا إليه ؛ لئلا يصل إليه شيء يكرهونه . إلا أنهم وصلوا وقد لقي رسول الله ﷺ ما لقي من الجراحات .. وستة من الأنصار قد قتلوا ، والسابع قد أثبتته الجراحات ، وسعد وطلحة يكافحان أشد الكفاح - فلما وصلوا أقاموا حوله سياجا من أجسادهم وسلاحهم ، وبالغوا في وقايته من ضربات العدو ، ورد هجماتهم وكان أول من رجع إليه هو ثانيه في الغار أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

روى ابن حبان في صحيحه عن عائشة قالت : قال أبو بكر الصديق لما كان يوم أحد انصرف الناس كلهم عن النبي ﷺ ، فكنت أول من فاء إلى النبي ﷺ ، فرأيت بين يديه رجل يقاتل عنه ويحميه ، قلت : كن طلحة فذاك أبي وأمي ، فلم أنشب أن أدركني أبا عبيدة بن الجراح ، إذا هو يشتد كأنه طير ، حتى لحقني فدفعنا إلى النبي ﷺ ، فإذا طلحة بين يديه صريعا فقال النبي ﷺ : دونكم أخاكم قد أوجب ، وقد رمى النبي ﷺ في وجنته ، حتى غابت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ، فذهبت لأنزعهما عن النبي ﷺ فقال أبو عبيدة : نشدتك الله يا أبا بكر إلا تركتني . قال : فأخذ بفيه ، فجعل ينفضه كراهية أن يؤذي رسول الله ﷺ . ثم استل السهم بفيه ، فندرت ثنية أبي عبيدة ، قال أبو بكر : ثم ذهبت لأخذ الآخر ، فقال أبو عبيدة : نشدتك بالله يا أبا بكر إلا تركتني ، قال فأخذه فجعل ينفضه حتى استله ، فندرت ثنية أبي عبيدة الأخرى ، ثم قال رسول الله ﷺ : دونكم أخاكم ، فقد أوجب ، قال : فأقبلنا على طلحة نعالجه . وقد أصابته بضعة عشرة ضربة (١) .

(وهذا أيضا يدل على مدى كفاءة طلحة ذلك اليوم في الكفاح والنضال) .

وخلال هذه اللحظات الحرجة اجتمع حول النبي ﷺ عصابة من أبطال المسلمين ، منهم أبو دجانة ، ومصعب بن عمير ، وعلى بن أبي طالب ، وسهل بن حنيف ، ومالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري . وأم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية ، وقتادة بن النعمان ، وعمر بن الخطاب ، وحاطب بن أبي بلتعة ، وسهل بن حنيف ، وأبو طلحة .

تضايع ضغوط المشركين :

كما كان عدد المشركين يتضايع كل آن ، وبالطبع فقد اشتدت حملاتهم ، وزاد ضغطهم على المسلمين ، حتى سقط رسول الله ﷺ في حفرة من الحفر التي كان أبو عامر الفاسق يكيدها فجحشت ركبته ، وأخذ على يديه ، واحتضنه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائما ، وقال نافع بن جبير : سمعت رجلا من المهاجرين يقول : شهدت أحدا ،

(١) زاد المعاد ٢ / ٩٥ .

فنظرت إلى النبل يأتي من كل ناحية رسول الله ﷺ وسطها ، كل ذلك يصرف عنه ، ولقد رأيت عبد الله بن شهاب الزهري يقول يومئذ : دلوني على محمد فلا نجوت إن نجا ورسول الله ﷺ إلى جنبه مامعه أحد ثم جاوزه ، فعاتبه في ذلك صفوان ، فقال : والله ما رأيته ، أحلف بالله أنه منا ممنوع . فخرجنا أربعة . فتعاهدنا وتعاهدنا على قتله ، فلم نخلص إلى ذلك (١) .

البطولات النادرة :

وقام المسلمون ببطولات نادرة وتضحيات رائعة ، لم يعرف لها التاريخ نظير . كان أبو طلحة يسور نفسه بين يدي رسول الله ﷺ ، ويرفع صدره ليقية عن سهام العدو . قال أنس : لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ ، وأبو طلحة بين يديه مجوب عليه بحجفة له ، وكان رجلا راميا شديد النزع ، كسر يومئذ قوسين أو ثلاث ، وكان الرجل يمر معه بجعبة من النبل ، فيقول : انثرها لأبي طلحة . قال : ويشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم ، فيقول أبو طلحة : بأبي أنت وأمي لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم ، نحري دون نحرك (٢) .

وعنه أيضا قال : كان أبو طلحة يتترس مع النبي ﷺ بترس واحد ، وكان أبو طلحة حسن الرمي ، فكان إذا رمى تشرف النبي ص ، فينظر إلى موقع نبله (٣) .

وقام أبو دجانة أمام رسول الله ﷺ ، فترس عليه بظهره ، والنبل يقع عليه وهو لا يتحرك .

وتبع حاطب بن أبي بلتعة بن أبي وقاص - الذي كسر الرباعية الشريفة فضربه بالسيف حتى طرح رأسه ، ثم أخذ فرسه وسيفه . وكان سعد بن أبي وقاص شديد الحرص على قتل أخيه - عتبة هذا - إلا أنه لم يظفر به ، بل ظفر به حاطب .

وكان سهل بن حنيف أحد الرماة الأبطال ، بايع رسول الله ﷺ على الموت ، ثم قام بدور فعال في ذود المشركين .

وكان رسول الله ﷺ يباشر الرماية بنفسه ، فعن قتادة بن النعمان أن رسول الله ﷺ رمى عن قوسه حتى اندقت سيئها (٤) ، فأخذها قتادة بن النعمان ، فكانت عنده ، وأصيبت يومئذ عينه حتى وقعت على وجنته ، فردها رسول الله ﷺ بيده ، فكانت أحسن عينيه وأحدهما .

وقاتل عبد الرحمن بن عوف حتى أصيب فوه يومئذ فهتم ، وجرح عشرين جراحة أو أكثر ، أصابه بعضها في رجله فخرج .

(٢) صحيح البخارى ٥٨١ / ٢ .

(٤) سيئها : ما عطف من طرفيها

(١) زاد المعاد ٩٧ / ٢ .

(٣) نفس المصدر ٤٠٦ / ١ .

وامتص مالك بن سنان والد أبى سعيد الخدرى الدم من وجنته ﷺ حتى أنقاه فقال :
مجّه . فقال : والله لا أمجّه أبدا . ثم أدبر يقاتل ، فقال النبى ﷺ : من أراد أن ينظر إلى
رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا . فقتل شهيدا .

وقاتلت أم عماره ، فاعترضت لابن قمئة فى أناس من المسلمين ، فضربها ابن قمئة
على عاتقها ضربة تركت جرحا أجوف ، وضربت هى ابن قمئة عدة ضربات بسيفها ،
لكن كانت عليه درعان فنجا ، وبقيت أم عماره تقاتل حتى أصابها اثنا عشر جرحا .

وقاتل مصعب بن عمير بضراوة بالغة ، يدافع عن النبى ﷺ هجوم ابن قمئة وأصحابه ،
وكان اللواء بيده ، فضربوه على يده اليمنى حتى قطعت ، فأخذ اللواء بيده اليسرى ،
وصمد فى وجوه الكفار حتى قطعت يده اليسرى ، ثم برك عليه ب صدره وعنقه حتى قتل ،
وكان الذى قتله هو ابن قمئة ، وهو يظنه رسول الله لشبهه به ، فانصرف ابن قمئة إلى
المشركين ، وصاح : أمحمدا قد قتل (١) .

إشاعة مقتل النبى ﷺ وأثره على المعركة :

ولم يمض على هذا الصباح دقائق ، حتى شاع خبر مقتل النبى ﷺ فى المشركين
والمسلمين وهذا هو الظرف الدقيق الذى خارت فيه عزائم كثير من الصحابة المطوقين ،
الذين لم يكونوا مع رسول الله ﷺ ، وانهارت معنوياتهم ، حتى وقع داخل صفوفهم ارتباك
شديد وعمتها الفوضى والاضطراب ، أن هذه الصيحة خففت بعض التخفيف من
مضاعفة هجمات المشركين ؛ لظنهم أنهم نجحوا فى غاية مرامهم ، فاشتعل الكثير منهم
بتمثيل قتلى المسلمين .

الرسول ﷺ يواصل المعركة وينقله الموقف :

ولما قتل مصعب أعطى رسول الله ﷺ اللواء على بن أبى طالب ، فقاتل قتالا شديدا ،
وقامت بقية الصحابة الموجودين هناك ببطولاتهم النادرة يقاتلون ويدافعون .

وحينئذ استطاع رسول الله ﷺ أن يشق الطريق إلى جيشه المطوق ، فأقبل إليهم ،
فعرفه كعب بن مالك - وكان أول من عرفه فنادى بأعلى صوته : يا معشر المسلمين أبشروا
، هذا رسول الله ﷺ ، فأشار إليه أن اصمت ؛ وذلك لئلا يعرف موضعه المشركون . إلا
أن هذا الصوت بلغ إلى آذان المسلمين ، فلاذ إليه المسلمون ، حتى تجمع حوله حوالى
ثلاثين رجلا من الصحابة .

(١) انظر بن هشام ٢ / ٧٣ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، وزاد المعاد ٢ / ٩٧ .

وبعد هذا التجمع أخذ رسول الله ﷺ فى الانسحاب المنظم يشق الطريق بين المشركين المهاجمين ، واشتد المشركون فى هجومهم ؛ لعرقلة الانسحاب إلا أنهم فشلوا أمام بسالة ليث الإسلام .

تقدم عثمان بن عبد الله بن المغيرة - أحد فرسان المشركين - إلى رسول الله ﷺ وهو يقول : لا نجوت إن نجا . وقام رسول الله ﷺ لمواجهة ، إلا أن الفرس عثرت فى بعض الحفر ، فنازله الحارث بن الصمة ، فضرب على رجله فأقعده ، ثم ذفف عليه ، وأخذ سلاحه ، والتحق برسول الله ﷺ .

وعطف عبد الله بن جابر - فارس آخر من فرسان مكة - على الحارث بن الصمة ، فضرب بالسيف على عاتقه ، فجرحه حتى حملة المسلمون ، ولكن انقض أبو دجانة - البطل المغوار ذو العصاة الحمراء - على عبد الله بن جابر ، فضربه بالسيف ضربة أطارت رأسه .

وأثناء هذا القتال المرير ، كان المسلمون يأخذهم النعاس أمانة من الله كما تحدث عنه القرآن . قال أبو طلحة : كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفى من يدي مرارا ، يسقط وآخذه ، ويسقط وآخذه (١) .

وبمثل هذه البسالة بلغت هذه الكتيبة - فى انسحاب منظم - إلى شعب الجبل وشق لبقية الجيش طريقا إلى هذا المقام المأمون ، فتلاحق به فى الجبل ، وفشلت عبقرية خالد أمام عبقرية رسول الله ﷺ .

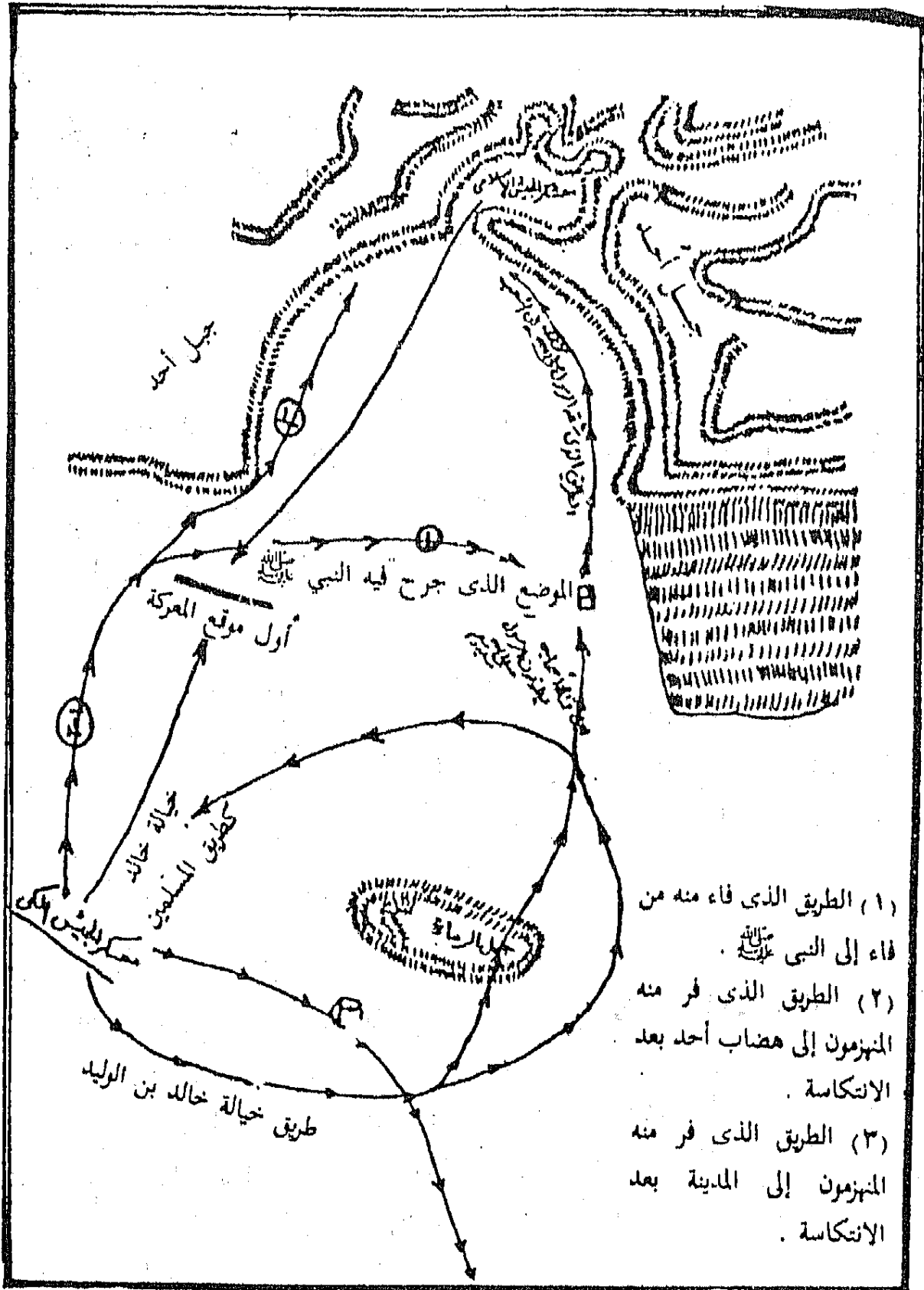
مقتل أبى بن خلف :

قال ابن إسحاق : فلما أسند رسول الله ﷺ فى الشعب أدركه أبى بن خلف وهو يقول : أين محمد لا نجوت إن نجا ؟ فقال القوم : يا رسول الله أعطف عليه رجلا منا؟ فقال رسول الله ﷺ : دعوه . فلما دنا منه تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة ، فلما أخذها منه انتفض انتفاضة تطايروا عنه تطاير الشعر عن ظهر البعير إذا انتفض ، ثم استقبله ، وأبصر ترقوته من فرجة بين سايغة الدرع والبيضة ، فطعنه فيها طعنة تدأدا - تدحرج - منها عن فرسه مرارا ، فلما رجع إلى قريش وقد خدشه فى عنقه خدشا غير كبير ، فاحتقن الدم قال : قتلنى والله محمد . قالوا له : ذهب والله فؤادك والله إن بك من بأس ، قال : إنه قد كان قال لى بمكة : أنا أقتلك (٢) فوالله لو بصق على لقتلنى ، فمات عدو الله بسرف ، وهم قافلون به إلى مكة (٣) ، وفى رواية أبى الأسود عن عروة : أنه كان يخور خوار الثور ويقول

(١) صحيح البخارى ٥٨٢ / ١ . (٢) وذلك أن رسول الله ﷺ لما كان بمكة كان يلقاه أبى هذا ، فيقول أبى : يا محمد

إن عندى العود فرسا أعلفه كل يوم فرقا من ذرة ، أقتلك عليه ، فيقول رسول الله ﷺ ، بل أنا أقتلك إن شاء الله .

(٣) ابن هشام ٨٤ / ٢ ، زاد المعاد ٩٧ / ٢ .



خريطة غزوة أحد

: والذى نفسى بيده لو كان الذى بى بأهل ذى الحجاز لما اتوا جميعا^(١) .

طلحة ينهض بالنبي ﷺ :

وفى أثناء انسحاب رسول الله ﷺ إلى الجبل عرضت له صخرة من الجبل ، فنهض إليه ليعلوها ، فلم يستطع ، لأنه كان قد بدن وظاهر بين الدرعين ، وقد أصابه جرح شديد . فجلس تحته طلحة بن عبيد الله ، فنهض به حتى استوى عليه وقال : أوجب طلحة^(٢) ، أى الجنة .

آخر هجوم قام به المشركون :

ولما تمكن رسول الله ﷺ من مقر قيادته فى الشعب ؛ قام المشركون بآخر هجوم حاولوا به النيل من المسلمين . قال ابن إسحاق : بينا رسول الله ﷺ فى الشعب إذا علت عالية من قریش الجبل - يقودهم أبو سفيان وخالد بن الوليد - فقال رسول الله ﷺ : اللهم إنه لا ينبغي لهم أن يعلونا ، فقاتل عمر بن الخطاب ورهط معه المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل^(٣) .

وفى مغازى الأموى أن المشركين صعدوا على الجبل ، فقال رسول الله ﷺ لسعد : أجنبهم - يقول : ارددهم - فقال : كيف أجنبهم وحدى ؟ فقال ذلك ثلاثا ، فأخذ سعد سهمًا من كنانته ، فرمى به رجلا فقتله ، قال : ثم أخذت سهمى أعرفه فرميت به آخر فقتلته ، ثم أخذته أعرفه فرميت به آخر فقتلته فهبطوا من مكانهم ، فقلت : هذا سهم مبارك ، فجعلته فى كناتى . فكان عند سعد حتى مات ، ثم كان عند بنيه^(٤) .

تشويه الشهداء :

وكان هذا آخر هجوم قام به المشركون ضد النبي ﷺ . ولما لم يكونوا يعرفون من مصيره شيئا - بل كانوا على شبه اليقين من قتله - رجعوا إلى مقرهم ، وأخذوا يتهيئون للرجوع إلى مكة ، واشتغل من اشتغل منهم - وكذا اشتغلت نساؤهم - بقتلى المسلمين ، يمثلون بهم ، ويقطعون الآذان والأنوف والفروج ، وييقرون البطون ، وبقرت هند بنت عتبة كبدة حمزة ، فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها ، فلفظتها ، واتخذت من الآذان والأنوف خدما - خلاخيل وقلائد^(٥) .

مدى استعداد أبطال المسلمين للقتال حتى نهاية المعركة :

وفى هذه الساعة الأخيرة وقعت وقعتان ، تدلان على مدى استعداد أبطال المسلمين

(١) مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ عبد الله النجدى ص ٢٥٠ . (٢) ابن هشام ٢ / ٨٦ .

(٣) نفس المصدر . (٤) زاد المعاد ٢ / ٩٥ . (٥) ابن هشام ٢ / ٩٠ .

للقتال ، ومدى استماتتهم فى سبيل الله .

١ - قال كعب بن مالك : كنت فيمن خرج من المسلمين ، فلما رأيت تمثيل المشركين بقتلى المسلمين قمت فتجاوزت ، فإذا رجل من المشركين جمع الأمة يجوز المسلمين وهو يقول : استوسقوا كما استوسقت جزر الغنم (١) .

وإذا رجل من المسلمين ينتظره ، وعليه لأمته ، فمضيت حتى كنت من ورائه ، ثم قمت أقدر المسلم والكافر ببصرى ، فإذا الكافر أفضلهما عدة وهيئة ، فلم أزل أنتظرهما حتى التقيا ، فضرب المسلم الكافر ضربة فبلغت وركه وتفرق فريقين ، ثم كشف المسلم عن وجهه وقال : كيف ترى يا كعب ؟ أنا أبو دجاجة (٢) .

٢ - جاءت نسوة من المؤمنين إلى ساحة القتال بعد نهاية المعركة ، قال أنس : لقد رأيت عائشة بنت أبى بكر وأم سليم ، وأنها لمشمرتان - أرى خدام سوقهما - تنقران القرب على متونهما ، تفرغانه فى أفواه القوم ، ثم ترجعان فتملاّنها ، ثم تجيئان فتفرغانه فى أفواه القوم (٣) . وقال عمر كانت (أم سليط) تزفر لنا القرب يوم أحد (٤) .

وكانت فى هؤلاء النسوة أم أيمن ، إنها لما رأت فلول المسلمين يريدون دخول المدينة ، أخذت تحشو فى وجوههم التراب ، وتقول لمعضهم : هاك المغزل ، وهلم سيفك . ثم سارعت إلى ساحة القتال ، فأخذت تسقى الجرحى فرماها حبان (بالكسر) بن العرقه بسهم ، فوقعت وتكشفت ، فأغرق عدو الله فى الضحك ، فشق ذلك على رسول الله ﷺ ، فدفع إلى سعد بن أبى وقاص سهماً لا نصبل له ، وقال : ارم به ، فرمى به سعد ، فوقع السهم فى نحر حبان فوقع مستلقيا حتى تكشف ، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجره ، ثم قال : استقاد لها سعد ، أجاب الله دعوته (٥) .

بعد انتهاء الرسول ﷺ إلى الشعب :

ولما استقر رسول الله ﷺ فى مقره من الشعب خرج على بن أبى طالب ، حتى ملأ درقته ماء من المهراس - قيل : هو صخرة منقورة تسع كثيرا وقيل : اسم ماء بأحد - فجاء به إلى رسول الله ﷺ ليشرّب منه ، فوجد له ريحا فعافه ، فلم يشرب منه ، وغسل عن وجهه الدم ، وصب على رأسه وهو يقول : اشتد غضب الله على من دمي وجه نبيه (٦) .

وقال سهل : والله إننى لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله ﷺ ، ومن كان يسكب الماء وبما دووى ؟ كانت فاطمة ابنته تغسله ، وعلى بن أبى طالب يسكب الماء

(٢) البداية والنهاية ٤ / ١٧ .

(٤) نفس المصدر ١ / ٤٠١ .

(١) أى استجمعوا وانضموا .

(٣) صحيح البخارى ١ / ٤٠٣ ، ٢ / ٥٨١ .

(٥) السيرة الحلبية ٢ / ٢٢ . (٦) ابن هشام ٢ / ٨٥ .

بالجن ، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير ، فأحرقتها ،
فألصقتها ، فاستمسك الدم (١) .

وجاء محمد بن مسلمة بماء عذب سائغ ، فشرب منه النبي ﷺ ، ودعا له بخير (٢) ،
وصلى قاعدا من أثر الجراح ، وصلى المسلمون خلفه قعوداً (٣) .

شماتة أبي سفيان بعد نهاية المعركة وحديثه مع عمر :

ولما تكامل تهيؤ المشركين للانصراف ، أشرف أبو سفيان على الجبل ، فنادى أفيكم
محمد؟ فلم يجيبوه . فقال : أفيكم ابن أبي قحافة؟ فلم يجيبوه فقال أفيكم عمر بن
الخطاب؟ فلم يجيبوه - وكان النبي ﷺ منعهم من الإجابة - ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة
لعلمه وعلم قومه أن قيام الإسلام بهم .

فقال : أما هؤلاء فقد كفيتموهم ، فلم يملك عمر نفسه أن قال : يا عدو الله إن الدين
ذكرتهم أحياء ، وقد أبقي الله مايسوءك ، فقال : قد كان فيكم مثلة لم آمر بها ولم تسؤني .
ثم قال : اعل هبل .

فقال النبي ﷺ : ألا تجيبونه؟ قالوا : فما نقول؟ قال قولوا : الله أعلى وأجل .

ثم قال : لنا العزى ولا عزى لكم .

فقال النبي ﷺ : ألا تجيبونه؟ قالوا : ما نقول؟ قال : قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم .

ثم قال أبو سفيان : أنعمت فعال ، يوم بيوم بدر ، والحرب سجال .

فأجاب عمر ، وقال : لا سواء ، قتلانا في الجنة ، وقتلاكم في النار .

ثم قال أبو سفيان هلم إلي يا عمر ، فقال رسول الله ﷺ ائته فانظر ما شأنه؟ فجاءه ،
فقال له أبو سفيان : أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمدا؟ قال عمر اللهم لا ، ، وإنه ليستمع
كلامك الآن ، قال : أنت أصدق عندي من ابن قمئة وأبر (٤) .

مواعدة التلاقي في بدر :

قال ابن إسحاق : ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى : إن موعدكم بدر العام
القابل . فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه : قل : نعم ، هو بيننا وبينك موعد (٥) .

(١) صحيح البخارى ٥٨٤ / ٢ . (٢) السيرة الحلبية ٣٠ / ٢ . (٣) ابن هشام ٨٧ / ٢ .

(٤) ابن هشام ٩٣ / ٢ ، ٩٤ زاد المعاد ٩٤ / ٢ صحيح البخارى ٥٧٩ / ٢ . (٥) ابن هشام ٩٤ / ٢ .

التثبت من موقف المشركين :

ثم بعث رسول الله ﷺ على بن أبى طالب ، فقال : اخرج فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون ؟ وما يريدون ؟ فإن كانوا قد جنبوا الخيل ، وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة . وإن كانوا قد ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة ، والذي نفسى بيدي لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ، ثم لأناجزنيهم . قال على : فخرجت فى آثارهم أنظر ما ذا يصنعون ، فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة (١) .

تفقد القتلى والجرحى :

وفرغ الناس لتفقد القتلى والجرحى بعد منصرف قريش . قال زيد بن ثابت بعثنى رسول الله ﷺ يوم أحد أطلب سعد بن الربيع ، فقال لى : إن رأيته فأقرئه من السلام ، وقل له : يقول لك رسول الله ﷺ : كيف تجدك ؟ قال : فجعلت أطوف بين القتلى ، فأتيته وهو بآخر رمق ، وفيه سبعون ضربة : ما بين طعنه برمح ، وضربة بسيف ، ورمية بسهم ، فقلت يا سعد ، إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : أخبرنى كيف تجدك ؟ فقال : وعلى رسول الله ﷺ السلام ، قل له : يا رسول الله أجدر ریح الجنة ، وقل لقومى الأنصار : لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف ، وفاضت نفسه من وقته (٢) .

ووجدوا فى الجرحى الأصيرم - عمرو بن ثابت - وبه رمق يسير ، وكانوا من قبل يعرضون عليه الإسلام فيأباه ، فقالوا : إن هذا الأصيرم ما جاء به ؟ لقد تركناه وإنه لمنكر هذا الأمر ، ثم سأله : ما الذى جاء بك ؟ أحذب على قومك ، أم رغبة فى الإسلام ؟ فقال بل رغبة فى الإسلام ، آمنت بالله ورسوله ، ثم قاتلت مع رسول الله ﷺ حتى أصابنى ما ترون ، ومات من وقته ، فذكروه لرسول الله ﷺ ، فقال : هو من أهل الجنة . قال أبو هريرة : ولم يصل لله صلاة قط . (٣) .

ووجدوا فى الجرحى قزمان - وكان قد قاتل قتال الأبطال ، قتل وحده سبعة أو ثمانية من المشركين - وجدوه قد أثبتته الجراحة ، فاحتملوه إلى دار بنى ظفر ، وبشره المسلمون فقال : والله إن قاتلت إلا عن أحساب قومى ولولا ذلك ما قاتلت فلما اشتد به الجراح نحر نفسه . وكان رسول الله ﷺ يقول : إذا ذكر له قال إنه من أهل النار (٤) . - وهذا هو مصير المقاتلين فى سبيل الوطنية أو فى أى سبيل سوى إعلاء كلمة الله ، وإن قاتلوا تحت لواء الإسلام ، بل وفى جيش الرسول والصحابة .

(١) ابن هشام ٢ / ٩٤ ، وفى فتح البارى أن الذى خرج فى آثار المشركين هو سعد بن أبى وقاص (٧ / ٣٤٧) .

(٢) زاد المعاد ٢ / ٩٦ . (٣) نفس المصدر ٢ / ٩٤ ، وابن هشام ٢ / ٩٠ .

(٤) نفس المصدر الأول ٢ / ٩٧ ، ٩٨ ، وابن هشام ٢ / ٨٨ .

وعلى عكس هذا كان فى القتلى رجل من يهود بنى ثعلبة ، قال لقومه يا معشر يهود والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم حق . قالوا : إن اليوم يوم السبت . قال : لا سبت لكم فأخذ سيفه وعدته ، وقال : إن أصبت فمالى لمحمد ، يصنع فيه ما يشاء ، ثم غدا فقاتل حتى قتل ، فقال رسول الله ﷺ : مخيريق خير يهود (١) .

جمع الشهداء ودفنهم :

وأشرف رسول الله ﷺ على الشهداء فقال أنا شهيد على هؤلاء ، إنه ما من جريح يجرح فى الله إلا والله يبعثه يوم القيامة ، يدمى جرحه اللون لون الدم والريح ريح المسك (٢) .

وكان أناس من الصحابة قد نقلوا قتلاهم إلى المدينة ، فأمر أن يردوهم فيدفنهم فى مضاجعهم ، وأن لا يغسلوا ، وأن يدفنوا كما هم بشياهم بعد نزع الحديد والجلود ، وكان يدفن الإثنين والثلاثة فى القبر الواحد ويجمع بين الرجلين فى ثوب واحد . ويقول أيهما أكثر أخذنا للقرآن ؟ فإذا أشاروا إلى رجل قدمه فى اللحد ، وقال : أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة . ودفن عبد الله بن عمرو بن حرام ، وعمرو بن الجموح فى قبر واحد لما كان بينهما من المحبة (٣) .

وفقدوا نعش حنظلة فتفقدوه فوجدوه فى ناحية فوق الأرض يقطر منه الماء ، فأخبر رسول الله ﷺ أصحابه أن الملائكة تغسله ، ثم قال : سلوا أهله ماشأنه ؟ فسألوا امرأته ، فأخبرتهم الخبر ومن هنا سمى حنظلة غسيل الملائكة (٤) .

ولما رأى ما بحمزة - عمه وأخيه من الرضاة - اشتد حزنه ، وجاءت عمته صفية تريد أن تنظر أباها حمزة ، فأمر رسول الله ﷺ ابنها الزبير أن يصرفها ، لا ترى ما بأخيها فقالت : ولم ؟ وقد بلغنى أن قد مثل بأخى ، وذلك فى الله ، فما أرضانا بما كان من ذلك لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله . فأتته ، فنظرت إليه فصلت عليه - دعت له - واسترجعت واستغفرت له . ثم أمر رسول الله ﷺ بدفنه مع عبد الله بن جحش - وكان ابن أخته ، وأخاه من الرضاة .

قال ابن مسعود : ما رأينا رسول الله ﷺ باكيا قط أشد من بكائه على حمزة بن عبد المطلب ، وضعه فى القبلة ، ثم وقف على جنازته ، وانتحب حتى نشع من البكاء (٥) والنشع : الشهيق .

(١) ابن هشام ٢ / ٨٨ ، ٨٩ .

(٢) نفس المصدر ٢ / ٩٨ .

(٣) زاد المعاد ٢ / ٩٨ ، وصحيح البخارى ٢ / ٥٨٤ .

(٤) زاد المعاد ٢ / ٩٤ .

(٥) رواه ابن شاذان ، انظر مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ عبد الله النجدى ص ٢٥٥ .

وكان منظر الشهداء مريعا جدا يفتت الأكباد . قال خباب : (إن) حمزة لم يوجد له كفن إلا بردة ملحاء ، إذا جعلت على رأسه قلصت عن قدميه ، وإذا جعلت على قدميه قلصت عن رأسه حتى مدت على رأسه ، وجعل على قدميه الإذخر (١) .

وقال عبد الرحمن بن عوف : قتل مصعب بن عمير وهو خير مني ، وكفن بردة إن غطى رأسه بدت رجلاه ، وإن غطى رجلاه بدا رأسه ، وروى مثل ذلك عن خباب ، وفيه « فقال لنا النبي ﷺ غطوا بها رأسه واجعلوا على رجلاه الإذخر » (٢) .

الرسول ﷺ يشي على ربه عز وجل ويدعوه :

روى الإمام أحمد ، لما كان يوم أحد وانكفا المشركون ، قال رسول الله ﷺ : استروا حتى أثنى على ربي عز وجل ، فصاروا خلفه صفوفًا ، فقال :

اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا هادي لمن أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطي لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ولا مقرب لما باعدت ، ولا مبعد لما قربت . اللهم : ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك .

اللهم إني أسألك النعيم المقيم ، الذي لا يحول ولا يزول . اللهم : إني أسألك العون يوم العلية ، والأمن يوم الخوف . اللهم إني عائد بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعتنا . اللهم حجب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين . اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين ، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك ، واجعل عليهم رجزك وعذابك . اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق (٣)

الرجوع إلى المدينة ، ونواذر الحب والتفاني :

ولما فرغ رسول الله ﷺ من دفن الشهداء والثناء على الله والتضرع إليه انصرف راجعا إلى المدينة ، وقد ظهرت له نواذر الحب والتفاني من المؤمنين الصادقات ، كما ظهرت من المؤمنين في أثناء المعركة .

لقية في الطريق حمنة بنت جحش ، فعنى إليها أخوها عبد الله بن جحش ، فاسترجعت واستغفرت له ، ثم نعى لها خالها حمزة بن عبد المطلب ، فاسترجعت

(٢) صحيح البخارى ٢ / ٥٧٩ ، ٥٨٤ .

(١) رواه أحمد ، مشكاة المصابيح ١ / ١٤٠ .

(٣) رواه البخارى فى الأدب المفرد ، والإمام أحمد فى مسنده ٣ / ٤٢٤ .

واستغفرت، ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير، فصاحت وولولت، فقال رسول الله ﷺ: إن زوج المرأة منها ليمكن (١).

ومر بامرأة من بنى دينار، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها بأحد، فلما نعوها قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيرا يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرنيه حتى أنظر إليه، فأشير إليه، حتى إذا رآته قالت: كل مصيبة بعدك جلل - تريد صغيرة (٢).

وجاءت إليه أم سعد بن معاذ تعدو، وسعد أخذ بلجام فرسه، فقال: يا رسول الله أمي، فقال: مرحبا بها. ووقف لها. فلما دنت عزاها بابنها عمرو بن معاذ. فقالت: أما إذا رأيتك سالما، فقد اشتويت المصيبة (أى استقلتها). ثم دعا لأهل من قتل بأحد وقال: يا أم سعد أبشري وبشري أهلهم أن قتلهم تراققوا فى الجنة جميعا، وقد شفّعوا فى أهلهم جميعا. قالت: رضينا يا رسول الله، ومن ييكى عليهم بعد هذا؟ ثم قالت: يا رسول الله، ادع لمن خلفوا منهم، فقال: اللهم اذهب حزن قلوبهم، وأجبر مصيبتهم، وأحسن الخلف على من خلفوا (٣).

الرسول ﷺ فى المدينة:

وانتهى رسول الله ﷺ مساء ذلك اليوم - يوم السبت السابع من شهر شوال ٣ هـ - إلى المدينة. فلما انتهى إلى أهله ناول سيفه ابنته فاطمة، فقال: اغسلى عن هذا دمه يا بنية، فوالله لقد صدقنى اليوم وناولها على بن أبى طالب سيفه، فقال: وهذا أيضا فاغسلى عنه دمه، فوالله لقد صدقنى اليوم. فقال رسول الله ﷺ: لئن كنت صدقت القتال، لقد صدق معك سهل بن حنيف وأبو دجاجة (٤).

قتلى الفريقين:

اتفقت جل الروايات على أن قتلى المسلمين كانوا سبعين، وكانت الأغلبية الساحقة من الأنصار، فقد قتل منهم خمسة وستون رجلا، واحد وأربعون من الخزرج، وأربع وعشرون من الأوس، وقتل رجل من اليهود. وأما شهداء المهاجرين فكانوا أربعة فقط.

وأما قتلى المشركين فقد ذكر ابن اسحاق أنهم اثنان وعشرون قتيلا، ولكن الإحصاء الدقيق - بعد تعميق النظر فى جميع تفاصيل المعركة التى ذكرها أهل المغازى والسير، والتى تتضمن ذكر قتلى المشركين فى مختلف مراحل القتال - يفيد أن عدد قتلى المشركين سبعة وثلاثون، لا اثنان وعشرون والله أعلم (٥).

(١) ابن هشام ٢ / ٩٨ . (٢) نفس المصدر ٢ / ٩٩ . (٣) السيرة الحلبية ٢ / ٤٧ . (٤) ابن هشام ٢ / ١٠٠ .

(٥) انظر ابن هشام ٢ / ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، فتح البارى ٧ / ٣٥١،

وغزوة أحد لمحمد أحمد باشميل ص ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠.

حالة الطوارئ في المدينة :

بات المسلمون في المدينة - ليلة الأحد الثامن من شهر شوال سنة ٣ هـ بعد الرجوع من معركة أحد - وهم في حالة الطوارئ ، باتوا - وقد أنهكهم التعب ، ونال منهم أى منال - يحرسون أنقاب المدينة ومدخلها ، ويحرسون قائدهم الأعلى رسول الله ﷺ خاصة ، إذ كانت تتلاحقهم الشبهات من كل جانب .

غزوة حمراء الأسد :

وبات الرسول ﷺ وهو يفكر في الموقف ، فقد كان يخاف أن المشركين إن فكروا في أنهم لم يستفيدوا شيئا من النصر والغلبة التي كسبوها في ساحة القتال ، فلا بد من أن يندموا على ذلك ، ويرجعوا من الطريق لغزو المدينة مرة ثانية ، فصمم على أن يقوم بعملية مطاردة الجيش المكى .

قال أهل المغازي ما حاصله : إن النبي ﷺ نادى في الناس ، وندبهم إلى المسير إلى لقاء العدو - وذلك صباح الغد من معركة أحد ، أى يوم الأحد الثامن من شهر شوال سنة ٣ هـ - وقال : لا يخرج معنا إلا من شهد القتال ، فقال له عبد الله بن أبي : أركب معك ؟ قال : لا ، واستجاب له المسلمون على ما بهم من الجرح الشديد ، والخوف المزد ، وقالوا : سمعنا وطاعة ، واستأذنه جابر بن عبد الله ، وقال : يا رسول الله ، إنى أحب أن لا تشهد مشهدا إلا كنت معك ، وإنما خلفنى أبى على بناته ، فأذن لى ، أسير معك ، فأذن له .

وسار رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، حتى بلغوا حمراء الأسد ، على بعد ثمانية أميال من المدينة فعسكروا هناك .

وهناك أقبل معبد بن أبى معبد الخزاعى إلى رسول الله ﷺ فأسلم - ويقال : بل كان على شركه ، ولكنه كان ناصحا لرسول الله ﷺ لما كان بين خزاعة وبنى هاشم من الحلف ، فقال : يا محمد ، أما والله لقد عز علينا ما أصابك فى أصحابك ، ولوددنا أن الله عافاك - فأمره رسول الله ﷺ أن يلحق أبا سفيان فيخذه .

ولم يكن ما خافه رسول الله ﷺ من تفكير المشركين فى العودة إلى المدينة إلا حقا ، فإنهم لما نزلوا بالروحاء على بعد ستة وثلاثين ميلا من المدينة تلاوموا فيما بينهم وقال بعضهم لبعض : لم تصنعوا شيئا ، أصبتم شوكتهم وحدهم ، ثم تركتموهم ، وقد بقى منهم رعوس يجمعون لكم ، فارجعوا حتى نستأصل شأفتهم .

ويبدو أن هذا رأى جاء سطوحيا ممن لم يكن يقدر قوة الفريقين ومعنوياتهم تقديرا صحيحا ، ولذلك خالفهم زعيم مسؤل « صفوان بن أمية » قائلا : يا قوم لا تفعلوا فإنى

أنخاف أن يجمع عليكم من تخلف من الخروج - أى من المسلمين فى غزوة أحد - فارجعوا والدولة لكم ، فإننى لا آمن إن رجعتم أن تكون الدولة عليكم . إلا أن هذا رأى رفض أمام رأى الأغلبية الساحقة ، وأجمع جيش مكة على المسير نحو المدينة ، ولكن قبل أن يتحرك أبو سفيان بجيشه من مقره لحقه معبد بن أبى معبد الخزاعى ، ولم يكن يعرف أبو سفيان بإسلامه فقال : ما وراءك يا معبد ؟ فقال معبد - وقد شن عليه حرب أعصاب دعائية عنيفة - : محمد قد خرج فى أصحابه ، يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط ، يتحرقون عليكم تحرقا ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم ، وندموا على ما ضيعوا ، فيهم من الحنق عليكم شىء لم أر مثله قط .

قال أبو سفيان : ويحك ، ما تقول ؟

قال : والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصى الخيل - أو - حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة .

فقال أبو سفيان : والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم .

قال : فلا تفعل ، فإنى ناصح .

وحينئذ انهارت عزائم الجيش المكي ، وأخذ الفرع والرعب ، فلم ير العافية إلا فى مواصلة الانسحاب والرجوع إلى مكة . بيد أن أبا سفيان قام بحرب أعصاب دعائية ضد الجيش الإسلامى ، لعله ينجح فى كف هذا الجيش عن مواصلة المطاردة ، وطبعاً فهو ينجح فى الاجتناب عن لقاءه ، فقد مر به ركب من عبد القيس يريد المدينة ، فقال : هل أنتم مبلغون عنى محمدا رسالة ، وأوقر لكم راحتكم هذا زيبيا بعكاظ إذا أتيتم إلى مكة ؟ قالوا : نعم .

قال : فأبلغوا محمدا أنا قد أجمعنا الكرة ؛ لنستأصله ونستأصل أصحابه .

فمر الركب برسول الله ﷺ وأصحابه ، وهم بحمراء الأسد ، فأخبرهم بالذى قاله أبو سفيان ، وقالوا : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم - أى زاد المسلمين قولهم ذلك - إيماناً **﴿﴾** وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم **﴿﴾**

أقام رسول الله ﷺ بحمراء الأسد بعد - مقدمه يوم الأحد - الإثنين والثلاثاء والأربعاء - ٩ / ١٠ / ١١ شوال سنة ٣ هـ - ثم رجع إلى المدينة .

وأخذ رسول الله ﷺ قبل الرجوع إلى المدينة أبا عزة الجمحى - وهو الذى كان قد من عليه من أسارى بدر ؛ لفقره وكثرة بناته ، على أن لا يظاهر عليه أحداً ، ولكنه نكث

وغدر ، فحرض الناس بشعره على النبي ﷺ والمسلمين كما أسلفنا ، وخرج لمقاتلتهم فى أحد - فلما أخذه رسول ﷺ قال : يا محمد أقلنى ، وامن على ، ودعنى لبناتى ، وأعطيك عهدا أن لا أعود لمثل ما فعلت ، فقال ﷺ : لا تمسح عارضيك بمكة بعدها وتقول : خدعت محمدا مرتين ، لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، ثم أمر الزبير أو عاصم بن ثابت فضرب عنقه .

كما حكم بالإعدام فى جاسوس من جواسيس مكة ، وهو معاوية بن المغيرة بن أبى العاص ، جد عبد الملك بن مروان لأمه ، وذلك أنه لما رجع المشركون يوم أحد جاء معاوية هذا إلى ابن عمه عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فاستأمن له عثمان رسول ﷺ ، فأمنه على أنه إن وجد بعد ثلاث قتله ، فلما خلت المدينة من الجيش الإسلامى أقام فيها أكثر من ثلاث يتجسس لحساب قريش ، فلما رجع الجيش خرج معاوية هاربا ، فأمر رسول الله ﷺ زيد بن حارثة وعمار بن ياسر ، فتعقباه حتى قتلاه (١) .

ومما لا شك فيه أن غزوة حمراء الأسد ليست بغزوة مستقلة ، إنما هى جزء من غزوة أحد وتمة لها ، وصفحة من صفحاتها .

تلك هى غزوة أحد بجميع مراحلها وتفصيلها ، وطالما بحث الباحثون حول مصير هذه الغزوة ، هل كانت هزيمة أم لا ؟ والذى لا يشك فيه أن التفوق العسكرى فى الصفحة الثانية من القتال كان للمشركين ، وأنهم كانوا مسيطرين على ساحة القتال ، وأن خسارة الأرواح والنفوس كانت فى جانب المسلمين أكثر وأفدح ، وأن طائفة من المؤمنين انهزمت قطعاً ، وأن دفة القتال جرت لصالح الجيش المكي ، لكن هناك أموراً تمنعنا أن نعبر عن كل ذلك بالنصر والفتح .

فمما لا شك فيه أن الجيش المكي لم يستطع احتلال معسكر المسلمين ، وأن المقدار الكبير من الجيش المدنى لم يلتجئ إلى الفرار - مع الارتباك الشديد والفوضى العامة - بل قاوم بالبسالة حتى تجمع حول مقر قيادته ، وأن كفته لم تسقط إلى حد أن يطارده الجيش المكي ، وأن أحداً من جيش المدينة لم يقع فى أسر الكفار ، وأن الكفار لم يحصلوا على شئ من غنائم المسلمين ، وأن الكفار لم يقوموا إلى الصفحة الثالثة من القتال مع أن جيش المسلمين لم يزل فى معسكره ، وأنهم لم يقيموا بساحة القتال يوماً أو يومين أو ثلاثة أيام - كما هو دأب الفاتحين فى ذلك الزمان - بل سارعوا إلى الانسحاب وترك ساحة القتال ، قبل أن يتركها المسلمون ، ولم يجترئوا على الدخول فى المدينة لنهب الدارارى والأموال ،

(١) أخذنا تفصيل غزوة أحد ، وحمراء الأسد من ابن هشام ٢ / ٦٠ إلى ١٢٩ ، وزاد المعاد ٢ / ٩١ إلى ١٠٨ ، وفتح البارى ٧ / ٣٤٥ إلى ٣٧٧ مع صحيح البخارى ، ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبد النجدي من ص ٢٤٢ إلى ٢٥٧ ، وقد أخذنا على المصادر الأخرى فى مواضعها .

مع أنها على بعد عدة خطوات فحسب ، ، وكانت مفتوحة وخالية تماما .

كل ذلك يؤكد لنا أن ما حصل لقريش لم يكن أكثر من أنهم وجدوا فرصة ، لنجحوا فيها بإلحاق الخسائر الفادحة بالمسلمين ، مع الفشل فيما كانوا يهدفون إليه من إبادة الجيش الإسلامي بعد عمل التطويق - وكثيرا ما يلقي الفاتحون بمثل هذه الخسائر التي نالها المسلمون - أما أن ذلك كان نصرا وفتحاً فكلّا وحاشا .

بل يؤكد لنا تعجيل أبي سفيان في الانسحاب والانصراف ؛ أنه كان يخاف على جيشه المعرة والهزيمة لو جرت صفحة ثالثة من القتال ، ويزداد ذلك تأكدا حين ننظر إلى موقف أبي سفيان من غزوة حمراء الأسد .

وإذن فهذه الغزوة إنما كانت حرباً غير منفصلة ، وأخذ كل فريق بقسطه ونصيبه من النجاح والخسارة ، ثم حاد كل منهما عن القتال ، من غير أن يفر عن ساحة القتال ويترك مقره لاحتلال العدو ، وهذا هو معنى الحرب غير المنفصلة .

والى هذا يشير قوله تعالى : ﴿ ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون ﴾ (٤ : ١٠٤) فقد شبه أحد العسكريين بالآخر في التألم وإيقاع الألم ، مما يفيد أن الموقفين كانا متماثلين ، وأن الفريقين رجعا وكل غير غالب .

القرآن يتحدث حول موضوع المعركة :

ونزل القرآن يلقي ضوءاً على جميع المراحل المهمة من هذه المعركة مرحلة مرحلة ، ويدلى بتعليقات تصرح بالأسباب التي أدت إلى هذه الخسارة الفادحة ، وأبدى النواحي الضعيفة التي لم تزل موجودة في طوائف أهل الإيمان بالنسبة إلى واجبهم في مثل هذه المواقف الحاسمة ، وبالنسبة إلى الأهداف النبيلة السامية التي أنشئت للحصول عليها هذه الأمة ، التي تمتاز عن غيرها بكونها خير أمة أخرجت للناس .

كما تحدث القرآن عن موقف المنافقين ، ففضحهم ، وأبدى ما كان في باطنهم من العداوة لله ولرسوله ، مع إزالة الشبهات والوساوس التي كانت تختلج بقلوب ضعفاء المسلمين ، والتي كان يثيرها هؤلاء المنافقون وإخوانهم اليهود - أصحاب الدس والمؤامرة - وقد أشار إلى الحكم والغايات المحمودة التي تمخضت عنها هذه المعركة .

نزلت حول موضوع المعركة ستون آية من سورة آل عمران تبدئ بذكر أول مرحلة من مراحل المعركة : ﴿ وإذ غدوت من أهلك تبئى المؤمنين مقاعد للقتال ﴾

(٣ : ١٢١)

وتترك في نهايتها تعليقا جامعاً على نتائج هذه المعركة وحكمتها قال تعالى : ﴿ وما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ، وما كان الله ليطلعكم على الغيب ، ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء ، فأمنوا بالله ورسوله ، وإن تؤمنوا وتتقوا فلکم اجر عظیم ﴾ (١٧٩ : ٣) .

الحكم والغايات المحمودة في هذه الغزوة :

قد بسط ابن القيم الكلام على هذا الموضوع بسطاً تاماً (١) وقال ابن حجر : قال العلماء : وكان في قصة أحد وما أصيب به المسلمون فيها من الفوائد والحكم الربانية أشياء عظيمة منها : تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية ، وشؤم ارتكاب النهي ، لما وقع من ترك الرماة موقفهم الذي أمرهم الرسول ﷺ أن لا يبرحوا منه . ومنها أن عادة الرسل أن تبلى وتكون لها العاقبة والحكمة في ذلك أنهم لو انتصروا دائماً دخل في المؤمنين من ليس منهم ، ولم يتميز الصادق من غيره ، ولو انكسروا دائماً لم يحصل المقصود من البعثة ، فاقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين لتمييز الصادق من الكاذب ، وذلك أن نفاق المنافقين كان مخفياً عن المسلمين ، فلما جرت هذه القصة ، وأظهر أهل النفاق ما أظهره من الفعل والقول عاد التلويح بتصريحاً ، وعرف المسلمون أن لهم عدواً في دورهم ، فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم . ومنها أن في تأخير النصر في بعض المواطن هضماً للنفس ، وكسراً لشماختها ، فلما ابتلى المؤمنون صبروا ، وجزع المنافقون . ومنها أن الله هياً لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لا تبلغها أعمالهم ، فقيض لهم أسباب الاستيلاء والحن ليصلوا إليها ومنها أن الشهادة من أعلى مراتب الأولياء فساقها إليهم . ومنها أنه أراد إهلاك أعدائه ، فقيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها ذلك من كفرهم وبغيهم وطغيانهم في أذى أوليائه ، فمحص بذلك ذنوب المؤمنين ، ومحقق بذلك الكافرين (٢) .

السرايا والبعوث بين أحد والأحزاب

كان لمأساة أحد أثر سيئ على سمعة المؤمنين ، فقد ذهبت ريحهم ، وزالت هيبتهم عن النفوس ، وزادت المتاعب الداخلية والخارجية على المؤمنين وأحاطت الأخطار بالمدينة من كل جانب ، وكاشف اليهود والمنافقون والأعراب بالعداء السافر ، وهمت كل طائفة منهم أن تنال من المؤمنين ، بل طمعت في أن تقضي عليهم ، وتستأصل شأفتهم .

فلم يمحض على هذه المعركة شهران حتى تهيأت بنو أسد للإغارة على المدينة ، ثم

(١) انظر زاد المعاد ٢ / ٩٩ إلى ١٠٨ .

(٢) فتح الباري ٧ / ٣٤٧ .

قامت قبائل عضل وقارة فى شهر صفر سنة ٤ هـ بمكيدة ، سببت فى قتل عشرة من الصحابة وفى نفس الشهر قامت بنوعامر بمكيدة مثلها سببت فى قتل سبعين من الصحابة ، وتعرف هذه الواقعة بوقعة بئر معونة ، ولم تزل بنو نضير خلال هذه المدة تجاهر بالعداوة حتى قامت فى ربيع الأول سنة ٤ هـ بمكيدة تهدف إلى قتل النبى ﷺ ، وتجرات بنو غطفان ، حتى همت بالغزو على المدينة فى جمادى الأولى سنة ٤ هـ .

فريح المسلمين التى كانت قد ذهبت فى معركة أحد تركت المسلمين إلى حين - يهددون بالأخطار ، ولكن تلك هى حكمة محمد ﷺ التى صرفت وجوه التيارات وأعادت للمسلمين هيبته المفقودة ، وأكسبت لهم العلو والمجد من جديد ، وأول ما أقدم عليه بهذا الصدد هى حركة المطاردة التى قام بها إلى حمراء الأسد ، فقد حفظ بها مقدار كبيرا من سمعة جيشه ، واستعاد بها من هيبته ومكانتهم ما ألقى اليهود والمنافقين فى الدهش والذهول ، ثم قام بمناورات أعادت للمسلمين هيبته ، بل زادت فيها ، وفى الصفحة الآتية شىء من تفاصيلها :

سرية أبى سلمة :

أول من قام ضد المسلمين بعد نكسة أحد هم بنو أسد بن خزيمة ، فقد نقلت استخبارات المدينة أن طلحة وسلمة ابنى خويلد قد سارا فى قومهما ومن أطاعهما ، يدعون بنى أسد بن خزيمة إلى حرب رسول الله ﷺ .

فسارع رسول الله ﷺ إلى بعث سرية قوامها مائة وخمسون مقاتلا من المهاجرين والأنصار ، وأمر عليهم أبى سلمة وعقد له لواء ، وباغت أبو سلمة بنى أسد بن خزيمة فى ديارهم قبل أن يقوموا بغارتهم ، فتشتتوا فى الأمر ، وأصاب المسلمون إبلا وشاء لهم ، فاستاقوها ، وعادوا إلى المدينة سالمين غانمين لم يلقوا حربا .

كان مبعث هذه السرية حين استهل هلال المحرم سنة ٤ هـ ، وعاد أبو سلمة وقد نغر عليه جرح كان قد أصابه فى أحد ، فلم يلبث حتى مات (١) .

بعث عبد الله بن أنيس :

وفى اليوم الخامس من نفس الشهر - المحرم سنة ٤ هـ نقلت الاستخبارات أن خالد بن سفيان الهذلى يحشد الجموع لحرب المسلمين ، فأرسل إليه النبى ﷺ عبد الله بن أنيس ليقضى عليه .

وظل عبد الله بن أنيس غائبا عن المدينة ثمانى عشرة ليلة ، ثم قدم يوم السبت لسبع

(١) زاد المعاد ٢ / ١٠٨ .

بقين من المحرم ، وقد قتل خالدًا وجاء برأسه ، فوضعه بين النبي ﷺ ، فأعطاه عصا ، وقال :
هذه آية بيني وبينك يوم القيامة ، فلما حضرته الوفاة أوصى أن تجعل معه في أكفانه (١) .

بعث الرجيع :

وفي شهر صفر من نفس السنة - أي الرابعة من الهجرة - قدم على رسول الله ﷺ قوم
من عضل وقارة ، وذكروا أن فيهم إسلاما وسألوا أن يبعث معهم من يعلمهم الدين ،
ويقرئهم القرآن ، فبعث معهم ستة نفر - في قول ابن إسحاق وفي رواية البخاري أنهم
كانوا عشرة - وأمر عليهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي - في قول ابن إسحاق وعند البخاري
أنه عاصم ابن ثابت جد عاصم بن عمر بن الخطاب - فذهبوا معهم ، فلما كانوا بالرجيع -
وهو ماء لهذيل بناحية الحجاز بين رابغ وجدة - استصرخوا عليهم حيا من هذيل يقال لهم
بنو لحيان ، فتبعوهم بقرب من مائة رام ، واقتصبوا آثارهم حتى لحقوهم ، فأحاطوا بهم
وكانوا قد لجأوا إلى فدقد - وقالوا : لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم
رجلا . فأما عاصم فأبى من النزول ، وقتلهم في أصحابه ، فقتل منهم سبعة بالنبل وبقي
خبيب وزيد بن الدثنة ورجل آخر فأعطوهم العهد والميثاق مرة أخرى ، فنزلوا إليهم
ولكنهم غدروا بهم وربطوهم بأوتار قسيهم ، فقال الرجل الثالث : هذا أول الغدر ، وأبى
أن يصحبهم ، فجروه وعالجوه على أن يصحبهم ، فلم يفعل ، فقتلوه ، وانطلقوا بخبيب
وزيد فباعوهما بمكة ، وكانا قتلا من رعوهم يوم بدر فأما خبيب فمكث عندهم مسجوناً
، ثم أجمعوا على قتله ، فخرجوا به من الحرم إلى التنعيم ، فلما أجمعوا على صلبه قال :
دعوني حتى أركع ركعتين ، فتركوه فصلاهما ، فلما سلم قال : والله لولا أن تقولوا : إن ما
بى جزع لزدت ، ثم قال : اللهم احصهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا تبق منهم أحدا ، ثم قال

لقد أجمع الأحزاب حولي وألبوا	قبائلهم واسجمعوا كل مجمع
قربوا أبناءهم ونساءهم وقربت	وقربت من جندع طويل ممنع
إلى الله أشكو غربتي بعد كربتي	وما جمع الأحزاب لي عند مضجعي
فذا العرش صبرني على ما يراد بي	فقد بضعوا لحمي وقد بؤس مطمعي
وقد خيروني الكفر والموت دونه	فقد ذرفت عيناى من غير مدمع
ولست أبالي حين أقتل مسلماً	على أى شق كان فى الله مضجعي
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ	يبارك على أوصال شلو ممزع

فقال له أبو سفيان : أيسرك أن محمداً عندنا يضرب عنقه ، وأنتك فى أهلك ؟ فقال
: لا والله ما يسرنى أنى فى أهلى وأن محمداً فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه
ثم صلبوه واكلوا به من يحرس جثته فجاء عمرو بن أمية الضمري ، فاحتمله بخدعة ليلاً

(١) نفس المصدر ١٠٩ / ٢ ، وابن هشام ٦١٩ / ٢ ، ٦٢٠ .

فذهب به فدفنه ، وكان الذى تولى قتل خبيب هو عقبة بن الحارث وكان خبيب قد قتل أباه حارثا يوم بدر .

وفى الصحيح أن خبيبا أول من سن الركعتين عند القتل ، وأنه رثى وهو أسير يأكل قطفا من العنب ، وما بمكة ثمرة .

وأما زيد بن الدثنة فأتبعه صفوان بن أمية فقتله بأبيه .

وبعث قريش إلى عاصم ليؤثوا بشيء من جسده يعرفونه . وكان عاصم قتل عظيما من عظمائهم يوم بدر - فبعث الله عليه مثل الظلة من الدبر - الزناير - فحمته من رسلهم ، فلم يقدرُوا منه على شيء . وكان عاصم أعطى الله عهدا أن لا يمسه مشرك ، ولا يمس مشركا ، وكان عمر لما بلغه خبره يقول : يحفظ الله العبد المؤمن بعد وفاته كما يحفظه فى حياته (١) .

مأساة بئر معونة :

وفى نفس الشهر الذى وقعت فيه مأساة الرجيع وقعت مأساة أخرى أشد وأفظع من الأولى ، وهى التى تعرف بوقعة بئر معونة .

وملخصها أن أبا براء عامر بن مالك (المدعو بملاعب الأسنة) قدم على رسول الله ﷺ المدينة ، فدعاه إلى الإسلام فلم يسلم ولم يعد ، فقال : يا رسول الله لو بعثت أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى دينك ؛ لرجوت أن يجيبوهم ، فقال : إني أخاف عليهم أهل نجد ، فقال أبو براء : أنا جار لهم ، فبعث معه أربعين رجلا - فى قول ابن إسحاق ، وفى الصحيح أنهم كانوا سبعين ، والذى فى الصحيح هو الصحيح - وأمر عليهم المنذر بن عمرو أحد بنى ساعدة الملقب بالمعنى ليموت ، وكانوا من خيار المسلمين وفضلائهم وساداتهم وقرائهم ، فساروا يحتطبون بالنهار ، يشترون به الطعام لأهل الصفة ، ويتدارسون القرآن ، ويصلون بالليل ، حتى نزلوا بئر معونة - وهى أرض بين بنى عامر وحرّة بنى سليم - فنزلوا هناك ، ثم بعثوا حرام بن ملحان أخا أم سليم بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل ، فلم ينظر فيه ، وأمر رجلا فطعنه بالحربة من خلفه ، فلما أنفذها فيه ورأى الدم قال حرام : الله أكبر ، فزت ورب الكعبة .

ثم استنفر عدو الله لفره بنى عامر إلى قتال الباقيين ، فلم يجيبوه لأجل جوار أبى براء فاستنفر بنى سليم ، فأجابته عصية ورعل وذكوان ، فجاءوا حتى أحاطوا بأصحاب رسول الله ﷺ ، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم ، إلا كعب بن زيد بن النجار ، فإنه ارتث من بين

(١) ابن هشام ١٦٩/٢ إلى ١٧٩ ، زاد المعاد ١٠٩/٢ ، صحيح البخارى ٥٦٨/٢ ، ٥٦٩ ، ٥٨٥ .

القتلى ، فعاش حتى قتل يوم الخندق .

وكان عمرو بن أمية الضمري والمندر بن عقبة بن عامر في سرح المسلمين ، فرأيا الطير تحوم على موضع الوقعة ، فنزل المندر ، فقاتل المشركين حتى قتل مع أصحابه ، وأسر عمرو بن أمية الضمري ، فلما أخبر أنه من مضر جز عامر ناصيته ، وأعتقه عن رقبة كانت على أمه .

ورجع عمرو بن أمية الضمري إلى النبي ﷺ حاملا معه أنباء المصاب الفادح ، مصرع سبعين من أفاضل المسلمين ، تذكر نكبتهم الكبيرة بنكبة أحد ؛ إلا أن هؤلاء ذهبوا في قتال واضح ؛ وأولئك ذهبوا في غدره شائنة .

ولما كان عمرو بن أمية في الطريق بالقرقرة من صدر قناة ، نزل في ظل شجرة وجاء رجلان من بني كلاب فنزلا معه ، فلما ناما فتك بهما عمرو ، وهو يرى أنه قد أصاب ثأر أصحابه ، وإذا معهما عهد من رسول الله ﷺ لم يشعر به ، فلما قدم أخبر رسول الله ﷺ بما فعل ، فقال : لقد قتلت قتيلين لأدينيهما وانشغل بجمع دياتهم من المسلمين وحلفائهم اليهود (١) ، وهذا الذي صار سببا لغزوة بني النضير كما سيذكر .

وقد تألم النبي ﷺ لأجل هذه المأساة ، ولأجل مأساة الرجيع اللتين وقعتا خلال أيام معدودة (٢) تألما شديدا وتغلب عليه الحزن والقلق (٣) ، حتى دعا على هؤلاء الأقوام والقبائل التي قامت بالغدر والفتك في أصحابه ، ففي الصحيح عن أنس قال : دعا النبي ﷺ على الذين قتلوا أصحابه ببئر معونة ثلاثين صباحا ، يدعو في صلاة الفجر على رعل وذكوان ولحيان وعصية ، ويقول : عصية عصت الله ورسوله ، فأنزل الله تعالى على نبيه قرآنا قرأناه حتى نسخ بعد « بلغوا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا ورضينا عنه » فترك رسول الله ﷺ قنوته (٤) .

غزوة بني النضير :

قد أسلفنا أن اليهود كانوا يتحرقون على الإسلام والمسلمين ، إلا أنهم لم يكونوا أصحاب حرب وضرب ، بل كانوا أصحاب دس ومؤامرة ، فكانوا يجاهرون بالحقد والعداوة ، ويختارون أنواعا من الخيل ، لإيقاع الإيذاء بالمسلمين دون أن يقوموا للقتال ، مع ما كان بينهم وبين المسلمين من عهود ومواثيق ، وأنهم بعد وقعة بني قينقاع ، وقتل كعب بن الأشرف خافوا على أنفسهم ، فاستكانوا والتزموا الهدوء والسكوت .

(١) انظر ابن هشام ١٨٣/٢ إلى ١٨٨ ، وزاد المعاد ١٠٩/٢ ، ١١٠ ، صحيح البخاري ٥٨٤/٢ ، ٥٨٦ .

(٢) ذكر الواقدي أن خبر أصحاب الرجيع وخبر أصحاب بئر معونة أتى النبي ﷺ في ليلة واحدة .

(٣) روى ابن سعد عن أنس ما رأيت رسول الله ﷺ وجد على أحد ما وجد على أصحاب بئر معونة « مختصر

سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٢٦٠ . (٤) البخاري ٥٨٦/٢ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ .

ولكنهم بعد وقعة أحد تجرأوا ، فكاشفوا بالعداوة والغدر ، وأخذوا يتصلون بالمنافقين وبالمشركين من أهل مكة سرا ، ويعملون لصالحهم ضد المسلمين (١) .

وصبر النبي ﷺ ، حتى ازدادوا جرأة وجسارة بعد وقعة الرجيع وبئر معونة ، حتى قاموا بمؤامرة تهدف القضاء على النبي ﷺ .

وبيان ذلك أنه ﷺ خرج إليهم في نفر من أصحابه ، وكلمهم أن يعينوه في دية الكلابيين اللذين قتلها عمرو بن أمية الضمري - وكان ذلك يجب عليهم حسب بنود المعاهدة - فقالوا : نفعل يا أبا القاسم ، اجلس ههنا حتى نقضى حاجتك . فجلس إلى جنب جدار من بيوتهم ينتظر وفاءهم بما وعدوا ، وجلس معه أبو بكر وعمر وعلي وطائفة من أصحابه .

وخلا اليهود بعضهم إلى بعض ، وسول لهم الشيطان الشقاء الذي كتب عليهم ، فتأمروا بقتله ﷺ ، وقالوا : أيكم يأخذ هذه الرخي ، ويصعد فيلقيها على رأسه يشدخه بها ؟ فقال أشقاهم عمرو بن جحاش : أنا . فقال لهم سلام بن مشكم : لا تفعلوا ، فوالله ليخبرن بما هممتن به ، وإنه لنقض العهد الذي بيننا وبينه ، لكنهم عزموا على تنفيذ خطتهم .

ونزل جبريل من عند رب العالمين على رسوله ﷺ يعلمه بما هموا به ، فنهض مسرعا ، وتوجه إلى المدينة ، ولحقه أصحابه فقالوا : نهضت ولم نشعربك ، فأخبرهم بما هممت به يهود .

وما لبث رسول الله ﷺ أن بعث محمد بن مسلمة إلى بني النضير يقول لهم : اخرجوا من المدينة ولا تساكنتوني بها ، وقد أجلتكم عشرا ، فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه . ولم يجد يهود مناصا من الخروج ، فأقاموا أياما يتجهزون للرحيل ، بيد أن رئيس المنافقين - عبد الله بن أبي - بعث إليهم أن اثبتوا وتمنعوا ، ولا تخرجوا من دياركم ، فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم ، فيموتون دونكم ﴿لئن أخرجتكم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ، وإن قوتلتن لننصرنكم﴾ وتنصركم قريظة وحلفاؤكم من غطفان .

وهناك عادت لليهود ثقتهم ، واستقر رأيهم على المناوأة ، وطمع رئيسهم حيي بن أخطب فيما قاله رأس المنافقين ، فبعث إلى رسول الله ﷺ يقول : إنا لا نخرج من ديارنا ، فاصنع ما بدا لك .

(١) يؤخذ ذلك مما رواه أبو داود في باب خبر النضير ١١٦/٣ ، ١١٧ «عون المعبود شرح سنن أبي داود» .

ولاشك أن الموقف كان حرجا بالنسبة إلى المسلمين ، فإن اشتباكهم بخصومهم في هذه الفترة المخرجة من تاريخهم لم يكن مأمون العواقب ، وقد رأيت كلب العرب عليهم ، وفتكهم الشنيع ببعوثهم ، ثم إن يهود بنى النضير كانوا على درجة من القوة تجعل استسلامهم بعيد الاحتمال ، وتجعل فرض القتال معهم محفوفا بالمكاره ، إلا أن الحال التي جدت بعد مأساة بئر معونة وما قبلها زادت حساسية المسلمين بجرائم الاغتيال والغدر التي أخذوا يتعرضون لها جماعات وأفرادا ، وضاعفت نقيمتهم على مقترفيها ، ومن ثم قرروا أن يقاتلوا بنى النضير - بعد همهم باغتيال الرسول ﷺ - مهما تكن النتائج ..

فلما بلغ رسول الله ﷺ جواب حبي بن أخطب كبر وكبر أصحابه ، ثم نهض لمناجزة القوم ، فاستعمل على المدينة ابن أم مكتوم وسار إليهم وعلى بن أبي طالب يحمل اللواء ، فلما انتهى إليهم فرض عليهم الحصار .

والتجأ بنو النضير إلى حصونهم ، فأقاموا عليها يرمون بالنبل والحجارة ، وكانت نخيلهم وبساتينهم عوناً لهم في ذلك ، فأمر بقطعها وتحريقها ، وفي ذلك يقول حسان :
وهان على سراة بنى لؤى حريق بالبويرة مستطير

البويرة : اسم لنخل بنى النضير ، وفي ذلك أنزل الله تعالى : ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله ﴾ (٥٩ : ٥) .

واعترلتهم قريظة ، وخانهم عبد الله بن أبي وحلفاؤهم من غطفان ، فلم يحاول أحد أن يسوق لهم خيرا ، أو يدفع عنهم شرا ، ولهذا شبه سبحانه وتعالى قصتهم ، وجعل مثلهم : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ، فلما كفر قال : إني بريء منك ﴾ (٥٩ : ١٦) .

ولم يطل الحصار - فقد دام ست ليال فقط ، وقيل : خمس عشرة ليلة - حتى قذف الله في قلوبهم الرعب ، فاندحروا وتهيأوا للاستسلام ولإلقاء السلاح فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ : نحن نخرج عن المدينة ، فأنزلهم على أن يخرجوا عنها بنفوسهم وذرائعهم وأن لهم ما حملت الإبل إلا السلاح .

فنزّلوا على ذلك ، خربوا بيوتهم بأيديهم ، ليحملوا الأبواب والشبابيك ، بل حتى حمل بعضهم الأوتاد وجذوع السقف ، ثم حملوا النساء والصبيان ، وتحملوا على ستمائة بعير ، فترحل أكثرهم وأكابرهم كحبي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق إلى خيبر ، وذهبت طائفة منهم إلى الشام ، وأسلم منهم رجلان فقط يامين بن عمرو وأبو سعد بن وهب ، فأحرزا أموالهما .

وقبض رسول الله ﷺ سلاح بني النضير ، واستولى على أرضهم وديارهم وأموالهم فوجد من السلاح خمسين درعا ، وخمسين بيضة ، وثلاثمائة وأربعين سيفاً .

وكانت أموال بني النضير وأرضهم وديارهم خالصة لرسول الله ﷺ ، يضعها حيث يشاء ، ولم يخمسها لأن الله أفاءها عليه ، ولم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب ، فقسمها بين المهاجرين الأولين خاصة ، إلا أنه أعطى أبا دجانة وسهل بن حنيف الأنصارين لفقرهما ، وكان ينفق منها على أهله نفقة سنة ، ثم يجعل ما بقى في السلاح والكراع عدة في سبيل الله .

كانت غزوة بني النضير في ربيع الأول سنة ٤ من الهجرة ، أغسطس ٦٣٥ م وأنزل الله في هذه الغزوة سورة الحشر بأكملها ، فوصف طرد اليهود ، وفضح مسلك المنافقين ، وبين أحكام الفئء ، وأثنى على المهاجرين والأنصار ، وبين جواز القطع والحرق في أرض العدو للمصالح الحربية ، وأن ذلك ليس من الفساد في الأرض ، وأوصى المؤمنين بالتزام التقوى والاستعداد للآخرة ، ثم ختمها بالثناء على نفسه وبيان أسمائه وصفاته .

وكان ابن عباس يقول عن سورة الحشر : قل : سورة النضير (١) .

غزوة نجد :

وبهذا النصر الذي أحرزه المسلمون - في غزوة بني النضير - دون توضيحات توطد سلطانهم في المدينة وتخاذل المنافقون عن الجهر بكيدهم ، وأمكن الرسول ﷺ أن يتفرغ لقمع الأعراب الذين آذوا المسلمين بعد أحد ، وتوائبوا على بعوث الدعاة يقتلون رجالها في نذالة وكفران (٢) ، وبلغت بهم الجراءة إلى أن أرادوا القيام بجر غزوة على المدينة .

فقبل أن يقوم النبي ﷺ بتأديب أولئك الغادرين نقلت إليه استخبارات المدينة بتحشد جموع البدو والأعراب من بني محارب وبني ثعلبة من غطفان ، فسارع النبي ﷺ إلى الخروج ، يجوس فيافي نجد ، ويلقى بذور الخوف في أفئدة أولئك البدو القساة ؛ حتى لا يعاودوا منكرهم التي ارتكبوها مع المسلمين .

وأضحى الأعراب الذين مردوا على النهب والسطو لا يسمعون بمقدم المسلمين إلا حذروا وتمنعوا في رعوس الجبال . وهكذا أرباب المسلمون هذه القبائل المغيرة وخلطوا بمشاعرهم الرعب ، ثم رجعوا إلى المدينة آمنين .

وقد ذكر أهل المغازي والسير بهذا الصدد غزوة معينة غزاها المسلمون في أرض نجد

(١) ابن هشام ٢/ ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، زاد المعاد ٢/ ٧١ ، ١١٠ ، صحيح البخاري ٢/ ٥٧٤ ، ٥٧٥ .

(٢) كلمة لمحمد الغزالي في فقه السيرة ص ٢١٤ .

في شهر ربيع الثاني أو جمادى الأولى سنة ٤ هـ ، ويسمون هذه الغزوة بغزوة ذات الرقاع . أما وقوع الغزوة خلال هذه المدة فلا شك فيه . وهذا الذي كانت تقتضيه ظروف المدينة ، فإن موسم غزوة بدر التي كان قد تواعد بها أبو سفيان حين انصرافه من أحد كان قد اقترب ، وإخلاء المدينة ، مع ترك البدو والأعراب على تمردهم وخطرستهم ، والخروج لمثل هذا اللقاء الرهيب - لم يكن من مصالح سياسة الحروب قطعا ، بل كان لابد من خضد شوكتهم ، وكف شرهم قبل الخروج لمثل هذه الحرب الكبيرة التي كانوا يتوقعون وقوعها في رحاب بدر .

وأما أن تلك الغزوة التي قادها الرسول ﷺ في ربيع أو جمادى الأولى سنة ٤ هـ هي غزوة الرقاع فلا يصح ، فإن غزوة ذات الرقاع شهدتها أبو هريرة وأبو موسى الأشعري رضي الله عنهما وكان إسلام أبي هريرة قبل غزوة خيبر بأيام وكذلك أبو موسى الأشعري رضي الله عنه وافى النبي ﷺ بخيبر ، وإذن فغزوة ذات الرقاع بعد خيبر ، ويدل على تأخرها عن السنة الرابعة أن النبي ﷺ صلى فيها صلاة الخوف ، وكانت أول شرعية صلاة الخوف في غزوة عسفان ، ولا خلاف أن غزوة عسفان كانت بعد الخندق ، وكانت غزوة الخندق في أواخر السنة الخامسة .

غزوة بدر الثانية :

ولما خضد المسلمون شوكة الأعراب ، وكفكفوا شرهم ، أخذوا يتجهزون لملاقاة عدوهم الأكبر ، فقد استدار العام ، وحضر الموعد المضروب مع قريش - في غزوة أحد - وحق لمحمد ﷺ وصحبه أن يخرجوا ؛ ليواجهوا أبا سفيان وقومه و ، وأن يديروا رحي الحرب كرة أخرى ، حتى يستقر الأمر لأهدى الفريقين وأجدرهما بالبقاء (١) .

ففي شعبان سنة ٤ هـ يناير ٦٢٦ م ، خرج رسول الله ﷺ لموعده في ألف وخمسمائة ، وكانت الخيل عشرة أفراس ، وحمل لواءه على بن أبي طالب ، واستخلف على المدينة عبد الله بن رواحة وانتهى إلى بدر ، فأقام بها ينتظر المشركين .

وأما أبو سفيان ، فخرج في ألفين من مشركي مكة ومعهم خمسون فرسا حتى انتهى إلى مر الظهران على بعد مرحلة من مكة فنزل بمجنة - ماء في تلك الناحية . خرج أبو سفيان من مكة متثاقلا ، يفكر في عقبى القتال مع المسلمين ، وقد أخذه الرعب ، واستولت على مشاعره الهيبة ، فلما نزل بمر الظهران خار عزمه ، فاحتال للرجوع ، وقال لأصحابه : يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن ، وإن عامكم هذا عام جذب ، وإنى راجع فارجعوا .

(١) كلمة محمد الغزالي في فقه السيرة ٣١٥

ويبدو أن الخوف والهيبة كانت مستولية على مشاعر الجيش أيضا ، فقد رجع الناس ولم يبدوا أى مصادمة لهذا الرأي وأى إصرار وإلحاح على مواصلة السير للقاء المسلمين .

وأما المسلمون فأقاموا ببدر ثمانية أيام ينتظرون العدو ، وباعوا ما معهم من التجارة فربحوا بدرهم درهمين ، ثم رجعوا إلى المدينة وقد انتقل زمام المفاجأة إلى أيديهم ، وتوطدت هيبتهم فى النفوس وسادوا على الموقف .

وتعرف هذه الغزوة ببدر الموعد ، وبدر الثانية ، وبدر الآخرة وبدر الصغرى (١) .

غزوة دومة الجندل :

عاد رسول الله ﷺ من بدر ، وقد ساد المنطقة الأمن والسلام ، واطمأنت دولته ، فتفرغ للتوجه إلى أقصى حدود العرب حتى تصير السيطرة للمسلمين على الموقف ، ويعترف بذلك المواليون والمعادون ، مكث بعد بدر الصغرى فى المدينة ستة أشهر ، ثم جاءت إليه الأخبار بأن القبائل حول دومة الجندل - قريبا من الشام - تقطع الطريق هناك ، وتنهب ما يمر بها ، وأنها قد حشدت جمعا كبيرا تريد أن تهاجم المدينة ، فاستعمل رسول الله ﷺ على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى ، وخرج فى ألف من المسلمين لخمس ليال بقين من ربيع الأول سنة ٥ هـ ، وأخذ رجلا من بنى عذرة دليلا للطريق يقال له مذكور .

خرج يسير الليل ويكمن النهار ؛ حتى يفاجئ أعداءهم وهم غارون ، فلما دنا منهم إذا هم مغربون ، فهجم على ماشيتهم ورعائهم ، فأصاب من أصاب ، وهرب من هرب . وأما أهل دومة الجندل ففروا فى كل وجه ، فلما نزل المسلمون بساحتهم لم يجدوا أحدا ، وأقام رسول الله ﷺ أياما ، وبث السرايا وفرق الجيوش ، فلم يصب منهم أحدا ، ثم رجع إلى المدينة ، ووادع فى تلك الغزوة عيينة بن حصن ودومة بالضم ، موضع معروف بمشارف الشام ، بينها وبين دمشق خمس ليال ، وبعدها من المدينة خمس عشرة ليلة .

بهذه الإقدامات السريعة الحاسمة ، وبهذه الخطط الحكيمة الحازمة نجح النبى ﷺ فى بسط الأمن ، وتنفيذ السلام فى المنطقة والسيطرة على الموقف ، وتحويل مجرى الأيام لصالح المسلمين ، وتخفيف المتاعب الداخلية والخارجية التى كانت قد توالى عليهم ، وأحاطتهم من كل جانب ، فقد سكنت المناقون واستكانوا ، وتم إجلاء قبيلة من اليهود وبقيت الأخرى تظاهر بإيفاء حق الجوار وإيفاء العهود والمواثيق ، واستكانت البدو والأعراب ، وحادت قريش عن مهاجمة المسلمين ، ووجد المسلمون فرصة لإفشاء

الإسلام وتبليغ رسالات رب العالمين .

(١) انظر لتفصيل هذه الغزوة ابن هشام ٢/٢٠٩ ، ٢١٠ ، زاد المعاد ٢/١١٢ .

غزوة الأحزاب

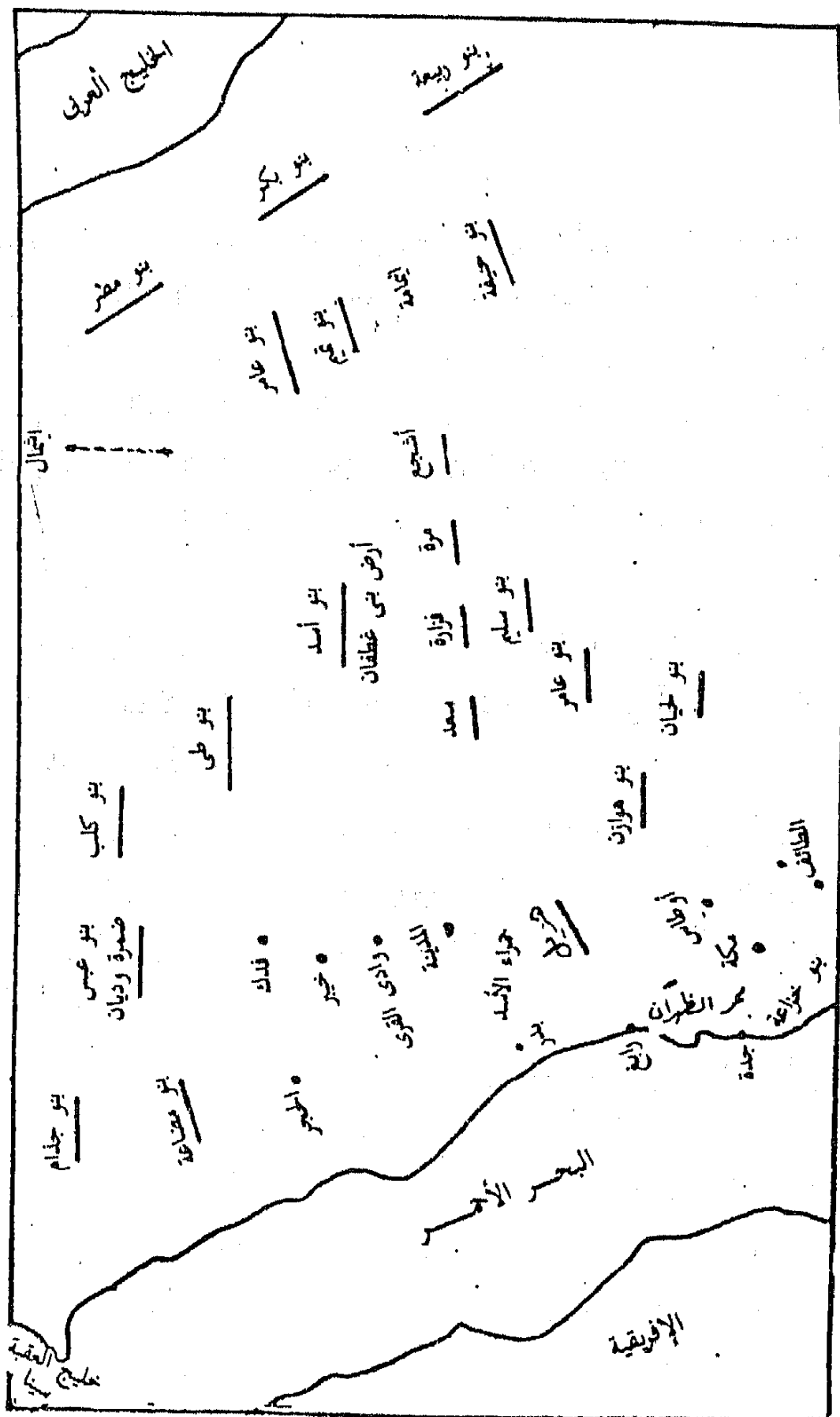
عاد السلام والأمن ، وهدأت الجزيرة العربية بعد الحروب والبعثات التي استغرقت أكثر من سنة كاملة ، إلا أن اليهود - الذين كانوا قد ذاقوا ألوانا من الذلة والهوان نتيجة غدرهم وخيانتهم ومؤامراتهم ودسائسهم - لم يفيقوا من غيهم ، ولم يستكينوا ولم يتعظوا بما أصابهم نتيجة الغدر والتآمر ، فبعد نفيهم إلى خيبر ظلوا ينتظرون ما يحل بالمسلمين نتيجة المناوشات التي كانت قائمة بين المسلمين والوثنيين . ولما تحول مجرى الأيام لصالح المسلمين ، وتمخضت الليالي والأيام عن بسط نفوذهم ، وتوطد سلطانهم ، تحرق هؤلاء اليهود أى تحرق .

وشرعوا فى التآمر من جديد على المسلمين ، وأخذوا يعدون العدة لتهيئة ضربة إلى المسلمين تكون قاتلة لا حياة بعدها . ولما لم يكونوا يجدون فى أنفسهم جرأة على مناورة المسلمين مباشرة ، خططوا لهذا الغرض خطة رهيبة .

خرج عشرون رجلا من زعماء اليهود وسادات بنى النضير إلى قريش بمكة ، يحرضونهم على غزو الرسول ﷺ ، ويوالونهم عليه ، ووعدوهم من أنفسهم بالنصر لهم ، فأجابتهم قريش ، وقريش قد أخلفت وعدها فى الخروج إلى بدر ، فرأت فى ذلك إنقاذ سمعتها والبر بكلمتها .

ثم خرج هذا الوفد إلى غطفان ، فدعاهم إلى ما دعا إليه قريشا فاستجابوا لذلك ، ثم طاف الوفد فى قبائل العرب يدعوهم إلى ذلك ، فاستجاب له من استجاب ، وهكذا نجح ساسة اليهود وقادتهم فى تأليب أحزاب الكفر على النبى ﷺ ودعوته والمسلمين .

وفعلا خرجت من الجنوب قريش وكنانة وحلفاؤهم من أهل تهامة - وقائدهم أبو سفيان - فى أربعة آلاف ، ووافاهم بنو سليم بمر الظهران ، وخرجت من الشرق قبائل غطفان : بنو فزارة ، يقودهم عيينة بن حصن ، وبنو مرة ، يقودهم الحارث بن عوف ، وبنو أشجع يقودهم مسعر بن ربيعة كما خرجت بنو أسد وغيرها .



قبائل العرب في العهد النبوي

واتجهت هذه الأحزاب ، وتحركت نحو المدينة على ميعاد كانت قد تعاقدت عليه .

وبعد أيام تجمع حول المدينة جيش عرمرم يبلغ عدده عشرة آلاف مقاتل ، جيش ربما يزيد عدده على جميع من فى المدينة من النساء والصبيان والشباب والشيوخ .

ولو بلغت هذه الأحزاب المخزبة والجنود المجندة إلى أسوار المدينة بغتة لكانت أعظم خطر على كيان المسلمين مما يقاس ، ربما تبلغ إلى استئصال الشأفة وإبادة الخضراء ، ولكن قيادة المدينة كانت قيادة متيقظة ، لم تزل واضعة أناملها على العروق النابضة تتجسس الظروف وتقدر ما يتمخض عن مجراها ، فلم تكد تتحرك هذه الجيوش عن مواضعها حتى نقلت استخبارات المدينة إلى قيادتها فيها بهذا الزحف الخطير .

وسارع رسول الله ﷺ إلى عقد مجلس استشارى أعلى ، تناول فيه موضع خطة الدفاع عن كيان المدينة ، وبعد مناقشات جرت بين القادة وأهل الشورى ، اتفقوا على قرار قدمه الصحابى النبيل سلمان الفارسى رضى الله عنه قال سلمان : يا رسول الله ، إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا - وكانت خطة حكيمة لم تكن تعرفها العرب قبل ذلك .

وأسرع رسول الله ﷺ إلى تنفيذ هذه الخطة ، فوكل إلى كل عشرة رجال أن يحفروا من الخندق أربعين ذراعاً .

وقام المسلمون ببجد ونشاط يحفرون الخندق ، ورسول الله ﷺ يحثهم ويساهمهم فى عملهم هذا ، ففى البخارى عن سهل بن سعد ، قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى الخندق ، وهم يحفرون ، ونحن ننقل التراب على أكتادنا (١) ، فقال رسول الله ﷺ : اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للمهاجرين والأنصار (٢) .

وعن أنس : خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق ، فإذا المهاجرين والأنصار يحفرون فى غداة باردة ، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم . فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال :

اللهم إن العيش عيش الآخرة
فاغفر للأنصار والمهاجرة
فقالوا مجيبين له :

نحن الذين بايعوا محمداً
على الجهاد ما بقينا أبداً (٣)

(١) أكتادنا : بالمشاة جمع كند وهو ما بين الكاهل إلى الظهر . (٢) صحيح البخارى باب غزوة الخندق ٥٨٨/٢ .

(٣) نفس المصدر

وفيه عن البراء بن عازب قال : رأيتُه ﷺ ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني الغبار جلدة بطنه ، وكان كثير الشعر ، فسمعتُه يرتجز بكلمات ابن رواحة ، وهو ينقل من التراب ، ويقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينه علينا وثبت الأقدام إن لا قبينا
إن الألى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

قال : ثم يمد بها صوته بآخرها ، وفي رواية :

إن الألى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا (١)

كان المسلمون يعملون بهذا النشاط وهم يقاسون من شدة الجوع ، ما يفتت الأكباد قال أنس (كان أهل الخندق) يؤتون بملء كفى من الشعير ، فيصنع لهم بإهالة نسخة (٢) توضع بين يدي القوم والقوم جياع ، وهي بشعة في الخلق ولها ريح منتن .

وقال أبو طلحة : شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع فرفعنا عن بطوننا عن حجر حجر فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين (٣) .

وبهذه المناسبة وقع في حفر الخندق آيات من أعلام النبوة ، رأى جابر بن عبد الله في النبي ﷺ خمصا شديدا ، فذبح بهيمة وطحنتم امرأته صاعا من شعير ثم التمس من رسول الله ﷺ سرا أن يأتي في نفر من أصحابه ، فقام النبي ﷺ بجميع أهل الخندق ، وهم ألف فأكلوا من ذلك الطعام وشبعوا ، وبقيت برمة اللحم تغط به كما هي ، وبقي العجين يخبز كما هو (٤) . وجاءت أخت النعمان بن بشير بحفنة من تمر إلى الخندق ليتغذى أبوه وشاله ، فهرت برسول الله ﷺ فطلب منها التمر وبدده فوق ثوب ، ثم دعا أهل الخندق فجعلوا يأكلون منه . وجعل التمر يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه ، وإنه يسقط من أطراف في الثواب (٥) .

وأعظم من هذين ما رواه البخاري عن جابر قال إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة ، فجاءوا النبي ﷺ فقالوا : هذه كدية عرضت في الخندق ، فقال : أنا نازل ثم قام وبطنه معصوب بحجر - ولبنا ثلاثة لا نذوق ذواقا - فأخذ النبي ﷺ المعول ، فضرب فعاد

(١) صحيح البخاري باب غزوة الخندق ٥٨٨/٢ .

(٢) نفس المصدر ٥٨٨/٢ . والإهالة : الدهن الذي يؤتمد به سواء كان زيتا أو سمنا أو شحما نسخة : أى تغيير طعمها ولونها من قدمها . (٣) رواه الترمذي مشكاة المصابيح ٤٤٨/٢ . (٤) روى ذلك البخاري ٥٨٨/٢ ، ٥٨٩ .

(٥) ابن هشام ٢١٨/٢ .

كثيبا أهيل أو أهيم (١) ، أى صار رملا لا يتماسك .

وقال البراء : لما كان يوم الخندق عرضت لنا فى بعض الخندق صخرة لا تأخذ منها المعاول ، فاشتكيننا ذلك لرسول الله ﷺ ، فجاء وأخذ المعول فقال : بسم الله ثم ضرب ضربة ، وقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح الشام ، والله إني لأنظر قصورها الحمر الساعة ، ثم ضرب الثانية فقطع آخر ، فقال : الله أكبر ، أعطيت فارس ، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن ، ثم ضرب الثالثة ، فقال : بسم الله ، فقطع بقية الحجر ، فقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني (٢) .

وروى ابن إسحاق مثل ذلك عن سلمان الفارسي رضى الله عنه (٣) .

ولما كانت المدينة تحيط بها الحرات والجبال وبساتين من النخيل من كل جانب سوى الشمال ، وكان النبي ﷺ يعلم كخبير عسكري حاذق أن زحف مثل هذا الجيش الكبير ، ومهاجمة المدينة - لا يمكن إلا من جهة الشمال ، اتخذ الخندق فى هذا الجانب .

وواصل المسلمون عملهم فى حفرة ، فكانوا يحفرونه طول النهار ، ويرجعون إلى أهليهم فى المساء ، حتى تكامل الخندق حسب الخطة المنشودة ، قبل أن يصل الجيش الوثنى العرمرم إلى أسوار المدينة (٤) .

وأقبلت قريش فى أربعة آلاف ، حتى نزلت بمجتمع الأسياال من رومة بين الجرف وزعابة ، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد فى ستة آلاف حتى نزلوا بذب نقمى إلى جانب أحد .

﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ﴾ . (٣٣ : ٢٢) .

وأما المنافقون وضعفاء النفوس فقد تزعزعت قلوبهم لرؤية هذا الجيش ﴿ وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غورا ﴾ (٣٣ : ١٢) .

وخرج رسول الله ﷺ فى ثلاثة آلاف من المسلمين ، فجعلوا ظهورهم إلى جبل سلع فتحصنوا به ، والخندق بينهم وبين الكفار . وكان شعارهم « هم لا ينصرون » ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، وأمر بالنساء والذراى فجعلوا فى آطام المدينة .

ولما أراد المشركون مهاجمة المسلمين واقتحام المدينة ، وجدوا خندقا عريضا يحول

(١) صحيح البخارى ٥٨٨/٢ .

(٢) سنن النسائى ٥٦/٢ ، وأحمد فى مسنده واللفظ ليس للنسائى ، وفيه عن رجل من الصحابة .

(٣) ابن هشام ٢١٩/٢ . (٤) نفس المصدر ٣/٣٣٠ ، ٣٣١ .

بينهم وبينها ، فالتجأوا إلى فرض الحصار على المسلمين ، بينما لم يكونوا مستعدين له حين خرجوا من ديارهم ، إذ كانت هذه الخطة - كما قالوا - مكيدة ما عرفتتها العرب ، فلم يكونوا أدخلوها في حسابهم رأسا .

وأخذ المشركون يدورون حول الخندق غضابا ، يتحسسون نقطة ضعيفة ؛ لينحدروا منها ، وأخذ المسلمون يتطلعون إلى جولات المشركين ، يرشقونهم بالنبل ، حتى لا يجترئوا على الاقتراب منه ، ولا يستطيعوا أن يقتحموه ، أو يهيلوا عليه التراب ، ليبنوا به طريقا يمكنهم من العبور .

وكره فوارس من قريش أن يقفوا حول الخندق من غير جدوى في ترقب نتائج الحصار ، فإن ذلك لم يكن من شيمهم ، فخرجت منها جماعة فيها عمرو بن عبد ود وعكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب وغيرهم ، فسيّموا مكانا ضيقا من الخندق فاقتحموه ، وجالت بهم خيلهم في السبخة بين الخندق و سلع ، وخرج على بن أبي طالب في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيلهم ، ودعا عمرو إلى المبارزة ، فانتدب له على بن أبي طالب ، وقال كلمة حمى لأجلها - وكان من شجعان المشركين وأبطالهم - فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه ، ثم أقبل على على ، فتجاولا وتصاولا ، حتى قتله على رضى الله عنه ، وانهزم الباقون حتى اقتحموا من الخندق هاربين ، وقد بلغ بهم الرعب إلى أن ترك عكرمة رمحه وهو منهزم عن عمرو .

وقد حاول المشركون في بعض الأيام محاولة بليغة ، لاقتحام الخندق أو لبناء الطرق فيها ، ولكن المسلمين كافحوا مكافحة مجيدة ، ورشقوهم بالنبل وناضلوهم أشد النضال حتى فشل المشركون في محاولتهم .

ولأجل الاشتغال بمثل هذه المكافحة الشديدة فات بعض الصلوات عن رسول الله ﷺ والمسلمين ، ففي الصحيحين عن جابر رضى الله عنه : أن عمر بن الخطاب جاء يوم الخندق ، فجعل يسب كفار قريش . فقال : يا رسول الله ما كدت أن أصلى حتى كادت الشمس أن تغرب ، فقال النبي ﷺ : والله ما صليتها فنزلنا مع النبي ﷺ بطحان ، فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها ، فصلى العصر بعدما غربت الشمس ثم صلى بعدها المغرب (١) .

وقد استاء رسول الله ﷺ لفوات هذه الصلاة حتى دعا على المشركين ، ففي البخارى عن على عن النبي ﷺ أنه قال يوم الخندق : ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم نارا كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس (٢) .

وفى مسند أحمد والشافعى أنهم حبسوه عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء

(٢) نفس المصدر .

(١) صحيح البخارى ٥٩٠/٢ .

فصلاهن جميعا . قال النووي : وطريق الجمع بين هذه الروايات أن وقعة الخندق بقيت أياما فكان هذا في بعض الأيام ، وهذا في بعضها . انتهى (١) .

ومن هنا يؤخذ أن محاولة العبور من المشركين ، والمكافحة المتواصلة من المسلمين دامت أياما ، إلا أن الخندق لما كان حائلا بين الجيشين لم يجر بينهما قتال مباشر وحرب دامية ، بل اقتصروا على المراماة والمناضلة .

وفي هذه المراماة قتل رجال من الجيشين ، يعدون على الأصابع ستة من المسلمين وعشرة من المشركين ، بينما كان قتل واحد أو اثنين منهم بالسيف .

وفي هذه المراماة رمى سعد بن معاذ رضى الله عنه بسهم فقطع منه الأكحل ، رماه رجل من قريش يقال له حبان بن العرقة ، فدعا سعد : اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلي أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه ، اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فإن كان بقى من حرب قريش شيء فأبقني لهم ؛ حتى أجاهدهم فيك ، وإن كنت وضعت الحرب فافجرها واجعل موتى فيها (٢) وقال في آخر دعائه : ولا تمتنى حتى تقر عيني من بنى قريظة (٣) .

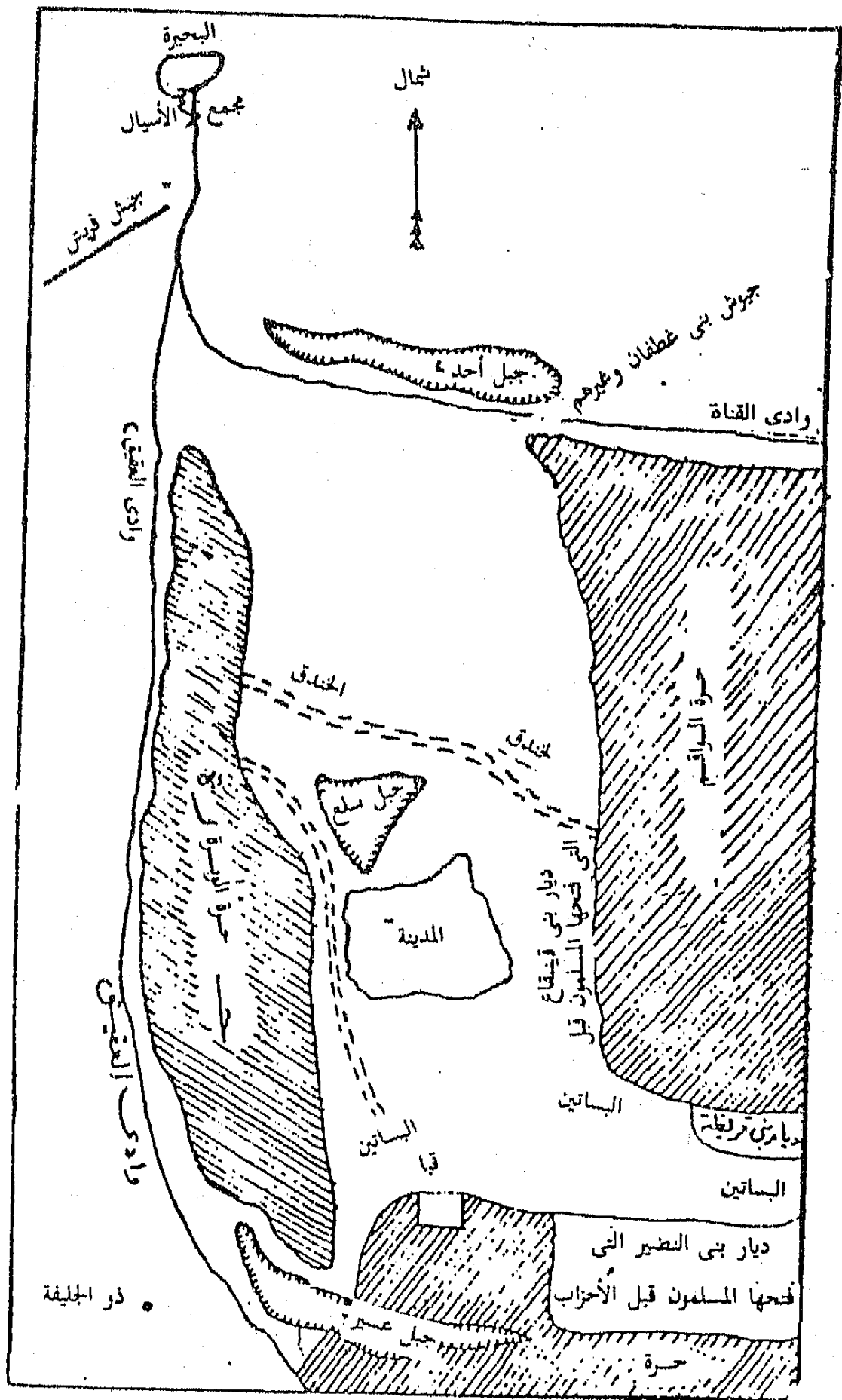
وبينما كان المسلمون يواجهون هذه الشدائد على جبهة المعركة كانت آفაცი الدس والتآمر تتقلب في جحورها ، تريد إيصال السم داخل أجسادهم . انطلق كبير مجرمي بنى النضير إلى ديار بنى قريظة ، فأتى كعب بن أسد القرظي - سيد بنى قريظة ، وصاحب عقدهم وعهدهم ، وكان قد عاقد رسول الله ﷺ على أن ينصره إذا أصابته حرب كما تقدم - فضرب عليه حصى الباب ، فأغلقه كعب دونه ، فما زال يكلمه حتى فتح له بابه ، فقال حيي : إني قد جئتك يا كعب بعز الدهر وبيحر طام ، جئتك بقريش على قاداتها وساداتها حتى أنزلتهم بمجمع الأسيال من رومة ، وبغطفان على قاداتها وساداتها حتى أنزلتهم بذب نقمى إلى جانب أحد ، قد عاهدوني وعاهدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومن معه .

فقال له كعب : جئتنى والله بذل الدهر وبجهام قد هراق ماؤه ، فهو يرعد ويبرق ، ليس فيه شيء ، ويحك يا حيي ! فدعني وما أنا عليه ، فإني لم أر من محمد إلا صدقا ووفاء .

فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذروة والغارب ، حتى سمح له على أن أعطاه عهدا من الله وميثاقا : لئن رجعت قريش وغطفان ، ولم يصيبوا محمدا أن أدخل معك في حصنك ، حتى يصيبني ما أصابك ، فنقض كعب بن أسد عهده ، وبرىء مما كان بينه وبين المسلمين ، ودخل مع المشركين في المحاربة ضد المسلمين (٤) .

(١) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٢٨٧ ، وشرح مسلم للنووي ١/٢٢٧٧ .

(٢) صحيح البخاري ٣/٥٩١ . (٣) ابن هشام ٣/٣٣٧ . (٤) ابن هشام ٢/٢٢٠ ، ٢٢٢١ .



وفعلًا قد قامت يهود بنى قريظة بعمليات الحرب . قال ابن إسحاق : كانت صفية بنت عبد المطلب فى فارع حصن حسان بن ثابت ، وكان حسان فيه مع النساء والصبيان ، قالت صفية : فمر بنا رجل من يهود ، فجعل يطيف بالحصن وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا ، ورسول الله ﷺ والمسلمون فى غور عدوهم ، لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إن آتانا آت ، قالت : فقلت يا حسان ، إن هذا اليهودى كما ترى يطيف بالحصن ، وإنى والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا من يهود ، وقد شغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه ، فانزل إليه فاقتله . قال : والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا ، قالت : فاحتجرت (١) ثم أخذت عمودا ، ثم نزلت من الحصن إليه ، فضربتة بالعمود حتى قتلتة ثم رجعت إلى الحصن ، وقلت : يا حسان انزل إليه فاسلبه ، فإنه لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل قال : مالى بسلبه من حاجة (٢) .

وقد كان لهذا الفعل المجيد من عمة الرسول ﷺ أثر عميق فى حفظ ذرارى المسلمين ونسائهم ، ويبدو أن اليهود ظنوا أن هذه الآطام والحصون فى منعة من الجيش الإسلامى - مع أنها كانت خالية عنهم تماما - فلم يجترئوا مرة ثانية للقيام بمثل هذا العمل ، إلا أنهم أخذوا يمدون الغزاة الوثنيين بالمؤن كدليل عملى على انضمامهم إليهم ضد المسلمين ، حتى أخذ المسلمون من مؤنهم عشرين جملا .

وانتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ وإلى المسلمين فبادر إلى تحقيقه ، حتى يستجلى موقف قريظة ، فيواجهه بما يجب من الوجهة العسكرية ، وبعث لتحقيق الخبر السعدين : سعد بن معاذ ، وسعد بن عباد ، وعبد الله ابن رواحة ، وخوات بن جبير ، وقال : انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن كان حقا فالحنا إلى الحنا أعرفه ، ولا تفتروا فى أعضاء الناس ، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس . فلما دنوا منهم وجدوهم على أخبث ما يكون ، فقد جاهروهم بالسب والعداوة ، ونالوا من رسول الله ﷺ ، وقالوا : من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ، ولا عقد . فانصرفوا عنهم ، فلما أقبلوا على رسول الله ﷺ لحنوا له ، وقالوا : عضل وقارة ، أى أنهم على غدر ، كغدر عضل وقارة بأصحاب الرجيع .

وعلى رغم محاولتهم إخفاء الحقيقة تفتن الناس لجلية الأمر ، فتجسد أمامهم خطر رهيب .

وقد كان أخرج موقف يقفه المسلمون ، فلم يكن يحول بينهم وبين قريظة شىء

(١) احتجرت : شدت وسطها . (٢) ابن هشام ٢/٢٢٨ يحمل هذا الحديث على أن حسانا كان جباناً ، وقد دفع هذا بعض العلماء وأنكره وذلك أن الحديث ينقطع الإسناد ، ولو صح لهجىء به حسان ، وإن صح الحديث فرمما كان حسان معتلا فى ذلك اليوم ، وهذا أولى ما تأول .

يمنعهم من ضربهم من الخلف ، بينما كان أمامهم جيش عرمرم لم يكونوا يستطيعون الانصراف عنه ، وكانت ذراريهم ونساؤهم بمقربة من هؤلاء الغادرين في غير منعة وحفظ ، وصاروا كما يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ، هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زُلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ (٣٣ : ١٠ ، ١١) ونجم النفاق من بعض المنافقين ، حتى قال : كان محمد يعدنا أن نأكل كتوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط . وحتى قال بعض آخر فسي ملأ من رجال قومه : إن بيوتنا عمورة من العدو ، فأذن لنا أن نخرج ، فنرجع إلى دارنا ، فإنها خارج المدينة ، وحتى همت بنو سلمة بالفشل وفي هؤلاء أنزل الله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا . وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ، وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ : إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ، وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ، إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ (٣٣ : ١٢ ، ١٣) .

أما رسول الله ﷺ فتقنع بثوبه حين أتاه غدر قريظة ، فاضطجع ومكث طويلا ، حتى اشتد على الناس البلاء ، ثم غلبته روح الأمل ، فنهض يقول : الله أكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين بفتح الله ونصره ، ثم أخذ يخطط لمجابهة الظرف الراهن ، وكجزء من هذه الخطة كان يبعث الحرس إلى المدينة ؛ لئلا يؤتى الذراري والنساء على غرة ، ولكن كان لابد من إقدام حاسم ، يفضي إلى تخاذل الأحزاب ، وتحقيقا لهذا الهدف أراد أن يصالح عيينة بن حصن والحارث بن عوف رئيسي غطفان على ثلث ثمار المدينة ؛ حتى ينصرفا بقومهما ، ويخلو المسلمون لإلحاق الهزيمة الساحقة العاجلة على قريش التي اختبروا مدى قوتها وبأسها مرارا ، وجرت المروضة على ذلك ، فاستشار السعديين في ذلك ، فقال : يا رسول الله إن كان الله أمرك بهذا فسمعنا وطاعة ، وإن كان شيء تصنعه لنا فلا حاجة لنا فيه ، لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعا ، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له ، وأعزنا بك نعطيهم أموالنا ؟ والله لا نعطيهم إلا السيف ، فصوب رأيهما وقال : إنما هو شيء أصنعه لكم . لما رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة .

ثم إن الله عز وجل - وله الحمد - صنع أمرا من عنده خذل به العدو وهزم جموعهم ، وفلحدهم ، فكان مما هيا من ذلك أن رجلا من غطفان يقال له نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي - رضى الله عنه - جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إني قد أسلمت ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي ، فمرني ماشئت ، فقال رسول الله ﷺ : إنما أنت رجل واحد ، فخذل عنا ما استطعت ، فإن الحرب خدعة ، فذهب من فوره إلى بني قريظة - وكان عشيرا لهم في الجاهلية - فدخل عليهم وقال : قد عرفتم ودي إياكم ، وخاصة ما بيني

وبينكم ، قالوا : صدقت . قال : فإن قريشا ليسوا مثلكم ، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونسأؤكم ، لا تقدرون أن تسحولوا منه إلى غيره ، وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونسأؤهم بغيره ، فإن أصابوا فرصة انتهزوها ، وإلا لحقوا ببلادهم وتركوكم ومحمدا فانتقم منكم . قالوا فما العمل يا نعيم ؟ قال : لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن . قالوا : لقد أشرت بالرأى .

ثم مضى نعيم على وجهه إلى قريش ، وقال لهم : تعلمون ودى لكم ونصحي لكم ؟ قالوا : نعم ، قال : إن يهود قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه ، وإنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه ، ثم يوالونه عليكم ، فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم ، ثم ذهب إلى غطفان ، فقال لهم مثل ذلك .

فلما كان ليلة السبت من شوال - سنة ٥ هـ - بعثوا إلى يهود أنا لسنا بأرض مقام ، وقد هلك الكراع والخف ، فانهضوا بنا حتى نناجز محمدا ، فأرسل إليهم اليهود أن اليوم يوم السبت ، وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه ، ومع هذا فإننا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا رهائن . فلما جاءتهم رسلهم بذلك قالت قريش وغطفان : صدقكم والله نعيم ، فبعثوا إلى يهود : إنا والله لا نرسل إليكم أحدا ، فاخرجوا معنا حتى نناجز محمدا ، فقالت قريظة : صدقكم والله نعيم . فتخاذل الفريقان ، ودبت الفرقة بين صفوفهم ، وخارت عزائمهم .

وكان المسلمون يدعون الله تعالى : « اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا » ودعا رسول الله ﷺ على الأحزاب ، فقال : « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم » (١) .

وقد سمع الله دعاء رسوله والمسلمين ، فبعد أن دبت الفرقة في صفوف المشركين ، وسرى بينهم التخاذل ، أرسل الله عليهم جندا من الريح ، فجعلت تقوض خيامهم ، ولا تدع لهم قدرا إلا كفأتها ، ولا طنبا إلا قلعتة ، ولا يقر لهم قرار ، وأرسل جندا من الملائكة يزلزلونهم ، ويلقون في قلوبهم الرعب والخوف .

وأرسل رسول الله ﷺ في تلك الليلة الباردة القارسة حذيفة بن اليمان يأتيه بخبرهم ، فوجدهم على هذه الحال ، وقد تهيأوا للرحيل ، فرجع إلى رسول الله ﷺ ، فأخبره بالرحيل القوم ، فأصبح رسول الله ﷺ وقد رد الله عدوه بغيظه لم ينالوا خيرا ، وكفاه الله قتالهم ، فصديق وعده ، وأعز جنده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، فرجع إلى المدينة .

(١) صحيح البخارى كتاب الجهاد ١ / ٤١١ ، وكتاب المغازى ٢ / ٥٩٠ .

وكانت غزوة الخندق سنة خمس من الهجرة في شوال على أصح القولين ، وأقام المشركون محاصرين رسول الله ﷺ والمسلمين شهرا أو نحو شهر ، ويبدو بعد الجمع بين المصادر أن بداية فرض الحصار كانت في شوال ، ونهايته في ذى القعدة ، وعند ابن سعد أن انصراف رسول الله ﷺ من الخندق كان يوم الأربعاء لسبع بقين من ذى القعدة .

إن معركة الأحزاب لم تكن معركة خسائر ، بل كانت معركة أعصاب ، لم يجر فيها قتال مبرر ، إلا أنها كانت من أحسم المعارك في تاريخ الإسلام ، تمخضت عن تخاذل المشركين ، وأفادت أن أية قوة من قوات العرب لا تستطيع استئصال القوة الصغيرة التي تنمو في المدينة ، لأن العرب لم تكن تستطيع أن تأتي بجمع أقوى مما أتت به في الأحزاب ، ولذلك قال رسول الله ﷺ حين أجلى الله الأحزاب : « الآن نفروهم لا يغزوننا ، نحن نسير إليهم » (١) .

غزوة بنى قريظة

وفي اليوم الذي رجع فيه رسول الله إلى المدينة ، جاءه جبريل عليه السلام عند الظهر وهو يغتسل في بيت أم سلمة ، فقال : أو قد وضعت السلاح ؟ فإن الملائكة لم تضع أسلحتهم ، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم ، فانهض بمن معك إلى بنى قريظة ، فإنى سائر أمامك أزلزل بهم حصونهم ، وأقذف في قلوبهم الرعب ، فسار جبريل في موكبهم من الملائكة .

فأمر رسول الله ﷺ مؤذنا فأذن في الناس : من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة . واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم ، وأعطى الراية على بن أبي طالب ، وقدمه إلى بنى قريظة فسار على حتى إذا دنا من حصونهم سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ .

وخرج رسول الله ﷺ في موكبهم من المهاجرين والأنصار ، حتى نزل على بشر من آبار قريظة يقال لها بشر أنا ، وبادر المسلمون إلى امتثال أمره ، ونهضوا من فورهم ، وتحركوا نحو قريظة ، وأدركتهم العصر في الطريق ، فقال بعضهم : لا نصليها إلا في بنى قريظة كما أمرنا ، حتى أن رجالا منهم صلوا العصر بعد العشاء الآخرة ، وقال بعضهم : لم يرد منا ذلك ، وإنما أراد سرعة الخروج ، فصلوها في الطريق ، فلم يعنف واحدة من الطائفتين

(١) صحيح البخارى ٢ / ٥٩٠

هكذا تحرك الجيش الإسلامى نحو بنى قريظة أرسلوا ، حتى تلاحقوا بالنبي ﷺ ، وهم ثلاثة آلاف ، والخييل ثلاثون فرسا ، فنازلوا حصون بنى قريظة ، وفرضوا عليهم الحصار .

ولما اشتد عليهم الحصار عرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد ثلاث خصال : إما أن يسلموا ، ويدخلوا مع محمد ﷺ فى دينه ، فيأمنوا على دمائهم وأموالهم وأبنائهم ونسائهم - وقد قال لهم : والله لقد تبين لكم أنه لنبي مرسل ، وأنه الذى تجدونه فى كتابكم - وإما أن يقتلوا ذراريهم ونساءهم بأيديهم ، ويخرجوا إلى النبي ﷺ بالسيوف مصليين ، يناجزونه حتى يظفروا بهم ، أو يقتلوا عن آخرهم ، وإما أن يهجموا على رسول الله ﷺ وأصحابه ، ويكبسوه يوم السبت ؛ لأنهم قد آمنوا أن يقاتلونهم فيه ، فأبوا أن يجيبوه إلى واحدة من هذه الخصال الثلاث ، وحينئذ قال سيدهم كعب بن أسد (فى انزعاج و غص) : ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازما .

ولم يبق لقريظة بعد رد هذه الخصال الثلاث إلا أن ينزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، لكنهم أرادوا أن يتصلوا ببعض حلفائهم من المسلمين ، لعلهم يتعرفون ماذا سيحل بهم إذا نزلوا على حكمه ، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن أرسل إلينا أبا لبابة نستشيره ، وكان حليفا لهم ، وكانت أمواله وولده فى منطقتهم ، فلما رأوه قام إليه الرجال ، وجاء النساء والصبيان ييكون فى وجهه ، فرق لهم ، وقالوا : يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد ؟ قال : نعم ! وأشار بيده إلى حلقه ، يقول إنه الذبح ، ثم علم من فوره أنه خان الله ورسوله فمضى على وجهه ، ولم يرجع إلى رسول الله ﷺ ، حتى أتى المسجد النبوى بالمدينة ، فربط نفسه بسارية المسجد ، وحلف أن لا يحله إلا رسول الله ﷺ بيده ، وأنه لا يدخل أرض بنى قريظة أبدا . فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره - وكان قد استبطأه - قال : أما إنه لو جاءنى لاستغفرت له ، أما إذ قد فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه .

وبرغم ما أشار إليه أبو لبابة قررت قريظة النزول على حكم رسول الله ﷺ ، ولقد كان باستطاعة اليهود أن يتحملوا الحصار الطويل ، لتوفر المواد الغذائية والمياه والآبار ومناعة الحصون ، ولأن المسلمين كانوا يقاسون البرد القارس والجوع الشديد وهم فى العراء ، مع شدة التعب الذى اعتراههم ؛ لمواصلة الأعمال الحربية من قبل بداية معركة الأحزاب ، إلا أن حرب قريظة كانت حرب أعصاب ، فقد قذف الله فى قلوبهم الرعب ،

وأخذت معنوياتهم تنهار ، وبلغ هذا الانهيار إلى نهايته أن تقدم على بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وصاح على : يا كتيبة الإيمان ، والله لأذوقن ما ذاق حمزة أو لأفتحن حصنهم .

وحينئذ بادروا إلى النزول على حكم رسول الله ﷺ ، وأمر رسول الله ﷺ باعتقال الرجال ، فوضعت القيود في أيديهم تحت إشراف محمد بن سلمة الأنصاري ، وجعلت النساء والذراري بم عزل عن الرجال في ناحية ، وقامت الأوس إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله ، قد فعلت في بني قينقاع ما قد علمت ، وهم حلفاء إخواننا الخزرج ، وهؤلاء مواليها ، فأحسن فيهم ، فقال : ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا: بلى . قال : فذاك إلى سعد بن معاذ . قالوا : قد رضينا .

فأرسل إلى سعد بن معاذ ، وكان في المدينة ، لم يخرج معهم ؛ للجرح الذي أصاب أكحله في معركة الأحزاب ، فأركب حمارا ، وجاء إلى رسول الله ﷺ ، فجعلوا يقولون وهم كنفية : يا سعد ، أجمل في مواليك فأحسن فيهم ، فإن رسول الله ﷺ قد حكمك لتحسن فيهم ، وهو ساكت لا يرجع إليهم شيئا ، فلما أكثروا عليه قال : لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم ، فلما سمعوا ذلك منه رجع بعضهم إلى المدينة فنعى إليهم القوم . ولما انتهى سعد إلى النبي ﷺ قال للصحابة : قوموا إلى سيدكم . فلما أنزلوه قالوا : يا سعد ، إن هؤلاء القوم نزلوا على حكمك . قال : وحكمي نافذ عليهم ؟ قالوا : نعم . قال : وعلى المسلمين ؟ قالوا نعم . قال وعلى من ههنا ؟ - وأعرض بوجهه ، وأشار إلى ناحية رسول الله ﷺ إجلالا له وتعظيما - قال : نعم وعلى . قال : فإنني أحكم فيهم أن يقتل الرجال ، وتسبى الذرية ، وتقسم الأموال ، فقال رسول الله ﷺ : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات .

وكان حكم سعد في غاية العدل والإنصاف ، فإن بني قريظة بالإضافة إلى ما ارتكبوا من الغدر الشنيع - كانوا قد جمعوا لإبادة المسلمين ألفا وخمسمائة سيف ، وألفين من الرماح ، وثلاثمائة درع ، وخمسمائة ترس وجحفة ، حصل عليها المسلمون بعد فتح ديارهم .

وأمر رسول الله ﷺ فحبست بني قريظة في دار بنت الحارث امرأة من بني النجار ، وحفرت لهم خنادق في سوق المدينة ، ثم أمر بهم فجعل يذهب بهم إلى الخنادق ، أرسالا وتضرب في تلك الخنادق أعناقهم . فقال من كان بعد في الحبس لرئيسهم كعب بن أسد : ما تراه يصنع بنا ؟ فقال : أفى كل موطن لا تعقلون أما ترون الداعي لا ينزع ؟ والذاهب منكم لا يرجع ؟ هو والله القتل . وكانوا ما بين الستمائة إلى السبعمائة ، فضربت أعناقهم .

وهكذا تم استئصال أفاعي الغدر والخيانة ، الذين كانوا نقضوا الميثاق المؤكد ، وعاونوا

الأحزاب على إبادة المسلمين في أخرج ساعة كانوا يمرون بها في حياتهم - وكانوا قد صاروا يعملهم هذا من أكابر مجرمي الحروب الذين يستحقون المحاكمة والإعدام -

وقتل مع هؤلاء شيطان بنى النضير ، وأحد أكابر مجرمي معركة الأحزاب حبي بن أخطب والد صفية أم المؤمنين رضي الله عنها ، كان قد دخل مع بنى قريظة في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان ؛ وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه حينما جاء يثيرة على الغدر والخيانة أيام غزوة الأحزاب ، فلما أتى به - وعليه حلة قد شقها من كل ناحية بقدر أئمة لئلا يسلبها - مجموعة يدها إلى عنقه بحبل ، قال لرسول الله ﷺ : أما والله ما لمت نفسي في معاداتك ، ولكن من يغالب الله يغلب . ثم قال : أيها الناس ، لا بأس بأمر الله ، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بنى إسرائيل ، ثم جلس فضربت عنقه .

وقتل من نسائهم امرأة واحدة كانت قد طرحت الرحا على خلاد بن سويد فقتلته ، فقتلت لأجل ذلك .

وكان قد أمر رسول الله بقتل من أنبت ، وترك من لم ينبت ، فكان ممن لم ينبت عطية القرظي ، فترك حيا ، فأسلم ، وله صحبة .

واستوهب ثابت بن قيس الزبير بن باطا وأهله وماله - وكانت للزبير يد عند ثابت - فوهبهم له ثابت بن قيس وقال : قد وهبك رسول الله رسول ﷺ إلى ، ووهب لي مالك وأهلك فهم لك ، فقال الزبير بعد أن علم بمقتل قومه : سألتك بيدي عندك يا ثابت إلا ألحقني بالأحبة ، فضرب عنقه وألحقه بالأحبة من اليهود ، واستحيا ثابت من ولد الزبير بن باطا عبد الرحمن بن الزبير ، فأسلم وله صحبة . واستوهبت أم المنذر سلمى بنت قيس النجارية رفاعة بن سموأل القرظي ، فوهبه لها ، فاستحيته ، فأسلم ، وله صحبة .

وأسلم منهم تلك الليلة نفر من قبل النزول ، فحقنوا دماءهم وأموالهم وذرايرهم . وخرج تلك الليلة عمرو - وكان رجلا لم يدخل مع بنى قريظة في غدرهم برسول الله ﷺ - فراه محمد بن سلمة قائد الحرس النبوي ، فخلى سبيله حين عرفه فلم يعلم أين ذهب .

وقسم رسول الله ﷺ أموال بنى قريظة بعد أن أخرج منها الخمس ، فأسهم للفارس ثلاثة أسهم ، سهمان للفارس وسهم للفارس ، وأسهم للرجال سهم واحد ، وبعث من السبايا إلى نجد تحت إشراف سعد بن زيد الأنصاري ، فابتاع بها خيلا وسلاحاً .

واصطفى رسول الله ﷺ لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن خنافة ، فكانت عنده حتى توفي عنها وهي في مكة ، هذا ما قاله ابن إسحاق (١) وقال الكلبي : إنه ﷺ أعتقها ، وتزوجها سنة ٦ هـ ، وماتت مرجعه من حجة الوداع فدفنها بالبقيع (٢) .

(١) انظر ابن هشام ٢ / ٢٤٥ .

(٢) تلقيح فهم أهل الأثر ص ١٢ .

ولما أتم أمر قريظة أجيبت دعوة العبد الصالح سعد بن معاذ رضى الله عنه - التي قدمنا ذكرها فى غزوة الأحزاب - وكان النبى ﷺ قد ضرب له خيمة فى المسجد ليعوده من قريب ، فلما تم أمر قريظة انتقضت جراحته . قالت عائشة : فانفجرت من لبته فلم يرعهم - وفى المسجد خيمة من بنى غفار - إلا والدم يسيل إليهم ، فقالوا : يا أهل الخيمة ، ما هذا يأتينا من قبلكم ، فإذا سعد يغدو جرحه دما ، فمات منها (١) .

وفى الصحيحين عن جابر أن رسول الله ﷺ قال : « اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ » (٢) . وصحح الترمذى من حديث أنس : قال : لما حملت جنازة سعد بن معاذ قال المنافقون : ما أخف جنازته ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الملائكة كانت تحمله » (٣) .

قتل فى حصار بنى قريظة رجل واحد من المسلمين ، وهو خلاد بن سويد ، الذى طرحت عليه الرحى امرأة من قريظة ، ومات فى الحصار أبو سنان بن محصن أخو عكاشة .

أما أبو لبابة ، فأقام مرتبطا بالجدع ست ليال ، تأتبه امرأته فى وقت كل صلاة فتحمله للصلاة ، ثم يعود فيرتبط بالجدع ، ثم نزلت توبته على رسول الله ﷺ سحرا ، وهو فى بيت أم سلمة ، فقامت على باب حجرتها ، وقالت لى : يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك فثار الناس يطلقوه ، فأبى أن يطلقه أحد إلا رسول الله ﷺ ، فلما مر النبى ﷺ خارجا إلى صلاة الصبح أطلقه .

وقعت هذه الغزوة فى ذى القعدة سنة ٥ هـ ، ودار الحصار خمسا وعشرين ليلة (١) . وأنزل الله تعالى فى غزوة الأحزاب وبنى قريظة آيات من سورة الأحزاب ، علق فيها على أهم جزئيات الواقعة بين حال المؤمنين والمنافقين ، ثم تخذيل الأحزاب ، ونتائج الغدر من أهل الكتاب .

النشاط العسكرى بعد هذه الغزوة

مقتل سلام بن أبى الحقيق

كان سلام بن أبى الحقيق - وكنيته أبو رافع - من أكابر مجرمى اليهود الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين وأعانهم بالمؤن والأموال الكثيرة (٤) ، وكان يؤذى رسول الله ﷺ ، فلما فرغ المسلمون من أمر قريظة استأذنت الخزرج رسول الله ﷺ فى قتله ، وكان قتل

(١) صحيح البخارى ٢ / ٥٩١ . (٢) صحيح البخارى ١ / ٥٣٦ ، وصحيح مسلم ٢ / ٢٩٤ ، وجامع الترمذى ٢ / ٢٢٥ . (٣) جامع الترمذى ٢ / ٢٢٥ . (٤) ابن هشام ٢ / ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، وانظر لتفصيل هذه الغزوة ابن هشام ٢ / ٢٣٣ إلى ٢٧٣ وصحيح البخارى ٢ / ٥٩٠ ، ٥٩١ ، زاد المعاد ٢ / ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ . (٤) انظر فتح البارى ٧ / ٣٤٣ .

كعب بن الأشرف على أيدي رجال من الأوس ، فرغبت الخزرج في إحراز فضيلة مثل فضيلتهم ؛ فلذلك أسرعوا إلى هذا الاستئذان .

وأذن رسول الله ﷺ في قتله ، ونهى عن قتل النساء والصبيان ، فخرجت مفرزة قوامها خمسة رجال ، كلهم من بنى سلمة من الخزرج ، قائدهم عبد الله بن عتيك .

خرجت هذه المفرزة ، واتجهت نحو خير ، إذ كان هناك حصن أبي رافع ، فلما دنوا منه - وقد غربت الشمس ، وراح الناس بسرهم - قال عبد الله بن عتيك لأصحابه : اجلسوا مكانكم ، فإنني منطلق ومتلطف للبواب ، لعلني أن أدخل ، فأقبل حتى دنا من الباب ، ثم تقنع بثوبه كأنه يقضى حاجته ، وقد دخل الناس ، فهتف به البواب : يا عبد الله إن كنت تريد أن تدخل فادخل ، فإنني أريد أن أغلق الباب .

قال عبد الله بن عتيك : فدخلت فكمنت ، فلما دخل الناس أغلق الباب ثم علق الأغاليق على ود (١) . قال : فقامت إلى الأقاليد فأخذتها ، ففتحت الباب وكان أبو رافع يسمر عنده ، وكان في علالي له فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت إليه ، فجعلت كلما فتح بابا أغلقت على من داخل . قلت : إن القوم لو نذروا بي لم يخلصوا إلى حتى أقتله ، فانتهيت إليه ، فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله ، لا أدرى أين هو من البيت قلت : أبا رافع . قال : من هذا ؟ فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربه بالسيف وأنا دهش ، فما أغنيت شيئا وصاح فخرجت من البيت فأمكث غير بعيد ، ثم دخلت إليه فقلت : وما هذا الصوت يا أبا رافع ؟ فقال : لأملك الويل ، إن رجلا بالبيت ضربني قبل بالسيف ، قال : فأضربه ضربة أثخنه ولم أقتله . ثم وضعت ضبيب السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره ، فعرفت أنني قتلت ، فجعلت أفتح الأبواب بابا بابا ، حتى انتهيت إلى درجة له ، فوضعت رجلى ، وأنا أرى أنني قد انتهيت إلى الأرض ، فوقعت في ليلة مقمرة ، فانكسرت ساقى ، فعصبتها ، ثم انطلقت حتى جلست على الباب . فقلت : لا أخرج الليلة حتى أعلم زقتله ؟ فلما صاح الديك صاح الديك الناعى على السور فقال : أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز ، فانطلقت إلى أصحابي فقلت : النجاء ، فقد قتل الله أبا رافع . فانتهيت إلى النبي ﷺ فحدثته فقال : ابسط رجلك ، فبسطت رجلى فمسحها فكأنما لم أشتكها (٢)

هذه رواية البخارى ، وعند بن اسحاق أن جميع نفر دخلوا على أبي رافع ، واشتركوا في قتله ، وأن الذى تحامل عليه بالسيف حتى قتله هو عبد الله بن أنيس وفيه أنهم لما قتلوه ليلاً وانكسرت ساق عبد الله بن عتيك حملوه ، وأتوا منبرا من عيونهم ، فدخلوا فيه ، وأوفد اليهود النيران ، واشتدوا في كل وجه ، حتى إذا يئسوا . رجعوا إلى أصحابهم ،

(٢) صحيح البخارى ٥٧٧/٢

(١) أى المفاتيح على وتد

ولأنهم حين رجعوا احتملوا عبد الله بن عتيك حتى قدموا على رسول الله ﷺ (١) كان مبعث هذه السرية في ذى القعدة أو ذى الحجة سنة ٥ هـ (٢) ، ولما فرغ رسول الله ﷺ من الأحزاب وقريظة ، واقتص من مجرمي الحروب أخذ يوجه حملات تأديبية إلى القبائل والأعراب ، الذين لم يكونوا يستكينون للأمن والسلام إلا بالقوة القاهرة

سرية محمد بن مسلمة :

كانت أول سرية بعد الفراغ من الأحزاب وقريظة ، وكان عدد قوات هذه السرية ثلاثين راكبا .

تحركت هذه السرية إلى القرطاء ، بناحية ضرية بالبكرات من أرض نجد وبين ضرية والمدينة سبع ليال ، تحركت لعشر ليال خلون من المحرم سنة ٦ هـ إلى بطن بنى بكر بن كلاب ، فلما أغارت عليهم هرب سائرهم ، فاستاق المسلمون نعما وشاء ، وقدموا المدينة لليلة بقيت من المحرم ومعهم ثمامة بن أثال الحنفي سيد بنى حنيقة ، كان قد خرج متنكرا لاغتيال النبي ﷺ بأمر مسيلمة الكذاب (٣) ، فأخذه المسلمون ، فلما جاءوا به ربطوه بسارية من سواري المسجد ، فخرج إليه النبي ﷺ فقال : ما عندك يا ثمامة ؟ فقال : عندي خير يا محمد ، إن تقتل تقتل ذا دم وإن تنعم تنعم على شاكرك ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت ، فتركه ، ثم مر به مرة أخرى ، فقال له مثل ذلك ، فرد عليه كما رد عليه أولا ، ثم مرة ثالثة فقال : بعد ما دار بينهما الكلام السابق - أطلقوا ثمامة ، فأطلقوه ، فذهب إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ، ثم جاءه فأسلم ، وقال : والله ما كان على وجه الأرض أبغض إلي من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي ، والله ما كان على وجه الأرض دين أبغض إلي من دينك فقد أصبح دينك أحب الأديان إلي ، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة ، فبشره رسول الله ﷺ ، وأمره أن يعتمر ، فلما قدم على قريش قالوا : صبأت يا ثمامة ، قال : لا والله ، ولكني أسلمت مع محمد ﷺ ولا والله لا يأتينكم من الإمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ وكانت يمامة ريف مكة ، فانصرف إلى بلاده ، ومنع الحمل إلى مكة ، حتى جهدت قريش وكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأزحامهم أن يكتب إلى ثمامة يخلي إليهم حمل الطعام ، ففعل رسول الله ﷺ (٤) .

(١) ابن هشام ٢ / ٢٧٤ ، ٢٧٥ . (٢) رحمة للعالمين ٢ / ٢٢٣ مع ما يؤخذ من المصادر الأخرى المذكورة في

غزوة الأحزاب وقريظة . (٣) السيرة الحلبية ٢ / ٢٩٧ .

(٤) زاد المعاد ٢ / ١١٩ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

غزوة بنى لحيان :

بنو لحيان هم الذين كانوا قد غدروا بعشرة من أصحاب رسول الله ﷺ بالرجيع، وتسببوا في إعدامهم، ولكن لما كانت ديارهم متوغلة في الحجاز إلى حدود مكة، والتارت الشديدة قائمة بين المسلمين وقريش والأعراب، لم يكن يرى رسول الله ﷺ أن يتوغل في البلاد بمقربة من العدو الأكبر، فلما تخاذلت الأحزاب، واستوهنت عزائمهم، واستكانوا للظروف الراهنة إلى حد ما، رأى أن الوقت قد آن لأن يأخذ من بنى لحيان ثأر أصحابه المقتولين بالرجيع، فخرج إليهم في ربيع الأول أو جمادى الأولى سنة ٦ هـ في مائتين من أصحابه، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وأظهر أنه يريد الشام، ثم أسرع السير حتى انتهى إلى بطن غران - واد بين أمج وعسفان، حيث كان مصاب أصحابه، فترحم عليهم ودعا لهم - وسمعت به بنو لحيان، فهربوا في رعوس الجبال، فلم يقدر منهم على أحد، فأقام يومين بأرضهم، وبعث السرايا، فلم يقدرُوا عليهم، فسار إلى عسفان، فبعث عشرة فوارس إلى كراع الغميم لتسمع به قريش، ثم رجع إلى المدينة، وكانت غيبته عنها أربع عشرة ليلة.

متابعة البعوث والسرايا :

ثم تابع رسول الله ﷺ في إرسال البعوث والسرايا. وهاك صورة مصغرة منها :

١ - سرية عكاشة بن محصن إلى الغمر، في ربيع الأول أو الآخر سنة ٦ هـ. خرج عكاشة في أربعين رجلا إلى الغمر، ماء لبنى أسد، ففر القوم، وأصاب المسلمون مائتي بغير ساقوها إلى المدينة.

٢ - سرية محمد بن مسلمة إلى ذى القصة، في ربيع الأول أو الآخر سنة ٦ هـ. خرج ابن مسلمة في عشرة رجال إلى القصة في ديار بنى ثعلبة، فكمن القوم لهم - وهم مائة - فلما ناموا قتلوهم، إلا ابن مسلمة فإنه أفلت منهم جريحا.

٣ - سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى ذى القصة في ربيع الآخر سنة ٦ هـ. وقد بعثه النبي ﷺ على إثر مقتل أصحاب محمد بن مسلمة، فخرج ومعه أربعون رجلا إلى مصارعهم، فساروا ليلتهم مشاة، ووافوا بنى ثعلبة مع الصبح، فأغاروا عليهم، فأعجزوهم هربا في الجبال، وأصابوا رجلا واحدا فأسلم، وغنموا نعما وشاء.

٤ - سرية زيد بن حارثة إلى الجموم، في ربيع الآخر سنة ٦ هـ. والجموم ماء لبنى سليم في مر الظهران، خرج إليهم زيد فأصاب امرأة من مزينه يقال لها حليلة، فدلتهم على محلة من بنى سليم أصابوا فيها نعما وشاء وأسرى، فلما قفل بما أصاب، وهب رسول الله ﷺ للمزينة نفسها وزوجها.

٥ - سرية زيد أيضا إلى العيص ، في جمادى الأولى سنة ٦ هـ ، في سبعين ومائة راكب ، وفيها أخذت أموال عير لقريش كان قائدها أبو العاص ختن رسول الله ﷺ ، وأفلت أبو العاص ، فأتى زينب فاستجار بها ، وسألها أن تطلب من رسول الله ﷺ رد أموال العير عليه ، ففعلت ، وأشار رسول الله ﷺ على الناس برد الأموال من غير أن يكرههم ، فردوا الكثير والقليل والكبير والصغير ، حتى رجع أبو العاص إلى مكة ، وأدى الودائع إلى أهلها ، ثم أسلم وهاجر ، فرد عليه رسول الله ﷺ زينب بالنيكاح الأول بعد ثلاث سنين ونيف . كما ثبت في الحديث الصحيح (١) ردها بالنيكاح الأول ، لأن آية تحريم المسلمات على الكفار لم تكن نزلت إذ ذاك ، وأما ماورد من الحديث من أنه رد عليه بنكاح جديد أو رد عليه بعد ست سنين فلا يصح معنى ، كما أنه ليس بصحيح سنداً (٢) . والعجب ممن يتمسكون بهذا الحديث الضعيف ، فإنهم يقولون : إن أبا العاص أسلم في أواخر سنة ثمان قبيل الفتح ، ثم يناقضون أنفسهم ، فيقولون : إن زينب ماتت في أوائل سنة ثمان ، وقد بسطنا الدلائل في تعليقنا على بلوغ المرام ، وجنح موسى بن عقبة أن هذا الحادث وقع في سنة ٧ من قبل أبي بصير وأصحابه ، ولكن ذلك لا يطابق الحديث الصحيح ولا الضعيف .

٦ - سرية زيد أيضا إلى الطرف أو الطرق ، في جمادى الآخرة سنة ٦ هـ .

خرج زيد في خمسة عشر رجلا إلى بني ثعلبة ، فهربت الأعراب ، وخافوا أن يكون رسول الله ﷺ سار إليهم ، فأصاب من نعمهم عشرين بعيرا ، وغاب أربع ليال .

٧ - سرية زيد أيضا إلى وادي القرى ، في رجب سنة ٦ هـ . خرج زيد في اثني عشر رجلا إلى وادي القرى ، لاستكشاف حركات العدو إن كانت هناك ، فهجم عليهم سكان وادي القرى فقتلوا تسعة ، وأفلت ثلاثة فيهم زيد بن حارثة (٣) .

٨ - سرية الخطب - تذكر هذه السرية في رجب سنة ٨ هـ ، ولكن السياق يدل على أنها كانت قبل الحديبية ، قال جابر : بعثنا النبي ﷺ في ثلاثمائة راكب أميرنا أبو عبيدة بن الجراح ، نرصد عيرا لقريش ، فأصابنا جوع شديد حتى أكلنا الخطب ، فسمى جيش الخطب ، فنحر رجل ثلاث جزائر ، ثم نحر ثلاث جزائر ، ثم نحر ثلاث جزائر ، ثم إن أبا عبيدة نهاه ، فألقى إلينا البحر دابة يقال لها : العنبر ، فأكلنا منه نصف شهر ، وادها منه ، حتى ثابت من أجسامنا ، وصلحت ، وأخذ أبو عبيدة ضلعا من أضلاعه ، فنظر إلى أطول رجل في الجيش وأطول جمل ، فحمل عليه ، ومر تحته ، وتزودنا من لحمه

(١) انظر سنن أبي داود مع شرحه عون المعبود باب متى ترد عليه امرأته إذا أسلم بعدها .

(٢) انظر الكلام على الحديثين في تحفة الأحوذى ١٩٥ / ٢ ، ١٩٦ / ٣ . رحمة للعالمين ٢ / ٢٢٦ ، وانظر لهذه السرايا المصدر المذكور ، وزاد المعاد ٢ / ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، وحواشي تلقيح فهم أهل الأثر ص ٢٨ ، ٢٩ .

وشائق ، فلما قدمنا المدينة ، أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا له ذلك ، فقال : هو رزق أخرج الله لكم ، فهل معكم من لحمه شيء تطعمونا ، فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه (١) .

ولأنما قلنا : إن سياق هذه السرية يدل على أنه كانت قبل الحديبية ؛ لأن المسلمين لم يكونوا يتعرضون لعبير قريش بعد صلح الحديبية .

غزوة بنى المصطلق أو غزوة المريسيع

(في شعبان سنة ٦ هـ)

وهذه الغزوة وإن لم تكن طويلة الدليل ، عريضة الأطراف ، من حيث الوجهة العسكرية ؛ إلا أنها وقعت فيها وقائع أحدثت البلبلة والاضطراب في المجتمع الإسلامي ، وتمخضت عن افتضاح المنافقين ، والتشريعات التعزيرية التي أعطت المجتمع الإسلامي صورة خاصة من النبل والكرامة وطهارة النفوس ، ونسرد الغزوة أولا ، ثم نذكر تلك الوقائع .

كانت هذه الغزوة في شعبان سنة ست من الهجرة على أصح الأقوال (٢) ، وسببها . أنه بلغه ﷺ أن رئيس بنى المصطلق الحارث بن أبي ضرار سار في قومه ومن قدر عليه من العرب يريدون حرب رسول الله ﷺ ، فبعث بريدة بن الحصيب الأسلمي ، لتحقيق الخبر ، فأتاهم ، ولقى الحارث بن أبي ضرار وكلمه ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر .

وبعد أن تأكد لديه ﷺ صحة الخبر ندب الصحابة ، وأسرع في الخروج ، وكان خروجه لليلتين خلتا من شعبان ، وخرج معه جماعة من المنافقين لم يخرجوا في غزاة قبلها واستعمل على المدينة زيد بن حارثة ، وقيل أباذر ، وقيل ثميلة بن عبد الله الليثي ، وكان الحارث بن ضرار قد وجه عينا ، ليأتيه بخبر الجيش الإسلامي ، فألقى المسلمون عليه

(١) صحيح البخاري ٢ / ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، صحيح مسلم ٢ / ١٤٥ ، ١٤٦ .

(٢) والدليل على ذلك ما ثبت في حديث الإفك من أن القضية كانت من بعد ما أنزل الحجاب ، وآية الحجاب نزلت في شأن زينب ، وزينب إذ ذاك كانت تحت ، فإنه ﷺ سألها عن عائشة فقالت : أحصى سمعي وبصري . قالت عائشة : وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ ، وأما ما وقع في حديث الإفك من أن سعد بن معاذ وسعد بن عباد تنازعا في أصحاب الإفك ، ومعلوم أن سعد بن معاذ مات عقب غزوة بني قريظة ، فالظاهر أن هذا وهم من الرواي ، فقد روى ابن إسحاق حديث الإفك عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن عائشة ، فلم يذكر فيه سعد بن معاذ بل ذكر أسيد بن حضير ، قال أبو محمد بن حزم : وهذا هو الصحيح الذي لا شك فيه ، وذكر سعد بن معاذ وهم (وانظر زاد المعاد ٢ / ١١٥) والعجب من محمد الغزالي أنه نسب إلى ابن القيم أنه يعتبر هذه الغزوة من حوادث السنة الخامسة (فقه السيرة ص ٢٢٣) مع أن كلامه في الهدى (١١٥ / ٢) يأتي ذلك .

القبض وقتلوه .

ولما بلغ الحارث بن أبى ضرار ومن معه مسير رسول الله ﷺ وقتله عينه ، خافوا خوفا شديدا ، وتفرق عنهم من كان معهم من العرب ، وانتهى رسول الله ﷺ إلى المريسيع - بالضم فالفتح مصغرا ، اسم لواء من مياهمهم فى ناحية قديد إلى الساحل - فتهيأوا للقتال ، وصف رسول الله ﷺ أصحابه ، وراية المهاجرين مع أبى بكر الصديق ، وراية الأنصار مع سعد بن عباد ، فتراموا بالنبل ساعة ، ثم أمر رسول الله ﷺ فحملوا حملة رجل واحد ، فكانت النصر . وانهزم المشركون ، وقتل من قتل ، وسبى رسول الله ﷺ النساء والذراى والنعم والشاء ولم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد ، قتله رجل من الأنصار ظنا منه أنه من العدو .

كذا قال أهل المغازى والسير ، قال ابن القيم : وهو وهم ، فإنه لم يكن بينهم قتال ، وإنما أغار عليهم على الماء فسبى ذرايرهم وأموالهم كما فى الصحيح : أغار رسول الله ﷺ على بنى المصطلق وهم غارون ، وذكر الحديث (١) انتهى .

وكان من جملة السبى جويرية بنت الحارث سيد القوم ، وقعت فى سهم ثابت بن قيس فكاتبها ، فأدى عنها رسول الله ﷺ وتزوجها ، فأعتق المسلمون بسبب هذا التزويج مائة أهل بيت من بنى المصطلق قد أسلموا وقالوا : أصهار رسول الله ﷺ (٢) .

وأما الوقائع التى حدثت فى هذه الغزوة ، فلأجل أن مبعثها كان هو رأس النفاق عبد الله بن أبى وأصحابه ؛ نرى أن نورد أولا شيئا من أفعالهم فى المجتمع الإسلامى .

دور المنافقين قبل غزوة بنى المصطلق :

قدمنا مرارا أن عبد الله بن أبى كان يحنق على الإسلام والمسلمين ، ولا سيما على رسول الله ﷺ حنقا شديدا . لأن الأوس والخزرج كانوا قد اتفقوا على سيادته ، وكانوا ينظمون له الخرز ؛ ليتوجوه إذ دخل فيهم الإسلام ، فصرفهم عن ابن أبى ، فكان يرى أن رسول الله ﷺ هو الذى استلبه ملكه .

وقد ظهر حنقه هذا وتحرقه منذ بداية الهجرة قبل أن يتظاهر بالإسلام ، وبعد أن تظاهر به . ركب رسول الله ﷺ مرة على حمار ؛ ليعود سعد بن عباد ، فمر بمجلس فيه عبد الله بن أبى ، فخمر ابن أبى أنفه وقال : لا تغيروا علينا . ولما تلا رسول الله ﷺ على المجلس القرآن ، قال : اجلس فى بيتك ولا تغشنا فى مجلسنا (٣) .

(١) وانظر صحيح البخارى كتاب العتق ٣٤٥/١ ، وانظر أيضا فتح البارى ٧/ ٣٤١ .

(٢) زاد المعاد ٢/ ١١٢ ، ١١٣ ، ابن هشام ٢/ ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ . (٣) ابن هشام ١/ ٥٨٤ ، ٥٨٧ .

صحيح البخارى ٢/ ٩٢٤ ، وصحيح مسلم ٢/ ٩ .

وهذا قبل أن يتظاهر بالإسلام ، ولما تظاهر به بعد بدر ، لم يزل إلا عدوا لله ولرسوله وللمؤمنين ، ولم يكن يفكر إلا فى تشتيت المجتمع الإسلامى ، وتوهين كلمة الإسلام ، وكان يوالى أعداءه ، وقد تدخل فى أمر بنى قينقاع كما ذكرنا ، وكذلك جاء فى غزوة أحد من الشر والغدر والتفريق بين المسلمين ، وإثارة الارتباك والفوضى فى صفوفهم بما مضى .

وكان من شدة مكر هذا المنافق وخداعه بالمؤمنين ، أنه كان بعد التظاهر بالإسلام ، يقوم كل الجمعة حين يجلس رسول الله ﷺ للخطبة ، فيقول : هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم ، أكرمكم الله وأعزكم به ، فانصروه ، وعزروه ، واسمعوا له وأطيعوا ، ثم جلس ، فيقوم رسول الله ﷺ ويخطب ، وكان من وقاحة هذا المنافق أنه قام فى يوم الجمعة التى بعد أحد - مع ما ارتكبه من الشر والغدر الشنيع - قام ليقول ما كان يقوله من قبل ، فأخذ المسلمون بشيابه من نواحيه ، وقالوا له : اجلس أى عدو الله ، لست لذلك بأهل ، وقد صنعت ما صنعت ، فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول : والله لكأنا قلت بجرا أن قمت أشدد أمره ، فلقية رجل من الأنصار بباب المسجد فقال : ويلك ، ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ ، قال : والله ما أبتغى أن يستغفر لى (١) .

وكانت له اتصالات ببنى النضير يؤامر معهم ضد المسلمين ، حتى قال لهم : لئن أخرجتم لنخرجن معكم ، ولئن قوتلتم لننصرنكم .

وكذلك فعل هو وأصحابه فى غزوة الأحزاب من : إثارة القلق والاضطراب ، وإلقاء الرعب والدهشة فى قلوب المؤمنين ما قد قص الله تعالى فى سورة الأحزاب ﴿ وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ﴾ إلى قوله ﴿ يحسبون الأحزاب لم يذهبوا ، وإن يأت الأحزاب يدوروا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم ، ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا ﴾ .

بيد أن جميع أعداء الإسلام من اليهود والمنافقين والمشركين كانوا يعرفون جيدا أن سبب غلبة الإسلام ليس هو التفوق المادى ، وكثرة السلاح والجيوش والعدد ؛ وإنما السبب هى القيم والأخلاق والمثل التى يتمتع بها المجتمع الإسلامى ، وكل من يمت بصلة إلى هذا الدين ، وكانوا يعرفون أن منبع هذا الفيض إنما هو رسول الله ﷺ ، الذى هو المثل الأعلى - إلى حد الإعجاز - لهذه القيم .

كما عرفوا بعد إدارة دفة الحروب طيلة خمس سنين ، أن القضاء على هذا الدين

(١) ابن هشام ٢ / ١٠٥ .

وأهله لا يمكن بطريق استخدام السلاح ، فقررُوا أن يشنوا حرباً دعائية واسعة ضد هذا الدين من ناحية الأخلاق والتقاليد ، وأن يجعلوا شخصية الرسول أول هدف لهذه الدعاية ، ولما كان المنافقون هم الطابور الخامس في صفوف المسلمين ، ولكونهم سكان المدينة ، كان يمكن لهم الاتصال بالمسلمين واستفزاز مشاعرهم كل حين ، تحمل فريضة الدعاية هؤلاء المنافقون ، وعلى رأسهم ابن أبي .

وقد ظهرت خطتهم هذه جلية بعد غزوة الأحزاب ، حينما تزوج رسول الله ﷺ بأم المؤمنين زينب بنت جحش ، بعد أن طلقها زيد بن حارثة ، كان من تقاليد العرب أنهم كانوا يعتبرون المتبنى مثل الابن الصلبي ، فكانوا يعتقدون حرمة حليلة المتبنى على الرجل الذي تبناه ، فلما تزوج النبي ﷺ بزينب وجد المنافقون ثلمتين - حسب زعمهم - لإثارة المشاغب ضد النبي ﷺ .

الأولى : أن زوجته هذه كانت زوجة خامسة ، والقرآن لم يكن أذن في الزواج بأكثر من أربع نسوة ، فكيف صح له هذا الزواج ؟

الثانية : أن زينب كانت زوجة ابنه - متبناه - فالزواج بها من أكبر الكبائر ، حسب تقاليد العرب - وأكثرُوا من الدعاية في هذا السبيل ، واختلقوا قصصاً وأساطير ، قالوا : إن محمداً رآها بغتة ، فتأثر بحسنها فشغفته حباً ، وعلقت بقلبه ، وعلم بذلك ابنه زيد فخلى سبيلها لمحمد ، وقد نشرُوا هذه الدعاية المختلقة نشرًا بقيت آثاره في كتب التفسير والحديث إلى هذا الزمان ، وقد أثرت تلك الدعاية أثراً قوياً في صفوف الضعفاء حتى نزل القرآن بالآيات البينات فيها شفاء لما في الصدور ، وينبىء عن سعة نشر هذه الدعاية أن الله استفتح سورة الأحزاب بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ (٣٣ : ١)

وهذه إشارات عابرة وصورة مصغرة مما اقترفه المنافقون قبل غزوة بنى المصطلق ، وكان النبي ﷺ يكابد كل ذلك بالصبر واللين والتلطف ، وكان عامة المسلمين يحترزون عن شرهم ، أو يتحملونه بالصبر ، إذا كانوا قد عرفوهم بافتضاحهم مرة بعد أخرى ، حسب وقوله تعالى : ﴿ أَوْ لَا يَرُونَ أَنَّهُمْ يَفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴾ (٩ : ١٢٦) .

دور المنافقين في غزوة بنى المصطلق :

ولما كانت غزوة بنى المصطلق ، وخرج فيها المنافقون مثلوا قوله تعالى : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ، وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾ فقد وجدوا متنفسين بالشر فأناروا الارتباك الشديد في صفوف المسلمين ، والدعاية الشنيعة ضد النبي ﷺ ،

وهاك بعض التفصيل عنها .

١ - قول المنافقين : ﴿لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل﴾ :

كان رسول الله ﷺ بعد الفراغ من الغزو مقيما على المريسيع ، ووردت واردة الناس ، ومع عمر بن الخطاب أجير يقال له جهجاه الغفاري ، فازدحم هو وسان بن وبر الجهني على الماء ، فاقتتلا فصرخ الجهني : يا معشر الأنصار . وصرخ جهجاه : يا معشر المهاجرين . فقال رسول الله ﷺ : أبدوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ؟ دعوها فإنها منتنة . وبلغ ذلك عبد الله بن أبي بن سلول فغضب - وعنده رهط من قومه .

فيهم زيد بن أرقم غلام حدث - وقال : أو قد فعلوها ، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا والله ما نحن وهم إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ثم أقبل على من حضره فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم .

فأخبر زيد بن أرقم عمه بالخبر ، فأخبر عمه رسول الله ﷺ وعنده عمر ، فقال عمر : مر عباد بن بشر فليقتله . فقال : فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ؟ لا ، ولكن أذن بالرحيل . وذلك في ساعة لم يكن يرتحل فيها ، فارتحل الناس ، فلقية أسيد بن حضير فحياه ، وقال : لقد رحت في ساعة منكرا ؟

فقال له : أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ يريد ابن أبي ، فقال : وما قال ؟ قال : زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، قال : فأنت يا رسول الله ، تخرجه منها إن شئت ، هو والله الدليل وأنت العزيز ، ثم قال : يا رسول الله ، ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك ، وإن قومه لينظّمون له الخرز ليتوجوه ، فإنه يرى أنك استبلته ملكا .

ثم مشى بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض ، فوقعوا نياما ، فعل ذلك ؛ ليشغل الناس عن الحديث .

أما ابن أبي فلما علم أن زيد بن أرقم بلغ الخبر جاء إلى رسول الله ﷺ ، وحلف بالله ما قلت ما قال ، ولا تكلمت له ، وقال من حضر من الأنصار : يا رسول الله ، عسى أن

يكون الغلام قد أوهم في حديثه ، ولم يحفظ ما قال الرجل ، فصدقه ، قال زيد : فأصابني هم لم يصبني مثله قط ، فجلست في بيتي ، فأنزل الله ﴿ إذا جاءك المنافقون ﴾ إلى قوله ﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ﴾ إلى ﴿ ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ ، فأرسل إلى رسول الله ﷺ فقرأها علي ، ثم قال : إن الله قد صدقك (١) .

وكان ابن هذا المنافق - وهو عبد الله بن عبد الله بن أبي - رجلا صالحا من الصحابة الأخيار ، فتبرأ من أبيه ، ووقف له على باب المدينة ، واستل سيفه ، فلما جاء ابن أبي قال له : والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ ، فإنه العزيز وأنت الدليل ، فلما جاء النبي ﷺ أذن له ، فخلى سبيله ، وكان قد قال عبد الله بن عبد الله بن أبي : يا رسول الله إن أردت قتله فمرني بذلك ، فأنا والله أحمل إليك رأسه (٢) .

٢ - حديث الإفك :

وفي هذه الغزوة كانت قصة الإفك ، وملخصها أن عائشة رضي الله عنها كانت قد خرج بها رسول الله ﷺ معه في هذه الغزوة بقرعة أصابتها ، وكانت تلك عادته مع نسائه فلما رجعوا من الغزوة نزلوا في بعض المنازل ، فخرجت عائشة لحاجتها ، ففقدت عقدا لأختها كانت أعارتها إياه .

فرجعت تلتمسه في الموضع الذي فقدته فيه في وقتها ، فجاء نفر الذين كانوا يرحلون هودجها فظنوها فيه فحملوا الهودج ، ولا ينكرون خفته ؛ لأنها رضي الله عنها كانت فتية السن لم يغطسها اللحم الذي يشقلها وأيضا فإن النفر لما تساعدوا على حمل الهودج لم ينكروا خفته ولو كان الذي حملة واحدا أو اثنين لم يخف عليهما الحال ، فرجعت عائشة إلى منازلهم ، وقد أصابت العقد ، فإذا ليس به داع ولا مجيب ، فقعدت في المنزل ، وظنت أنهم سيفقدونها فيرجعون في طلبها ، والله غالب على أمره ، يدبر الأمر فوق عرشه كما يشاء فغلبتها عيناها ، فنامت ، فلم تستيقظ إلا بقول صفوان بن المعطل : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أجرة رسول الله ﷺ ؟

وكان صفوان قد عرس في أخريات الجيش لأنه كان كثير النوم ، فلما رآها عرفها ،

(٢) انظر صحيح البخاري ١ / ٤٩٩ ، ٢ / ٧٢٧ ، ٧٢٨ ، ٧٢٩ ، وابن هشام ٢ / ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ .

(٢) نفس المصدر الأخير ، ومختصر السيرة للشيخ عبد الله النجدي ص ٢٧٧

وكان يراها قبل نزول الحجاب ، فاسترجع وأناخ راحلته ، فقربها إليها ، فركبتها ، وما كلمها كلمة واحدة ، ولم تسمع منه إلا استرجاعه ، ثم سار بها يقودها ، حتى قدم بها ، وقد نزل الجيش في نحر الظهيرة ، فلما رأى ذلك الناس تكلم كل منهم بشاكلته ، وما يليق به ، ووجد الخبيث عدو الله ابن أبي متنفسا ، فتنفس من كرب النفاق والحسد الذي بين ضلوعه ، فجعل يستحكي الإفك ، ويستوشيه ، ويشيعه ، ويذيعه ، ويجمعه ، ويفرقه ، وكان أصحابه يتقربون به إليه ، فلما قدموا المدينة أفاض أهل الإفك في الحديث ، ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم ، ثم استشار أصحابه - لما استلبت الروحي طويلا - في فراقها ، فأشار عليه علي رضي الله عنه أن يفارقها ، يأخذ غيرها ، تلويحا لاتصريحا .

وأشار عليه أسامة وغيره بامساكها ، وأن لا يلتفت إلى كلام الأعداء . فقام علي المنبر يستندر من عبد الله بن أبي ، فأظهر أسيد بن حضير سيد الأوس رغبته في قتله ، فأخذت سعد بن عباد - سيد الخزرج وهي قبيلة ابن أبي - الحمية القبلية ، فجري بينهما كلام تثار له الحيان ، فخفضهم رسول الله ﷺ حتى سكتوا وسكت .

أما عائشة ؛ فلما رجعت مرضت شهرا ، وهي لا تعلم عن حديث الإفك شيئا ، سوى أنها كانت لا تعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كانت تعرفه حين تشتكى ، فلما نقهت خرجت مع أم مسطح إلى البراز ليلا ، فعثرت أم مسطح في مرطها فدعت علي ابنها ، فاستنكرت ذلك عائشة منها ، فأخبرتها الخبر ، فرجعت عائشة واستأذنت رسول الله ﷺ لتأتي أبويها وتستيقن الخبر ، فلما أتهما بعد الإذن حتى عرفت جلية الأمر ، فجعلت تبكي ، فبكت ليلتين ويوما ، لم تكن تكتحل بنوم ، ولا برقا لها دمع ، حتى ظنت أن البكاء فالتق كبدها .

وجاء ، رسول الله ﷺ فرأى ذلك ، فتشهد وقال : أما بعد يا عائشة ، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيرك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه ، ثم تاب إلى الله تاب الله عليه .

وحينئذ قلص دمعها ، وقالت لكل من أبويها أن يجيبا ، فلم يدريا ، ما يقولان ، فقالت : والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم . وصدقتم به فلئن قلت لكم إني بريئة - والله يعلم أني بريئة لا تصدقوني بذلك ، ولئن اعترفت لكم بأمر - والله يعلم إني منه بريئة - لتصدقني والله ما أجد لكم مثلا إلا قول أبي يوسف . قال :

﴿ فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴾ .

ثم تحولت واضطجعت ، ونزل الوحي ساعته ، فسرى عن رسول الله وهو يضحك ، فكانت أول كلمة تكلم بها : يا عائشة ، أما الله فقد برأك ، فقالت لها أمها : قومي إليه .. فقالت عائشة - إدلالا ببراءة ساحتها ، وثقة بمحبة رسول الله ﷺ - : والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله .

والذى أنزله الله بشأن الإفك هو قوله تعالى : ﴿ إن الدين جاءوا بالإفك عصبة منكم ﴾ . العشر الآيات .

وجلد من أهل الإفك مسطح بن أثانة ، وحسان بن ثابت ، وحمينة بنت جحش ، جلدوا ثمانين ، ولم يجلد الخبيث عبد الله بن أبي مع أنه رأس أهل الإفك ، والذى تولى كبره ، إما لأن الحدود تخفيف لأهلها ، وقد وعده الله بالعذاب العظيم فى الآخرة ، وإما للمصلحة التى ترك لأجلها قتله (١) .

وهكذا بعد شهر أقشعت سحابة الشك والارتياب والقلق والاضطرب جو المدينة ، افتضح رأس المنافقين افتضاحاً فلم يستطع أن يرفع رأسه بعد ذلك ، قال ابن إسحاق : وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه من الدين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه فقال رسول الله ﷺ لعمر : كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لى اقتله لأرعدت له أنف ، ولو أمرتها اليوم بقتله قتلته . قال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمرى (٢) .



(١) صحيح البخارى ١ / ٣٦٤ ، ٢ / ٦٩٦ ، ٦٩٧ ، ٦٩٨ ، زاد المعاد ٢ / ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ وابن هشام ٢ / ٢٩٧ إلى ٣٠٧ .
(٢) ابن هشام ٢ / ٢٩٣ .

البعوث والسرايا بعد غزوة المريسيع

١ - سرية عبد الرحمن بن عوف إلى ديار بنى كلب بدومة الجندل ، فى شعبان سنة ٦ هـ أقعده رسول الله ﷺ بين يديه ، وعمه بيده ، وأوصاه بأحسن الأمور فى الحرب ، وقال له : إن أطاعوك فتزوج ابنة ملكهم ، فمكث عبد الرحمن بن عوف ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام ، فأسلم القوم وتزوج عبد الرحمن تماضر بنت الأصبغ ، وهى أم أبى سلمة ، وكان أبوها رأسهم وملكهم .

٢ - سرية على بن أبى طالب إلى بنى سعد بن بكر بفدك ، فى شعبان سنة ٦ هـ . وذلك أنه بلغ رسول الله أن بها جمعا يريدون أن يمددوا اليهود ، فبعث إليهم عليا فى مائتى رجل وكان يسير الليل ويكمن النهار فأصاب عينا لهم فأقر أنهم بعثوه إلى خيبر يعرضون عليهم نصرتهم على أن يجعلوا لهم ثمر خيبر ودل العين على موضع تجمع بنى سعد ، فأغار عليهم على ، فأخذ خمسمائة بعير وألفى شاة ، وهربت بنو سعد بالظعن ، وكان رئيسهم وبر بن عليم .

٣ - سرية أبى بكر الصديق أو زيد بن حارثة إلى وادى القرى ، فى رمضان سنة ٦ هـ . كان بطن فزارة يريد اغتيال النبى ﷺ ، فبعث رسول الله ﷺ أبى بكر الصديق قال سلمة ابن الأكوع وخرجت معه حتى إذا صلينا الصبح أمرنا فشننا الفارة ، فوردنا الماء ، فقتل أبو بكر من قتل ، رأت طائفة وفيهم الذرارى ، فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل فأدركتهم ، ورميت بسهم بينهم وبين الجبل ، فلما رأوا السهم وقفوا ، فيهم امرأة هى أم قرفة عليها تشع من أديم ، معها ابنتها من أحسن العرب ، فجئت بهم أسوقهم إلى أبى بكر فنفلنى أبو بكر ابنتها ، فلم أكشف لها ثوبا ، وقد سأله رسول الله ﷺ بنت أم قرفة ، فبعث بها إلى مكة ، وفدى بها أسرى من المسلمين هناك (١) .

وكانت أم قرفة شيطانة تحاول اغتيال النبى ﷺ ، وجهزت ثلاثين فارسا من أهل بيتها لذلك ، فلاقت جزاءها وقتل الثلاثون .

٤ - سرية كرز بن جابر الفهري (٢) إلى العرنيين ، فى شوال سنة ٦ هـ وذلك أن رهطا من عكل وعرينة أظهروا الإسلام ، وأقاموا بالمدينة فاستوخموها ، فبعثهم رسول الله ﷺ فى ذود فى المرعى ، وأمرهم أن يشربوا من ألبانها وأبوالها ، فلما صحوا قتلوا راعى رسول الله ﷺ ، واستاقوا الإبل وكفروا بعد إسلامهم ، فبعث فى طلبهم كرز الفهري فى عشرين

(١) انظر صحيح مسلم ٢ / ٨٩ ويقال : إن هذه السرية كانت سنة سبع . (٢) هذا هو الذى كان قد أغار على سرح المدينة قبل بدر فى غزوة صفوان ثم أسلم وقتل شهيدا ١ وم فتح مكة

من الصحابة ، ودعا على العرنين : اللهم اعم عليهم الطريق ، واجعلها أضيئ من مسك ،
فعمى الله عليهم السبيل ، فأدركوا ، فقطعت أيديهم وأرجلهم ، وسملت أعينهم ، جزاء
وقصاصا بما فعلوا ، ثم تركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا (١) وحديثهم في الصحيح عن
أنس (٢) .

ويذكر أهل السير بعد ذلك سرية عمرو بن أمية الضمري مع سلمة بن أبي سلمة ، في
شوال سنة ٦ هـ ، أنه ذهب إلى مكة لاغتيال أبي سفيان ، لأن أبا سفيان كان أرسل أعرابيا
لاغتيال النبي ﷺ ، بيد أن المبعوثين لم ينجحوا في الاغتيال ، لا هذا ، ولا ذاك ، ويذكرون
أن عمراً قتل في الطريق ثلاثة رجال ، ويقولون إن عمراً أخذ جثة الشهيد خبيب في هذا
السفر ، والمعروف أن خبيباً استشهد بعد الرجيع بأيام أو أشهر ، ووقعة الرجيع كانت في
صفر سنة ٤ هـ ، فلا أدري هل اختلط السفران على أهل السير ، أو كان الأمران في سفر
واحد في السنة الرابعة ، وقد أنكر العلامة المنصور فوري أن تكون هذه السرية سرية حرب
أو مناوشة . والله أعلم .

هذه هي السرايا والغزوات بعد الأحزاب ، وبني قريظة ، لم يعجر واحدة منها قتال
مرير ، إنما وقعت فيما وقعت مصادمة خفيفة ، فليست هذه البعوث إلا دوريات استطلاعية ،
أو تحركات تأديبية ؛ لإرهاب الأعراب والأعداء الذين لم يستكينوا بعد . ويظهر بعد التأمل
في الظروف أن مجرى الأيام كان قد أخذ في التطور بعد غزوة الأحزاب ، وأن أعداء
الإسلام كانت معنوياتهم في انهيار متواصل ، ولم يكن بقي لهم أمل في نجاح كسر الدعوة
الإسلامية وخضد شوكتها ، إلا أن هذا التطور ظهر جلياً بصلح الحديبية ، فلم تكن الهدنة
إلا الاعتراف بقوة الإسلام ، والتسجيل على بقائها في ربوع الجزيرة العربية .

وقعة الحديبية في ذي القعدة سنة ٦ هـ

سبب عمرة الحديبية :

ولما تقدم التطور في الجزيرة العربية إلى حد كبير لصالح المسلمين أخذت طلائع الفتح
الأعظم ونجاح الدعوة الإسلامية تبدو شيئاً فشيئاً ، وبدأت التمهيدات لإقرار حق المسلمين
في أداء عبادتهم في المسجد الحرام ، الذي كان قد صد عنه المشركون منذ ستة أعوام .

(٢) صحيح البخارى ٢ / ٦٠٢ .

(١) زاد المعاد ٢ / ١٢٢ .

أرى رسول الله ﷺ فى المنام وهو بالمدينة ، أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام ، وأخذ مفتاح الكعبة ، وطافوا واعتَمروا ، وحلق بعضهم وقصر بعضهم ، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا ، وحسبوا أنهم داخلوا مكة عامهم ذلك ، وأخبر أصحابه أنه معتمر فتجهزوا للسفر .

استنفار المسلمين :

واستنفر العرب ومن حوله من البوادرى ليخرجوا معه ، فأبطأ كثير من الأعراب ، وغسل ثيابه ، وركب ناقته القصواء واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم أو نائلة الليثى ، وخرج منها يوم الإثنين غرة ذى القعدة سنة ٦ هـ ، ومعه زوجته أم سلمة ، فى ألف وأربعمائة ، ويقال ألف وخمسمائة ، ولم يخرج معه بسلاح ، إلا سلاح المسافر ، السيوف فى القرب .

المسلمون يتحركون إلى مكة :

وتحرك فى اتجاه مكة ، فلما كان بذى الحليفة قلد الهدى ، وأحرم بالعمرة ، ليأمن الناس من حربه ، وبعث بين يديه عينا له من خزاعة يخبره عن قريش ، حتى إذا كان قريبا من عسفان أتاه عينه ، فقال : إني تركت كعب بن لؤى قد جمعوا لك الأحابيش ، وجمعوا لك جموعاً وهم مقاتلون ، وصادوك عن البيت . واستشار النبى ﷺ أصحابه وقال : أترون نميل إلى ذرارى هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم ؟ فإن قعدوا قعدوا موتورين محزونين وإن نجوا يكن عنق قطعها الله ، أم تريدون أن نؤم هذا البيت فمن صدنا عنه قاتلناه ؟ فقال أبو بكر : الله ورسوله أعلم ، إنما جئنا معتمرين ، ولم نجىء لقتال أحد ، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه ، فقال النبى ﷺ : فروحوا ، فراحوا .

محاولة قريش صد المسلمين عن البيت :

وكانت قريش لما سمعت بخروج النبى ﷺ عقدت مجلسا استشاريا ، قررت فيه صد المسلمين عن البيت كيفما يمكن ، فبعد أن أعرض رسول الله ﷺ عن الأحابيش ، نقل إليه رجل من بنى كعب أن قريشا نازلة بذى طوى ، وأن مائتى فارس فى قيادة خالد بن الوليد مرابطة بكراع الغميم ، فى الطريق الرئيسى الذى يوصل إلى مكة . وقد حاول خالد صد المسلمين ، فقام بفرسانه إزاءهم يترأى الجيشان ، ورأى خالد المسلمين فى صلاة الظهر يركعون ويسجدون فقال : لقد كانوا على غرة ، لو كنا حملنا عليهم لأصبنا منهم ثم قرر أن يميل على المسلمين - وهم فى صلاة العصر - ميلة واحدة ، ولكن الله أنزل حكم صلاة الخوف ، ففاتت الفرصة لخالد

تبديل الطريق ومحاولة الاجتباب عن اللقاء الدامى :

وأخذ رسول الله ﷺ طريقا وعرا بين الشعاب ، وسلك بهم ذات اليمين بين ظهري الحمش فى طريق على ثنية المزار مهبط الحديدية من أسفل مكة ، وترك الطريق الرئيسى الذى يفضى إلى الحرم ما را بالتنعيم ، وتركه إلى اليسار ، فلما رأى خالد قوة الجيش الإسلامى قد خالفوا عن طريقه انطلق يركض نذيرا لقريش .

وسار رسول الله ﷺ ، حتى إذا كان بثنية المزار بركت راحلته ، فقال الناس : حل حل ، فألحت ، فقالوا : خلأت القصواء ، خلأت القصواء ، فقال النبى ﷺ : ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل ، ثم قال : والذى نفسى بيده لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمت الله إلا أعطيتهم إياها ، ثم زجرها فوثبت به ، فعدل حتى نزل بأقصى الحديدية ، على ثمد^(١) قليل الماء ، إنما يتبرضه^(٢) الناس تبرضا ، فلم يلبث أن نزحوه ، فشكروا إلى رسول الله ﷺ العطش ، فانتزع سهما من كنانته ، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه ، فوالله ما زال يجيش لهم بالرى حتى صدروا .

بديل يتوسط بين رسول الله ﷺ وقريش :

ولما اطمأن رسول الله ﷺ جاء بديل بن ورقاء الخزاعى فى نفر من خزاعة ، وكانت خزاعة عيبة^(٣) نصيح لرسول الله ﷺ من أهل تهامة ، فقال : إني تركت كعب بن لؤى ، نزلوا أعداد مياه الحديدية ، معهم العوذ المطافيل^(٤) ، وهم مقاتلون وصادوك عن البيت . قال رسول الله ﷺ : إنا لم نجىء لقتال أحد ، ولكن جئنا معتمرين ، وإن قريشا قد نهكتهم الحرب وأضررت بهم ، فإن شادوا ماددتهم ، ويخلوا بينى وبين الناس ، وإن شاءوا أن يداخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا ، وإلا فقد جموا ، وإن أبوا إلا القتال فى الذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى ، أو لينفذن الله أمره .

قال بديل : سأبلغهم ما تقول ، فانطلق حتى أتى قريشا : إني قد جئكم من عند هذا الرجل ، وسمعتة يقول قولا ، فإن شئتم عرضته عليكم . فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا أن نتحدثنا عنه بشيء . وقال ذو الرأى منهم هات ما سمعته . قال : سمعته يقول كذا وكذا ، فبعثت قريش مكرز بن حفص ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال : « هذا رجل غادر » ، فلما جاء وتكلم قال له مثل ما قال لبديل وأصحابه ، فرجع إلى قريش وأخبرهم .

(١) ثمد : حوض (٢) يتبرض : يأخذ منه القليل . (٣) عيبة نصيح الرجل : موضع سره . (٤) استعار العوذ المطافيل للنساء مع أولادهن ، والعوذ : الإبل حديثة التاج ، والمطافيل : التى معها أولادها .

رسل قريش :

ثم قال رجل من كنانة - اسمه الحليس بن علقمة - : دعوني آته . فقالوا : آته . فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه قال رسول الله ﷺ هذا فلان ، وهو من قوم يعظمون البدن ، فابعثوها ، فبعثوها له ، واستقبله القوم يلبن ، فلما رأى ذلك . قال : سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت ، فرجع إلى أصحابه فقال : رأيت البدن قد قلدت وأشعرت ، وما أرى أن يصدوا ، وجرى بينه وبين قريش كلام أحفظه .

فقال عروة بن مسعود الثقفي : إن هذا قد عرض عليكم خطة رشدا فاقبلوها ، ودعوني آته فقالوا : آته ، فآتاه ، فجعل يكلمه ، فقال له النبي ﷺ نحوا من قوله لبديل ، فقال له عروة عند ذلك : أي محمد ، أرايت لو أستأصلت قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجتراح أهله قبلك ، وإن تكن الأخرى فوالله إني لأرى وجوها ، وأرى أوباشا من الناس خلقا أن يفروا ويدعوك ، فقال له أبو بكر : أمصص بظر اللات ، أنحن نفر عنه ، ؟ قال : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر ، قال : أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت عندي لم أجرك بها لأجبتك . وجعل يكلم النبي ﷺ ، وكلما كلمه أخذ بلحيته ، والمغيرة بن شعبة عند رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر ، فكلما أهوى عروة إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف ، وقال : أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ ، فرفع عروة رأسه وقال : من ذا ؟ قالوا : المغيرة بن شعبة ، فقال : أي غدر ، أو لست أسعى في غدرتك ؟ ، وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم ، وأخذ أموالهم ، ثم جاء فأسلم ، فقال النبي ﷺ : أما الإسلام فأقبل ، وأما المال فلست منه في شيء (وكان المغيرة ابن أخي عروة) .

ثم إن عروة جعل يمرق أصحاب رسول الله ﷺ وعلاقتهم به ، فرجع إلى أصحابه ، فقال : أي قوم ، والله لقد وفدت على الملوك ، على قيصر وكسرى والنجاشي ، والله ما رأيت ملكا يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا ، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم ، فذلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون إليه النظر تعظيما له ، وقد عرض عليكم خطة رشدا فاقبلوها .

هو الذي كف أيديهم عنكم :

ولما رأى شباب قريش الطائشون ، الطامحون إلى الحرب ، رغبة زعمائهم في الصلح فكروا في خطة تحول بينهم وبين الصلح ، فقرروا أن يخرجوا ليلا ويتسللوا إلى معسكر المسلمين ، ويحدثوا أحداثا تشعل نار الحرب ، وفعلا قد قاموا بتنفيذ هذا القرار ، فقد خرج سبعون أو ثمانون منهم ليلا فهبطوا من جبل التنعيم ، وحاولوا التسلل إلى معسكر

المسلمين، غير أن محمد بن سلمة قائد الحرس اعتقلهم جميعا ورغبة في الصلح أطلق سراحهم النبي ﷺ وعفا عنهم ، وفى ذلك أنزل الله ﴿ وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم ﴾ (٤٨ : ٢٤) .

عثمان بن عفان سفيرا إلى قريش :

وحينئذ أراد رسول الله ﷺ أن يبعث سفيرا يؤكد لدى قريش موقفه وهدفه من هذا السفر ، فدعا عمر بن الخطاب ليرسله إليهم ، فاعتذر قائلا : يا رسول الله ليس لى بمكة أحد من بنى كعب يغضب لى إن أوديت ، فأرسل عثمان بن عفان ، فإن عشيرته بها ، وإنه مبلغ ما أردت ، فدعاه ، وأرسله إلى قريش ، وقال : أخبرهم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عمارا ، وادعهم إلى الإسلام . وأمره أن يأتى رجالا بمكة مؤمنين ، ونساء مؤمنات ، فيبشرهم بالفتح ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة ، حتى لا يستخفى فيها أحد بالإيمان .

فانطلق عثمان حتى مر على قريش ببلدح ، فقالوا : أين تريد ؟ فقال : بعثنى رسول الله ﷺ كذا وكذا ، قالوا : قد سمعنا ما تقول ، فانفذ لحاجتك ، وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص ، فرحب به ثم أسرج فرسه ، فحمل عثمان على الفرس وأجاره وأردفه حتى جاء مكة ، وبلغ الرسالة إلى زعماء قريش . فلما فرغ عرضوا عليه أن يطوف بالبيت ، لكنه رفض هذا العرض ، وأبى أن يطوف حتى يطوف رسول الله ﷺ .

إشاعة مقتل عثمان وبيعة الرضوان :

واحتبسته قريش عندها - ولعلهم أرادوا أن يتشاوروا فيما بينهم في الوضع الراهن ، ويرموا أمرهم ، ثم يردوا عثمان بجواب ماجاء به من الرسالة - وطال الاحتباس ، فشاع بين المسلمين أن عثمان قتل ، فقال رسول الله ﷺ لما بلغتته تلك الإشاعة : لا نبرح حتى نناجز القوم ، ثم دعا أصحابه إلى البيعة ، فثاروا إليه يبايعونه على أن لا يفروا وبايعته جماعة على الموت وأول من بايعه أبو سنان الأسدى ، وبايعه سلمة بن الأكوع على الموت ثلاث مرات ، فى أول الناس ووسطهم وآخرهم ، وأخذ رسول الله ﷺ بيد نفسه وقال : هذه عن عثمان ، ولما تمت البيعة جاء عثمان فبايعه ، ولم يتخلف عن هذه البيعة إلا رجل من المنافقين يقال له جد بن قيس .

أخذ رسول الله ﷺ هذه البيعة تحت شجرة ، وكان عمر آخذا بيده ، ومعقل بن يسار آخذا بغصن الشجرة يرفعه عن رسول الله ﷺ ، وهذه هى بيعة الرضوان التى أنزل الله فيها ﴿ لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾ الآية (٤٨ : ١٨) .

إبرام الصلح وبنوده :

وعرفت قريش حراجة الموقف، فأسرعت إلى بعث سهيل بن عمرو لعقد الصلح، وأكدت له أن لا يكون في الصلح إلا أن يرجع عنا عامه هذا، لا تتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً. فأتاه سهيل بن عمرو، فلما رآه عليه السلام قال: قد سهل لكم أمركم، أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل، فجاء سهيل فتكلم طويلاً، ثم اتفقا على قواعد الصلح وهى هذه :

١ - الرسول - ﷺ - يرجع من عامه، فلا يدخل مكة وإذا كان العام القابل دخلها المسلمون فأقاموا بها ثلاثاً، معهم سلاح الراكب، السيوف في القرب، ولا تتعرض قريش لهم بأى نوع من أنواع التعرض.

٢ - وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض.

٣ - من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وتعتبر القبيلة التى تنضم إلى أى الفريقين جزءاً من ذلك الفريق، فأى عدوان تتعرض له أى من هذه القبائل يعتبر عدواناً على ذلك الفريق.

٤ - من أتى محمداً من قريش من غير إذن وليه - أى هارباً منهم رده عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد - أى هارباً منه - لم يرد عليه.

ثم دعا علياً ليكتب الكتاب، فأملى عليه « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل: أما الرحمن فوالله لا ندرى ماهو؟ ولكن اكتب باسمك اللهم. فأمر النبي ﷺ علياً بذلك. ثم أملى (هذا ما صالح عليه محمد رسول الله) فقال سهيل: لو نعلم أنك رسول الله ماصد دنالك عن البيت، ولا قاتلناك ولكن اكتب محمد بن عبد الله فقال: إني رسول الله وإن كذبتهمونى، وأمر علياً أن يكتب محمد بن عبد الله، ويمحو لفظ رسول الله، فأبى على أن يمحو هذا اللفظ، فمحاه ﷺ بيده، ثم تمت كتابة الصحيفة، ولما تم الصلح دخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ - وكانوا حليف بنى هاشم منذ عهد عبد المطلب كما قدمنا فى أوائل المقالة، فكان دخولهم فى هذا العهد؛ تأكيداً لذلك الحلف القديم - ودخلت بنو بكر فى عهد قريش.

رد أبى جندل :

وبينما الكتاب يكتب إذ جاء أبو جندل بن سهيل يرسف فى قيوده، قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين، فقال سهيل: هذا أول ما أقاضيك عليه على أن ترده. فقال النبي ﷺ: إنا لم نقض الكتاب بعد. فقال: فوالله إذاً لا أقاضيك على

شيء أبدا . فقال النبي ﷺ فأجزه لى . قال : ما أنا بمجيزه لك . قال : بلى فافعل ، قال : ما أنا بفاعل وقد ضرب سهيل أبا جندل فى وجهه ، وأخذ بتلابيبه وجره ؛ ليرده إلى المشركين ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يامعشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنونى فى دينى ؟ فقال رسول الله ﷺ : يا أبا جندل اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا ، وأعطيناهم على ذلك ، وأعطيناهم عهد الله فلا تغدر بهم .

فوثب عمر بن الخطاب رضى الله عنه مع أبى جندل يمشى إلى جنبه ويقول : اصبر يا أبا جندل ، فإنما هم المشركون ، وإنما دم أحدهم دم كلب ، ويدنى قائم السيف منه ، يقول عمر : رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه ، ففطن الرجل بأبيه ، ونفذت القضية .

النحر والحلق للحل عن العمرة :

ولما فرغ رسول الله ﷺ من قضية الكتاب قال : قوموا ، فانحروا ، فوالله ما قام منهم أحد حتى قال ثلاث مرات ، فلما لم يقم منهم أحد قام فدخل على أم سلمة ، فذكر لها مالقى من الناس ، فقالت : يا رسول الله أتحب ذلك ؟ أخرج ثم لا تكلم أحدا كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك فقام فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك ، نحر بدنه ، ودعا حالقه فحلقه ، فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضا ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما ، وكانوا نحروا البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة ، ونحر رسول الله ﷺ جملا كان لأبى جهل ، كان فى أنفه برة من فضة ، ليغيط به المشركين ، ودعا رسول الله ﷺ للمحلقين ثلاثا بالمغفرة وللمقصرين مرة . وفى هذا السفر أنزل الله فدية الأذى لمن حلق رأسه بالصيام أو الصدقة ، أو النسك فى شأن كعب بن عجرة .

الإباء عن رد المهاجرات :

ثم جاء نسوة مؤمنات فسأل أولياؤهن أن يردهن عليهن بالعهد الذى تم فى الحديبية ، فرفض طلبهم هذا ، بدليل أن الكلمة التى كتبت فى المعاهدة بصدد هذا البند هى : (وعلى أنه لا يأتيك منا رجل ، وإن كان على دينك إلا رددته علينا) ^(١) فلم تدخل النساء فى العقد رأسا وأنزل الله فى ذلك ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مِهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ﴾ حتى بلغ ﴿ بَعْضُ الْكُوفَرِ ﴾ ، فكان رسول الله ﷺ يمتحنهن بقوله تعالى ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعُكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا ﴾ إلخ ، فمن أقرت بهذه الشروط قال لها : قد بايعتك . ثم لم يكن يردهن .

(١) صحيح البخارى ٢٨٠/١ .

وطلق المسلمون زوجاتهم الكافرات بهذا الحكم . فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك . تزوج بإحدهما معاوية ، وبالأخرى صفوان بن أمية .

ماذا يتمخض عن بنود المعاهدة :

هذه هي هدنة الحديبية ، ومن سبر أغوار بنودها مع خلفياتها لا يشك أنها فتح عظيم للمسلمين ، فقريش لم تكن تعترف بالمسلمين أى اعتراف ، بل كانت تهدف استئصال شأفتهم ، وتنتظر أن تشهد يوماً ما نهايتهم ، وكانت تحاول بأقصى قوتها الحيلولة بين الدعوة الإسلامية ، وبين الناس ، بصفتها ممثلة الزعامة الدينية والصدارة الدنيوية فى جزيرة العرب ، ومجرد الجنوح إلى الصلح اعتراف بقوة المسلمين ، وأن قريشا لا تقدر على مقاومتهم ، ثم البند الثالث يدل لفحواه على أن قريشا نسيت صدارتها الدنيوية وزعامتها الدينية ، وأنها لا تهمها الآن إلا نفسها ، أما سائر الناس وبقية جزيرة العرب فلو دخلت في الإسلام بأجمعها ، فلا يهم ذلك قريشا ، ولا تتدخل في ذلك بأى نوع من أنواع التدخل . أليس هذا فشلاً ذريعاً بالنسبة إلى قريش ؟ وفتحا مبينا بالنسبة إلى المسلمين ؟ إن الحروب الدامية التى جرت بين المسلمين وبين أعدائهم لم تكن أهدافها - بالنسبة إلى المسلمين - مصادرة الأموال وإبادة الأرواح وإفناء الناس ، أو إكراه العدو على اعتناق الإسلام ، وإنما كان الهدف الوحيد الذى يهدفه المسلمون من هذه الحروب هو الحرية الكاملة للناس في العقيدة والدين ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ لا يحول بينهم وبين ما يريدون أى قوة من القوات ، وقد حصل هذا الهدف بجميع أجزائه ولوازمه ، وبطريق ربما لا يحصل بمثله في الحروب مع الفتح المبين ، وقد كسب المسلمون لأجل هذه الحرية نجاحاً كبيراً فى الدعوة ، فبينما كان عدد المسلمين لا يزيد على ثلاثة آلاف قبل الهدنة ، صار عدد الجيش الإسلامى في سنتين عند فتح مكة عشرة آلاف .

أما البند الثانى ، فهو جزء ثان لهذا الفتح المبين ، فالمسلمون لم يكونوا بادئين بالحروب ، وإنما بدأتها قريش ، يقول الله تعالى ﴿ وهم بدأوكم أول مرة ﴾ ، أما المسلمون فلم يكن المقصود من دورياتهم العسكرية إلا أن تفيق قريش عن غطرستها ، وصدها عن سبيل الله ، وتعمل معهم بالمساواة ، كل من الفريقين يعمل على شاكلته فالتقيد بوضع الحرب عشر سنين حد لهذه الغطرسة والصد ، ودليل على فشل من بدأ الحرب وضعفه وإنهياره .

أما البند الأول ؛ فهو حد لصد قريش عن المسجد الحرام ، فهو أيضاً فشل لقريش ، وليس فيه ما يشفى قريشا سوى أنها نجحت في الصد لذلك العام الواحد فقط .

أعطت قريش هذه الخلال الثلاث للمسلمين ، وحصلت بإزائها خلة واحدة فقط ، وهى ما فى البند الرابع ، ولكن تلك الخلة تافهة جداً ، ليس فيها شئ يضر بالمسلمين ، فمعلوم أن المسلم مادام مسلماً لا يفر عن الله ورسوله ، وعن مدينة الإسلام ، ولا يفر إلا إذا

ارتد عن الإسلام ظاهراً أو باطناً ، فإذا ارتد فلا حاجة إليه للمسلمين ، وانفصاله من المجتمع الإسلامي خير من بقاءه فيه ، وهذا الذي أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله : إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله (١) ، وأما من أسلم من أهله مكة - فهو وإن لم يبق للجوئه إلى المدينة سبيل - لكن أرض الله واسعة ، ألم تكن الحبشة واسعة للمسلمين حينما لم يكن يعرف أهل المدينة عن الإسلام شيئاً ؟ وهذا الذي أشار إليه النبي ﷺ بقوله « ومن جاءنا منهم سيجهل الله له فرجا ومخرجاً » (٢) .

والأخذ بمثل هذا الاحتفاظ ، وإن كان مظهر الاعتزاز لقريش ، لكنه في الحقيقة ينبىء عن شدة انزعاج قريش واهلهم وخورهم ، وعن شدة خوفهم على كياناتهم الوثنية ، كأنهم كانوا قد أحسوا أن كياناتهم اليوم على شفا جرف هار ، لا بد له من الأخذ بمثل هذا الاحتفاظ وما سمح به النبي ﷺ من أنه لا يسترد من قر إلى قريش من المسلمين ، فليس هذا إلا دليلاً على أنه يعتمد على تثبيت كيانه وقوته كمال الاعتماد ، ولا يخاف عليه من مثل هذا الشرط .

حزن المسلمين ومناقشة عمر مع النبي ﷺ :

هذه هي حقيقة بنود هذه الهدنة ، لكن هناك ظاهرتان عمت لأجلهما المسلمين كتابة وحزن شديد ، الأولى : أنه كان قد أخبرهم أنا سنأتى البيت فنطوف به ، فماله يرجع ولم يطف به ؟ الثانية : أنه رسول الله ﷺ وعلى الحق ، والله وعد إظهار دينه ، فماله قبل ضغط قريش وأعطى الدنية فى الصلح ؟ كانت هاتان مثار الريب والشكوك والوساوس والظنون

وصارت مشاعر المسلمين لأجلهما جريحة ، بحيث غلب الهم والحزن على التفكير فى عواقب بنود الصلح ، لعل أعظمهم حزناً كان عمر بن الخطاب ، فقد جاء إلى النبي ﷺ وقال : يا رسول الله ألسنا على حق وهم على باطل ؟

قال : بلى . قال : أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟ قال : بلى قال : ففيم نعطى الدنية فى ديننا ، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟ قال : يا ابن الخطاب إني رسول الله ولست أعصيه ، وهو ناصرى ، ولن يضيعنى أبداً . قال : أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت فنطوف به ؟ قال : بلى ، فأخبرتكم أنا نأتية العام ؟ قال : لا . قال : فإنك آتية ومطوف به .

ثم انطلق عمر متغيظاً فأتى أبا بكر ، فقال له كما قال لرسول الله ﷺ ، ورد عليه أبو بكر ، كما رد عليه رسول الله ﷺ ، وزاد : فاستمسك بغرزه حتى تموت ، فوالله إنه لعلى الحق .

(٢) نفس المصدر .

(١) صحيح مسلم باب صلح الحديبية ١٠٥/٢ .

ثم نزلت ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ إلخ فأرسل رسول الله إلى عمر فأقرأه إياه ، فقال : يا رسول الله أو فتح هو ؟ قال نعم فطابت نفسه ورجع .

ثم ندم عمر على ما فرط منه ندماً شديداً . قال عمر : فعملت لذلك أعمالاً ، ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ ، مخافة كلامي الذي تكلمت به ، حتى رجوت أن يكون خيراً (١) .

انحلت أزمة المستضعفين :

ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ، واطمأن بها ، انفلت رجل من المسلمين ، ممن كان يعذب في مكة ، وهو أبو بصير رجل من ثقيف حليف لقريش ، فأرسلوا في طلبه رجلين وقالوا للنبي ﷺ العهد الذي جعلت لنا ، فدفعه النبي ﷺ إلى الرجلين ، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة ، فنزلوا يأكلون من تمر لهم ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله إنني لأرى سيفك هذا يافلان جيداً . فاستله الآخر ، فقال : أجل والله إنه لجيد ، لقد جربت به ثم جربت .

فقال أبو بصير : أرني أنظر إليه ، فأمكنه منه ، فضربه حتى برد .

وفر الآخر حتى أتى المدينة ، فدخل المسجد يعدو ، فقال رسول الله ﷺ حين رآه : لقد رأى هذا ذعرا ، فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال : قتل صاحبي وإنني لمقتول فجاء أبو بصير وقال يا نبي الله قد والله أوفى الله ذمتك ، قد رددتني إليهم ، ثم أنجاني الله منهم ، قال رسول الله : ويل أمه ، مسعر حرب لو كان له أحد ، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم ، فخرج حتى سيف أتى البحر ، وينقلت منهم أبو جندل بن سهيل ، فلحق بأبي بصير ، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير ، حتى اجتمعت منهم عصابة . فو الله ما يسمعون بغير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها ، فقتلوهم وأخذوا أموالهم ، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل ، فمن أتاه فهو آمن ، فأرسل النبي ﷺ إليهم ، فقدموا عليه المدينة (٢) .

إسلام أبطال من قريش :

وفي أوائل سنة ٧ من الهجرة بعد هذه الهدنة أسلم عمرو بن العاص وخالد بن الوليد

(١) انظر تفصيل هذه الغزوة والهدنة ، فتح الباري ٧/٤٣٩ إلى ٤٥٨ ، صحيح البخاري ١/٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ،

٣٨١ ، ٥٩٨/٢ ، ٦٠٠ ، ٧١٧ ، صحيح مسلم ٢/١٤٠ ، ١٥٠ ، ١٠٦ ، ابن هشام ٢/٣٠٨ إلى ٢٢ ، زاد

المعاد ٢/١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص

٢٠٧ إلى ٣٠٥ ، تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) المصادر السابقة .

وعثمان بن طلحة ، ولما حضروا عند النبي ﷺ قال : إن مكة قد ألفت إلينا أفلاذ كبدها^(١).

المرحلة الثانية طور جديد

إن هدنة الحديبية كانت بداية طور جديد في حياة الإسلام ، والمسلمين ، فقد كانت قريش أقوى قوة وأعندھا وألدها في عدااء الإسلام ، وبانسحابها عن ميدان الحرب إلى رحاب الأمن والسلام ، انكسر أقوى جناح من أجنحة الأحزاب الثلاثة - قريش وغطفان واليهود - ولما كانت قريش ممثلة للوثنية وزعيمتها في ربوع الجزيرة العرب ؛ انخفضت حدة مشاعر الوثنيين ، وانهارات نزعاتها العدائية إلى حد كبير ، ولذلك لانرى لغطفاناستفزازاً كبيراً بعد هذه الهدنة ، وجل ما جاء منهم إنما جاء من قبل إغراء اليهود .

أما اليهود فقد كانوا جعلوا خبير بعد جلائهم عن يشرب وكرا لللدس والتآمر ، كانت شياطينهم تبيض هناك وتفرخ ، تؤجج نار الفتنة ، وتغري الأعراب الضاربة حول المدينة ، وتبيت للقضاء على النبي ﷺ والمسلمين ، أو لإلحاق الخسائر الفادحة بهم ، ولذلك كان أول إقدام حاسم من النبي ﷺ بعد الهدنة هو شن الحرب الفاصلة على هذا الوكر .

ولكن هذه المرحلة التي بدأت بعد الهدنة أعطت للمسلمين فرصة كبيرة ، لنشر الدعوة الإسلامية وإبلاغها ، وقد تضاعف نشاط المسلمين في هذا المجال ، وبرز نشاطهم في هذا الوجه على نشاطهم العسكري ولذلك نرى أن نقسم هذه المرحلة على قسمين:

١ - النشاط في مجال الدعوة ، أو مكاتبة الملوك والأمراء .

٢ - النشاط العسكري .

وقبل أن نتابع النشاط العسكري في هذه المرحلة ، نتناول موضوع مكاتبة الملوك والأمراء ، إذ الدعوة الإسلامية هي المقدم طبعاً ، بل ذلك هو الهدف الذي عانى له المسلمون ماعنوه من المصائب والآلام ، والحروب والفتن ، والقلاقل والاضطرابات .

(١) اختلفوا كثيراً من تعيين السنة التي أسلم فيها هؤلاء الصحابة ، وعامة كتب أسماء الرجال تصرح أنها سنة ثمان ، ولكن قصة إسلام عمرو بن العاص عند النجاشي معروفة ، وأسلم خالد عثمان بن طلحة حين رجع عمرو بن العاص من الحبشة فإن بعد الرجوع قصد المدينة فلقياه في الطريق ، وحضر الثلاثة عند النبي ص وأسلموا وهذا يقتضى أنهم أسلموا في أوائل سنة سبع . والله أعلم .

مكاتبة الملوك والأمراء

فى أواخر السنة السادسة حين رجع رسول الله ﷺ من الحديبية كتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام .

ولما أراد أن يكتب إلى هؤلاء الملوك قيل له : إنهم لا يقبلون إلا وعليه خاتم فاتخذ النبي ﷺ خاتما من فضة ، نقشه : محمد رسول الله ، وكان هذا النقش ثلاثة أسطر : محمد سطر ، ورسول سطر والله سطر ، هكذا : محمد رسول (١) الله .

واختار من أصحابه رسلا لهم معرفة وخبرة ، وأرسلهم إلى الملوك ، وقد جزم العلامة المنصور فورى أن النبي ﷺ أرسل هؤلاء الرسل غرة المحرم سنة سبع من الهجرة قبل الخروج إلى خيبر بأيام (٢) . وفيما يلي نصوص هذه الكتب ، وبعض ما تمخضت عنه .

١ - الكتاب إلى النجاشي ملك الحبشة :

وهذا النجاشي اسمه أصبحمة بن الأبجر ، كتب إليه النبي ﷺ مع عمرو بن أمية الضمري فى آخر سنة ست أو فى المحرم سنة سبع من الهجرة وقد ذكر الطبرى نص الكتاب ، ولكن النظر الدقيق فى ذلك النص ، يفيد أنه ليس بنص الكتاب الذى كتبه ﷺ بعد الحديبية ، بل لعله نص كتاب بعثه مع جعفر حين خرج هو وأصحابه مهاجرين إلى الحبشة فى العهد المكي ، فقد ورد فى آخر الكتاب ذكر هؤلاء المهاجرين بهذا اللفظ (وقد بعثت إليكم ابن عمى جعفرا ومعه نفر من المسلمين ، فإذا جاءك فأقرهم ودع التجبر) .

وروى البيهقى عن ابن إسحاق نص كتاب كتبه النبي ﷺ إلى النجاشي وهو هذا : هذا كتاب من محمد النبي إلى النجاشي الأصحم عظيم الحبشة ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ؛ وأن محمدا عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاية الإسلام ، فإنى أنا رسوله فأسلم تسلم يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴿١﴾ ، فإن أبيت فإن عليك إثم النصارى من قومك .

وقد أورد المحقق الكبير الدكتور حميد الله (باريس) نص كتاب قد عثر عليه فى الماضى القريب - كما أورده ابن القيم مع الاختلاف فى كلمة فقط - وبذل الدكتور فى تحقيق ذلك النص جهدا بليغا واستعان فى ذلك كثيرا باكتشافات العصر الحديث ، وأورد

(١) صحيح البخارى ٨٧٢/٢ ، ٨٧٣ .

(٢) رحمة للعالمين ١٧١/١ .

صورته فى الكتاب وهو هكذا .

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى النجاشى عظيم الحبشة ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته . ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده ، وإنى أدعو إلى الله وحده لا شريك له ، والمرالاة على طاعته ، وأن تتبعنى ، وتؤمن بالذى جاءنى رسول الله ﷺ ، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فأقبل نصيحتى ، والسلام على من اتبع الهدى (١) .

وأكد الدكتور المحترم أن هذا هو نص الكتاب الذى كتبه النبى ﷺ إلى النجاشى بعد الحديبية ، أما صحة هذا النص فلا شك فيها بعد النظر فى الدلائل ، وأما أن هذا الكتاب هو الذى كتب بعد الحديبية فلا دليل عليه ، والذى أورده البيهقى عن ابن إسحاق أشبه بالكتب التى كتبها النبى ﷺ إلى ملوك وأمراء النصارى بعد الحديبية ، فإن فيه الآية الكريمة ﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة ﴾ إلخ كما كان دأبه فى تلك الكتب ، وقد ورد فيه اسم الأصحمة صريحاً ، وأما النص الذى أورده الدكتور حميد الله ، فالأغلب عندى أنه نص الكتاب الذى كتبه النبى ﷺ بعد موت أصحمة إلى خليفته ، ولعل هذا هو السبب فى ترك الاسم .

وهذا الترتيب ليس عندى عليه دليل قطعى سوى الشهادات الداخلية التى تؤيدها نصوص هذه الكتب والعجب من الدكتور حميد الله أنه جزم أن النص الذى أورده البيهقى عن ابن عباس هو نص الكتاب الذى كتبه النبى ﷺ بعد موت أصحمة إلى خليفته مع أن اسم أصحمة وارد فى هذا صريحاً والعلم عند الله (٢) .

ولما بلغ عمرو بن أمية الضمري كتاب النبى ﷺ إلى النجاشى أخذه النجاشى ، ووضع على عينه ونزل عن سريرته على الأرض ، وأسلم على يد جعفر بن أبى طالب . وكتب إلى النبى ﷺ بذلك كتاباً ، وهاك نصه .

(١) انظر رسول أكرم كى سياسى زندكى (بالأردو) ص ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، وفى زاد

المعاد : أسلم أنت بدل والسلام على من اتبع الهدى انظر زاد المعاد ٦٠ / ٣ .

(٢) انظر لهذه المباحث كتاب الدكتور حميد الله : رسول أكرم كى سياسى زندكى (ص ١٠٨ ، إلى ١١٤ ومن

١٢١ إلى ١٣١ .

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحابه سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته ، الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد :

فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى ، فو رب السماء ، والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت تفروقا ، إنه كما قلت ، وقد عرفنا ما بعثت بها إلينا ، وقد قرينا ابن عمك وأصحابك فأشهد أنك رسول الله صادقا مصدقا وقد بايعتك ، وبايعت ابن عمك ، وأسلمت على يديه لله رب العالمين (١) .

وكان النبي ﷺ قد طلب من النجاشي أن يرسل جعفرًا ومن معه من مهاجري الحبشة فأرسلهم في سفينتين مع عمرو بن أمية الضمري ، فقدم بهم على النبي ﷺ وهو بخير (٢) . توفي النجاشي هذا في رجب سنة تسع من الهجرة بعد تبوك ، ونعاه النبي ﷺ يوم وفاته ، وصلى عليه صلاة الغائب . ولما مات وتخلف على عرشه ملك آخر كتب إليه النبي ﷺ كتابا آخر ولا يدري هل أسلم أم لا ؟ (٣) .

٢ - الكتاب إلى المقوقس ملك مصر :

وكتب النبي ﷺ إلى جريج بن متى (٤) ، الملقب بالمقوقس ملك مصر والإسكندرية : « بسم الله الرحمن الرحيم » من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط . ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ ، وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَا مُسْلِمُونَ ﴾ (٥) .

واختار لحمل هذا الكتاب حاطب بن أبي بلتعة . فلما دخل حاطب على المقوقس قال له : إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، فانتقم به ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ، ولا يعتبر بغيرك بك .

فقال المقوقس : إن لنا دينًا لن ندعه إلا لما هو خير منه .

(١) زاد المعاد ٦١/٣ . (٢) ابن هشام ٣٥٩/٢ . (٣) ربما يؤخذ هذا مما رواه مسلم عن أنس ٩٩/٢ . (٤) هذا على رأى العلامة المنصور نوري فى كتابه رحمة للعالمين ١/١٧٨ ؛ وقال الدكتور حميد الله : « إن اسمه بنيامين » انظر : رسول أكرم كى سياسى زندكى ص ١٤١ . (٥) هذا النص أورده ابن القيم فى زاد المعاد ٣/٦١ والذى أورده الدكتور حميد الله أخذا من صورة الكتاب الذى عشر عليه فى الماضى القريب يختلف بعض كلماته عن هذا النص ، ففيه « فأسلم تسلم يؤتك الله » الخ .

وفيه « إثم القبط » بدل قوله إثم أهل القبط ، انظر : رسول أكرم كى سياسى زندكى ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

فقال حاطب : ندعوك إلى دين الإسلام الكافى به الله فقد ما سواه ، إن هذا النبى
دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش ، وأعداهم له اليهود ، وأقربهم منه النصارى ، ولعمري
ما بشارة موسى بعبسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك
أهل التوراة إلى الإنجيل ، فكل نبى أدرك قوما فهم أمته ، فالحق عليهم أن يطيعوه ، وأنت
ممن أدركه هذا النبى ، ولسنا ننهك عن دين المسيح ، ولكننا نأمرك به .

قال المقوقس : إنى قد نظرت فى أمر هذا النبى ، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ، ولا
ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن الكاذب ووجدته معه آية
النبوة بإخراج الخبء والإخبار بالنجوى وسأنظر .

وأخذ كتاب النبى ﷺ ، فجعله فى حق من عاج ، وختم عليه ودفع به إلى جارية له ،
ثم دعا كاتبها له يكتب بالعربية ، فكتب إلى رسول الله :

« بسم الله الرحمن الرحيم » لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ، سلام
عليك ، أما بعد ، فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وما تدعو إليه ، وقد علمت
أن نبيا بقى ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك ، وبعثت إليك
بجاريين ، لهما مكان فى القبط عظيم وبكسوة ، وأهديت إليك بغلة لتركبها ، والسلام
عليك .

ولم يزد على هذا ولم يسلم ، والجاريان مارية ، وسيرين ، والبغلة دللد بقيت إلى
زمن معاوية (١) ، واتخذ النبى ﷺ مارية سرية له ، وهى التى ولدت له إبراهيم . وأما سيرين
فأعطاهما لحسان بن ثابت الأنصارى .

٣ - الكتاب إلى كسرى ملك فارس :

وكتب النبى ﷺ إلى كسرى ملك فارس « بسم الله الرحمن الرحيم » من محمد
رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ،
وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاية
الله ، فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة ، لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ،
فأسلم تسلم ، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك .

واختار لحمل هذا الكتاب عبد الله بن حذافة السهمى ، فدفعه السهمى إلى عظيم
البحرين ، ولا ندرى هل بعث عظيم البحرين رجلا من رجالاته ، أم بعث عبد الله
السهمى ، وأيا ما كان فلما قرىء الكتاب على كسرى مزقه ، وقال فى غطرسة: عبد حقير

(١) زاد المعاد ٣ / ٦١

من رعيته يكتب اسمه قبلي ، ولما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال : مزق الله ملكه ، وقد كان كما قال ، فقد كتب كسرى إلى باذان عامله على اليمن : ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين عندك جليدين ، فليأتياني به . فاختر باذان رجلين ممن عنده ، وبعثهما بكتاب إلى رسول الله ﷺ يأمره أن ينصرف معه إلى كسرى ، فلما قدما المدينة ، وقابلا النبي ﷺ قال أحدهما : إن شاهنشاه (ملك الملوك) كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك ، وبعثني إليك لتتطلق معي ، وقال قولا تهديديا فأمرهما أن يلاقياه غدا .

وفي ذلك الوقت كانت قد قامت ثورة كبيرة ضد كسرى من داخل بيته بعد أن لاقت جنوده هزيمة منكرة أمام جنود قيصر ، فقد قام شيرويه بن كسرى على أبيه فقتله ، وأخذ الملك لنفسه ، وكان ذلك في ليلة الثلاثاء لعشر مضين من جمادى الأولى سنة سبع (١) ، وعلم رسول الله ﷺ الخبر من الرحي ، فلما غدوا عليه أخبرهما بذلك : فقلا : هل تدري ما تقول ؟ إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر ، أفنكتب هذا عنك ، ونخبره الملك . قال : نعم أخبراه ذلك عنى ، وقولا له إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى ! وينتهى إلى منتهى الخف والحافر . وقولا له : إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك ، ومكنتك على قومك من الأبناء ، فخرجنا من عنده حتى قدما على باذان فأخبراه الخبر ، وبعد قليل جاء كتاب بقتل شيرويه لأبيه ، وقال له شيرويه في كتابه : انظر الرجل الذي كان كتب فيه أبى إليك ، فلا تهجه حتى يأتيك أمرى .

وكان ذلك سببا في إسلام باذان ومن معه من أهل فارس باليمن . (٢) .

٤ - الكتاب إلى قيصر ملك الروم :

وروى البخارى ضمن حديث طويل نص الكتاب الذى كتبه النبي ﷺ إلى ملك الروم هرقل ، وهو هذا :

« بسم الله الرحمن الرحيم » من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أسلم تسلم ، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ، ﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ (٣) .

(١) فتح البارى ٨ / ١٢٧

(٢) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١ / ١٤٧ ، فتح البارى ٨ / ١٢٧ ، ١٢٨ وانظر رحمة للعالمين أيضا .

(٣) صحيح البخارى ١ / ٤ ، ٥

واختار لحمل هذا الكتاب دحية بن خليفة الكلبي ، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ، ليدفعه إلى قيصر ، وقد روى البخاري عن ابن عباس أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش ، وكانوا تجارا بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ ماد فيها أبا سفيان وكفار من قريش ، فأتوه وهم بأيلياء ، (١) فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ودعا ترجمانه فقال : أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟ قال أبو سفيان : فقلت أنا أقربهم نسبا ، فقال : ادنوه مني ، وقربوا أصحابه ، فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانه : إني سائل هذا عن هذا الرجل ، فإن كذبتني فكذبوه ، فوالله لولا الحياء من أن يأتروا على كذبا لكذبت عنه . ثم قال : أول ما سألتني عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ فقلت : هو فينا ذو نسب ، قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ قلت : لا . قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت : لا . قال : فأشرف الناس اتبعوه أم ضعفائهم ؟ قلت : بل ضعفائهم . قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزدون . قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا . قال : فهل تهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا . قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ، ونحن منه في مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها . قال ، ولم تمكنني كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة . قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم . قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا وينال منه . قال : ماذا يأمركم ؟ قلت : يقول : اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئا ، واتركوا ما يقول آبائكم ، يأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة . فقال لترجمان : قل له : سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث في نسب من قومها ، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله ، فذكرت أن لا . قلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله ، وسألتك هل كان من آبائه من ملك فذكرت أن لا ، فقلت : فلو كان من آبائه من ملك قلت : رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتكم هل كنتم تهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فذكرت أن لا فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ، ويكذب على الله ، وسألتك أشرف الناس اتبعوه أم ضعفائهم ، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل ، وسألتك أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزدون ، وكذلك أمر بالإيمان حتى يتم ، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب ، وسألتك هل يغدر ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر ، وسألتك بماذا يأمر ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عن عبادة

(١) كان قيصر جاء إذ ذاك في إيلياء - بيت المقدس - من حمص ، شكرا لما من الله عليه من إلحاق الهزيمة الساحقة بالفرس (انظر صحيح مسلم ٩٩ / ٢) ، وكانت الفرس قد قتلوا كسرى أبرويز ، وصالحوا الروم على استسلام جميع ما كانوا قد احتلوا من بلاد قيصر ، وردوا إليه الصليب الذي تزعم المصارى أن المسيح عليه السلام كان قد صلب عليه ، فكان قيصر قد جاء إلى إيلياء (بيت المقدس) سنة ٦٢٩ م (أى سنة ٧ هـ) يضع الصليب في موضعه ، ويشكر الله على هذا الفتح المبين .

الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظنه أنه منكم ، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه ، فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده ، وكثر اللفظ ، وأمر بنا فأخرجنا ، قال : فقلت لأصحابه حين أخرجنا ، لقد أمر أمر بن أبي كبشة ، إنه ليخافه ملك بنى الأصفر ، فما زلت موقناً بأمر رسول الله ﷺ أنه سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام . (١) .

هذا ما رآه أبو سفيان من أثر هذا الكتاب على قيصر ، وقد كان من أثره عليه أنه أجاز دحية بن خليفة الكلبي ، حامل كتاب الرسول ﷺ بمال وكسوة ، ولما كان دحية بحسمى في الطريق لقيه ناس من جذام ، فقطعوها عليه ، فلم يتركوا معه شيئاً ، فجاء رسول الله ﷺ قبل أن يدخل بيته ، فأخبره فبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة إلى حسمى ، وهى وراء وادى القرى فى خمس مائة رجل ، فشن زيد الغارة على جذام ، فقتل فيهم قتلاً ذريعاً ، استاق نعمهم ونساءهم ، فأخذ من النعم ألف بعير ، ومن الشاه خمسة آلاف ، والسبى مائة من النساء والصبيان .

وكان بين النبي ﷺ وبين قبيلة جذام موادة ، فأسرع زيد بن رفاعة الجذامى أحد زعماء هذه القبيلة بتقديم الاحتجاج إلى النبي ﷺ ، وكان قد أسلم هو ورجال من قومه ونصروا دحية حين قطع عليه الطريق فقبل النبي ﷺ احتجاجه وأمر برد الغنائم والسبى . وعامة أهل المغازى يذكرون هذه السرية قبل الحديبية ، وهو خطأ واضح ، فإن بعث الكتاب إلى قيصر كان بعد الحديبية ، ولذا قال ابن القيم : هذا بعد الحديبية بلا شك . (٢) .

٥ - الكتاب إلى المنذر بن ساوى :

وكتب النبي ﷺ إلى المنذر بن ساوى حاكم البحرين كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام بعث إليه العلاء بن الحضرمي بذلك الكتاب فكتب المنذر إلى رسول الله ﷺ أما بعد يا رسول الله ، فإننى قرأت كتابك على أهل البحرين ، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ، ودخل فيه ، ومنهم من كرهه ، وبأرضى مجوس ويهود ، فأحدث إلى فى ذلك أمرك ، فكتب إليه رسول الله ﷺ :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى سلام عليك ، فإننى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد فإننى

(١) صحيح البخارى ٤ / ١ ، صحيح مسلم ٢ / ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ .

(٢) انظر زاد المعاد ٢ / ١٢٢ ، وحاشية تلقيح فهرم أهل الأثر ص ٢٩ .

أذكرك الله عز وجل ، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه وإنه من يطع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى ، ومن نصح لهم فقد نصح لى ، وإن رسلى قد أثنوا عليك خيرا ، وإنى قد شفعتك فى قومك ، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب ، فاقبل منهم ، وإنك مهما تصالح فلم تغزلك عن عملك ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية» (١) .

٦ - الكتاب إلى هوزة بن على صاحب اليمامة :

وكتب النبى ﷺ إلى هوزة بن على صاحب اليمامة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هوزة بن على ، سلام على من اتبع الهدى ، واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر فأسلم تسلم ، وأجعل لك ما تحت يديك » .

واختار لحمل هذا الكتاب سليط بن عمرو العامرى ، فلما قدم سليط على هوزة بهذا الكتاب مختوما أنزله ، وحياه ، وقرأ عليه ، فرد عليه ردا دون رد ، وكتب إلى النبى ﷺ : ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله ، والعرب تهاب مكائى ، فأجعل لى بعض الأمر اتبعك ، وأجاز سليطا بجائزة ، وكساه أثوابا من نسج هجر ، فقدم بذلك كله على النبى ﷺ فأخبره ، وقرأ النبى ﷺ كتابه فقال : لو سألتنى قطعة من الأرض ما فعلت ، باد ، وباد ما فى يديه فلما انصرف رسول الله ﷺ - من الفتح جاءه جبريل عليه السلام بأن هوزة مات ، فقال النبى ﷺ : أما إن اليمامة سيخرج بها كذاب يتنبى ، يقتل بعدى ، فقال قائل : يا رسول الله من يقتله ؟ فقال : أنت وأصحابك ، فكان ذلك . (٢) .

٧ - الكتاب إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى صاحب دمشق :

كتب إليه النبى ﷺ : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبى شمر ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن به وصدق ، وإنى أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له ، يبقى لك ملكك » .

واختار لحمل هذا الكتاب شجاع بن وهب من بنى أسد بن خزيمه ، ولما أبلغه الكتاب قال : من ينزع ملكى منى ؟ أنا سائر إليه ، ولم يسلم (٣) .

٨ - الكتاب إلى ملك عمان :

وكتب النبى ﷺ كتابا إلى ملك عمان جيفر وأخيه عبد ابنى الجلندى ، ونصه : « بسم

(١) زاد المعاد ٣ / ٦١ ، ٦٢ ، والنص الذى أورده الدكتور حميد الله آخذا من صورة الكتاب الذى عشر عليه فى الماضى القريب يختلف فى كلمة واحدة ، ففيه « لا إله غيره » بدل قوله : « لا إله إلا هو » .

(٢) زاد المعاد ٣ / ٦٣ (٣) نفس المصدر ٣ / ٦٢ ، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١ / ١٤٦ .

الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن عبد الله إلى جعفر وعبد ابني الجلندي ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإن أدعوكما بدعاية الإسلام ، أسلما تسلما ، فإنني رسول الله (ﷺ) إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، فأنكحكما أن أقرركما بالإسلام وليتكما ، وإن أبيتما أن تقررا بالإسلام فإن ملككما زائل ، وخيل تحمل بساحتكما ، وتظهر نبوتى على ملككما .

واختار لحمل هذا الكتاب عمرو بن العاص رضى الله عنه ، قال عمرو : فخرجت حتى انتهيت إلى عمان ، فلما قدمتها عمدت إلى عبد - وكان أحلم الرجلين ، وأسهلهما خلقا - فقلت : إني رسول رسول الله ﷺ إليك وإلى أخيك . فقال : أخى المقدم على بالسن والملك ، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك ، ثم قال : وما تدعو إليه ؟ قلت : أدعوا إلى الله وحده لا شريك له ، وتخلع ما عبد من دونه ، وتشهد أن محمدا عبده ورسوله . قال : يا عمرو ، إنك ابن سيد قومك ، فكيف صنع أبوك ؟ فإن لنا فيه قدوة . قلت : مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ ، ووددت أنه كان أسلم وصدق به ، وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هداني الله للإسلام . قال : فمتى تبعته ؟ قلت : قريبا فسألني أين كان إسلامك ؟ قلت : عند النجاشي ، وأخبرته أن النجاشي قد أسلم ، قال : وكيف صنع قومه بملكه ، فقلت أقروه واتبعوه . قال : والأساقفة والرهبان تبعوه ؟ قلت : نعم . قال : انظر يا عمرو ما تقول ، إنه ليس من خصلة في رجل أفضح له من الكذب . قلت : ما كذبت ، وما نستحله في ديننا ، ثم قال : ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشي قلت : بلى قال : فبأي شيء علمت ذلك ؟ قلت : كان النجاشي يخرج له خرجا ، فلما أسلم وصدق بمحمد ﷺ ، قال : لا والله لو سألتني درهما واحدا ما أعطيته ، فبلغ هرقل قوله فقال له النياق أخوه : أتدع عبدك لا يخرج لك خرجا ، ويدين بدين غيرك دينا محدثا ؟ قال هرقل : رجل رغب في دين ، فاختره لنفسه ، ما أصنع به ؟ والله لو لا الضن بملكى لصنعت كما صنع . قال : انظر ما تقول يا عمرو ؟ قلت : والله صدقتك قال عبد : فأخبرني ما يأمر به وينهى عنه ؟ قلت : يأمر بطاعة الله عز وجل ، وينهى عن معصيته ، ويأمر بالبر وصلة الرحم ، وينهى عن الظلم والعدوان ، وعن الزنا ، وعن الخمر ، وعن عبادة الحجر ، والنوثن والصليب ، قال : ما أحسن هذا الذي يدعو إليه ، لو كان أخى يتابعنى عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد ﷺ ونصدق به ، ولكن أخى أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنباً . قلت : إنه إن أسلم ملكه رسول الله ﷺ على قومه . فأخذ الصدقة من غنيهم فبردها على فقيرهم ، قال إن هذا لخلق حسن ، وما الصدقة ؟ فأخبرته بما فرض رسول ﷺ في الصدقات في الأموال حتى انتهيت إلى الإبل . قال : يا عمرو ، ويؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعى الشجر وترد المياه ؟ فقلت : نعم ، فقال : والله ما أرى قومي في بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون لهذا . قال : فمكثت ببابه أياما ، وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبرى ، ثم إنه دعاني يوما فدخلت

عليه ، فأخذ أعوانه بضبعي^١ ، فقال : دعوه ، فأرسلت ، فذهبت لأجلس ، فأبوا أن يدعوني أجلس ، فنظرت إليه فقال تكلم بحاجتك ، فدفعت إليه الكتاب مختوما ، ففرض خاتمه ، وقرأ حتى انتهى إلى آخره ، ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته ، إلا تبعوه ، إما راغب في الدين ، وإما مقهور بالسيف . قال : ومن معه ؟ قلت الناس قد رغبوا في الإسلام واختاروه على غيره ، وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أفهم كانوا في ضلال ، فما أعلم أحدا بقي غيرك في هذه الخرجة ، وأنت إن لم تسلم اليوم وتبعته توطئك الخيل وتبيد خضراءك ، فأسلم تسلم ، ويستعملك على قومك ، لا تدخل عليك الخيل والرجال قال : دعني يومي هذا ، وارجع إلى غدا .

فرجعت إلى أخيه فقال : يا عمرو ، إنى لأرجو أن يسلم إن لم يضمن بملكه . حتى إذا كان الغد أتيت إليه ، فأبى أن يأذن لى ، فانصرفت إلى أخيه ، فأخبرته أنى لم أصل إليه ، فأوصلنى إليه فقال : إنى فكرت فيما دعوتنى إليه ، فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلا ما فى يدى ، وهو لا تبلغ خيله ههنا ، وإن بلغت خيله لقت قتالا ليس كقتال من لاقى . قلت : أنا خارج غدا ، فلما أيقن بمخرجى خلا به أخوه ، فقال : ما نحن فيما ظهر عليه ، وكل من أرسل إليه قد أجابه ، فأصبح فأرسل إلى ، فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعا ، وصدقا النبي ﷺ ، وخليا بينى وبين الصدقة ، وبين الحكم فيما بينهم ، وكانا لى عوننا على من خالفنى (١) .

وسياق هذه القصة تدل على أن إرسال الكتاب إليهما تأخر كثيرا عن كتب بقية الملوك ، والأغلب أنه كان بعد الفتح . وبهذه الكتب كان ﷺ قد أبلغ دعوته إلى أكثر ملوك الأرض .

فمنهم من آمن به ومنهم من كفر ، ولكن شغل فكرة هؤلاء الكافرين ، وعرف لديهم باسمه ودينه .

النشاط العسكرى بعد صلح الحديبية

غزوة الغابة أو غزوة ذى قرد

هذه الغزوة حركة مطاردة ضد فصيلة من بنى فزارة قامت بعمل القرصنة فى لقاء رسول الله ﷺ .

وهى أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ بعد الحديبية ، وقبل خيبر . ذكر البخارى فى ترجمة باب أنها كانت قبل خيبر بثلاث ، ورى ذلك مسلم مسندا من حديث سلمة بن

(١) زاد المعاد ٣ / ٦٢ ، ٦٣ .

الأكوع . وذكر الجمهور من أهل المغازي أنها كانت قبل الحديبية وما في الصحيح أصح مما ذكره أهل المغازي (١) .

وخلاصة الروايات عن سلمة بن الأكوع بطل هذه الغزوة أنه قال : بعث رسول الله ﷺ بظهره مع غلامه رباح ، وأنا معه بفرس أبي طلحة ، فلما أصبحنا إذا عبد الرحمن الفزاري قد أغار على الظهر ، فاستاقه أجمع ، وقتل راعييه ، فقلت : يا رباح خذ هذا الفرس فأبلغه طلحة ، وأخبر رسول الله ﷺ . ثم قمت على أكمة ، واستقبلت المدينة ، فناديت ثلاثا : يا صباحاه ، ثم خرجت في آثار القوم أرميهم بالنبل وأرتجز ، أقول :

أنا ابن الأكوع واليوم يوم الرضع .

فو الله ما زلت أرميهم وأعقر بهم ، فإذا رجع إلى فارس جلست في أصل الشجرة ، ثم رميته فتعفرت به حتى إذا دخلوا في تضاييق الجبل علوته ، فجعلت أرميهم بالحجارة ، فما زلت كذلك أتبعهم حتى ما خلق الله تعالى من بعير من ظهر رسول الله ﷺ إلا خلفته وراء ظهري ، وخلوا بيني وبينه ، ثم اتبعتهم أرميهم حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بردة ، وثلاثين رمحا يستخفون ، ولا يطرحدون شيئا إلا جعلت عليه آrama من الحجارة ، يعرفها رسول الله ﷺ وأصحابه . حتى أتوا متضايقا من ثنية فجلسوا يتغدون ، وجلست على رأس قرن ، فصعد إلى منهم أربعة في الجبل ، قلت : هل تعرفونني ؟ أنا سلمة بن الأكوع ، لا أطلب رجلا منكم إلا أدركته ، ولا يطلبني فيدركني ، فرجعوا . فما برحت مكاني حتى رأيت فوارس رسول الله ﷺ يتخللون الشجر . فإذا أولهم أحرمتهم ، وعلى أثره أبو قتادة ، وعلى أثره المقداد بن الأسود ، فالتقى عبد الرحمن وأفرم ، فعقر بعبد الرحمن فرسه ، وطعنه عبد الرحمن فقتله ، تحول على فرسه ولحق قتادة بعبد الرحمن فطعنه فقتله ، وولى القوم مدبرين ، تتبعهم ، أعدو على رجلى ، حتى يعدلوا قبل غروب الشمس إلى شعب فيه ماء يقال له ذا قرد ، ليشربوا منه ، وهم عطاش ، فأجليتهم عنه ، فما ذاقوا قطرة منه ، ولحقني رسول الله ﷺ والخييل عشاء ، فقلت : يا رسول الله إن القوم عطاش ، فلو بعثتني في مائة رجل استنقذت ما عندهم من السر ، وأخذت بأعناق القوم ، فقال : يا ابن الأكوع . ملكت فأسجح (٢) ثم قال : إنهم ليقررون الآن في غطفان .

وقال رسول الله ﷺ : خير فرساننا اليوم أبو قتادة ، وخير رجالتنا سلمة . وأعطاني سهمين ، سهم الراجل وسهم الفارس ، وأردفني وراءه على العضباء راجعين إلى المدينة . اشتعمل رسوله الله على المدينة في هذه الغزوة ابن أم مكتوم ، وعقد اللواء للمقداد بن عمرو . (٣) .

(١) انظر صحيح البخاري باب غزوة ذات قرد ٢ / ٦٠٣ ، وصحيح مسلم باب غزوة ذي قرد وغيرها ٢ / ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، وفتح الباري ٧ / ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٣ ، وزاد المعاد ٢ / ١٢٠ .

(٢) أسجح : أى سهل والمعنى قدرت فاعف . (٣) انظر المصدرين السابقين ، وزاد المعاد ٢ / ١٢٠ .

(غزوة خيبر ووادي القرى)

(في المحرم سنة ٧ هـ)

كانت خيبر مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع على بعد ستين أو ثمانين ميلا من المدينة في جهة الشمال ، وهي الآن قرية في مناخها بعض الوخامة .

سبب الغزوة :

ولما اطمأن رسول الله ﷺ من أقوى أجنحة الأحزاب الثلاثة ، وأمن منه أمنا باتا بعد الهدنة أراد أن يحاسب الجناحين الباقيين - اليهود وقبائل نجد - حتى يتم الأمن والسلام ، ويسود الهدوء في المنطقة ، ويفرغ المسلمون من الصراع الدامي المتواصل إلى تبليغ رسالة الله والدعوة إليه .

ولما كانت خيبر هي وكر الدس والتآمر ، ومركز الاستفزازات العسكرية ومعدن التحرشات وإثارة الحروب ، كانت هي الجديرة بالتفات المسلمين أولا .

أما كون خيبر بهذه الصفة ، فلا ننسى أن أهل خيبر هم الذين حاربوا الأحزاب ضد المسلمين ، وأثاروا بنى قريظة على الغدر والخيانة ، ثم أخذوا في الاتصالات بالمنافقين - الطابور الخامس في المجتمع الإسلامي - وبغطفان وأعراب البادية - الجناح الثالث من الأحزاب - وكانوا هم أنفسهم يهيشون للقتال ، فألقوا المسلمين بإجرائاتهم هذه في محن متواصلة ، حتى وضعوا خطة لاغتيال النبي ﷺ وإزاء ذلك اضطر المسلمون إلى بعوث متوالية ، وإلى الفتك برأس هؤلاء المتآمرين ، مثل سلام بن أبي الحقيق ، وأسير بن زارم ، ولكن الواجب على المسلمين إزاء هؤلاء اليهود كان أكبر من ذلك . وإنما أبطأوا في القيام بهذا الواجب ؛ لأن قوة أكبر وأقوى وألد وأعند منهم - وهي قريش - كانت مجابهة للمسلمين ، فلما انتهت هذه المجابهة صفا الجو لمحاسبة هؤلاء المجرمين ، واقترب لهم يوم الحساب .

الخروج إلى خيبر :

قال ابن إسحاق : أقام رسول الله ﷺ بالمدينة حين رجع من الحديبية ذا الحجة وبعض المحرم ، ثم خرج في بقية المحرم إلى خيبر .

قال المفسرون : إن خيبر كانت وعدا وعدها الله تعالى بقوله : ﴿ وعدكم الله مغنام كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه ﴾ (٢٠:٤٨) يعني صلح الحديبية ، وبالمغنام الكثير خيبر

عدد الجيش الإسلامى :

ولما كان المنافقون وضعفاء الإيمان تخلفوا عن رسول الله ﷺ فى غزوة الحديبية ، أمر الله تعالى نبيه ﷺ فيهم قائلا : ﴿ سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا تتبعكم ، يريدون أن يسدلوا كلام الله ، قل لن تتبعوننا ، كذلك قال الله من قبل ، فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا ﴾ (٤٨ : ١٥) .

فلما أراد رسول الله ﷺ الخروج إلى خيبر ، وأعلن أن لا يخرج معه إلا راغب فى الجهاد ، فلم يخرج إلا أصحاب الشجرة وهم ألف وأربعمائة .

واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى ، وقال ابن إسحاق : فميلة بن عبد الله الليثى ، والأول أصبح عند المحققين . (١) .

وحيث قدم أبو هريرة المدينة مسلما ، فوافى سباع بن عرفطة فى صلاة الصبح فلما فرغ من صلاته أتى سباعا فزوده ، حتى قدم على رسول الله ﷺ وكلم المسلمين فأشركوه وأصحابه فى سهماتهم .

اتصال المنافقين باليهود :

وقد قام المنافقون يعملون لليهود ، فقد أرسل رأس المنافقين عبد الله بن أبى إلى يهود خيبر : أن محمدا قصد قصدكم وتوجه إليكم ، فخذوا حذركم ، ولا تخافوا منه ، فإن عددكم وعدتكم كثيرة ، وقوم محمد شرذمة قليلون ، عزل لا سلاح معهم إلا قليل . فلما علم ذلك أهل خيبر ، أرسلوا كنانة بن أبى الحقيق وهوذة بن قيس إلى غطفان . يستمدونهم ؛ لأنهم كانوا حلفاء يهود خيبر ، ومظاهرين لهم على المسلمين . وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر إن هم غلبوا على المسلمين .

الطريق إلى خيبر :

وسلك رسول الله ﷺ فى اتجاهه نحو خيبر جبل عسبر (بالكسر وقيل بالتحريك) ثم على الصهباء ، ثم نزل على واد يقال له الرجيع ، وكان بينه وبين غطفان مسيرة يوم وليلة ، فتهيأت غطفان وتوجهوا إلى خيبر ، لإمداد اليهود ، فلما كانوا ببعض الطريق سمعوا من خلفهم حسا ولغطا ، فظنوا أن المسلمين أغاروا على أهاليهم وأموالهم فراجعوا ، وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر .

ثم دعا رسول الله ﷺ الدليلين اللذين كانا يسلكان بالجيش - وكان اسم أحدهما حسيل - ليدلاهما على الطريق الأحسن ، حتى يدخل خيبر من جهة الشمال - أى جهة الشام

(١) انظر فتح البارى ٧ / ٤٦٥ ، زاد المعاد ٢ / ١٣٣ .

- فيحول بين اليهود وبين طريق فرارهم إلى الشام كما يحول بينهم وبين غطفان .

قال أحدهما : أنا أدلك يا رسول الله - ﷺ - فأقبل حتى انتهى إلى مفرق الطرق المتعددة وقال : يا رسول الله هذه طرق يمكن الوصول من كل منها إلى المقصد ، فأمر أن يسميها له واحدا واحدا . قال : اسم واحد منها حزن فأبى النبي من سلوكه ، وقال : اسم الآخر شاش ، فامتنع منه أيضاً وقال : اسم آخر حاطب . فامتنع منه أيضاً ، وقال حسيل : فما بقي إلا واحدا قال عمر : ما اسمه قال : مرحب ، فاختر النبي ﷺ سلوكه .

بعض ما وقع في الطريق :

١ - عن سلمة بن الأكوع قال : خرجنا مع النبي ﷺ إلى خيبر فسرنا ليلاً ، فقال ، رجل من القوم لعامر : يا عامر ألم تسمعنا من هنياتك ؟ - وكان عامر رجلاً شاعراً - فنزل يحدو بالقوم . يقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فاغفر فداء لك ما اتقيننا وثبت الأقدام إن لاقينا

والتين سيكنة علينا إنا إذا صيح بنا أيينا

وبالصياح عولوا علينا

فقال رسول الله ﷺ : من هذا السائق ؟ قالوا : عامر بن الأكوع . قال : يرحمه الله . قال رجل من القوم : وجبت يا نبي الله ، لولا أمتعتنا به . (١) .

وكانوا يعرفون أن رسول الله ﷺ لا يستغفر لإنسان يخصه إلا استشهد (٢) ، وقد وقع في حرب خيبر .

٢ - وفي الطريق أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير « الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله » فقال رسول الله ﷺ : أربعوا على أنفسكم ، إنكم لا تدعون أصماً ولا غائباً ، إنكم تدعون سمعياً قريباً (٣) .

٣ - وبالصهباء من أدنى خيبر صلى العصر ، ثم دعى بالأزواد ، فلم يؤت إلا بالسويق فأمر به فثرى ، فأكل وأكل الناس ، ثم قام إلى المغرب ، فمضمض ، ومضمض الناس . ثم صلى ولم يتوضأ (٤) ، ثم صلى العشاء (٥) .

(١) صحيح البخارى باب غزوة خيبر ٢ / ٦٠٣ ، وصحيح مسلم باب غزوة ذي قرد وغيرها ٢ / ١١٥ .

(٢) صحيح البخارى ٢ / ٦٠٥

(٣) نفس المصدر الأخير .

(٤) مغازى الواقدي (غزوة خيبر ص ١١٢)

(٥) نفس المصدر ٢ / ٦٠٣

الجيش الإسلامى إلى أسوار خيبر :

بات المسلمون الليلة الأخيرة التى بدأ فى صباحها القتال قريبا من خيبر ، ولا تشعر بهم اليهود ، وكان النبى ﷺ إذا أتى قوما بليل لم يقربهم حتى يصبح ، فلما أصبح صلى الفجر بغلس ، وركب المسلمون ، فخرج أهل خيبر بمساحيهم ومكاتلهم ، ولا يشعرون ، بل خرجوا لأرضهم ، فلما رأوا الجيش قالوا : محمد ، والله محمد والخميس ، ثم رجعوا هارين إلى مدينتهم ، فقال النبى ﷺ : الله أكبر ، خربت خيبر ، الله أكبر خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين (١).

وكان النبى ﷺ اختار لمعسكره منزلا ، فأتاه حباب بن المنذر فقال : يا رسول الله رأيت هذا المنزل أنزلكه الله ، أم هو الرأى فى الحرب ؟ قال بل هو الرأى ، فقال : يا رسول الله إن هذا المنزل قريب جدا من حصن نطاة ، وجميع مقاتلى خيبر فيها ، وهم يدرون أحوالنا ، ونحن لا ندرى أحوالهم ، وسهامهم تصل إلينا ، وسهامنا لا تصل إليهم ، ولا نأمن من بياتهم ، وأيضا هذا بين النخلات ، ومكان غائر ، وأرض وخيمة ، لو أمرت بمكان خال عن هذه المفاسد نتخذ معسكرا . قال ﷺ : الرأى ما أشرت ، ثم تحول إلى مكان آخر .

ولما دنا من خيبر وأشرف عليها قال : قفوا ، فوقف الجيش فقال : اللهم رب السماوات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين السبع وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، فإننا لنسألك خير هذه القرية ، وخير أهلها ، وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شر هذه القرية ، وشر أهلها ، وشر ما فيها ، وأقدموا بسم الله (٢).

التهيؤ للقتال وحصون خيبر :

ولما كانت ليلة الدخول قال : لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ ، وكلهم يرجو أن يعطاها فقال : أين على بن أبى طالب ، فقالوا : يا رسول الله هو يشتكى عينيه (٣) . قال : فأرسلوا إليه ، فأتى به ، فبصق رسول الله ﷺ فى عينيه ودعا له فبرئ ، كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية ، فقال : يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا . قال : انفذ على رسلك ، حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم (٤) .

(١) صحيح البخارى باب غزوة خيبر ٢ / ٦٠٣ ، ٦٠٤ . (٢) ابن هشام ٢ / ٣٢٩ .

(٣) وكان لأجل هذه الشكوى تخلف فى أول المسير ، ثم لحق بالجيش .

(٤) صحيح البخارى باب غزوة خيبر ٢ / ٥٠٥ ، ٦٠٦ ، ويؤخذ من بعض الروايات أن إعطاء الراية لعلى كان بعد

فشل عدة محاولات لفتح حصن من حصونهم . والراجع عند المحققين هو ما ذكرنا .

وكانت خيبر منقسمة إلى شطرين ، شطر فيها خمسة حصون :

- ١ - حصن ناعم
- ٢ - حصن الصعب بن معاذ ٣ - حصن قلعة الزبير
- ٤ - حصن أبي
- ٥ - حصن النزار

والحصون الثلاثة الأولى تقع في منطقة يقال لها (النطاة) ، وأما الحصنان الآخران فيقعان في منطقة تسمى بالشق .

أما الشطر الثاني ويعرف بالكتيبة ، ففيه ثلاثة حصون فقط :

- ١ - حصن القموص (كان حصن بني أبي الحقيق من بني النضير) .

- ٢ - حصن الوطيح .
- ٣ - حصن السلالم .

وفي خيبر حصون وقلاع غير هذه الثمانية ، إلا أنها كانت صغيرة لا تبلغ إلى درجة هذه القلاع في مناعتها وقوتها .

والقتال المرير إنما دار في الشطر الأول منها ، أما الشطر الثاني فحصونها الثلاثة مع كثرة المحاربين فيها سلمت دونما قتال .

بدء المعركة وفتح حصن ناعم :

وأول حصن هاجمه المسلمون من هذه الحصون الثمانية هو حصن ناعم ، وكان خط الدفاع الأول لليهود لمكانه الاستراتيجي ، وكان هذا الحصن هو حصن مرحب البطل اليهودي الذي كان يعد بالآلف .

خرج علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالمسلمين إلى هذا الحصن ، ودعا اليهود إلى الإسلام ، فرفضوا هذه الدعوة ، وبرزوا إلى المسلمين ومعهم ملكهم مرحب ، فلما خرج إلى ميدان القتال دعا إلى مبارزة . قال سلمة بن الأكوع : فلما أتينا خيبر خرج ملكهم مرحب يخطر بسيفه يقول :

قد علمت خيبر أني مرحب شاكي السلاح بطل مجرب

إذا الحروب أقبلت تلهب

فبرز له عمى عامر فقال :

قد علمت خيبر أني عامر شاكي السلاح بطل مغامر

فاختلفا ضربتین ، فوقع سيف مرحب في ترس عمى عامر ، وذهب عامر يسفل له ، وكان سيفه قصيرا ، فتناول به ساق يهودي ليضربه ، فیرجع ذابا سيفه ، فأصاب عين ركبته

فمات منه ، وقال فيه النبي ﷺ : إن له لأجرين وجمع بين إصابه ، إنه لجاهد مجاهد قل
عربي مشى بها مثله (١) .

ويبدو أن مرحبا دعا بعد ذلك إلى البراز مرة أخرى ، وجعل يرتجز بقوله : قد علمت
خبير أنى مرحب .. إلخ ، فبرز له على بن أبي طالب ، قال سلمة بن الأكوع : فقال على :

أنا الذى سمتنى أمى حيدرہ کلیث غابات كریه المنظره

أوفیهم بالصاغ کیل السندرة

فضرب رأس مرحب فقتله ، ثم كان الفتح على يديه (٢) .

ولما دنا على رضى الله عنه من حصونهم اطلع يهودى من رأس الحصن ، وقال : من
أنت ، فقال : أنا على بن أبى طالب ، فقال اليهودى : علوتم وما أنزل على موسى .

ثم خرج ياسر أخو مرحب وهو ، يقول : من يبارز ؟ فبرز إليه الزبير ، فقالت صفية
أمه : يا رسول الله ، يقتل ابنى ؟ قال : بل ابنك يقتله . فقتله الزبير .

ودار القتال المير حول حصن ناعم ، قتل فيه عدة سراة من اليهود ، انهارت لأجله
مقاومة اليهود ، وعجزوا عن صد هجوم المسلمين ، ويؤخذ من المصادر أن هذا القتال دام
أياما لاقى المسلمون فيها مقاومة شديدة ، إلا أن اليهود يثسوا من مقاومة المسلمين ، فتسللوا
من هذا الحصن إلى حصن الصعب ، واقتحم المسلمون حصن ناعم .

فتح حصن الصعب بن معاذ :

وكان حصن الصعب الحصن الثانى من حيث القوة والمناعة بعد حصن ناعم ، قام
المسلمون بالهجوم عليه تحت قيادة الحباب بن المنذر الأنصارى ، ففرضوا عليه الحصار ثلاثة
أيام ، وفى اليوم الثالث ، دعا رسول الله ﷺ لفتح هذا الحصن دعوة خاصة .

وروى ابن إسحاق : أن بنى سهم من أسلم أتوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : لقد جهدنا
وما بأيدينا من شىء ، فقال : اللهم إنك قد عرفت حالهم ، وأن ليست بهم قوة ، وأن ليس
بيدى شىء أعطيهم إياه ، فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غناء ، وأكثرها طعاما وودكا .
فغدا الناس ففتح الله عز وجل حصن الصعب بن معاذ ، وما بخير حصن كان أكثر طعاما
وودكا منه (١) .

(١) صحيح مسلم باب غزوة خيبر ١٢٢/٢ ، باب غزوة ذى قرد وغيرها ١١٥/٢ ، صحيح البخارى باب غزوة
خيبر ٦٠٣/٢ (٢) بين المصادر اختلاف كبير فى الرجل الذى قتل مرحبا وفى اليوم الذى قتل فيه ، وفتح هذا
الحصن ، وبعض هذا الاختلاف موجود فى سياق روايات الصحيحين أيضا ، وهذا الترتيب أخذناه بعد ترجيح
سياق رواية البخارى . (٢) ابن هشام ملخصا ٣٣٢/٢ والودك : دسم اللحم

ولما ندب النبي ﷺ المسلمين بعد دعائه لمهاجمة هذا الحصن كان بنو أسلم هم المقاديم في المهاجمة ، ودار البراز والقتال أمام الحصن . ثم فتح الحصن في ذلك اليوم قبل أن تغرب الشمس ، ووجد فيه المسلمون بعض المنجنيقات والدبابات .

ولأجل هذه المجاعة الشديدة التي ورد ذكرها في رواية ابن إسحاق كان رجال من الجيش قد ذبحوا الحمير ، ونصبوا القدور على النيران ، فلما علم رسول الله ﷺ بذلك نهى عن لحوم الحمير الإنسية .

فتح قلعة الزبير :

وبعد فتح حصن ناعم والصعب تحول اليهود من كل حصون النطا إلى قلعة الزبير ، وهو حصن منيع في رأس قلة ، لا تقدر عليه الخيل ، والرجال لصعوبته وامتناعه ، وفرض عليه رسول الله ﷺ الحصار ، وأقام محاصرا ثلاثة أيام لهم فجاء رجل من اليهود وقال : يا أبا القاسم إنك لو أقمت شهرا مابالوا ، إن لهم شرابا وعيوننا تحت الأرض ، يخرجون بالليل ويشربون منها ، ثم يرجعون إلى قلعته فيمتنعون منك ، فإن قطعت مشربهم عليهم أسحروا لك . فقطع ماءهم عليهم ، فخرجوا فقاتلوا أشد القتال ، قتل فيه نفر من المسلمين ، وأصيب نحو العشرة من اليهود ، وافتتحه رسول الله ﷺ .

فتح قلعة أبي :

وبعد فتح قلعة الزبير انتقل اليهود إلى قلعة أبي وتحصنوا فيه ، وفرض المسلمون عليهم الحصار وقام بطلان من اليهود واحد بعد الآخر بطلب المبارزة ، وقد قتلها أبطال المسلمين ، وكان الذي قتل المبارز الثاني هو البطل المشهور أبو دجانة سماك بن خرشة الأنصاري صاحب العصاة الحمراء ، وقد أسرع أبو دجانة بعد قتله إلى اقتحام القلعة ، واقتحم معه الجيش الإسلامي ، وجرى قتال مرير ساعة داخل الحصن ، ثم تسلل اليهود من القلعة ، وتحولوا إلى حصن النزار آخر حصن في الشطر الأول .

فتح حصن النزار :

كان هذا الحصن أمنع حصون هذا الشطر ، وكان اليهود على شبه اليقين بأن المسلمين لا يستطيعون اقتحام هذه القلعة ، وإن بذلوا قصارى جهدهم في هذا السبيل ، ولذلك أقاموا في هذه القلعة مع الذراري والنساء ، بينما كانوا قد أخذوا منها القبلع الأربعة السابقة .

وفرض المسلمون على هذا الحصن أشد الحصار وصاروا يضغطون عليهم بعنف ، ولكون الحصن يقع على جبل مرتفع منيع لم يكونوا يجدون سبيلا للاقتحام فيه ، أما اليهود

فلم يجترئوا للخروج من الحصن ، للاشتباك مع قوات المسلمين ، ولكنهم قاوموا المسلمين مقاومة عنيدة برشق النبال ، وبإلقاء الحجارة .

وعندما استعصى حصن النزار على قوات المسلمين ، أمر النبي ﷺ بنصب آلات المنجنيق ، ويبدو أن المسلمين قذفوا بها القذائف ، فأوقعوا الخلل في جدران الحصن ، واقتحموه ، ودار قتال مرير في داخل الحصن ، انهزم أمامه اليهود هزيمة منكرة ، وذلك لأنهم لم يتمكنوا من التسلل من هذا الحصن كما تسللوا من الحصون الأخرى بل فروا من هذا الحصن تاركين للمسلمين نساءهم وذرايرهم .

وبعد فتح هذا الحصن المنيع تم فتح الشطر الأول من خيبر ، وهى ناحية النطاة والشق ، وكانت فى هذه الناحية حصون صغيرة أخرى إلا أن اليهود بمجرد فتح هذا الحصن المنيع أدخلوا هذه الحصون ، وهربوا إلى الشطر الثانى من بلدة خيبر .

فتح الشطر الثانى من خيبر :

ولما فتح ناحية النطاة والشق ، تحول رسول الله ﷺ إلى أهل الكتيبة والوطيح والسالام حصن أبى الحقيق من بنى النضير ، وجاءهم كل فل كان انهزم من النطاة والشق ، وتحصن هؤلاء أشد التحصن .

واختلف أهل المغازى هل جرى هناك قتال فى أى حصن من حصونها الثلاثة أم لا ؟ فسياق ابن إسحاق صريح فى جريان القتال لفتح حصن القموص . بل يؤخذ من سياقه أن هذا الحصن تم فتحه بالقتال فقط من غير أن يجرى هناك مفاوضة للاستسلام . (١) .

وأما الواقدي ، فيصرح تمام التصريح أن قلاع هذا الشطر الثلاثة إنما أخذت بعد المفاوضة ، ويمكن أن تكون المفاوضة قد جرت لاستلام حصن القموص بعد إدارة القتال . وأما الحصنان الآخران فقد سلما إلى المسلمين دونما قتال .

ومهما كان فلما أتى رسول الله ﷺ إلى هذه الناحية - الكتيبة - فرض على أهلها أشد الحصار ، ودام الحصار أربعة عشر يوما ، واليهود لا يخرجون من حصونهم ، حتى هم رسول الله ﷺ أن ينصب عليهم المنجنيق فلما أيقنوا بالهلكة سألوا رسول الله ﷺ الصلح .

المفاوضة :

وأرسل ابن أبى الحقيق إلى رسول الله ﷺ : انزل فأكلمك ؟ قال : نعم فنزل ، وصالح على حقن دماء من فى حصونهم من المقاتلة ، وترك الذرية لهم ، ويخرجون من خيبر وأرضها بذرايرهم ، ويخلون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من مال وأرض وعلى

(١) ابن هشام ٢ / ٣٣١ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧

الصفراء والبيضاء - أى الذهب والفضة - والكراع والحلقة إلا ثوبا على ظهر إنسان (١) ، فقال رسول الله ﷺ : وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كنتم تمنون شيئا ، فصالحوه على ذلك (٢) .

وبعد هذه المصالحة تم تسليم الحصون إلى المسلمين ، وبذلك تم فتح خيبر .

قتل أبى الحقيق لنقض العهد :

وعلى رغم هذه المعاهدة غيب ابنا أبى الحقيق مالا كثيرا ، غيبا مسكافيه مال وحلى لحى بن أخطب كان احتمله معه إلى خيبر حين أجليت النضير .

قال ابن اسحاق : وأتى رسول الله ﷺ بكنانة بن الربيع ، وكان عنده كنز بنى النضير ، فسأله عنه ، فوجد أن يكون يعرف مكانه ، فأتى رجل من اليهود فقال إنى رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة . فقال : رسول الله ﷺ لكنانة : أرأيت إن وجدناه عندك أقتلك ؟ قال : نعم ! فأمر بالخربة فحفرت ، فأخرج منها بعض كنزهم ، ثم سأله عما بقى ، فأبى أن يؤديه . فدفعه إلى الزبير ، وقال : عذبه حتى تستأصل ما عنده ، فكان الزبير يقدح بزند فى صدره حتى أشرف على نفسه ، ثم دفعه رسول الله ﷺ إلى محمد بن سلمة ، فضرب عنقه بمحمود بن سلمة (وكان محمود قتل تحت جدار حصن ناعم ألقى عليه الرحي ، وهو يستظل بالجدار فمات) .

وذكر ابن القيم أن رسول الله ﷺ أمر بقتل ابني أبى الحقيق ، وكان الذى اعترف عليهما بإخفاء المال هو ابن عم كنانة .

وسبى رسول الله ﷺ صفية بنت حبي بن أخطب ، وكانت تحت كنانة بن أبى الحقيق ، وكانت عروسا حديثة عهد بالدخول .

قسمة الغنائم :

وأراد رسول الله ﷺ أن يجلى اليهود من خيبر ، فقالوا : يا محمد ، ودعنا نكون فى هذه الأرض نصلحها ، ونقوم عليها ، فنحن أعلم بها منكم ، ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها ، وكانوا لا يفرغون يقومون عليها فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع ، ومن كل ثمر ما بدا لرسول الله ﷺ أن يقرهم . وكان عبد الله بن رواحة يخز صه عليهم .

(١) ولكن صرح فى رواية أبى داود أنه عامد على أن المسلمين يسمحون لليهود عند جلائهم عن خيبر أن يأخذوا من الأموال ما حملت ركابهم (انظر سنن أبى داود ، باب ما جاء فى حكم أرض خيبر ٢ / ٧٦)

(٢) زاد المعاد ٢ / ١٣٦

وقسم أرض خيبر على ستة وثلاثين سهما ، وجمع كل سهم مائة سهم فكانت ثلاثة آلاف وستمائة سهم ، فكان لرسول الله ﷺ والمسلمين النصف من ذلك وهو ألف وثمانمائة سهم ، لرسول الله ﷺ سهم كسهم أحد المسلمين ، وعزل النصف الآخر وهو ألف وثمانمائة سهم ، سهم لنوابه وما يتنزل به من أمور المسلمين ، وإنما قسمت على ألف وثمانمئة سهم ، لأنها كانت طعمة من الله لأهل الحديبية من شهد منهم ومن غاب ، وكانوا ألفا وأربعمائة وكان معهم مائتا فرس ، لكل فرس سهمان ، فقسمت على ألف وثمانمائة سهم ، فصار للفارس ثلاثة أسهم ، وللراجل سهم واحد . (١) .

ويدل على كثرة مغانم خيبر ما رواه البخاري عن ابن عمر قال : ما شبعنا حتى فتحنا خيبر ، وما رواه عن عائشة قالت : لما فتحت خيبر قلنا : الآن نشبع من التمر (٢) . ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة رد المهاجرين إلى الأنصار منائحهم التي كانوا منحوهم إياها من النخيل حين صار لهم بخيبر مال ونخيل (٣) .

قدوم جعفر بن أبي طالب والأشعرين :

وفي هذه الغزوة قدم عليه ابن عمه جعفر بن أبي طالب وأصحابه ، ومعهم الأشعريون أبو موسى وأصحابه .

قال أبو موسى : بلغنا مخرج رسول الله ﷺ ونحن باليمن ، فخرجنا مهاجرين إليه - أنا وأخوان لي - فبضع وخمسين رجلا من قومي ، فركبنا سفينة ، فالتقنا سفينتنا إلى النجاشي بالحشة ، فوافقنا جعفرا وأصحابه عنده ، فقال : إن رسول الله ﷺ بعثنا وأمرنا بالإقامة ، فأقيموا معنا ، فأقمنا معه حتى قدمنا فوافقنا رسول الله ﷺ حين فتح خيبر ، فأسهم لنا ، وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر شيئا إلا لمن شهد معه ، إلا لأصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه ، قسم لهم معهم . (٤) .

ولما قدم جعفر على النبي ﷺ تلقاه وقبله ، وقال : الله ما أدرى بأيهما أفرح ؟ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر . (٥) .

وكان قدوم هؤلاء على أثر بعث الرسول ﷺ إلى النجاشي عمرو بن أمية الضمري يطلب توجيههم إليه ، فأرسلهم النجاشي على مركبين ، وكانوا ستة عشر رجلا ، معهم من بقي من نسائهم وأولادهم ، وبقيتهم جاءوا إلى المدينة قبل ذلك (٦) .

(١) زاد المعاد ١٣٧/٢ ، ١٣٨ . (٢) صحيح البخاري ٦٠٩/٢ . (٣) زاد المعاد ١٤٨/٢ ، صحيح مسلم ٩٦/٢ .

(٤) صحيح البخاري ٤٤٣/١ ، انظر أيضا فتح الباري فتح الباري ٧/٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ .

(٥) زاد المعاد ١٣٩/٢ . (٦) محاضرات الأمم الإسلامية للخضري ١/١٢٨ .

الزواج بصفية :

ذكرنا أن صفية جعلت في السبايا حين قتل زوجها كنانة بن أبي الحقيق لغدره، ولما جمع السبى جاء دحية بن خليفة الكلبي، فقال : يا نبي الله ، أعطني جارية من السبى . فقال : اذهب فخذ جارية ، فأخذ صفية بنت حبي ، فجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا نبي الله أعطيت دحية صفية بنت حبي سيدة قريظة وبنى النضير ، لا تصلح إلا لك ، وقال : ادعوه بها ، فجاء بها ، فلما نظر إليها النبي ﷺ قال : خذ جارية من السبى غيرها وعرض عليها النبي ﷺ الإسلام فأسلمت ، فأعتقها وتزوجها ، وجعل عتقها صداقها ، حتى إذا كان بسد الصهباء راجعا إلى المدينة حلت ، فجهزتها له أم سليم ، فأهدتها له من الليل ، فأصبح عروسا بها ، وأولم عليها بحيس من التمر والسمن والسويق ، وأقام عليها ثلاثة أيام في الطريق بينى بها . (١) .

ورأى بوجهها خضرة ، فقال ما هذا ؟ قالت : يا رسول الله ، رأيت قبل قدومك علينا كأن القمر زال من مكانه ، وسقط في حجرى ، ولا والله ما أذكر من شأنك شيئا ، فقصبتها على زوجى ، فلطم وجهى . فقال : تمنين هذا الملك الذى بالمدينة (٢) .

أمر الشاة المسمومة :

ولما اطمأن رسول الله ﷺ بخيبر بعد فتحها أهدت له زينب بنت الحارث ، - امرأة سلام بن مشكم - شاة مصلية ، وقد سألت أى عضو أحب إلى رسول الله ﷺ ؟ فقبل لها : الذراع ، فأكثر فيها من السم ، ثم سمت سائر الشاة ، ثم جاءت بها ، فلما وضعتها بين يدى رسول الله ﷺ تناول الذراع ، فلاك منها مضغة ، فلم يسفها ، ولفظها ، ثم قال : إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم . ثم دعا بها فاعترفت ، فقال : ما حملك على ذلك ؟ قالت : قلت : إن كان ملكا استرحت منه ، وإن كان نبيا فسيخبر ، فتجاوز عنها .

وكان معه بشر بن البراء بن معرور ، أخذ منها أكلة ، فأساغها ، فمات منها ، واختلفت الروايات فى التجاوز عن المرأة وقتلها ، وجمعوا أنه تجاوز عنها أولا ، فلما مات بشر قتلها قصاصا (٣) .

قتلى الفريقين فى معارك خيبر :

وجملة من استشهد من المسلمين فى معارك خيبر ستة عشر رجلا ، أربعة من قریش وواحد من أشجع ، وواحد من أسلم ، وواحد من أهل خيبر ، والباقون من الأنصار .

(١) صحيح البخارى ١ / ٥٤ ، ٢ / ٦٠٤ ، ٦٠٦ ، وزاد المعاد ٢ / ١٣٧ . (٢) نفس المصدر الأخير ، وابن هشام ٢ / ٣٣٦ . (٣) انظر زاد المعاد ٢ / ١٣٩ ، ١٤٠ ، فتح البارى ٧ / ٤٩٧ ، وأصل القصة مروية فى البخارى مطولا ومختصرا ، ١ / ٤٤٩ ، ٢ / ٦١٠ ، ٨٦٠ ، وفى ابن هشام ٢ / ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

ويقال : إن شهداء المسلمين في هذه المعارك ١٨ رجلا . وذكر العلامة المنصور فوري ١٩ رجلا ، ثم قال : إنني وجدت بعد التفحص ٢٣ اسما ، واحد منها في الطبري فقط ، وواحد عند الواقدي فقط ، وواحد مات لأجل أكل الشاة المسمومة ، وواحد اختلفوا هل قتل في بدر أو خيبر . والصحيح أنه قتل في بدر . (١)

أما قتلى اليهود فعدهم ثلاثة وتسعون قتيلا .

فدك :

ولما بلغ رسول الله ﷺ إلى خيبر ، بعث محيصة بن مسعود إلى يهود فدك ، ليدعوهم إلى الإسلام فأبطلوا عليه ، فلما فتح الله خيبر قذف الرعب في قلوبهم ، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصالحونه على النصف من فدك ، بمثل ما صالح عليه أهل خيبر ، فقبل ذلك منهم فكانت فدك لرسول الله ﷺ خالصة ، لأنه لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب (٢)

وادي القرى :

ولما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر ، انصرف إلى وادي القرى ، وكان بها جماعة من اليهود ، انضاف إليهم جماعة من العرب .

فلما نزلوا استقبلتهم يهود بالرمي وهم على تعبئة ، فقتل مدعم عبدا لرسول الله ﷺ ، فقال الناس : هنيئا له الجنة ، فقال النبي ﷺ : كلا . والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغنم ، لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه نارا . فلما سمع بذلك الناس جاء رجل إلى النبي ﷺ بشراك أو شراكين ، فقال النبي ﷺ : شراك من نار أو شراك من نار (٣) .

ثم عبأ رسول الله ﷺ أصحابه للقتال ، وصفهم ، ودفع لواءه إلى سعد بن عباد ، وراية إلى الحباب بن المنذر ، وراية إلى سهل بن حنيف ، وراية إلى عباد بن بشر ، ثم دعاهم إلى الإسلام فأبوا ، وبرز رجل منهم ، فبرز إليه الزبير بن العوام فقتله ، ثم برز آخر فقتله ، ثم برز آخر فبرز إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقتله ، حتى قتل منهم أحد عشر رجلا ، كلما قتل منهم رجل دعا من بقى إلى الإسلام .

وكانت الصلاة تحضر هذا اليوم ، فيصلي بأصحابه ، ثم يعود ، فيدعوهم إلى الإسلام وإلى الله ورسوله ، فقاتلهم حتى أمسوا ، وغدا عليهم ، فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا ما بأيديهم ، وفتحها عنوة ، وغنم الله أموالهم ، وأصابوا أثاثا ومتاعا كثيرا .

(٢) ابن هشام ٢ / ٣٣٧ ، ٣٥٣ .

(١) رحمة للعالمين ٢ / ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ .

(٣) صحيح البخاري ٢ / ٦٠٨ .

وأقام رسول الله ﷺ بوادى القرى أربعة أيام ، وقسم على أصحابه ما أصاب بها ، وترك الأرض والنخل بأيدي اليهود ، وعاملهم عليها (١) (كما عامل أهل خيبر) .
تيماء :

ولما بلغ يهود تيماء خبر استسلام أهل خيبر ثم فذك ووادى القرى لم يُدوا أى مقاومة ضد المسلمين ، بل بعثوا من تلقاء أنفسهم يعرضون الصلح ، فقبل ذلك منهم رسول الله ﷺ ، وأقاموا بأموالهم (٢) ، وكتب لهم بذلك كتابا ، وهاك نصه : هذا كتاب محمد رسول الله لبنى عاديا ، إن لهم الذمة ، وعليهم الجزية ولا عدا ولا جلاء ، الليل مد ، والنهار شد ، وكتب خالد بن سعيد (٣) .

العودة إلى المدينة :

ثم أخذ رسول الله ﷺ فى العودة إلى المدينة ، وفى مرجعه ذلك سار ليلة ثم نام فى آخر الليل ببعض الطريق ، وقال لبلال : اكأ لنا الليل فغلبت بلالا عيناه ، وهو مستند إلى راحلته ، فلم يستيقظ أحد ، حتى ضربتهم الشمس ، وأول من استيقظ بعد ذلك رسول الله ﷺ ، ثم خرج من ذلك الوادى ، وتقدم ، ثم صلى الفجر بالناس ، وقيل : إن هذه القصة فى غير هذا السفر . (٤) .

وبعد النظر فى تفصيل معارك خيبر يبدو أن رجوع النبى ﷺ كان فى أواخر صفر أو فى ربيع الأول سنة ٧ هـ .
سرية أبان بن سعيد :

كان النبى ﷺ يعرف أكثر من كل قائد عسكرى أن إخلاء المدينة تماما بعد انقضاء الأشهر الحرم ليس من الحزم قطعا ، بينما الأعراب ضاربة حولها تطلب غرة المسلمين للقيام بالنهب والسلب وأعمال القرصنة ، ولذلك أرسل سرية إلى نجد لإرهاب الأعراب ، تحت قيادة أبان بن سعيد بينما كان هو فى خيبر ، وقد رجع أبان بن سعيد بعد قضاء ما كان واجبا عليه ، فوافى النبى ﷺ بخيبر وقد افتتحها .

والأغلب أن هذه السرية كانت فى صفر سنة ٧ هـ ورد ذكر هذه السرية فى البخارى (٥) . قال ابن حجر : لم أعرف حال هذه السرية (٦) .

(١) زاد المعاد ٢ / ١٤٦ ، ١٤٧ . (٢) نفس المصدر ٢ / ١٤٧ . (٣) ابن سعد .

(٤) ابن هشام ٢ / ٣٤٠ ، والقصة معروفة مروية فى عامة كتب الحديث : وانظر زاد المعاد ٢ / ١٤٧ .

(٥) انظر صحيح البخارى باب غزوة خيبر ٢ / ٦٠٨ ، ٦٠٩ . (٦) فتح البارى ٧ / ٤٩١ .

بقية السرايا والغزوات في السنة السابعة

غزوة ذات الرقاع :

ولما فرغ رسول الله ﷺ من كسر جناحين قوين من أجنحة الأحزاب الثلاثة ؛ تفرغ تماما للالتفات إلى الجناح الثالث ، أى إلى الأعراب القساة الضاريين فى فيافى نجد ، والذين مازالوا يقومون بأعمال النهب والسلب بين آونة وأخرى .

ولما كان هؤلاء البدو لا تجمعهم بلدة أو مدينة ، ولم يكونوا يقطنون الحصون والقلاع ، كانت الصعوبة فى فرض السيطرة عليهم وإخماد نار شرهم تماما تزداد بكثير عما كانت بالنسبة إلى أهل مكة وخيبر ، ولذلك لم تكن تجدى فيهم إلا حملات التأديب والإرهاب ، وقام المسلمون بمثل هذه الحملات مرة أخرى .

ولفرض الشوكة - أو لاجتماع البدو الذين كانوا يحتشدون للإغارة على أطراف المدينة - قام رسول الله ﷺ بحملة تأديبية عرفت بغزوة ذات الرقاع .

وعامة أهل المغازى يذكرون هذه الغزوة فى السنة الرابعة ، ولكن مساهمة أبى موسى الأشعرى وأبى هريرة رضى الله عنهما فى هذه الغزوة تدل على وقوعها بعد خيبر ، والأغلب أنها وقعت فى شهر ربيع الأول سنة ٧ هـ .

وملخص ما ذكره أهل السير حول هذه الغزوة أن النبى ﷺ سمع باجتماع أئمار أو بنى ثعلبة وبنى محارب من غطفان ، فأسرع بالخروج إليهم فى أربعمائة أو سبعمائة من أصحابه ، واستعمل على المدينة أبا ذر أو عثمان بن عفان ، وسار فتوغل فى بلادهم حتى وصل إلى موضع يقال له نخل على بعد يومين من المدينة ، ولقى جمعا من غطفان فتوافقوا ولم يكن بينهم قتال ، إلا أنه صلى بهم يومئذ صلاة الخوف .

وفى البخارى عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : خرجنا مكع رسول الله ﷺ ونحن ستة نفر بيننا بغير نعتقه بيننا ، فنقبت أقدامنا ونقبت قدمائى ، وسقطت أظفارى ، فكنا نلف على أرجلنا الخرق ، فسميت ذات الرقاع ؛ لما كنا نعصب الخرق على أرجلنا . (١) .

وفيه عن جابر : كنا مع النبى ﷺ بذات الرقاع ، فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبى ﷺ ، فنزل رسول الله ﷺ ، وتفرق الناس فى العضاة ، يستظلون بالشجر ، ونزل رسول الله ﷺ . (١) صحيح البخارى باب غزوة ذات الرقاع ٥٩٢/٢ ، وصحيح مسلم باب غزوة ذات الرقاع ١١٨/٢ .

الله ﷺ تحت شجرة فعلق بها سيفه . قال جابر : فمنا نومة ؛ فجاء رجل من المشركين ، فاخترط سيف رسول الله ﷺ ، فقال : أتخافني ؟ قال : لا . قال : فمن يمنعك مني ؟ قال : الله . قال جابر : فإذا رسول الله ﷺ يدعوننا ، فنجئنا فإذا عنده أعرابي جالس ، فقال رسول الله ﷺ : إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم ، فاستيقظت وهو في يده صلتا ، فقال لي : من يمنعك مني ؟ قلت : الله . فهذا هو ذا جالس . ثم لم يعاتبه رسول الله ﷺ .

وفي رواية : وأقيمت الصلاة بطائفة ركعتين ، ثم تأخروا ، وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين ، وكان للنبي ﷺ أربع ، وللقوم ركعتان (١) .

وفي رواية أبي عوانة : فسقط السيف من يده ، فأخذه رسول الله ﷺ ، فقال : من يمنعك مني ؟ قال : كن خير آخذ . قال : تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ؟ قال الأعرابي : أعاهدك أن لا أقاتلك ، ولا أكون مع قوم يقاتلونك ، قال : فخلي سبيله . فجاء إلى قومه ، فقال جئتمكم من عند خير الناس (٢) .

وفي رواية البخاري قال مسدد أبي عوانة عن أبي بشر : اسم الرجل غورث بن الحارث (٤) قال ابن حجر : ووقع عند الواقدي في سبب هذه القصة أن اسم الأعرابي دعثور ، وأنه أسلم . لكن ظاهر كلامه أنهما قصتان في غزوتين والله أعلم (٣) .

وفي مرجعهم من هذه الغزوة سبوا امرأة من المشركين ، فنذر زوجها أن لا يرجع حتى يهريق دما في أصحاب محمد ﷺ ، فجاء ليلا ، وقد أرصد رسول الله ﷺ رجلين (٤) ربيعة للمسلمين من العدو ، وهما عباد بن بشر وعمار بن ياسر ، فضرب عبادا وهو قائم يصلي بسهم فزرعه ، ولم يبطل صلاته ، حتى رشقه بثلاثة أسهم ، فلم ينصرف منها حتى سلم ، فأيقظ صاحبه ، فقال : سبحان الله ، هلا نبهتني ، فقال : إني كنت في سورة فكرهت أن أقطعها (٥) .

كان لهذه الغزوة أثر في قذف الرعب في قلوب الأعراب القساة ، وإذا نظرنا إلى تفاصيل السرايا بعد هذه الغزوة ؛ نرى أن هذه القبائل من غطفان لم تجترئ أن ترفع رأسها بعد هذه الغزوة ، بل استكانت شيئا فشيئا حتى استسلمت ، بل وأسلمت ، حتى نرى عدة قبائل من هذه الأعراب تقوم مع المسلمين في فتح مكة ، وتغزو حنينا ، وتأخذ من غنائمها ، ويبعث إليها المصدقون فتعطي صدقاتها بعد الرجوع من غزوة الفتح ، فبهذا تم كسر الأجنحة الثلاثة التي كانت ممثلة في الأحزاب وساد المنطقة الأمن والسلام ، واستطاع

(١) صحيح البخاري ١/ ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٢/ ٥٩٣ .

(٢) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٢٦٤ ، وانظر فتح الباري ٧/ ٤١٦ .

(٣) صحيح البخاري ٢/ ٥٩٣ .

(٤) فتح الباري ٧/ ٤٢٨ .

(٥) ربيعة : الشخص المخصص للمراقبة .

المسلمون بعد ذلك أن يسدوا بسهولة كل خلل وثلمة حدثت في بعض المناطق من بعض القبائل ، بل بعد هذه الغزوة بدأت التمهيدات لفتوح البلدان والممالك الكبيرة ، لأن داخل البلاد كانت الظروف قد تطورت لصالح الإسلام والمسلمين .

وبعد الرجوع من هذه الغزوة أقام رسول الله ﷺ إلى شوال سنة ٧ هـ . وبعث في خلال ذلك عدة سرايا ، وهاك بعض تفصيلها :

١ - سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى بني الملوح بقديد ، في صفر أو ربيع الأول سنة ٧ هـ . كان بنو الملوح قد قتلوا أصحاب بشير بن سويد ، فبعثت هذه السرية لأخذ الثأر . فشنوا الغارة في الليل فقتلوا من قتلوا ، وساقوا النعم ، وطاردتهم جيش كبير من العدو ، حتى إذا قرب من المسلمين نزل مطر ، فجاء سيل عظيم حال بين الفريقين ، ونجح المسلمون في بقية الانسحاب .

٢ - سرية حسمى في جمادى الثانية سنة ٧ هـ ، وقد مضى ذكرها في مكاتبة الملوك .

٣ - سرية عمر بن الخطاب إلى تربة في شعبان سنة ٧ هـ . ومعه ثلاثون رجلا ، كانوا يسرون الليل ويستخفون في النهار ، وأتى الخبر إلى هوازن فهربوا ، وجاء عمر إلى محالهم ، فلم يلق أحدا فانصرف راجعا إلى المدينة .

٤ - سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى بني مرة بناحية فدك في شعبان سنة ٧ هـ ، في ثلاثين رجلا . خرج إليهم واستاق الشاء والنعم ، ثم رجع فأدركه الطلب عند الليل ، فرموهم بالنبل حتى فنى نبل بشير وأصحابه ، فقتلوا جميعا إلا بشير فإنه ارتث إلى فدك ، فأقام عند يهود ، حتى برأت جراحه ، فرجع إلى المدينة .

٥ - سرية غالب بن عبد الله الليثي في رمضان سنة ٧ هـ إلى بني عوال ، وبني عبد بن ثعلبة بالميفعة ، وقيل إلى الحركات من جحفية في مائة وثلاثين رجلا ، فهجموا عليهم جميعا ، وقتلوا من أشرف لهم ، واستاقوا نعما وشاء ، وفي هذه السرية قتل أسامة بن زيد مرداس بن نهيك بعد أن قال : لا إله إلا الله .

فقال النبي ﷺ ، هلا شققت عن قلبة فتعلم أصادق هو أم كاذب ؟

٦ - سرية عبد الله بن رواحة إلى خيبر في شوال سنة ٧ هـ في ثلاثين راكبا ، وذلك أن أسيرا بن رزام كان يجمع غطفان لغزو المسلمين ، فأخرجوا أسيرا في ثلاثين من أصحابه ، وأطمعوه أن الرسول ﷺ يستعمله على خيبر ، فلما كانوا بقرقرة نيار وقع بين الفريقين سوء ظن أفضى إلى قتل أسير وأصحابه الثلاثين .

٧ - سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى يمن وجبار (بالفتح ، أرض لغطفان وقيل لفزارة وعذرة) في شوال سنة ٧ هـ في ثلاثمائة من المسلمين ، للقاء جمع كبير تجمعوا للإغارة على أطراف المدينة . فساروا الليل وكمنوا النهار ، فلما بلغهم مسير بشير

هربوا، وأصاب بشير نعماً كثيرة وأسر رجلين ، فقدم بهما إلى المدينة، إلى رسول الله ﷺ، فأسلما .

٨ - سرية أبي حدود الأسلمي إلى الغابة . ذكرها ابن القيم في سرايا السنة السابعة قبل عمرة القضاء ، وملكها أن رجلاً من جيش بن معاوية أقبل في عدد كبير إلى الغابة، يريد أن يجمع قيساً على محاربة المسلمين . فبعث رسول الله ﷺ أبا حذرد مع رجلين فاخترأ أبو حذرد خطة حربية حكيمة ، وهزم العدو هزيمة منكرة ، واستاق الكثير من الإبل والغنم (١) .

عمرة القضاء

قال الحاكم : تواترت الأخبار أنه ﷺ لما هل ذو القعدة أمر أصحابه أن يعتمروا قضاء عمرتهم ، وأن لا يتخلف منهم أحد شهد الحديبية ، فخرجوا إلا من استشهد ، وخرج معه آخرون معتمرين ، فكانت عدتهم ألفين سوى النساء والصبيان . أه (٢) .

واستخلف على المدينة عوف أبا رهم الغفاري ، وساق ستين بدنة وجعل عليها ناجية ابن جندب الأسلمي ، وأحرم للعمرة من ذي الحليفة ، ولبي ، ولبي المسلمون معه ، وخرج مستعداً بالسلاح والمقاتلة ، خشية أن يقع من قريش غدر ، فلما بلغ يأجج وضع الأداة كلها ، الحجف ، والمجان ، والنبل ، والرماح ، وخلف عليها أوس بن خولي الأنصاري في مائتي رجل ، ودخل بسلاح الراكب والسيوف في القرب (٣) .

وكان رسول الله ﷺ عند الدخول راكباً على ناقته القصواء ، والمسلمون متوشحوا السيوف ، محدقون برسول الله ﷺ يلبون .

وخرج المشركون إلى جبل قعيقعان - الجبل الذي في شمال الكعبة - ليروا المسلمين وقد قالوا فيما بينهم : إنه يقدم عليكم وفد وهنتهم حمى يثرب ، فأمر النبي ﷺ أصحابه أن يرسلوا الأشواط الثلاثة ، وأن يمشوا ما بين الركنين ، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرسلوا الأشواط كلها إلا الإبقاء ، وإنما أمرهم بذلك ليرى المشركين قوته (٤) ، كما أمرهم بالاضطباع ، أي أن يكشفوا المناكب اليمنى ، ويضعوا طرفي الرداء على اليسرى .

ودخل رسول الله ﷺ مكة من الثنية التي تطلعه على الحجون - وقد صف المشركون ينظرون إليه - فلم يزل يلبي حتى استلم الركن بمحجنه ، ثم طاف ، وطاف المسلمون ، وعبد الله بن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ يرتجز متوشحاً بالسيوف :

(١) زاد المعاد ٢ / ١٤٩ ، ١٥٠ ، وانظر لتفصيل هذه السرايا رحمة للعالمين ٢ / ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، زاد المعاد /

١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، تلقيح فهوم أهل الأثر مع حواشيها ص ٣١ ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله

النجدي ص ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ . (٢) فتح الباري ٧ / ٧٠٠ . (٣) نفس المصدر وزاد المعاد ٢ / ١٥١

(٤) صحيح البخاري ١ / ٢١٨ ، ٢ / ٦١٠ ، ٦١١ ، صحيح مسلم ١ / ٤١٢ .

خلوا بنى الكفار عن سبيله خلوا فكل الخير فى رسوله
قد أنزل الرحمن فى تنزيله فى صحف تتلى على رسوله
يارب إنى مؤمن بقيله إنى رأيت الحق فى قبوله
بأن خير القتل فى سبيله اليوم نضربكم على تنزيله
ضربا يزيل الهام عن نصيله ويذهل الخليل عن خليله (١) .

وفى حديث أنس فقال عمر : يا ابن رواحة بين يدى رسول الله ﷺ ، وفى حرم الله تقول الشعر ؟ . فقال له النبى ﷺ : نخل عنه يا عمر ، فلهوا أسرع فيهم من نضح النبل (٢) .

ورمل رسول الله ﷺ والمسلمون ثلاثة أشواط ، فلما رأهم المشركون قالوا : هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم ، هؤلاء أجلد من كذا وكذا (٣) .

ولما فرغ من الطواف سعى بين الصفا والمروة ، فلما فرغ من السعى ، وقد وقف الهدى عند المروة ، قال : هذا المنحر وكل فجاج مكة منحر ، فنحر عند المروة وحلق هناك ، وكذلك فعل المسلمون ، ثم بعث ناسا إلى يأجج فيقيموا على السلاح ، ويأتى الآخرون فيقفون نسكهم ففعلوا .

وأقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاثا ، فلما أصبح من اليوم الرابع أتوا عليا ، فقالوا : قل لصاحبك : اخرج عنا ، فقد مضى الأجل ، فخرج النبى ﷺ ، ونزل بسرف فأقام بها .

ولما أراد الخروج من مكة تبعته ابنة حمزة ، تنادى ، يا عم ياعم ، فتناولها على ، واختصم فيها على وجعفر وزيد ، فقضى النبى ﷺ لجعفر ، لأن خالتها كانت تحته .

وفى هذه العمرة تزوج النبى ﷺ بميمونة بنت الحارث العامرية ، وكان رسول الله ﷺ قبل الدخول فى مكة بعث جعفر بن أبى طالب بين يديه إلى ميمونة ، فجعلت أمرها إلى العباس ، وكانت أختها أم الفضل تحته ، فزوجها إياه ، فلما خرج من مكة خلف أبا رافع ليحمل ميمونة إليه حين يمشى ، فبنى بها بسرف (٤) .

وسميت هذه العمرة بعمرة القضاء ؛ إما لأنها كانت قضاء عن عمرة الحديبية ، أو لأنها وقعت حسب المقاضاة ؛ أى المصالحة التى وقعت فى الحديبية ، والوجه الثانى رجحه المحققون (٥) وهذه العمرة تسمى بأربعة أسماء : القضاء ، والقضية ، والقصاص ، والصلح (٦) .

(١) اضطربت الأسماء وترتيبها فى الروايات فجمعنا بين شتيتها .

(٢) رواه الترمذى ، أبواب الاستئذان والأدب ، باب ما جاء فى إنشاد الشعر ٢ / ١٠٧ .

(٣) زاد المعاد ٢ / ١٥٢ .

(٤) صحيح مسلم ١ / ٤١٢ .

(٥) انظر نفس المصدر الأخير .

(٦) انظر زاد المعاد ١ / ١٧٢ ، فتح البارى ٧ / ٥٠٠ .

وبعد الرجوع من عمرة القضاء بعث عدة سرايا ، هاك تفصيلها :

١ - سرية ابن أبي العوجاء ، فى ذى الحجة سنة ٧ هـ ، فى خمسين رجلا بعثه رسول الله إلى بنى سليم ، ليدعوهم إلى الإسلام ، فقالوا : لا حاجة لنا على ما دعوتنا ، ثم قاتلوا قتالا شديدا ، جرح فيه أبو العوجاء ، وأسر رجلان من العدو .

٢ - سرية غالب بن عبد الله إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد بفدك فى صفر سنة ٨ هـ . بعث فى مائتى رجل ، فأصابوا من العدو نعما ، وقتلوا منهم قتلى .

٣ - سرية ذات أطح فى ربيع الأول سنة ٨ هـ . كانت بنو قضاة قد حشدت جموعا كبيرة للإغارة على المسلمين ، فبعث إليهم رسول الله ﷺ كعب بن عمير الأنصارى فى خمسة عشر رجلا ، فلقوا العدو ، فدعوهم إلى الإسلام ، فلم يستجيبوا لهم ، وأرشقوهم بالنبل حتى استشهدوا كلهم إلا رجلا واحدا ، فقد ارتث من بين القتلى (١) .

٤ - سرية ذات عرق إلى بنى هوازن فى ربيع الأول سنة ٨ هـ . كانت بنو هوازن قد أمدت الأعداء مرة بعد أخرى ، فأرسل إليه شجاع بن وهب الأسدى فى خمسة وعشرين رجلا ، فاستاقوا نعما من العدو ولم يلقوا كيذا (٢) .

معركة مؤتة

وهذه المعركة أكبر لقاء مشخ ، وأعظم حرب دامية خاضها المسلمون فى حياة رسول الله ﷺ ، وهى مقدمة وتمهيد لفتوح بلدان النصارى ، وقعت فى جمادى الأولى سنة ٨ هـ ، وفق أغسطس أو سبتمبر سنة ٦٢٩ م .

ومؤتة (بالضم فالسكون) هى قرية بأدنى بقاء الشام ، بينها وبين بيت المقدس مرحلتان :

سبب المعركة :

وسبب هذه المعركة أن رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلى عظيم بصرى ، فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني - وكان عاملا على البقاء من أرض الشام من قبل قيصر - فأوثقه رباطا ، ثم قدمه ، فضرب عنقه .

(١) رحمة للعالمين ٢ / ٢٣١ .

(٢) نفس المصدر وتقيح فهوم أهل الأثر لابن الجوزى ص ٣٣ حاشية .

وكان قتل السفراء والرسل من أشنع الجرائم ، يساوى بل يزيد على إعلان حالة الحرب ، فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ حين نقلت إليه الأخبار ، فجهز إليهم جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل (١) ، وهو أكبر جيش إسلامي ، لم يجتمع قبل ذلك إلا في غزوة الأحزاب .
أمراء الجيش ووصية رسول الله ﷺ إليهم :

أمر رسول الله ﷺ على هذا البعث زيد بن حارثة ، وقال : إن قتل زيد فجعفر ، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة (٢) . وعقد لهم لواء أبيض ، ودفعه إلى زيد بن حارثة (٣) .

وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير ، وأن يدعوا من هناك إلى الإسلام ، فإن أجابوا وإلا استعانوا بالله عليهم ، وقتلوهم ، وقال لهم : اغزوا بسم الله في سبيل الله من كفر بالله ، لا تغدروا ، ولا تغيروا ، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ، ولا كبيراً فانياً ، ولا منعزلاً بصومعة ، ولا تقطعوا نخلاً ولا شجرة ، ولا تهدموا بناءً (٤) .

توديع الجيش الإسلامي وبكاء عبد الله بن رواحة :

ولما تهيأ الجيش الإسلامي للخروج حضر الناس ، ودعوا أمراء رسول الله ﷺ ، وسلموا عليهم ، وحينئذ بكى أحد أمراء الجيش ، عبد الله بن رواحة ، فقالوا ما يبكيك ؟ فقال أما والله ما يبى حب الدنيا ، ولا صباة بكم ، ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ (١٩ : ٧١) فلست أدري كيف لى بالصدور بعد الورود ؟ فقال المسلمون : صحبتكم الله بالسلامة ، ودفع عنكم ، وردكم إلينا صالحين غانمين ، فقال عبد الله بن رواحة .

لكننى أسأل الرحمن مغفرة وضربة ذات فرغ (٥) تقذف الزبدا
أو طعنة بيدى حران مجهزة بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مروا على جدثي (٦) أرشده الله من غاز ، وقد رشدا

ثم خرج القوم ، وخرج رسول الله ﷺ مشيعاً لهم حتى بلغ ثنية الوداع ، فوقف وودعهم (٧) .

تحرك الجيش الإسلامي ، ومباغتته حالة رهيبة :

وتحرك الجيش الإسلامي في اتجاه الشمال حتى نزل معان ، من أرض الشام ، مما يلي الحجاز الشمالى ، وحينئذ نقلت إليهم الاستخبارات بأن هرقل نازل بمآب من أرض البلقاء

(١) زاد المعاد ٢ / ١٥٥ ، فتح البارى ٧ / ٥١١ . (٢) صحيح البخارى باب غزوة مؤتة من أرض الشام ٢ / ٦١١ .

(٣) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ٣٢٧ . (٤) نفس المصدر ، ورحمة للعالمين ٢ / ٢٧١ .

(٥) الفرغ : السعة . (٦) الحدث : القبر (٧) ابن هشام ٢ / ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، زاد المعاد ٢ / ١٥٦ ، مختصر سيرة

الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ٣٢٧ .

فى مائة ألف من الروم ، وانضم إليهم من لحم وجذام وبلقين وبهراء وبلى مائة ألف .

المجلس الاستشارى بمعان :

لم يكن المسلمون أدخلوا فى حسابهم لقاء مثل هذا الجيش العرمرم، والذى بوغثوا به فى هذه الأرض البعيدة - وهل يهجم جيش صغير ، قوامه ثلاثة آلاف مقاتل فحسب، على جيش كبير عرمرم، مثل البحر الخضم، قوامه مائتا ألف مقاتل؟ حار المسلمون، وأقاموا فى معان ليلتين يفكرون فى أمرهم، وينظرون ويتشاورون، ثم قالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ، فنخبره بعدد عدونا، فلما أن يمدنا بالرجال، ولما أن يأمرنا بأمره فنمضى له .

ولكن عبد الله بن رواحة عارض هذا رأى ، وشجع الناس ، قائلا : يا قوم والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون ، الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا ، فلما هى إحدى الحسنيين ، إما ظهور وإما شهادة . وأخيرا استقر رأى على ما دعا إليه عبد الله بن رواحة .

الجيش الإسلامى يتحرك نحو العدو :

وحينئذ بعد أن قضى الجيش الإسلامى ليلتين فى معان ، تحرکوا إلى أرض العدو ، حتى لقيتهم جمرع هرقل بقرية من قرى البلقاء لها « مشارف » ، ثم دنا العدو ، وانحاز المسلمون إلى مؤتة ، فعسكروا هناك وتعبأوا للقتال ، فجعلوا على ميمنتهم قطبة بن قتادة العذرى ، وعلى اليسرة عبادة بن مالك الأنصارى .

بداية القتال ، وتناوب القواد :

وهناك فى مؤتة التقى الفريقان ، وبدأ القتال المرير ، ثلاثة آلاف رجل يواجهون هجمات مائتى ألف مقاتل . معركة عجيبة تشاهدها الدنيا بالدهشة والحيرة ، ولكن إذا هبت ريح الإيمان جاءت بالعجائب .

أخذ الراية زيد بن حارثة - حب رسول الله ﷺ - وجعل يقاتل بضراوة بالغة ، وبسالة لا يوجد لها نظير إلا فى أمثاله من أبطال الإسلام ، فلم يزل يقاتل ويقاتل حتى شاط فى رماح القوم، وخر صريعا .

وحينئذ أخذ الراية جعفر بن أبى طالب ، وطفق يقاتل قتالا منقطع النظير، حتى إذا أرهقه القتال اقتحم عن فرسه الشقراء فعقرها ، ثم قاتل حتى قطعت يمينه، فأخذ الراية بشماله، ولم يزل بها حتى قطعت شماله ، فاحتضنها بعضديه ، فلم يزل رافعا إياها حتى قتل. يقال: إن روميا ضربه ضربة قطعتة نصفين، وأثابه الله بجناحيه جناحين فى الجنة، يطير بهما حيث يشاء، ولذلك سمي بجعفر الطيار، وبجعفر ذى الجناحين.

روى البخارى عن نافع أن ابن عمر أخبره أنه وقف على جعفر يومئذ وهو قتيل ، فعددت به خمسين بين طعنة وضربة ، ليس منها شيئا فى دبره يعنى ظهره (١) وفى رواية أخرى قال ابن عمر : كنت فيهم فى تلك الغزوة ، فالتمسنا جعفر بن أبى طالب فوجدناه فى القتلى ، ووجدنا ما فى جسده بضعا وتسعين من طعنة ورمية (٢) . وفى رواية العمرى عن نافع زيادة « فوجدنا ذلك فيما أقبل من جسده » (٣) .

ولما قتل جعفر بعد القتال بمثل هذه الضراوة والبسالة أخذ الراية عبد الله بن رواحة ، وتقدم بها ، وهو على فرسه ، فجعل يستنزل نفسه ، ويتردد بعض التردد حتى حاد حيدة ، ثم قال :

أقسمت يا نفس لتنزلنه كارهة أو لتطاول عنه
إن أجلب الناس وشدوا الرنة مالى أراك تكرهين الجنة

ثم نزل ، فأثاه ابن عم له بعرق من لحم فقال : شد بهذا صلبك ، فإنك قد لقيت فى أيامك هذه ما لقيت ، فأخذه من يده فانتهم منه نهسة ، ثم ألقاه من يده ثم أخذ سيفه فتقدم ، فقاتل حتى قتل .

الراية إلى سيف من سيوف الله :

وحينئذ تقدم رجل من بنى عجلان - اسمه ثابت بن أرقم - فأخذ الراية وقال : يا معشر المسلمين ، اصطلحوا على رجل منكم ، قالوا : أنت . قال : ما أنا بفاعل ، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد ، فلما أخذ الراية قاتل قتالا مريرا ، فقد روى البخارى عن خالد بن الوليد قال : لقد انقطعت فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف ، فما بقى فى يدى إلا صفيحة يمانية (٤) وفى لفظ آخر : لقد دق فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف ، وصبرت فى يدى صفيحة لى يمانية (٥) .

وقد قال رسول الله ﷺ يوم مؤتة - مخبرا بالوحى ، قبل أن يأتى إلى الناس الخبر من ساحة القتال :- أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذ جعفر فأصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب - وعيناه تذرفان - حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله ، حتى فتح الله عليهم (٦) .

(٢) نفس المصدر ٦١١ / ٢ .

(١) صحيح البخارى باب غزوة مؤتة من أرض الشام ٦١١ / ٢ .

(٣) انظر فتح البارى ٥١٢ / ٧ ، وظاهر الحديثين التخالف فى العدد ، وجمع بأن الزيادة باعتبار ما وجد فيه من رمى

السهم ، انظر المصدر المذكور

(٥) نفس المصدر ٦١١ / ٢ .

(٤) صحيح البخارى باب غزوة مؤتة من أرض الشام ٦١١ / ٢ .

(٦) نفس المصدر ٦١١ / ٢ .

نهاية المعركة :

ومع الشجاعة البالغة والبسالة والضرارة المريرتين كان مستغربا جدا أن ينجح هذا الجيش الصغير في الصمود أمام تيارات ذلك البحر الغطمطم من جيوش الروم ، ففي ذلك الوقت أظهر خالد بن الوليد مهارته ونبوغه في تخليص المسلمين مما ورطوا أنفسهم فيه .

واختلفت الروايات كثيرا فيما آل إليه أمر هذه المعركة أخيرا ويظهر بعد النظر في جميع الروايات أن خالد بن الوليد نجح في الصمود أمام جيش الرومان طول النهار ، في أول يوم من القتال ، وكان يشعر بمسيس الحاجة إلى مكيدة حربية ، تلقى الرعب في قلوب الرومان ؛ حتى ينجح في الانحياز بالمسلمين من غير أن يقوم الرومان بحركات المطاردة ، فقد كان يعرف جيدا أن الإفلات من برائتهم صعب جدا لو انكشف المسلمون ، وقام الرومان بالمطاردة .

فلما أصبح اليوم الثاني غير أوضاع الجيش ، وعبأه من جديد ، فجعل مقدمته ساقة ، وميمنته ميسرته ، وعلى العكس ، فلما رآهم الأعداء أنكروا حالهم ، وقالوا : جاءهم مدد فرغبوا وصار خالد - بعد أن ترآى الجيشان ، وتناوشا ساعة - يتأخر بالمسلمين قليلا قليلا ، مع حفظ نظام جيشه ، ولم يتبعهم الرومان ظنا منهم أن المسلمين يخذعونهم ، ويحاولون القيام بمكيدة ترمى بهم في الصحراء .

وهكذا انحاز العدو إلى بلاده ، ولم يفكر في القيام بمطاردة المسلمين ، ونجح المسلمون في الانحياز سالمين ، حتى عادوا إلى المدينة (١) .

قتلى الفريقين :

واستشهد يومئذ من المسلمين اثنا عشر رجلا ، أما الرومان ، فلم يعرف عدد قتلاهم غير أن تفصيل المعركة يدل على كثرتهم .

(١) انظر فتح الباري ٧ / ٥١٣ ، ٥١٤ ، زاد المعاد ٢ / ١٥٦ ، وتفصيل المعركة مأخوذ من هذين المصدرين والتي قبلهما .

أثر المعركة :

وهذه المعركة وإن لم يحصل المسلمون بها على الثأر ، الذى عانوا مرارتها لأجله ، لكنها كانت كبيرة الأثر لسمعة المسلمين ، إنها ألقت العرب كلها فى الدهشة والخيرة ، فقد كانت الرومان أكبر وأعظم قوة على وجه الأرض ، وكانت العرب تظن أن معنى جلادها هو القضاء على النفس وطلب الحتف بالظلف ، فكان لقاء هذا الجيش الصغير - ثلاثة آلاف مقاتل - مع ذلك الجيش الضخم العرمرم الكبير - مائتا ألف مقاتل - ثم الرجوع عن الغزو من غير أن تلحق به خسارة تذكر ، كان كل ذلك من عجائب الدهر ، وكان يؤكد أن المسلمين من طراز آخر غير ما ألفته العرب وعرفته ، وأنهم مؤيدون ومنصرون من عند الله ، وأن صاحبهم رسول الله حقا ، ولذلك نرى القبائل اللدودة التى كانت لا تزال تثور على المسلمين جنحت بعد هذه المعركة إلى الإسلام ، فأسلمت بنو سليم وأشجع وخطفان وذبيان وفزارة وغيرها .

وكانت هذه المعركة بداية اللقاء الدامى مع الرومان ، فكانت توطئة وتمهيدا لفتوح البلدان الرومانية ، واحتلال المسلمين الأراضى البعيدة النائية .

سرية ذات السلاسل :

ولما علم رسول الله ﷺ بموقف القبائل العربية التى تقطن مشارف الشام فى معركة مؤتة ، من اجتماعهم إلى الرومان ضد المسلمين ، شعر بمسئولية الحاجة إلى القيام بحكمة بالغة توقع الفرقة بينها وبين الرومان ، وتكون سببا للاتلاف بينهما وبين المسلمين ، حتى لا تتحشد مثل هذه الجموع الكبيرة مرة أخرى .

واختار لتنفيذ هذه الخطة عمرو بن العاص ؛ لأن أم أبيه كانت امرأة من بلى ، فبعثه إليهم فى جمادى الآخرة سنة ٨ هـ على إثر معركة مؤتة ليستألفهم ويقال : بل نقلت الاستخبارات أن جمعا من قضاة قد تجمعوا ، يريدون أن يدنوا من أطراف المدينة ، فبعثه إليهم ، ويمكن أن يكون السببان اجتماعا معا .

وعقد رسول الله ﷺ لعمر بن العاص لواء أبيض ، وجعل معه راية سوداء ، وبعثه

فى ثلاثمائة من سرة المهاجرىن والأنصار ، ومعم ثلاثون فرسا ، وأمره أن يستعفن بمن مر به من بلى وعذرة وبلقنن ، فسار اللل وكمن النهار ، فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعا كثيرا ، فبعث رافع بن مكىث الجهنى إلى رسول الله ﷺ يستمده ، فبعث إليه أبا عبدة بن الجراح فى مائتن وعقد له لواء ، وبعث له سرة المهاجرىن والأنصار - فىهم أبو بكر وعمر - وأمره أن يلحق بعمرو ، وأن يكونا جمعا ولا يختلعا ، فلما لحق به أراد أبو عبدة أن يؤم الناس ، فقال عمرو : إنما قدمت على مددا ، وأنا الأمير ، فأطاعه أبو عبدة ، فكان عمرو يصلى بالناس .

وسار حتى وطىء بلاد قضاة ، فدوخها حتى أتى أقصى بلادهم ، ولقى فى آخر ذلك جمعا فحمل عليهم المسلمون فهربوا فى البلاد وتفرقوا .

وبعث عوف بن مالك الأشجعى برىدا إلى رسول الله ﷺ ، فأخبره بقولهم وسلامتهم ، وما كان فى غزاتهم .

وذات السلاسل (بضم السىن الأولى وفتحها : لغتان) بقعة وراء وادى القرى ، بينها وبين المدينة عشرة أيام . وذكر ابن إسحاق أن المسلمين نزلوا على ماء بأرض جذام يقال له السلسل ، فسمى ذات السلاسل (١) .

سرية أبى قتادة إلى خضرة :

كانت هذه السرية فى شعبان سنة ٨ هـ . وذلك لأن بنى غطفان كانوا يتحشدون فى خضرة - وهى أرض محارب بنجد - فبعث إليهم رسول الله ﷺ أبا قتادة فى خمسة عشر رجلا فقتل منهم ، وسبا وغنم ، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة (٢) .

غزوة فتح مكة

قال ابن القيم : هو الفتح الأعظم الذى أعز الله به دینه ورسوله وجنده وحزبه الأمين ، واستنقذ به بلده وبيته الذى جعله هدى للعالمين ، من أيدى الكفار والمشركن ، وهو الفتح

(١) انظر ابن هشام ٢ / ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، زاد المعاد ٢ / ١٥٧ .

(٢) رحمة للعالمين ٢ / ٢٣٣ ، تلقيح فهم أهل الأثر ص ٣٣ .

الذى استبشر به أهل السماء ، وضربت أطناب عزه على مناكب الجوزاء ، ودخل الناس به فى دين الله أفواجا ، وأشرق به وجه الأرض ضياء وابتهاجا أه (١) .

سبب الغزوة :

قدمنا فى وقعة الحديبية أن بندا من بنود هذه المعاهدة يفيد أن من أحب أن يدخل فى عقد محمد - ﷺ - وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، وأن القبيلة التى تنضم إلى أى الفريقين تعتبر جزءا من ذلك الفريق ، فأى عدوان تتعرض له أى من تلك القبائل يعتبر عدوانا على ذلك الفريق .

وحسب هذا البند دخلت خزاعة فى عهد رسول الله ﷺ ، ودخلت بنو بكر فى عهد قريش ، وصارت كل من القبيلتين فى أمن من الأخرى ، وقد كانت بين القبيلتين عداوة وثارات فى الجاهلية ، فلما جاء الإسلام ، ووقعت هذه الهدنة ، وأمن كل فريق من الآخر اغتتمها بنو بكر ، وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة الثأر القديم ، فخرج نوفل بن معاوية الديلى فى جماعة من بنى بكر فى شهر شعبان سنة ٨ هـ ، فأغاروا على خزاعة ليلا ، وهم على ماء يقال له « الوثير » فأصابوا منهم رجالا ، وتناوشوا واقتتلوا ، وأعانت قريش بنى بكر بالسلاح ، وقاتل معهم رجال من قريش مستغلين ظلمة الليل ، حتى حازوا خزاعة إلى الحرم ، فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر : يا نوفل ، إنا قد دخلنا الحرم ، إلهك إلهك . فقال كلمة عظيمة : لا إله اليوم يا بنى بكر ، أصيبوا ثأركم ، فلعمري إنكم لتسرقون فى الحرم ، أفلا تصيبون ثأركم فيه ؟

ولما دخلت خزاعة مكة لجأوا إلى دار بديل بن ورقاء الخزاعى ، وإلى دار مولى لهم يقال له رافع .

وأسرع عمرو بن سالم الخزاعى ، فخرج حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة ، فوقف عليه ، وهو جالس فى المسجد بين ظهرائى الناس فقال :

(١) زاد المعاد ٢ / ١٦٠ .

يارب إني ناشد محمدا حلفنا وحلف أييه الأتلدا (١)
 قد كنتم ولدا وكننا والدا (٢) ثمة أسلمنا ولم ننزع يدا
 فانصر ، هداك الله ، نصرا أيدا وادع عباد الله يأتو مددا
 فيهم رسول الله ، قد تجردا أبيض مثل البدر ، يسمو صعدا
 إن سيم خسفا وجهه تربدا فى فريق كالبحر يجرى مزبدا
 إن قريشا أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا
 وجعلوا لى فى كداء رصدا وزعموا أن لست أدعو أحدا
 وهم أذل ، وأقل عـددا هم يبتونا بالوتير هجدا
 وقتلونا ركعا وسجدا (٣) .

فقال رسول الله ﷺ : نصرت يا عمرو بن سالم ، ثم عرضت له سحابة من السماء فقال : إن هذه السحابة لتستهل بنصر بنى كعب .

ثم خرج بديل بن ورقاء الخزاعي فى نفر من خزاعة ، حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة ، فأخبروه بمن أصيب منهم ، وبمظاهرة قريش بنى بكر عليهم ، ثم رجعوا إلى مكة .

أبو سفيان يخرج إلى المدينة ليجدد الصلح :

ولا شك أن ما فعلت قريش وحلفاؤها كان غدرا محضا ونقضا صريحا للميثاق لم يكن له أى مبرر ، ولذلك سرعان ما أحست قريش بغدرها ، وخافت وشعرت بعواقبه الوخيمة ، فعقدت مجلسا استشاريا ، وقررت أن تبعث قائدها أبا سفيان ممثلا لها ؛ ليقوم بتجديد الصلح .

وقد أخبر رسول الله ﷺ أصحابه بما ستفعله قريش إزاء غدرتهم . قال : كأنكم بأبى سفيان - قد جاءكم ليشد العقد ، ويزيد فى المدة .

(١) الأتلد : القديم ، يشير إلى الحلف الذى كان بين خزاعة وبين هاشم منذ عهد عبد المطلب .

(٢) يشير إلى أم عبد مناف - وهى حبيبى زوجة قصى - كانت من خزاعة . (٣) يقول : قتلنا وقد أسلمنا .

وخرج أبو سفيان - حسب ما قررته قریش - فلقى بدیل بن ورقاء بعسفان - وهو راجع من المدينة إلى مكة - فقال : من أين أقبلت يا بدیل ؟

وظن أنه أتى النبی ﷺ - فقال : سرت فی خزاعة فی هذا الساحل وفي بطن هذا الوادی . قال : أو ما جئت محمدا ؟ قال : لا .

فلما راح بدیل إلى مكة قال أبو سفيان : لئن كان جاء المدينة لقد علف بها النوى ، فأتى مبرك راحلته ، فأخذ من بعرها ففته ، فرأى فيها النوى ، فقال : أحلف بالله لقد جاء بدیل محمدا .

وقدم أبو سفيان المدينة ، فدخل على ابنته أم حبيبة ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه ، فقال : يا بنية ، أرغبت بى عن هذا الفراش ، أم رغبت به عنى ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ ، وأنت رجل مشرك نجس . فقال : والله لقد أصابك بعدى شر .

ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلمه ، فلم يزد عليه شيئا ، ثم ذهب إلى أبى بكر فكلمه أن يكلم رسول الله ﷺ ، فقال : ما أنا بفاعل ، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه ، فقال : أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ ؟ فوالله لو لم أجد إلا الدر لجاهدتكم به ، ثم جاء فدخل على على بن أبى طالب ، وعنده فاطمة ، وحسن غلام يدب بين يديهما ، فقال : يا على ، إنك أمس القوم بى رحما ، وإنى قد جئت فى حاجة ، فلا أرجعن كما جئت خائبا ، اشفع لى إلى محمد ، فقال : ويحك يا أبا سفيان ، لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه . فالتفت إلى فاطمة ، فقال : هل لك أن تأمرى ابنك هذا فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر هذا الدهر ؟ قالت : والله ما يبلغ ابنى ذاك أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ .

وحينئذ أظلمت الدنيا أمام عيني أبى سفيان ، فقال لعلى بن أبى طالب فى هلع وانزعاج ويأس وقنوط : يا أبا الحسن إنى أرى الأمور قد اشتدت على ، فانصحنى . قال : والله ما أعلم لك شيئا يغنى عنك . ولكنك سيد بنى كنانة ، فقم فأجر بين الناس ، ثم الحق بأرضك ، قال : أو ترى ذلك مغنيا عنى شيئا ؟ قال : لا والله ما أظنه ، ولكنى لم أجد لك غير ذلك . فقام أبو سفيان فى المسجد فقال : أيها الناس ، إنى قد أجزت بين الناس ، ثم ركب بعيره ، وانطلق .

ولما قدم على قریش ، قالوا : ما وراءك ؟ قال : جئت محمدا فكلمته ، فوالله ما رد على شيئا ثم جئت ابن أبى قحافة فلم أجد فيه خيرا ، ثم جئت عمر بن الخطاب ، فوجدته أدنى العدو ، ثم جئت عليا فوجدته ألين القوم ، قد أشار إلى بشىء صنعته ، فوالله ما أدرى

هل يغنى عنى شيئا أم لا ؟ قالوا : وبم أمرك ؟ قال : أمرنى أن أجير بين الناس ، ففعلت ، قالوا فهل أجاز ذلك محمدا ؟

قال : لا ، قالوا : ويلك ، إن زاد الرجل على أن لعب بك . قال : لا والله ما وجدت غير ذلك .

التهيؤ للغزوة ومحاولة الإخفاء :

يؤخذ للغزوة من رواية الطبرانى أن رسول الله ﷺ أمر عائشة - قبل أن يأتى إليه خبر نقض الميثاق بثلاثة أيام - أن تجهزه ، ولا يعلم أحد ، فدخل عليها أبو بكر ، فقال : يا بنية ما هذا الجهاز ؟ قالت : والله ما أدرى . فقال : والله ما هذا زمان غزو بنى الأصفر ، فأين يريد رسول الله ؟ قالت : والله لا علم لى . وفى صباح الثالثة جاء عمرو بن سالم الخزاعى فى أربعين راكبا ، وارتجز : يارب إنى ناشد محمدا .. الأبيات . فعلم الناس بنقض الميثاق ، وبعد عمرو جاء بديل ثم أبو سفيان وتأكد عند الناس الخبر ، فأمرهم رسول الله ﷺ بالجهاز ، وأعلمهم أنه سائر إلى مكة . وقال اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها .

وزيادة فى الإخفاء والتعمية بعث رسول الله ﷺ سرية قوامها ثمانية رجال تحت قيادة أبى قتادة بن ربعى إلى بطن أضرم فيما بين ذى خشب وذى المروة على ثلاثة برد من المدينة ، فى أول شهر رمضان سنة ٨ هـ ، ليظن الظان أنه ﷺ يتوجه إلى تلك الناحية ، ولتذهب بذلك الأخبار ، وواصلت هذه السرية سيرها ، حتى إذا وصلت حيثما أمرت بلغها أن رسول الله ﷺ خرج إلى مكة ، فسارت إليه حتى لحقته (١) .

وكتب حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش كتابا يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم ، ثم أعطاه امرأة ، وجعل لها جعلاً على أن تبلغه قريشا ، فجعلته فى قرون رأسها ، ثم خرجت به ، وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب ، فبعث عليا والمقداد ، فقال : انطلقا حتى تأتيا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب إلى قريش ، فانطلقا تعادى بهما خيلهما حتى وجدا المرأة بذلك المكان ، فاستنزلاها ، وقال : معك كتاب ؟ فقالت ما معى كتاب .

ففتشا رحلها فلم يجدا شيئا ، فقال لها على : أحلف بالله ، ما كذب رسول الله ﷺ

(١) وهذه السرية لقيت عامر بن الأضيظ ، فسلم عليهم بتحية الإسلام ، فقتله محلم بن جشامة لشيء كان بينهما ، وأخذ بغيره ومتبعه ، فأنزل الله ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ إِيكُمُ لَسْتُ مُؤْمِنًا﴾ الآية ، وجاءوا بمحلم ليستغفر له رسول الله ﷺ ، فلما قام بين يديه قال : اللهم لا تغفر لمحلم ، وقالها ثلاثا ، فقام وإنه ليتلقى دموعه بطرف ثوبه ، قال ابن إسحاق : وزعم قومه أنه استغفر له بعد ذلك . انظر زاد المعاد ١٥٠ / ٢ ، وابن هشام ٢ / ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٦٢٨ .

ولا كذبنا ، والله لتخرجن الكتاب أو لنجردنك . فلما رأت الجدد منه قالت : أعرض ، فأعرض ، فحلت قرون رأسها ، فاستخرجت الكتاب منها ، فدفعته إليهما ، فأتيا به رسول الله ﷺ ، فإذا فيه : (من حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش) يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ فدعا رسول الله ﷺ حاطبا ، فقال : ما هذا يا حاطب ؟ فقال : لا تعجل علي يا رسول الله ، والله إنني لمؤمن بالله ورسوله ، وما ارتددت ولا بدلت ، ولكني كنت امرأ ملصقا في قريش ، لست من أنفسهم ، ولي فيهم أهل وعشيرة وولد ، وليس لي فيهم قرابة يحمونهم ، وكان من معك لهم قرابات يحمونهم ، فأحببت إذ فاتني ذلك أن أتخذ عندهم يدا يحمون بها قرايتي . فقال عمر بن الخطاب : دعني يا رسول الله أضرب عنقه ، فإنه قد خان الله ورسوله ، وقد نافق ، فقال رسول الله ﷺ : إنه قد شهد بدرا ، وما يدريك يا عمر ، لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، فذرفت عينا عمر ، وقال : الله ورسوله أعلم (١) .

وهكذا أخذ الله العيون ، فلم يبلغ إلى قريش أى خبر من أخبار تجهز المسلمين وتهيئهم للزحف والقتال .

الجيش الإسلامى يتحرك نحو مكة :

ولعشر خلون من شهر رمضان المبارك سنة ٨ هـ غادر رسول الله ﷺ المدينة متجها إلى مكة ، فى عشرة آلاف من الصحابة رضى الله عنهم واستخلف على المدينة أبا رهم الغفارى .

ولما كان بالجحفة أو فوق ذلك لقيه عمه العباس بن عبد المطلب ، وكان قد خرج بأهله وعياله مسلما مهاجرا ، ثم لما كان رسول الله ﷺ بالأبواء لقيه ابن عمه أبو سفيان بن الحارث وابن عمته عبد الله بن أبي أمية ، فأعرض عنهما ، لما كان يلقاه منهما من شدة الأذى والهجو ، فقالت له أم سلمة : لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك . وقال على لأبى سفيان بن الحارث : ائت رسول الله ﷺ من قبل وجهه فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف : ﴿ قالوا تالله لقد آثرك الله علينا ، وإن كنا لخاطئين ﴾ (١٢ : ٩١) فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولا ، ففعل ذلك أبو سفيان ، فقال له رسول الله ﷺ : ﴿ لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾ (١٢ : ٩٢) فأنشده أبو سفيان أبياتا منها :

لتغلب خيل اللات خيل محمد
فهذا أوانى حين أهدى فأهتدى

لعمرك إنى حين أحمل راية
لكالمدلج الحيران أظلم ليله

(١) انظر صحيح البخارى ١ / ٤٢٢ ، ٢ / ٦١٢ .

هدانى هاد غير نفسى ودلنى على الله من طردته كل مطرد

فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال : أنت طردتنى كل مطرد (١) .

الجيش الإسلامى ينزل بمر الظهران :

وواصل رسول الله ﷺ سيره وهو صائم ، والناس صيام ، حتى بلغ الكديد - وهو ماء بين عسفان وقديد - فأفطر وأفطر الناس معه (٢) ، ثم واصل سيره حتى نزل بمر الظهران - وادى فاطمة - نزله عشاء ، فأمر الجيش ، فأوقدوا النيران ، فأوقدت عشرة آلاف نار ، وجعل رسول الله ﷺ على الحرس عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

أبو سفيان بين يدى رسول الله ﷺ :

وركب العباس - بعد نزول المسلمين بمر الظهران - بغلة رسول الله ﷺ البيضاء ، وخرج يلتمس لعله يجد بعض الخطابة أو أحدا يخبر قريشا ليخرجوا يستأمنون رسول الله ﷺ قبل أن يدخلها .

وكان الله قد عمى الأخبار عن قريش ، فهم على وجل وترقب ، وكان أبو سفيان يخرج يتجسس الأخبار ، فكان قد خرج هو وحكيم بن حزام ، وبديل بن ورقاء يتجسسون الأخبار .

قال العباس : والله إنى لأسير عليها - أى على بغلة رسول الله ﷺ - إذ سمعت كلام أبى سفيان وبديل بن ورقاء ، وهما يتراجعان ، وأبو سفيان يقول : ما رأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكريا . قال : يقول بديل : هذه والله خزاعة ، خمشتها الحرب ، فيقول أبو سفيان : خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها .

قال العباس : فعرفت صوته ، فقلت : أبا حنظلة ؟ فعرف صوتى ، فقال : أبا الفضل ؟ قلت : نعم ، قال : مالك ؟ فذاك أبى وأمى . قلت : هذا رسول الله ﷺ فى الناس ، واصباح قريش والله .

قال : فما الحيلة ؟ فذاك أبى وأمى ، قلت : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب فى عجز هذه البغلة ، حتى آتى بك رسول الله ﷺ فأستأمنه لك ، فركب خلفى ورجع صاحبا .

(١) حسن إسلام أبى سفيان هذا بعد ذلك ، ويقال : إنه ما رفع رأسه إلى رسول الله ﷺ منذ أسلم حياء منه . وكان رسول الله ﷺ يحبه وشهد له بالجنة ، وقال : أرجو أن يكون خلفا من حمزة . ولما حضرته الوفاة قال : لا تبكوا على نرا الله ما نطق بخطيئة منذ أسلمت . زاد المعاد ٢ / ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٢) صحيح البخارى ٢ / ٦١٣ .

قال : فجئت به ، فكلمنا مررت به على نار من نيران المسلمين ، قالوا : من هذا ؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا : عم رسول الله ﷺ على بغلته . حتى مررت بنار عمر بن الخطاب ، فقال : من هذا ؟ وقام إلى ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال : أبو سفيان عدو الله ؟ الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد ، ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ ، وركضت البغلة فسبقت ، فاقتحمت عن البغلة ، فدخلت على رسول الله ﷺ ، ودخل عليه عمر ، فقال : يا رسول الله ، هذا أبو سفيان فدعني أضرب عنقه ، قال : قلت : يا رسول الله ، إني قد أجرتة ، ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه ، فقلت : والله لا يناجيه الليلة أحد دوني ، فلما أكثر عمر في شأنه قلت : مهلا يا عمر ، فوالله لو كان من رجال بني عدى بن كعب ما قلت مثل هذا قال : مهلا يا عباس ، فوالله لإسلامك كان أحب إلي من إسلام الخطاب ، لو أسلم ، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب .

فقال رسول الله ﷺ : اذهب به يا عباس إلى رحلك ، فإذا أصبحت فأتني به ، فذهبت ، فلما أصبحت غدوت به إلى رسول الله ﷺ ، فلما رآه قال : ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟ قال : بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ؟ لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئا بعد .

قال : ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ، قال : بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ؟ أما هذه فإن في النفس حتى الآن منها شيئا . فقال له العباس : ويحك أسلم ، واشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، قبل أن تضرب عنقك ، فأسلم وشهد شهادة الحق .

قال العباس : يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر ، فاجعل له شيئا . قال : نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن .

الجيش الإسلامي يغادر مر الظهران إلى مكة :

وفي هذا الصباح - صباح يوم الأربعاء للسابع عشر من شهر رمضان سنة ٨ هـ غادر رسول الله ﷺ مر الظهران إلى مكة ، وأمر العباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادي عند خطم الجبل (١) ، حتى تمر به جنود الله فيراها ، ففعل ، فمرت القبائل على راياتها ، كلما مرت به قبيلة قال : يا عباس من هذه ؟ فيقول - مثلا - : سليم ، فيقول : مالي وسليم ؟ ثم تمر به القبيلة فيقول : يا عباس من هؤلاء ؟ فيقول : مزينة ، فيقول : مالي ولمزينة ؟ حتى نفدت القبائل ، ما تمر به قبيلة إلا سأل العباس عنها ، فإذا أخبره قال مالي ولبنى فلان ؟ حت

(١) الخطم : الأنف ، شيء يخرج من الجبل يضيق به الطريق .

ى مر به رسول الله ﷺ فى كتيبتة الخضراء ، فيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد ، قال : سبحان الله يا عباس من هؤلاء ؟ قال : هذا رسول الله ﷺ فى المهاجرين والأنصار . قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة . ثم قال والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيما قال العباس : يا أبا سفيان ، إنها النبوة ، قال : فنعم إذن .

وكانت راية الأنصار مع سعد بن عباد ، فلما مر بأبى سفيان قال له اليوم يوم الملحمة ، واليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشا . فلما حاذى رسول الله ﷺ أبا سفيان قال : يا رسول الله ألم تسمع ما قال سعد ؟ قال : وما قال ؟ فقال : كذا وكذا . فقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف : يا رسول الله ما نأمن أن يكون له فى قريش صولة ، فقال رسول الله ﷺ : بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة ، اليوم يوم أعز الله فيه قريشا ، ثم أرسل إلى سعد فتنزع منه اللواء ، ودفعه إلى ابنه قيس ، ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد . وقيل بل دفعه إلى الزبير .

قريش تباغت بزحف الجيش الإسلامى :

ولما مر رسول الله ﷺ بأبى سفيان قال له العباس : النجاء إلى قومك . فأسرع أبو سفيان حتى دخل مكة ، وصرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ، هذا محمد ، قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن .

فقامت إليه زوجته هند بنت عتبة ، فأخذت بشاربه فقالت : اقتلوا الحميت الدسم الأخمش الساقين . قبح من طليعة قوم .

قال أبو سفيان : ويلكم ، لا تغرنكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن . قالوا : قاتلك الله ، وما تغنى عنا دارك ؟ قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد ، ووبشوا أوباشا لهم ، وقالوا : نقدم هؤلاء فإن كان لقريش شيء كنا معهم ، وإن أصيبوا أعطينا الذى سئلنا فتجمع سفهاء قريش وأخفاؤها مع عكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو بالخندمة ليقاتلوا المسلمين ، وكان فيهم رجل من بنى بكر - حماس بن قيس - كان يعد قبل ذلك سلاحا ، فقالت له امرأته : لماذا تعد ماأرى ؟ قال : لمحمد وأصحابه قالت : والله ما يقوم لمحمد وأصحابه شيء . قال : إني والله لأرجو أن أخدمك بعضهم . ثم قال :

إن يقبلوا اليوم فمالى عله هذا سلاح كامل وآله

وذو غرارين سريع السله (١) .

(١) عله : يقال علَّ الرجل يعمل من المرض ، غرارين : حدين ، السله : الانتشال والسحب .

فكان هذا الرجل فيمن اجتمعوا في الخندمة .

الجيش الإسلامي بلدى طوى :

أما رسول الله ﷺ فمضى حتى انتهى إلى ذى طوى - وكان يضع رأسه تواضعا لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى أن شعر لحيته ليكاد يمس واسطة الرجل - وهناك وزع جيشه وكان خالد بن الوليد على المجنبية اليمنى - وفيها أسلم وسليم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من قبائل العرب - فأمره أن يدخل مكة من أسفلها ، وقال : إن عرض لكم أحد من قريش فاحصدوهم حصدا ، حتى توافوني على الصفا .

وكان الزبير بن العوام على المجنبية اليسرى ، وكان معه راية رسول الله ﷺ ، فأمره أن يدخل مكة من أعلاها - من كداء - وأن يغرز رايته بالحجون ، ولا يبرح حتى يأتيه .

وكان أبو عبيدة على الرجالة والحسر - وهم الذين لا سلاح معهم - فأمره أن يأخذ بطن الوادى ، حتى ينصب لمكة بين يدي رسول الله ﷺ .

الجيش الإسلامي يدخل مكة :

وتحركت كل كتيبة من الجيش الإسلامي على الطريق التى كلفت الدخول منها فأما خالد وأصحابه فلم يلتقهم أحد من المشركين إلا أناموه ، وقتل من أصحابه من المسلمين كرز ابن جابر الفهري وخنيس بن خالد بن ربيعة ، كانا قد شذا عن الجيش ، فسلكا طريقا غير طريقه فقتلا جميعا ، وأما سفهاء قريش فلقبهم خالد وأصحابه بالخندمة فناوشهم شيئا من قتال ، فأصابوا من المشركين اثني عشر رجلا فانهزم المشركون ، وانهزم حماس بن قيس - الذى كان يعد السلاح لقتال المسلمين - حتى دخل بيته ، فقال لامرأته : أغلقى على بابي : فقالت : وأين ما كنت تقول ؟ فقال :

إنك لو شهدت يوم الخندمة إذا فر صفوان وفر عكرمة

واستقبلتنا بالسيوف المسلمة يقطعن كل ساعد وجمجمه

ضربا فلا يسمع إلا غمغمه لهم نهيت خلفنا وهمهمه (١) .

لم تنطقى فى اللوم أدنى كلم .

وأقبل خالد يجوس مكة حتى وافى رسول الله ﷺ على الصفا .

وأما الزبير فتقدم حتى نصب راية رسول الله ﷺ بالحجون عند مسجد الفتح ، وضرب له هناك قبة ، فلم يبرح حتى جاءه رسول الله ﷺ .

(١) النهيت والهمهمة : أصوات .

الرسول ﷺ يدخل المسجد الحرام ويطهره من الأصنام :

ثم نهض رسول الله ﷺ ، والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله ، حتى دخل المسجد ، فأقبل إلى الحجر الأسود ، فاستلمه ، ثم طاف بالبيت ، وفي يده قوس ، وحول البيت وعليه ثلاثمائة وستون صنما ، فجعل يطعنهما بالقوس ، ويقول : ﴿ جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾ (١٧ : ٨١) ﴿ جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد ﴾ (٣٤ : ٤٩) والأصنام تتساقط على وجوهها .

وكان طوافه على راحلته ، ولم يكن محرماً يومئذ ، فاقتصر على الطواف ، فلما أكمله دعا عثمان بن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة ، فأمر بها ففتحت ، فدخلها ، فرأى فيها الصور ، ورأى فيها صورة إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - يستقسمان بالأزلام ، فقال : قاتلهم الله ، والله ما استقسما بها قط . ورأى في الكعبة حمامة من عيدان ، فكسرها بيده ، وأمر بالصور فمحييت .

الرسول ﷺ يصلي في الكعبة ثم يخطب أمام قريش :

ثم أغلق عليه الباب ، وعلى أسامة وبلال ، فاستقبل الجدار الذي يقابل الباب ، حتى إذا كان بينه وبينه ثلاثة أذرع وقف ، وجعل عمودين عن يساره ، وعموداً عن يمينه ، وثلاثة أعمدة وراءه - وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة - ثم صلى هناك ، ثم دار في البيت ، وكبر في نواحيه ، ووحد الله ، ثم فتح الباب ، وقريش قد ملأت المسجد صفوفاً ينتظرون ما إذا يصنع ؟ فأخذ بعضادتي الباب ، وهم تحته ، فقال :

لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو مال أو دم فهو تحت قدمي هاتين ، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد - السوط والعصا - ففيه الدية مغلظة ، مائة من الإبل ، أربعون منها في بطونها أولادها .

يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم ، وآدم من تراب ثم تلا هذه الآية ﴿ يا أيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ﴾ (٤٩ : ١٣) .

لا تثريب عليكم اليوم :

ثم قال : يا معشر قريش ، ماترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته : ﴿ لا تثريب عليكم اليوم ﴾ اذهبوا

فأنتم الطلقاء .

مفتاح البيت إلى أهله :

ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد ، فقام إليه على رضى الله عنه ، ومفتاح الكعبة في يده ، فقال : يا رسول الله ، اجمع لنا الحجابة مع السقاية ، صلى الله عليك ، وفي رواية : أن الذى قال ذلك هو العباس ، فقال رسول الله ﷺ : أين عثمان بن طلحة ؟ فدعى له فقال : هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم برووفاء ، وفي رواية ابن سعد فى الطبقات أنه قال له حين دفع المفتاح إليه : خذوها خالدة تالدة ، لا ينزعها منكم إلا ظالم ، يا عثمان ، إن الله استأمنكم على بيته ، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف .

بلال يؤذن على الكعبة :

وحانت الصلاة ، فأمر رسول الله ﷺ بلالا أن يصعد فيؤذن على الكعبة ، وأبو سفيان بن حرب ، وعتاب بن أسيد ، والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة . فقال عتاب : لقد أكرم الله أسيدا أن لا يكون سمع هذا ، فيسمع منه ما يغيظه ، فقال الحارث : أما والله لو أعلم أنه حق لا تبعته ، فقال أبو سفيان : أما والله لا أقول شيئا ، لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصباء ، فخرج عليهم النبي ﷺ فقال لهم : قد علمت الذى قلتم ، ثم ذكر ذلك لهم ، فقال الحارث وعتاب : نشهد أنك رسول الله ، والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول : أخبرك .

صلاة الفتح أو صلاة الشكر :

ودخل رسول الله ﷺ يومئذ دار أم هانئ بنت أبي طالب ، فاغتسل وصلى ثمانى ركعات فى بيته ، وكان ضحى ، فظنها من ظنها صلاة الضحى وإنما هذه صلاة الفتح ، وأجارت أم هانئ حموين لها ، فقال رسول الله ﷺ : قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ ، وقد كان أخوها على بن أبي طالب أراد أن يقتلها ، فأغلقت عليهما باب بيته ، وسألت النبي ﷺ ، فقال لها ذلك .

إهدار دماء رجال من أكابر المجرمين :

وأهدر رسول الله ﷺ يومئذ دماء تسعة نفر من أكابر المجرمين ، وأمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة ، وهم عبد العزى بن خطل ، وعبد الله بن أبي سرح ، وعكرمة ابن أبي جهل ، والحارث بن نفيل بن وهب ، ومقيس بن صبابه ، وهبار بن الأسود ، وقينتان كانتا لابن خطل ، كانتا تغنيان بهجو النبي ﷺ ، وسارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب ، وهى التى وجد معها كتاب حاطب .

فأما ابن أبي سرح ، فجاء به عثمان إلى النبي ﷺ ، وشفع فيه فحقن دمه ، وقبل إسلامه بعد أن أمسك عنه ، رجاء أن يقوم إليه بعض الصحابة فيقتله ، وكان قد أسلم قبل ذلك وهاجر ، ثم ارتد ورجع إلى مكة .

وأما عكرمة بن أبي جهل ففر إلى اليمن ، فاستأمنت له امرأته ، فأمنه النبي ﷺ فتبعته ، فرجع معها وأسلم ، وحسن إسلامه .

وأما ابن خطل فكان متعلقا بأستار الكعبة ، فجاء رجل إلى النبي ﷺ وأخبره فقال : اقتله . فقتله .

وأما مقيس بن صبابه فقتله نائلة بن عبد الله ، وكان مقيس قد أسلم قبل ذلك ، ثم عدا على رجل من الأنصار فقتله ، ثم ارتد ولحق بالمشركين .

وأما الحارث فكان شديد الأذى لرسول الله ﷺ بمكة ، فقتله على .

وأما هبار بن الأسود فهو الذي كان قد عرض لرينب بنت رسول الله ﷺ حين هاجرت ، فنخس بها حتى سقطت على صخرة وأسقطت جنينها ففر هبار يوم مكة ، ثم أسلم وحسن إسلامه .

وأما القينتان فقتلت إحداهما ، واستؤمن للأخرى ، فأسلمت ، كما استؤمن لسارة وأسلمت .

قال ابن حجر : وذكر أبو معشر فيمن أهدر دمه الحارث بن طلائل الخزاعي فقتله على ، وذكر الحاكم أيضا ممن أهدر دمه كعب بن زهير ، وقصته مشهورة وقد جاء بعد ذلك ، وأسلم ومدح ، ووحشي بن حرب ، وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان ، وقد أسلمت وأرنب مولاة ابن خطل أيضا قتلت وأم سعد ، قتلت فيما ذكر ابن إسحاق ، فكملت العدة ثمانية رجال وست نسوة ، ويحتمل أن تكون أرنب وأم سعد القينتان ، اختلف في اسمهما أو باعتبار الكنية واللقب (١) .

إسلام صفوان بن أمية ، وفضالة بن عمير :

لم يكن صفوان ممن أهدر دمه ، لكنه بصفته زعيما كبيرا من زعماء قريش خاف على نفسه وفر ، فاستأمن له عمير بن وهب الجمحي رسول الله ﷺ فأمنه ، وأعطاه عمامته التي دخل بها مكة ، فلحقه عمير وهو يريد أن يركب البحر من جدة إلى اليمن فردده ، فقال لرسول الله ﷺ : اجعلني بالخيار شهرين . قال : أنت بالخيار أربعة أشهر . ثم أسلم صفوان ، وقد كانت امرأته أسلمت قبله ، فأقرهما على النكاح الأول .

(١) فتح الباري ٨ / ١١ ، ١٢ .

وكان فضالة رجلا جريئا جاء إلى رسول الله ﷺ ، وهو في الطواف ، ليقتله فأخبره الرسول ﷺ بما في نفسه فأسلم .

خطبة الرسول ﷺ في اليوم الثاني من الفتح :

ولما كان الغد من يوم الفتح قام رسول الله ﷺ في الناس خطيبا ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ومجده بما هو أهله ، ثم قال : أيها الناس ، إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض ، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، فلا يحل لارئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دما ، أو يعضد بها شجرة ، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فقولوا : إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لکم ، وإنما حلت لي ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد الغائب .

وفي رواية : لا يعضد شوكه ، ولا ينفر صليده ، ولا تلتقط ساقطته إلا من عرفها ، ولا يختلي خلاه ، فقال العباس : يا رسول الله إلا الإذخر ، فإنه لقينهم وبيوتهم ، فقال : إلا الإذخر .

وكانت خزاعة قتلت يومئذ رجلا من بنى ليث بقتيل لهم في الجاهلية ، فقال رسول الله ﷺ بهذا الصدد : يا معشر خزاعة ، ارفعوا أيديكم عن القتل فلقد كثر القتل إن نفع ، لقد قتلتم قتيلا لأدينه ، فمن قتل بعد مقامي هذا فأهله بخير النظرين ، إن شاءوا قدم قاتله ، وإن شاءوا فعقله .

وفي رواية : فقام رجل من أهل اليمن يقال له « أبو شاه » فقال اكتب لي يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ : اكتبوا لأبي شاه (١) .

تخوف الأنصار من بقاء الرسول ﷺ في مكة :

ولما تم فتح مكة على الرسول ﷺ - وهي بلده ووطنه ومولده - قال الأنصار فيما بينهم : أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده أن يقيم بها - وهو يدعو على الصفا رافعا يديه - فلما فرغ من دعائه قال : ماذا قتلتم ؟ قالوا : لا شيء يا رسول الله ، فلم يزل بهم حتى أخبروه ، فقال رسول الله ﷺ : معاذ الله المحيا محياكم ، والممات مماتكم .

أخذ البيعة :

وحين فتح الله مكة على رسول الله ﷺ والمسلمين تبين لأهل مكة الحق ، وعلموا أن لا سبيل إلى النجاح إلا الإسلام ، فأذعنوا له ، واجتمعوا للبيعة ، فجلس رسول الله ﷺ على الصفا يبائع الناس ، وعمر بن الخطاب أسفل منه ، يأخذ على الناس ، فبايعوه على

(١) انظر لهذه الروايات صحيح البخاري ١/ ٢٢، ٢١٦، ٢٤٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٢ - ٢/ ٦١٥، ٦١٧،

وصحيح مسلم ١/ ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٣٩، وابن هشام ٢/ ٤١٥، ٤١٦، وأبو داود ١/ ٢٧٦ .

السمع والطاعة فيما استطاعوا .

وفى المدارك (١) : روى أن النبي ﷺ لما فرغ من بيعه الرجال أخذ فى بيعه النساء ، وهو على الصفا وعمر قاعد أسفل منه ، يبايعهن بأمره ، ويبلغهن عنه ، فجاءت هند بنت عتبة امرأة أبى سفيان متكررة خوفا من رسول الله ﷺ أن يعرفها ، لما صنعت بحمزة ، فقال رسول الله ﷺ : أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئا فبايع عمر النساء على أن لا يشركن بالله شيئا فقال رسول الله ﷺ : ولا تسرقن فقالت هند : إن أبى سفيان رجل شحيح ، فإن أنا أصبت من ماله هنات ؟ فقال أبو سفيان : وما أصبت فهو لك حلال ، فضحك رسول الله ﷺ وعرفها ، فقال : وإنك لهند ؟ قالت : نعم ، فاعف عما سلف يا نبي الله ، عفا الله عنك .

فقال : ولا يزنين . فقالت : أو تزنى الحرة ؟ فقال : ولا يقتلن أولادهن فقالت : رببناهم أصغارا ، وقتلتموهم كبارا ، فأنتم وهم أعلم - وكان ابنها حنظلة بن أبى سفيان قد قتل يوم بدر - فضحك عمر حتى استلقى ، فتبسم رسول الله ﷺ .

فقال : ولا يأتين بهتان . فقالت : والله إن البهتان لأمر قبيح ، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق ، فقال : ولا يعصينك فى معروف . فقالت : والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك .

ولما رجعت تكسر صنمها وتقول : كنا منك فى غرور .

إقامته ﷺ بمكة ، وعمله فيها :

وأقام رسول الله ﷺ بمكة تسعة عشر يوما ، يجدد معالم الإسلام ، ويرشد الناس إلى الهدى والتقوى ، وخلال هذه الأيام أمر أبى أسيد الخزاعى ، فجدد أنصاب الحرم ، واثب سرياه للدعوة إلى الإسلام ، ولكسر الأوثان التى كانت حول مكة ، فكسرت كلها ، ونادى مناديه بمكة : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع فى بيته صنما إلا كسره .

السرايا والبعوث :

١ - ولما اطمأن رسول الله ﷺ بعد الفتح بعث خالد بن الوليد إلى العزى ، لخمس ليال بقين من شهر رمضان (سنة ٨ هـ) ليهدمها ، وكانت بنخلة ، وكانت لقريش وجميع بنى كنانة ، وهى أعظم أصنامهم ، وكان مسندتها بنى شيبان ، فخرج إليها خالد فى ثلاثين فارسا حتى انتهى إليها ، فهدمها ، ولما رجع سأله رسول الله ﷺ : هل رأيت شيئا ؟ قال : لا قال : فإنك لم تهلكها ، فارجع إليها فاهدمها ، فارجع خالد متغريظا قد جرد سيفه ،

(١) انظر مدارك التنزيل للنسفى تفسير آية البقرة .

فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء ناشرة الرأس ، فجعل السادن يصيح بها ، فضربها خالد فجزلها باثنتين ، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره ، فقال نعم ، تلك العزى ، وقد أيسر أن تعبد في بلادكم أبدا .

٢ - ثم بعث عمرو بن العاص في نفس الشهر إلى سواح ليهدمه ، وهو صنم لهذيل برهاط ، على ثلاثة أميال من مكة ، فلما انتهى إليه عمرو قال له السادن : ما تريد ؟ قال : أمرني رسول الله ﷺ أن أهدمه ، قال : لا تقدر على ذلك ، قال : لم ؟ قال : تمنع . قال : حتى الآن أنت على الباطل ؟ ويحك فهل يسمع أو يبصر ؟ ثم دنا فكسره ، وأمر أصحابه فهدموا بيت خزائنه ، فلم يجدوا فيه شيئا ، ثم قال للسادن : كيف رأيت ؟ قال : أسلمت لله .

٣ - وفي نفس الشهر بعث سعد بن زيد الأنصلي في عشرين فارسا إلى مناة ، وكانت بالمشلل عند قديد للأوس والخزرج وغسان وغيرهم ، فلما انتهى سعد إليها قال له سادتها : ما تريد ؟ قال : هدم مناة ، قال : أنت وذاك ، فأقبل إليها سعد ، وخرجت امرأة عريانة سوداء ناشرة الرأس ، تدعو بالويل ، وتضرب صدرها ، فقال لها السادن : مناة دونك بعض عصاتك ، فضربها سعد فقتلها ، وأقبل إلى الصنم فهدمه وكسره ، ولم يجدوا في خزائنه شيئا .

٤ - ولما رجع خالد بن الوليد من هدم العزى بعثه رسول الله ﷺ في شعبان من نفس السنة (٨ هـ) إلى بنى جذيمة ، داعيا إلى الإسلام ، لا مقاتلا ، فخرج في ثلاثمائة وخمسين رجلا من المهاجرين والأنصار وبنى سليم ، فأنهى إليهم ، فدعاهم إلى الإسلام ، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا ، فجعلوا يقولون : « صباأنا صباأنا » فجعل خالد يقتلهم ويأسرهم ودفع إلى كل رجل ممن كان معه أسيرا ، فأمر يوما أن يقتل كل رجل أسيره ، فأبى ابن عمر وأصحابه ، حتى قدموا على النبي ﷺ ، فذكروا له ، فرفع ﷺ يديه وقال : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد - مرتين - (١) .

وكانت بنو سليم هم الذين قتلوا أسراهم دون المهاجرين والأنصار وبعث رسول الله ﷺ عليا فودى لهم قتلاهم وما ذهب منهم ، وكان بين خالد وعبد الرحمن بن عوف كلام وشرف في ذلك ، فبلغ ﷺ فقال : مهلا يا خالد ، دع عنك أصحابي ، فوالله لو كان أحد ذهباً ، ثم أنفقت في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابي ولا رוחته (٢) .

(١) صحيح البخاري ١/ ٤٥٥ ، ٢٠٠ ، ٦٢٢ (٢) أخذنا تفاصيل هذه الغزوة من ابن هشام ٢/ ٣٨٩ إلى ٤٣٧ ، وصحيح البخاري ١/ كتاب الجهاد وكتاب المناقب ٢/ ٦١٢ إلى ٦١٥ ، ٦٢٢ ، فتح الباري ٨/ ٣ إلى ٢٧ ، وصحيح مسلم ١/ ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٢/ ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٣٠ ، وزاد المعاد ٢/ ١٦٠ إلى ١٦٨ ، ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٣٢٢ إلى ٣٥١ .

تلك هى غزوة فتح مكة ، وهى المعركة الفاصلة والفتح الأعظم الذى قضى على كيان الوثنية قضاء باتا ، لم يترك لبقائها مجالا ، ولا مبررا فى ربوع الجزيرة العربية ، فقد كانت عامة القبائل تنتظر ماذا يتمخض عنه العراك والاصطدام الذى كان دائرا بين المسلمين والوثنيين ، وكانت تلك القبائل تعرف جيدا أن الحرم لا يسيطر عليه إلا من كان على الحق ، وكان قد تأكد لديهم هذا الاعتقاد الجازم أى تأكد قبل نصف القرن حين قصد أصحاب الفيل هذا البيت ، فأهلكوا وجعلوا كعصف مأكول .

وكان صلح الحديبية مقدمة وتوطئة بين يدي هذا الفتح العظيم ، أمن الناس به وكلم بعضهم بعضا ، وناظره فى الإسلام ، وتمكن من اختفى من المسلمين بمكة من إظهار دينه والدعوة إليه والمناظرة عليه ، ودخل بسببه بشر كثير فى الإسلام ، حتى إن عدد الجيش الإسلامى الذى لم يزد فى الغزوات السالفة على ثلاثة آلاف إذ هو يؤخر فى هذه الغزوة فى عشرة آلاف .

وهذه الغزوة الفاصلة فتحت أعين الناس ، وأزالت عنها آخر الستور التى كانت تحول بينها وبين الإسلام . وبهذا الفتح سيطر المسلمون على الموقف السياسى والدينى كليهما معا فى طول جزيرة العرب وعرضها ، فقد انتقلت إليهم الصدارة الدينية والزعامة الدنيوية .

فالطور الذى كان قد بدأ بعد هدنة الحديبية لصالح المسلمين قد تم وكمل بهذا الفتح المبين ، وبدأ بعد ذلك طور آخر كان لصالح المسلمين تماما ، وكان لهم فيه السيطرة على الموقف تماما ، ولم يبق لأقوام العرب إلا أن يقدوا إلى الرسول ﷺ ، فيعتنقوا الإسلام ، ويحملوا دعوته إلى العالم ، وقد تم استعدادهم لذلك فى سنتين آتيتين .

المرحلة الثالثة

وهى آخر مرحلة من مراحل حياة الرسول ﷺ ، تمثل النتائج التى أثمرتها دعوته الإسلامية بعد جهاد طويل وعناء ومتاعب وقلاقل وفتن واضطرابات ومعارك وحروب دامية ، واجهتها طيلة بضعة وعشرين عاما .

وكان فتح مكة هو أخطر كسب حصل عليه المسلمون فى هذه الأعوام ، تغير لأجله مجرى الأيام ، وتحول به جو العرب ، فقد كان الفتح حدا فاصلا بين المدة السابقة عليه وبين ما بعده ، فإن قریشا كانت فى نظر العرب حماة الدين وأنصاره ، والعرب فى ذلك تبع لهم ، فخضوع قریش يعتبر القضاء الأخير على الدين الوثنى فى جزيرة العرب .

ويمكن أن نقسم هذه المرحلة إلى صفحتين : (١) صفحة المجاهدة والقتال .
(٢) صفحة تسابق الشعوب والقبائل إلى اعتناق الإسلام وهاتان الصفحتان متلاصقتان
تناوبتا في هذه المرحلة ووقعت كل واحدة منهما خلال الأخرى ، إلا أنا اخترنا في
الترتيب الوضعي ، أن نأتي على ذكر كل من الصفحتين متميزة عن الأخرى ، ونظرا إلى
أن صفحة القتال ألصق بما مضى ، وأكثر مناسبة من الأخرى قدمناها في الترتيب .

غزوة حنين

إن فتح مكة جاء عقب ضربة خاطفة دهش لها العرب ، وبوغت القبائل المجاورة
بالأمر الواقع ، الذي لم يكن لها أن تدفعه ، ولذلك لم تمتنع عن الاستسلام إلا بعض القبائل
الشرسة القوية المتغطرسة ، وفي مقدمتها بطون هوازن وثقيف ، واجتمعت إليها نصر
وجشم وسعد بن بكر وناس من بني هلال - وكلها من قيس عيلان - رأت هذه البطون
من نفسها عزا وأنفة أن تقابل هذا الانتصار بالخضوع ، فاجتمعت إلى مالك بن عوف
النصرى وقررت المسير إلى حرب المسلمين .

مسير العدو ونزوله بأوطاس :

ولما أجمع القائد العام - مالك بن عوف - المسير إلى حرب المسلمين ساق مع الناس
أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، فسار حتى نزل بأوطاس - وهو واد في دار هوازن بالقرب
من حنين ، لكن وادي أوطاس غير وادي حنين ، وحنين واد إلى جنب ذي الحجاز ، بينه وبين
مكة بضعة عشر ميلا من جهة عرفات (١) .

مجرّب الحروب يغلط رأى القائد :

ولما نزل بأوطاس اجتمع إليه الناس ، وفيهم دريد بن الصمة - وهو شيخ كبير ، ليس
فيه إلا رأيته ومعرفته بالحرب ، وكان شجاعا مجربا - قال دريد : بأي واد أنتم ؟ قالوا :
بأوطاس ، قال : نعم مجال الخيل ، لا حزن ضرر ، ولا سهل دهس ، مالي أسمع رغاء
البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصبي وثغاء الشاء ؟ قالوا : ساق مالك بن عوف مع الناس
نساءهم وأموالهم وأبناءهم ، فدعا مالكا وسأله عما حمّله علي ذلك ، فقال : أردت أن
أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم ، فقال : راعي ضأن والله ، وهل يرد المنهزم
شيئ ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحت في
أهلك ومالك . ثم سأل عن بعض البطون والرؤساء ، ثم قال : يا مالك إنك لم تصنع بتقديم
بيضة هوازن إلى نحر الخيل شيئا ، ارفعهم إلى ممتنع بلادهم وعلياء قومهم ثم الق الصبابة
على متون الخيل ، فإن كانت لك لحق بك من وراءك ، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد
أحرزت أهلك ومالك .

(١) انظر فتح الباري ٨ / ٢٧ ، ٤٢ .

ولكن مالكا - القائد العام - رفض هذا الطلب قائلا : والله لا أفعل إنك قد كبرت وكبر عقلك ، والله لا تطيعني هوازن أو لأتكنأ على هذا السيف حتى يخرج من ظهري ، وكره أن يكون لدريد فيها ذكر أو رأى ، فقالوا : أطعناك ، فقال دريد : هذا يوم لم أشهده ولم يفتنى .

يا ليتنى فيها جذع
أخب فيها وأضع
أقود وطفاء الدمع
كأنها شاة صدع

سلاح استكشاف العدو :

وجاءت إلى مالك عيون كان قد بعثهم للاستكشاف عن المسلمين ، جاءت هذه العيون وقد تفرقت أوصالهم . قال : ويلكم ، ما شأنكم ؟ قالوا : رأينا رجالا بيضا على خيل بلق ، والله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى .

سلاح استكشاف رسول الله ﷺ :

ونقلت الأخبار إلى رسول الله ﷺ بمسير العدو ، فبعث أبا حذرد الأسلمي ، وأمره أن يدخل في الناس ، فيقيم حتى يعلم علمهم ، ثم يأتيه بخبرهم ، ففعل .
الرسول ﷺ يغادر مكة إلى حنين :

وفي يوم السبت - السادس من شهر شوال سنة ٨ هـ - غادر رسول الله ﷺ مكة - وكان ذلك اليوم التاسع عشر من يوم دخوله في مكة - خرج في اثني عشر ألفا من المسلمين ، عشرة آلاف ممن كانوا خرجوا معه لفتح مكة ، وألفان من أهل مكة ، وأكثرهم حديثو عهد بالإسلام ، واستعار من صفوان بن أمية مائة درع بأداتها ، واستعمل على مكة عتاب بن أسيد .

ولما كان عشية جاء فارس ، فقال : إني طلعت جبل كذا وكذا ، فإذا أنا بهوازن على بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشائهم ، فتبسم رسول الله ﷺ وقال : تلك غنيمة المسلمين غدا إن شاء الله ، وتطوع للحراسة تلك الليلة أنس بن أبي مرثد الغنوي (١) .

وفي طريقهم إلى حنين رأوا سدرة عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواط ، كانت العرب تعلق عليها أسلحتهم ، ويذبحون عندها ويعكفون ، فقال بعض أهل الجيش لرسول الله ﷺ : اجعل لنا ذات أنواط ، كما لهم ذات أنواط ، فقال : الله أكبر ، قلت والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسى : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، قال : إنكم قوم تجهلون ، إنها السنن ، لتركن سنن من كان قبلكم (٢) .

(٢) روى ذلك الترمذى .

(١) انظر سنن أبي داود .

وقد كان بعضهم قال نظراً إلى كثرة الجيش : لن تغلب اليوم ، وكان قد شق ذلك على رسول الله ﷺ .

الجيش الإسلامي يباغت الرماة والمهاجمين :

انتهى الجيش الإسلامي إلى حنين ليلة الثلاثاء لعشر خلون من شوال ، وكان مالك بن عوف قد سبقهم ، فأدخل جيشه بالليل في ذلك الوادي ، وفرق كمناءه في الطرق والمداخل ، والشعاب والأخباء والمضايق ، وأصدر إليهم أمره بأن يرشقوا المسلمين أول ما طلوعوا ، ثم يشدوا شدة رجل واحد .

وبالسحر عبأ رسول الله ﷺ جيشه ، وعقد الألوية والرايات وفرقها على الناس ، وفي عماية الصبح استقبل المسلمون وادي حنين ، وشرعوا ينحدرون فيه ، ولا يدرون بوجود كمناء العدو في مضايق هذا الوادي ، فبينما هم ينحطون إذا تمطر عليهم النبال ، وإذا كتائب العدو قد شدت عليهم شدة رجل واحد ، فانشمر المسلمون راجعين ، لا يلوى أحد على أحد وكانت هزيمة منكرة ، حتى قال أبو سفيان بن حرب ، وهو حديث عهد بالإسلام : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر - الأحمر - وصرخ جبلة أو كلدة بن الجنيدي : ألا بطل السحر اليوم .

وانحاز رسول الله ﷺ جهة اليمين وهو يقول : هلموا إلي أيها الناس ، أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله ، ولم يبق معه في موقفه إلا عدد قليل من المهاجرين وأهل بيته .
وحيث ظهرت شجاعة النبي ﷺ التي لا نظير لها . فقد طفق يركز بغلته قبل الكفار وهو يقول :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

بيد أن أبا سفيان بن الحارث كان أخذاً بلجام بغلته ، والعباس بركابه ، يكفانها ، أن لا تسرع . ثم نزل رسول الله ﷺ فاستنصر ربه قائلاً : اللهم أنزل نصرك .

رجوع المسلمين واحتدام المعركة :

وأمر رسول الله ﷺ عمه العباس - وكان جهير الصوت - أن ينادي الصحابة قال العباس : فقلت بأعلى صوتي : أين أصحاب السمرة ؟ قال : فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها ، فقالوا : يا لبيك يا لبيك (١) . ويذهب الرجل ليثني بغيره فلا يقدر عليه ، فيأخذ درعه ، فيقذفها في عنقه ، ويأخذ سيفه وترسه ، ويقتحم عن بغيره ، ويخلي سبيله ، فيؤم الصوت حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس واقتتلوا .

(١) صحيح مسلم ٢ / ١٠٠ .

وصرفت الدعوة إلى الأنصار ، يا معشر الأنصار ، يا معشر الأنصار ، ثم قصرت الدعوة في بنى الحارث بن الخزرج ، وتلاحقت كتائب المسلمين واحدة تلو الأخرى كما كانوا تركوا الموقعة ، وتجالد الفريقان مجالدة شديدة ، ونظر رسول الله ﷺ إلى ساحة القتال ، وقد استمر واحتدم ، فقال : « الآن حمى الوطيس » . ثم أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب الأرض ، فرمى بها في وجوه القوم وقال : شأهت الوجوه . فما خلق الله إنسانا إلا ملأ عينيه ترابا من تلك القبضة ، فلم يزل حدهم قليلا وأمرهم مدبرا .
انكسار حدة العدو ، وهزيمة الساحقة :

وما هي إلا ساعات قلائل - بعد رمى القبضة - حتى انهزم العدو ، هزيمة منكرة ، وقتل من ثقيف وحدهم نحو السبعين ، وحاز المسلمون ما كان مع العدو من مال وسلاح وظعن .

وهذا هو التطور الذى أشار إليه سبحانه وتعالى فى قوله : ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثيرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنودا لم تروها ، وعذب الذين كفروا ، وذلك جزاء الكافرين ﴾ (٩ : ٢٥ ، ٢٦) .

حركة المطاردة :

ولما انهزم العدو صارت طائفة منهم إلى الطائف ، وطائفة إلى نخلة ، وطائفة إلى أوطاس ، فأرسل النبي ﷺ إلى أوطاس طائفة من المطاردين يقودهم أبو عامر الأشعري ، فتناوش الفريقان القتال قليلا ، ثم انهزم جيش المشركين ، وفى هذه المناوشة قتل القائد أبو عامر الأشعري .

وطاردت طائفة أخرى من فرسان المسلمين فلول المشركين الذين سلكوا نخلة ، فأدركت دريد بن الصمة فقتله ربيعة بن رفيع .

وأما معظم فلول المشركين الذين لجأوا إلى الطائف ؛ فتوجه إليهم رسول الله ﷺ بنفسه بعد أن جمع الغنائم .

الغنائم :

وكانت الغنائم : السبى ستة آلاف رأس ، والإبل أربعة وعشرون ألفا ، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة ، وأربعة آلاف أوقية فضة ، أمر رسول الله ﷺ بجمعها ، ثم حبسها بالجعرانة ، وجعل عليها مسعود بن عمرو الغفارى ، ولم يقسمها حتى فرغ من غزوة الطائف .

وكانت فى السبى الشيماء بنت الحارث السعدية ؛ أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة فلما جىء بها إلى رسول الله ﷺ عرفت له نفسها فعرفها بعلامة فأكرمها . وبسط لها

رداءه ، وأجلسها عليه ، ثم من عليها ، وردّها إلى قومها ..

غزوة الطائف :

وهذه الغزوة في الحقيقة امتداد لغزوة حنين ، وذلك أن معظم فلول هوازن وثقيف دخلوا الطائف مع القائد العام - مالك بن عوف النصري - وتحصنوا بها ، فسار إليهم رسول الله ﷺ بعد فراغه من حنين وجمع الغنائم بالجرانة في نفس الشهر - شوال سنة ٨ هـ .

وقدم خالد بن الوليد على مقدمته طليعة في ألف رجل ، ثم سلك رسول الله ﷺ إلى الطائف ، فمر في طريقه على النخلة اليمانية ، ثم على قرن المنازل ، ثم على لية ، وكان هناك حصن لمالك بن عوف فأمر بهدمه ، ثم واصل سيره حتى انتهى إلى الطائف فنزل قريبا من حصنه ، وعسكر هناك ، وفرض الحصار على أهل الحصن .

ودام الحصار مدة غير قليلة ، ففي رواية أنس عند مسلم أن مدة حصارهم كانت أربعين يوما ، وعند أهل السير خلاف في ذلك ، فقيل : عشرين يوما ، وقيل : بضعة عشر وقيل : ثمانية عشر ، وقيل : خمسة عشر (١) .

ووقعت في هذه المدة مراماة ومقاذفات ، فالمسلمون أول ما فرضوا الحصار رماهم أهل الحصن رميا شديدا كأنه رجل جراد ، حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة ، وقتل منهم اثنا عشر رجلا ، واضطروا إلى الارتفاع عن معسكرهم إلى مسجد الطائف اليوم ، فعسكروا هناك .

ونصب النبي ﷺ المنجنيق على أهل الطائف ، وقذف به القذائف ، حتى وقعت شدحة في جدار الحصن ، فدخل نفر من المسلمين تحت دبابة (٢) ، ودخلوا بها إلى الجدار ليحرقوه ، فأرسل عليهم العدو سكك الحديد محمّاه بالنار ، فخرجوا من تحتها ، فرموهم بالنبل وقتلوا منهم رجالا .

وأمر رسول الله ﷺ - كجزء من سياسة الحرب لإلجاء العدو إلى الاستسلام - أمر بقطع الأغاب وتحريقها ، فقطعها المسلمون قطعا ذريعا ، فسأله ثقيف أن يدعها لله والرحم ، فتركها لله والرحم .

ونادى مناديه ﷺ : أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر ، فخرج إليهم ثلاثة وعشرون (٣) رجلا فيهم أبو بكر - تسور حصن الطائف وتدلّى منه ببكرة مستديرة يستقي عليها ، فكناه رسول الله ﷺ « أبا بكر » - فأعتقهم رسول الله ﷺ ، ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه ، فشق ذلك على أهل الحصن مشقة شديدة .

(١) فتح الباري ٨ / ٤٥ . (٢) لم تكن الدبابة كدبابتنا اليوم ، وإنما كانت تصنع من الخشب ، كان الناس يدخلون في جوفها ثم يدفعونها في أصل الحصن لينقبوه وهم في جوفها ، أو ليدخلوا من النقبات . (٣) صحيح البخاري ٢ / ٦٢٠

ولما طال الحصار ، واستعصى الحصن ، وأصيب المسلمون بما أصيبوا من رشق النبال وبسكك الحديد المحماة - وكان أهل الحصن قد أعدوا فيه ما يكفيهم لحصار سنة - استشار رسول الله ﷺ نوفل بن معاوية الديلى فقال : هم ثعالب فى جحر ، إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضررك ، وحينئذ عزم رسول الله ﷺ على رفع الحصار والرحيل ، فأمر عمر ابن الخطاب فأذن فى الناس : إنا قافلون غدا إن شاء الله ، فثقل عليهم وقالوا : نذهب ولا نفتحه ؟ فقال رسول الله ﷺ : اغدوا على القتال ، فغدوا فأصابهم جراح ، فقال إنا قافلون غدا إن شاء الله ، فسروا بذلك وأذعنوا ، وجعلوا يرحلون ، ورسول الله ﷺ يضحك .

ولما ارتحلوا واستقلوا قال : قولوا : آيرون تائبون عابدون لربنا حامدون .

وقيل : يا رسول الله ادع على ثقيف ، فقال : اللهم اهد ثقيف وآت بهم .

قسمة الغنائم بالجعرانة :

ولما عاد رسول الله ﷺ بعد رفع الحصار عن الطائف ؛ مكث بالجعرانة بضعة عشرة ليلة لا يقسم الغنائم ، ويتأني بها يبتغى أن يقدم عليه وفد هوازن تائبين ، فيحرزوا ما فقدوا ، ولكنه لم يجئه أحد ، فبدأ بقسمة المال ، ليسكت المتطلعين من رؤساء القبائل وأشرف مكة ، فكان المؤلفة قلوبهم أول من أعطى وحظى بالأنصبة الجزلة .

وأعطى أبا سفيان بن حرب أربعين أوقية ومائة من الإبل ، فقال : ابنى يزيد ؟ فأعطاه مثلها ، فقال : ابنى معاوية ؟ فأعطاه مثلها ، وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل ، ثم سأله مائة أخرى ، فأعطاه إياها ، وأعطى صفوان بن أمية مائة من الإبل ثم مائة - كذا فى الشفاء (١) ، وأعطى الحارث بن الحارث بن كلدة مائة من الإبل ، وكذلك أعطى رجلا من رؤساء قريش وغيرها مائة مائة من الإبل ، وأعطى آخرين خمسين وخمسين وأربعين أربعين حتى شاع فى الناس أن محمدا يعطى عطاء من لا يخاف الفقر ، فازدحمت عليه الأعراب يطلبون المال حتى اضطروه إلى شجرة ، فانتزعت رداءه فقال : أيها الناس ردوا على ردائى ، فوالذى نفسى بيده لو كان عندى شجر تهامة نعما لقسمته عليكم ، ثم ما ألفتهمونى بخيلا ولا جبانا ولا كذابا .

ثم قام إلى جنب بعيه فأخذ من سنامه وبرة ، فجعلها بين إصبعيه ، ثم رفعها ، فقال : أيها الناس والله مالى من فيئكم ، ولا هذه البرة إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم .

وبعد إعطاء المؤلفة قلوبهم أمر رسول الله ﷺ زيد بن ثابت بإحضار الغنائم والناس ، ثم فرضها على الناس ، فكانت سهامهم لكل رجل أربعين من الإبل وأربعين شاة ، فإن كان فارسا أخذ اثنى عشر بعييرا وعشرين ومائة شاة .

(١) الشفاء بتعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض ١ / ٨٦ .

كانت هذه القسمة مبنية على سياسة حكيمة فإن في الدنيا أقواما كثيرين يقادون إلى الحق من بطونهم ، لا من عقولهم ، فكما تهدي الدواب إلى طريقها بحزمة برسيم تظل تمذ إليها فمها حتى تدخل حظيرتها آمنة ، فكذلك هذه الأصناف من البشر تحتاج إلى فنون من الإغراء حتى تستأنس بالإيمان وتهش له (١) .

الأنصار تجد على رسول الله ﷺ :

وهذه السياسة لم تفهم أول الأمر ، فأطلقت السنة شتى بالاعتراض ، وكان الأنصار ممن وقعت عليهم مغارم هذه السياسة ، لقد جرموا جميعا أعطية حنين وهم الذين نودوا وقت الشدة فطاروا يقاتلون مع الرسول ﷺ حتى تبدل الفرار انتصارا ، وهام أولاء يرون أيدي الفارين ملأى ، وأما هم فلم يمنحوا شيئا قط (٢) .

روى ابن إسحاق عن أبي سعيد الخدري قال : لما أعطي رسول الله ﷺ ما أعطي من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب ، ولم يكن في الأنصار منها شيء ، وجد هذا الحى من الأنصار في أنفسهم ، حتى كثرت فيهم المقالة ، حتى قال قائلهم : لقي والله رسول الله ﷺ قومه ، فدخل عليه سعد بن عبادة فقال : يا رسول الله إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفىء الذى أصبت ؛ قسمت فى قومك ، وأعطيت عطايا عظاما فى قبائل العرب ، ولم يك فى هذا الحى من الأنصار منها شيء . قال : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ قال : يا رسول الله ما أنا إلا من قومي : قال : فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة ، فخرج سعد فجمع الأنصار فى تلك الحظيرة ، فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا ، وجاء آخرون فردهم ، فلما اجتمعوا له أتاه سعد فقال :

لقد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار فأتاهم رسول الله ﷺ ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

يا معشر الأنصار ما مقالة بلغتني عنكم ، وجدة وجدتموها على فى أنفسكم ؟ ألم آتكم ضللا فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا : بلى ، الله ورسوله أمن وأفضل .

ثم قال : ألا تجيبونى يا معشر الأنصار ؟ قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟

لله ورسوله المن والفضل - قال : أما والله لو شئتم لقلتم ، فلصدقتم ولصدقتم : أتيتنا مكذبا فصدقتنا ، فنصرناك ، وطريدا فأويناك وعائلا فأسيناك . أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله ﷺ إلى

(١، ٢) كلمة لمحمد الغزالي فى فقه السيرة ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا ؛ لسلكت شعب الأنصار اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار .

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله ﷺ قسما وحظا ، ثم انصرف رسول الله ﷺ ، وتفرقوا (١) .

قدوم وفد هوازن :

وبعد توزيع الغنائم أقبل وفد هوازن مسلما ، وهم أربعة عشر رجلا ، ورأسهم زهير بن صرد ، وفيهم أبو برقان عم رسول الله ﷺ من الرضاعة ، فسألوه أن يمن عليهم بالسبى والأموال ، وأدلوإ إليه بكلام ترق له القلوب ، فقال : إن معى من ترون ، وإن أحب الحديث إلى أصدقه ، فأبناؤكم ونسائكم أحب إليكم أم أموالكم قالوا : ما كنا نعدل بالأحساب شيئا . فقال : إذا صليت الغداة - أى صلاة الظهر - فقوموا فقولوا : إنا تستشفع برسول الله ﷺ إلى المؤمنين ، ونستشفع بالمؤمنين إلى رسول الله ﷺ أن يرد إلينا سبينا ، فلما صلى الغداة قاموا فقالوا ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وسأسال لكم الناس ، فقال المهاجرون والأنصار : ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ فقال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا . وقال عيينة بن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا ، وقال العباس بن مرداس : أما أنا وبنو سليم فلا . فقالت بنو سليم : ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ . فقال العباس بن مرداس : وهتمونى .

فقال رسول الله ﷺ : إن هؤلاء القوم جاءوا مسلمين ، وقد كنت استأنيت سبيهم ، وقد خيرتهم فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئا . فمن كان عنده منهن شيء فطابت نفسه بأن يرده فسيبيل ذلك ، ومن أحب أن يستمسك بحقه فليرد عليهم ، وله بكل فريضة ست فرائض من أول ما يفىء الله علينا ، فقال الناس : قد طيبنا لرسول الله ﷺ فقال : إنا لا نعرف من رضى منكم ممن لم يرض . فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم ، فردوا عليهم نساءهم وأبناءهم ، لم يتخلف منهم أحد غير عيينة بن حصن فإنه أبى أن يرد عجوزا صارت فى يديه منهم ، ثم ردها بعد ذلك ، وكسا رسول الله ﷺ السبى قبطية قبطية .

العمرة والانصراف إلى المدينة :

ولما فرغ رسول الله ﷺ من قسمة الغنائم فى الجعرانة أهل معتمرا منها فأدى العمرة ، وانصرف بعد ذلك راجعا إلى المدينة بعد أن ولى على مكة عتاب بن أسيد ، وكان رجوعه إلى المدينة لست ليال بقيت من ذى القعدة سنة ٨ هـ .

(١) ابن هشام ٢ / ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، وروى مثل ذلك البخارى ٢ / ٦٢٠ ، ٦٢١ .

قال محمد الغزالي : لله ما أفسح المدى الذى بين هذه الآونة الظافرة بعد أن توج الله هامته بالفتح المبين ، وبين مقدمه إلى هذا البلد النبيل منذ ثمانية أعوام ؟
لقد جاءه مطاردا يبغي الأمان ، غريبا مستوحشا ينشد الإيلاف والإيناس ، فأكرم أهله مشواه ، وآووه ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه ، واستخفوا بعداوة الناس جميعا من أجله ، وها هو ذا بعد ثمانية أعوام يدخل المدينة التى استقبلته مهاجرا خائفا ؛ لتستقبله مرة أخرى وقد دانت له مكة ، وألقت تحت قدميه بضيق كبرياتها وجاهليتها فأنهضها ؛ ليعزها بالإسلام ، وعفا عن خطيئاتها الأولى ﴿إِنَّهُ مِنْ يَتَّقٍ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٢: ٩٠) (١) .

البعوث والسرايا بعد الرجوع من غزوة الفتح

وبعد الرجوع من السفر الطويل الناجح أقام رسول الله ﷺ بالمدينة يستقبل الوفود ، ويبعث العمال ، ويث الدعاة ، ويكتب من بقى فيه الاستكبار عن الدخول فى دين الله ، والاستسلام للأمر الواقع الذى شاهده العرب . وهاك صورة مصغرة من ذلك :

المصدقون :

قد عرفنا مما تقدم أن رجوع رسول الله ﷺ إلى المدينة كان فى أواخر أيام السنة الثامنة فما هو إلا أن استهل هلال المحرم من سنة ٩ هـ ، وبعث رسول الله ﷺ المصدقين إلى القبائل ، وهذه هى قائمتهم :

- | | |
|-------------------------|-------------------|
| (١) عيينة بن حصن | إلى بنى تميم . |
| (٢) يزيد بن الحصين | إلى أسلم وغفار . |
| (٣) عباد بن بشير الأشهل | إلى سليم ومزينة . |
| (٤) رافع بن مكيث | إلى جهينة . |
| (٥) عمرو بن العاص | إلى بنى فزارة . |
| (٦) الضحاك بن سفيان | إلى بنى كلاب . |
| (٧) بشير بن سفيان | إلى بنى كعب . |

(١) فقه السيرة ص ٣٠٣ ، وانظر لتفصيل هذه الغزوات - فتح مكة وحنين والطائف ، وما وقع خلالها - زاد المعاد ج ٢ من ص ١٦٠ إلى ٢٠١ ، وابن هشام ج ٢ من ص ٣٨٩ إلى ٥٠١ ، وصحيح البخارى أبواب غزوة الفتح وحنين وأوطاس والطائف وغيرها ج ٢ من ص ٦١٢ إلى ٦٢٢ ، وفتح البارى ج ٨ من ص ٣ إلى ٥٨ . .

(٨) ابن اللثبية الأزدي

إلى بنى ذبيان .

(٩) المهاجر بن أبي أمية

إلى صنعاء . (وخرج عليه الأسود العنسي وهو بها) .

(١٠) زياد بن لبيد

إلى حضرموت .

(١١) عدي بن حاتم

إلى طيء وبنى أسد .

(١٢) مالك بن نويرة

إلى بنى حنظلة .

(١٣) الزبرقان بن بدر

إلى بنى سعد . (إلى قسم منهم) .

(١٤) قيس بن عاصم

إلى بنى سعد (إلى قسم آخر منهم) .

(١٥) العلاء بن الحضرمي

إلى البحرين .

(١٦) علي بن أبي طالب

إلى نجران (لجمع الصدقة والجزية كليهما)

وليس هؤلاء العمال كلهم بعثوا في المحرم سنة ٩ هـ . بل تأخر بعث عدة منهم إلى اعتناق الإسلام من تلك القبائل التي بعثوا إليها . نعم كانت بداية بعث العمال بهذا الاهتمام البالغ في المحرم سنة ٩ هـ . وهذا يدل على مدى نجاح الدعوة الإسلامية بعد هدنة الحديبية ، وأما بعد فتح مكة فقد دخل الناس في دين الله أفواجا .

السرايا :

وكما بعث المصدقون إلى القبائل مست الحاجة إلى بعث عدة من السرايا . مع سيادة الأمن على عامة مناطق الجزيرة . وهاك لوحة تلك السرايا :

١ - سرية عيينة بن حصن الفزاري - في المحرم سنة ٩ هـ - إلى بنى تميم ، في خمسين فارسا ، لم يكن فيهم مهاجري ولا أنصاري ، وسببها أن بنى تميم كانوا قد أغروا القبائل ، ومنعواهم عن أداء الجزية .

وخرج عيينة بن الحصن يسير الليل ويكمن النهار ، حتى هجم عليهم في الصحراء ، فولى القوم مدبرين ، وأخذ منهم أحد عشر رجلا وإحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبيا ، وساقهم إلى المدينة ، فأنزلوا في دار رملة بنت الحارث .

وقدم فيهم عشرة من رؤسائهم ، فجاءوا إلى باب النبي ﷺ ، فنادوا : يا محمد اخرج إلينا ، فخرج فتعلقوا به ، وجعلوا يكلمونه ، فوقف معهم ، ثم مضى حتى صلى الظهر ، ثم جلس في صحن المسجد ، فأظهروا رغبتهم في المفاخرة والمباهاة ، وقدموا خطيبهم عطارد بن حاجب فتكلم ، فأمر ، رسول الله ﷺ ثابت بن قيس بن شماس - خطيب الإسلام - فأجابهم ، ثم قدموا شاعرهم الزبرقان بن بدر فأنشد مفاخرا ، فأجابه شاعر الإسلام حسان بن ثابت على البديهة .

ولما فرغ الخطيبان والشاعران قال الأقرع بن حابس : خطيبه أخطب من خطيبنا ،
وشاعره أشعر من شاعرنا ، وأصواتهم أعلى من أصواتنا ، وأقوالهم أعلى من أقوالنا ، ثم
أسلموا فأجازهم رسول الله ﷺ ، فأحسن جوائزهم ، ورد عليهم نساءهم وأبنائهم (١) .

٢ - سرية قطبة بن عامر إلى حى من خشع بناحية تبالة ، بالقرب من تربة ، فى صفر
سنة ٩ هـ . خرج قطبة فى عشرين رجلا على عشرة أبعرة يعتقبونها ، فشن الغارة ، فاقتلوا
قاتلا شديدا حتى كثر الجرحى فى الفريقين جميعا ، وقتل قطبة مع من قتل ، وساق
المسلمون النعم والنساء والشاء إلى المدينة .

٣ - سرية الضحاك بن سفيان الكلابى إلى بنى كلاب فى ربيع الأول سنة ٩ هـ . بعثت
هذه السرية إلى بنى كلاب ، لدعوتهم إلى الإسلام ، فأبوا وقاتلوا فهزمهم المسلمون وقتلوا
منهم رجلا .

٤ - سرية علقمة بن مجرز المدلجى إلى سواحل جدة فى شهر ربيع الآخر سنة ٩ هـ
فى ثلاثمائة . بعثهم إلى رجال من الحبشة كانوا قد اجتمعوا بالقرب من سواحل جدة للقيام
بأعمال القرصنة ضد أهل مكة . فخاض علقمة البحر حتى انتهى إلى جزيرة . فلما سمعوا
بمسير المسلمين إليهم هربوا (٢) .

٥ - سرية على بن أبى طالب إلى صنم لطفى . يقال له القلس - ليهدمه - فى شهر
ربيع الأول سنة ٩ هـ . بعثه رسول الله ﷺ فى خمسين ومائة على مائة بغير وخمسين
فرسا ، ومعه راية سوداء ولواء أبيض ، فشنوا الغارة على محلة حاتم مع الفجر ، فهدموه
وملأوا أيديهم من السبى والنعم والشاء ، وفى السبى أخت عدى بن حاتم ، وهرب عدى
إلى الشام ، ووجد المسلمون فى خزانة القلس ثلاثة أسياف وثلاثة أدرع ، وفى الطريق
قسموا الغنائم ، وعزلوا الصفى لرسول الله ﷺ ، ولم يقسموا آل حاتم .

ولما جاءوا إلى المدينة استعطفت أخت عدى بن حاتم رسول الله ﷺ قائلة : يا رسول
الله ، غاب الرافد وانقطع الوالد ، وأنا عجوز كبيرة ، ما بى من خدمة ، فمن على من الله
عليك . قال : من وافدك ؟ قالت : عدى بن حاتم . قال : الذى فر من الله ورسوله ؟ ثم
مضى ، فلما كان الغد قالت مثل ذلك ، وقال لها مثل ما قال أمس . فلما كان بعد الغد
قالت مثل ذلك ، فمن عليها ، وكان إلى جنبه رجل - ترى أنه على - فقال لها : سليه
الحملان . فسألته ، فأمر لها به .

ورجعت أخت عدى بن حاتم إلى أخيها عدى بالشام ، فلما لقيته قالت عن رسول

(١) هكذا ذكره أهل المغازى أن هذه السرية كانت فى الحرم سنة ٩ هـ وفيه نظر ظاهر ، فإن السباق يشعر بأن الأقرع
ابن حابس لم يكن أسلم قبلها ، وقد ذكروا أن الأقرع بن حابس هو الذى قال حين استرد رسول الله ﷺ سبايا
بنى هرازن : أما أنا وبنوا تميم فلا . وهذا يقتضى إسلامه قبل هذه السرية . (٢) فتح البارى ٨ / ٥٩ .

الله ﷺ : لقد فعل فعلة ما كان أبوك يفعلها ، ائنه راغباً أو راهباً ، فجاءه عدى بغير أمان ولا كتاب ، فأتى به إلى داره ، فلما جلس بين يديه حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ما يفرك ؟ أيفرك أن تقول : لا إله إلا الله فهل تعلم من إله سوى الله ؟ قال : لا . ثم تكلم ساعة ثم قال : إنما تفر أن يقال : الله أكبر فهل تعلم شيئاً أكبر من الله ؟ قال : لا . قال : فإن اليهود مغضوب عليهم ، وإن النصارى ضالون . قال : فإنى حنيف مسلم . فانبسط وجهه فرحاً ، وأمر به فنزل عند رجل من الأنصار ، وجعل يأتى النبي ﷺ طرفى النهار (١) .

وفى رواية ابن إسحاق عن عدى أن النبي ﷺ لما أجلسه بين يديه فى داره قال له : إيه يا عدى بن حاتم ، ألم تكن ركوسياً ؟ قال : قلت : بلى . قال : أولم تكن تسير فى قومك بالمرباع ؟ قال : قلت : بلى . قال : فإن ذلك لم يحل لك فى دينك . قال : قلت أجل والله . قال : وعرفت أنه نبي مرسل ، يعرف ما يجهل (٢) .

وفى رواية لأحمد أن النبي ﷺ قال : يا عدى أسلم تسلم . فقلت إنى من أهل دين . قال : أنا أعلم بدينك منك . فقلت : أنت أعلم بدينى منى ؟ قال نعم ، ألسنت من الركوسية وأنت تأكل مرباع قومك ؟ فقلت : بلى قال : فإن هذا لا يحل لك فى دينك . قال : فلم يعد أن قالها فتواضعت لها (٣) .

وروى البخارى عن عدى قال : بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل ، فقال : يا عدى ، هل رأيت الحيرة ؟ فإن طالت بك حياة فلترين الطعينة ترحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة ، لا تخاف أحداً إلا الله ، ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى ، ولئن طالت بك حياة لترین الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة ويطلب من يقبله ، فلا يجد أحداً يقبله منه - الحديث - وفى آخره : قال عدى : فرأيت الطعينة ترحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله ، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي أبو القاسم ﷺ . « يخرج ملء كفه » (٤) .

غزوة تبوك

فى رجب سنة ٩هـ

إن غزوة فتح مكة كانت غزوة فاصلة بين الحق والباطل : لم يبق بعدها مجال للرية والظن فى رسالة محمد ﷺ عند العرب ، ولذلك انقلب الحجرى تماماً ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا - كما سيظهر ذلك مما تقدمه فى فصل الوفود ، ومن العدد الذى حضر فى

(٢) ابن هشام ٢ / ٥٨١ .

(٤) صحيح البخارى انظر مشكاة المصابيح ٢ / ٥٢٤

(١) زاد المعاد ٢ / ٢٠٥ .

(٣) مسند الإمام أحمد .

حجة الوداع - وانتهت المتاعب الداخلية واستراح المسلمون ؛ لتعليم شرائع الله ، وبث دعوة الإسلام .

سبب الغزوة :

إلا أنها كانت هناك قوة تعرضت للمسلمين من غير مبرر ، وهى قوة الرومان - أكبر قوة عسكرية ظهرت على وجه الأرض فى ذلك الزمان - وقد عرفنا فيما تقدم أن بداية هذا التعرض كانت بقتل سفير رسول الله ﷺ - الحارث بن عمير الأزدي - على يدى شرحبيل بن عمرو الغساني ، حينما كان السفير يحمل رسالة النبى ﷺ إلى عظيم بصرى ، وأن النبى ﷺ أرسل بعد ذلك سرية زيد بن حارثة التى اصطدمت بالرومان اصطداما عنيفا فى مؤتة ، ولم تنجح فى أخذ الثأر من أولئك الظالمين المتغطرسين ، إلا أنها تركت أروع أثر فى نفوس العرب قريهم وبعيدهم .

ولم يكن قيصر ليصرف نظره عما كان لمعركة مؤتة من الأثر الكبير لصالح المسلمين ، عما كان يطمح إليه بعد ذلك كثير من قبائل العرب من استقلالهم عن قيصر ، ومواطأتهم للمسلمين ، إن هذا كان خطرا يتقدم ويخطو إلى حدوده خطوة بعد خطوة ، ويهدد الثغور الشامية التى تجاور العرب ، فكان يرى أن القضاء يجب على قوة المسلمين قبل أن تتجسد فى صورة خطر عظيم لا يمكن القضاء عليها ، وقبل أن تثير القلاقل والثورات فى المناطق العربية المجاورة للرومان .

ونظراً إلى هذه المصالح لم يقض قيصر بعد معركة مؤتة سنة كاملة ؛ حتى أخذ يهيئ الجيش من الرومان والعرب التابعة لهم من آل غسان وغيرهم ، وبدأ يجهز لمعركة دامية فاصلة .

الأخبار العامة عن استعداد الرومان وغسان :

وكانت الأنباء تترامى إلى المدينة بإعداد الرومان ؛ للقيام بغزوة حاسمة ضد المسلمين ، حتى كان الخوف يتسورهم كل حين ، لا يسمعون صوتا غير معتاد إلا ويظنون : زحف الرومان ، ويظهر ذلك جليا مما وقع لعمر بن الخطاب ، فقد كان النبى ﷺ آلى من نسائه شهرا فى هذه السنة (٩ هـ) وكان هجرهن واعتزل عنهن فى مشربة له ، ولم يفتن الصحابة إلى حقيقة الأمر فى بدايته فظنوا أن النبى ﷺ طلقهن ، فسرى فيهم الهم والحزن والقلق ، يقول عمر بن الخطاب - وهو يروى هذه القصة - : وكان لى صاحب من الأنصار إذا غبت أتانى بالخبر ، وإذا غاب كنت آتية أنا بالخبر - وكانا يسكنان فى عوالى المدينة ، يتناوبان إلى النبى ﷺ - ونحن نتخوف ملكا من ملوك غسان ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا ، فقد امتلأت صدورنا منه ، فإذا صاحبى الأنصارى يدق الباب ، فقال : افتح ، افتح ، فقلت :

جاء الغساني؟ فقال: بل أشد من ذلك، اعتزل رسول الله ﷺ أزواجه. الحديث (١).

وفى لفظ آخر (أنه قال): وكنا تحدثنا أن آل غسان تنعل النعال لغزونا فنزل صاحبى يوم نوبته، فرجع عشاء، فضرب بابى ضرباً شديداً وقال: أناثم هو؟ ففزعت، فخرجت إليه، وقال: حدث أمر عظيم. فقلت: ما هو؟ أجاءت غسان؟ قال: لا بل أعظم منه وأطول، طلق رسول الله ﷺ نساءه. الحديث (٢).

وهذا يدل على خطورة الموقف الذى كان يواجهه المسلمون بالنسبة إلى الرومان. ويزيد ذلك تأكيداً ما فعله المنافقون حينما نقلت إلى المدينة أخبار إعداد الرومان، فبرغم ما رآه هؤلاء المنافقون من نجاح رسول الله ﷺ فى كل الميادين وأنه لا يوجل من سلطان على ظهر الأرض بل يذيب كل ما يعترض فى طريقه من عوائق، برغم، هذا كله طفق هؤلاء المنافقون يأملون فى تحقق ما كانوا يخفونه فى صدورهم، وما كانوا يترقبونه من الشر بالإسلام وأهله ونظراً إلى قرب تحقق آمالهم أنشأوا وكرة للدس والتآمر، فى صورة مسجد، وهو مسجد الضرار أسسوه كفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله، وعرضوا على رسول الله ﷺ أن يصلى فيه، وإنما مرامهم بذلك أن يخدعوا المؤمنين، فلا يفتنوا ما يؤتى به فى هذا المسجد من الدس والمؤامرة ضدهم، ولا يلفتوا إلى من يرده ويصدر عنه، فيصير وكرة مأمونة لهؤلاء المنافقين ولرفقائهم فى الخارج، ولكن رسول الله ﷺ آخر الصلاة فيه - إلى قفوله من الغزوة - لشغله بالجهاز ففشلوا فى مرامهم وفضحهم الله، حتى قام الرسول ﷺ بهدم المسجد بعد القفول من الغزو بدل أن يصلى فيه.

الأخبار الخاصة عن استعداد الرومان وغسان:

كانت هذه هى الأحوال والأخبار التى يواجهها ويتلقاها المسلمون، إذ بلغهم من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة أن هرقل قد هياً جيشاً عرمرماً قوامه أربعون ألف مقاتل، وأعطى قيادته لعظيم من عظماء الروم، وأنه أجلب معهم قبائل خم وجزام وغيرهما من متنصرة العرب، وأن مقدمتهم بلغت إلى البلقاء. وهكذا تمثل أمام المسلمين خطر كبير.

زيادة خطورة الموقف:

والذى كان يزيد خطورة الموقف أن الزمان كان فصل القيظ الشديد، وكان الناس فى عسرة وجذب من البلاء وقلة من الظهر، وكانت الثمار قد طابت، فكانوا يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص على الحال، من الزمان الذى هم فيه، ومع هذا كله كانت المسافة بعيدة، والطريق وعرة صعبة.

(٢) نفس المصدر ١/ ٣٣٤ ..

(١) صحيح البخارى ٢/ ٧٣٠ ..

الرسول ﷺ يقرر القيام بإقدام حاسم :

ولكن الرسول ﷺ كان ينظر إلى الظروف والتطورات بنظر أدق وأحكم من هذا كله . إنه كان يرى أنه لو توانى وتكاسل عن غزو الرومان فى هذه الظروف الحاسمة ، وترك الرومان لتجوس خلال المناطق التى كانت تحت سيطرة الإسلام ونفوذه ، وتزحف إلى المدينة ؛ كان له أسوأ أثر على الدعوة الإسلامية ، وعلى سمعة المسلمين العسكرية ، فالجاهلية التى تلفظ نفسها الأخير بعد ما لقيت من الضربة القاسمة فى حين ستحيا مرة أخرى ، والمنافقون الذين يتربصون الدوائر بالمسلمين ، ويتصلون بملك الرومان بواسطة أبى عامر الفاسق سيبيعون بطون المسلمين بخناجرهم من الخلف ، فى حين تهجم الرومان بحملة ضارية ضد المسلمين من الأمام ، وهكذا يخفق كثير من الجهود التى بذلها هو وأصحابه فى نشر الإسلام ، وتذهب المكاسب التى حصلوا عليها بعد حروب دامية ودوريات عسكرية متتابة متواصلة تذهب هذه المكاسب بغير جدوى .

كان رسول الله ﷺ يعرف كل ذلك جيدا ، ولذلك قرر القيام - مع ما كان فيه من العسرة والشدة - بغزوة فاصلة يخوضها المسلمون ضد الرومان فى حدودهم ، ولا يمهلونهم حتى يزحفوا إلى دار الإسلام .

الإعلان بالتهيؤ لقتال الرومان :

ولما قرر رسول الله ﷺ الموقف أعلن فى الصحابة أن يتجهزوا للقتال وبعث إلى القبائل من العرب وإلى أهل مكة يستنفرهم ، وكان قل ما يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها ، ولكنه نظرا إلى خطورة الموقف وإلى شدة العسرة أعلن أنه يريد لقاء الرومان ، وجلى للناس أمرهم ؛ ليتأهبوا أهبة كاملة ، وحضهم على الجهاد ، ونزلت قطعة من سورة براءة تثيرهم على الجلال ، وتحثهم على القتال . ورغبهم رسول الله ﷺ فى بذل الصدقات ، وإنفاق كرائم الأموال فى سبيل الله .

المسلمون يتسابقون إلى التجهز للغزو :

ولم يكن من المسلمين أن سمعوا صوت رسول الله ﷺ يدعو إلى قتال الروم إلا وتسابقوا إلى أمثاله ، فقاموا يتجهزون للقتال بسرعة بالغة ، وأخذت القبائل والبطون تهبط إلى المدينة من كل صوب وناحية ، ولم يرض أحد من المسلمين أن يتخلف عن هذه الغزوة - إلا الذين فى قلوبهم مرض وإلا ثلاثة نفر - حتى كان يجىء أهل الحاجة والفاقة يستحملون رسول الله ﷺ ؛ ليخرجوا إلى قتال الروم ، فإذا قال لهم : ﴿ لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون ﴾ (٩: ٩٢) .

كما تسابق المسلمون فى إنفاق الأموال وبذل الصدقات ، كان عثمان بن عفان قد

جهاز غير للشام ، مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها ، ومائتا أوقية ، فتصدق بها ثم تصدق بمائة بعير بأحلاسها وأقتابها ، ثم جاء بألف دينار فنثرها في حجره ﷺ ، فكان رسول الله ﷺ يقلبها ويقول : ماضر عثمان ما عمل بعد اليوم (١) . ثم تصدق وتصدق ، حتى بلغ مقدار صدقته تسعمائة بعير ومائة فرس سوى النقود .

وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائتي أوقية فضة ، وجاء أبو بكر بماله كله . ولم يترك لأهله إلا الله ورسوله . وكانت أربعة آلاف درهم ، وهو أول من جاء بصدقته ، وجاء عمر بنصف ماله ، وجاء العباس بمال كثير ، وجاء طلحة وسعد بن عباد ومحمد بن مسلمة ، كلهم جاءوا بمال ، وجاء عاصم بن عدى بتسعين وسقا من التمر ، وتتابع الناس بصدقاتهم قليلها وكثيرها ، حتى كان منهم من أنفق مدا أو مدين لم يكن يستطيع غيرها ؛ وبعث النساء ما قدرن عليه من مسك ، معاضد وخلائل وقرط وخواتم .

ولم يمسك أحد يده ، ولم يبخل بماله إلا المنافقون ﴿ الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات ، والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم ﴾ (٩ : ٧٩) **الجيش الإسلامي إلى تبوك :**

وهكذا تجهز الجيش ، فاستعمل رسول الله ﷺ على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري ، وقيل سباع بن عرفة ، وخلف على أهله علي بن أبي طالب ، وأمره بالإقامة فيهم ، وغمص عليه المنافقون ، فخرج فلحق برسول الله ﷺ ، فرده إلى المدينة وقال : ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدي .

ثم تحرك رسول الله ﷺ نحو الشمال يريد تبوك ، ولكن الجيش كان كبيرا - ثلاثون ألف مقاتل ، لم يخرج المسلمون في مثل هذا الجمع الكبير قبله قط - فلم يستطع المسلمون مع ما بذلوه من الأموال أن يجهزوه تجهيزا كاملا . بل كانت في الجيش قلة شديدة بالنسبة إلى الزاد والمراكب ، فكان ثمانية عشر رجلا يعتقبون بعيرا واحدا وربما أكلوا أوراق الأشجار حتى تورمت شفاههم ، واضطروا إلى ذبح البعير - مع قتلها - ليشربوا ما في كرشه من الماء ، ولذلك سمي هذا الجيش جيش العسرة .

ومر الجيش الإسلامي في طريقه إلى تبوك بالحجر - ديار ثمود والذين جابوا الصخر بالواد ، أي وادي القرى - فاستقى الناس من بئرها ، فلما راحوا قال رسول الله ﷺ : لا تشربوا من مائها ولا تتوضأوا منه للصلاة . وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل ، ولا تأكلوا منه شيئا ، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها ناقة صالح عليه السلام .

وفي الصحيحين عن ابن عمر قال : لما مر النبي ﷺ بالحجر قال : لا تدخلوا مساكن

(١) جامع الترمذي . مناقب عثمان بن عفان ٢ / ٢١١ .

الذين ظلموا أنفسهم ، أن يصيبكم ما أصابهم ، إلا أن تكونوا باكين ، ثم قنع رأسه وأسرع بالسير حتى جاز الوادي (١) .

واشتدت في الطريق حاجة الجيش إلى الماء حتى شكوا إلى رسول الله ﷺ ، فدعا الله ، فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس ، واحتملوا حاجاتهم من الماء .

ولما قرب من تبوك قال : إنكم ستأتون غدا إن شاء الله تعالى عين تبوك ، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار ، فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئا حتى آتى . قال معاذ : فجئنا وقد سبق إليها رجلان ، والعين تبض بشيء من مائها ، فسألهما رسول الله ﷺ : مسستما من مائها شيئا ؟ قالا : نعم . وقال لهما ما شاء الله أن يقول ، ثم غرف من العين قليلا قليلا حتى اجتمع الوشل ، ثم غسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويده ، ثم أعاده فيها فجرت العين بماء كثير فاستقى الناس ، ثم قال رسول الله ﷺ : يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما ههنا قد مليء جنانا (٢) .

وفي الطريق أو لما بلغ تبوك - على اختلاف الروايات - قال رسول الله ﷺ : تهب عليكم الليلة ريح شديدة ، فلا يقيم أحد منكم ، فمن كان له بعير فليشد عقاله ، فهبت ريح شديدة ، فقام رجل فحملته الريح حتى ألقت به بجبل طىء (٣) .

وكان دأب رسول الله ﷺ في الطريق أنه كان يجمع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء جمع التقديم وجمع التأخير كليهما .

الجيش الإسلامي بتبوك :

نزل الجيش الإسلامي بتبوك ، فعسكر هناك ، وهو مستعد للقاء العدو ، وقام رسول الله ﷺ فيهم خطيبا ، فخطب خطبة بليغة ، أتى بجوامع الكلم ، وحض على خير الدنيا والآخرة ، وحذر وأنذر ، وبشر وأبشر ، حتى رفع معنوياتهم ، وجبر بها ما كان فيهم من النقص والخلل من حيث قلة الزاد والمادة والمؤنة . وأما الرومان وحلفاؤهم فلما سمعوا بزحف رسول الله ﷺ أخذهم الرعب فلم يجترئوا على التقدم واللقاء ، بل تفرقوا في البلاد في داخل حدودهم ، فكان لذلك أحسن أثر بالنسبة إلى سمعة المسلمين العسكرية ، في داخل الجزيرة وأرجائها النائية . وحصل بذلك المسلمون على مكاسب سياسية كبيرة خطيرة ، بما لم يكونوا يحصلون عليها لو وقع هناك اصطدام بين الجيشين .

جاء يحنة بن روبة صاحب أيلة ، فصالح الرسول ﷺ وأعطاه الجزية وأتاه أهل جرباء وأهل أذرع ، فأعطوه الجزية ، وكتب لهم رسول الله ﷺ كتابا فهو عندهم ، وكتب لصاحب أيلة « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله

(١) صحيح البخارى باب نزول النبي ﷺ الحجر ٢ / ٦٣٧ . (٢) رواه مسلم عن معاذ بن جبل ٢ / ٢٤٦ .

(٣) نفس المصدر .

ليحنة بن روبة وأهل أيلة ، سفنهم وسياراتهم فى البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبى ، ومن كان معه من أهل الشام وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثا ، فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وإنه طيب لمن أخذه من الناس ، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ، ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر .

وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة الجندل فى أربعمئة وعشرين فارسا ، وقال له : إنك ستجده يصيد البقر فأتاه خالد ، فلما كان من حصنه بمنظر العين ، خرجت بقرة ، تحك بقرونها باب القصر ، فخرج أكيدر لصيده - وكانت ليلة مقمرة - فتلقاه خالد فى خيله ، فأخذه وجاء به إلى رسول الله ﷺ ، فحقن دمه ، وصالحه على ألفى بعير ، وثمانمئة رأس ، وأربعمئة درع ، وأربعمئة رمح ، وأقر بإعطاء الجزية ، فقاضاه مع يحنة على قضية دومة وتبوك وأيلة وتيماء .

وأيقنت القبائل التى كانت تعمل لحساب الرومان أن اعتمادها على سادتها الأقدمين قد فات أوانه ، فانقلبت لصالح المسلمين ، وهكذا توسعت حدود الدولة الإسلامية ، حتى لاقت حدود الرومان مباشرة ، وشهد عملاء الرومان نهايتهم إلى حد كبير .

الرجوع إلى المدينة :

ورجع الجيش الإسلامى من تبوك مظفرين منصورين ، لم ينالوا كيذا ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وفى الطريق عند العقبة حاول اثنا عشر رجلا من المنافقين .

الفتك بالنبى ﷺ ، وذلك أنه حينما كان يمر بتلك العقبة كان معه عمار يقود بزمام ناقته ، وحذيفة بن اليمان يسوقها ، وأخذ الناس ببطن الوادى ، فانتهز أولئك المنافقون هذه الفرصة . فبينما رسول الله ﷺ وصاحبه يسيران إذا سمعوا وكرة القوم من ورائهم ، قد غشوه وهم ملتثمون ، فبعث حذيفة فضرب وجوه رواحلهم بمحجن كان معه ، فأرعبهم الله ، فأسرعوا فى الفرار حتى لحقوا بالقوم ، وأخبر رسول الله ﷺ بأسمائهم ، وبما هموا به ، فلذلك كان حذيفة يسمى بصاحب سر رسول الله ﷺ ، وفى ذلك يقول الله تعالى ﴿وهموا بما لم ينالوا﴾ .

ولما لاح للنبى ﷺ معالم المدينة من بعيد قال : هذه طابة ، وهذا أحد ، جبل يحبنا ونحبه ، وتسامع الناس بمقدمه ، فخرج النساء والصبيان والولائد يقابلن الجيش بحفاوة بالغة ويقلن ^(١) .

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا مادعا لله داع

(١) هذا رأى بن القيم وقد مضى البحث عليه .

وكان خروجه ﷺ إلى تبوك في رجب وعوده في رمضان ، واستغرقت هذه الغزوة خمسين يوما . أقام منها عشرين يوما في تبوك . والبواقي قضائها في الطريق جيئة وذهوبا . وكانت هذه الغزوة آخر غزواته ﷺ .

المخلفون :

وكانت هذه الغزوة - لظروفها الخاصة بها - اختبارا شديدا من الله تعالى ، امتاز به المؤمنون من غيرهم كما هو دأبه تعالى في مثل هذه المواطن ، حيث يقول : ﴿ ما كان الله ليدر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ (٣: ١٧٩) فقد خرج لهذه الغزوة كل من كان مؤمنا صادقا ، حتى صار التخلف أمانة على نفاق الرجل فكان الرجل إذا تخلف وذكره لرسول الله ﷺ قال لهم: دعوه ، فإن يكن فيه خير سيلحقه الله بكم ، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم منه ، فلم يتخلف إلا من حبسهم العذر ، أو الذين كذبوا الله ورسوله من المنافقين ، الذين قعدوا بعد أن استأذنوا للقيود كذبا ، أو قعدوا ولم يستأذنوا رأسا . نعم كان هناك ثلاثة نفر من المؤمنين الصادقين تخلفوا من غير مبرر . وهم الذين أبلاهم الله ، ثم تاب عليهم .

ولما دخل رسول الله ﷺ المدينة بدأ بالمسجد ، فصلى فيه ركعتين ، ثم جلس للناس فأما المنافقون - وهم بضعة وثمانون رجلا (١) - فجاءوا يعتذرون بأنواع شتى من الأعذار ، وطفقوا يحلفون له ، فقبل منهم علانيتهم ، وبايعهم ، واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله .

وأما النفر الثلاثة من المؤمنين الصادقين - وهم كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية - فاختاروا الصديق ، فأمر رسول الله ﷺ ، أن لا يكلموا هؤلاء الثلاثة ، جرت ضد هؤلاء الثلاثة مقاطعة شديدة ، وتغير لهم الناس ، حتى تنكرت لهم الأرض ، وضائق عليهم بما رحبت ، وضائق عليهم أنفسهم ، وبلغت بهم الشدة أنهم بعد أن قضوا أربعين ليلة من بداية المقاطعة أمروا أن يعتزلوا نساءهم ، حتى تمت على مقاطعتهم خمسون ليلة ، ثم أنزل الله توبتهم ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضائق عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ، إن الله هو التواب الرحيم ﴾ (٩: ١١٨) .

وفرح المسلمون ، وفرح الثلاثة فرحا لا يقاس مداه وغايته ، فبشروا وأبشروا واستبشروا وأجازوا وتصدقوا ، وكان أسعد يوم من أيام حياتهم .

(١) ذكر الراقي أن هذا عدد كان من منافق الأنصار ، أن المعذرين من الأعراب كانوا أيضا اثنين وثمانين رجلا من بني غفار وغيرهم ، وأن عبد الله بن أبي ومن أطاعه من قومه كانوا من غير هؤلاء ، وكانوا عددا كثيرا (انظر فتح الباري ٨/ ١١٩) .

وأما الدين حبسهم العذر فقد قال تعالى فيهم : ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ﴾ ، والآيتين (٩ : ٩١ ، ٩٢) وقال فيهم رسول الله ﷺ حين دنا من المدينة : « إن بالمدينة رجالا ما سرتهم مسيرا ، ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم ، حبسهم العذر » ، قالوا : يا رسول الله ، وهم بالمدينة ؟ قال : وهم بالمدينة .

أثر الغزوة :

وكان لهذه الغزوة أعظم أثر في بسط نفوذ المسلمين وتقويته على جزيرة العرب ، فقد تبين للناس أنه ليس لأى قوة من القوات أن تعيش في العرب سوى قوة الإسلام ، وبطلت بقايا أمل وأمنية كانت تتحرك في قلوب بقايا الجاهليين والمنافقين الذين كانوا يتربصون الدوائر بالمسلمين ، وكانوا قد عقدوا آمالهم بالرومان ، فقد استكانوا بعد هذه الغزوة ، واستسلموا للأمر الواقع ، الذى لم يجدوا عنه محيدا ولا مناصا .

ولذلك لم يبق للمنافقين أن يعاملهم المسلمون بالرفق واللين ، وقد أمر الله بالتشديد عليهم ، حتى نهى عن قبول صداقاتهم ، وعن الصلاة عليهم ، والاستغفار لهم ، والقيام على قبرهم ، وأمر بهدم وكرة دسهم وتآمرهم التى بنوها باسم المسجد ، وأنزل فيهم آيات افترضوا بها افتضاحا تاما ، لم يبق فى معرفتهم بعدها أى خفاء ، كأن الآيات قد نصت على أسمائهم لمن يسكن بالمدينة .

ويعرف مدى أثر هذه الغزوة من أن العرب وإن كانت قد أخذت فى التوافد إلى رسول الله ﷺ بعد غزوة فتح مكة ؛ بل وما قبلها ، إلا أن تتابع الوفود وتكاثرها بلغ إلى القمة بعد هذه الغزوة (١) .

نزول القرآن حول موضوع الغزوة :

نزلت آيات كثيرة من سورة براءة حول موضوع الغزوة ، نزل بعضها قبل الخروج ، وبعضها بعد الخروج - وهو فى السفر - وبعض آخر منها بعد الرجوع إلى المدينة ، وقد اشتملت على ذكر ظروف الغزوة ، وفضح المنافقين ، وفضل المجاهدين والمخلصين ، وقبول التوبة من المؤمنين الصادقين ، الخارجين منهم فى الغزوة والمتخلفين ، إلى غير ذلك من الأمور .

* * * * *

(١) أخذنا تفاصيل هذه الغزوة من ابن هشام ٢ / ٥١٥ إلى ٥٣٧ ، وزاد المعاد ٣ / ٢ إلى ١٣ وصحيح البخارى ٢ / ٢٤٦ ، ٢٤٣ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ١ / ٢٥٢ ، ٤١٤ وغيرها وصحيح مسلم مع شرحه للنووى ٢ / ٢٤٦ . وفتح البارى ٨ / ١١٠ إلى ١٢٦ ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى من ص ٣٩١ إلى ٤٠٧ .

بعض الوقائع المهمة في هذه السنة :

وفي هذه السنة وقعت عدة وقائع لها أهمية في التاريخ :

- (١) بعد قدوم رسول الله ﷺ من تبوك وقع اللعان بين عويمر العجلاني وامرأته .
- (٢) رجمت المرأة الغامدية التي جاءت فاعترفت على نفسها بالفاحشة رجمت بعد ما فطمت ابنها .
- (٣) توفي النجاشي أصحمة ، ملك الحبشة ، وصلى عليه رسول الله ﷺ صلاة الغائب .
- (٤) توفيت أم كلثوم بنت النبي ﷺ ، فحزن عليها حزنا شديدا ، وقال لعثمان : لو كانت الثالثة لزوجتكها .
- (٥) مات رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول بعد سرّح رسول الله ﷺ من تبوك ، فاستغفر له رسول الله ﷺ ، وصلى عليه بعد أن حاول عمر منعه عن الصلاة عليه ، وقد نزل القرآن بعد ذلك بموافقة عمر .

حج أبي بكر رضي الله عنه

وفي ذى القعدة أو ذى الحجة من نفس السنة (٩ هـ) بعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميرا على الحج ، ليقم بالمسلمين المناسك .

ثم نزلت أوائل سورة براءة بنقض الموائيق ونبذها على سواء ، فبعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ليؤدى عنه ذلك ، وذلك تمشيا منه على عادة العرب في عهود الدماء والأموال ، فالتقى على أبي بكر بالعرج أو بضجنان ، فقال أبو بكر : أمير أو مأمور؟ قال علي : لا ، بل مأمور ثم مضيا ، وأقام أبو بكر للناس حجهم ، حتى إذا كان يوم النحر ، قام علي بن أبي طالب عند الجمرة ، فأذن في الناس بالذي أمره رسول الله ﷺ . ونبذ إلى كل ذى عهد عهده ، وأجل لهم أربعة شهور ، وكذلك أجل أربعة أشهر لمن لم يكن له عهد ، وأما الذين لم ينقضوا المسلمين شيئا . ولم يظاهروا عليهم أحدا ، فأبقى عهدهم إلى مدتهم .

وبعث أبو بكر رضي الله عنه رجلا ينادون في الناس : ألا لا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . وكان هذا النداء بمثابة إعلان نهاية الوثنية في جزيرة العرب ، وأنه لا تبدىء ولا تعبد بعد هذا العام (١) .

(١) صحيح البخارى ١ / ٢٢٠ ، ٤٥١ ، ٢ / ٦٢٦ ، ٦٧١ ، زاد المعاد ٣ / ٢٥ ، ٢٦ ، ابن هشام ٢ / ٥٤٣ ،

نظرة على الغزوات

إذا نظرنا إلى غزوات النبي ﷺ وبعوثه وسراياه ؛ لا يمكن لنا ولا لأحد ممن ينظر في أوضاع الحروب وآثارها وخلفياتها - لا يمكن لنا إلا أن نقول : إن النبي ﷺ كان أكبر قائد عسكري في الدنيا ، وأسدهم وأعمقهم فراسة وتيقظا ، إنه صاحب عبقرية فذة في هذا الوصف ، كما كان سيد الرسل وأعظمهم في صفة النبوة والرسالة ، فلم يخض معركة من المعارك إلا في الظرف ومن الجهة اللذين يقتضيهما الحزم والشجاعة والتدبير ، ولذلك لم يفشل في أى معركة من المعارك التى خاضها لغلطة في الحكمة وما إليها من تعبئة الجيش ، وتعيينه على المراكز الاستراتيجية ، واحتلال أفضل المواضع وأوثقها للمجابهة ، واختبار أفضل خطة لإدارة دفعة القتال ، بل أثبت في كل ذلك أن له نوعا آخر من القيادة غير ما عرفتها وتعرف الدنيا في القواد . ولم يقع ما وقع في أحد وحينئذ إلا من بعض الضعف في أفراد الجيش - في حين - أو من جهة معصيتهم وأوامره ، وتركهم التقيد والالتزم بالحكمة والخطة اللتين كان أوجبهما عليهم من حيث الوجهة العسكرية .

وقد تجلت عبقريته ﷺ في هاتين الغزوتين عند هزيمة المسلمين ، فقد ثبت مجابها للعدو ، واستطاع بحكمته الفذة أن يخيبهم في أهدافهم - كما فعل في أحد - أو يغير مجرى الحرب حتى يبدل الهزيمة انتصارا - كما في حنين - مع أن مثل هذا التطور الخطير ، ومثل هذه الهزيمة الساحقة تأخذان بمشاعر القواد ، وتتركان على أعصابهم أسوأ أثر ، لا يبقى لهم بعد ذلك إلا هم النجاة بأنفسهم .

هذه هى من ناحية القيادة العسكرية الخالصة ، أما من نواح أخرى ، فإنه استطاع بهذه الغزوات فرض الأمن وبسط السلام ، وإطفاء نار الفتنة ، وكسر شوكة الأعداء في صراع الإسلام والثنية ، وإلجائهم إلى المصالحة ، وتخلى السبيل لنشر الدعوة ، كما استطاع أن يتعرف على المخلصين من أصحابه ممن هو يبطن النفاق ، ويضمرون نوازع الغدر والخيانة .

وقد أنشأ طائفة كبيرة من القواد الذين لا قوا بعده الفرس والرومان في ميادين العراق والشام ، ففاقوهم في تخطيط الحروب وإدارة دفعة القتال ، حتى استطاعوا إجلاءهم من أرضهم وديارهم وأموالهم من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كما استطاع رسول الله ﷺ بفضل هذه الغزوات ، أن يوفر السكنى والأرض والحرف والمشاكل للمسلمين ، حتى تقضى على كثير من مشاكل اللاجئين الذين لم يكن لهم مال ولا دار ، وهيا السلاح والكراع والعدة والنفقات ، حصل على كل ذلك من غير أن يقوم بمثقال ذرة من الظلم والطغيان والبغى والعدوان على عباد الله .

وقد غير أغراض الحروب وأهدافها التي كانت تضطرم نار الحرب لأجلها في الجاهلية ، فبينما كانت الحرب عبارة عن النهب والسلب والقتل والإغارة والظلم والبغى والعدوان ، وأخذ الثأر والفوز بالوتر، وكبت الضعيف ، وتخريب العمران ، وتدمير البنيان ، وهتك حرمان النساء، والقسوة بالضعاف والولائد والصبيان وإهلاك الحرث والنسل، والعبث والفساد في الأرض - في الجاهلية - إذا سارت هذه الحرب - في الإسلام - جهادا في تحقيق أهداف نبيلة، وأغراض سامية وغايات محمودة ، يعتز بها المجتمع الإنساني في كل زمان ومكان ، فقد صارت الحرب جهادا في تخليص الإنسان من نظام القهر والعدوان . إلى نظام العدالة والنصف ، و من نظام يأكل فيه القوي الضعيف، إلى نظام يصير فيه القوي ضعيفا حتى يؤخذ منه، وصارت جهادا في تخليص المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا . واجعل لنا من لدنك نصيرا ، وصارت جهادا في تطهير أرض الله من الغدر والخيانة والإثم والعدوان إلى بسط الأمن والسلامة والرفقة والرحمة ومراعاة الحقوق والمروءة .

كما شرع للحروب قواعد شريفة ألزم التقيد بها على جنوده وقوادها ، ولم يسمح لهم الخروج عنها بحال . روى سليمان بن بريدة عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله عز وجل ، ومن معه من المسلمين خيرا ، ثم قال : اغزوا باسم الله ، في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ، فلا تغلوا ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليدا .. الحديث ، وكان يأمر بالتيشير ويقول : يسروا ولا تعسروا ، وسكنوا ولا تنفروا (١) ، وكان إذا جاء قوما بليل لم يفر عليهم حتى يصبح ، ونهى أشد النهى عن التحريق في النار ، ونهى عن قتل الصبية ، وقتل النساء وضربهن ، ونهى عن النهب حتى قال : إن النهي ليست بأحل من الميتة ، ونهى عن إهلاك الحرث والنسل وقطع الأشجار إلا إذا اشتدت إليها الحاجة ، ولا يبقى سواه سبيل . وقال عند فتح مكة : لا تجزن على جريح ، ولا تتبعن مدبرا ، ولا تقتلن أسيرا ، وأمضى السنة بأن السفير لا يقتل ، وشدد في النهي عن قتل المعاهدين حتى قال : من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها لتوجد من مسيرة أربعين عاما ... إلى غير ذلك من القواعد النبيلة التي ظهرت الحروب من أدران الجاهلية ، حتى جعلتها جهادا مقدسا (٢) .

(١) صحيح مسلم ٢ / ٨٢ ، ٨٣ .

(٢) انظر ذلك مفصلا في زاد المعاد ٢ / ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، والجهاد في الإسلام للأستاذ أبي الأعلى

المودودي ص ٢١٦ إلى ٢٦٢ .

الناس يدخلون في دين الله أفواجا

كانت غزوة فتح مكة - كما قلنا - معركة فاصلة ، قضت على الوثنية قضاء باتا ، عرفت العرب لأجلها الحق من الباطل ، وزالت عنهم الشبهات ، ففسارعوا إلى اعتناق الإسلام . قال عمرو بن سلمة : كنا بماء ممر الناس ، وكان يمر بنا الركبان فنسألهم : ما للناس ؟ ما هذا الرجل ؟ - أى النبي ﷺ - يقولون : يزعم أن الله أرسله ، وأوحى إليه . أوحى الله كذا ، فكنت أحفظ ذاك الكلام فكأنما يقر في صدري ، وكانت العرب تلوم بإسلامهم الفتح ، فيقولون : اتركوه وقومه ، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق ، فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم ، وبدر أبى قومي بإسلامهم ، فلما قدم قال : جئكم والله من عند النبي - ﷺ - حقا . فقال : صلوا صلاة كذا في حين كذا ، وصلاة كذا في حين كذا ، فإذا حضرت الصلاة فيؤذن أحدكم ، وليؤمكم أكثركم قرآنا ، الحديث (١) .

وهذا الحديث يدل على مدى أثر فتح مكة في تطوير الظروف ، وتعزيز الإسلام ، وتعيين الموقف للعرب ، واستسلامهم للإسلام ، وتأكد ذلك أى تأكد بعد غزوة تبوك ، ولذلك نرى الوفود تقصد المدينة تترى في هذين العامين - التاسع والعاشر - ونرى الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، حتى إن الجيش الإسلامي الذي كان قوامه عشرة آلاف مقاتل في غزوة الفتح ، إذا هو يزخر في ثلاثين ألف مقاتل في غزوة تبوك ، قبل أن يمضي على فتح مكة عام كامل ، ثم نرى في حجة الوداع بحرا من رجال الإسلام - مائة ألف من الناس أو مائة وأربعة وأربعون ألفا منهم - يموج حول رسول الله ﷺ بالتلبية والتكبير والتسبيح والتحميد تدوى له الآفاق ، وترتج له الأرجاء .

الوفود :

والوفود التي سردها أهل المغازي يزيد عددها على سبعين وفدا ، ولا يمكن لنا استقصاءها ، وليس كبير فائدة في بسط تفاصيلها ، وإنما نذكر منها إجمالا ماله روعة أو أهمية في التاريخ ، وليكن على ذكر من القاريء أن وفادة عامة القبائل وإن كانت بعد الفتح ؛ ولكن هناك قبائل توافدت قبله أيضا :

(١) وفد عبد القيس - كانت لهذه القبيلة وفادتان : الأولى سنة خمس من الهجرة أو قبل ذلك . كان رجل منهم يقال له منقذ بن حيان ، يرد المدينة بالتجارة ، فلما جاء المدينة بتجارته بعد مقدم النبي ﷺ ، وعلم بالإسلام أسلم وذهب بكتاب من النبي ﷺ إلى قومه

(١) صحيح البخاري ٦١٦/٢ .

فأسلموا ، فتوافدوا إليه في شهر حرام في ثلاثة أو أربعة عشر رجلا ، وفيها سألوا عن الإيمان وعن الأشربة ، وكان كبيرهم الأشج العصري الذي قال فيه رسول الله ﷺ : إن فيك خصلتين يحبهما الله : الحلم والأناة .

والوفادة الثانية كانت في سنة الوفود ، وكان عددهم فيها أربعين رجلا ، وكان فيهم الجارود بن العلاء العبدى ، وكان نصرانيا فأسلم وحسن إسلامه (١) .

(٢) وفد دوس - كانت وفادة هذه القبيلة في أوائل سنة سبع ، ورسول الله ﷺ بخيبر وقد قدمنا حديث إسلام الطفيل بن عمرو الدوسى ، وأنه أسلم ورسول الله ﷺ بمكة ، ثم رجع إلى قومه ، فلم يزل يدعوهم إلى الإسلام ويطعمون عليه ، حتى يئس منهم ، ورجع إلى رسول الله ﷺ ، فطلب منه أن يدعو على دوس ، فقال : اللهم اهد دوسا . ثم أسلم هؤلاء ، فوفد الطفيل بسبعين أو ثمانين بيتا من قومه إلى المدينة في أوائل سنة سبع ورسول الله ﷺ بخيبر فلحق به .

(٣) رسول فروة بنى عمرو الجذامى - كان فروة قائدا عربيا من قواد الرومان ، عاملا لهم على ما يليهم من العرب ، وكان منزله معان وما حوله من أرض الشام ، أسلم بعد ما رأى من جلاد المسلمين وشجاعتهم ، وصدقهم اللقاء في معركة مؤتة سنة ٨ هـ . ولما أسلم بعث إلى رسول الله ﷺ رسولا بإسلامه ، وأهدى له بغلة بيضاء ، ولما علم الروم بإسلامه أخذوه فحبسوه ، ثم خيروه بين الردة والموت ، فاختر الموت على الردة فصلبوه بفلسطين على ماء يقال له عفراء ، وضربوا عنقه (٢) .

(٤) وفد صداء - جاء هذا الوفد عقب انصراف رسول الله ﷺ من الجعرانة ٨ هـ . وذلك أن رسول الله ﷺ هيا بعثا من أربعمائة من المسلمين ، وأمرهم أن يطعموا ناحية من اليمن فيها صداء ، وبينما ذلك البعث معسكر بصدر قناة علم به زياد بن الحارث الصدائى ، فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال : جئتكم وافدا على من ورائى ، فاردد الجيش وأنا لك بقومى ، فرد الجيش من صدر قناة ، وجاء الصدائى إلى قومه فرغبهم فى القدوم على رسول الله ﷺ ، فقدم عليه خمسة عشر رجلا منهم ، وبايعوه على الإسلام ، ثم رجعوا إلى قومهم ، فدعواهم ، ففشا فيهم الإسلام ، فوافى رسول الله ﷺ منهم مائة رجل فى حجة الوداع .

(٥) قدوم كعب بن زهير بن أبى سلمى - كان من بيت الشعراء ، من أشعر العرب ، وكان يهجو النبى ﷺ ، فلما انصرف رسول الله ﷺ من غزوة الطائف سنة ٨ هـ . كتب إلى كعب بن زهير أخوه بجير بن زهير أن رسول الله ﷺ قتل رجلا بمكة ممن كانوا يهجونه ويؤذونه ، ومن بقى من شعراء قريش هربوا فى كل وجه ، فإن كانت لك فى

(١) شرح صحيح مسلم للنورى ١ / ٣٣ ، فتح البارى ٨ / ٨٥ ، ٨٦ .

(٢) زاد المعاد ٣ / ٤٥ ، تفهيم القرآن ٢ / ١٦٩ .

نفسك حاجة فطر إلى رسول الله ﷺ ، فإنه لا يقتل أحدا جاء تائبا ، وإلا فأنج إلى نجاتك ، ثم جرى بين الأخوين مراسلات ضاقت لأجلها الأرض على كعب ، وأشفق على نفسه ، فجاء المدينة ، ونزل على رجل في جهينة ، وصلى معه الصبح ، فلما انصرف أشار عليه الجهنى ، فقام إلى رسول الله ﷺ حتى جلس إليه ، فوضع يده فى يده ، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه فقال : يا رسول الله . إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائبا مسلما ، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟ قال : نعم . قال : أنا كعب بن زهير . فوثب عليه رجل من الأنصار يستأذن ضرب عنقه ، فقال : دعه عنك ، فإنه قد جاء تائبا نازعا عما كان عليه . وحينئذ أنشد كعب قصيدته المشهورة التى أولها :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول متيم إثرها ، لم يفد ، مكبول

قال فيها - وهو يعتذر إلى رسول الله ﷺ ، ويمدحه - :

نبئت أن رسول الله أوعدنى	والعفو عند رسول الله مأمون
مهلا هداك الذى أعطاك نافلة ال	قرآن فيها مواعظ وتفصيل
لا تأخذن بأقوال الوشاة ولم	أذنب ، ولو كثرت فى الأقاويل
لقد أقوم مقام ما لو يقوم به	أرى وأسمع ما لو يسمع الفيل
لظل يرعد ، إلا أن يكون له	من الرسول بإذن الله تنويل
حتى وضعت يمينى ما أنازعه	فى كف ذى نجمات قبله القيل
فلهو أخوف عندى إذا أكلمه	وقيل : إنك منسوب ومسئول
من ضيغم بضراء الأرض مخدرة	فى بطن عثر غيل دونه غيل
إن الرسول لنور يستضاء به	مهند من سيوف الله مسلول

ثم مدح المهاجرين من قريش ؛ لأنهم لم يكن تكلم منهم رجل فى كعب حين جاء إلا بخير ، وعرض فى أثناء مدحهم على الأنصار لاستئذان رجل منهم فى ضرب عنقه ، قال :

يمشون مشى الجمال الزهر يعصمهم ضرب إذا عرد السود التنايل

فلما أسلم وحسن إسلامه مدح الأنصار فى قصيدة له ، وتدارك ما كان قد فرط منه فى شأنهم ، قال فى تلك القصيدة :

من سره كرم الحياة فلا يزل فى مقنب من صالحى الأنصار

ورثوا المكارم كابرا عن كابر إن الخيار هم بنو الأخيار

(٦) وفد عذرة - قدم هذا الوفد في صفر سنة ٩ هـ . وهم اثنا عشر رجلا فيهم حمزة بن النعمان . قال متكلمهم حين سئلوا من القوم : نحن بنو عذرة ، أخوة قصي لأمه ، نحن الذين عضدوا قصصيا ، وأزاحوا من بطن مكة خزاعة وبنى بكر ، لنا قرابات وأرحام ، فرحب ، بهم النبي ﷺ ، وبشرهم بفتح الشام ونهاهم عن سؤال الكاهنة ، وعن الذبائح التي كانوا يذبحونها . أسلموا وأقاموا أياما ثم رجعوا .

(٧) وفد بلي - قدم في ربيع الأول سنة ٩ هـ ، أسلم وأقام بالمدينة ثلاثا وقد سأل رئيسهم أبو الضبيب عن الضيافة هل فيها أجر ؟ فقال رسول الله ﷺ : نعم ، وكل معروف صنعته إلى غنى أو فقير فهو صدقة ، وسأل عن وقت الضيافة ، فقال : ثلاثة أيام ، وسأل عن ضالة الغنم فقال : هي لك أو لأخيك أو للذئب ، وسأل عن ضالة البعير ، فقال : مالك وله ؟ دعه حتى يجده صاحبه .

(٨) وفد ثقيف - كانت وفادتهم في رمضان سنة ٩ هـ . بعد مرجع رسول الله ﷺ من تبوك . وقصة إسلامهم أن رئيسهم عروة بن مسعود الثقفي جاء إلى رسول الله ﷺ بعد مرجعه من غزوة الطائف في ذي القعدة سنة ٨ هـ قبل أن يصل إلى المدينة ، فأسلم عروة ورجع قومه ، ودعاهم إلى الإسلام - وهو يظن أنهم يطيعونه ؛ لأنه كان سيدا مطاعا في قومه ، وكان أحب إليهم من أبكارهم - فلما دعاهم إلى الإسلام رموه بالنبل من كل وجه حتى قتلوه ، ثم أقاموا بعد قتله أشهر ، ثم ائتمروا بينهم ، ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب الذين كانوا قد بايعوا وأسلموا - فأجمعوا أن يرسلوا رجلا إلى رسول الله ﷺ ، فكلّموا عبد ياليل بن عمرو ، وعرضوا عليه ذلك فأبى وخاف أن يصنعوا به إذا رجع مثل ما صنعوا بعروة قال : لست فاعلا حتى ترسلوا معي رجلا ، فبعثوا معه رجلين من الأحلاف وثلاثة من بنى مالك ، فصاروا ستة فيهم عثمان بن أبي العاص ، الثقفي ، وكان أحدثهم سنا .

فلما قدموا على رسول الله ﷺ ضرب عليهم فيه في ناحية المسجد ، لكي يسمعو القرآن ، ويروا الناس إذا صلوا ، ومكثوا يختلفون إلى رسول الله ﷺ ، وهو يدعوهم إلى الإسلام حتى سأل رئيسهم أن يكتب لهم رسول الله ﷺ قضية صلح بينه وبين ثقيف . يأذن لهم فيها بالزنا وشرب الخمر وأكل الربا ، ويترك لهم طاغيتهم اللات ، وأن يعفيهم من الصلاة وأن لا يكسروا أصنامهم بأيديهم ، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبل شيئا من ذلك ، فخلوا وتشاوروا ، فلم يجدوا محيصا عن الاستسلام لرسول الله ﷺ ، فاستسلموا وأسلموا ، واشترطوا أن يتولى رسول الله ﷺ هدم اللات ، وأن ثقيفا لا يهدمونها بأيديهم أبدا ؛ فقبل ذلك لكم ، كتب لهم كتابا ، وأمر عليهم عثمان بن أبي العاص الثقفي ، لأنه

كان أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم الدين والقرآن ؛ وذلك أن الوفد كانوا كل يوم يغدون إلى رسول الله ﷺ ، ويخلفون عثمان بن أبي العاص في رحالهم ، فإذا رجعوا وقالوا بالهاجرة عمد عثمان بن أبي العاص إلى رسول الله ﷺ ، فاستقرأه القرآن ، وسأله عن الدين ، وإذا وجده نائما عمد إلى أبي بكر لنفس الغرض ، (وكان من أعظم الناس بركة لقومه في زمن الردة ، فإن ثقيفا لما عزمتم على الردة قال لهم يامعشر ثقيف كنتم آخر الناس إسلاما فلا تكونوا أول الناس ردة فامتنعوا على الردة ، وثبتوا على الإسلام) . ورجع الوفد إلى قومه فكتمهم الحقيقة ، وخوفهم بالحرب والقتال ، وأظهر الحزن والكآبة ، وأن رسول الله ﷺ سألهم الإسلام وترك الزنا والخمر والربا وغيرها ولا يقاتلهم ، فأخذت ثقيفا نخوة الجاهلية ، فمكثوا يومين أو ثلاثة يريدون القتال ، ثم ألقى الله في قلوبهم الرعب ، وقالوا للوفد : ارجعوا إليه فأعطوه ما سأل ، وحينئذ أبدى الوفد حقيقة الأمر ، وأظهروا ما صالحوا عليه ، فأسلمت ثقيف .

وبعث رسول الله ﷺ رجالا لهدم اللات ، أمر عليهم خالد بن الوليد ، فقام المغيرة بن شعبة ، فأخذ الكرزين وقال لأصحابه : والله لأضحكنكم من ثقيف . فضرب بالكرزين ، ثم سقط يركض ، فارتج أهل الطائف ، وقالوا : أبعد الله المغيرة ، قتلته الربة ، فوثب المغيرة قائلاً : قبحكم الله ، إنما هي لكاع حجارة ومدر ، ثم ضرب الباب فكسره ، ثم علا أعلى سورها ، وعلا الرجال فهدموها وسووها بالأرض حتى حفروا أساسها ، وأخرجوا حليها ولباسها ، فبهتت ثقيف ، ورجع خالد مع مفرزته إلى رسول الله ﷺ بحليها وكسوتها ، فقسمه رسول الله ﷺ من يومه ، وحمد الله على نصرة نبيه وإعزاز دينه (١) .

(٩) رسالة ملوك اليمن - وبعد مرجع النبي ﷺ من تبوك قدم كتاب ملوك حمير ، وهم الحارث بن عبد كلال ، ونعيم بن عبد كلال ، والنعمان بن قيل ذي رعين ، وهمدان ومعاقر ، ورسولهم إليه ﷺ مالك بن مرة الرهاوي ، بعثوه بإسلامهم ومفارقتهم الشرك وأهله ، وكتب إليهم رسول ﷺ كتابا بين فيه ما للمؤمنين وما عليهم ، وأعطى فيهم المعاهدين ذمة الله وذمة رسوله إذا أعطوا ما عليهم من الجزية ، وبعث إليهم رجالا من أصحابه أميرهم معاذ بن جبل .

(١٠) وفد همدان - قدموا سنة ٩ هـ بعد مرجعه ﷺ من تبوك ، فكتب لهم رسول الله ﷺ كتابا أقطعهم فيه ما سألوه ، وأمر عليهم مالك بن النمط ، واستعمله على من أسلم من قومه وبعث إلى سائرهم خالد بن الوليد يدعوهم إلى الإسلام ، فأقام ستة أشهر يدعوهم فلم يجيبوه ، ثم بعث على بن أبي طالب ، وأمره أن يقفل خالد ، فجاء على همدان ، وقرأ عليهم كتابا من رسول الله ﷺ ، ودعاهم إلى الإسلام فأسلموا جميعا ، وكتب على

(١) زاد المعاد ٣ / ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ابن هشام ٣ / ٥٣٧ إلى ٥٤٢

بشارة إسلامهم إلى رسول الله ﷺ ، فلما قرأ الكتاب خر ساجدا ، ثم رفع رأسه فقال : السلام على همدان ، السلام على همدان .

(١١) وفد بنى فزارة - قدم هذا الوفد سنة ٩ هـ بعد مرجعه ﷺ من تبوك ، قدم في بضعة عشر رجلا جاءوا مقرين بالإسلام ، وشكوا جذب بلادهم ، فصعد رسول الله ﷺ المنبر ، ورفع يديه واستسقى ، وقال : اللهم اسق بلادك وبهائمك ، وانشر رحمتك ، وأحيى بلدك الميت ، اللهم اسقنا غيثا ، مغيثا ، مريحا ، صريحا ، طبقا ، واسعا ، عاجلا ، غير آجل ، نافعا غير ضار ، اللهم سقيا رحمة ، لا سقيا عذاب ، ولا هدم ، ولا غرق ، ولا محق ، اللهم اسقنا الغيث وانصرنا على الأعداء (١) .

(١٢) وفد نجران - (نجران ، بفتح النون وسكون الجيم : بلد كبير على سبع مراحل من مكة إلى جهة اليمن ، كان يشتمل على ثلاث وسبعين قرية ، مسيرة يوم للراكب السريع (٢) ، وكان يؤلف مائة ألف مقاتل كانوا على دين المسيحية) .

وكانت وفادة أهل نجران سنة ٩ هـ ، وقوام الوفد ستون رجلا ، منهم أربعة وعشرون من الأشراف ، فيهم ثلاثة كانت إليهم زعامة أهل نجران ، أحدهم العاقب ، كانت إليه الإمارة والحكومة واسمه عبد المسيح ، والثاني السيد ، كانت تحت إشرافه الأمور الثقافية والسياسية واسمه الأيهم أو شرحبيل ، والثالث الأسقف وكانت إليه الزعامة الدينية ، والقيادة الروحانية ، واسمه أبو حارثة بن علقمة .

ولما نزل الوفد بالمدينة ، ولقى النبي ﷺ سألهم وسألوه ، ثم دعاهم إلى الإسلام ، وتلا عليهم القرآن فامتنعوا ، وسألوه عما يقول في عيسى عليه السلام فمكث رسول الله ﷺ يومه ذلك حتى نزل عليه ﴿ إِنْ مَثَلْ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ . اِلْحَقْ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ . فَمَنْ حَاجَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ: تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ (٣ : ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١) .

ولما أصبح رسول الله ﷺ أخبرهم بقوله في عيسى ابن مريم في ضوء هذه الآية الكريمة ، وتركهم ذلك اليوم ؛ ليفكروا في أمرهم ، فأبوا أن يقرؤا بما قال في عيسى . فلما أصبحوا وقد أبوا عن قبول ما عرض عليهم من قوله في عيسى ، وأبوا عن الإسلام دعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة ، وأقبل مشتملا على الحسن والحسين في خميل له ، وفاطمة تمشي عند ظهره ، فلما رأوا منه الجد والتهيؤ خلوا وتشاوروا ، فقال كل من العاقب والسيد للآخر : لا تفعل فوالله لئن كان نبيا فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا ، فلا يبقى على وجه الأرض منا شعرة ولا ظفر إلا هلك ، ثم اجتمع رأيهم على تحكيم رسول الله ﷺ في

(٢) فتح الباري ٨ / ٩٤ .

(١) زاد المعاد ٣ / ٤٨ .

أمرهم ، فجاءوا وقالوا : إنا نعطيك ما سألتنا ، فقبل رسول الله ﷺ منهم الجزية ، وصالحهم على ألفى حلة ، ألف فى رجب ، وألف فى صفر ، ومع كل حلة أوقية ، وأعطاهم ذمة الله وذمة رسوله ، وترك لهم الحرية الكاملة فى دينهم ، وكتب لهم بذلك كتابا وطلبوا منه أن يبعث عليهم رجلا أمينا ، فبعث عليهم أمين هذه الأمة أبا عبيدة بن الجراح ؛ لقيبض مال الصلح .

ثم طفق الإسلام يفشو فيهم ، فقد ذكروا أن السيد والعاقب أسلما بعد ما رجعا إلى نجران ، وأن النبي ﷺ بعث إليهم عليا ؛ ليأتيه بصدقاتهم وجزيتهم ومعلوم أن الصدقة إنما تؤخذ من المسلمين (١) .

(١٣) وفد بنى حنيفة - كانت وفادتهم سنة ٩ هـ . وكانوا سبعة عشر رجلا فيهم مسيلمة الكذاب (٢) - وهو مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب بن الحارث من بنى حنيفة - نزل هذا الوفد بيت رجل من الأنصار ، ثم جاءوا إلى النبي ﷺ فأسلموا ، واختلفت الروايات فى مسيلمة الكذاب ، ويظهر بعد التأمل فى جميعها أن مسيلمة صدر منه الاستنكاف والأنفة والاستكبار والطموح إلى الإمارة ، وأنه لم يحضر مع سائر الوفد إلى رسول الله ﷺ ، وأن النبي ﷺ أراد استئلافه بالإحسان بالقول والفعل أولا ، فلما رأى أن ذلك لا يجدى فيه نفعا تفرس فيه الشر .

وكان النبي ﷺ قد أرى قبل ذلك فى المنام أنه أتى بخزائن الأرض ، فوقع فى يديه سواران من ذهب ، فكبرا عليه وأهمادا ، فأوحى إليه أن انفخهما فنفخهما ، فذهبا ، فأولهما كذابين يخرجان من بعده ، فلما صدر من مسيلمة ما صدر من الاستنكاف - وقد كان يقول : إن جعل لى محمد الأمر من بعده تبعته - جاءه رسول الله ﷺ وفى يده قطعة من جريد ، ومعه خطيبه ثابت بن قيس بن شماس ، حتى وقف على مسيلمة فى أصحابه ، فكلمه فقال له مسيلمة : إن شئت خيلنا بينك وبين الأمر ، ثم جعلته لنا بعدك ، فقال : لو سألتنى هذه القطعة ما أعطيتكها ، ولن تعدو أمر الله فىك ، ولكن أدبرت ليعقرنك الله ، والله إنى لأراك الذى أريت فيه ما رأيت ، وهذا ثابت يجيبك عنى . ثم انصرف (٣) .

وأخيرا وقع ما تفرس فيه النبي ﷺ ، فإن مسيلمة لما رجع إلى الإمامة بقى يفكر فى أمره ، حتى ادعى أنه أشرك فى الأمر مع النبي ﷺ ، فادعى النبوة ، وجعل يسجع السجعات ، وأحل لقومه الخمر والزنا ، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله ﷺ أنه نبي ،

(١) فتح البارى ٨ / ٩٤ ، ٩٥ ، زاد المعاد ٣٨ / ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، وقد اضطرت الروايات فى بيان كيفية وفد نجران ، حتى جنح بعض المحققين إلى أن وفادة أهل نجران كانت مرتين ، وقد ذكرنا ملخصا ما ترجع عندنا فى هذا الوفد . (٢) فتح البارى ٨ / ٨٧ . (٣) انظر صحيح البخارى باب وفد بنى حنيفة ، وباب قصة الأسود العنسى ٢ / ٦٢٧ ، ٦٢٨ وفتح البارى ٨ / ٨٧ - ٩٣ .

وافتنن به قومه فتبعوه ، وأصفقوا معه ، حتى تفاقم أمره ، فكان يقال له رحمان اليمامة لعظم قدره فيهم . وكتب إلى رسول الله ﷺ كتابا قال فيه : إني أشركت في الأمر معك ، وإن لنا نصف الأمر ، ولقريش نصف الأمر ، فرد عليه رسول الله ﷺ بكتاب قال فيه : ﴿ إِنْ الْأَرْضُ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) .

وعن ابن مسعود قال : جاء ابن النواحة ، وابن أثال رسولا مسيلمة إلى النبي ﷺ ، فقال لهما : أتشهدان أني رسول الله ؟ فقالا : نشهد أن مسيلمة رسول الله . فقال النبي ﷺ : آمنت بالله ورسوله . لو كنت قاتلا رسولا لقتلتكما (٢) .

كان ادعاء مسيلمة النبوة سنة عشر ، وقتل في حرب اليمامة في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه في ربيع الأول سنة ١٢ هـ ، قتله وحشى قاتل حمزة . وأما المنتبىء الثانى ، وهو الأسود العنسى الذى كان باليمن ، فقتله فيروز ، واحتز رأسه قبل وفاة النبي ﷺ بيوم وليلة ، فأتاه الوحى فأخبر به أصحابه ، ثم جاء الخبر من اليمن إلى أبي بكر رضي الله عنه (٣) .

(١٤) وفد بنى عامر بن صعصعة - كان فيهم عامر بن الطفيل عدو الله وأريد بن قيس - أنحو لبيد لأمه - وخالد بن جعفر ، وجبار بن أسلم ، وكانوا رؤساء القوم وشياطينهم ، وكان عامر هو الذى غدر بأصحاب بئر معونة ، فلما أراد هذا الوفد أن يقدم المدينة تأمر عامر وأريد ، واتفقا على الفتك بالنبي ﷺ ، فلما جاء الوفد جعل عامر يكلم النبي ﷺ ، ودار أريد خلفه ، واختلط سيفه شبرا ، ثم حبس الله يده فلم يقدر على سله ، وعصم الله نبيه ، ودعا عليهما النبي ﷺ ، فلما رجعا أرسل الله على أريد وجمله صاعقة فأحرقته ، وأما عامر فنزل على امرأة سلولية ، فأصيب بغدة في عنقه فمات وهو يقول : أغدة كغدة البعير ، وموتا في بيت السلولية .

وفي صحيح البخارى : أن عامرا أتى النبي ﷺ فقال : أخيرك بين خصال ثلاث : يكون لك أهل السهل ولئى أهل المدر ، أو أكون خليفتك من بعدك ، أو أغزوك بغطفان بألف أشقر وألف شقراء ، فطعن فى بيت امرأة ، فقال : أغدة كغدة البعير ، فى بيت امرأة من بنى فلان ، إيتونى بفرسى فركب ، فمات على فرسه .

(١٥) وفد تجيب - قدم هذا الوفد بصدقات قومه مما فضل عن فقرائهم وكان الوفد ثلاثة عشر رجلا ، كانوا يسألون عن القرآن والسنن يتعلمونها ، وسألوا رسول الله ﷺ أشياء فكتب لهم بها ، ولم يطيلوا اللبث ، ولما أجازهم رسول الله ﷺ بعثوا إليه غلاما كانوا خلفوه فى رحالهم ، فجاء الغلام ، وقال : والله ما أعلمنى من بلادى إلا أن تسأل الله عز وجل أن يغفر لى ويرحمنى ، وأن يجعل غناى فى قلبى ، فدعا له بذلك ، فكان (١) زاد المعاد ٣ / ٣١ ، ٣٢ . (٢) رواه الإمام أحمد ، مشكاة المصابيح ٢ / ٣٤٧ . (٣) نتج البارى ٨ / ٩٣

أقنع الناس وثبت في الردة على الإسلام ، وذكر قومه ، ووعظهم فشتوا عليه ، والتقى أهل الوفد بالنبي ﷺ مرة أخرى في حجة الوداع سنة ١٠ هـ .

(١٦) وفد طيء - قدم هذا الوفد وفيهم زيد الخيل ، فلما كلموا النبي ﷺ ، وعرض عليهم الإسلام أسلموا وحسن إسلامهم ، وقال رسول الله ﷺ عن زيد : ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ، ثم جاءني إلا رأيته دون ما يقال فيه ، ألا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل ما فيه ، وسماه زيد الخير .

وهكذا تتابعت الوفود إلى المدينة في سنتي تسع وعشر ، وقد ذكر أهل المغازي والسير منها وفود أهل اليمن ، والأزد وبني سعد هذيم من قضاة ، وبني عامر بن قيس ، وبني أسد وبهراء ، وخولان ، ومحارب ، وبني الحارث بن كعب ، وغامد ، وبني المنتفق ، وسلامان ، وبني عيس ، ومزينة ، ومراد وزبيد ، وكندة ، وذى مرة . وغسان ، وبني عيش ، ونخع - وهو آخر الوفود ، توافد في منتصف محرم سنة ١١ هـ في مائتي رجل - وكانت وفادة الأغلبية من هذه الوفود سنة ٩ و ١٠ هـ ، وقد تأخرت وفادة بعضها إلى سنة ١١ هـ .

وتتابع هذه الوفود يدل على مدى ما نالت الدعوة الإسلامية من القبول التام وبسط السيطرة والنفوذ على أنحاء جزيرة العرب وأرجائها ، وأن العرب كانت تنظر إلى المدينة بنظر التقدير والإجلال ، حتى لم تكن ترى محيصا عن الاستسلام أمامها ، فقد صارت المدينة عاصمة لجزيرة العرب ، لا يمكن صرف النظر عنها ، إلا أننا لا يمكن لنا القول بأن الدين قد تمكن من أنفس هؤلاء بأسرهم ؛ لأنه كان وسطهم كثير من الأعراب الجفاة الذين أسلموا تبعاً لسادتهم ، ولم تكن أنفسهم قد خلصت بعد ما تأصل فيها من الميل إلى الغارات ، ولم تكن تعاليم الإسلام قد هذبت أنفسهم تمام التهذيب ، وقد وصف القرآن بعضهم بقوله في سورة التوبة ﴿ الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، والله عليم حكيم . ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مشرما ويتربص بكم الدوائر ، عليهم دائرة السوء ، والله سميع عليم ﴾ (٩ : ٩٧ ، ٩٨) وأثنى على آخرين منهم فقال : ﴿ ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ، إلا إنها قربة لهم ، سيدخلهم الله في رحمته ، إن الله غفور رحيم ﴾ (٩ : ٩٩) أما الحاضرون منهم في مكة والمدينة وثقيف ، وكثير من اليمن والبحرين ؛ فقد كان الإسلام فيهم قويا ، ومنهم كبار الصحابة وسادات المسلمين (١)

(١) كلمة للخضري في محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ١/ ١٤٤ . وانظر في تفاصيل الوفود التي ذكرناها أو أشرنا إليها ، صحيح البخاري ١/ ١٣ ، ٢/ ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩ ، ٦٣٠ وابن هشام ٢/ ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٦٠ إلى ٦٠١ ، وزاد المعاد ٣/ ٢٦ إلى ٦٠ وفتح الباري ٨/ ٨٣ إلى ١٠٣ ورحمة للعالمين ١/ ١٨٤ إلى ٢١٧ .

نجاح الدعوة وأثرها

وقبل أن نتقدم خطوة أخرى إلى مطالعة أواخر أيام حياة الرسول ﷺ ؛ ينبغي لنا أن نلقى نظرة إجمالية على العمل الجلل الذي هو فذلكة حياته ، والذي امتاز به عن سائر الأنبياء والمرسلين ، حتى توج الله هامته بسيادة الأولين والآخرين .

إنه ﷺ قيل له : ﴿ يا أيها المزمل . قم الليل إلا قليلا ﴾ الآيات . و ﴿ يا أيها المدثر . قم فأنذر ﴾ الآيات ، فقام ، وظل قائما أكثر من عشرين عاما ، يحمل على عاتقه عبء الأمانة الكبرى في هذه الأرض ، عبء البشرية كلها ، وعبء العقيدة كلها ، وعبء الكفاح والجهاد في ميادين شتى

حمل عبء الكفاح والجهاد في ميدان الضمير البشرى الفارق في أوام الجاهلية وتصوراتها ، المثقل بأثقال الأرض وجواذبهها ، والمكبل بأوهاق الشهوات وأغلالها ، حتى إذا خلص هذا الضمير في بعض صحابته مما يثقله من ركام الجاهلية والحياة الأرضية ، بدأ معركة أخرى في ميدان آخر ، بل معارك متلاحقة . مع أعداء دعوة الله المتألبين عليها ، وعلى المؤمنين بها ، الحريصين على قتل هذه الغرسة الزكية في منبتها ، قبل أن تنموا وتقد جذورها في التربة ، وفروعها في القضاء ، وتظل مساحات أخرى . ولم يكد يفرغ من معارك الجزيرة العربية ؛ حتى كانت الروم تعد لهذه الأمة الجديدة ، وتتهيا للبطش بها على تخومها الشمالية .

وفي أثناء هذا كله لم تكن المعركة الأولى - معركة الضمير - قد انتهت ، فهي معركة خالدة ، الشيطان صاحبها ، وهو لا يننى لحظة عن مزاولة نشاطه في أعماق الضمير الإنساني ، ومحمد ﷺ قائم على دعوة الله هناك ، وعلى المعركة الدائبة في ميادينها المتفرقة ، في شظف من العيش ، والدنيا مقبلة عليه ، وفي جهد وكد ، والمؤمنون يستروحوون من حوله ظلال الأمن والراحة ؛ وفي نصب دائم لا ينقطع ، وفي صبر جميل على هذا كله ، وفي قيام الليل ، وفي عبادة لربه ، وترتيل لقرآنه ، وتبتل إليه كما أمره أن يفعل (١) .

وهكذا عاش في المعركة الدائبة المستمرة أكثر من عشرين عاما ، لا يلهيه شأن عن شأن في خلال هذا الأمد ، حتى نجحت الدعوة الإسلامية على نطاق واسع تتحير له العقول ، فقد دانت لها الجزيرة العربية ، وزالت غبرة الجاهلية عن آفاقها ، وصحت العقول العلية ، حتى تركت الأصنام ؛ بل كسرت ، وأخذ الجو يرتج بأصوات التوحيد ، وسمع الأذان للصلوات يشق أجواء الفضاء خلال الصحراء التي أحيها الإيمان الجديد ، وانطلق

(١) كلمة سيد قطب في ظلال القرآن ٢٩ / ١٦٨ ، ١٦٩ .

القراء شمالاً وجنوباً ، يتلون آيات الكتاب ، و يقيمون أحكام الله .

وتوحدت الشعوب والقبائل المتناثرة ، وخرج الإنسان من عبادة العباد إلى عبادة الله ، فليس هناك قاهر ومقهور ، و سادات وعبيد ، وحكام ومحكومون ، وظالم ومظلوم ، وإنما الناس كلهم عباد الله ، إخوان متحابون ، يمثلون لأحكامه ، أذهب الله عنهم عيب الجاهلية ونخوتها وتعاضلها بالآباء ، ولم يبق هناك فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ، الناس كلهم بنو آدم ، وآدم من تراب .

وهكذا تحققت - بفضل هذه الدعوة - الوحدة العربية ، والوحدة الإنسانية والعدالة الاجتماعية ، والسعادة البشرية في قضاياها ومشاكلها الدنيوية ، وفي مسائلها الأخروية ، فتقلب مجرى الأيام ، وتغير وجه الأرض ، وانعدل خط التاريخ ، وتبدلت العقلية .

إن العالم كانت تسيطر عليه الجاهلية - قبل الدعوة - ويتعفن ضميره ، وتأسن روحه ، وتختل فيه القيم والمقاييس ، ويسوده الظلم والعبودية ، وتجتاحه موجة من الترف الفاجر والحرمان التاعس ، وتغشاه غاشية الكفر والضلال والظلام ، على الرغم من الديانات السماوية ، التي كانت قد أدركها التحريف ، وسرى فيها الضعف ، وفقدت سيطرتها على النفوس ، واستحالت طقوساً جامدة لا حياة فيها ولا روح .

فلما قامت هذه الدعوة بدورها في حياة البشرية ؛ خلصت روح البشر من الوهم والخرافة ، ومن العبودية والرق ، ومن الفساد والتعفن ، ومن القذارة والانحلال ، وخلصت المجتمع الإنساني من الظلم والطغيان ، ومن التفكك والانحيار ، ومن فوارق الطبقات ، واستبداد الحكام ، واستذلال الكهان ، وقامت ببناء العالم على أسس من العفة والنظافة ، والإيجابية والبناء ، والحرية والتجدد ، ومن المعرفة واليقين ، والثقة والإيمان والعدالة والكرامة ، ومن العمل الدائب ؛ لتنمية الحياة ، وترقية الحياة ، وإعطاء كل ذي حق حقه في الحياة (١) .

وبفضل هذه التطورات شاهدت الجزيرة العربية نهضة مباركة لم تشاهد مثلها منذ نشأ فوقها العمران ، ولم يتألق تاريخها تألقه في هذه الأيام الفريدة من عمرها .

حجة الوداع

تمت أعمال الدعوة ، وإبلاغ الرسالة ، وبناء مجتمع جديد على أساس إثبات الألوهية لله ، ونفيها عن غيره ، على أساس رسالة محمد ﷺ ، وكأن هاتفا خفياً انبعث في قلب رسول الله ﷺ ، يشعره أن مقامه في الدنيا قد أوشك على النهاية ، حتى إنه حين بعث

(١) من كلمة سيد قطب في مقدمة ماذا خسر العالم بلخطاط المسلمين ص ١٤ .

معاذا على اليمن سنة ١٠ هـ قال له فيما قال : يا معاذ ، إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا ، ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري ، فبكي معاذ خشعاً لفراق رسول الله ﷺ .

وشاء الله أن يرى رسوله ﷺ ثمار دعوته ، التي عانى في سبيلها ألواناً من المتاعب بضعاً وعشرين عاماً ، فيجتمع في أطراف مكة بأفراد قبائل العرب وممثليها ، فيأخذوا منه شرائع الدين وأحكامه ، يأخذ منهم الشهادة على أنه أدى الأمانة ، وبلغ الرسالة ، ونصح الأمة .

أعلن النبي ﷺ بقصده لهذه الحجة المبرورة المشهودة ، فقدم المدينة بشر كثير ، كلهم يلتبس أن يأتيهم برسول الله ﷺ (١) ، وفي يوم السبت لأربع بقين من ذي القعدة تهيأ النبي ﷺ للرحيل (٢) ، فترجل وادهن ولبس إزاره ورداءه وقلد بدنه ، وانطلق بعد الظهر ، حتى بلغ ذا الحليفة قبل أن يصلي ، فصلاها ركعتين وبات هناك حتى أصبح ، فلما أصبح قال لأصحابه : أتاني الليلة آت من ربي فقال : صل في هذا الوادي المبارك ، وقل : عمرة في حجة (٣) .

وقبل أن يصلي الظهر اغتسل لإحرامه ، ثم طيبته عائشة بيدها بذريعة وطيب فيه مسك ، في بدنه ورأسه ، حتى كان ويبص الطيب يرى في مفارقه ولحيته ، ثم استدأمه ولم يغسله ، ثم لبس إزاره ورداءه ، ثم صلى الظهر ركعتين ، ثم أهل بالحج والعمرة في مصلاة ، وقرن بينهما ، ثم خرج ، فركب القصوراء ، فأهل أيضاً ، ثم أهل لما استقلت به على البداء .

ثم واصل سيره حتى قرب من مكة ، فبات بذي طوى ، ثم دخل مكة بعد أن صلى الفجر واغتسل من صباح يوم الأحد لأربع ليال خلون من ذي الحجة سنة ١٠ هـ . وقد قضى في الطريق ثمان ليال ، وهي المسافة الوسطى - فلما دخل المسجد الحرام طاف بالبيت ، وسعى بين الصفا والمروة ، ولم يحل ، لأنه كان قارناً قد ساق معه الهدى فنزل بأعلى مكة عند الحجون ، وأقام هناك ، ولم يعد إلى الطواف غير طواف الحج .

وأمر من لم يكن معه هدى من أصحابه أن يجعلوا إحرامهم عمرة ، فيطوفوا بالبيت وبين الصفا والمروة . ثم يحلوا حلالاً تاماً ، فترددوا ، فقال : لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت ، ولولا أن معي الهدى لأحللت ، فحل من لم يكن معه هدى ، وسمعوا وأطاعوا .

وفي اليوم الثامن من ذي الحجة - وهو يوم التروية - توجه إلى منى ، فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر - خمس صلوات - ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس ، فأجاز حتى أتى عرفة ، فوجد القبة قد ضربت له بنمرة ، فنزل بها ، حتى إذا زالت

(١) روى ذلك مسلم عن جابر ، باب حجة ﷺ ١ / ٣٩٤ . (٢) حقق ذلك ابن حجر تحقيقاً أليقاً مع تصحيح ما ورد من أنه خرج لخمس بقين من ذي القعدة . انظر فتح الباري ٨ / ١٠٤ . (٣) رواه البخاري عن عمر ١ / ٢٠٧ .

الشمس أمر بالقصواء فرحلت له ، فأتى بطن الوادى ، وقد اجتمع حوله مائة ألف وأربعة وعشرون أو أربعة وأربعون ألفا من الناس ، فقام فيهم خطيبا ، وألقى هذه الخطبة الجامعة :
أيها الناس ، اسمعوا قولى ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا (١) .

إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا . ألا كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث - وكان مسترضعا فى بنى سعد فقتلته هذيل - وربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضع من ربانا ربا عباس بن عبد المطلب ، فإنه موضوع كله .

فاتقوا الله فى النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به ، كتاب الله (٢) .

أيها الناس ، إنه لا نبي بعدى ، ولا أمة بعدكم ، ألا فاعبدوا ربكم ، وصلوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، وأدوا زكاة أموالكم ، طيبة بها أنفسكم ، وتحجون بيت ربكم ، وأطيعوا ولأمة أمركم ، تدخلوا جنة ربكم (٣) .

وأنتم تسألون عنى ، فما أنتم قائلون ؟ قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت . فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء ، وينكتها إلى الناس «اللهم اشهد» . ثلاث مرات (٤) .

وكان الذى يصرخ فى الناس بقول رسول الله ﷺ - وهو بعرفة - ربيعة بن أمية بن خلف (٥) .

وبعد أن فرغ النبي ﷺ من إلقاء الخطبة نزل عليه قوله تعالى ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ (٥ : ٣) وعندما سمعها عمر بكى ، ف قيل له : ما يبكيك ؟ قال : إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان (٦) .

(١) ابن هشام ٢ / ٦٠٣

(٢) صحيح مسلم باب حجة النبي ﷺ ١ / ٣٩٧ .

(٣) معدن الأعمال ، ورواه ابن ماجة وابن عساکر رحمة للعالمين ١ / ٢٦٣ .

(٤) مسلم ١ / ٣٩٧ .

(٥) ابن هشام ٢ / ٦٠٥ .

(٦) رواه البخارى عن ابن عمر ... انظر رحمة للعالمين ١ / ٢٦٥ .

وبعد الخطبة أذن بلال ثم أقام ، فصلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ، ولم يصل بينهما شيئا ، ثم ركب حتى أتى الموقف ، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات ، وجعل جبل المشاة بين يديه ، واستقبل القبلة ، فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس ، وذهبت الصفرة قليلا حتى غاب القرص ، وأردف أسامة ، ودفع حتى أتى المزدلفة ، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ، ولم يسبح بينهما شيئا ، ثم اضطجع حتى طلع الفجر ، فصلى الفجر حتى تبين له الصبح بأذان وإقامة ، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام ، فاستقبل القبلة ، فدعاه ، وكبره ، وهله ، ووحداه ، فلم يزل واقفا حتى أسفر جدا .

فدفع - من المزدلفة إلى منى - قبل أن تطلع الشمس ، وأردف الفضل بن عباس حتى أتى بطن محسر ، فحرك قليلا ، ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرة الكبرى ، حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة - وهي الجمرة الكبرى نفسها ، كانت عندها شجرة في ذلك الزمان ، وتسمى بجمرة العقبة وبالجمرة الأولى - فرماها بسبع حصيات ، يكبر مع كل حصاة منها ، مثل حصي الخذف رمى من بطن الوادي ، ثم انصرف إلى المنحر ، فنحر ثلاثا وستين بدنة بيده ، ثم أعطى عليا فنحر ما غبر - وهي سبع وثلاثون بدنة ، تمام المائة - وأشركه في هديه ، ثم أمر من كل بدنة ببضعة ، فجعلت في قدر ، فطبخت ، فأكلا من لحمها ، وشربا من مرقها .

ثم ركب رسول الله ﷺ ، فأفاض إلى البيت ، فصلى بمكة الظهر ، فأتى على بنى عبد المطلب يسقون على زمزم ، فقال : انزعوا بنى عبد المطلب فلولاً أن يغلبكم الناس على سقائكم لنزعت معكم ، فناولوه دلواً فشرب منه (١) .

وخطب النبي ﷺ يوم النحر - عاشر ذي الحجة - أيضا حين ارتفع الضحى ، وهو على بغلة شهباء ، وعلى يعبر عنه ، والناس بين قائم وقاعد (٢) . وأعاد في خطبته هذه بعض ما كان ألقاه أمس ، فقد روى الشيخان عن أبي بكر قال : خطبنا النبي ﷺ يوم النحر ، قال :

« إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ، ثلاث متواليات ، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان » .

وقال : « أي شهر هذا ؟ قلنا : الله وسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، وقال : أليس ذا الحجة ؟ قلنا : بلى . قال : أي بلد هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : أليست البلدة ؟ قلنا : بلى . فأى يوم هذا ؟

(١) رواه مسلم عن جابر حجة ، باب النبي ﷺ ١ / ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ .

(٢) روى ذلك أبو داود ، باب أى وقت يخطب يوم النحر ١ / ٢٧٠ .

قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال : أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى. قال : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا ، في شهركم هذا .

« وستلقون ربكم ، فيسألکم عن أعمالکم ، ألا فلا ترجعوا بعدي ضللا يضرب بعضكم رقاب بعض . »

« ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم ، قال : اللهم اشهد . فليبلغ الشاهد الغائب قرب مبلغ أوعى من سامع » (١).

وفى رواية أنه قال فى تلك الخطبة : « ألا لا يعجنى جان إلا على نفسه، ألا لا يعجنى جان على ولده ، ولا مولود على والده ، ألا إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى بلدكم هذا أبدا ، ولكن ستكون له طاعة فيما تحتقرون من أعمالكم ، فسيرضى به » (٢).

وأقام أيام التشريق بمنى يؤدى المناسك ويعلم الشرائع ، ويذكر الله ، ويقيم سنن الهدى من ملة إبراهيم ، ويمحو آثار الشرك ومعالمها ، وقد خطب فى بعض أيام التشريق أيضا ، فقد روى أبو داود بإسناد حسن عن سراء بنت نبهان قالت : خطبنا رسول الله ﷺ يوم الرءوس فقال : أليس هذا أوسط أيام التشريق (٣). وكانت خطبته فى هذا اليوم مثل خطبته يوم النحر، ووقعت هذه الخطبة عقب نزول سورة النصر .

وفى يوم النفر الثانى - الثالث عشر من ذى الحجة - نفر النبى ﷺ من منى ، فنزل بخيف بنى كنانة من الأبطح ، وأقام هناك بقية يومه ذلك ، وليلته ، وصلى هناك الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، ثم رقد رعدة ، ثم ركب إلى البيت ، فطاف به طواف الوداع ، وكان قد أمر به الصحابة أيضا .

ولما قضى مناسكه حث الركاب إلى المدينة المطهرة ، لا ليأخذ حظا من الراحة ، بل ليستأنف الكفاح والكدح لله وفى سبيل الله (٤).

آخر البعوث :

كانت كبرياء دولة الروم قد جعلتها تأبى عليه حق الحياة ، وحملها على أن تقتل من أتباعها من يدخل فيه ، كما فعلت بفروة بن عمرو الجذامى الذى كان واليا على معان من قبل الروم .

(١) صحيح البخارى ، باب الخطبة أيام منى ٢٣٤ / ١ .

(٢) رواه الترمذى ٣٨ / ٢ ، ١٣٥ وابن ماجه فى الحج ، مشكاة المصابيح ٢٣٤ / ١ .

(٣) أبو داود باب أى يوم يخطب بمنى ٢٦٩ / ١ (٤) انظر لتفصيل حجة النبى ﷺ صحيح البخارى كتاب المناسك ج ١ و ٢ / ٦٣١ وصحيح مسلم باب حجة النبى ﷺ وفتح البارى ج ٣ من شرح كتاب المناسك وج ٨ / ١٠٣ إلى ١١٠ وابن هشام ٦٠١ / ٢ إلى ٦٠٥ ، زاد المعاد ١ / ١٩٦ ، ٢١٨ إلى ٢٤٠ .

ونظرا إلى هذه الجراءة والغطرسة أخذ رسول الله ﷺ يجهز جيشا كبيرا في صفر سنة ١١ هـ ، وأمر عليه أسامة بن زيد بن حارثة ، وأمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ، يبغى بذلك إرهاب الروم وإعادة الثقة إلى قلوب العرب الضارين على الحدود ، حتى لا يحسبن أحد أن بطش الكنيسة لا معقب له ، وأن الدخول في الإسلام يجبر على أصحابه الختوف فحسب .

وتكلم الناس في قائده لحدائثة سنه ، واستبظأوا في بعثه ، فقال رسول الله ﷺ : إن تطعنوا في إمارته ، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل ، وإيم الله إن كان خليقا للإمارة ، وإن كان من أحب الناس إلى ، وإن هذا من أحب الناس إلى بعده (١) .

وانتدب الناس يلتفون حول أسامة ، وينتظمون في جيشه ، حتى خرجوا ونزلوا الجرف ، على فرسخ من المدينة ، إلا أن الأخبار المقلقة عن مرض رسول الله ﷺ أكرهتهم على التريث ، حتى يعرفوا ما يقضى الله به ، وقد قضى الله أن يكون هذا أول بعث ينفذ في خلافة أبي بكر الصديق (٢) .

إلى الرفيق الأعلى

طلائع التوديع :

لما تكاملت الدعوة ، وسيطر الإسلام على الموقف ، أخذت طلائع التوديع للحياة والأحياء تطلع من مشاعره ﷺ ، وتتضح بعباراته وأفعاله .

إنه اعتكف في رمضان من السنة العاشرة عشرين يوما ، بينما كان لا يعتكف إلا عشرة أيام من رمضان فحسب ، وتدارسه جبريل القرآن مرتين ، وقال في حجة الوداع : إني لا أدري لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدا ، وقال وهو عند جمرة العقبة : خذوا عني مناسككم ، فلعللى لا أحج بعد عامي هذا ، وأنزلت عليه سورة النصر في أوسط أيام التشريق ، فعرف أنه الوداع ، وأنه نعت إليه نفسه .

وفي أوئل صفر سنة ١١ هـ خرج النبي ﷺ إلى أحد ، فصلى على الشهداء كالمودع للأحياء والأموات ، ثم انصرف إلى المنبر فقال : إني فرطكم ، وإني شهيد عليكم ، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن ، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض ، أو مفاتيح الأرض ، وإني والله ما أخاف أن تشركوا بعدي ، ولكي أخاف عليكم أن تنافسوا فيها (٣) .

وخرج ليلة - في منتصفها - إلى البقيع فاستغفر لهم ، وقال : السلام عليكم يا أهل

(١) صحيح البخارى . باب بعث النبي ﷺ أسامة ٦١٢ / ٢ . (٢) المصدر السابق وابن هشام ٦٠٦ / ٢ ، ٦٥٠ .

(٣) متفق عليه ، صحيح البخارى ٥٨٥ / ٢ .

المقابر ليهن لكم ما أصبحتم فيه بما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، يتبع آخرها أولها ، الآخرة شر من الأولى ، وبشرهم قائلا : إنا بكم للاحقون .
بداية المرض :

وفى اليوم التاسع والعشرين من شهر صفر سنة ١١ هـ - وكان يوم الإثنين - شهد رسول الله ﷺ جنازة فى البقيع ، فلما رجع - وهو فى الطريق - أخذه صداع فى رأسه ، واتقدت الحرارة ، حتى إنهم كانوا يجدون سورتها فوق العصابة التى تعصب بها رأسه .
وقد صلى النبى ﷺ بالناس وهو مريض ١١ يوما ، وجمع أيام المرض كانت ١٣ أو ١٤ يوما .

الأسبوع الأخير :

وثقل برسول الله ﷺ المرض ، فجعل يسأل أزواجه : أين أنا غدا؟ أين أنا غدا؟ ففهم مراده ، فأذن له يكون حيث شاء ، فانتقل إلى عائشة يمشى بين الفضيل بن عباس وعلى بن أبى طالب ، عاصبا رأسه تخط قدماه حتى دخل بيتها فقضى عندها آخر أسبوع من حياته .
وكانت عائشة تقرأ بالمعوذات والأدعية التى حفظتها من رسول الله ﷺ ، فكانت تنفث على نفسه ، وتمسحه بيده رجاء البركة .

قبل الوفاة بخمسة أيام :

ويوم الأربعاء قبل أيام من الوفاة ، اتقدت حرارة العلة فى بدنه ، فاشتد به الوجع وغمى ، فقال : هريقوا على سبع قرب من آبار شتى ، حتى أخرج إلى الناس ، فأعهد إليهم ، فأقعدوه فى مخضب ، وصبوا عليه الماء ، حتى طفق يقول : « حسبكم ، حسبكم » وعند ذلك أحس بخفة ، فدخل المسجد - وهو معصوب الرأس - حتى جلس على المنبر ، وخطب الناس - والناس مجتمعون حوله - فقال :

« لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » - وفى رواية « قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد (١) » - وقال : لا تتخذوا قبرى وثنا يعبد (٢) .

وعرض نفسه للقصاص قائلا : « من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهري فليستقد منه ، ومن كنت شمت له عرضا فهذا عرضي فليستقد منه » .

ثم نزل فصلى الظهر ، ثم رجع فجلس على المنبر ، وعاد لمقاتته الأولى فى الشحناء وغيرها ، فقال رجل : إن لى عندك ثلاثة دراهم ، فقال : أعطه يا فضل ، ثم أوصى

(٢) موطأ الإمام ص ٦٥ .

(١) صحيح البخارى ١ / ٦٢ ، موطأ الإمام مالك ص ٣٦٠ .

بالأنصار قاتلا:

«أوصيكم بالأنصار، فإنهم كرشى وعيتى، وقد قضوا الذى عليهم، وبقي الذى لهم، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئتهم» وفى رواية أنه قال: «إن الناس يكثرون، وتقل الأنصار، حتى يكونوا كالمالح فى الطعام، فمن ولى منكم أمرا يضر فيه أحدا أو ينفعه فليقبل من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئتهم» (١)

ثم قال: «إن عبدا خيره الله أن يؤتیه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختر ما عنده» قال أبو سعيد الخدرى: فبكى أبو بكر. قال: فدينك بآبائنا وأمهاتنا. فعجبنا له، فقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ، يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيره الله بين أن يؤتیه زهرة الدنيا، وبين ما عنده، وهو يقول: فدينك بآبائنا وأمهاتنا، فكان رسول الله ﷺ هو الأخير، وكان أبو بكر أعلمنا (٢).

ثم قال رسول الله ﷺ: إن أمن الناس على فى صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذا خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن أخوة فى الإسلام ومودته، لا يبقين فى المسجد باب إلا سد إلا باب أبى بكر (٣).

قبل أربعة أيام:

ويوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام قال - وقد اشتد به الوجع - : هلموا أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده - وفى البيت رجال فيهم عمر - فقال عمر: قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبكم كتاب الله. فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم رسول الله ﷺ، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغط والاختلاف قال رسول الله ﷺ: قوموا عني (٤).

وأوصى ذلك اليوم بثلاث: أوصى بإخراج اليهود والنصارى والمشركين من جزيرة العرب، وأوصى بإجازة الوفود بنحو ما كان يجيزهم، أما الثالث فنسيه الراوى، ولعله الوصية بالاعتصام بالكتاب والسنة، أو تنفيذ جيش أسامة، أو هى «الصلاة وما ملكت أيمانكم».

والنبي ﷺ مع ما كان به من شدة المرض كان يصلى بالناس جميع صلواته حتى ذلك اليوم - يوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام - وقد صلى بالناس ذلك اليوم صلاة المغرب، فقرأ فيها بالمرسلات عرفا (٥).

(٢) متفق عليه، مشكاة المصابيح ٥٤٦/٢.

(١) صحيح البخارى ٥٣٦/١.

(٣) متفق عليه. مشكاة المصابيح ٥٤٨/٢، صحيح البخارى ١/٢٢، ٤٢٩، ٤٤٤٩، ٢/٢٣٨.

(٤) رواه البخارى عن أم الفضل باب مرض النبي ﷺ ٢/٢٣٧.

(٥) متفق عليه مشكاة المصابيح ١٠٢/١.

وعند العشاء زاد ثقل المرض ، بحيث لم يستطيع الخروج إلى المسجد . قالت عائشة : فقال النبي ﷺ : أصلي الناس ؟ قلنا : لا يا رسول الله ، وهم ينتظرونك قال : ضعوا لي ماء في الخضب . ففعلنا ، فاغتسل ، فذهب لينوء فأغمى عليه ، ثم أفاق ، فقال : أصلي الناس ؟ - ووقع ثانيا وثالثا ما وقع في المرة الأولى من الاغتسال ثم الإغماء حينما أراد أن ينوء - فأرسل إلى أبي بكر أن يصلي بالناس ، فصلى أبو بكر تلك الأيام (١) ؛ ١٧ صلاة في حياته ﷺ .

وراجعت عائشة النبي ﷺ ثلاث أو أربع مرات ؛ ليصرف الإمامة عن أبي بكر ، حتى لا يتشاءم به الناس ، فأبى ، وقال : إنكن صواحب يوسف . مروا أبا بكر فليصل بالناس .

قبل يوم أو يومين :

ويوم السبت أو الأحد وجد النبي ﷺ في نفسه خفة ، فخرج بين رجلين لصلاة الظهر ، وأبو بكر يصلي بالناس ، فلم يره أبو بكر ذهب ليتأخر ، فأوماً إليه بأن لا يتأخر ، قال : أجلساني إلى جنبه ، فأجلساه إلى يسار أبي بكر ، فكان أبو بكر يقتدى بصلاة رسول الله ﷺ ، ويسمع الناس التكبير (٢) .

قبل يوم :

وقبل يوم من الوفاة - يوم الأحد - أعتق النبي ﷺ غلامانه ، وتصدق بسبعة دنانير كانت عنده ، ووهب للمسلمين أسلحته ، وفي الليل استعارت عائشة الزيت للمصباح ، من جارتها ، وكانت درعه مرهونة عند يهودى بثلاثين صاعاً من الشعير .

آخر يوم من الحياة :

روى أنس بن مالك : أن المسلمين بينا هم في صلاة الفجر يوم الإثنين - وأبو بكر يصلي بهم - لم يفجأهم إلا رسول الله ﷺ كشف ستر حجرة عائشة فنظر إليهم ، وهم في صفوف الصلاة ، ثم تبسم يضحك ، فنكص أبو بكر على عقبيه ؛ ليصل الصف ، وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة . فقال أنس : وهم المسلمون أن يفتنوا في صلاتهم ، فرحاً برسول الله ﷺ ، فأشار إليهم بيده رسول ﷺ أن أتموا صلاتكم ، ثم دخل الحجرة وأرعى الستر (٣) .

ثم لم يأت على رسول الله ﷺ وقت صلاة أخرى .

ولما ارتفع الضحى ، دعا النبي ﷺ فاطمة فسارها بشيء فبكت . ثم دعاها ، فسارها بشيء فضحكت ، قالت عائشة ، فسألنا عن ذلك - أى فيما بعد - فقالت : سارنى النبي ﷺ أنه يقبض في وجهه الذى توفى فيه ، فبكيت ثم سارنى فأخبرنى أنى أول أهله يتبعه

(١) صحيح البخارى ١ / ٩٩ . (٢) صحيح البخارى ١ / ٩٨ ، ٩٩ .

(٣) نفس المصدر ، باب مرض النبي ﷺ ٢ / ٦٤٠ .

فضحكت (١) .

وبشر النبي ﷺ فاطمة بأنها سيدة نساء العالمين (٢) .

ورأت فاطمة ما برسول الله ﷺ من الكرب الشديد الذي يتغشاه ، فقالت : واكرباه . فقال لها : ليس على أبيك كرب بعد اليوم (٣) .

ودعا الحسن والحسين فقبلهما ، وأوصى بهما خيرا ، ودعا أزواجه فوعظهن وذكرهن .

وظفق الوجع يشتد ويزيد ، وقد ظهر أثر السم الذي أكله بخير حتى كان يقول : يا عائشة ، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخير ، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم (٤) .

وأوصى الناس ، فقال : « الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم » ، وكرر ذلك مرارا (٥) .

الاحتضار :

وبدأ الاحتضار فأسندته عائشة إليها ، وكانت تقول : إن من نعم الله على أن رسول الله ﷺ توفي في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري ، وأن الله جمع بين ريقى وريقه عند موته . دخل عبد الرحمن - بن أبي بكر - ويده السواك ، وأنا مسندة رسول الله ﷺ ، فرأيت أنه ينظر إليه ، وعرفت أنه يحب السواك فقلت آخذه لك ؟ فأشار برأسه أن نعم ، فتناولته ، فاشتد عليه ، وقلت : أليته لك ؟ وأشار برأسه أن نعم ، فلينته . فأمره - وفي رواية أنه استن بها كأحسن ما كان مستنأ - وبين يديه ركوة فيها ماء ، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه ، يقول : لا إله إلا الله ، إن للموت سكرات - الحديث - (٦) .

وما أن فرغ من السواك حتى رفع يده أو إصبعه ، وشخص بصره نحو السقف ، وتحركت شفتاه ، فأصغت إليه عائشة وهو يقول : مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، اللهم اغفر لي وارحمني ، وألحقني بالرفيق الأعلى ، اللهم الرفيق الأعلى (٧) .

كرر الكلمة الأخيرة ثلاثا ، ومالت يده ولحق بالرفيق الأعلى . إنا لله وإنا إليه راجعون . وقع هذا الحادث حين اشتدت الضحى من يوم الرثين ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ .

(١) صحيح البخارى ٢ / ٦٣٨ .

(٢) ويدل بعض الروايات أن هذا الحوار والبشارة لم يكن في آخر يوم من حياته في آخر أسبوع . رحمة للعالمين

(٣) صحيح البخارى ٢ / ٦٤١ . (٤) نفس المصدر ٢ / ٦٣٧ . (٥) نفس المصدر .

(٦) صحيح البخارى . باب مرض النبي ﷺ ٢ / ٦٤٠ .

(٧) نفس المصدر والباب ، وباب آخر ما تكلم النبي ﷺ ٢ / ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٠ ، ٦٤١ .

وقد تم له ﷺ ثلاث رسترن وزادت أربعة أيام .

تفاقم الأحزان على الصحابة :

وتسرب النبأ الفادح ، وأظلمت على المدينة أرجاؤها وآفاقها . قال أنس : ما رأيت يوماً قط كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل علينا فيه رسول الله ﷺ ، وما رأيت يوماً كان أقبح ولا أظلم من يوم مات فيه رسول الله ﷺ (١) .

ولما مات قالت فاطمة : يا أبتاه أجاب ربا دعاه . يا أبتاه ، فى جنة الفردوس مأواه . يا أبتاه ، إلى جبريل ننعاه (٢) .

موقف عمر :

ووقف عمر بن الخطاب - وقد أخرجه الخبر عن وعيه - يقول : إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفى ، وإن رسول الله ﷺ ما مات ، لكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فغاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات . والله ليرجعن رسول الله ﷺ . فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات (٣) .

موقف أبي بكر :

وأقبل أبو بكر على فرس من مسكنه بالسنيح حتى نزل ، فدخل المسجد ، فلم يكلم الناس ، حتى دخل على عائشة فتيّم رسول الله ﷺ ، وهو مغشى بثوب حبرة ، فكشف عن وجهه ، ثم أكب عليه ، فقبله وبكى ، ثم قال بأبى أنت وأمى ، لا يجمع الله عليك موتين ، أما الموتة التى قدمت عليك فقد متهتها .

ثم خرج أبو بكر وعمر يكلم الناس ، فقال : اجلس يا عمر . فأبى عمر أن يجلس ، فأقبل الناس إليه ، وتركوا عمر ، فقال أبو بكر : أما بعد ، من كان منكم يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات ، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت . قال الله : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزى الله الشاكرين ﴾ (٣ : ١٤٤) قال ابن عباس : والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر ، فتلقاها منه الناس كلهم ، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها .

قال ابن المسيب : قال عمر : والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلنى رجلاى ، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها ، علمت أن النبى ﷺ قد مات (٤) .

(٢) صحيح البخارى باب مرض النبى ﷺ ٢ / ٦٤١ .

(١) رواه الدارمى . مشكاة المصابيح ٢ / ٥٤٧ .

(٤) صحيح البخارى ٢ / ٦٤٠ ، ٦٤١ .

(٣) ابن هشام ٢ / ٦٥٥ .

التجهيز وتوديع الجسد الشريف إلى الأرض :

ووقع الخلاف فى أمر الخلافة قبل أن يقوموا بتجهيزه ﷺ، فجرت مناقشات ومجادلات وحوار وردود بين المهاجرين والأنصار فى سقيفة بنى ساعدة ، وأخيرا اتفقوا على خلافة أبى بكر رضى الله عنه، ومضى فى ذلك بقية يوم الإثنين حتى دخل الليل، وشغل الناس عن جهاز رسول الله ﷺ، حتى كان آخر الليل - ليلة الثلاثاء - مع الصبح، وبقي جسده المبارك على فراشه ، مغشى بثوب حبرة ، قد أغلق دونه الباب أهله .

ويوم الثلاثاء غسلوا رسول الله ﷺ من غير أن يجردوه من ثيابه، وكان القائمون بالغسل العباس وعليا ، والفضل وقثم ابنى العباس ، وشقران مولى رسول الله ﷺ ، وأسامة ابن زيد ، وأوس بن خولى . فكان العباس والفضل وقثم يقلبونه ، وأسامة وشقران يصبان الماء ، وعلى يغسله ، وأوس أسنده إلى صدره .

ثم كفنوه فى ثلاثة أثواب بيض سحولية من كرسف ، ليس فيها قميص ولا عمامة (١). ادرجوه فيها لإدراجا .

واختلفوا فى موضع دفنه ، فقال أبو بكر : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما قبض نبي إلا دفن حيث يقبض ، فرفع أبو طلحة فراشه الذى توفى عليه ، فحفر تحته ، وجعل القبر لحدا .

ودخل الناس الحجرة أرسالا عشرة فعشرة ، يصلون على رسول الله ﷺ ولا يؤمهم أحد وصلى عليه أولا أهل عشيرته ، ثم المهاجرون ، ثم الأنصار ، وصلت عليه النساء بعد الرجال ، ثم صلى عليه الصبيان .

ومضى فى ذلك يوم الثلاثاء كاملا ، حتى دخلت ليلة الأربعاء فقالت عائشة : ما علمنا بدفن رسول الله ﷺ حتى سمعنا صوت المساحى من جوف الليل من ليلة الأربعاء (٢).

البيت النبوى

(١) كان البيت النبوى فى مكة قبل الهجرة يتألف منه عليه الصلاة والسلام ، ومن زوجته خديجة بنت خويلد ، تروجها وهو فى خمس وعشرين من سنه ، وهى فى

(١) متفق عليه ، صحيح البخارى ١ / ١٦٩ ، صحيح مسلم ١ / ٣٠٦ .

(٢) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ٤٧١ ، وانظر لتفصيل لحوقه بالرفيق الأعلى : صحيح البخارى ، باب مرض النبي ﷺ وعدة أبواب بعده مع فتح البارى وصحيح مسلم ومشكاة المصابيح باب وفاة النبي ﷺ وابن هشام ٢ / ٦٤٩ إلى ٦٦٥ وتلقيح فهرم أهل الأثر ص ٣٨ ، ٣٩ ورحمة للعالمين ١ / ٢٧٧ إلى ٢٨٦ وتعيين عامة الأوقات من المصدر الأخير .

الأربعين، وهي أول من تزوجها من النساء، ولم يتزوج عليها غيرها،، وكان له منها أبناء وبنات، أما الأبناء، فلم يعيش منهم أحد، وأما البنات فهن: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، فأما زينب فتزوجها قبل الهجرة ابن خالتها أبو العاص بن الربيع، وأما رقية وأم كلثوم فقد تزوجهما عثمان بن عفان رضي الله عنه الواحدة بعد الأخرى، وأما فاطمة فتزوجها علي بن أبي طالب بين بدر وأحد، ومنها كان الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم.

ومعلوم أن النبي ﷺ كان ممتازا عن أمته بحل التزوج بأكثر من أربع زوجات لأغراض كثيرة، فكان عدد من عقد عليهن ثلاث عشرة امرأة، منهن تسع مات عنهن، واثنتان توفيتا في حياته، إحداهما خديجة، والأخرى أم المساكين زينب بن خزيمة، واثنتان لم يدخل بهما. وها هي أسماؤهن وشيء عنهن.

(٢) سودة بنت زمعة، تزوجها رسول الله ﷺ في شوال سنة عشر من النبوة، بعد وفاة خديجة بأيام، وكانت قبله عند ابن عم لها يقال له السكران بن عمرو، فمات عنها.

(٣) عائشة بنت أبي بكر الصديق، تزوجها في شوال سنة إحدى عشرة من النبوة، بعد زواجه بسودة بسنة، وقبل الهجرة بستتين وخمسة أشهر، تزوجها وهي بنت ست سنين، وبني بها في شوال بعد الهجرة بسبعة أشهر، وهي بنت تسع سنين، وكانت بكرًا ولم يتزوج بكرا غيرها، وكانت أحب الخلق إليه، وأفقه نساء الأمة، وأعلمهن على الإطلاق.

(٤) حفصة بنت عمر بن الخطاب، تأممت من زوجها خنيس بن حذافة السهمي بين بدر وأحد، فتزوجها رسول الله ﷺ سنة ٣ هـ.

(٥) زينب بنت خزيمة من بني هلال بن عامر بن صعصعة، وكانت تسمى أم المساكين لرحمتها إياهم ورقتها عليهم، كانت تحت عبد الله بن جحش، فاستشهد في أحد، فتزوجها رسول الله ﷺ سنة ٤ هـ. ماتت بعد الزواج بشهرين أو ثلاثة أشهر.

(٦) أم سلمة هند بنت أبي أمية، كانت تحت أبي سلمة، فمات عنها في جمادى الآخرة سنة ٤ هـ، فتزوجها رسول الله ﷺ في شوال من نفس السنة.

(٧) زينب بنت جحش بن رباب من بني أسد بن خزيمة، وهي بنت عمة رسول الله ﷺ، وكانت تحت زيد بن حارثة - الذي كان يعتبر ابنا للنبي ﷺ - فطلقها زيد، فأنزل الله تعالى يخاطب رسول الله ﷺ ﴿فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها﴾، وفيها نزلت من سورة الأحزاب آيات فصلت قضية التبني - وسأتي على ذكرها - تزوجها رسول الله ﷺ في ذي القعدة سنة خمس من الهجرة.

(٨) جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق من خزاعة ، كانت فى سبى بنى المصطلق فى سهم ثابت بن قيس بن شماس ، فكاتبها ، فقضى رسول الله ﷺ كتابتها ، وتزوجها فى شعبان سنة ٦ هـ .

(٩) أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان ، كانت تحت عبيد الله بن جحش ، وهاجرت معه إلى الحبشة ، فارتد عبيد الله وتنصر ، وتوفى هناك ، وثبتت أم حبيبة على دينها وهجرتها ، فلما بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري بكتابه إلى النجاشي فى المحرم سنة ٧ هـ خطب عليه أم حبيبة فزوجها إياه وبعث بها مع شرحبيل بن حسنة .

(١٠) صفية بنت حبي بن أخطب من بنى إسرائيل ، وكانت من سبى خيبر ، فاصطفاه رسول الله ﷺ لنفسه ، فأعتقها وتزوجها بعد فتح خيبر سنة ٧ هـ .

(١١) ميمونة بنت الحارث ، أخت أم الفضل لبابة بنت الحارث ، وتزوجها فى ذى القعدة سنة ٧ هـ ، فى عمرة القضاء ، بعد أن حل منها على الصحيح .

فهؤلاء إحدى عشرة سيدة تزوج بهن الرسول ﷺ ، وبنى بهن وتوفيت منهن اثنتان - خديجة وزينب أم المساكين - فى حياته ، وتوفى هو عن التسع البواقي .

وأما الاثنتان اللتان لم يبن بهما فواحدة من بنى كلاب وأخرى من كندة وهى المعروفة بالجونية وهناك خلافات لا حاجة إلى بسطها .

وأما السرارى فالمعروف أنه تسرى باثنتين إحداهما مارية القبطية ، أهداها له المقوقس فأولدها ابنه إبراهيم ، الذى توفى صغيرا بالمدينة فى حياته ﷺ ، فى ٢٨ أو ٢٩ من شهر شوال سنة ١٠ هـ وفق ٢٧ يناير سنة ٦٣٢ م . والسرية الثانية هى ربحانة بنت زيد النضرية أو القرظية ، كانت من سبايا قريظة ، فاصطفاه لنفسه ، وقيل : بل هى من أزواجه ﷺ ، وأعتقها فتزوجها . والقول الأول رجحه ابن القيم . وزاد أبو عبيدة اثنتين أخريين ، جميلة أصابها فى بعض السبى ، وجارية وهبتها له زينب بنت جحش (١) .

ومن نظر إلى حياة الرسول ﷺ عرف جيدا أن زواجه بهذا العدد الكثير من النساء فى أواخر عمره بعد أن قضى ما يقارب ثلاثين عاما من ريعان شبابه وأجود أيامه مقتصرًا على زوجة واحدة شبه عجوز - خديجة ثم سودة - عرف أن هذا الزواج لم يكن لأجل أنه وجد بغتة فى نفسه قوة عرمة من الشبق ، لا يصبر معها إلا بمثل هذا العدد الكثير من النساء ، بل كانت هناك أغراض أخرى أجل وأعظم من الغرض الذى يحققه عامة الزواج .

فاتجاه الرسول ﷺ إلى مصاهرة أبى بكر وعمر بزواجه بعائشة وحفصة - وكذلك تزويجه ابنته فاطمة بعلى بن أبى طالب ، وتزويجه ابنتيه رقية وأم كلثوم بعثمان ابن عفان -

(١) انظر زاد المعاد ٢٩/١

يشير إلى أنه ينبغي من وراء ذلك توثيق الصلات بالرجال الأربعة ، الذين عرف بلاءهم وفداءهم للإسلام في الأزمات التي مرت به ، وشاء الله أن يجتازها بسلام .

وكان من تقاليد العرب الاحترام للمصاهرة ، فقد كان الصهر عندهم بابا من أبواب التقرب بين البطون المختلفة ، وكانوا يرون مناوأة ومحاربة الأصهار سبة وعارا على أنفسهم فأراد رسول الله ﷺ بزواج عدة من أمهات المؤمنين أن يكسر سورة عداة القبائل للإسلام ، ويطفىئ حدة بغضائها ، كانت أم سلمة من بنى مخزوم - حتى أبى جهل وخالد بن الوليد - فلما تزوجها رسول الله ﷺ لم يقف خالد من المسلمين موقفه الشديد بأحد ، بل أسلم بعد مدة غير طويلة طائعا راعبا ، وكذلك أبو سفيان لم يواجه رسول الله ﷺ بأى محاربة بعد زواجه بابتنته أم حبيبة وكذلك لا نرى من قبيلتى بنى المصطلق وبنى النضير أى استفزاز وعداء بعد زواجه بجويرية وصفية ؛ بل كانت جويرية أعظم النساء بركة على قومها ، فقد أطلق الصحابة أسر مائة بيت من قومها حين تزوجها رسول الله ﷺ وقالوا : أصهار رسول الله ﷺ . ولا يخفى ما لهذا المن من الأثر البالغ فى النفوس .

وأكبر من كل ذلك وأعظم أن النبى ﷺ كان مأمورا بتزكية وتثقيف قوم لم يكونوا يعرفون شيئا من آداب الثقافة والحضارة والتقىد بلوازم المدنية ، والمساهمة فى بناء المجتمع وتعزيزه .

والمبادئ التى كانت أسسا لبناء المجتمع الإسلامى ، لم تكن تسمح للرجال أن يختلطوا بالنساء ، فلم يكن يمكن تثقيفهن مباشرة مع المراعاة لهذه المبادئ ، مع أن مسيس الحاجة إلى تثقيفهن لم يكن أهون وأقل من الرجال ، بل كان أشد وأقوى .

وإذن فلم يكن للنبى ﷺ سبيل إلا أن يختار من النساء المختلفة الأعمار والمواهب ما يكفى لهذا الغرض ، فيزكّيهن ويربيهن ، ويعلمهن الشرائع والأحكام . ويثقفهن بثقافة الإسلام حتى يعدهن لتربية البدويات والحضرىات ، العجائز منهن والشابات ، فيكفين مؤنة التبليغ فى النساء .

وقد كان لأمهات المؤمنين فضل كبير فى نقل أحواله - ﷺ - المنزلية للناس ، خصوصا من طالت حياته منهن كعائشة ، فإنها روت كثيرا من أفعاله وأقواله .

وهناك نكاح واحد كان لنقض تقليد جاهلى متأصل ، وهى قاعدة التبنى . وكان للمتبنى عند العرب فى الجاهلية جميع الحرمات والحقوق التى للابن الحقيقى سواء بسواء . وكانت قد تأصلت تلك القاعدة فى القلوب ، بحيث لم يكن محوها سهلا ، لكن كانت تلك القاعدة تعارض معارضة شديدة للأسس والمبادئ التى قررها الإسلام فى النكاح والطلاق والميراث وغير ذلك من المعاملات ، وكانت تلك القاعدة تجلب كثيرا من المفساد

والفواحش التي جاء الإسلام ؛ ليمحوها عن المجتمع .

ولهدم تلك القاعدة أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن ينكح ابنة عمته زينب بنت جحش ، وكانت تحت زيد ، ولم يكن بينهما توافق ، حتى هم زيد بطلاقها ، وذلك في ساعة تألب الأحزاب على رسول الله ﷺ والمسلمين ، وكان رسول الله ﷺ يخاف دعاية المنافقين والمشركين واليهود ، وما يثيرونه من الوساس والخرافات ضده ، وما يكون له من الأثر السيء في نفوس ضعفاء المسلمين ، فأحب أن لا يطلق زيد ؛ حتى لا يقع رسول الله ﷺ في هذا الامتحان .

ولا شك أن هذا التردد والانحياز كان لا يطابق مطابقة تامة للعزيمة التي بعث بها رسول الله ﷺ ، فعاتبه الله على ذلك وقال : ﴿ وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه : أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفى في نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾ (٣٣ : ٣٧)

وأخيرا طلقها زيد ، وتزوجها رسول الله ﷺ في أيام فرض الحصار على بنى قريظة بعد أن انقضت عدتها . وكان الله قد أوجب عليه هذا النكاح ، ولم يترك له خيارا ولا مجالا ، حتى تولى الله ذلك النكاح بنفسه يقول : ﴿ فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا ﴾ (٣٣ : ٣٧) وذلك ليهدم قاعدة التبنى فعلا كما هدمها قولا : ﴿ ادعوهم آبائهم هو أقسط عند الله ﴾ (٣٣ : ٥) . ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ (٣٣ : ٤٠) .

وكم من التقاليد المتأصلة الجازمة لا يمكن هدمها أو تعديلها لمجرد القول ، بل لا بد له من مقارنة فعل صاحب الدعوة ، ويتضح ذلك بما صدر من المسلمين في عمرة الحديبية . كان هناك أولئك المسلمون الذين رأهم عروة بن مسعود الثقفي ، لا يقع من النبي ﷺ نخامة إلا في يد أحدهم ، ورأهم يتبادرون إلى وضوئه حتى كادوا يقتتلون عليه ، نعم كان أولئك الذين تسابقوا إلى البيعة على الموت أو على عدم الفرار تحت الشجر والذين كان فيهم مثل أبي بكر وعمر ، لما أمر النبي ﷺ أولئك الصحابة المتفانين في ذاته - بعد عقد الصلح - أن يقوموا فينحروا هديهم لم يقيم لا متثال أمره أحد ، حتى أخذه القلق والاضطراب ، ولكن لما أشارت عليه أم سلمة أن يقوم إلى هديه فينحر ، ولا يكلم أحدا ففعل ، تبادر الصحابة إلى اتباعه في فعله ، فتسابقوا إلى نحر جزورهم . وبهذا الحادث يتضح جليا ما هو الفرق بين أثرى القول والفعل ليهدم قاعدة راسخة .

وقد أثار المنافقون وساس كثيرة ، وقاموا بدعايات كاذبة واسعة حول هذا النكاح ، أثر بعضها في ضعفاء المسلمين ، لا سيما أن زينب خامسة أزواجه ﷺ ، ولم يكن يعرف

المسلمون حل الزواج بأكثر من أربع نسوة وأن زيدا كان يعتبر ابنا للنبي ﷺ ، والزواج بزوجة الابن كان من أغلظ الفواحش ، وقد أنزل الله في سورة الأحزاب حول الموضوعين ما شفى وكفى وعلم الصحابة أن التبنى ليس له أثر عند الإسلام ، وأن الله تعالى وسع لرسوله ﷺ في الزواج ما لم يوسع لغيره ، لأغراضه النبيلة الممتازة .

هذا ، وكانت عشرته ﷺ مع أمهات المؤمنين في غاية الشرف والنبل والسمو والحسن كما كن في أعلى درجة من الشرف والقناعة والصبر والتواضع والخدمة والقيام بحقوق الزواج مع أنه كان في شظف من العيش لا يطيقه أحد . قال أنس : ما أعلم النبي ﷺ رأى رغيفا مرققا حتى لحق بالله ، ولا رأى شاة سميطا بعينه قط (١) . وقالت عائشة : إن كنا ننظر إلى الهلال ثلاثة أهلة في شهرين ما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار ، فقال لها عروة : ما كان يعشيكم ؟ قالت : الأسودان ؛ التمر والماء (٢) . والأخبار بهذا الصدد كثيرة .

ومع هذا الشظف والضيق لم يصدر منهن ما يوجب العتاب إلا مرة واحدة - حسب مقتضى البشرية ، وليكون سببا لتشريع الأحكام - فأنزل الله آية التخيير ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيِّنْتُهَا فَمَعَالِينِ أَمْ تَصْلِحُونَ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٣٣ : ٢٨ ، ٩) وكان من شرفهن ونبلهن أنهن آثرن الله ورسوله ، ولم تمل واحدة منهن إلى اختيار الدنيا .

وكذلك لم يقع منهن ما يقع بين الضرائر مع كثرتهم إلا شيء يسير من بعضهن حسب اقتضاء البشرية ، ثم عاتب الله عليه فلم يعدن له مرة أخرى وهو الذي ذكره الله في سورة التحريم بقوله ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ إلى تمام الآية الخامسة .

وأخيرا أرى أن لا حاجة إلى البحث في موضوع مبدأ تعدد الزوجات ، فمن نظر في حياة سكان أوربا الذين يصدر منهم النكير الشديد على هذا المبدأ ، ونظر إلى ما يقاسون من الشقاوة والمرارة ، وما يأتون من الفضائح والجرائم الشنيعة ، وما يواجهون من البليات والقلقل لانحرافهم عن هذا المبدأ كفى له ذلك عن البحث والاستدلال ، فحياتهم أصدق شاهد على عدالة هذا المبدأ ، وإن في ذلك عبرة لأولى الأبصار .

الصفات والأخلاق

كان النبي ﷺ يمتاز من كمال خلقه وكُمَل خلقه بما لا يحيط بوصفه البيان ، وكان من أثره أن القلوب فاضت بإجلاله ، والرجال تفسانوا في حياطته وإكباره ، بما لا تعرف الدنيا

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(١) صحيح البخارى ٩٥٦/٢ .

لرجل غيره ، فالذين عاشروه أحبه إلى حد الهيام ، ولم يبالوا أن تندق أعناقهم ولا يخذش له ظفر ، وما أحبه كذلك إلا لأن أنصبت من الكمال الذى يعشق عادة لم يرزق بمثلها بشر . وفيما يلى نورد ملخص الروايات فى بيان جماله وكماله مع اعتراف العجز عن الإحاطة .

جمال الخلق :

قالت أم معبد الخزاعية عن رسول الله ﷺ - وهى تصفه لزوجها حين مر بخيمتها مهاجرا - : ظاهر الوضأة ، أبلج الوجه ، حسن الخلق ، لم تعبته تجلة ولم تزر به صعلة ، وسيم قسيم ، فى عينيه دمع وفى أشفاره وطف ، وفى صوته ضحل ، وفى عنقه سطع ، أحور ، أكحل ، أزج ، أقرن ، شديد سواد الشعر ، إذا صمت علاه الوقار ، وإن تكلم علاه البهاء ، أجمل الناس وأبهام من بعيد ، وأحسنه وأحلاه من قريب ، حلو المنطق ، فضل ، لا نزر ، ولا هذر ، كأن منطق خرزات نظمن يتحدرن ، ربة ، لا تقحمه عين من قصر ولا تشنؤه من طول ، غصن بين غصنين ، فهو أنظر الثلاثة منظرا ، وأحسنهم قدرا ، له رفقاء يحفون به ، إذا قال استمعوا لقوله ، وإذا أمر تبادروا إلى أمره ، محفود ، محشود ، لا عابس ولا مفند (١) .

وقال على بن أبى طالب - وهوينعت رسول الله ﷺ - : لم يكن بالطويل الممغط ، ولا القصير المتردد ، وكان ربة من القوم ، ولم يكن بالجعد القطط ، ولا بالسبط ، وكان جعدا رجلا ، ولم يكن بالمطهم ولا بالمكثم وكان فى الوجه تدوير ، وكان أبيض مشربا ، أدعج العينين ، أهدب الأشفار ، جليل المشاش والكتد ، دقيق المسربة ، أجرد ، شثن الكفين والقدمين ، إذا مشى تقلع كأنما يمشى فى صيب ، وإذا التفت التفت معا ، بين كتفيه خاتم النبوة ، وهو خاتم النبيين ، أجود الناس كفا ، وأجرا الناس صدرا ، وأصدق الناس لهجة ، أوفى الناس ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من وآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ (٢) .

(١) زاد المعاد ٢ / ٤٥ : التجلة : ضخامة البدن . الصعلة : صغر الرأس . وسيم قسيم : حسن جميل . الدمعج : سواد العين . وفى أشفاره وطف : فى شعر أشفانه طول . صحل : بحة وخشونه ، سطع : طول . أزج : الحاجب الرقيق فى الطول . لا نزر ولا هذر : أى وسط لا قليل ولا كثير : محفود : الذى يخدمه أصحابه ويعظمونه ويسرعون فى طاعته . المحشود : الذى يجتمع إليه الناس .. ولا مفندا لا يفند أحد أى يهجنه ويستقل عقله بل جميل المعاشرة حسن الصحبة ، صاحبه كريم عليه .

(٢) ابن هشام ١ / ٤٠١ ، ٤٠٢ ، وجامع الترمذى مع شرحه تحفة الأحوذى ٤ / ٣٠٣ ، والممغط : المتناهى فى الطول . الجعد : ملتوى ومنقبض الشعر . القطط : شديد الجعودة . السبط : المسترسل . المطهم منتفخ الوجه وقيل الفاحش السمن ، وقيل النحيف الجسم المكثم : هو اجتماع لحم والوجه بلا جهرمة . أهدب الأشفار : طويل شعر الأجنان جليل المشاش : أى عظيم رؤوس العظام كالمرفقين والكتفين والركبتين . الكتد : مجتمع الكتفين وهو الكاهل : أجرد : هو الذى ليس على بدنه شعر المسربة : الشعر الدقيق الذى هو كأنه فضيب من الصدر إلى السرة . الشثن : الغليظ الأصابع من الكفين والقدمين . البديهة : المفاجأة .

وفى رواية عنه : أنه كان ضخماً الرأس ، ضخماً الكراديس ، طويل المسربة ، إذا مشى تكفأ تكفياً كأنما ينحط من صبيب (١). وقال جابر بن سمرة : كان ضليع الفم ، أشكل العين ، منهوس العينين (٢). وقال أبو الطفيل : كان أبيض ، مليح الوجه ، مقصداً (٣). وقال أنس بن مالك : كان بسط الكفين . وقال : كان أزهر اللون ، ليس بأبيض أمهق ، ولا آدم ، قبض وليس فى رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء (٤).

وقال : إنما كان شيء - أى من الشيب - فى صدغيه . وفى رواية : وفى الرأس نبذ (٥). وقال أبو جحيفة : رأيت بياضاً تحت شفته السفلى : العنقة (٦). وقال عبد الله بن بسر : كان فى عنقه شعرات بيض (٧). وقال البراء : كان مربوعاً بعيد ما بين المنكبين ، له شعر يبلغ شحمة أذنيه ، رأيت فى حلة حمراء ، لم أر شيئاً قط أحسن منه (٨). وكان يسدل شعره أولاً لحبه موافقة أهل الكتاب ، ثم فرق رأسه بعد (٩). قال البراء : كان أحسن الناس وجهها ، وأحسنهم خلقاً (١٠). وسئل : أكان وجه النبي ﷺ مثل السيف ؟ قال : لا ، بل مثل القمر . وفى رواية : كان وجهه مستديراً (١١). وقالت الربيع بنت معوذ : لو رأيت رأيت الشمس طالعة (١٢).

وقال جابر بن سمرة : رأيت فى ليلة أضحيان ، فجعلت أنظر إلى رسول الله ﷺ وإلى القمر - وعليه حلة حمراء - فإذا هو أحسن عندى من القمر (١٣).

وقال أبو هريرة : ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ ، كأن الشمس تجرى فى وجهه . وما رأيت أحداً أسرع فى مشيه من رسول الله ﷺ ، كأنما الأرض تطوى له ، وأنا لنجهد أنفسنا ، وإنه لغير مكترث (١٤).

(١) نفس المصدر الأخير . الكراديس : رؤوس العظام وقيل هى ملتقى كل عظمين ضخمين كالركبتين والمرفقين والمنكبين أراد أنه ضخماً الأعضاء .

(٢) صحيح مسلم ٢ / ٢٥٨ ضليع الفم : عظيم الفم . أشكل العين : طويل شق العين منهوس العين : قليل اللحم .

(٣) نفس المصدر . مقصداً : هو الذى ليس بجسيم ولا نحيف ولا طويل ولا قصير ...

(٤) صحيح البخارى ١ / ٥٠٢ . أزهر اللون : أبيض مشرب بحمرة . الأبيض الأمهق : شديد البياض كلون الجص .

الآدم : الأسمر والمعنى : ليس بأسمر ولا بأبيض كرية البياض بل أبيض بياضاً نيراً مشرباً .

(٥) نفس المصدر ، وصحيح مسلم ٢ / ٢٥٩ . والبند : بضم النون وفتح الباء أو بفتح النون وتسكين الباء ومعناها : شعرات متفرقة .

(٦) صحيح البخارى ١ / ٥٠١ ، ٥٠٢ .

(٧) نفس المصدر ١ / ٥٠٢ . (٨) نفس المصدر .

(٩) صحيح البخارى ١ / ٥٠٣ . (١٠) نفس المصدر ١ / ٥٠٢ ، وصحيح مسلم ٢ / ٢٥٨ .

(١١) صحيح البخارى ١ / ٥٠٢ ، وصحيح مسلم ٢ / ٢٥٩ .

(١٢) رواه الدارمى ... مشكاة المصابيح ٢ / ٥١٧ .

(١٣) رواه الترمذى فى الشمائل ص ٢ ، والدارمى ... مشكاة المصابيح ٢ / ٥١٨ .

(١٤) جامع الترمذى مع شرحه تحفة الأحوذى ٤ / ٣٠٦ ، مشكاة المصابيح ٢ / ٥١٨ .

وقال كعب بن مالك : كان إذا سراستار وجهه ، حتى كأنه قطعة قمر (١) .
وعرق مرة وهو عند عائشة ، فجعلت تبرك أسارير وجهه ، فتمثلت له بقول أبي كبير
الهدلى :

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل (٢) .
وكان أبو بكر إذا رآه يقول :

أمين مصطفى بالخير يدعو كضوء البدر زايله الظلام (٣) .
وكان عمر ينشد قول زهير في هرم بن سنان :

لو كنت من شيء سوى البشر كنت المضىء ليلة البدر
ثم يقول كذلك كان رسول الله ﷺ (٤) .

وكان إذا غضب احمر وجهه ، حتى كأنما فقىء وجنته حب الرمان (٥) .
وقال جابر بن سمرة : كان في ساقيه حموشة وكان لا يضحك إلا تبسما ، وكنت إذا
نظرت إليه قلت : أكحل العينين ، وليس بأكحل (٦) .

قال ابن العباس : كان أفلج الثنيتين ، إذا تكلم روى كالنور يخرج من بين ثناياه (٧) .
وأما عنقه فكانه جيد دمية في صفاء الفضة ، وكان في أشفاره غطف ، وفي لحيته
كثافة ، وكان واسع الجبين ، أزج الحواجب في غير قرن بينهما ، أقنى العينين ، سهل
الخددين ، من لبتة إلى سرته شعر يجرى كالقضب ، ليس في بطنه ولا صدره شعر غيره ،
أشعر الذراعين والمنكبين ، سواء البطن والصدر ، مسيح الرأس عريضة ، طويل الزند ،
رحب الراحة ، سبط القصب ، خمصان الأخمصين ، سائل الأطراف ، إذا زال زال قلعا ،
يخطر تكفيا ويمشى هونا (٨) .

وقال أنس : ما مسست حريرا ولا ديباجا ألين من كف النبي ﷺ ولا شممت ريحا

(١) صحيح البخارى ١ / ٥٠٢ . (٢) رحمة للعالمين ٢ / ١٧٢ .

(٣ ، ٤) خلاصة السير ص ٢٠ .

(٥) مشكاة المصابيح ١ / ٢٢ ، ورواه الترمذى في أبواب القدر : باب ما جاء في التشديد في الخوض في القدر ٢ / ٣٥ .

(٦) جامع الترمذى مع شرحه تحفة الأحوذى ٤ / ٣٠٦ . والحموشة : أى دقة ولطافة متناسبة لسائر أعضائه .

(٧) رواه الدارمى ... مشكاة المصابيح ٢ / ٥١٨ . والأفلج : الذى بين زسنانه تباعد . والثنايا : أسنان مقدمة الفم .

(٨) خلاصة السير ص ١٩ ، ٢٠ الجيد : العتق . الدمية : الصورة المصورة . الأقى : الذى ارتفع أعلى أنفه واحذردب

وسطه وضاق منخراه . والعرنين : الأنف وما صلب منه . سبط القصب : الممتد الذى ليس فيه تعقد ولا تنوء ،

والقصب يريد بها ساعديه وساقيه . الأخمص من القدم : الموضع الذى لا يلصق بالأرض منها عند الوطء ،

والخمصان : المبالغ منه أى أن ذلك الموضع من أسفل قدميه شديد التجافى عن الأرض .

قط أو عرفا قط ، وفي رواية : ما شمت عنبرا قط ولا مسكا ولا شيئا ، أطيب من ريح أو عرف رسول الله ﷺ (١) .

وقال أبو جحيفة : أخذت بيده ، فوضعتها على وجهي ، فإذا هي أبرد من الثلج : وأطيب رائحة من المسك (٢) وقال جابر بن سمرة - وكان صبيا - : مسح خدي فوجدت ليده بردا أو ريحا كأنما أخرجها من جونة عطار (٣) .

وقال أنس : كأن عرقه اللؤلؤ . وقالت أم سليم : هو من أطيب الطيب (٤) .

وقال جابر : لم يسلك طريقا فيتبعه أحد إلا عرف أنه قد سلكه من طيب عرفه ، أو قال : من ريح عرقه (٥) .

وكان بين كتفيه خاتم النبوة مثل بيضة الحمامة ، يشبه جسده ، وكان عند ناغض كتفه اليسرى ، جمعا عليه خيلان كأمثال التأليل (٦) .

كمال النفس ومكارم الأخلاق :

كان النبي ﷺ يمتاز بفصاحة اللسان ، وبلاغة القول ، وكان من ذلك بالمحل الأفضل ، والموضع الذي لا يجهل ، سلاسة طبع . ونصاعة لفظ ، وجزالة قول ، وصحة معان ، وقلة تكلف ، أوتى جوامع الكلم ، وخص ببدايع الحكم ، وعلم السنة العرب ، يخاطب كل قبيلة بلسانها ، ويحاورها بلغتها ، اجتمعت له قوة عارضة البادية وجزالتها ، ونصاعة أفاض الحاضرة ورونق كلامها ، إلى التأيد الإلهي الذي مدده الوحي .

وكان الحلم والاحتمال ، والعفو عند المقدرة ، والصبر على المكاره ، صفات أدبه الله بها ، وكل حلیم قد عرفت منه زلة ، وحفظت عنه هفوة ، ولكنه ﷺ لم يزد مع كثرة الأذى إلا صبرا ، وعلى إسراف الجاهل إلا حلما ، قالت عائشة : ما خسر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما ، فإن كان إثما كان أبعد الناس عنه ، وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها (٧) ، وكان أبعد الناس غضبا وأسرعهم رضا .

وكان من صفة الجود والكرم على ما لا يقادر قدره كان يعطي عطاء من لا يخاف فقرا ، قال ابن عباس : كان النبي ﷺ أجود الناس ، وأجود ما يكون رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان ، فيدارسه القرآن ، فلرسول الله ﷺ

(١) صحيح البخارى ١/ ٥٠٣ ، صحيح مسلم ٢/ ٢٥٧ . (٢) صحيح البخارى ١/ ٥٠٢ .

(٣) صحيح مسلم ٢/ ٢٥٦ . جونة عطار : التي يعد فيه الطيب ويحوز .

(٤) نفس المصدر . (٥) رواه الدارمي ... مشكاة المصابيح ٢/ ٥١٧ .

(٦) صحيح مسلم ٢/ ٢٥٩ . ٢٦٠ . والتأليل : هو هذه الحبة التي تظهر في الجلد كالحمصة فما دونها .

(٧) صحيح البخارى ١/ ٥٣ .

أجود بالخير من الريح المرسلة (١) . وقال جابر . ما سئل شيئا قط فقال : لا (٢) .

وكان من الشجاعة والنجدة والبأس بالمكان الذى لا يجهل ، كان أشجع الناس ، حضر المواقف الصعبة ، وفر عنه الكمأة والأبطال غير مرة ، وهو ثابت لا يبرح ، ومقبل لا يدبر ، ولا يتزعزع ، وما شجاع إلا وقد أحصيت له فرة ، وحفظت عنه جولة سواه ، قال على : كنا إذا حمى البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله ﷺ ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه (٣) . قال أنس : فزع أهل المدينة ذات ليلة ، فانطلق ناس قبل الصوت ، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعا ، وقد سبقهم إلى الصوت ، وهو على فرس لأبى طلحة عرى ، فى عنقه السيف ، وهو يقول : لم تراعوا ، لم تراعوا (٤) .

وكان أشد الناس حياء وإغضاء ، قال أبو سعيد الخدرى : كان أشد حياء من العذراء فى خدرها ، وإذا كره شيئا عرف فى وجهه (٥) وكان لا يثبت نظره فى وجه أحد ، يخاف من الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، جل نظره الملاحظة ، لا يشافه أحدا بما يكرهه حياء وكرم نفس ، وكان لا يسمى رجلا بلغ عنه شيء يكرهه ، بل يقول ، ما بال أقوام يصنعون كذا . وكان أحق الناس بقول الفرزدق :

يغضى حياء ويغضى من مهابته فلا يكلم إلا حين يتشم

وكان أعدل الناس ، وأعفهم ، وأصدقهم لهجة ، وأعظمهم أمانة ، اعترف له بذلك محبوه وأعداؤه ، وكان يسمى قبل نبوته الأمين ، ويتحاكم إليه فى الجاهلية قبل الإسلام ، روى الترمذى عن على أن أبا جهل قال له : إنا لانكذبك ، ولكن نكذب بما جئت به ، فأنزل الله تعالى فيهم ﴿ فَإِنَّهُمْ يَكذِبُونَ ﴾ ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴿ (٦) . (٦ : ٣٣) وسأل هرقل أبا سفيان ، هل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا .

وكان أشد الناس تواضعا ، وأبعدهم عن الكبر ، يمنع عن القيام له كما يقومون للملوك وكان يعود المساكين ، ويجالس الفقراء . ويجيب دعوة العبد ، ويجلس فى أصحابه كأحدهم ، قالت عائشة : كان يخصف نعله ، ويخيط ثوبه ، ويعمل بيده كما يعمل أحدكم فى بيته . ، وكان بشرا من البشر يفلى ثوبه ، ويحلب شاته ، ويخدم نفسه (٧) .

كان أوفى الناس بالعهود ، وأوصلهم للرحم ، وأعظم شفقة ورأفة ورحمة بالناس ، وأحسن الناس عشرة وأدبا ، وأبسط الناس خلقا ، أبعد الناس من سوء الأخلاق ، لم يكن فاحشا ، ولا متفحشا ، ولا لعانا ، ولا صخابا فى الأسواق ، ولا يجزى السيئة بالسيئة ،

(٢) نفس المصدر ١ / ٥٠٢ .

(١) صحيح البخارى ١ / ٥٠٢ .

(٣) انظر الشفاء للقاضى عياض ١ / ٨٩ ومثل ذلك روى أصحاب الصحاح والسنن .

(٤) صحيح مسلم ٢ / ٢٥٢ ، وصحيح البخارى ١ / ٤٠٧ . (٥) صحيح البخارى ١ / ٥٠٤ .

(٦) مشكاة المصابيح ٢ / ٥٢١ . (٧) نفس المصدر ٢ / ٥٢٠ .

ولكن يعفو ويصفح ، وكان لا يدع أحدا يمشى خلفه ، ، وكان لا يترفع على عبده وإمائه في مأكل ولا ملابس ، ويخدم من خدمه ، ولم يقل لخدمه أف قط ، ولم يعاتبه على فعل شيء أو تركه ، وكان يحب المساكين ويجالسهم ويشهد جنازتهم ، ولا يحقر فقيرا لفقره . كان في بعض أسفاره فأمر بإصلاح شاة فقال رجل : على ذبحها وقال آخر : على سلقها ، وقال آخر : على طبخها ، فقال ﷺ : وعلى جمع الحطب ، فقالوا : نحن نكفيك . فقال قد علمت أنكم تكفوني ، ولكني أكره أن أتميز عليكم ، فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه ، وقام وجمع الحطب (١) .

ولترك هند بن أبى هالة يصف لنا رسول الله ﷺ ؛ قال هند فيما قال : كان رسول الله ﷺ متواصلا الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ، ولا يتكلم في غير حاجة ، طويل السكوت ، يفتح الكلام ويختمه بأشداقه - لا بأطراف فمه - ويتكلم بجوامع الكلم ، فصلا لا فضول فيه ولا تقصير ، دمثا ليس بالجافى ولا بالمهين ، يعظم النعمة وإن دقت ، لا يدم شيئا ، ولم يكن يذم ذواقا - ما يطعم - ولا يمدحه ، ولا يقام لغضبه إذا تعرض للحق بشيء حتى ينتصر له ، لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها - سماحة - وإذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها ، وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غص طرفه ، جل ضحكه التبسم ، ويفتر عن مثل حب الغمام .

وكان يخزن لسانه إلا عما يعنيه ، يؤلف أصحابه ولا يغرقهم ، يكرم كريم كل قوم ، ويؤليه عليهم ، ويحذر الناس ، ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره .

يتفقد أصحابه ، ويسأل الناس عما فى الناس ، ويحسن الحسن ويصوبه ويقبح القبيح ويوهنه ، معتدل الأمر ، غير مختلف ، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يملوا ، لكل حال عنده عتاد ، لا يقصر على الحق ، ولا يجاوزه إلى غيره ... الذين يلونه من الناس خيارهم ، وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة .

كان لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر ، ولا يوطن الأماكن - لا يميز لنفسه مكانا - إذا انتهى إلى القوم جلس حيث ينتهى به المجلس ، ويأمر بذلك ويعطى كل جلسائه نصيبه ؛ حتى لا يحسب جلسيه أن أحد أكرم عليه منه ، من جالسه أو قاومه لحاجته صابرة حتى يكون هو المنصرف عنه ، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول ، وقد وسع الناس بسطه وخلقه ، فصار لهم أبا ، وصاروا عنده فى الحق متقاربين يتفاضلون عنده بالتقوى ، مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة ، لا ترفع فيه الأصوات ، ولا تؤبن فيه الحرم - لا تخشى فلتاته - يتعاطفون بالتقوى ، يوقرون الكبير ، ويرحمون الصغير ، ويرفدون ذا الحاجة ، ويؤنسون الغريب .

كان دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا صخاب ، لا فحاش ، ولا عتاب ، ولا مداح ، يتغافل عما لا يشتهي ، ولا يقنط منه ، قد ترك نفسه من ثلاث : الرياء ، والإكثار ، وما لا يعنيه ، وترك الناس من ثلاث :

لا يذم أحداً ولا يعيره ، ولا يطلب عورته ، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه ، إذا تكلم طرق جلساؤه ، كأنما على رؤوسهم الطير ، وإذا سكت تكلموا ، لا يتنازعون عنده لحديث ، من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ ، حديثهم حديث أولهم ، يضحك مما يضحكون منه ، ويعجب مما يعجبون منه ، ويصبر للغريب على الجفوة في المنطق ، ويقول : إذا رأيتم صاحب الحاجة يطلبها فأرفدوه ، ولا يطلب الشاء إلا من مكافئ^(١) .

وقال خارجة بن زيد : كان النبي ﷺ أوقر الناس في مجلسه ، لا يكاد يخرج شيئاً من أطرافه ، وكان كثير السكوت ، لا يتكلم في غير حاجة ، يعرض عن تكلم من غير جميل ، كان ضحكته تبسماً ، وكلامه فصلاً ، لا فضول ولا تقصير ، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم ، توقير له واقتداء به^(٢) .

وعلي الجملة فقد كان النبي ﷺ محلي بصفات الكمال المنقطعة النظير ، وأدبه ربه فأحسن تأديبه ، حتى خاطبه مثنيا عليه فقال : ﴿ وإني لك لعلى خلق عظيم ﴾ (٦٨ : ٤) وكانت هذه الخلال مما قرب إليه النفوس ، وحبه إلى القلوب ، وصيره قائداً تهوى إليه الأفئدة ، وألان من شكيمة قومه بعد الإباء ، حتى دخلوا في دين الله أفواجا .

وهذه الخلال التي أتينا على ذكرها خطوط قصار من مظاهر كماله وعظيم صفاته ، أما حقيقة ما كان عليه من الأمجاد والشمائل فأمر لا يدرك كنهه ، ولا يسبر غوره ، ومن يستطيع معرفة كنه أعظم بشر في الوجود بلغ أعلى قمة من الكمال ، استضاء بنور ربه ، حتى صار خلقه القرآن ؟

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد .

اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد .

صفى الرحمن المباركفوري

١٣ / ١١ / ١٣٩٦ هـ - ٦ / ١١ / ١٩٧٦ م

الجامعة السلفية بنارس الهند

(١) انظر الشفا للقاضي عياض ١ / ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، وانظر أيضا شمائل الترمذي .

(١) نفس المصدر ١ / ١٠٧ .

ثبت المراجع

- ١ - إخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام
شهاب الدين أحمد بن محمد الأسدي المكي (م ١٠٦٦ هـ)
المطبعة السلفية بنارس الهند ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م.
- ٢ - الأدب المفرد
محمد بن إسماعيل البخاري (٣٥٦ هـ) طبع استامبول ١٣٠٤ هـ.
- ٣ - الأعلام
خير الدين الزركلي . الطبعة الثانية القاهرة ١٩٥٤ م
- ٤ - البداية والنهاية
إسماعيل بن كثير الدمشقي مطبعة السعادة مصر ١٩٣٢ م.
- ٥ - بلوغ المرام من أدلة الأحكام
أحمد بن حجر العسقلاني (٧٧٣ - ٨٥٣ هـ) المطبع القومي كانفور الهند ١٣٢٣ هـ
- ٦ - تاريخ أرض القرآن
السيد سليمان الندوي (١٣٧٣ هـ) معارف بريس أعظم كده - الهند ١٩٥٥ م
(الطبعة الرابعة) .
- ٧ - تاريخ إسلام
شاه أكبر خان نجيب آبادي مكتبة رحمت ديوبند سلوبي الهند .
- ٨ - تاريخ الأمم والملوك
ابن جرير الطبري المطبعة الحسينية المصرية .
- ٩ - تاريخ عمر بن الخطاب
أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي مطبعة التوفيق الأدبية بمصر .
- ١٠ - تحفة الأحوذى
أبو العلي عبد الرحمن المباركفوري (م ١٣٥٣ هـ - ١٩٣٥ م) جيد برقي بريس
دهلي الهند ١٣٤٦ - ١٣٥٣ هـ .

١١ - تفسير ابن كثير

إسماعيل بن كثير الدمشقي دار الأندلس بيروت .

١٢ - تفهيم القرآن

الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودي مركزى مكتبة جماعت إسلامى الهند .

١٣ - تلقيح فهم أهل الأثر

أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى (م ٥٩٧ هـ) جيد برقى بريس ديلى الهند .

١٤ - جامع الترمذى

أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى (٢٠٩ هـ - ٢٧٩ هـ) المكتبة
(الرشيديّة دهلى الهند) .

١٥ - الجهاد فى الإسلام (الأردو) .

الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودي ، إسلامك بليكشنز لميد لاهور (باكستان)
الطبعة الرابعة ١٩٦٧ م .

١٦ - خلاصة السير

محب الدين أبو جعفر أحمد بن عبدالله الطبرى م ٦٧٤ هـ دلى برنثينك بريس
دهلى الهند ١٣٤٣ هـ .

١٧ - رخمة للعالمين .

محمد سليمان سلمان المنصور فورى (م ١٩٣٠ م) حنيف بكديو دلى .

١٨ - رسول أكرم سياسى زندكى

الدكتور حميد الله ، بارس سالم كمبينى ديوبنديو - بى الهند ١٩٦٣ م .

١٩ - الروض الأنف

أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهلى (٥٠٨ - ٥٨١ هـ) المطبعة الجمالية
بمصر ١٣٣٢ هـ / ١٩١٤ م .

٢٠ - زاد المعاد

شمس الدين أبو عبد الله محمد بن بكر بن أيوب المعروف بابن القيم (٦٩١ - ٧٥١)
المطبعة المصرية الطبعة الأولى ١٣٤٧ - ١٩٢٨ م .

٢١ - سفر التكوين

٢٢ - سسن ابن ماجه

أبو عبد الله بن محمد يزيد بن ماجه القزوينى (٢٠٩ - ٢٧٣ هـ) .

٢٣ - سنن أبى داود

أبو داود سليمان بن الأشعث السجستانى ٢٠٢ - ٢٧٥ هـ ج ١ المطبع المجيدى
كانفور الهند ١٣٧٥ هـ ٢ المكتبة الرحيمية ديوبند يو الهند .

٣٤ - سنن النسائى

أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائى (٢١٥ - ٣٠٣ هـ) المكتبة السلفية لاهور
(باكستان)

٢٥ - السيرة الحلبية

ابن برهان الدين .

٢٦ - السيرة النبوية

أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى (٢١٣ أو ٢١٨ هـ) شركة مكتبة
ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر الطبعة الثانية ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م .

٢٧ - شرح شذور الذهب

أبو محمد عبد الله جمال الدين يوسف المعروف بابن هشام الأنصارى (٧٠٨ -
٧٦١) مطبعة السعادة بمصر .

٢٨ - شرح صحيح مسلم

أبو زكريا محيى الدين يحيى بن شرف النووى (٦٧٦ هـ) المكتبة الرشيدية دهلى
الهند ١٣٧٦ هـ .

٢٩ - شرح المواهب اللدنية

الزرقانى نسخة عتيقة مخرومة الأوائل .

٣٠ - الشفا بتعريف حقوق المصطفى

القاضى عياض مطبعة عثمانية استانبول ١٣١٢ هـ .

٣١ - صحيح البخارى

محمد بن إسماعيل البخارى (٢٥٦ هـ) المكتبة الرحيمية (ديوبند الهند) ١٣٨٤ -
١٣٨٧ هـ .

٣٢ - صحيح مسلم

مسلم بن الحجاج القشيرى المكتبة الرشيدية دهلى الهند ١٣٧٦ هـ .

٣٣ - صحيفة حقوق

٣٤ - صلح الحديبية

محمد أحمد باشميل (الطبعة الثانية دار الفكر ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م) .

٣٥ - الطبقات الكبرى

محمد بن سعد مطبعة بريل ليدن ١٣٢٢ هـ .

٣٦ - عون المعبود شرح أبي داود

أبو الطيب شمس الحق العظيم آبادي (الطبعة الأولى الهندية) .

٣٧ - غزوة أحد

محمد أحمد باشميل (الطبعة الثانية) .

٣٨ - غزوة بدر الكبرى

محمد أحمد باشميل (الطبعة الثالثة) ١٣٧٦ هـ - ١٩٦٧ م .

٣٩ - غزوة خيبر

محمد أحمد باشميل (الطبعة الثانية) دار الفكر ١٣٩١ - ١٩٧١ .

٤٠ - غزوة بني قريظة

محمد أحمد باشميل (الطبعة الأولى) ١٣٧٦ هـ - ١٩٦٦ م .

٤١ - فتح الباري

أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣ - ٨٥٢ هـ) المطبعة السلفية ومكتبتها ،
الروضة . القاهرة .

٤٢ - فقه السيرة

محمد الغزالي . دار الكتاب العربي بمصر الطبعة الثانية ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م .

٤٣ - في ظلال القرآن

سيد قطب ، دار إحياء التراث ببيروت لبنان الطبعة الثالثة .

٤٤ - القرآن الكريم

٤٥ - قلب جزيرة العرب

فؤاد حمزة المطبعة السلفية ومكتبتها ، الروضة بمصر ١٣٥٢ هـ - ١٩٢٣ م .

٤٦ - ماذا خسر العالم بالخطايا المسلمين

السيد أبو الحسن علي الحسن الندي الطبعة الرابعة مكتبة دار العروبة القاهرة

١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م .

٤٧ - محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية

الشيخ محمد الحضري بك ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، الطبعة الثامنة ١٣٨٢ هـ .

٤٨ - مختصر سيرة الرسول

شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب التميمي النجدي (م ١٢٠٦ هـ) مطبعة السنة المحمدية القاهرة الطبعة الأولى ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م .

٤٩ - مختصر سيرة الرسول

الشيخ عبد الله بن محمد النجدي آل الشيخ (م بمصر ١٢٤٢ هـ) المطبعة السلفية ومكتبتها الروضة بمصر ١٣٧٩ / هـ .

٥٠ - مدارك التنزيل

للنسفي .

٥١ - مراعاة المفاتيح ج ٢

الشيخ أبو الحسن عبيد الله الرحمانى المباركفوري نامى بريس لکنڈ الہند ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٨ م .

٥٢ - مروج الذهب

أبو الحسن على المسعودي مطبعة الشرق الإسلامية القاهرة .

٥٣ - المستدرک

أبو عبد الله محمد الحاكم النيسابوري دائرة المعارف العثمانية حيدرآباد . الهند .

٥٤ - مسند أحمد

الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (٢٦٤ هـ) .

٥٥ - مسند الدارمي

أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي ١٨١ - ٢٥٥ هـ .

٥٦ - مشكاة المصابيح

ولي الدين محمد بن عبد الله التبريزي ، والمكتبة الرحيمية ديوبند يوبى - الهند .

٥٧ - معجم البلدان

ياقوت الحموي .

٥٨ - المواهب اللدنية

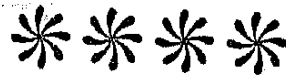
للقسطلانى المطبعة الشرقية ١٣٣٦ هـ ، ١٩٠٧ م .

٥٩ - موطأ الإمام مالك

الإمام مالك بن أنس الأصبحى (م ١٦٩ هـ) المكتبة الرحيمية ديوبند يونى - الهند .

٦٠ - وفاء الوفا

على بن أحمد السهمودى .



فهرس الموضوعات

الصفحة

الموضوع

٥	كلمة معالى الشيخ محمد على الحر كان .
٨	كلمة المؤلف
١٥ - ٩	موقع العرب وأقوامها
٩	موقع العرب
١٠	أقوام العرب
٢٥ - ١٦	الحكم والإمارات فى العرب
١٦	المملك باليمن .
١٨	المملك بالحيرة
١٩	المملك بالشام
١٩	الإمارة بالحجاز
٢٤	الحكم فى سائر العرب
٢٤	الحالة السياسية
٢٥	ديانات العرب
٣١	الحالة الدينية
٣٦ - ٣١	صور من المجتمع العربى الجاهلى
٣٢	الحالة الاجتماعية
٣٤	الحالة الاقتصادية
٣٤	الأخلاق
٤١ - ٣٦	نسب النبى ﷺ وأسرته
٣٦	نسب النبى ﷺ .

٣٧ الأسرة النبوية
٤٩-٤١ المولد وأربعون عاما قبل النبوة
٤١ المولد
٤٢ فى بنى سعد
٤٣ إلى أمه الحنون
٤٤ إلى جده العطوف
٤٤ إلى عمه الشفيق
٤٤ يستسقى الغمام بوجهه
٤٥ بحيرا الراهب
٤٥ حرب الفجار
٤٥ حلف الفصول
٤٦ حياة الكدح
٤٦ زواجه خديجة
٤٧ بناء الكعبة وقضية التحكيم
٤٨ السيرة الإجمالية قبل النبوة
٥٦-٤٩ فى ظلال النبوة والرسالة
٤٩ فى غار حراء
٥٠ جبريل ينزل بالوحى
٥٢ فترة الوحى
٥٣ جبريل ينزل بالوحى مرة ثانية
٥٣ استطراد فى بيان أقسام الوحى
٥٤ أمر القيام بالدعوة إلى الله وموادها

٥٦	أدوار الدعوة ومراحلها
٥٩-٥٧	المرحلة الأولى (جهاد الدعوة)
٥٧	ثلاث سنوات من الدعوة السرية
٥٧	الرعي الأول
٥٨	الصلاة
٥٩	الخبر يبلغ إلى قريش إجمالاً
٩٤-٥٩	المرحلة الثانية (الدعوة جهاراً)
٥٩	أول أمر بإظهار الدعوة
٦٠	الدعوة في الأقربين
٦٠	على جبل الصفا
٦١	الصدع بالحق وردود فعل المشركين
٦٢	وفد قريش إلى أبي طالب
٦٢	المجلس الاستشاري لكف الحجاج عن استماع الدعوة
٦٣	أساليب شتى لمجابهة الدعوة
٦٥	الاضطهادات
٧٩	دار الأرقم
٧٩	الهجرة الأولى إلى الحبشة
٨٢	مكيدة قريش بمهاجرة الحبشة
٨٥	قريش يهددون أبا طالب
٨٥	قريش بين يدي أبي طالب مرة أخرى
٨٦	فكرة الطغاة في إعدام النبي ﷺ
٨٨	إسلام حمزة رضي الله عنه

٨٨	إسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه
٩٢	ممثل قريش بين يدي الرسول ﷺ
٩٣	أبو طالب بجمع بنى هاشم وبنى عبد المطلب
٩٩-٩٤	المقاطعة العامة
٩٤	ميثاق الظلم والعدوان
٩٥	ثلاثة أعوام فى شعب أبى طالب
٩٥	نقض صحيفة الميثاق
٩٧	آخر وفد قريش إلى أبى طالب
٩٩-١٠٧	عام الحزن
٩٩	وفاة أبى طالب
٩٩	خديجة إلى رحمة الله
١٠٠	تراكم الأحزان
١٠١	الزواج بسودة رضى الله عنها
١٠١	عوامل الصبر والثبات
١٠٧-١١٠	المرحلة الثالثة (دعوة الإسلام خارج مكة)
١٠٧	الرسول ﷺ فى الطائف
١١٠-١٢٠	عرض الإسلام على القبائل والأفراد
١١٠	القبائل التى عرض عليها الإسلام
١١١	المؤمنون من غير أهل مكة
١١٤	ست نسيمات طيبة من أهل يثرب
١١٦	استطراد - تزويج رسول الله ﷺ بعائشة
١١٦	الإسراء والمعراج

١٢٣-١٢٠	بيعة العقبة الأولى
١٢١	سفير الإسلام في المدينة
١٢١	النجاح المغتبط
١٢٩-١٢٣	بيعة العقبة الثانية
١٢٤	بداية المحادثة وتشريح العباس لخطورة المسئولية
١٢٥	بنود البيعة
١٢٥	التأكيد من خطورة البيعة
١٢٦	عقد البيعة
١٢٧	اثنا عشر نقيباً
١٢٧	نقباء الخزرج
١٢٧	نقباء الأوس
١٢٧	شيطان يكشف المعاهدة
١٢٨	استعداد الأنصار لضرب قريش
١٢٨	قريش تقدم الاحتجاج إلى رؤساء يثرب
١٢٨	تأكد الخبر لدى قريش ومطاردة المبايعين
١٢٩	طلائع الهجرة
١٣٤-١٣١	في دار الندوة (برلمان قريش)
١٣٣	النقاش البرلماني والاجتماعي على قرار غاشم بقتل النبي ﷺ
١٤٤-١٣٤	هجرة النبي ﷺ
١٣٤	تطويق منزل الرسول ﷺ
١٣٥	الرسول ﷺ يغادر بيته
١٣٦	من الدار إلى الغار

١٣٦	إذ هما فى الغار
١٣٨	فى الطريق إلى المدينة
١٤١	النزول بقاء
١٤٣	الدخول فى المدينة
١٥٩-١٤٤	الحياة فى المدينة
١٤٦	المرحلة الأولى - الحالة الراهنة فى المدينة عند الهجرة
١٨٧	بناء مجتمع جديد
١٥١	بناء المسجد النبوى
١٥٢	المؤاخاه بين المسلمين
١٥٤	ميثاق التحالف الإسلامى
١٥٥	أثر المعنويات فى المجتمع
١٥٧	معاهدة مع اليهود - بنود المعاهدة
١٢٧-١٥٩	الكفاح الدامى
١٥٩	استفزازات قريش ضد المسلمين
١٩٨	إعلان عزيمة الصد عن المسجد الحرام
١٦٠	قريش تهدد المهاجرين
١٦٠	الإذن بالقتال
١٦١	الغزوات والسرايا قبل بدر
١٩١-١٦٧	غزوة بدر الكبرى
١٦٧	سبب الغزوة
١٦٧	مبلغ قوة الجيش الإسلامى وتوزيع القيادات
١٦٨	الجيش الإسلامى يتحرك نحو بدر

النذير في مكة	١٦٨
أهل مكة يتجهزون للغزو	١٦٨
قوام الجيش المكي	١٦٩
مشكلة قبائل بني بكر	١٦٩
جيش مكة يتحرك	١٦٩
الغير تفلت	١٦٩
هزم الجيش المكي بالرجوع	١٧٠
حراجة موقف الجيش الإسلامي	١٧٠
المجلس الاستشاري	١٧٠
الجيش الإسلامي يواصل سيره	١٧٢
الرسول ﷺ يقوم بعملية الاستكشاف	١٧٢
الحصول على أهم المعلومات عن الجيش المكي	١٧٢
نزول المطر	١٧٣
الجيش الإسلامي يسبق إلى أهم المراكز العسكرية	١٧٣
مقر القيادة	١٧٣
تعبئة الجيش وقضاء الليل	١٧٤
الجيش المكي في عرصه القتال	١٧٤
الجيشان يترآان	١٧٥
ساعة الصفر وأول وقود المعركة	١٧٦
المبارزة	١٧٦
الهجوم العام	١٧٧
الرسول ﷺ يناشد ربه	١٧٧

١٧٧	نزول الملائكة
١٧٩	الهجوم المضاد
١٨٠	إبليس ينسحب عن ميدان القتال
١٨٠	الهزيمة الساحقة
١٨٠	صمود أبى جهل
١٨١	مصرع أبى جهل
١٨٢	من روائع الإيمان فى هذه المعركة
١٨٤	قتلى الفريقين
١٨٥	مكة تتلقى نبأ الهزيمة
١٨٧	المدينة تتلقى أنباء النصر
١٨٧	الجيش النبوى يتحرك نحو المدينة
١٨٨	وفود التهئة
١٨٩	قضية الأسارى
١٩٠	القرآن يتحدث حول موضوع المعركة
١٩١-٢٠٣	النشاط العسكرى بين بدر وأحد
١٩٢	غزوة بنى سليم بالكدر
١٩٣	مؤامرة لاغتيال النبى ﷺ
١٩٤	غزوة بنى قينقاع
١٩٤	نموذج من مكيدة اليهود
١٩٥	بنو قينقاع ينقضون العهد
١٩٧	الحصار ثم التسليم ثم الجلاء
١٩٧	غزوة السويق

١٩٨	غزوة ذى أمر
١٩٩	قتل كعب بن الأشرف
٢٠١	غزوة بخران
٢٠١	سرية زيد بن حارثة
٢٣٨-٢٠٣	غزوة أحد
٢٠٣	استعداد قريش لمعركة ناقمة
٢٠٤	قوام جيش قريش وقيادته
٢٠٤	جيش مكة يتحرك
٢٠٤	الاستخبارات النبوية تكشف حركة العدو
٢٠٤	استعداد المسلمين للطوارئ
٢٠٥	الجيش المكي إلى أسوار المدينة
٢٠٥	المجلس الاستشاري لأخذ خطة الدفاع
٢٠٦	تكتيب الجيش الإسلامي وخروجه إلى ساحة القتال
٢٠٧	استعراض الجيش
٢٠٧	المبيت بين أحد والمدينة
٢٠٧	تمرد عبد الله بن أبي وأصحابه
٢٠٨	بقايا الجيش الإسلامي إلى أحد
٢٠٩	خطة الدفاع
٢١٠	الرسول ﷺ ينفث روح البسالة في الجيش
٢١٠	تعبئة الجيش المكي
٢١١	مناورات سياسية من قبل قريش
٢١١	جهود نسوة قريش في التحميس

٢١٢	أول وقود المعركة
٢١٢	ثقل المعركة حول اللواء وإبادة حملته
٢١٣	القتال في بقية النقاط
٢١٤	مصرع أسد الله خمزة بن عبد المطلب
٢١٥	السيطرة على الموقف
٢١٥	من أحضان المرأة إلى مقارعة السيوف والدرقة
٢١٥	نصيب فصيلة الرماة في المعركة
٢١٥	الهزيمة تنزل بالمشركون
٢١٦	غلطة الرماة الفظيعة
٢١٧	خالد بن الوليد يقوم بخطة تطويق الجيش الإسلامي
٢١٧	موقف الرسول الباسل إزاء عمل التطويق
٢١٧	تبدد المسلمين في الموقف
٢١٩	احتدام القتال حول رسول الله ﷺ
٢١٩	أخرج ساعة في حياة الرسول ﷺ
٢٢١	بداية تجمع الصحابة حول الرسول ﷺ
٢٢٢	تضاعف ضغط المشركين
٢٢٣	البطولات النادرة
٢٢٤	إشاعة مقتل النبي ﷺ وأثره على المعركة
٢٢٤	الرسول ﷺ يواصل المعركة وينقذ الموقف
٢٢٥	مقتل أبي بن خلف
٢٢٧	طلحة ينهض بالنبي ﷺ
٢٢٧	آخر هجوم قام به المشركون

٢٢٧	تشويه الشهداء
٢٢٧	مدى استعداد أبطال المسلمين للقتال حتى نهاية المعركة
٢٢٨	بعد انتهاء الرسول ﷺ إلى الشعب
٢٢٩	شماته أبي سفيان بعد نهاية المعركة وحديثه مع عمر
٢٢٩	مواعدة التلاقي في بدر
٢٣٠	التثبت من موقف المشركين
٢٣٠	تفقد القتلى والجرحى
٢٣١	جمع الشهداء ودفنهم
٢٣٢	الرسول ﷺ يثنى على ربه عز وجل ويدعوه
٢٣٢	الرجوع إلى المدينة ، ونوادير الحب والتفاني
٢٣٣	الرسول ﷺ في المدينة
٢٣٣	قتلى الفريقين
٢٣٤	حالة الطوارئ في المدينة
٢٣٤	غزوة حمراء الأسد
٢٣٧	القرآن يتحدث حول موضوع المعركة
٢٣٨	الحكم والغايات المحمودة في هذه الغزوة
٢٦٣-٢٣٨	السرايا والبعوث بين أحد والأحزاب
٢٣٩	سرية أبي سلمة
٢٣٩	بعث عبد الله بن أنيس
٢٤٠	بعث الرجيع
٢٤١	مأساة بئر معونة
٢٤٢	غزوة بني النضير

٢٤٥	غزوة نجد
٢٤٦	غزوة بدر الثانية
٢٤٧	غزوة دومة الجندل
٢٤٨	غزوة الأحزاب
٢٥٩	غزوة بني قريظة
٢٦٣-٢٦٨	النشاط العسكري بعد هذه الغزوة
٢٦٣	مقتل سلام بن أبي الحقيق
٢٦٥	سرية محمد بن مسلمة
٢٦٦	غزوة بني لحيان
٢٦٦	متابعة البعوث والسرايا
٢٦٨-٣٤٥	غزوة بني المصطلق أو غزوة المريسيع
٢٦٩	دور المنافقين قبل غزوة بني المصطلق
٢٧١	دور المنافقين في غزوة بني المصطلق
٢٧٢	١- قول المنافقين « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل »
٢٧٣	٢- حديث الإفك
٢٧٦	البعوث والسرايا بعد غزوة المريسيع
٢٢٧-	وقعة الحديبية
٢٢٧	سبب عمرة الحديبية
٢٧٨	استفسار المسلمين
٢٧٨	المسلمون يتحركون إلى مكة
٢٧٨	محاولة قريش ضد المسلمين عن البيت
٢٧٩	تبديل الطريق ومحاولة الاجتناب عن اللقاء الدامي

٢٧٩	بديل يتوسط بين رسول الله ﷺ وقريش
٢٨٠	رسل قريش
٢٨٠	هو الذى كف أيديهم عنكم
٢٨١	عثمان بن عفان سفيراً إلى قريش
٢٨١	إشاعة مقتل عثمان وبيعة الرضوان
٢٨٢	إبرام الصلح وبنوده
٢٨٢	رد أبى جندل
٢٨٣	النحر والحلق للحل عن العمرة
٢٨٣	الإباء عن رد المهاجرات
٢٨٤	ماذا يتمخض عن بنود المعاهدة
٢٨٥	حزن المسلمين ومناقشة عمر مع النبى ﷺ
٢٨٦	انحلت أزمة المستضعفين
٢٨٦	إسلام أبطال من قريش
٢٨٧	المرحلة الثانية (طور جديد)
٢٨٨	مكاتبة الملوك والأمراء
٢٨٨	١ - الكتاب إلى النجاشى ملك الحبشة
٢٩٠	٢ - الكتاب إلى المقوقس ملك مصر
٢٩١	٣ - الكتاب إلى كسرى ملك فارس
٢٩٢	٤ - الكتاب إلى قيصر ملك الروم
٢٩٤	٥ - الكتاب إلى المنذر بن ساوى
٢٩٢	٦ - الكتاب إلى هوزة بن على صاحب اليمامة
٢٩٥	٧ - كتاب إلى الحارث بن أبى ثمر الغسانى صاحب دمشق

٢٩٥	٨ - الكتاب إلى ملك عمان
٢٩٧	النشاط العسكري بعد صلح الحديبية
٢٩٧	غزوة الغابة أو غزوة ذي قرد
٢٩٩	غزوة خيبر وادى القرى
٢٩٩	سبب الغزوة
٢٩٩	الخروج إلى خيبر
٣٠٠	عدد الجيش الإسلامى
٣٠٠	اتصال المنافقين باليهود
٣٠٠	الطريق إلى خيبر
٣٠١	بعض ما وقع فى الطريق
٣٠٢	الجيش الإسلامى إلى أسوار خيبر
٣٠٢	التهيؤ للقتال وحصون خيبر
٣٠٣	بدء المعركة وفتح حصن ناعم
٣٠٤	فتح حصن الصعب بن معاذ
٣٠٥	فتح قلعة الزبير
٣٠٥	فتح قلعة أبى
٣٠٥	فتح حصن النزار
٣٠٦	فتح الشطر الثانى من خيبر
٣٠٦	المفاوضة
٣٠٧	قتل ابنى أبى الحقيق لنقض المعاهدة
٣٠٧	قسمة الغنائم
٣٠٨	قدوم جعفر بن أبى طالب والأشعرين

٣٠٩	الزواج بصفية
٣٠٩	أمر الشاة المسمومة
٣٠٩	قتلى الفريقين فى معارك خبير
٣١٠	فدك
٣١٠	وادی القرى
٣١١	تيماء
٣١١	العودة إلى المدينة
٣١١	سرية أبان بن سعيد
٣١٢	بقية السرايا والغزوات فى السنة السابعة
٣١٢	غزوة ذات الرقاع
٣١٥	عمرة القضاء
٣١٧	معركة مؤتة
٣١٧	سبب المعركة
٣١٨	أمرأء الجيش ووصية رسول الله ﷺ
٣١٨	توديع الجيش الإسلامى وبكاء عبد الله بن رواحة
٣١٨	تحرك الجيش الإسلامى ومباغتته حالة رهبة
٣١٩	المجلس الاستشارى بمعان
٣١٩	الجيش الإسلامى يتحرك نحو العدو
٣١٩	بداية القتال وتناوب القواد
٣٢٠	الراية إلى سيف من سيوف الله
٣٢١	نهاية المعركة
٣٢١	قتلى الفريقين

٣٢٢ أثر المعركة
٣٢٢ سرية ذات السلاسل
٣٢٣ سرية أبي قتادة إلى خضرة
٣٢٣ غزوة فتح مكة
٣٢٤ سبب الغزوة
٣٢٥ أبو سفيان يخرج إلى المدينة ليجدد الصلح
٣٢٧ التهيؤ للغزوة ومحاولة الإخفاء
٣٢٨ الجيش الإسلامي يتحرك نحو مكة
٣٢٩ الجيش الإسلامي ينزل بمر الظهران
٣٢٩ أبو سفيان بين يدي رسول الله ﷺ
٣٣٠ الجيش الإسلامي يغادر مر الظهران إلى مكة
٣٣١ قريش تباغت زحف الجيش الإسلامي
٣٣٢ الجيش الإسلامي بذي طوى
٣٣٢ الجيش الإسلامي يدخل مكة
٣٣٣ الرسول ﷺ يدخل المسجد الحرام ويطهره من الأصنام
٣٣٣ الرسول ﷺ يصلى فى الكعبة ثم يخطب أمام قريش
٣٣٤ مفتاح البيت إلى أهله
٣٣٤ بلال يؤذن على الكعبة
٣٣٤ صلاة الفتح أو صلاة الشكر

٣٣٤	إهدار دماء رجال أكابر المجرمين
٣٣٥	إسلام صفوان بن أمية وفضالة بن عمير
٣٣٦	خطبة الرسول ﷺ في اليوم الثاني من الفتح
٣٣٦	تخوف الأنصار من بقاء رسول الله ﷺ في مكة
٣٣٦	أخذ البيعة
٣٣٧	إقامته ﷺ بمكة وعمله فيها
٣٣٧	السرايا والبحوث
٣٣٩	المرحلة الثالثة
٣٤٠	غزوة حنين
٣٤٠	مسير العدو ونزوله بأوطاس
٣٤٠	مغرب الحروب يغلط رأى القائد
٣٤١	سلاح استكشاف العدو
٣٤١	سلاح استكشاف رسول الله ﷺ
٣٤١	الرسول ﷺ يغادر مكة إلى حنين
٣٤٢	الجيش الإسلامي يباغت الرماة المهاجمين
٣٤٢	رجوع المسلمين واحتدام المعركة
٣٤٣	انكسار حدة العدو وهزيمته الساحقة
٣٤٣	حركة المطاردة
٣٤٣	الغنائم

٣٤٤	غزوة الطائف
٣٤٥	قسمة الغنائم بالجمرة
٣٤٦	الأنصار تجد على رسول الله ﷺ
٣٤٧	قدوم وفد هوازن
٣٤٧	العمرة والانصراف إلى المدينة
٣٤٨	البعوث والسرايا بعد الرجوع من غزوة الفتح
٣٤٨	المصدقون
٣٤٩	السرايا
٣٥١	غزوة تبوك
٣٥٢	سبب الغزوة
٣٥٢	الأخبار العامة عن استعداد الرومان وغسان
٣٥٣	الأخبار الخاصة عن استعداد الرومان وغسان
٣٥٣	زيادة خطورة الموقف
٣٥٤	الرسول ﷺ يقرر القيام بإقدام حاسم
٣٥٤	الإعلان بالتهيؤ لقتال الرومان
٣٥٤	المسلمون يتسابقون إلى التجهز للغزو
٣٥٦	الجيش الإسلامي إلى تبوك
٣٥٦	الجيش الإسلامي بتبوك
٣٥٧	الرجوع إلى المدينة

٣٥٨	المخلفون
٣٥٩	أثر الغزوة
٣٥٩	نزول القرآن حول موضوع الغزوة
٣٦٠	بعض الوقائع المهمة فى هذه السنة
٣٦٠	حج أبى بكر رضى الله عنه
٣٦١	نظرة على الغزوات
٣٦٣	الناس يدخلون فى دين الله أفواجا
٣٦٣	الوفود
٣٧٢	نجاح الدعوة وأثرها
٣٧٣	حجة الوداع
٣٧٧	آخر البعوث
٣٧٨	إلى الرفيق الأعلى
٣٧٨	طلائع التوديع
٣٧٩	بداية المرض
٣٧٩	الأسبوع الأخير
٣٧٩	قبل الوفاة بخمسة أيام
٣٨٠	قبل أربعة أيام
٣٨١	قبل يوم أو يومين
٣٨١	قبل يوم

٣٨١	آخر يوم من الحياة
٣٨٢	الاحتضار
٣٨٣	تفاقم الأحزان على الصحابة
٣٨٣	موقف عمر
٣٨٣	موقف أبي بكر
٣٨٤	التجهيز وتوديع الجسد الشريف إلى الأرض
٣٨٤	البيت النبوي
٣٨٩	الصفات والأخلاق
٣٩٠	جمال الخلق
٣٩٣	كمال النفس ومكارم الأخلاق
٣٩٧	ثبت المراجع
٤٠٣	الفهرس

